سبيل الرشاد

في

هدي خير العباد

تصنيف

العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي

رحمه الله تعالى

(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)

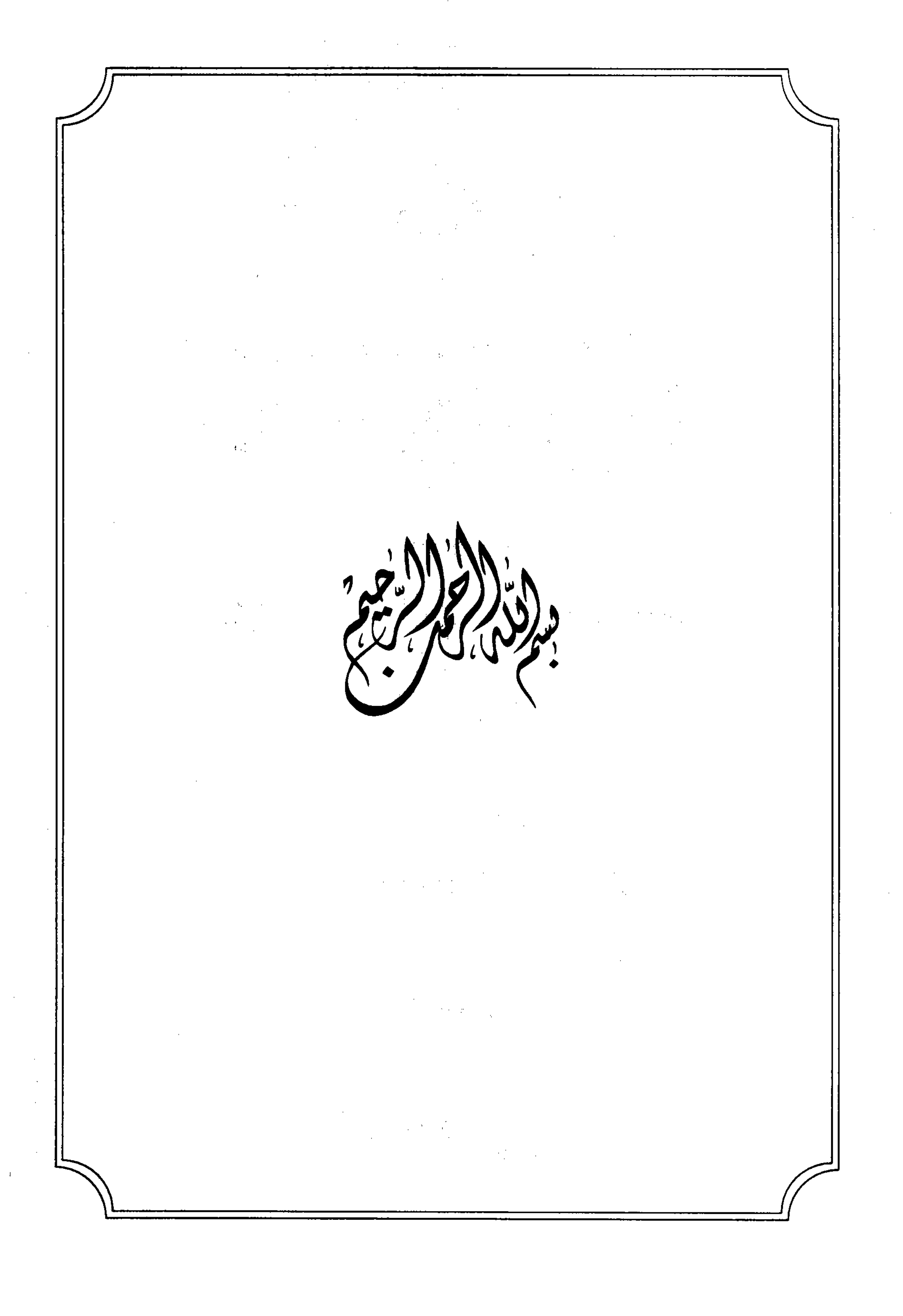
(١٨٩٣ - ١٩٨٧ م)

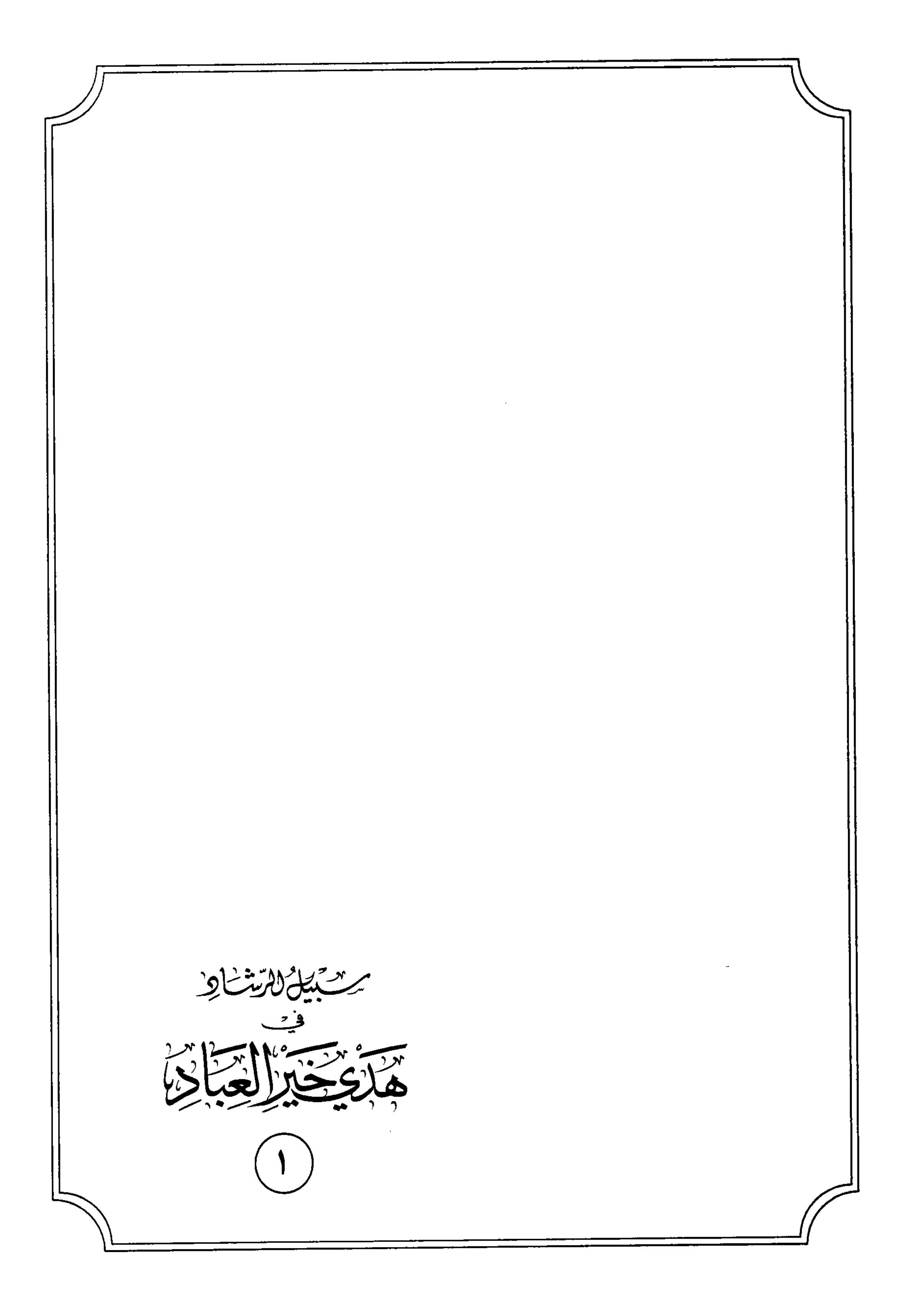
قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الجزء الأول

الدار الأثرية


بسم الله الرحمن الرحيم


سبيل الرشاد
في
هدي خير العباد
١

الطبعة الأولى

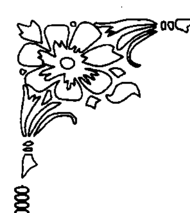
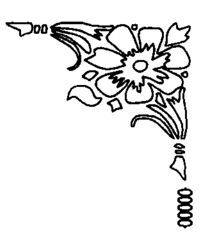
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



عمان - الأردن - تلفاكس : ٦٥٦٥٨٠٤٥ / ٠٠٩٦٢

خلوي : ٧٩٥٩٤٣٤٥٦ / ٠٠٩٦٢ - ص.ب : ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي : ١١١٩٠

الرمز الإلكتروني : alatharya1423@yahoo.com

قالوا عن الكتاب

* هذه نعمة عظيمة كنت أتمناها على الله تعالى منذ عشرات السنين.

المؤلف الهلالي في «سبيل الرشاد» (٦/٣٠٦)

* الغرض من تأليف هذا الكتاب إقامة البراهين على وجوب اتباع الكتاب والسنّة وترك التفرُّق والتحزُّب بشكل مذاهب أو طرائق أو أحزاب.

المؤلف الهلالي في «سبيل الرشاد» (٣/١٤٤)

* أنا الآن أؤلّف كتاباً، سمّيته «سبيل الرشاد»؛ إن يسّر الله إتمامه وطبعه، فسيغني كل مؤمن حنيف عن غيره من كتب الوعظ، فأدعو الله أن يعينني على إتمامه ونشره.

الهلالي في «العيون الزلالية» (ق٣٣١)

* أهم أمور الدين: توحيد الله تعالى في ربوبيته، فلا رب غيره، وفي عبادته فلا يعبد غيره، وفي أسمائه وصفاته فلا يشاركه فيها غيره، وفي الاتباع فلا يتبع إلا وحيه، وهو القرآن والحديث الثابت، وعلى هذه الأربعة نويت أن أؤلف هذا الكتاب، وقد بدأته وتمامه على الله، فاتباع توحيد الله بأنواعه الأربعة فرض على كل مسلم، والإعراض عن المشركين بمخالفتهم والبراءة منهم واجب حتم.

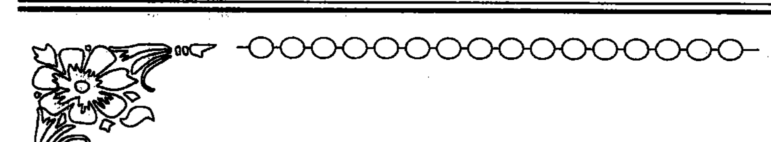
المؤلف الهلالي في «سبيل الرشاد» (١/٣٦١)

* كان الهلالي سلفي العقيدة، لو قرأت كتابه في التوحيد ـ يعني: «سبيل الرشاد» ـ لعلمتَ منه أنه لا يعرف في التوحيد الذي في القرآن مثله.

العلّامة حماد الأنصاري في «المجموع» (٢/٦١٧)

* إذا قرأت سبيلاً للرشاد فعن ذلك السبيل من الأغواء تبتعدُ

تلميذه محمد بنعبود من قصيدة نشرها في جريدة «الإصلاح» المغربية، العدد السابع




قالوا عن المؤلف

* كان العلّامة الألباني يعد الهلالي ضمن خمسة لم يرَ مثلهم البتة في العلم والتحقيق، وهم: ابن باز، تقي الدين الهلالي، وعبد الرحمٰن المباركفوري، بديع الدين السندي، الشنقيطي ـ رحمهم الله تعالى أجمعين ـ.

العلّامة الإمام محدث الديار الشامية الألباني

* في الحقيقة لم ألتقِ مع رجل يحوي علماً جمّاً في فنون عديدة مثل الدكتور الهلالي، وقد مضت عليّ الآن خمس وأربعون سنة لم أرَ مثله.

المحدث العلّامة حماد الأنصاري

* إن محمد تقي الدين الهلالي المغربي أفضل من جاءكم من علماء الآفاق، فأرجو أن تستفيدوا منه.

العلّامة محمد رشيد رضا للملك عبد العزيز آل سعود

* الهلالي من أفاضلنا الذين أجمع على الاعتراف بفضلهم الشرق والغرب، والعرب والعجم، والمسلمون وغير المسلمين، فهو في الحجاز نار على عَلَم شهرةً وفضلاً، وفي الهند تبوّأ منصة التدريس في أرقى جامعاتها، وفي العراق معروف بدؤابه على خدمة هذه الأمة، وحرصه على خيرها، وهو الآن في ألمانيا موضع الحرمة من أركان جامعة (بُن) التي يتولى التدريس فيها. فالأستاذ الهلالي رجل عالمي، واسع النظر، واقف على أحوال الشرق والغرب.

العلّامة محب الدين الخطيب

* للغرب الإفريقي ابن عالم بار، نسله بنو هلال، وأنجبه المغرب الأقصى، هو العلّامة الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي المدرّس بالهند، لهذا الأستاذ شهرة علمية إصلاحية عظيمة بالشرق، ومقالات رنّانة في صحفه.

العلّامة عبد الحميد بن باديس

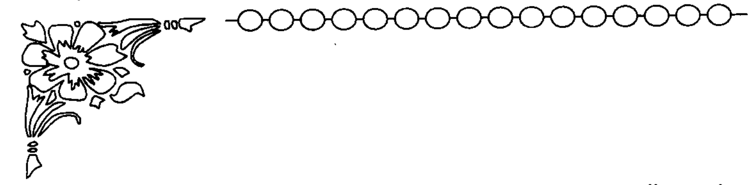
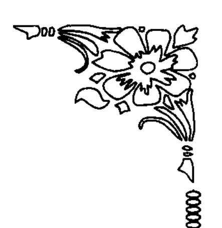
بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فهذا كتاب يكاد يكون دُرّةً فريدة في المكتبة الإسلامية، إذ فيه عرض للمعتقد مرتّباً على أنواعه حسب وروده في القرآن الكريم، وأقامه الشارح على القرآن أصالة، وذكر تحت الآيات الأحاديث التي تناسبها، والآثار التي تلائمها، ونصر فيه عقيدة السلف بلغة سهلة، وحجة قوية، ولم يتعرض إلا للشبه السيّارة الموجودة في هذا العصر، وأكثر من النقل عن كتب أئمة السلف قديماً وحديثاً(١).

(١) انظرها تحت (طريقة تأليف الكتاب ومصادره فيه).

نسبة كتاب «سبيل الرشاد» ومدحه وثناء العلماء عليه

كتاب «سبيل الرشاد» ثابت النسبة للهلالي، فقد طبع جلّه في حياته(١)، وأملاه من حفظه، مع مراجعات ونقولات من كتب عديدة، يأتي ذكرها.

نعم، لم يذكره الهلالي ضمن قائمة مؤلفاته فيما كتب به للمجذوب(٢)، ذلك أن تأليفه لهذا الكتاب كان متأخّراً، فهو من أواخر ما كتب، وأحبّ كتبه إليه، وأكثرها فائدة، وأوسعها علماً، وأكبرها حجماً، ووجدته يذكره في فتاواه المسماة «العيون الزلالية» (ق٣٣١)، وسيأتي كلامه بحروفه قريباً.

وممن ذكره له العلّامة الإمام فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله قال: «ومن مؤلفاته الأخيرة «سبيل الرشاد»»(٣).

وتلميذ المصنف الأستاذ عمر محسن في مقدمته للكتاب(٤)، وعنه الترجمة

---

(١) وجدت في مقالة نشرت في صحيفة «الميثاق» المغربية، العدد (١٣٨) السنة (٢٤) بتاريخ فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ تحت عنوان (وفاة الدكتور تقي الدين الهلالي): «ومن آخر ما ألف كتاب «سبيل الرشاد» في عدة مجلدات، أخرج منها اثنين».

(٢) ونشره المجذوب في كتابه القيم «علماء ومفكرون عرفتهم»، وسرد (٣٧) مؤلفاً، وفاته الشيء الكثير، ذلك أن الذي كتبه الهلالي قديم، واعتمد كثير من المترجمين ولا سيّما في مسرد المؤلفات على ما عند المجذوب فحسب، ففاتهم هذا الكتاب، مثل: نزار أباظة ومحمد رياض المالح في كتابهما «إتمام الأعلام» (٣٤٦)، والمستشار عبد الله العقيل في كتابه «من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة» (٤٩٤ ـ ٤٩٥)، وأصل ترجمته مقالة نشرها في مجلة «المجتمع» الكويتية، العدد (١٢٩٨)، محرم ١٤١٩هـ ـ ٥/ ٥/١٩٩٨م (ص٤٦ ـ ٤٨).

(٣) «تحفة الإخوان بتراجم بعض الأعيان»، أرسل لي الأخ الباحث النابه محمد زياد التكلة ما يخص الهلالي من هذا الكتاب، وهو يقوم بتحقيقه، ولم يطبع بعد.

(٤) أبقيناها في مقدمة طبعتنا هذه أيضاً.

التي نشرت للهلالي في مجلة «الفرقان»[١]، العدد العاشر، سنة ١٩٨٧م (ص٤ - ٨) بعنوان (العالم الجليل الدكتور الهلالي في ذمة الله)، وذُكر له أيضاً في مقالة مجلة «المنهل» العدد (٤٩٩)، المجلد (٥٤)، الربيعان ١٤١٣هـ، سبتمبر، أكتوبر ١٩٩٢م، ضمن مقالة بعنوان (أعلام عابرون) (ص٢١٤) وفي التعريف به في أول مقالته المنشورة في مجلة «البحوث الإسلامية» العدد الثامن، ذو القعدة، ذو الحجة، عام ١٤٠٣هـ، محرم - صفر عام ١٤٠٤هـ، أغطس، سبتمبر، أكتوبر، نوفمبر عام ١٩٨٣م (ص٢٠٦).

وذكره له مخلص السبتي في كتابه «السلفية الوهابية بالمغرب، تقي الدين الهلالي رائداً» (ص٤٧)، وصديقنا البحّاثة أحمد العلاونة في «ذيل الأعلام» (ص١٧٠).

وفات ذكر هذا الكتاب ضمن مؤلفات الهلالي عدد[٢] ممن ترجم له! مع أنه أحب كتب المؤلف إليه، بل هو أُمنيَّة حقّقها الله له قبل وفاته. قال - رحمه الله تعالى - عن تأليف الكتاب: «وهذه نعمة عظيمة كنت أتمنّاها على الله تعالى منذ عشرات السنين»[٣].

وذكر - قبل - أمنيّته في الإتمام بقوله: «وهو - سبحانه - قادر على أن يبلغنا أمنيتنا في تمام «سبيل الرشاد» وانتفاعنا به قبل الموت، وهو الغني الكريم»[٤].

وقال في فتاواه «العيون الزلالية» (ق٣٣١): «أنا الآن أؤَلِّف كتاباً سمَّيتُه «سبيل الرشاد»؛ إنْ يسر الله إتمامه وطبعه، فسيغني كل مؤمن حنيف عن غيره من كتب الوعظ، فأدعو الله أن يعينني على إتمامه ونشره».

وأعجب العلماء والباحثون والمطلعون على هذا الكتاب أيما إعجاب، وتطلبه العلماء قبل الطلبة النبهاء، وأذكر أن الشيخ بكر أبو زيد - حفظه الله - كان يتطلبه ويسأل عنه، وقال العلّامة الشيخ حماد الأنصاري - رحمه الله تعالى - فيما

---

(١) وظفرت بالترجمة نفسها منشورة في مجلة «الاستجابة» السودانية، السنة الثالثة، العدد التاسع، رمضان ١٤٠٨هـ (ص٤٢ - ٤٣).

(٢) ممن فاته ذكر هذا الكتاب الأستاذ إدريس خليفة في كتابه «الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال» (٢/ ٦٦٦ - ٦٦٧)، وعبد الله بن العباس الجراري في كتابه «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين» (ص١٢٣ - ١٢٤).

(٣) «سبيل الرشاد» (٦/ ٣٠٦).

(٤) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٥٦).

نقل عنه ابنه وصديقنا عبد الأول: «سمعته يقول: إن كتاب «سبيل الرشاد» للشيخ تقي الدين الهلالي أهداه لي لما التقيتُ به في دولة المغرب، ثم أرسل إليّ نسخة أخرى، وأنا بالمدينة النبوية، وهذه النسخة أهديتها للشيخ بكر أبو زيد»(١).

ومدح العلّامة الأنصاري هذا الكتاب بقوله عن مؤلفه: «كان سلفيَّ العقيدة، لو قرأت كتابه في التوحيد(٢)، لعلمتَ أنه لا يعرف [في] التوحيد الذي في القرآن مثله»(٣).

وقال تلميذ الهلالي الشيخ محمد بن عبود ـ حفظه الله ورعاه ـ، مادحاً المؤلف وذاكراً هذا الكتاب:

(دكتورنا) الرجل الصنديد مفخرة ... عزيزة كلما يستذكر العددُ
لسانه الصارم المقوال عدته ... يراعه المنتجُ السيال والمددُ
إذا قرأتَ سبيلاً للرشاد فعن ... ذاك «السبيل» من الأغواء تبتعدُ
هذا الرثاء ولكن لا مبالغة ... ولا غلو بما في القول ينتقدُ
هي الحقيقة لا أعدو الحقيقة في ... قولي، فلا قَلَقٌ فيها ولا فَنَدُ
رحماك ربي لروح أنت قابضها ... أنت الرحيم لها الغفار يا أحدُ(٤)

والحاجة إلى مثل هذا الكتاب ماسّة، فهو يكاد يكون في طريقة عرضه، وسهولة أسلوبه، وغزارة مادته، وربطه بالمخالفات العقدية والأمور الكلية التي شاعت وذاعت في كثير من الصقاع والبقاع دُرَّة فريدة، وجوهرة عزيزة أو عديمة!.

* تأريخ تأليف الكتاب ومدة تأليفه:

تأليف هذا الكتاب كان ـ كما قلنا ـ أمنيّة عزيزة عند المصنف، وحقّق الله ﷻ ـ بمنّه وفضله ـ له هذه الأمنيّة على وجه التمام والكمال في أحسن صورة، وأبهج حلّة.

---

(١) «المجموع في ترجمة العلّامة المحدث الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله وسيرته وأقواله ورحلاته» (٢/ ٦٣٣) رقم (٢٢٧).
(٢) يريد «سبيل الرشاد» (هذا الكتاب).
(٣) «المجموع في ترجمة العلّامة المحدث الشيخ حماد الأنصاري وسيرته وأقواله ورحلاته» (٢/ ٦١٧) رقم(١٥٢).
(٤) جريدة «الإصلاح» جريدة نصف شهرية مغربية، العدد السابع.

أما عن تأريخ فكرته فهو قديم قديم، فأصغ إلى الهلالي وهو يقول: «لم أزل منذ عهد الشباب أتمنّى أن يوفّقني الله تعالى إلى جمع آيات التوحيد بأنواعه وتفسيرها بأحاديث النبيّ الكريم، وبأقوال الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين»[١].

وأما ترجمة هذه الفكرة إلى واقع، وإبرازها على هيئة كتاب، فكانت ـ بتوفيق الله وكرمه ـ قبل موت صاحبها بقليل، ففي أول الطبعة الأولى منه (ص٥ ـ ١١) في كلمة الملحق التعليمي السعودي بالمغرب بقلم الأستاذ محمد بن إبراهيم بن عبد السلام، وأرّخت في ٧/ ١/ ١٤٠٧هـ ـ ١١/ ٩/ ١٩٨٦م، أي: قبل وفاة المصنف بقليل، إذ تأريخها في ٢٥/ ١٠/ ١٤٠٧هـ ـ ٢٢/ ٧/ ١٩٨٧م فكان إعداد هذه الكلمة قبل وفاته بنحو تسعة أشهر، وجاء فيها الدعاء للمؤلف بالشفاء ونص العبارة: «فللمؤلف الجليل ـ شفاه الله ـ ولسماحة والدنا العلّامة الشيخ...»[٢].

وأما البدء الفعلي للكتاب، فاستغرق مدة من الزمن، فمؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعله في أقسام ثلاثة[٣]:

- فرغ من (القسم الأول) منه ـ وينتهي بالجزء الثاني من المطبوع ـ: يوم الجمعة، سابع عشر، صفر، سنة ١٣٩٥هـ[٤]، بمدينة فاس، بحي النزهة.
- فرغ من (القسم الثاني) ـ وينتهي بالجزء الرابع من المطبوع ـ: بعد ظهر يوم السبت الخامس عشر من رمضان سنة ١٣٩٥هـ.
- فرغ من (القسم الثالث) والأخير ـ وينتهي بالجزء السادس من المطبوع ـ: يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلون من شهر محرم الحرام سنة ست وتسعين وثلاث مئة وألف.

ومنه يعلم أن مدة تصنيف الكتاب ناهزت السنة أو قاربتها، وأن نشره كان بعد فراغ المصنف منه بإحدى عشرة سنة، ولعلّ سبب هذا التأخير كبر مادة

---

(١) «سبيل الرشاد» (٥/ ٥).
(٢) مقدمة «سبيل الرشاد» (٨٧).
(٣) انظر ما سيأتي قريباً تحت عنوان (التعريف بموضوع الكتاب ومادته).
(٤) صرّح فيه (٢/ ١٠٨) ـ وهو ضمن القسم الأول ـ أنه «في هذه السنة» وحددها بـ(١٣٩٤هـ) وذكر قصة جرت له.

الكتاب، إذ هو أوسع كتاب له، فجُلّ مصنفاته رسائل صغيرة، نشرها على حلقات في مجلات، ثم جمعها ونقّح بعضها وزاد عليها، ونشرها على هيئة كتيبات.

* هل تم تأليف الكتاب؟:

كان في بال مؤلفه طريقة نوى تأليف الكتاب على وفقها، أفصح عنها بقوله: «أهم أمور الدين توحيد الله تعالى في ربوبيّته، فلا ربّ غيره، وفي عبادته، فلا يعبد غيره، وفي أسمائه وصفاته، فلا يشاركه فيها غيره، وفي الاتباع، فلا يتّبع إلا وحيه، وهو القرآن والحديث الثابت» قال:

«وعلى هذه الأربعة نويت أن أؤلّف هذا الكتاب، وقد بدأته وتمامه على الله، فاتباع توحيد الله تعالى بأنواعه الأربعة فرض على كل مسلم، والإعراض عن المشركين بمخالفتهم، والبراءة منهم واجب حتم»(١).

وكان الهلالي ـ رحمة الله عليه ـ يخشى من عدم إتمام الكتاب، ويتضرع إلى الله أن يمنّ عليه بإكماله، فها هو يسأل ويقول:

«وقد أعانني الله سبحانه على إتمام هذا (الجزء الأول)، فللّه الحمد والمنّة، وإياه أسأل، وبأسمائه وصفاته أتوسل، أن يعينني على إتمام الجزئين الباقيين»(٢).

وقال في أول (الجزء الثالث) (ص٥): «لقد منّ الله عليّ وأعانني على إنجاز (القسم الأول) من كتاب «سبيل الرشاد» وهو في (توحيد الربوبية والعبادة)، فجاء في جزئين، يشتمل على ثمان مئة وخمسين صفحة(٣) تقريباً، وها أنذا أقف خاضعاً ذليلاً بباب الغني الكريم، وأسأله من فضله أن يعينني على تأليف القسم الثاني ثم القسم الثالث، والقسم الثاني في توحيد الاتباع كما هو معلوم. والمراد اتباع الكتاب والسنّة في جميع أمور الدين، من عقيدة وأعمال وأخلاق ومعاملات». وكرر فيه هذا المعنى، فقال: «وهو قادر على أن يبلغنا أمنيتنا في إتمام «سبيل الرشاد» وانتفاعنا به قبل الموت، وهو الغني الكريم»(٤).

وقال في آخر (الجزء الرابع) ـ وهو تمام (القسم الثاني) من الكتاب ـ: «لقد

(١) «سبيل الرشاد» (١/ ٣٦١).
(٢) «سبيل الرشاد» (١/ ١٣٠).
(٣) وبنحوه أيضاً في هذه الطبعة، مع زيادة التخريج والتوثيق.
(٤) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٥٦).

منّ الله عليّ وأعانني على ختم هذا (القسم)، وأسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وبمحبتنا واتباعنا لحبيبه وخليله محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يعينني على (القسم الثالث)...»[١].

وكأني بالمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يخشى أن يداهمه صارف، أو أن يعوقه عائق، أو أن تفجأه مصيبة الموت، فيحول دون إتمامه للكتاب، ولذا لما أتم (القسم الثالث) ـ وهو الأخير ـ منه، قال ما نصه: «تمّ بحمد الله وحسن عونه» وقال:

«وكان الفراغ منه يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلون من شهر محرم الحرام سنة ست وتسعين وثلثمائة وألف من هجرة النبيّ الأكرم، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم وبمحبتي واتباعي لنبيك الكريم وإن كنت مقصراً أن تعينني على ما بقي وهو وضع (فهرست) وافٍ للقسم الثاني وأن تنفعني به في الدنيا والآخرة وتنفع به خلقاً كثيراً»[٢].

فالمؤلّف ـ رحمه الله تعالى ـ فرغ من كتابه، وجعله (ثلاثة أقسام)، مع أنه سبق عنه في أول هذا المبحث أنه نوى أن يؤلف كتابه على (أربعة أنواع) من التوحيد! فلماذا هذا التغيير، وما هو سببه، وهذا ما يجيبنا عنه المؤلف فيما سيأتي قريباً ـ إن شاء الله تعالى ـ عند الكلام على (الغرض من تأليف الكتاب ومنهجه فيه).

بقي التركيز وإلقاء بعض الضوء على قوله: «أن تعينني على ما بقي وهو وضع (فهرست) وافٍ للقسم الثاني...».

الناظر في الكتاب يجد أن (فهرست)[٣] للموضوعات، موجود في آخر كل جزء من (الأقسام الثلاثة)، وليست هناك فهرسة لكل قسم على حدة، ويوجد (فهرست) في آخر الجزء الثالث والرابع[٤]، فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن المعتني بنشر الكتاب أو مصححه هو الذي كمّل هذا الفراغ وأتمّه، ولعلّه كان في بال

---

(١) «سبيل الرشاد» (٥/٥). (٢) «سبيل الرشاد» (٦/٣٠٧).

(٣) الأصوب في نظري أن يقال: الموضوعات والمحتويات، أو قائمة الموضوعات، إذ لا علاقة بين محتويات الكتاب وطرق الفهرسة المعروفة سواء على الحروف الأبجدية أو الهجائية!

(٤) هذان الجزءان هما القسم الثاني من الكتاب.

المصنف شيء خاص من هذا القسم، ولم يتيسّر له صنعته، والله أعلم.

* طريقة تأليف الكتاب ومصادره فيه:

كان المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ قد أصيب بمرضٍ في عينيه، وعمل على الاستشفاء والمعالجة منه قديماً[١]، وضعف بصره في أواخر سني حياته، فكان مضطراً في تأليف هذا الكتاب ـ وهو من كتبه المتأخرة[٢] ـ إلى مساعدة غيره من تلاميذه وأحبائه، وصرح المصنف فيه[٣] أنه فرغ من (القسم الأول) منه بدار السلفي الصالح الحاج[٤] محمد العلالي بمدينة فاس.

وقال في آخر (القسم الثالث) منه (٦/ ٣٠٧):

«وكان الكاتب لختام هذا الجزء رضا الله بن محمد إدريس المباركفوري رزقه الله العلم النافع والعمل الصالح وجعله من الأئمة الداعين إلى الله على بصيرة، وهداه وهدى على يديه خلقاً كثيراً». وقال: «وقرأ عليَّ هذا الكتاب وتولى تصحيحه حسب ما أمرته ابني البرُّ ختني عبد الغني بوزكري وفقه الله لخدمة الإسلام والمسلمين وأطال بقاءه وختم له بالسعادة والغفران. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين».

واعتمد المصنف على مجموعة من الكتب، وذكر أهمَّها وأشهرها في (ديباجة الكتاب)، فقال (١/ ١٣٢):

«واعتمدت على «تفسير الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي» المتوفى سنة (٧٧٤هـ) ـ رحمة الله عليه ـ؛ لأني ما رأيت أحداً من المفسرين يعتني بالتوحيد مثله[٥] وقد أشير بـ(الكاف) إلى «تفسير ابن كثير»،

---

(١) ذكر في «سبيل الرشاد» (٢/ ٢٤٩) أنه كان في (مستشفى العيون) عند وجوده في مدينة (بون) بجرمانية، وكان هذا قبل أكثر من ثلاثين سنة من مرضه ووفاته.

(٢) انظر ما قدمناه (ص٩).

(٣) (٢/ ٣٧٦).

(٤) يكثر المصنف في غير مقالة وكتيّب من إطلاق هذه اللفظة، وتجنّبها أولى، فالحاج كالمصلي والمزكي، فلا داعي لها، ولا سيّما أن بعض الجهلة ممن يحجون إن لم تُقَل لهم؛ يغضبوا!

(٥) للمصنف عناية شديدة بهذا التفسير، ونقد طبعاته، فها هو يقول في «سبيل الرشاد» (١/ ٣٣٥) عن طبعة منه كتب على طرتها: «قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية، وصححها نخبة من العلماء». وهي مطبوعة في طبعة الاستقامة بالقاهرة =

وبـ(الجيم) إلى «تفسير ابن جرير»، وبـ(القاف) إلى ما اتفق عليه البخاري ومسلم من الحديث، وبـ(الخاء) إلى ما انفرد به البخاري، وبـ(الميم) إلى ما انفرد به مسلم، وبـ(الدال) إلى «سنن أبي داود»، وبـ(التاء) إلى «جامع الترمذي»، وبـ(النون) إلى «سنن النسائي»، وبـ(الحاء والميم أو الألف المهموزة) إلى «مسند الإمام أحمد». انتهى.

قال أبو عبيدة: رمز الهلالي أيضاً بحرف (خك)[1] لاختصار شيخنا محمد نسيب الرفاعي ـ رحمة الله عليه ـ لتفسير ابن كثير، المسمى بـ«تيسير العلي القدير»[2]، وأكثر من النقل عنه، وتارة ينقل عباراته ويعزو لـ(ك)!

= سنة ١٣٧٢هـ، الطبعة الثانية: «سبحانك هذا بهتان عظيم. كيف تتفق عدة نسخ خطية على إسقاط ثلاث وعشرين كلمة من الحديث؟ وكيف جاز على نخبة من العلماء أن لا يتفطنوا إلى هذا الخلل؟ والحقيقة أن الكتب التي يطبعها التجار مضيعة، فلا مقابلة فيها ولا تصحيح، وبذلك يقع التغيير والتبديل والحذف...».

وقال فيه (١/ ٣٣٥) عن الطبعة نفسها: «فيها أخطاء كثيرة وبتر ونقص، وفي هذا الموضع ترك تفسير آية بأكملها، وقد فزعت إلى طبعة بيروت لعلّي أجدها سالمة من ذلك الداء، فإذا بها مسروقة من الطبعة المذكورة: إنا لله وإنّا إليه راجعون!، على فساد الكنوز التي خلفها لنا السلف، فصارت بأيدي التجار الفجار يطبعونها لأجل الربح الدنيوي ولا يبالون بما يرتكبونه من الجرائم في حق طلبة العلم، وعلوم الإسلام يتيمة كعلوم اللغة العربية، ليس لها جماعة تشرف على طبعها ونشرها وتأذن في ذلك لمن يكون له أهلاً، وتضرب على هؤلاء التجار الفجار وليس للتجار ضمائر ولا مروءة تحملهم على المحافظة على هذا التراث وعلى أن لا يصدر من مطابعهم ما يشين سمعتهم، وهذا جزء من الشقاء الذي يعانيه المسلمون في هذا الزمان...».

وقال في (٣/ ٩٥) بعد كلام: «هذا تحريف وبتر من الناشرين المجرمين، وما أكثره في الطبعات المتعددة لـ«تفسير ابن كثير»».

ومن شدة عناية المصنف بهذا «التفسير» أنه كاد أن يختصره، فها هو يقول في تقريظ «تيسير العلي القدير» لشيخنا محمد نسيب الرفاعي بعد مدحه له: «وكم عزمت على القيام بهذا العمل (الاختصار)، وبدأتُ فيه فعلاً، ولكن لم يقدّر لي الاستمرار فيه...»!

ويقول في (٢/ ١٢٥): «إن كثيراً من أهل هذا الزمان الذين لم يقتلوا «تفسير ابن كثير» درساً وبحثاً، يخيّل لهم أن فيه خرافات إسرائيلية، تكدّر صفوه، فيجب حذفها، فأقول لهم: على رسلكم! ومن ذا الذي حرّم علينا ذكر الإسرائيليات وروايتها إذا كانت فيها فائدة...» إلخ ما قال.

(١) انظر ـ على سبيل المثال ـ (٣/ ١٢٠، ١٣٧، ...).

(٢) للهلالي تقريظ لهذا الكتاب منشور في أوله، ومما قال فيه عن مؤلّفه شيخنا الرفاعي =

*** مصادره في التفسير:**

ومما تجدر الإشارة إليه أنه نقل من كتب أخرى في التفسير غير «تفسيري ابن جرير وابن كثير»، مثل:

«فتح البيان في مقاصد القرآن» لصديق حسن خان، و«محاسن التأويل» للقاسمي، و«تفسير البيضاوي» و«جامع البيان في تفسير القرآن» لصفي الدين بن معين الدين، «فتح القدير» للشوكاني، و«الدر المنثور» للسيوطي، و«درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج، و«تفسير السمرقندي»، و«تفسير الرازي»، و«تفسير ابن أبي حاتم» ـ ولعل النقل عنه بواسطة «الدر» أو «تفسير ابن كثير» ـ و«الكشاف».

ومن التفاسير التي صرح بالنقل منها أيضاً(١):

«معالم التنزيل» للبغوي، و«المحرر الوجيز» لابن عطية، و«تفسير القرطبي»، و«تفسير أبي السعود»، و«تفسير النسفي»، و«زاد المسير»، و«تفسير الجلالين»، و«حاشية الصاوي» عليه، «حاشية الجمل» المسماة «الفتوحات الإلهية»، و«روح البيان» للبروسوي.

ونقل أيضاً من كتاب في الوقف والابتداء، وهو «المكتفى» لأبي عمرو الداني.

أكثر المصنف من النقل عن بعض هذه التفاسير، واقتصر في كثير من المواطن على النظر في تفسير واحد منها، ولكنه في مواطن قليلة ينظر في جميعها، فأصغ إليه وهو يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]:

«طالعت كل ما عندي من التفاسير؛ لأجد تفسيراً تطمئن نفسي إليه، فلم أحصل على طائل»(٢).

ونقل المصنف في كتابه هذا من كتب له في التفسير، مثل: «فتح الرحمٰن

= ـ رحمه الله تعالى ـ: «أخونا العالم السلفي المحقق الأستاذ الشيخ محمد نسيب الرفاعي، رفع الله في الدارين درجته، وأجزل فيها مثوبته». وقال عن (اختصاره): «جاء (اختصاره) طبق ما يؤمله كل طالب علم، موزوناً بقسطاس مستقيم».

(١) لعله نقل من بعضها بالواسطة، فقد صرح في (٢/ ٣٩٢) أنه راجع كل التفاسير التي عنده، قال: «وهي خمسة»!!

(٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ٤٩).

في تفسير أمّ القرآن» وكذا من تفسيره في سورة الأنعام، المسمى «الإلهام والإنعام».

ونقل في (الجمع بين الوصل والوقف) و(القراءة بصوت واحد) من كتاب محمد التهامي بن الطيب السجلماسي، المسمى «نصرة الكتاب» وقال في المبحث نفسه (٣/ ١٧٣):

«شرع أخونا حسن وجاج في تأليف كتاب يقيم فيه البراهين القاطعة على بدعة ما يسمى عند المغاربة بالحزب، ويحدد تاريخ وصولها إلى المغرب، وما فيها من المفاسد، وهو عمل مشكور، نرجو أن ينفع الله به من شاء من عباده، حتى يُقضى على هذه البدعة التي أُصيب بها المغاربة وحدهم دون جميع المسلمين، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل».

والظاهر أن الهلالي يريد تقديمه لمنظومة أبي عمرو الداني «المنبّهة» فإنه قد فصل فيها هذه المسألة، وهي أطروحته للدكتوراه[(١)].

* مصادره في الحديث والتراجم والتاريخ:

ذكر الهلالي اعتماده على ما في «الصحيحين» أو ما انفرد به أحدهما، وعلى «جامع الترمذي» و«سنن أبي داود» و«سنن النسائي» و«مسند أحمد»، وذكر[(٢)] رمزاً لكل كتاب من هذه الكتب، ولم يذكر «سنن ابن ماجه»، وقد عزى له الكثير من الأحاديث، وكذلك نقل من «السنن الكبرى» للبيهقي.

ونقل من مصادر أخرى صرح بها، ولكن لعله وقعت له بالواسطة، فصرّح ـ مثلاً ـ بأسماء: البزار وأبي يعلى ـ ولكل منهما «مسند» مطبوع ـ ومن «شرح معاني الآثار» للطحاوي، و«صحيح ابن حبان» و«موطأ مالك».

وصرّح بالنقل من كثير من كتب الحديث وشروحه ورجاله، فهو ينقل ـ مثلاً ـ ويكثر من «جامع العلوم والحكم» لابن رجب، ونقل أيضاً من عدة شروح مثل: «نيل الأوطار»، و«سبل السلام»، و«مرقاة المفاتيح» لعلي القاري، و«شرح الطيبي على المشكاة»[(٣)]، و«شرح الزرقاني على الموطأ»، و«فتح الباري»، و«القبس شرح

---

(١) انظر تعليقنا على كلام الهلالي السابق في (٣/ ١٧٣).

(٢) فيما مضى قريباً من كلامه.

(٣) لعل النقل منه بواسطة، إذ طبع لأول مرة بعد وفاة الهلالي.

الموطأ»[١] لابن العربي المالكي، و«فيض القدير» للمناوي، و«معالم السنن»، و«أعلام الحديث»[٢] كلاهما للخطابي، و«حاشية الشيخ أحمد على بلوغ المرام»، ومن «حاشية حسن المدابغي على شرح الهيتمي على أربعي النووي» نقل منه، ووقع العزو لـ«شرح الهيتمي»: انظر (٤/ ٢١٩)!

وينقل من كتب الغريب، ويعتمد كثيراً على «النهاية»[٣] لابن الأثير، وورد عنده ذكر لـ«غريب الحديث»[٢] للحربي.

وينقل كثيراً من الآثار والأشعار من «جامع بيان العلم» لابن عبد البر، وهنالك ذكر لعدة من كتب التراجم، مثل: «تاريخ دمشق»[٢] لابن عساكر، وفيه أيضاً إحالة على «العقد الثمين» للفاسي ، ونقل من «الطبقات الكبرى» لابن سعد، و«معجم المؤلفين في القطر الشنقيطي».

وأظهر في الكتاب مجموعة من الكتب التي ترجمت للأصحاب ـ رضوان الله عليهم ـ، مثل: «الاستيعاب» لابن عبد البر، و«الإصابة» لابن حجر، و«أسد الغابة» لابن الأثير.

واعتنى ببعض كتب السيرة والتأريخ، فنقل من بعضها مثل: «السيرة النبوية» لابن كثير، و«الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام» للسهيلي، ونقل أيضاً من بعض كتب البلدان، وسبق ذكر الدمشقيين والشناقطة وأنه نقل من مصنفات خاصة بهم، ونقل في تراجم المكيين زيادة على ما ذكرناه[٤] من «مثير الغرام» لابن الجوزي، ونقل في تاريخ المدينة من «الدرة الثمينة» لابن النجار، ومن الكتب التي نقل منها «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى».

* مصادره في الفقه وأصوله:

نقل الهلالي من عدة كتب في الفقه وأصوله، فورد ذكر لكتاب «المدونة»، و«التاج والإكليل»، و«مختصر خليل»، وكلها من كتب المالكية.

---

(١) لعل النقل منه بواسطة.
(٢) لعل النقل منه بواسطة.
(٣) قال عنه في (٦/ ٢٦٩): «كنت أظن أن ابن الأثير سلفي العقيدة بريء من التعطيل والتّجهّم لأني رأيت المتأخرين من المشتغلين ينقلون من كتابه شرح غريب الحديث، ولما رأيت شرحه لأسماء الله الحسنى وجدته من شرار الجهمية المعطلة، . . .».
(٤) أعني: «العقد الثمين» للفاسي، فهو خاص في المكيين.

ونقل من جملة كتب فقه المذاهب، فنقل ـ مثلاً ـ من مجموعة كتب للشافعية؛ كـ«المنهاج» و«شرح المهذب»، كلاهما للنووي، ومن «الأم» للشافعي، ومن «شرح الكنز» للزيلعي، و«فتاوى قاضي خان» وهما من كتب الحنفية، أما كتب الحنابلة، فقد نقل من «المغني» و«الكافي» كلاهما لابن قدامة، ونقل أيضاً من كتاب «المحلّى» لابن حزم.

ونقل من «كشف الغمة عن جميع الأمة» للشعراني، ولم يكن النقل منه في مسائل فقهية[(١)]، وإنما نقل عنه طويلاً (فصل في ذكر أزواج النبي ﷺ بالتفصيل، وذكر بعض فضلهن ـ رضي الله عنهن ـ) قال:

«وسأنقل ذلك من كتاب «كشف الغمة عن جميع الأمة»، لأني وجدته أحسن ترتيباً وأسهل على القرّاء من «سيرة ابن هشام» وغيرها ممن جمع تراجم الأزواج الطاهرات، ولا ينقصه إلا عدم عزو الأحاديث، وذلك لا يضر؛ لأن أكثر ما ذكر هنا مرويّ في كتب الحديث المعتبرة»[(٢)].

وأشار المصنف ـ كثيراً ـ إلى مسألة قبض اليدين في الصلاة[(٣)]، وذكر كتاب «إبرام النقض في تقرير السدل وإبطال القبض» لمحمد الخضر بن مايابا الشنقيطي، وذكر أن الله هيأ له عالماً شنقيطياً من أهل بلده فألف كتاباً في الرد عليه، سمّاه «الصوارم والأسنّة في الذب عن السنّة»[(٤)]، قال:

«وتبرع بطبعه المجاهد الأكبر في المغارب كلها، الذي أنقذ الله به أهل المغرب الأكبر من حدود السنغال إلى حدود مصر من ربقة الاستعمار وظلمته إلى حرية الاستقلال ونوره، ألا وهو الملك محمد الخامس ـ رحمة الله عليه ـ» قال:

«ومن أجل المكارم أن شريكه في الجهاد الملك الحسن الثاني ـ أطال الله بقاءه، وأدام ارتقاءه ـ لما نفذت نسخ هذا الكتاب أمر بطبعه ثانية، أجزل الله ثوابه، وجزاه أحسن الجزاء، ومؤلف هذا الكتاب هو العلّامة السلفي المحدّث الأصولي المفسّر الأديب الشاعر المتفنن محمد بن أبي مدين الأستاذ في معهد بوتيلمت من بلاد شنقيط، وهذا الرجل نادرة زمانه، يحتاج إليه أساتذة الأزهر

---

(١) مع أن الكتاب في فقه الخلاف.
(٢) «سبيل الرشاد» (٦/ ٢٣٧).
(٣) انظر ما كتبناه عنها في التعليق على (٣/ ١٦، ١٨).
(٤) نقل بواسطته من «إيقاظ الوسنان».

وأساتذة الجامعة الإسلامية بالمدينة، وكل جامعة عربية، لا أقول: الطلبة بل الأساتذة، ومن سوء حظ العرب في هذا الزمان عموم الجهل والتقليد فيهم، وسيرهم على صراط معوج؛ لأنهم لا يعتبرون العلم، وإنما يعتبرون الشهادات المزيفة، التي يحصل عليها كثير من الدواب، فيتسلَّمون أعلى المراتب في الجامعات، وهم صمٌّ بكمٌ عميٌ، فوالله الذي لا إلٰه إلا هو، لو ظفر بهذا الرجل أساتذة الجامعات في أوروبة، لاستفادوا من علمه، وبذلوا النفس والنفيس في خدمته، ولكن كما قلنا من ضلالات العرب أنهم يتركون العين ويطلبون الأثر باعتمادهم على الشهادات»(١) قال:

«فمن أراد أن يعرف تحريف المقلّدين المتعصبين إلى أي حدٍّ بلغ في الإسفاف، فليقرأ هذين الكتابين، فيرى الأول ظلمة، ويرى الثاني نوراً»(٢).

ومن الكتب التي أكثر من النقل عنها: «إعلام الموقعين»(٣)، وهنالك بعض النقول مأخوذة منه وهي طويلة جداً، ونقل الهلالي أيضاً من «الإحكام»(٤) لابن حزم، و«إرشاد الفحول» للشوكاني، و«الاعتصام»(٥) للشاطبي، و«الباعث على إنكار البدع والحوادث»(٦) لأبي شامة المقدسي، و«البدع» لابن وضاح، و«الحوادث والبدع» للطرطوشي، و«الموافقات»(٧) للشاطبي، ومن «حاشية محمد الخضر حسين عليه»، و«قواعد الأحكام»(٨) للعز بن عبد السلام، و«الرد على من

---

(١) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٨ ـ ١٩). (٢) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٩).

(٣) حققته ـ ولله الحمد ـ معتمداً على عدة نسخ خطية، وهو من منشورات دار ابن الجوزي، الدمام، في سبعة مجلدات.

(٤) فرغت من مقابلته على نسختين خطيتين، وتخريج أحاديثه وآثاره، وسيرى ـ إن شاء الله تعالى ـ النور قريباً.

(٥) نشرته على نسختين خطيتين في أربع مجلدات في طبعة مجوّدة مخرّجة مفهرسة، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

(٦) نشرته على نسخة شستربتي، وطبع ولم أراجعه، وسأعمل على طبعه من جديد، مزيداً منقّحاً، اللهم يسّر ذلك بمنّك وكرمك.

(٧) طبع بتحقيقي ـ ولله الحمد ـ في ستة مجلدات، وحاز قبول ورضى النبهاء من طلبة العلم، والمنصفين من العلماء.

(٨) حصلت ثماني نسخ خطية تمهيداً لتحقيقه، وفرغت من تنكيتات عليه للسراج البلقيني، سماها «الفوائد الجسام» أملاها على تلميذه الكرماني، وهي بخطه في نسخة فريدة، خطّها صعب غاية.

أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» للسيوطي.

والملاحظ أن مباحث التقليد والاجتهاد لها نصيب كبير من هذه النقول، بل بعض الكتب السابقة مفردة في هذا الموضوع، وأكثر الهلالي من التركيز على ذم التعصب والتمذهب والتقليد وعدم الاتباع، وهذا الذي اضطره للنقل من بعض الكتب السابقة، ووقع له كثيراً في هذا الباب النقل بالواسطة، مثل نقله من كتاب المواق «سنن المهتدين»، والعمدة ـ عنده ـ على «الصوارم والأسنة».

* كتب اللغة:

أكثر الهلالي من النقل من مجموعة من المعاجم العربية، وبرز في كتابه النقل من «لسان العرب» لابن منظور، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي، وورد ذكر لكتاب «الكتاب» لسيبويه، و«الصحاح» للجوهري، و«تهذيب اللغة» للأزهري، و«معجم مقاييس اللغة» لابن فارس، وكان النقل من آخر كتابين بالواسطة.

* كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم:

من النقولات الظاهرة، والمؤلفات الباهرة، التي أكثر المصنف من النقل عنها: كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، مثل[1]: «اقتضاء الصراط المستقيم»، و«مجموع الفتاوى»، و«الإيمان»، و«الرسالة المدنية»، «شرح حديث النزول»، و«الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان».

ونقل أيضاً ـ وأكثر ـ من كتب الإمام ابن القيم[1]، فنقل من «الكافية الشافية» وشرحها «توضيح المقاصد» لأحمد بن عيسى، ومن «الجواب الكافي»، و«بدائع الفوائد»، و«مختصر الصواعق المرسلة»، و«زاد المعاد»، و«حادي الأرواح»، و«إغاثة اللهفان»، و«روضة المحبين»، و«مدارج السالكين»، وأكثر جداً من النقل عن «اجتماع الجيوش الإسلامية» ولا سيّما في (الجزء الخامس) من الكتاب.

* كتب التوحيد:

التوحيد هو لبّ القصيد في كتابنا هذا، فمباحثه وأنواعه وتقريراته هي قطب الرحى، وكتبه التي نقل منها المصنّف ليست بتلك الكثرة، إلا أن الهلالي اختار

---

(١) وقع النقل من بعضها بالواسطة!

منها فأجاد وأفاد، وساقها في سياق قوي، وعلّق عليها بما يوضح المراد منها، وجُلّ النقول جاءت في معرض التقرير، وأما الردّ فجاء بما يناسب الغرض من درء الشُّبه، والرد على كلام يردده المبطلون والمشغّبون، وله أثر في عقول الناس وقناعات بعضهم، فهو ينقل زيادة على ما ذكرناه من كتب الإمامين ابن تيمية وابن القيم من كتاب الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب «التوحيد»، وأورد منه ومن شروحه ـ مثل: «فتح المجيد» و«تيسير العلي القدير» ـ نقولات طويلة، ونقل أشعاراً في مدح دعوة الإمام، ولا سيّما من «دالية الصنعاني»، ولعله كان يحفظها.

وهنالك نقولات من كتب أخرى، فأكثر من النقل من «الدين الخالص» لصديق حسن خان، ونقل من «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، ومن «الإبانة في أصول الديانة» كلاهما لأبي الحسن الأشعري[1]، و«عقيدة السلف أصحاب الحديث»، و«عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي»، و«العقيدة السفارينية»، و«العلو للعلي العظيم»، وأكثر جداً من النقل من «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي، و«الكواشف الجلية شرح العقيدة الواسطية» لعبد العزيز السلمان، ومن «المجموعة المفيدة» نقل منها في آخر (الجزء السادس) وقال عن صاحبها: «جمع العالم السلفي الشاعر الأديب علي بن سليمان القصيمي المتوفى بالدورة في جنوب العراق في نحو سنة ١٣٤١هـ».

ونقل من بعض كتب أهل البدع، وساقها للرد عليها، مثل كتاب «الرماح» لعمر بن سعيد الفوتي، قال عنه (٣/ ٣٤):

«قال صاحب «الرماح» ـ وهو عمر بن سعيد الفوتي ـ أخبرني محمد الغالي أن الشيخ التجاني قال: صاحبي لا تمسه النار، ولو قتل سبعين روحاً إذا تاب بعد ذلك...» وذكر هذه القولة لهدم كلام آخر نقل عنه يعارضه، حتى جعل الهلالي يقول: «وهذه معضلة يجب على التيجانيين أن يحلّوها، ولن يستطيعوا لحلها سبيلاً»!

وأكثر الهلالي في كتبه بعامة من ذكر التيجانيين، وكشف بواطيلهم

---

(١) وصرح في (٦/ ٢٩٢) أنه نقل أيضاً من كتاب «الموجز» له، لكن بواسطة «الجيوش الإسلامية» لابن القيم، وقال عن «الموجز»: «ولم أطلع عليه».

وألاعيبهم، ولذا نقل في كتابه هذا بعض ما يخصهم من كتابه الخاص في الردّ عليهم، وهو «الهدية الهادية».

وتعرض أيضاً لشبه المجوّزين للاستغاثة والتوسل البدعي، مما اضطره للنقل من «الصارم المنكي» لمحمد بن عبد الهادي، وأحال على «صيانة الإنسان عن وسوسة دحلان» للشيخ بشير السهسواني الهندي.

وذكر ألاعيب الشياطين ببعض المتكسبين بدينهم، مما اضطره للنقل من «تلبيس إبليس» لابن الجوزي.

وذكر أحوال الأديان المحرفة، والفِرَق الباطلة، مما اضطره للإحالة على كتابه «البراهين الإنجيلية على أن عيسى عليه السلام داخل[1] في العبودية ولا حظّ له في الألوهية»، ونقل أيضاً من كتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي، ومن كتاب «أديان الهند الكبرى» للشلبي.

هذه جُلّ مراجع الهلالي في كتابه هذا[2]، عدا ما في ذاكرته من نقول وحِكَم وأمثال وأشعار، وقصص وحكايات.

* الغرض من تأليف الكتاب ومنهجه فيه:

ذكر العلامة الهلالي (الغرض) من تأليف كتابه هذا، فقال:

«لما كان الغرض من تأليف هذا الكتاب إقامة البراهين على وجوب اتباع الكتاب والسنّة وترك التفرُّق والتحزُّب بشكل مذاهب أو طرائق أو أحزاب لم أرد أن أتوسع فيما يرد أثناء البحث من المسائل الأُخرى»[3].

وهذا الغرض الذي تكلم فيه إنما هو محصور في (قسم) من (أقسامه الثلاثة) وهو (توحيد الاتباع)، وقد صرّح بذلك في قوله فيه (٤/ ٢٤ ـ ٢٥) موضحاً معاني بعض الآيات:

---

(١) اقترح الهلالي على زهير الشاويش في رسالة وجّهها إليه بتأريخ ٢٧/ ٣/ ١٣٩١هـ أن يطبع هذا الكتاب، قال: «ولكم أن تجعلوا عنوان ـ مثلاً ـ: «البراهين الإنجيلية على أن عيسى بشر...».

(٢) عدا ما صرّح به من كتب ألفت باللغة الإنجليزية، فقد صرّح في (٢/ ٣٦٨) بالنقل من «مختصر تاريخ أوروبة» وهو مقرر للمدارس الثانوية ببريطانيا، ومن كتاب «عصر العقل» لتوماس بين، ومن (ougesol) وقال أيضاً: «له مقالات بالإنجليزية مشهورة».

(٣) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

«قال محمد تقي الدين: أخبر الله ﷻ مؤكداً بالقسم وغيره من المؤكدات أن محمداً ﷺ من المرسلين وأنه على صراط مستقيم، كل من اتبعه سعد، وكل من خرج عنه شقي. وأخبر سبحانه أنه أنزل هذا القرآن على رسوله لينذر به أهل الأرض، كلهم عامة والعرب خاصة، إذ لم يرسل إليهم نذير من قبله، ولا كان عندهم كتاب يرجعون إليه، ولا سنّة نبي يتمسّكون بها، فهم لذلك في غاية الغفلة والجهالة والظلمة، ولما كذبوا الرسول وكفروا بما أنزل إليهم من ربهم وجحدوه ظلماً وعلواً، حقت عليهم كلمة الله وسدّت عليهم أبواب الهداية، وتحتم عذابهم وشقاؤهم، وحيل بينهم وبين الإيمان بسبب إعراضهم وطغيانهم، ثم أخبر ﷻ أن الذين ينتفعون بالإنذار هم الذين يستمعون القرآن ويتبعونه ويمنعهم خوف الله تعالى من مخالفة القرآن والرسول ﷺ، فأولئك بشّرهم الله بمغفرة ذنوبهم وبالأجر العظيم والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة، وصدق الله وعده فانتصروا على أعدائهم واستولوا على مشارق الأرض ومغاربها، وأذعنت لهم أمم الأرض وشعوبها ومضوا على ذلك قروناً طوالاً حتى نبذوا القرآن والسنّة، فسلبهم الله ما وهبهم وجعلهم عبرة لأولي الأبصار. ولا يزال باب التوبة مفتوحاً أمامهم لو رجعوا إلى رشدهم وأنابوا إلى ربهم، ولما كان التقليد والتعصب والتفرّق والتمذهب، واتباع الطرائق القدد، والأحزاب البدد، والقوميات والوطنيات والأهواء والعادات من أعظم أسباب شقائهم التي سدّت عنهم أبواب الخير، وفتحت لهم أبواب الشقاء، عزمت في هذا القسم من «سبيل الرشاد» أن أبذل كل جهد في التحذير من هذه الطرق المعوجّة وأنقل كلام الأئمة مصحوباً بالحُجَّة».

وسبق آنفاً[(١)] إيراد كلام للهلالي أنه نوى أن يجعل كتابه على أربعة أقسام، كل قسم في أنواع التوحيد الثلاثة، ثم توحيد الاتباع، إلا أنه صرح في تقديمه للكتاب أنه دمج توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية في نوع واحد، فلنسمع إليه وهو يقول:

«يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الكبير المتعالي محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي ـ عفا الله عنه ووفّقه للعمل الصالح المتوالي ـ: خطر ببالي منذ مدة أن أؤلف كتاباً لنفسي ولمن شاء الله بعدي، أشرح فيه أنواع التوحيد

(١) انظر كلامه (ص١٣).

الأربعة[1] التي **أولها**: توحيد الربوبية، **وثانيها**: توحيد العبادة، **وثالثها**: توحيد الاتباع، **ورابعها**: توحيد الأسماء والصفات، ثم رأيت أن آيات توحيد الربوبية في كتاب الله كثيرة لو استوعبتها مع ما يتعلق بها من الأحاديث النبوية وكلام علماء السلف، لعظم حجم الكتاب جداً لكثرتها، فجعلت الأقسام ثلاثة:

الأول: في توحيد العبادة ممزوجاً بما يحتاج إليه من آيات توحيد الربوبية.

والقسم الثاني: يشتمل على آيات توحيد الاتباع ـ أعني الكتاب والسنّة ـ.

والقسم الثالث: يشتمل على آيات توحيد الأسماء والصفات وهي الآيات التي وصف الله بها نفسه سبحانه وما يتعلق بها من الأحاديث النبوية وأقوال أئمة السلف، وقد أعانني الله سبحانه على إتمام هذا (الجزء الأول) فللّه الحمد والمنّة، وإياه أسأل، وبأسمائه وصفاته أتوسل، أن يعينني على إتمام الجزءين الباقيين، وسميت هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة «**سبيل الرشاد**». أسأل الله تعالى أن يجعل النفع به كثيراً، وأن يجعله من الأعمال الباقية، وأن ينفعنا به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم»[2].

فاستقر الكتاب على ثلاثة (أقسام) أو (أنواع) كلية، وكان كل نوع في جزئين من المطبوع.

وأُراني هنا مضطراً للتركيز على بيان وإبراز حرص العلّامة الهلالي ـ رحمة الله عليه ـ على التوحيد الصحيح، والاتباع السليم، فأقول وبالله سبحانه أصول وأجول:

* حرص الهلالي على التوحيد[3]:

كان الهلالي ـ رحمه الله تعالى ـ داعياً إلى التوحيد، وله في نصرته جولات وصولات، وجاهد في صيانة جنابه في جميع البلاد التي حل بها، وترك آثاراً

---

(١) أنواع التوحيد في الحقيقة ثلاثة؛ لأن الثالث وهو الاتباع داخل في الثاني ولكنني جعلته قسماً لكثرة خلاف المقلدين لما جاء به الرسول ﷺ (منه).

(٢) «سبيل الرشاد» (١/ ١٣١). وللهلالي في «العيون الزلالية» (ق٤٠٢ ـ ٤٠٤) كلمة موجزة عن الأنواع الأربعة المذكورة من أنواع التوحيد.

(٣) للأخ عبد الرحمٰن العميسان أطروحة ماجستير سجلت في (الجامعة الإسلامية)، وهي بعنوان: «جهود العلامة محمد تقي الدين الهلالي في تقرير عقيدة السلف والرد على المخالفين» ما زالت قيد الإعداد.

جليلة في إظهار عقيدة أهل السنّة والجماعة، عقيدة السلف الصالح.

ولم تخل هذه المهمة العظيمة التي حملها الهلالي على كاهليه أحسن حمل من مفارقات وابتلاءات ومفاجآت، وجرّت عليه في بعض البلاد بعض المشكلات.

ومدحه غير واحد من عارفيه وملازميه بالمعرفة والحرص على العقيدة السلفية، حتى إن إمام الدنيا فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز كان يقول عن هلالنا: «شيخي في التوحيد»[١]، وقال عنه العلامة حماد الأنصاري ـ وسبق ذلك عنه ـ:

«كان سلفي العقيدة، لو قرأت كتابه في التوحيد ـ يعني «سبيل الرشاد» ـ لعلمت أنه لا يعرف التوحيد الذي في القرآن مثله».

ولا غرو في ذلك، فها هو الهلالي يخبرنا عن نفسه في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص١٥) فيقول: «فإني نذرت لله أن أدعو إلى توحيده وسنّة نبيّه ﷺ حيثما كنت وهذا **أهم غرض لي في الحياة**».

ووظّف الهلالي مواهبه ومعارفه في سائر ضروب العلوم نصرةً لعقيدة السلف والذبّ عنها، فنظم الشعر في هجاء مخالفيها، ودعا فيه الناس إلى التمسك بما عليه أسلافهم، وأن عزهم ومجدهم لا يتحقق إلا بذلك، ونشر أيضاً كثيراً من «المقالات»[٢] في الأديان والفرق والمذاهب الضالة، وعرّى أصحاب الدَّجل، والخرافة، وسمّاهم، وجرّد عليهم سيف الحق والدليل والبرهان الناصع، وجهد في نصح العامة والدهماء ودعوتهم، ولاقى ألاقي وتحمّل المصاعب والمشاق في سبيل ذلك.

وأما الكتب التي أفردها في التوحيد، فبلغت ثمانية عشر كتاباً، وحشّى على ثلاثة كتب: اثنان للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، وواحد لشيخ الإسلام

---

(١) قال تلميذ العلّامة ابن باز الشيخ محمد شطو ـ وفّقه الله وأكرمه ـ عن هذه المقولة: «مشهورة عندنا؛ نقلها أخونا خالد الزهراني في أطروحة الماجستير: «تقي الدين الهلالي وجهوده في الدعوة إلى الله» (ص٥٧ ـ مرقومة على الآلة الكاتبة)، ثم سمعتها من الشيخ شطو بنفسي في سحر الليلة الأخيرة من رمضان سنة ١٤٢٥هـ،فالعهدة فيها عليه!

(٢) جمعت كثيراً من مقالاته في سائر ضروب وألوان العلوم، وبوّبتُها وعملت على تنضيدها، وستصدر قريباً في مجموعة، يسر الله ذلك بمنّه وكرمه.

ابن تيمية، وسيأتي ذكر ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ مفصلاً عند الحديث عن (مؤلفاته) في (مبحث ترجمته).

وأكثر ما تظهر شدة الهلالي عند دفاعه على العقيدة السلفية، فها هو تلميذه الشيخ محمد زحل يقول عنه:

«كان في طبعه حدة وكان متشدداً في كل ما يتعلق بالعقيدة، قال له شخص يوماً وقد جاءه بولد يدعو له: إنه ليس لي إلا ربي وهذا الولد، فادع له، فلم يكن من تقي الدين إلا أن يجيبه أطلب الله أن (يطيّره) لكي يبقى لك الله وحده»(١).

وهذه الشدّة التي فيه كانت من حرصه وغيرته على التوحيد، وإلا فهو ـ كما قال عنه تلميذ آخر ـ: «التزم المنهج السلفي، وصار من دعاته النشيطين، ولكنه كان متفتحاً غير متزمت، ومجتهداً غير مقلِّد»(٢). وقال عنه أيضاً: «وكان منهجه في التعليم والتربية الحرص على غرس التوحيد، والالتزام بالأركان، والعمل بالأصول»(٣).

وهاك مثالاً عمليّاً، وقصة واقعية حكاها الهلالي عن نفسه في كتابنا هذا «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٤ ـ ٣٥) فيها دعوة الهلالي بالرفق والحكمة، ومراعاة حال المخاطب، والفحص عن استعداده وتهيئته لقبول الحق، وتحويله من المخالفة الشركية إلى العبادة الشرعية، قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ولما حججت أول حجة سنة ١٣٤١هـ في زمان الشريف حسين، لقيت رجلاً من بلادنا، فيلالياً من الغرفة، فدعاني للعشاء، وكان بواباً للملك حسين، فجاءني بطعام ملكي رفيع، وقال لي: يا ولد احفظ دينك وعقيدتك، فإن بلاد المشرق فيها عقائد كثيرة، وأكثرها ضلال، أما بلادنا المغرب فعقيدتنا واحدة على مذهب أهل السنّة والجماعة، ومن أغرب هذه الفرق وأعجبها فرقة تسمى الوهابية، وهم: في شرق مملكة الحجاز، مجاورون لهذه المملكة، فهؤلاء يكرهون النبي، ولا يحبون أن يسمعوا اسمه، وإذا سمعوه غضبوا وقتلوا من ذكره لهم، وهم لا يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله كما نقول نحن، بل يقولون

---

(١) «السلفية الوهابية في المغرب» (ص١٣٤).

(٢) «من أعلام الحركة الإسلامية» (ص٤٩١).

(٣) المرجع نفسه (ص٤٩١).

بدل محمد رسول الله، لا إله إلا الله مالك يوم الدين، فأظهرت له التعجب ولم يدر أنني من هذه الفرقة، وبعد ذلك بقليل استولى الملك عبد العزيز بن سعود على الحجاز، ولما حججت الحجة الثانية سنة ١٣٤٥هـ، أنزلني الملك عبد العزيز - رحمة الله عليه - في دار الضيافة، فبحثت عن ذلك الرجل الفلالي، فوجدته ودعوته إلى دار الضيافة الخاصة بي، فتغدى معي، فعرف حينئذ أنه لما كان ينصحني كان مخطئاً مغفلاً، فسكت وكتم ما في نفسه، فلما تغدينا ذهبنا إلى المسجد الحرام، فوجدنا الشيخ عبد الظاهر أبا السمح جالساً على الحصباء، وهو إمام المسجد الحرام وخطيبه، وسلمت عليه وجلست معه، فلما جلس رفيقي قال: يا رسول الله، فقال الشيخ عبد الظاهر: قل: يا الله، فقال: ما أقول إلا يا رسول الله، يا رسول الله، يا رسول الله، اقطع رأسي إن قدرت، أنا قلت: يا رسول الله أمام الأمير محمد أخي الملك عبد العزيز، ثم التفت إلي وقال: هذا الشر كله ما أصابني إلا بسببك، لا أرافقك أبداً، فتبعته وصرت أتلطف معه لعلّ الله أن يهديه، فهرب ولم أره بعد ذلك، وحدثني الشريف محمد من أهل مكة في تلك السنة نفسها سنة ١٣٤١هـ، قال لي: كنت مسافراً من المدينة إلى مكة، وكان صاحب البعير الذي أركبه نجدياً وهابياً، فركب خلفي ليستريح فتنهدت وقلت: يا رسول الله، فلطمني لطمة أفقدتني صوابي وكدت أسقط من ظهر البعير، وقال لي: يا حمار ما تقول: يا الله، قال: فسكت على مضض.

ولما وصلت إلى مكة ودخلت بيتي تركته على الباب ينتظر الكراء، فجاءني أولادي يسلّمون عليّ، فقلت لهم: يا أولادي، إن هذا النجدي الذي عند الباب لطمني لطمة ما أصبت بمثلها في عمري كله، لا معلم المكتب، ولا والدي، ولا أحد لطمني مثل تلك اللطمة، فأحضروا عصياً، وقالوا له: ادخل، فلما دخل ضربوه حتى طاب خاطري وكففتهم عنه، فقلت له: أيها الشرقي هذا جزاء اللطمة التي لطمتني، وينبغي أن أنبّه هنا على أن ذلك الأخ النجدي مع حسن نيته ارتكب خطأً فهو يعلم أن الملك حسيناً كان يعادي أهل نجد، وقد منعهم من الحج اثنتي عشرة سنة، فكان ينبغي له أن يتلطف مع ذلك الرجل ويقول له: يا أخي صلِّ على النبي واسأل حاجتك من الله واستغث به وحده، وتوسل إلى الله بمحبة النبي واتباع النبي والصلاة على النبي، فإن الله لا يرضى أن يدعى معه غيره، والنبي ﷺ لا يرضى بذلك، قال تعالى في آخر سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ والله يغفر لنا وله».

ودعوة الهلالي للتوحيد قديمة، منذ أن عرّفه الله الحق، وأرشده إلى العقيدة السَّنيَّة السُّنِّيَّة، فامتنّ الله عليه بالهداية من ضلالات التجانيّة التي مكث معتقداً إياها ملازماً أورادها، متشبثاً بتعاليمها تسع سنوات[١]، ووصل فيها إلى أعلا الدرجات (درجة الخليفة)[٢]، وذكر قصة خروجه منها في مقالات نشرت في بعض المجلات[٣]، وأجمل ذلك في كتابه «سبيل الرشاد»[٤]، فقال بعد كلامه على التقليد:

«وهذا ما وقع لنا معشر الحنفاء الموحدين فأنا مثلاً وجدت والدي مقلداً للمذهب المالكي ومنتسباً إلى الفرقة الأشعرية ومتمسكاً بالطريقة الدرقاوية الشاذلية، فلم يكن لي بدّ من اتباعه، ثم انتقلت من الدرقاوية إلى التيجانية وبقيت فيها مدة تسع سنين حتى لقيت شيخنا العلّامة الداعي إلى الله على بصيرة محمد بن العربي العلوي في مدينة فاس سنة ١٣٣٨هـ في ربيع الأول في اليوم (١٢)، منه وهو الذي يحتفل به المبتدعون وعبّاد القبور أجمعون، وكان عمري حينئذ (٢٨) سنة، وقد قرأت القرآن وحفظته وجوّدته، وقرأت عبادات خليل، ومن علم النحو درست: «الآجرّومية»، و«ملحة الإعراب»، و«ألفية بن مالك» ومع ذلك كله بقيت على عقيدة أبي وأمي، ففتح أستاذي بإذن الله عين بصيرتي وعلمت أني كنت في ظلمات بعضها فوق بعض، وتبت إلى الله من عقيدة الأشعرية المتأخرين ومن التقليد ومن الطريقة.

إذا اصطفاك لأمر هيأتك له ... يد العناية حتى تبلغ الأملا

وهذا يبيّن لك شؤم التفرق في الدين وأنه سبيل الهالكين».

وأُراني في هذا المقام مضطراً لذكر ما جرى له بالتفصيل في قصة رجوعه من الضلالة إلى الهداية، ومن ظلمات البدع إلى نور السنّة، وقد فصّل ذلك في كتابه «الهداية الهادية»[٥] وسأنقل منه باختصار وتصرف يسير، قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

---

(١) «الهدية الهادية» (ص٩).
(٢) سمعت ذلك من الشيخ زهير الشاويش ـ حفظه الله ـ.
(٣) أفاد في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٧٣ ـ ٧٤) أنه نشر في صحيفة «الحرية» المغربية ثلاث مقالات بعنوان: (كيف خرجت من الطريقة التيجانية) قال: «ذكرتُ فيها قصة خروجي وتوبتي من هذه الطريقة، وأقمت البراهين على بطلانها».
(٤) (١٢٦/٤ ـ ١٢٧).
(٥) (ص١٢ ـ ٢٢).

«لقد كنت في غمرة عظيمة وضلال مبين، وكنت أرى خروجي من الطريقة التيجانية[١] كالخروج من الإسلام، ولم يكن يخطر لي ببال أن أتزحزح عنها قيد شعرة. وكان الشيخ عبد الحي الكتاني عدواً للطريقة التيجانية... ففي ربيع الأول من سنة أربعين من هذا القرن الهجري سافرت إلى فاس ودعيت في اليوم السابع منه لحضور حفل على الطريقة الكتانية، فامتنعت من مشاركتهم؛ لأن من شروط التيجاني المخلص[٢] أن لا يذكر مع أهل طريقة أخرى ذكرهم وأن لا يرقص معهم، ولكن الجماعة ألحّوا عليّ وجرّوني جرّاً حتى أوقفوني في حلقتهم، فرأيتُ أفواهاً مفغورة من وجوه بعضها في لحية سوداء، وبعضها فيه لحية خطها الشيب، وبعضها أمرد ليس له لحية من الغلمان الذين لم يلتحوا بعد، وسمعت أصواتاً تنبعث من تلك الأفواه، ليس لها معنىً في أي لغة كانت بعضها آ آ آ، وبعضها آه آه آه، وبعضها أح أح أح.. فاستنكرت تلك الهيئة وقلت في نفسي: إن الله لا يرضى بهذه الحالة أن تكون عبادةً له لبشاعتها، ثم ندمت على ذلك ندامة الكسعي[٣]...

وقلت في نفسي: كيف يسوغ لي أن أنكر شيئاً حضر مثله خاتم الأولياء

(١) الطريقة التيجانية طريقة صوفية أسسها أحمد بن محمد بن المختار، وقد عاش ما بين (١١٥٠ ـ ١٢٣٠هـ) وولد في قرية عين ماضي بالجزائر وأنشأ طريقته التيجانية عام ١١٩٦هـ في قرية أبي سمعون بفاس وأصبحت فاس هي المركز الأول لنشر هذه الطريقة في العالم، ومن بعض معتقداتها يزعمون أن مشايخهم يُكشف عن بصائرهم وأن أحمد التيجاني قد التقى بالنبي ﷺ لقاءً حسياً مادياً، وأنه قد كلّمه مشافهة، وأنه قد علّمه صلاة الفاتح لما أغلق، وأن النبي ﷺ أخبره أن المرة الواحدة منها تعدل قراءة القرآن ست مرات، ومن معتقداتهم أنهم يجيزون التوسل بالنبي ﷺ وهذا من الشرك الصريح. انظر: «الموسوعة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٢٨١ ـ ٢٨٤).

(٢) وصف الهلالي نفسه في غير كتاب من كتبه بهذا الوصف، فها هو يقول عن نفسه في «سبيل الرشاد» (٣/ ٩٢) عند مناقشة رجل له في وقت الظهر ومخاصمته له وشتمه إياه، قال: «فأخذت سبحتي وأنا يومئذ تيجاني مخلص في الطريقة أشد الإخلاص من فرط جهلي وشقائي، فوجهت سبحتي كالبندقية إلى خيمته طلباً للانتقام منه، فخاف خوفاً شديداً، وانصرف، وفي ذلك اليوم ضلت له أحسن ناقة من إبله، فجاءني في الغد خاشعاً ذليلاً، وقال لي: يا سيدي محمد! إنك قطعت في خويدمك؛ أي انتقمت منه بلا رحمة...» إلخ ما قال...

(٣) هذا مثل مشهور، انظر قصته في: «مجمع الأمثال» (٣/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩).

القطب سيدي أحمد التيجاني فتبتُ من ذلك الخاطر، ولكن جاءني امتحان آخر أن الشيخ عبد الحي الكتاني قال لي منتقداً: إن الطريقة التيجانية مبنية على شفا جرف[1] وأنه لا ينبغي لعاقل أن يتمسك بها.

فقلت له: والطريقة الكتانية التي أنت شيخها؟ فقال لي: كل الطرائق باطلة وإنما هي صناعة للاحتيال على أكل أموال الناس بالباطل وتسخيرهم واستعبادهم.

قال الهلالي: إذن أنت تستحلّ أموال الناس بالباطل وتسخرهم وتستعبدهم؟ قال: أنا لم أؤسس الطريقة، وإنما أسسها غيري وهذه الأموال التي آخذها منهم أنفقها في مصالح لا ينفقونها هم فيها.

ثم قال الهلالي له: وما حملك على الطعن في الطرائق وما دليلك على بطلانها!؟ فقال لي: ادعاء كل من الشيخين أن النبي ﷺ يحضر بذاته وظيفة أصحابه حين يذكرونها، وهذه قلة حياء منهما[2] وعدم تعظيم للنبي ﷺ، كيف تكلِّفونه أن يخرج من قبره، ويقطع هذه المسافات من البر والبحر، ليجلس أمامكم، فأنتم تبسطون له ثوباً أبيض، ليجلس عليه، وأصحابنا يقومون ويذهبون إلى الباب ليتلقَّوه.

فقال الهلالي: إذن أنت لا تعتقد صحة طريقتك؟ فقال الكتاني: لا أعتقدها أبداً، وقد أخبرتُك أنها صناعة لأكل أموال الناس بالباطل، وأزيدك على ذلك: إن اعتماد طريقتكم على كتاب «جواهر المعاني» الذي تزعمون أن شيخكم أحمد التيجاني أملاه على علي حرازم مسروق، فأحد المجلدين ـ وهو الأول ـ مسروق بالحرف، وهو تأليف لمحمد عبد الله المدفون بكذا وكذا بفاس، وسمى ناحية نسيها الهلالي. قال الكتاني: وأنا قابلت الكتابين من أولهما إلى آخرهما، فوجدت المجلد الأول من «جواهر المعاني» مسروقاً كله من كلام الشيخ المذكور...

---

(١) هذا حق أكيد، ومحاولة محمد بن محمد الصغير الشنقيطي التشيتي في كتابه «الجيش الكفيل بأخذ الثأر ممن سلّ على الشيخ التيجاني سيف الإنكار» فاشلة، لا وزن لها في التحقيق العلمي، والمنهج السلفي، وهي كالماء لا تشدّ اليد بها البتة!

(٢) انظر هذه (الأكذوبة) وتفصيل ردّها في كتابي «قصص لا تثبت» (الجزء الثالث) (ص١٩٨) وما بعد.

وهكذا بدأ التفكير المُلِحّ لدى الهلالي للخروج من الطريقة التيجانية، وشاء الله أن يجالس الهلالي الشيخ عمر بن الخياط بائع كتب بقرب القرويين وناقشه في الموضوع نفسه، فما كان من البائع إلا أن أرشده إلى العالم الكبير الشيخ محمد بن العربي العلوي ـ رحمه الله تعالى ـ فذهب إليه وقابله واستضافه الشيخ في بيته(١)، فلما رأى الشيخ محمد بن العربي إحجام الهلالي قال له: ما سبب انقباضك؟ قال: سببه أنكم تطعنون في الطريقة التيجانية وأنا تيجاني ولا يجوز لي أن أجلس في مجلس أسمع فيه الطعن في شيخي وطريقته.

فقال لي: لا بأس عليك أنا أيضاً كنت تيجانياً فخرجت من الطريقة التيجانية لما ظهر لي بطلانها، فإن كنت تريد أن تتمسك بهذه الطريقة على جهل وتقليد، فلك علي أن لا تسمع بعد الآن في مجلسي انتقاداً لها، أو طعناً فيها، وإن كنت تريد أن تسلك مسالك أهل العلم فهلمّ إلى المناظرة، فإنْ ظهرتَ عليَّ رجعتُ إلى الطريقة، وإنْ ظهرتُ عليك، خرجت منها كما فعلتُ أنا.

قال الهلالي: فأخذتني النخوة، ولم أرضَ أن أعترف أني أتمسّك بها على جهل، فقلت: قبلتُ المناظرة.

ثم قال ابن العربي: أنا أريد أن أناظرك في مسألة واحدة إن ثبتت، ثبتت الطريقة كلها، وإن بطلت، بطلت الطريقة كلها.

قال الهلالي: ما هي؟ قال ابن العربي: ادعاء التيجاني أنه رأى النبي ﷺ يقظة لا مناماً وأعطاه هذه الطريقة بما فيها من الفضائل، فإن ثبتت رؤيته للنبي ﷺ يقظة وأخذه منه الطريقة فأنت على حق وأنا على باطل، والرجوع إلى الحق حق، وإن بطل ادعائه ذلك فأنا على حق، وأنت على باطل، فيجب عليك أن تترك الباطل، وتتمسك بالحق، ثم قال: تبدأ أنت أو أبدأ أنا؟ قال الهلالي: ابدأ أنت.

قال ابن العربي: عندي أدلة كل واحد منها كافٍ في إبطال دعوى التيجاني.

قال الهلالي: هات ما عندك وعلي الجواب، فقال:

الأول: إن أول خلاف وقع بين الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ كان بسبب

(١) ذكر الهلالي في «الهدية الهادية» (ص١٦ ـ ١٧) تفصيلاً واستطراداً حذفناه طلباً للاختصار.

الخلافة، قالت الأنصار للمهاجرين: منا أمير ومنكم أمير، وقالت المهاجرون: إن العرب لا تذعن إلا لهذا الحي من قريش، ووقع نزاع شديد بين الفريقين حتى شغلهم عن دفن النبي ﷺ فبقي ثلاثة أيام بلا دفن ـ صلاة الله وسلامه عليه ـ، فكيف لم يظهر لأصحابه ويفصل النزاع بينهم، ويقول: الخليفة بعدي فلان، فينتهي النزاع؟!! كيف يترك هذا الأمر العظيم لو كان يكلم أحداً يقظة بعد موته لكلّم أصحابه وأصلح بينهم، وذلك أهم من ظهوره للتيجاني بعد مضي ألف ومائتي سنة ولماذا ظهر؟ ظهر ليقول له: أنت من الآمنين ومن أحبك من الآمنين ومن أخذ وردك يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب هو ووالده وأولاده وأزواجه إلى الحفدة. فكيف يترك النبي ﷺ الظهور يقظة والكلام لأفضل الناس بعده في أهم الأمور، ويظهر لرجل لا يساويهم في الفضل ولا يقاربهم لأمر غير مهم.

فقال الهلالي: قد أجاب الشيخ عن هذا الاعتراض في حياته فقال: إن النبي ﷺ كان يلقى الخاص للخاص والعام للعام في حياته، أما بعد موته انقطع لقاء العام للعام وبقي لقاء الخاص للخاص...

فقال ابن العربي: أنا لا أسلّم أن في الشريعة خاصّاً وعامّاً؛ لأن أحكام الشرع خمسة وهذا الورد وفضائله إن كان من الدين، فلا بدّ أن يدخل في الأحكام الخمسة لأنه عمل أعدّ الله لعامله ثواباً، فهو إما واجب أو مستحب، ولم ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى بيَّن لأمته جميع الواجبات والمستحبات، فلم يستطع الهلالي أن يجيب بجواب مقنع، ثم قال الهلالي: الشيخ التيجاني عالم بالكتاب والسنّة.

قال ابن العربي: احفظ هذا، ثم قال:

الأمر الثاني: اختلاف أبي بكر الصديق مع فاطمة الزهراء رضي الله عنها على الميراث، فلا يخفى أن فاطمة طلبت من أبي بكر ميراث أبيها... فقال لها أبو بكر: إن النبي ﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة**»[(1)]. وقد حضر ذلك جماعة من الصحابة، فبقيت فاطمة الزهراء مغاضبة لأبي بكر حتى ماتت بعد ستة أشهر بعد وفاة أبيها ﷺ.

---

(١) أصل الحديث عند البخاري (٢٩٢٦)، ومسلم (١٧٥٧)، وانظر تحريف بعض أهل البدع له في «شرحي على الورقات» للجويني (ص٢٤٦ ـ ٢٤٧)، وهو ـ لله الحمد ـ مطبوع عن دار الإمام مالك في الإمارات العربية.

فهذان حبيبان لرسول الله ﷺ. . . وهذه المغاضبة التي وقعت بين أبي بكر وفاطمة تسوء النبي ﷺ، فلو كان يظهر لأحد بعد وفاته لغرض من الأغراض لظهر لأبي بكر الصديق، وقال له: إني رجعت عما قلته في حياتي، فأعطها حقها من الميراث، أو لظهر لفاطمة، وقال لها: يا ابنتي لا تغضبي على أبي بكر، فإنه لم يفعل إلا ما أمرتُه به.

فقال الهلالي: ليس ما عندي من الجواب إلا ما سمعت.

قال ابن العربي: احفظ هذا، وقال:

الأمر الثالث: الذي وقع بين طلحة والزبير وعائشة من جهة، وعلي بن أبي طالب من جهة أخرى واشتدّ النزاع بينهم حتى وقعت حرب الجمل، في البصرة فقتل فيها خلق كثير من الصحابة والتابعين وعقر جمل عائشة، فكيف يهون على النبي ﷺ سفك هذه الدماء ووقوع هذا الشر بين المسلمين بل بين أخص الناس به، وهو يستطيع أن يحقن هذه الدماء بكلمة واحدة وقد أخبر الله ﷻ في آخر سورة التوبة برأفته ورحمته بالمؤمنين وأنه يشق عليه كل ما يصيبهم من العنت وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

فقال الهلالي: ليس عندي من الجواب إلا ما سمعت وظهوره وكلامه للشيخ التيجاني فضل من الله، والله يؤتي فضله من يشاء. قال: احفظ هذا وفكر فيه.

الأمر الرابع: خلاف علي مع الخوارج، وقد سفكت فيه دماء كثيرة، ولو ظهر النبي ﷺ لرئيس الخوارج وأمره بطاعة إمامه لحقنت تلك الدماء.

فقال الهلالي: الجواب: هو ما سمعت، فقال لي ابن العربي: احفظ هذا وفكّر فيه، فإني أرجو أنك بعد التفكير ترجع إلى الحق. . .

والأمر الخامس: النزاع الذي وقع بين علي ومعاوية، وقد قتل في الحرب التي وقعت بينهما خلق كثير، منهم عمار بن ياسر، فكيف يترك النبي ﷺ الظهور لأفضل الناس بعده وفي ظهوره هذه المصالح المهمة من جمع كلمة المسلمين وإصلاح ذات بينهم وحقن دمائهم، وهو خير المصلحين العاملين بقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ

بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] ثم يظهر للشيخ التيجاني في آخر الزمان لغرض غير مهم وهو في نفسه غير معقول؛ لأنه مضاد لنصوص الكتاب والسنّة فلم يجد عند الهلالي جواباً غير ما تقدم، ولكنه لم يسلِّم له.

فقال ابن العربي له: فكّر في هذه الأدلة وسنتباحث في المجلس الآخر، فعقد الهلالي وابن العربي بعد هذا المجلس سبعة مجالس كل منها كان يستمر من بعد صلاة المغرب إلى ما بعد العشاء بكثير. وحينئذ أيقن الهلالي أنه كان على ضلال، ولكن أراد أن يزداد يقيناً فقال له: من معك من العلماء هنا في المغرب على هذه العقيدة؟ وهي أن كل مسألة في العقائد أو في الفروع يجب أن نعرضها مع قصر باعنا وقلة اطلاعنا على كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، فما ظهر لنا أنه موافق لهما قبلناه، وما ظهر لنا أنه مخالف رددناه.

فقال ابن العربي: يوافقني على هذا أكبر مقدم للطريقة التيجانية في المغرب كله وهو الشيخ الفاطمي الشرادي، فكاد الهلالي أن يكذبه، قال: لأن المشهور في جميع أنحاء المغرب أن هذا الرجل من كبار العلماء، وهو أكبر مقدم للطريقة التيجانية...

فتوجه صاحبنا الهلالي إلى الشيخ الفاطمي رَحِمَهُ اللَّهُ وكان الوقت ضحى، وقد أوصاه محمد بن العربي أن لا يسأله إلا في خلوة فوجده الهلالي عنده جماعة فانصرف بعضهم، وجاء آخرون وبقي ينتظر أن يخلو به حتى صليا الظهر، وجاء الغداء فلم يستطع الهلالي أن يخلو به، وكان ثلاثة ممن كانوا في مجلسه حاضرين، فقال الهلالي له: إن الشيخ محمد بن العربي العلوي يقول: يجب علينا أن نعرض جميع المسائل أصولاً وفروعاً على كتاب الله وسنّة رسوله، فما وافق في نظرنا القاصر قبلناه وما خالف رددناه؛ ولو قال به الإمام مالك أو الشيخ أحمد التيجاني، فأشار الفاطمي إلى الهلالي بيده يستمهله، وكان جلوس الهلالي عنده قد طال فانصرف العلّامة الفاطمي إلى مدرسة الشراطين حيث كان نازلاً قبل لقاء الهلالي بالشيخ العلوي.

وفي ذلك اليوم بعد صلاة العشاء جاء الهلالي بوابُ المدرسة وقال له: إن الشيخ الفاطمي الشرادي أرسل إليك عبده وبغلته يطلب أن تزوره، فتعجب الهلالي كثيراً لأمرين: أحدهما: أن الوقت ليس وقت زيارة، وثانيهما: أنه لم تجر العادة أن كبار العلماء الطاعنين في السن، يبعثون الدابة للركوب إلا لمن هو

مثله في السن والعلم، وهو شاب، فركب البغلة وسار العبد أمامه حتى وصل إليه وسلَّم عليه فردّ أحسن ردّ ورحّب بالهلالي وقال له: يا ولدي أنا رجل كبير طاعن في السن، ليس لي قدرة على القتال، أما سيدي محمد بن العربي العلوي فهو شاب مستعد للقتال وأنت سألتني أمام الناس عن مسألة مهمّة لا يسعني أن أكتم جوابها ولا أستطيع أن أصرح به أمام الناس. فاعلم أن ما قال لك سيدي محمد بن العربي العلوي هو الحق الذي لا شكّ فيه وقد أخذت الطريقة القادرية وبقيت فيها زماناً، ثم أخذت الطريقة الوزانية وبقيت فيها زماناً، ثم أخذت الطريقة التيجانية والتزمتها حتى صرت مقدماً فيها فلم أجد في هذه الطرائق فائدة وتركتها كلها ولم يبق عندي من التصوف إلا طلب الشيخ المربي على الكتاب والسنّة علماً وعملاً، ولو وجدته لصاحبته وصرت تلميذاً له وأنت تريد أن تسافر إلى الشرق، فإن ظفرت بشيخ مربّ متخلق بأخلاق الكتاب والسنّة علماً وعملاً فاكتب إليّ وأخبرني به حتى أشد الرّحال إليه.

قال الهلالي: فازددت يقيناً بالنتيجة التي وصلت إليها في مناظرتي مع الشيخ العلوي.

وقال أيضاً: ولو كان عندي من العلم مثل ما عندي الآن لقلت له: إن ضالّتك المنشودة هي أقرب إليك من كل قريب، فإن هذا الشيخ الذي تطلبه وتريد أن تشدّ الرّحال إليه ولو بعدت الدار وشط المزار هو أنت نفسك، بشرط أن يكون عندك العزم التام على العمل بالكتاب والسنّة وطرح التقليد جانباً كيفما كان الأمر، فجزاهم الله خيراً وتغمّدهما برحمته.

قال الهلالي: وبعد ذلك بعشرين سنة اجتمعت مع الشيخ عبد العزيز بن إدريس من علماء تطوان وهو أحد تلامذة الشيخ الفاطمي ذكرت له الحكاية السالفة، فقال لي: وأنا أيضاً وقع لي ما يشبه هذا، فإني بعد إتمام دراستي في جامع القرويين ذهبت إليه وهو أفضل شيوخي فقال له: أيها الشيخ أريد أن أرجع إلى وطني تطوان فأريد أن تزوّدني بدعاءك الصالح وأن تلقنني ورد الطريقة التيجانية، فقال لي: يا أسفاً عليك أن تحفظ كتاب الله وقد درست العلوم الإلهية التي تمكّنك من فهم كتابه وسنّة رسوله ﷺ ولم يكفك ذلك كلّه حتى تطلب الهدى في غيره والطريقة لا شيء، فعليك بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

قال الهلالي بعد ذكره هذه المناظرة: «كشف الله عني بفضله ظلام الشرك

والبدعة وفتح لي باب التوحيد والاتباع فله الحمد والمنة، نسأله أن يثبّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنه الهادي إلى الصراط المستقيم».

وقال أيضاً مبيّناً تحوّله من ظلمات البدع إلى أنوار التوحيد والاتباع، وهي منعطف خطير في حياته تجاه الاستقامة والدين الحق:

«هذا سبب خروجي من الطريقة التجانية الذي لم يكن يخطر ببالي، وإنما اضطرني إليه البرهان اليقيني الذي لا يترك شكاً ولا ريباً في أن هذه الطريقة كما هي في كتب أهلها وفي اعتقادهم لا يمكن الجمع بينها وبين اتباع كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ البتة»[(١)].

وهكذا أصبح الهلالي إماماً في التوحيد والسنّة، وله فيها مؤلفات ومقالات، وجهود ومواقف[(٢)]. أسأل الله أن يتقبّلها منه، ويجعلها في ميزان حسناته.

وحصل له بسبب هذا التحوُّل ابتلاءات وإيذاءات، فها هو تلميذه الأستاذ محمد بن عودة[(٣)] يقول عن شيخه الهلالي بعد استطراد:

«ولنعد إلى تقي الدين، إن تشبُّثه بدعوة الناس إلى العقيدة الصافية، وتشدُّده في ذلك قد كاد يدخله السجن، حتى بعد الاستقلال، ذلك أنه كان له أشياع كثيرون، وكان في مكناس حيث تكثر الطرق، فدأب هو على الطعن في أربابها مما أثار الطرقيين فبدأوا يثيرون الفتنة، وكان من نتائج ذلك أن كاد بنهيمة يلقي عليه القبض لولا أن تريث في الأمر وكتب إلى وزارة الخارجية، فأخبر أنه من كبار العلماء الوطنيين، فأكبر شأنه ولم يؤذه»[(٤)].

ومن أوائل من عارضه عند رجوعه بعض شيوخه، بل خالفه أيضاً مريدوه وأحباؤه وتلاميذه، ممن اشتروا الضلالة بالهدى، وآثروا الطريقة الخلفية البدعية على المنهج السني القويم، وأقتصر على ذكر مثالين:

أحدهما: لشيخه أحمد سكيرج، قال الهلالي في «سبيل الرشاد» (٢/ ١١٩):

«ولما خرجت من الطريقة التيجانية على يد شيخنا محمد بن العربي العلوي

---

(١) «الهدية الهادية» (ص٢٢).

(٢) سنذكر ـ إن شاء الله تعالى ـ لاحقاً قصصاً ونماذج من حياته في الدعوة إلى التوحيد.

(٣) الموظف في وزارة الخارجية، القسم القانوني، الرباط.

(٤) «السلفية الوهابية في المغرب» (ص١٣٢).

ـ رحمة الله عليه ـ في فاس في ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ ورجعت إلى وجدة، حيث كنت معلماً عند الشيخ أحمد سكيرج، لابنه عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام، وكان يجلّني ويكرمني، وكنا في الهوى سواء، هو مقدم كبير في الطريقة التيجانية، وأنا مريد، فلما علم أني نبذت الطريقة التيجانية نبذ النوى، أظهر الحزن، وجمع عليَّ علماء وجدة، فناظروني فظهرت عليهم بالحجج القاطعة، فخوّفوني من انتقام الشيخ، وذكّروني بما نسب إلى الشيخ أحمد التيجاني، أنه قال: من ترك طريقته وأخذ طريقتنا فلا خوف عليه لا من الله ولا من رسوله ولا من شيخه أيّاً كان، من الأحياء أم من الأموات، أما من أخذ طريقتنا هذه الأحمدية المحمدية الإبراهيمية الحنيفية التيجانية وتركها، فإنه يحل به البلاء دنيا وأخرى، ولا يموت إلا كافراً قطعاً، وبذلك أخبرني سيد الوجود ﷺ يقظة لا مناماً، فقلت لهم: دعوني من هذا الوعيد الذي لم يرد في كتاب الله ولا في سنّة رسول الله ولا قام عليه دليل بل هو مضاد للدليل كما أخبرتكم بالأدلة القاطعة، فغضبوا وقالوا للشيخ أحمد سكيرج: (هذا مفلّس) لا تنفع فيه النصيحة، والمفلس ـ بفتح اللام وتشديده وضم الميم وتسكن تخفيفاً في اللغة المغربية ـ هو الذي بلغ غاية الضلال»[1].

والآخر: تلميذه محمد بناني، فاسمع إليه وهو يقول عن شيخه الهلالي بعد توبته من التيجانية:

«كان لتقي الدين لساناً حادّاً، يهجو كل العلماء الذين يخالفونه في الرأي، ويكتب فيهم «المعلقات»، كتب في الفقيه المرير، والفقيه الفرطاخ، والفقيه

---

(١) واستطرد قائلاً: «ووقع لي مثل ذلك في تطوان لما أصابني مرض الربو، زعم المشركون أن الشيخ السعيدي هو الذي أصابني بذلك المرض، لأني قلت لهم: لا تذبحوا له وتطلبوا منه حاجة، فإنه لا يضر ولا ينفع وكنت أعلم أن سبب المرض هو التعرض للبرد بعد الخروج من الحمام، وعلمت بعد ذلك بالتجربة أن هذا النوع من الربو دواؤه: الانتقال من قرب البحر إلى الأماكن التي هواؤها جاف خال من الرطوبة، لأني إذا كنت في البلاد البعيدة من البحر، كسجلماسة، ومدينة مراكش، ومدينة النبي ﷺ ومكة، وشمال العراق، لا يصيبني أبداً، فأين غضب السيد السعيدي وانتقامه مني حين أكون في البلاد البعيدة من البحر، وهل سيدي السعيدي يرضى أن يعبده الناس، لو كان كذلك لما كان صالحاً، إذ لا يرضى بعبادة الناس له إلا شيطان أو طاغوت، فما أسفه عقول المشركين!!».

الرهوني، والفقيه الحداد، وكان الصدر الأعظم عند العلماء في تطوان، فقلت له يوماً: هل كان الناس في نظرك لا يصلحون؟

إن الدكتور قد سلب فأحرم من الفيوضات الربانية ـ التي يتمتع بها كل صوفي ـ لما خرج من الطريقة التيجانية، أتيت له يوماً على ذكر مولاي عبد السلام، فقال لي: أنت المثقف تقول مولاك عبد السلام؟!!!

إن سبّ العلماء شيء فظيع... تقي الدين أخذ الدكتوراه في العلم، فأين الدكتوراه في التقوى؟ كان له علم الأوراق دون العلم اللدني، فعنده إذا قلت للشخص «مولاي» فذلك كفر صراح(!!) وكان يكره شيوخ الطرق ولا يعترف بهم، وأكثر من ذلك فلقد كان يقول: لا واسطة بين الإنسان وربه في حين الواسطة كانت أول الزمان، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ٩٧ ـ ٩٨]».

ولم يكتفِ التلميذ بهذا، بل دفعه بغضه له للافتراء والكذب عليه، لما قال: «كان تقي الدين يقول بزواج المتعة»[١]!!

وهذا شأن المصلحين والموفّقين، فمن سنّة الله التي لا تتخلف فيهم، وجود المادحين والقادحين، ومن هؤلاء: الهلالي، ولا سيّما أنه عاش في عصر غربة العقيدة، إذ اتخذ الناس ـ آنذاك ـ الأضرحة وقدّسوها، وكانوا يشدون الرّحال إليها، ويصنعون الطعام الخالي من الملح ويقدمونه لها، فعمّت آنذاك الجهالة، وظهرت الخرافات والانحرافات ووصل الأمر إلى أن بعض الناس أن طافوا بالأشجار والأحجار في المناطق النائية.

قال العلّامة عبد الله كنون عن صديقه الشيخ الهلالي: إنه لم يكن ليتوانى لحظة عما أنذر نفسه له، وأنه رَحِمَهُ اللهُ كان حرباً على (الكفار) لم يكن يكني أو يستعير، بل يصرّح بالكفر الصراح على كل من عبد (قبراً)[٢].

وقد صرّح الهلالي بعداوة الطرقيين وأصحاب الخرافة، وقلبهم ظهر المجن له حين نبذهم ومال إلى قفو الكتاب والسنّة، فأَصغِ إليه وهو يقول ضمن قصيدة طويلة:

---

(١) «السلفية الوهابية» (ص١٣٣).

(٢) انظر: «السلفية الوهابية بالمغرب» (ص١٢٩).

ولـمـا أبـان الله لـي نـور ديـنـه وأنقذني من طرق أصحاب خرقةِ
أولـئك قـوم بـدَّلـوا الـديـن بـالـردى وقـد مـرقـوا مـن هـديـه شـر مـرقـةِ
وأبـغـضـني الأقـوامُ حيـن نـبـذتُـهـم ومـلـتُ إلـى قـفْـو الـكـتـاب وسـنَّـةِ
وقد قلَّبوا ظـهـر الـمجنِّ وخشنت صـدورهـم لـي واسـتـعـدوا لـمـحـنـتـي
وقد زعـمـوا هـجـري وشـتـمي قـربـة وكـل جـلـيـس لـي سـيـردى بـسـرعـةِ
وقد جزموا أني أموت على الردى وأخلد في النيران من أجل رجعتي
أماني حمق تضحك الثاكل التي بـواحـدهـا سـارت ركـاب الـمـنـيـةِ
نـبـذتـهـم نـبـذ الـنـوى وتـركـتـهـم وهاجرت كي أحظى بسؤلي ومنيتي
ومـا لـي ولـي أو رفـيـق مـصـاحـب ولا نـاصـر إلا إلٰـه الـبـريـةِ
عـلـيه اعـتـمـادي لا عـلـى أحـد سـوا ه فـهـو قـديـر أن يـجـود بـبـغـيـتـي
ومـا طـلـب الـمـال الـذي هـو زائـل سوى بلغة لا بدّ منها لخلتي[(١)]

وهذه الحقيقة مسلّمة لا شية فيها عند الهلالي، فها هو يقرر ويذكر أن أول داع إلى الإسلام تلبّد عليه أعداء الإسلام وتألبوا عليه، قال: «وهكذا كل داع يدعو إلى اتباعه في زمان غربة الإسلام»[(٢)].

ونعمة الدعوة إلى التوحيد والتزامه كانت عند الهلالي من أعظم النِّعم، فها هو يشكر الله عليها بقوله: «اللهم لك الحمد على ما أنعمت به علينا، وأخرجتنا من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان»[(٣)].

ومن تمام شكر الهلالي نعمة الله عليه عند توبته من هذه الطريقة، أنه جهد في فضح أصحابها، وكشف سوءاتهم، وخصهم بتأليف مفرد[(٤)]، وكتب عنهم مقالات[(٥)]، وجرى ذكرهم في جلّ كتبه في معرض التحذير والتنفير، بل لم يقتصر

---

(١) الدعوة إلى الله (ص١٣٩).

(٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٥٨)، ويقول أيضاً فيه (٢/ ٧٧): «فالتوحيد الصحيح لا يقوم إلا على الحب في الله، والبغض في الله، والولاية لله، والعداوة لله». قلت: وتحقق الولاية والعداوة على التوحيد هو من أقوى آثار الإيمان الصحيح الذي تحلّى به صاحبنا الهلالي، والله حسيبه، ولا نزكّي على الله أحداً.

(٣) «سبيل الرشاد» (٣/ ٩٢).

(٤) هو «الهدية الهادية». وسيأتي ذكره في ترجمته.

(٥) نشرها في جريدة «الحرية»، كذا قال في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٧٣ ـ ٧٤)!

على النثر في معركته معهم، فتعدّاه إلى الشعر(١)، ولم يخلص منه أصحابه الذين عرفهم وهو في هذه الطريقة، فوصلهم خيرُه ونهيه وأمره، ذكر ذلك في مقالة له نشرت في صحيفة «الصراط المستقيم» الجزائرية، السنة الأولى، العدد (١٦) بتاريخ ١٥ رمضان، سنة ١٣٥٢هـ (ص٣ ـ ٤)، قال تحت عنوان (هنيئاً هنيئاً) ما نصّه:

«تلقيت بسرور عظيم خبر تعيين المكرم السيد محمد بن زيان الصمغوني أميراً لبلد أبي صمغون، وتكلل مساعي أصدقائنا الصمغونيين بالنجاح للصداقة القديمة التي بيني وبين أهل هذا البيت الكريم، وقد اشتمل هذا النبأ على شيء آخر كان فرحي به أعظم وجذلي به أتم، ألا وهو كون الصديق الكريم الحميم السيد الطاهر بن زيان ركناً من أركان الإصلاح في ذلك البلد، فقد كان هذا الأخ الكريم من خالص أحبائي في زمان الانحراف عن المحجة البيضاء، وأظن أنني بعدما اهتديت إلى توحيد ربّ العالمين واتباع حجة الله على العالمين محمد خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه، كتبت إلى جميع أصدقائي في تلك النواحي ومنهم السيد الطاهر، ونصحت لهم بالرجوع إلى الجادة، وبلغني أن كثيراً منهم سبّوني وشتموني ولم آسف لذلك وإنما أسفت لبقائهم محرومين من بركة ونعمة اتباع الرسول والسلف الصالح، لما جاءني البشير بأن السيد المذكور تخلص مما كان فيه، حمدت الله على ذلك فعسى أن يكون صحيحاً وعسى أن كثيراً من أصدقائي هناك أتحفوا بهذه النعمة الكبرى:

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

نسأل الله أن يجمع كلمة إخواننا أهل المغرب على الهدى ويؤيد بهم الإسلام كما صنع بأسلافهم إنه على ذلك قدير تحية ودعوة من الشمال الشرقي الهند إلى الغرب فيه، وربنا أكرم من أن يردها».

ويذكر الهلالي أثره على الناس في مدينته مكناس، وأنها تغيّرت وتحوّلت بما أعانه الله عليه، ووفّقه إليه، فقال:

«ومدينة مكناس هذه كانت قبل خمس عشرة سنة، هي مركز الشرك والبدع،

---

(١) جمعت شعره من جميع كتبه ومقالاته، وألحقته بالترجمة المفردة التي كتبتُها له، يسر الله إتمامها ونشرها.

ولكن الله الكريم بارك في دعوتي التي بدأتُها وحدي، فاستجاب إليها كثير من الناس، فأينما ذهبت في أنحاء المدينة تجد أنصار التوحيد، إخوان من وحّد الله، ولا تزال دعوة التوحيد تنتشر وتنتصر يوماً بعد يوم، اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنّا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، فلك الحمد، ولك الشكر»(١).

ويرى الهلالي أن التوحيد ومعرفة معاني الشهادتين والعمل بمقتضاها هو السبيل الوحيد لعلاج واقع الأمة الأليم، قال ـ رحمه الله تعالى ـ عن أثر التوحيد في العرب قديماً: «فدانت العرب لقريش، وملكوا بها العجم، وسرها لا يزال فيها كما كان، فكل من أخذها بصدق في كل زمان ومكان ملك العالم». ثم عرج على حال العرب وتخبّطهم اليوم، فقال:

«وهؤلاء العرب الذين يتخبطون في محنتهم الحاضرة، ويبحثون عن حلّ لمشكلتهم وغسل العار عنهم، فدواؤهم حاضر في غاية السهولة، وهو في أيديهم، ولا يحتاجون أن يسافروا إلى (موسكو)، ولا (بكين)، ولا (واشنطن)، ولا (باريس)، ولا (لندن)، وإنما يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ويعتقدون معناهما، ويعملون بمقتضاهما، فيملكون العالم مرة أخرى، وبدون هذا الحل الذي هو الشفاء الوحيد، سيبقون يئنون من مرضهم العضال إلى الأبد، وما أحسن ما قال الشاعر، وهو منطبق عليهم أتمّ انطباق:

ومن العجائب والعجائب جمة ... قرب الحبيب وما إليه سبيلُ
كالعيس في البيدا يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمولُ»(٢)

وأكّد في كثير من المواطن على هذا المعنى، وأن قيام هذه الأمة ونصرها مناط بالتوحيد، وهذه نقولات عنه تؤكد ذلك(٣):

---

(١) «سبيل الرشاد» (٢/ ٢١٦)، وقال فيه (٢/ ٣٦١) عن أهل (ريمون) من مديرية أسيوط بمصر: «وقد مضى عليهم أربع وخمسون سنة، لم تستطع فتنة الاشتراكية أن تنال من عقيدتهم مثقال ذرة...، وإذا رسخت عقيدة التوحيد في القلوب لا يستطيع أحد أن يزلزلها».

(٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ٢١٧)، وبنحوه فيه (٤/ ١١٥).

(٣) اقتصرنا على اليسير منها، وانظرها في «سبيل الرشاد» (٣/ ١٢١ ـ ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٤، ٢٦٨ ـ ٢٦٩، ٣٠٢، ٣٣٧، ٣٤٥ و٤/ ٧٦، ٩٩، ١٩٦).

قال في «سبيل الرشاد» (٢/ ٦٩):

«إن نصر الله للموحدين وإهلاكه للمشركين سنّة الله التي قد خلت من قبل[1]، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، فإذا لم ينتصر الموحّدون، فطال عليهم زمان غلبة أعدائهم فاعلم أن توحيدهم ضعيف، وإيمانهم ناقص، فإن الله وعد كل من نصر دينه الحق بالنصر، فقال تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾. وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾. اللهم اجعلنا ممن نصر دينك ونصرته».

وقال (٢/ ٨٣):

«﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾. وقد فعل ﷻ من نزول هذه الآية إلى يومنا هذا، وسيفعل ذلك إلى يوم القيامة، فكل هزيمة أصابت المؤمنين، فهي من ضعف إيمانهم، وعدم قيامهم بالواجبات».

وقال (٢/ ٨٤):

«قال ﷻ: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ أي: نتائجها، فمن أحسن حسنت عاقبته، ومن أساء ساءت عاقبته، فعاقبة التوحيد فوز، وعاقبة الشرك خسران».

وهذه سنن شرعية كونية ثابتة مستمرة مستقرة حاكمة لا تتبدل ولا تتخلف.

* شكواه من مظاهر الكفر والشرك:

مثّل على ذلك كثيراً بأهل المغرب. ومما قال: «لما حصر الفرنسيون مدينة فاس في عهد السلطان عبد الحفيظ، استنصر الجهّال بالإمام إدريس بن عبد الله رحمه الله، فعاقب الله جميع المغاربة بالخذلان والهزيمة، وانتصر عليهم

(١) قال في «سبيل الرشاد» (٣/ ١١١): «وقد رأينا تاريخ الإسلام وتتبعناه من أوله، فرأينا المسلمين حين كانوا يخافون الله نصرهم الله في كل معركة وفي كل مكان، فلما قلَّ خوفُهم من الله، قلّ انتصارهم، وفي هذا الزمان انعدم انتصارهم، وصاروا عبرةً لأولي الأبصار، وأُصيبوا بذلٍّ لم يرَ التاريخ مثله» ونحوه في (٤/ ٧٣).

الفرنسيون، وحكموا بلادهم ثلاثاً وأربعين سنة، وهذا جزاء من يستنصر بغير الله»[١].

وقال أيضاً:

«تقدم في مواضع أخرى أن معنى إلٰه: معبود، ولذلك كان مفتاح الإسلام «لا إلٰه إلا الله» فقائلها بالصدق يشهد على نفسه ويعاهد ربه أنه لا يعبد إلا الله، ولكن أكثر من يقولها في هذا الزمان لا يعرفون معناها ولا يفكرون فيه، ولا يبحثون عنه، فتكون أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم مضادة لـ «لا إلٰه إلا الله»، ويكونون أعداءها وهم لا يشعرون، فالمغربي حين يقول: «يا فكاك الوحائل، يا منّاع الرحايل، يا غياث أصحابه في الضيقات، يا مولاي عبد القادر الجيلاني» معناه: يا من ينقذ من استغاث به في الشدائد ويغيث من التجأ إليه عند الضيق يا مولاي يا عبد القادر الجيلاني، فهذا يهدم «لا إلٰه إلا الله» ويقضي عليها قضاءً تاماً؛ لأن تلك الصفات التي جعلها أولئك الجهّال لعبد من عباد الله هي خاصة بالله تعالى، فمن جعلها لغيره فقد كفر به»[٢].

وذكر أيضاً أنه إذا قيل: ادعوا الله وحده، وتوجهوا إليه، واتركوا أولياءكم، يقولون: (الله ورجاله)، ثم مثّل على عبارة أهل المغرب، فقال: «وبعبارتهم الخاصة: (رب برجالو) يعنون: إن الله لا يكفيهم ولا تُقضى حاجاتهم إلا إذا أشركوا به رجالاً مخلوقين، فأفٍّ لهم»[٣].

وذكر ساحراً خسيساً في تطوان، ونوّه ببعض ألاعيبه، فقال:

«ومن مصائب هذا الزمان أن الناس مفتونون بالخوارق فصاروا بذلك فريسة للدجالين والمحتالين يوقعونهم في حبائلهم بأدنى الأسباب، وقد كان في تطوان شيخ ضال يدّعي التصوف وكان يمخرق على الناس بسحر خسيس، وذلك أنه يدعو شخصاً من المغفلين فيملأ كأساً من الماء ويأخذه المغفل في يده فيتكلم الشيخ الضال بكلام من السحر مما يسمونه (استحضار الأرواح)، فلا يزال كذلك حتى تهتز الكأس في يد المغفل، وذلك علامة على أن شيطانه قد حضر فيسأل حاجته منه، وقد دعا أحد المفتونين صاحبنا الشيخ الزبير التفروتي لمشاهدة هذه

(١) «سبيل الرشاد» (٢/ ٢٠٢).
(٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).
(٣) «سبيل الرشاد» (٢/ ٨٣).

الكرامة بزعمه وناوله الشيخ الضال الكأس مملوءة بالماء، وأخذ يتكلم بالسحر حتى اهتزت الكأس في يد الشيخ الزبير فألقاها في الأرض فانكسرت وأريق ماؤها، فقال الشيخ الزبير للسحار: هل تستطيع أن ترد الكأس صحيحة وترد لها ماءها ولو أنك استطعت ذلك ما آمنت بسحرك فبطل كيد الساحر وافتضح.

والجهال المحرومون يستدلّون بمثل هذه المخارق على استقامة فاعلها وصلاحه وولايته لله وإن طريقته مقبولة عند الله»[١].

وقال أيضاً:

«من عجائب ما يقع في المغرب وينسب إلى الإسلام - والإسلام بريء منه - شيء يسمونه (الفدية)، وهو شائع عند الجهلة يدعو أولياء الميت جماعة من البطّالين المحتالين ليعملوا لهم «فدية» للميت تنقذه من العذاب وتجعله من أهل الجنة، فإذا كان قبره حفرة من حفر النار ينقلب في الحين روضة من رياض الجنة، وذلك أن أولئك البطّالين يذكرون «لا إله إلا الله» سبعين ألف مرة يتقاسمون العدد فيما بينهم كل واحد بضعة آلاف فيطعمهم ذلك المسكين ويعطي كل واحد منهم شيئاً من الدراهم يأكلها سحتاً، قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤]»[٢].

وقال أيضاً شاكياً من مظاهر الشرك، ذاكراً السبيل للقضاء عليها، فقال: «من سوء حظنا في هذا الزمان أننا نرى أوثاناً لها بيوت وأفنية يذبح لها ويطاف بها، وتقبل ويتمسح بها بقصد التبرك أكثر مما كان عند العرب، ونحن عاجزون عن هدمها؛ لأن عبادها لا يزال عددهم كثيراً، ولكننا نستطيع القضاء عليها إذا وفقنا الله تعالى بدعوة الناس إلى هجرها والكفر بها، فيطول عليها الزمان فتتهدم من تلقاء نفسها، ويستريح الناس من شرها»[٣].

واستطاع الهلالي من خلال رحلاته، وإلمامه بكثير من اللغات أن يعرف مظاهر الكفر في سائر أرجاء المعمورة، فاسمع إليه واصفاً مَنْ يعبد الشمس من دون الله مسفّهاً أحلامهم:

---

(١) «سبيل الرشاد» (٣/ ٢٣٦).
(٢) «سبيل الرشاد» (٦/ ١٩٥).
(٣) «سبيل الرشاد» (٢/ ٣١١).

«لما كانت الشمس أعظم المخلوقات التي نشاهدها افتتن بها قوم من الذين يغترون بالظواهر، ولا ينظرون ما وراءها فاتخذوها إلٰهاً يعبدونها من دون الله، ومن بقاياهم الشعب الياباني، فإنهم يعتقدون أن ملكهم المسمى عندهم (مكدو) هو ابن الشمس، فهم يعبدونه من دون الله، ويوجد في شمال بلاد (نرويج) قوم من أهل البادية يسكنون الخيام في تلك الأراضي القطبية الشديدة البرد، فإنها في وقت شتائها تغيب عنها الشمس ثلاثة أشهر، ولكن القمر يبقى ظاهراً فهم يعبدونه، وأما أهل المدن فإنهم نصارى كسائر الأوروبيين، ولو كانت الشمس هي التي أوجدت نفسها، وهي التي تدير نفسها، ولها علم وإرادة تسير باختيارها، لكان هنالك العذر لمن يعبدها، ولكنها مخلوقة لها أجل محدود لم تكن من قبل ثم كانت، وإذا انقضى أجلها تفنى، وقد قدر علماء الفلك في هذا العصر حسب حدسهم وتخمينهم عمر الشمس بعشرين ألف مليون سنة، وزعموا أن نصف هذه المدة قد مضى، ونصفها باق، وهو عشرة آلاف مليون سنة، ولا يوجد أحد منهم في هذا الزمان يدّعي أن الشمس أزلية، ولا أنها تطلع باختيارها وتغرب باختيارها، وتعطي الضوء والحر من تريد، وتمنعهما ممن تريد، وعبّاد البقر في الهند أقل حماقة من عبّاد القبور، فلا ينبغي أن يعبد إلا ربّ العرش العظيم، وهو على كل شيء قدير»(١)

وقال واصفاً بعض المخالفات العقدية التي فيها شرك في الألوهية ويفعلها بعض جهلة المصريين والمغاربة، واستطرد في بيان صنيع أهل نجد في هذا الباب قبل دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، فقال:

«إن الذبح بقصد التعظيم عبادة، فمن ذبح على قبة، أو قبر، أو شجرة، أو حجر، أو عين ماء، أو ذبح للجنية عائشة قنديشة، أو لزميلتها مسعودة، أو للشيخ جمعة ـ وهو اسم جنيّ يعبده جهّال المصريين ـ، أو لميمون بن شمهروش ـ وهو من معبودات المغاربة ـ، أو ذبح للجن بدون تعيين بعد نهاية بناء دار لئلا يؤذوه، أو ذبح على أهل بيت ليزوّجوه ابنتهم، كل ذلك شرك وكفر، وأكل تلك الذبيحة حرام؛ لأن كل ذلك مما أهلّ به لغير الله وإن ذكر اسم الله عليها؛ لأن الأعمال إنما هي بالنيات وهم قد قصدوا تعظيم تلك البقعة بالذبح».

---

(١) «سبيل الرشاد» (٢/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

ثم استطرد في بيان مظهر شركي يُعْرف بـ(قرعة الأنبياء)، وآخر بـ(الخط بالرمل)، وفصل في فضح أصحابه وبيّن دجلهم، فقال:

«الاستقسام بالأزلام موجود عند الشعوب الجاهلة بما جاء به الأنبياء والمرسلون من توحيد الله تعالى، واعتقاد أنه لا يعلم الغيب غيره والمجرمون المحتالون يستغلون جهل الشعوب فيستقسمون لهم بالأزلام بطرق مختلفة، منها ما ذكر في تفسير هذه الآية، ومنها في هذا الزمان شيء يسمى (قرعة الأنبياء) وهو جدول كل بيت من بيوته فيه اسم نبي، فيجيء الجاهل أو الجاهلة إلى الكاهن فيضع له الجدول ويقول: غمّض عينيك وضع أصبعك، فيضع أصبعه، فإن أصابت سهم آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى يقرأ عليه ما كتب من القصة، فيخبره بأنه سيجري عليه من المصائب أو النعم تقريباً مثل ما جرى على ذلك النبي، ويزد في ذلك ويزخرف القول ويجعل النتيجة حسنة والعاقبة حميدة، فيأخذ منه شيئاً من الدراهم على هذا التكهُّن، وبعضهم يستعمل خط الرمل وبعض الكهّان يبيتون».

وفصل في ذلك لما عرج على بلاد شرقي الحجاز، فقال:

«ولما زرت بلاد شرقي الحجاز وأوائل نجد وجدت عندهم كاهنات إذا أراد شخص أن يتزوج أو يسافر أو يتجر في شيء يأتي إلى الكاهنة ويقدم لها الحلوان ولا يكون أقل من بعير فتبيت له، وفي الصبح تخبره وتأمره بالإقدام أو الإحجام، وهؤلاء القوم من أهل البادية لم تبلغهم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فدعوتهم إلى توحيد الله وسنّة رسول الله وكان معي أحد أمراء تلك النواحي ماجد بن موكّد أمير النخيل».

وفصَّل في أسماء (المقامات) التي تشد إليها الرّحال، ويعظمها الدهماء، ويقصدونها بأعمال شركية في كثير من بلاد الدول العربية، وأكثر من ذكر مدن العراق لإقامته بها نحو ثلاثين سنة، فقال في مقالة نشرت في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، المجلد (السادس عشر)، العدد (الثاني)، ربيع الآخر، ١٤٠٤هـ (ص٣ ـ ٤) فقال:

«إن الأصنام أحجاراً، أو رخاماً، أو ذهباً، أو شمساً، أو قمراً، أو ناراً، أو ماءً، أو قبوراً، أو قباباً، أو أشجاراً، أو أكواماً من الحجارة، أو أشخاصاً أحياءً، أو أمواتاً، أو دواب، وإنما لبَّسَتْ عليهم الشياطين فأوهمتهم، ثم أقنعتهم

أن تلك الأشياء قد حلّ فيها سر الألوهية، وهو ما يسميه المغاربة (بركة) فهذا السر عندهم يجوز أن يحلّ في كل شيء، ومتى حلّ في شيء وجب تقديسه وعبادته وأصبح يضر وينفع، فلو أن سادناً أخذ أحجاراً من جبل وبنى بها قبة وضريحاً على قبر، سواء أكانت فيه جثة أم لا، وسواء أكانت تلك الجثة جثة صالح أو طالح أو حيوان. فإذا وضع على ذلك الضريح تابوتاً وستاراً من حرير، وعلّق المصابيح الثمينة والثريات، وفرش أرض القبة بالزرابي، وملأ جوّها طيباً بالبخور وغيره، وتزيّا بزيّ المشايخ بتفخيم العمامة وتكويرها، وإطالة اللحية وشعر الرأس، ولبس الثياب الفضفاضة، وأخذ يحكي حكايات تثبّت أن ذلك المدفون له كرامات وأنه يقضي الحاجات، يتهافت عليه عبّاد الأوثان، ويأتونه من كل مكان بما شاء من هدايا ونذور وشمع وبخور وثيران تخور، ومواسم يختلط فيها الرجال بالنساء والحابل بالنابل. وهذا أصل عبادة الأصنام والأوثان قديماً وحديثاً، وبعض المضلين من الذين يسمون أنفسهم أو تسميهم العامة علماء يزيدونهم ضلالاً، فيسمون ذلك الشرك كرامات الأولياء، ويسمون كل وثن ولياً، وينسبون ذلك الوثن إلى اسم نبي، كمقام النبي جرجيس في الموصل، والنبي بولس بقرب الموصل في خرائب نينوى، والنبي شيث في كركوك. والتحقيق أنه لا يوجد قبر نبي معلوم إلا قبر نبينا محمد ﷺ. وأما قبر الخليل إبراهيم فليس بمعلوم بالتعيين، إلا أنه دفن بقرب المكان المنسوب إليه في الأردن. ومن هذا القبيل ضريح النبي زكريا في قلب جامع بني أمية بدمشق، فإنك ترى المصلين يصلون وإلى جانبهم العابدين والعابدات والطائفين والطائفات بذلك الوثن المنسوب كذباً إلى ذلك النبي. ولو فرضنا أنه مدفون هناك ما جاز أن يتخذ قبره وثناً، ولا يُبنى عليه، ولا يطاف به، ولا ينذر له، ولا يعبد بأي نوع من أنواع العبادة».

ولم تقتصر معرفته ودعوته لعابدي القبور والأنصاب، بل فصل في عبادة (الأشجار) و(الأحجار) و(المياه) و(الحمير)! وذكر بعض القصص التي وقعت له، ولنرخي عنان القلم للهلالي ليحدثنا في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٢٠ ـ ٢٢) عن ذلك، قال وهو بصدد حديثه عن عبادة الأشجار:

«فقد حدثت من عهد بعيد، فقد ذكر ابن أبي شامة في كتاب «البدع»[1] له

(١) المسمى «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص١٠١ ـ بتحقيقي).

أن شجرة كانت تعبد في دمشق في زمانه، وأما في هذا الزمان فحدّث عن البحر ولا حرج، فقد شاهدت شجرة عظيمة وافرة الأغصان تعبد في مصر وأخبرني الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة أنه همّ بقطعها وأخذ فأساً واشتغل طول الليل إلى أن كاد الفجر يطلع، فلم يستطيع أن يقطع إلا جزءاً يسيراً من أغصانها، فجاء عبّادها في الصباح بالنذور فوجدوا بعضها مقطوعاً، فغضبوا غضب العابد لمعبوده واتهموا الشيخ المذكور، ورفعوا شكوى إلى العمدة، فطالبهم بالبينة فقالوا: لا يوجد أحد في هذه الناحية يشنع على المتبركين بها إلا هذا الرجل، فقال العمدة: إنني لا أستطيع أن أعاقبه بهذه الحجة التي لا تتجاوز الظنون، وأخبرني الحاج محمد أجانا ـ وهو رجل قضى عمره في البدع حتى بلغ السبعين، ثم هداه الله إلى التوحيد بدعوتنا ـ أن له شجرتين يعبدهما الفلاحون، إحداهما اسمها أبو بكر، والأخرى نسيت اسمها، وإن الفلاحين يضعون أدوات الحرث وغيرها مما يثقل عليهم حمله إلى جانب إحدى الشجرتين فلا يتجرأ أحد أن يسرق شيئاً من ذلك مع أنهم سرقوا حصر المسجد، ولو ذهبنا نعدّد وقائع عبادة الأشجار لطال بنا الكلام».

وقال: «وأما عبادة الأحجار فهي كثيرة أورد بعض وقائعها، فمن ذلك: حجر كبير ناشز في جبل بالصعيد في مديرية أسيوط، أخبرني أصحابنا أنه كان يسمى الشيخ دغارا، وأن جماعة منهم ذهبوا ذات ليلة بمعاولهم واشتغلوا طول الليل فتركوا الشيخ دغارا أثراً بعد عين، ومنها أن صخرة في مرسىٰ مدينة طنجة داخل البحر تسمى سيدي ميمونا يعبدها أهل تلك الناحية، وسبب اطلاعي على عبادتها أني كنت راكباً في سيارة حافلة من طنجة إلى تطوان سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى وأتباعهم، وكان إلى جانبي رجل معه امرأة فسلّم علي وقال لي: أنا ممن يحضر دروسك في الجامع الكبير، وقد هداني الله إلى التوحيد بسبب ذلك ولكن زوجتي هذه لا تزال متمسكة بالشرك، فأرجو من فضلك أن تعظها لعلّ الله يهديها بوعظك كما هداني أنا، وذكر لي قضية اشتدّ نزاعهما فيها تتعلق بعبادة الصخرة البحرية المسماة بسيدي ميمون.

وحاصلها: أنهما لا يعيش لهما أولاد إذا بلغ الصبي سنة يموت، فنذرت زوجته أن تذبح عن ولدها في كل سنة شاة لسيدي ميمون، وقد حانت نهاية السنة الأولى من عمر الصبي قال: فامتنعت أنا من الوفاء بهذا النذر وقلت: إن عمر

الصبي بيد الله وميمون صخرة لا تضر ولا تنفع، فلم تقبل، فوعظتها من طنجة إلى تطوان مدة ساعة، ولا أدري هل انتفعت بوعظي وتابت من الشرك أم بقيت على شركها. وأكتفي بهذا القدر من الشواهد على عبادة الأحجار.

ومن عبادة المياه: أن بئراً بالقصر الكبير يعبدها السفهاء ويسمونها سيدي ميمونا، ويزعمون أن ابن أمير الجن شمهروش كثيراً ما يحضرها، خبّرني بذلك غير واحد في البلد المذكور وشاهدت حوادث أخرى من عبادة المياه فلا أطيل بذكرها.

وأما عبادة الحمير: فأذكر فيها قصتين: **إحداهما** وقعت في طرابلس الغرب على ما حدثني به ثقة، وذلك أنه كان في تلك الديار شيخ متصوف اسمه عبد السلام الأسمر، كان يرقص مع أصحابه ويضربون بالدفوف حتى يخروا صرعى على الأرض، ويعتقدون أن الدف الذي كان يضرب به الشيخ عبد السلام نزل من الجنة وكان يضرب به علي بن أبي طالب للنبي، والشيخ عبد السلام والمريديون المنقطعون للعبادة معه لم يكونوا يكتسبون معيشتهم؛ لأنهم كانوا بزعمهم متوكلين، وكان للشيخ المذكور حماراً يطوف على بيوت البلد وحده كل صباح ومساء وعليه خرج، فكلما وقف بباب بيت يضع أهله شيئاً من الطعام في ذلك الخرج فيرجع إلى الشيخ والمريدين بطعام كثير غدوة وعشية، فلما مات الشيخ وتفرّق المريدون بقي الحمار بلا عمل فصار الناس يقدمون له العلف ويتبركون به إلى أن مات فدفنوه وعكفوا على قبره يعبدونه.

والقصة الثانية في المغرب الأقصى: قرأت في سنة ستين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى في (صحيفة العلم) مقالاً لمعلمة اسمها خديجة النعيمي من الدار البيضاء، قالت خديجة: خرجت مع نسوة جاهلات نتجول خارج المدينة فمررنا بكوم من حجارة، فأخذت النسوةُ يقَبِّلْن تلك الحجارة ويتمسَّحن بها قائلات: (أنتاع الله يا للا حمارة) معناه: نسألك متاع الله؛ أي ما أعطاك الله من الكرامة يا سيدتنا الأتان، قالت: فأنكرتُ صنيعَهن، وقلت لهن: ويحكن تتخذن أولياء حتى من الحمير؟ فقلن لي: اسكتي إنك لا تعرفين قدر هذه الولية، فكم قضت من حاجات ونخاف عليك أن تضربك ضربة يكون فيها حتفك، فسلمي للفارغ لكي تنجي من العامر. قلت: وهذا مثل يضربه المغاربة لمن اعترض على عبادة شخص وقال: إنه لا ينفع ولا يضر يقول له عباده: (سلم للخاوي تنجي من العامر) معناه: هب أنه فارغ من الولاية فخير لك أن لا تعترض عليه وأن لا تنكر

ولايته؛ لأنك إن استمررت في الإنكار يخشى عليك أن تصادف ولياً حقيقياً فيصيبك بشرٍّ، ثم وجّهت الكاتبة المذكورة دعوة إلى العلماء، وقالت: يا علماء الدين اتقوا الله، وعلّموا الناس توحيد الله وشعائر دينهم، فإنكم ضيعتم الأمانة التي حملكم الله إياها حتى وصل الناس إلى عبادة الحمير دون الله. فكتبت ثلاث مقالات تلبية لدعوتها ونشرت في صحيفة «العلم»[1]، ولم يُلَبِّ دعوتها أحد غيري من قرّاء صحيفة «العلم» وهم يعدون بالآلاف، وأظن أن هذا القدر يكفيك إن كنت منصفاً ويقنعك إن كنت متعسفاً».

وأفلح الهلالي في دعوته، ونجح في جميع الميادين التي وصل إليها، واستطاع بإذن الله أن يجعل كثيراً من الناس يرجعون إلى التوحيد، ويفرون إلى الله تعالى الفرار الشرعي السليم دون وسائط ولا شرك، وكان عَلَماً في بلاده على التوحيد الصحيح، وسبق بيان بعض آثاره في بلاده[2]، وتعداه ذلك من خلال مقالاته وكتبه ورسائله الخاصة. فها هم جماعة من اليمنيين يتبرؤون من شيخ طريقة لهم يسمى (الحلول)، ويذكرون أن الهلالي أرسل لهم كتاباً خاصاً بهم، ونعتوه في أوله بقولهم: «هو عبارة عن قلادة من اللآلئ والجواهر، وكلما تأمله الإنسان، وأعاد قراءته وجد من معانيه شيئاً جديداً، فهو كما قيل:

تزيّن معانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعاني»

ويقولون له في آخره:

«ولا يعزبن عن ذهنكم أو كتابتكم ونصائحكم ستكون نافعة نفعاً عاماً شاملاً ليس في اجتناب الطريقة الحلولية فحسب، بل في الابتعاد عن كل عقيدة تخالف ما كان معلوماً في عهد السلف الصالح وتجعل الناس يفرون من الدجاجلة فرارهم من الأسد، وأملنا أنكم ستكاتبوننا ولو ببعض كلمات مختصرة ليصير لنا الشرف وليزداد الناس إيماناً واطمئناناً في اجتناب البدع والأضاليل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[3].

---

(١) على ثلاث حلقات، بعنوان (صور من حياتنا الاجتماعية)، وهي منشورة في السنة (١٥)، منها أعداد رقم (٤١١٣، ٤١١٩، ٤١٣١) بتأريخ ربيع الثاني، جمادى الأولى والثانية من سنة ١٣٨٠هـ ـ الموافق: ١٩٦٠م.

(٢) انظر ما سبق قريباً عند كلامه على دعوته في مكناس.

(٣) انظر: مجلة «الصراط السوي» الجزائرية.

وجعل الهلالي محاربة البدع والأضاليل والدعوة إلى الاتباع ونبذ التقليد والتمذهب والتعصُّب والتفرُّق والتحزُّب من صلب دعوته، وجعلها في قائمة الأولويات وأهم المهمات. ولذا زاد ـ كما قلنا ـ نوعاً رابعاً على أنواع التوحيد المعروفة الثلاثة، ألا وهو (توحيد الاتّباع)، ولا بدّ لنا من كلمة سريعة حول:

* حرص الهلالي على الاتباع ونبذه الفرقة والتحزُّب والتعصب والتمذهب:

للهلالي جهود مبرورة في الدعوة والتأليف في الاتباع والسنّة، والتنبيه على خطورة التقليد وآثاره السيئة، وانتقل بفضل الله ورحمته مباشرة من ظلمات وخرافات وانحرافات الطرقيين إلى أنوار الاتباع والسنّة.

وكانت دعوة الهلالي للاتباع تسير جنباً إلى جنب مع دعوته إلى التوحيد، قال رَحِمَهُ اللهُ: «أول ما دعوتُ في صعيد مصر إلى توحيد الله، واتباع سنّة رسوله ﷺ، ونبذ البدع والمحدثات»[(١)].

وقال: «كل مسجد بُني أو يبنى إلى يوم القيامة وعمارته التوحيد واتباع السنّة، وإن كان من قصب، وخرابه الشرك والبدعة وإن كان من ذهب»[(٢)].

ولذا يذكر الهلالي إن أحبّ الأعمال إليه: حب الدعوة إلى اتباع الكتاب والسنّة، وإن أبغضها إليه التقليد كيف ما كان نوعه[(٣)].

ويترتّب على هذا بغضه للبدع والمبتدعة، وما أحدثوه من الطرائق القدد[(٤)]. فها هو الهلالي يقول رادّاً على أهل الطرق وأصحاب الأحزاب: «فهل أحدث الصحابة طرائق في الدين، فكانت هناك طريقة بكرية، وطريقة عمريّة، وطريقة عثمانية، وطريق علوية، وطريقة جابرية، وطريقة مسعودية، . . . إلخ، معاذ الله أن يتفرّق أصحاب رسول الله ﷺ في دينهم»[(٥)].

وقال مبيّناً حقيقة الأحزاب: «ومن طبع الأحزاب والفرق أن يفرح كل حزب بما عنده، ويدَّعي أنه الحق، ولكن عند الصباح يحمد القوم السرى،

---

(١) «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٦١). (٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٥٨).
(٣) انظر: «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٩٢).
(٤) «سبيل الرشاد» (٢/ ١٦٠ ـ ١٦١).
(٥) للهلالي في (ذم الطرق) عدة مقالات، تنظر تحت (في سبيل الإصلاح) من مقالاتنا التي جمعناها له، يسّر الله نشرها بخير وعافية.

والصباح الموت وما بعده، فحينئذ يفرح أهل الحق الذين وحدوا الله، واتبعوا رسله، ويندم أهل الباطل الذين أشركوا بالله وابتدعوا في دين الله»[١].

وذكر أن من الضلال إحداث المذاهب والتعصب لها، وقال: «يجب على المسلمين في كل زمان ومكان أن يكونوا في دين الله كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، لم يكن عندهم مذاهب ولا طرق ولا فرق ولا نحل، فلو كان التفرُّق حقاً لكان أصحاب رسول الله ﷺ على مذاهب: بكرية، وعمرية، وعثمانية، وعلوية ـ حاشاهم من ذلك ـ وهم خير القرون. نسأل الله أن يجعلنا ممن اتبعهم بإحسان»[٢].

ونردد مع صاحبنا العلّامة الهلالي أن ما نراه اليوم من أحوال العرب وسائر المسلمين من تخبط في الظلمات إنما سببه الإعراض عن القرآن واتخاذهم إياه مهجوراً، وأنهم لن يخرجوا من ظلماتهم إلا بالرجوع إليه، والاستضاءة به، واتخاذه إماماً وحكماً، والتمسك بسنّة رسول الله ﷺ التي تبيّنه وتشرحه[٣].

وركز الهلالي على هذا المفهوم، وأعاده وكرره، فها هو يقول:

«لا يرتاب أحد ـ لا مسلم ولا كافر ـ أن القرآن أخرج العرب من الظلمات إلى النور، وأخرج جميع الدول الإسلامية السابقة من ظلمات الجهل والفقر والذلة والتشتت والضعف إلى أضدادها، وفي قتال المسلمين لجميع دول أوروبا بملوكها وجيوشها مدة مائة وتسعين سنة على أرض فلسطين وما حولها، وانتصار المسلمين عليهم شاهد من أعظم الشواهد للمقارنة مع استيلاء ثلاثة ملايين من غرباء الآفاق من اليهود على المسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة المقدسة عند المسلمين، ويقابل هذه الملايين الثلاثة مائة مليون من العرب وستمائة مليون من المسلمين غير العرب[٤]، وقد حارب العرب اليهود مراراً وتكراراً فلم يحصلوا على طائل[٥]، فكل من اتبع القرآن والسنّة من الشعوب والدول والأفراد يخرجه الله من الظلمات إلى النور، وكل من خالفهما بعد المعرفة يخرجه الله من النور إلى

---

(١) «سبيل الرشاد» (٢/ ٩٤).
(٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ١٦٧).
(٣) انظر: «سبيل الرشاد» (٢/ ٢٧٤).
(٤) هكذا كان عددهم آنذاك!
(٥) بل جعله في «سبيل الرشاد» (٤/ ١٩٣) من العذاب الأكبر، قال: «إن عجز ثمان مئة مليون عن مقاومة ثلاثة ملايين من العذاب الأكبر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

الظلمات، ومن المخالفين لهما المقلدون وأصحاب الطرائق الذين فرّقوا دينهم وصاروا شيعاً»[١].

ويقول أيضاً:

«أُعيد وأُكرر أن كل شعب أو أمة أو فرد بلغه أمر ربه بواسطة رسل الله تعالى، فعصى أمره وكذب رسله يعذبه الله في هذه الدنيا عذاباً أليماً ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ولا يفلح أبداً، فإن قلت: هذه الأمم الأوروبية نراها تعيش في سعادة دنيوية عزيزة منصورة موسعاً عليها في الرزق مع أنها عتت عن أمر ربها فالجواب: من بلَّغها الإسلام على وجهه؟! ونحن نعلم أن ارتقاءها بدأ عند انحطاط المسلمين ورجوعهم إلى الوراء»[٢].

ويقول أيضاً:

«القرآن كنز عظيم جاءنا به النبيّ الكريم، فاستغله سلف هذه الأمة أحسن استغلال وبلغوا به أوج العلا في سعادة الروح الجسد، وحكموا به مشارق الأرض ومغاربها وملأوا الدنيا علماً وعدلاً ثم خلف من بعدهم خلوف نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؛ فردوا إلى أسفل سافلين وهم في ظلماتهم يعمهون، وقد تعلقوا بالسراب يظنون أنه شراب! ولن يجدوا لدائهم دواء ولا لمشاكلهم حلّاً إلا بالرجوع إلى القرآن درساً وتعليماً وتحكيماً، ويتخذونه سراجاً لهم يضيء ظلمات الحياة الدنيا ويسعدهم في الأخرى»[٣].

والكلام في التقليد والاتباع كثير كثير، وله عند الهلالي عدة اتجاهات، وخاض غماره بتفصيل وتأصيل وتدليل في كثير من كتبه، ولا سيّما في القسم الذي خصصه لذلك في كتابنا «سبيل الرشاد» وللهلالي مناظرات ومناقشات واختيارات نصر فيها التوحيد والسنّة، عملنا على ذكر بعضها في كتابنا المفرد في ترجمته، يسّر الله لنا إتمامه بخير وعافية، وبسطنا فيه كلامه على التحزُّب ومحاربته لأهل البدع، وذكرنا نماذج من كلامه وفتاويه، واعتنينا فيه بجوانب الإصلاح عنده، وفصّلنا أعماله ومهامه في كل بلدة نزل فيها واستقر، أو رحل إليها وزارها، مع بيان المجريات التي وقعت له، وهو شامل حافل، أخذناه

---

(١) «سبيل الرشاد» (٤/ ١٧٠).
(٢) «سبيل الرشاد» (٤/ ١٩٥).
(٣) «سبيل الرشاد» (٤/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

باستقراء وتتبع لما في كتبه ومقالاته وهذا الذي سطّرناه وزبرناه هنا فيه غنية وكفاية ـ إن شاء الله ـ لمن رام أن يعرف منزلة صاحبنا من العلم والدعوة، وأثره في الإصلاح والتغيير، ودوره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه إطلالة جيدة على مدى عناية الهلالي بالتوحيد وحرصه على الدعوة إليه. وبذا نكون قد أزحنا الستار، وكشفنا اللثام، وحقّقنا المقام لعَلَم من الأعلام، ورحالة حاز قصب السبق في توصيل دعوة الحق إلى الأنام، في عصر استحكمت فيه غربتا الزمان والمكان للإسلام، ولذا فَقَدَه الناسُ لما رحل عنهم ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى دار السلام.

* أسلوب المؤلف في الكتاب ومادته وموضوعه وردّه على الأخطاء والبواطيل والخرافات والشرك:

كتابنا «سبيل الرشاد» مفيد جداً، صاغه صاحبه بأسلوب جذّاب، ولغة سلسة، بعيدة عن الغريب والحشو، وزيّنه بحِكَم وقصص وأشعار، وعمل فيه على الاختصار، إلا أنه لم يستطع أن يكبح جماح اليراع، فاسترسل المصنف في ذكر أشياء ليست من مادته ولا صلبه، ولكنها خرجت عفو الخاطر دون تكلف، وهي لا تخلو من فائدة مهمة، فذكر ـ مثلاً ـ (١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢) مناظرته في حجته الأولى سنة ١٣٤١هـ في زمان ملك الحجاز الحسين بن علي، واجتماعه بمحمد حبيب الله بن مايابا الشنقيطي، وأنه قال له: أنت وهابي! ونقل الهلالي على لسانه أنه قال له:

«وأنتم عندي معشر الوهابية ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: أهل نجد، وهم عندنا كفار! كاليهود والنصارى ونحن المسلمون.

والصنف الثاني: وهابية الشام، وأنت منهم، وهذا الصنف عندنا ضلال.

والصنف الثالث: وهم وهابية الهند، وهم عندنا مخطئون».

قال الهلالي: «وبعد هذه المناظرة سمعت أن جماعة من الحجاج الأندونيسيين من أصحاب الشيخ أحمد السركتي[1] ـ رحمة الله عليه ـ جاهروا

(١) مؤسس جمعية «الإرشاد» في سورابايا، أندونيسية، ولها الآن فروع كثيرة، ودرَّستُ ـ ولله الحمد ـ محاضرات عديدة في هذه الجمعية، وعقدت فيها مع بعض إخواني من طلبة العلم دورات للعلوم الشرعية أكثر من مرة، وحصل بها نفع عظيم، ووجدنا بشاشة =

بالتوحيد، فأنكر عليهم الناس وساقوهم إلى مجلس العلماء، فسألهم أولئك المسمَّون بالعلماء!! فاعترفوا فاستتابوهم وهددوهم، فتابوا».

قال الهلالي: «فلما سمعت هذا الخبر اختفيت ثمانية أيام في (المعايدة) عند المغاربة خوفاً من أن يخبر الشيخ المذكور مجلس العلماء فيستتيبوني...».

وذكر كثيراً من القصص التي وقعت له[1]، واستطرد في ذلك، ولكنه كان ـ غالباً ـ يمثّل بها على تأصيل وتقعيد يخدم قواعد ومسائل التوحيد، وهذا يسهل وييسّر فهم مادة الكتاب ولا سيّما من قبل المبتدئين من الطلبة، وعامة المثقفين والمطّلعين.

ولم يَفُتِ المصنِّفَ التنبيه ـ ولو بالإيماء ـ على أخطاء لغوية اشتهرت بين الناس، فقال ـ مثلاً ـ في (١/ ٥٠٢ ـ ٥٠٥):

«والجهال من أهل هذا الزمان يعبرون بالأبسط على الأسهل، وبالبسيط عن السهل أو القليل، ويزيدون على ذلك جهلاً فيقولون: بسّط الشيء ـ بتشديد الشين ـ، بمعنى: سهّله! ويقولون: قواعد النحو المبسّطة، وكل ذلك ضلال، فإن (بسّط) ـ بالتشديد ـ معناه: كثرة التوسيع، كقَتَل وقتّل ـ بالتشديد ـ»[2].

ولم يخل كتابه من تقويم للكتب فهو يمدح بعضاً منها، وسبق كلامه قريباً على «الصوارم والأسنة» وقال عن كتاب «إيقاظ همم أولي الأبصار» للفلاني:

«فعليك بقراءة هذا الكتاب، فإن فيه من الفوائد العلمية ما تشتدّ حاجة كل طالب علم إلى معرفته»[3]. وقال عن مؤلفه: «الإمام المجدد محيي السنّة ومميت البدعة وعدو التقليد»[4].

= واستجابة وترحيباً وتقديراً من إخواننا هناك ـ فجزاهم الله خيراً ـ.
وحصلت ـ ولله الحمد ـ على كثير من الجهود العلمية التي قام بها الشيخ السركتي، وهي جيدة ونافعة، ولعلي أجمعها في (مقالات) مفردة، اللهم يسِّر لي خدمة ما ينفع دينك، ويكون سبباً لنشر التوحيد وصحيح السنة.

(١) انظر ـ على سبيل المثال ـ: (١/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩)، و(٢/ ١٢٤) (ذكر فيه رحلته للنرويج)، و(٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧)، (٣/ ٩١ ـ ٩٢، ٢٦٥).

(٢) للهلالي في كتابه «تقويم اللسانين» (ص٣٢ ـ ٣٤) بسط لهذا الخطأ، وأصل كتابه مقالات نشرها في مجلة «دعوة الحق» المغربية، وهي ضمن «مقالات الهلالي» التي جمعناها له، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٣٤).

(٤) «سبيل الرشاد» (٣/ ٢٨٠).

وقال أيضاً عند كلامه على الجمع بين (الوصل والوقف) في قراءة القرآن، وتعرض لبدعية القراءة بصوت واحد، وقال عنها: «جاءت من الأندلس إلى المغرب في زمان الموحدين». وقال: «فهي بدعة، لم يعرفها مالك، ولا وقعت في زمانه؛ لأنها مأخوذة من الكنيسة النصرانية، فإن النصارى يرتلون صلواتهم من الأناجيل بصوت واحد، فهذه بدعة جديدة وفيها مفاسد متعددة». ثم قال ـ وهذا موطن شاهد ـ مادحاً لكتاب في المسألة، قال:

«وقد شرع أخونا حسن وجاج في تأليف كتاب يقيم فيه البراهين القاطعة على بدعة ما يسمى عند المغاربة بالحزب ويحدد تاريخ وصولها إلى المغرب، وما فيها من المفاسد، وهو عمل مشكور، نرجو أن ينفع الله به من شاء من عباده»[(١)].

ومدح كتب الإمامين المجددين شيخي الإسلام: ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، فقال في (٦/ ٢٧٩) عن مسألة: «وقد فند هذه المسألة بحثاً وتحقيقاً شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية في كتابه المسمى «التوسل والوسيلة...».

ويحذِّر من كتب أخرى، فها هو يقول ـ مثلاً ـ عن كتاب «الإبريز» لأحمد بن المبارك اللمطي المغربي ـ ونقل بعض الترهات والخزعبلات التي فيه ـ: «وهذا الكتاب مقدّس عند أكثر علماء الأزهر وعلماء المغرب، ومن ذلك تعلم أن علم الكتاب والسنّة قد مات وصار أهله غرباء»[(٢)]!.

وكذا قوّم فيه شعراً، فمدح بعضاً وقدح في بعض آخر، ولعله تعداه إلى صاحب الشعر، فقال ـ مثلاً ـ في (٣/ ٢٣٩) عن الشاعر صالح بن عبد القدوس: «كان زنديقاً»!.

وقال في (١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢): «قال أحد المشركين من أهل المغرب يطلب النصر على الفرنسيين من الإمام إدريس بن عبد الله المدفون في زرهون من بلاد المغرب، لما حاصر الفرنسيون مدينة فاس...». وأورد بيتين من الشعر[(٣)]، وذكر

---

(١) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٧٢)، وانظر تعليقنا عليه.
(٢) انظر: «الهدية الهادية» (١٢٩) وكتابنا هذا (١/ ٢٦٢).
(٣) وأعادهما في (١/ ٤٧٠) وقال عقبهما: «أراد هذا المشرك المجنون أن يقوم إدريس من قبره، أو تأتي روحه، فتقاتل الجيش الفرنسي، وتصده عن مدينة فاس، أما هو فيجلس =

في الموطن نفسه أشعاراً فيها شرك يقولها التيجانيون في عادتهم بلسان واحد. وذكر فيه أيضاً ثلاثة أبيات أخرى يقولها الدرقاويون! وتعرض في (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤ و٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٢) لأبيات من قصيدة «البردة» للبوصيري، ونقدها، إذ فيها غلو في رسول الله ﷺ، وكذلك رد في (١/ ٤٨٩) على من أنشد شعراً في النبي ﷺ، فقال:

حبا اللّهُ النبيَّ مزيدَ فضلٍ ... على فَضلٍ وكَان به رؤوفا
فأحيا أمَّه وكذا أباهُ ... لإيمانٍ به فضلاً مُنِيفا
فَسَلِّم فالقديرُ به جديرٌ ... وإنْ كانَ الحديثُ به ضَعِيفا

ونعت صاحب هذا الشعر بالجاهل، إذ قال عقب الأبيات: «وقال آخر، وهو أشد جهلاً من الأول:

أيقنت أن أبا النبي وأمه ... أحياهما الرب الكريم الباري
حتى له شهدا بصدق رسالة ... سلِّمْ، فتلك كرامةُ المختارِ
هذا الحديث ومن يقول بضعفه ... فهو الضعيف عن الحقيقة عاري

وقائل هذا الشعر من أجهل الجاهلين، فإنما أراد أن يعظم النبي ﷺ بتكذيبه وتكذيب جميع المحدّثين[1]، وكفى بذلك جهلاً وضلالاً».

ولم ينسَ الهلالي نقد من يتجهون للنبي ﷺ بالدعاء، وطلب الغفران الذنوب منه، فقال (١/ ٥١٢):

«والجهال المنتسبون إلى الإسلام يعبدون بعض الأنبياء، فيستغيثون بالنبي ﷺ، فيقولون: يا رسول الله! يا محمد! أعطنا وأغثنا! كما قال قائلهم:

يا رسول اللّه يا بحر الوفا ... يا غياث المعتدي والمهتدي
إنني عبدٌ ضعيفٌ وَجِلٌ ... وذنوبي ما لها من عددِ»

= رابضاً كالثور المريض في يده سبحة يعدّ حباتها ويأكل ويشرب، فلم يغثه إدريسه بل دخل الفرنسيون مدينة فاس، ثم فتحوا بلاد المغرب بلداً بلداً إلى أن استولوا عليها كلها، ومكثوا يحكمونها بالحديد والنار ثلاثة وأربعين سنة...».

(١) بيّنتُ بتطويل وتحقيق ـ ولله الحمد ـ ضعف ووهاء جميع ما ورد في هذا الباب في تقديمي لكتاب عليّ القاري «أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ»، وأوردت في الطبعة الثانية منه كلام العلّامة الهلالي هذا، والحمد لله وحده، لا ربَّ سواه، ولا معبود بحقٍّ إلا إياه.

قال في نقد البيتين:

«فانظر إلى هذا الجاهل المشرك الذي يعتقد أن النبي ﷺ لا يغيث المهتدين فقط، بل يغيث المعتدين أيضاً، ثم توجه إلى النبي ﷺ في البيت الثاني يريد منه مغفرة ذنوبه، وهذا جهل عظيم، فإنه لا يغفر الذنوب إلا الله، والنبي ﷺ لا يغيث أحداً لا معتدياً ولا مهتدياً، وإذا كان يغيث المعتدي فهو إعانة له على الاعتداء ـ حاشاه من ذلك ـ».

وردّ على جملة من الأشعار فيها عبادة الأولياء[1]، والتوجه إلى المقبورين بالتضرع في طلب المطر، ويقولون وهم حفاة، حاسرو الرؤوس، والثور يمشي أمامهم ليذبحوه على القبر:

جـئـنـاكـم قـاصـديـن لا تـردونـا خـائـبـيـن
يـا أولـيـاء الـلّـه الـصـالـحـيـن[2]

ولم يقتصر في ردّ الشعر على النثر، بل عارضه بشعر آخر، فقال عند حديثه عن (علم الكلام) ممثلاً به على العلم الذي لا ينفع وإن كان صاحبه يعتقد أنه حق، قال:

«وقول بعض المتكلمين شعراً:

أيـهـا الـمـغـتـدي لـيـطـلـب عـلـمـاً كـل عـلـم عـبـد لـعـلـم الـكـلامِ
تـطـلـب الـعـلـم كي تـصـحـح حـكـمـاً ثـم أغـفـلـت مُـنـزِّل الأحـكـامِ

وجوابه أن يقال: كذبت علم الكلام ليس سيداً للعلوم، وإنما هو عبد لَهو من المتفلسفين، وسخافاتهم وهو بدعة ملعونة، إلا في حق من اضطر إليه ليدافع به عن الحق، ويلجم أهله، ويرميهم بأحجارهم، ويأخذهم بإقرارهم، ثم يقال له: نحن ما أغفلنا مُنزِّل الأحكام ولكنّا وصفناه بما وصف به نفسه سبحانه وبما وصفه به رسوله الكريم متّبعين في ذلك لنبيّه ﷺ وللصحابة والتابعين.

وأقول في ذلك شعراً معارضاً له[3]:

(١) انظر: «سبيل الرشاد» (١/ ٥١٢ و٢/ ٢٦٢).

(٢) «سبيل الرشاد» (١/ ٥١٤)، ورد في (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢) على شعر فيه استسلام المريد للشيخ، وعدم استفساره عن شيء ولو كان ظاهر الحرمة!

(٣) لم أجد هذين البيتين في أي كتاب من كتب الهلالي المطبوعة، وفاته رحمه الله أن يذكرهما في «ديوانه» الذي عنّ له جمعه بعد ضياع قسم من شعره، ولا زال على الآلة الراقمة!

أيها المغتدي لتطلب علماً اجتنب جاهداً ظلامَ الكلامِ
إنَّ علمَ الكلام ليس بعلمٍ إنما العلمُ شرعةُ العلّامِ

وكذلك علم الفروع إذا لم يكن معه علم الكتاب والسنّة، كعلم الغزالي والبيضاوي والزمخشري، فهؤلاء كلهم جاهلون بالحديث، ومن جهل الحديث لم يستطع أن يفهم القرآن، فيكون محروماً من علم الكتاب والسنّة كهؤلاء الثلاثة الذين حشوا كتبهم بالموضوعات والمتروكات والغرائب التي لا تخفى على المبتدئين في علم السلف، مع أن الغزالي كان عالماً بالفلسفة وبدع المتصوفة، وعلم الفروع وأصول الفقه المبنية على شفا جرف»[(١)].

ولم يقتصر في نقد الشعر على المعنى والفحوى، وإنما نقد الألفاظ والمبنى، فقال في (٢/ ٣١٨) وأورد أبياتاً من قصيدة نظّمها العلّامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي في أسماء الله الحسنى، ثم ذكر في الباب نفسه القصيدة الدمياطية، وقارن بينهما بقوله:

«القصيدة الهلالية أقل دعاء، وأفصح لفظاً، وكل بيت منها يشتمل على أربعة أسماء أو أكثر، وأما الدمياطية فألفاظها ركيكة، ونظمها غير جيد، إلا أن كل بيت منها لا يزيد على اسمين، والباقي كله دعاء»[(٢)].

وأورد المصنف قصيدة السجلماسي بتمامها في آخر الكتاب (٦/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)، وقال في (٦/ ٢٨٠ ـ ٢٨١) عن قصيدة الدمياطي ـ وتلكأ في تحديده وتعيينه ـ: «ليس فيها انسجام ولا بلاغة، فلذلك تركت نقلها». وعلّل نقل القصيدة الأخرى بقوله: «فقد عزمت على نقلها تسهيلاً لحفظ أسماء الله الحسنى». وأكثر الهلالي في آخر الكتاب (٦/ ٢٨٣ ـ ٣٠٦) من نقل الشعر الذي ينصر عقيدة أهل السنّة، وعنون عليه بـ(**جيوش الشعر**)، وقال:

«بدأتُ هذا القسم بالجيوش الإسلامية للإمام الحافظ ابن القيّم هي نثر، وأختمه بجيوش الشعر لأئمة مختلفين في أوطانهم وأزمانهم، متّفقين على العقيدة الحنيفية».

(١) «سبيل الرشاد» (١/ ٥٩٥).
(٢) بنحوه في أول كتابه «قصيدة أسماء الله الحسنى»، وقال في مقدمته عن قصيدته في هذا الباب: «نظمتها في العاشر من ذي القعدة سنة ١٣٩٧هـ».

وابتدأها بنونية الإمام عبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي[(١)]، وقال: «أثبتُّها مختصرة؛ لأني رأيتُ أن أحذف منها ما يتعلّق بفروع المالكية»[(٢)].

ونقل بعد ذلك قصيدة للشيخ علي بن سليمان القصيمي المتوفى بالدورة في جنوب العراق في (نحو سنة ١٣٤١هـ) من كتابه «المجموعة المفيدة»[(٣)].

ثم نقل قصيدة «الشهب المرمية على المعطلة والجهميّة» للشيخ الفاضل أحمد بن مشرف، وهي لامية طويلة فيها جميع معتقد أهل السنّة في الأسماء والصفات والإيمان بالقضاء والقدر وما يتعلّق بذلك، ثم أنهى النقل بالقصيدة البائية في الحثّ على مكارم الأخلاق للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني، وتوّج ذلك كله بقصيدة ختم بها الكتاب، قال عنها (٦/ ٣٠٢):

«ونختم هذه الجيوش الشعرية بقصيدتي التي سميتها «الكتيبة المظفرة في رجم شياطين البغي والشرك والبدع المستنكرة»» وذكر فيها خدمته للسنّة، فقال:

وما نحن إلا خادمون لسنّة ... أَتَتْ عن نبي اللّهِ ذي الفتح والنصرِ

وقال في محبته لأهل السنّة:

سلام على أنصار سنّة أحمد ... فهم أولياء اللّه في كل ما دهرِ

إليهم أجوب البر والبحر قاصداً ... فرؤيتهم تشفي السقيم من الضرِّ

وعمل الهلالي في كتابه هذا على محاربة الخرافة، وبيّن أن هذا من ميزة الموحّد التوحيد الصحيح، حتى قال (٢/ ٦٧): «كل موحّد وإن قلّ علمه، يجد حجة على توحيد الله تعالى يغلب بها أكبر علماء الشرك والتقليد» وبيَّن ذلك بقصة عملية، قال:

«فمن ذلك أن رجلاً من المشركين في صعيد مصر بالريرمون، قال لموحّد: أنتم وهابية، تنكرون معجزات النبي ﷺ مع أنه حي يصلي في قبره، والأغوات ـ وهم خدّام المسجد النبوي ـ يضعون له الماء للوضوء قبل كل صلاة، فقال له

---

(١) لم أظفر له بترجمة على شدة تتبُّعي لذلك، ولكني وجدت القرطبي نقل من قصيدته هذه في «التذكرة» و«التفسير» ولأبي العلاء المعري ذكر فيها، فهي قديمة، وصاحبها أندلسي، ومعرفتهم عند المشارقة وفي كتب تراجمهم غير مستوفاة، ولا قوة إلا بالله!

(٢) «سبيل الرشاد» (٦/ ٢٨٣).

(٣) أفاد الهلالي في «سبيل الرشاد» (٦/ ٢٨٣): أن الذي طبعها وبعث بها إليه صديقه الصادق الشيخ عبد الله الغنيمان بارك الله له في حياته.

الموحّد: أنت كفرتَ بإجماع المسلمين، وتنقّصت رسول الله ﷺ شر تنقّص؛ لأن الوضوء لا يكون إلا عن حدث، والنبي ﷺ منزّه عن الحدث بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، فاعترف المشرك، وقال: أستغفر الله». قال الهلالي:

«والحكايات في هذا الباب كثيرة».

وذكر خرافات يعتقدها أهل المغرب العربي، فقال ـ مثلاً ـ في (٢/٣١٨ ـ ٣١٩) عن القصيدة الضمياطية:

«ومن العجيب عند المغاربة ـ وما كثر عجائبهم! ـ أنهم يعتقدون أن من قرأها، وأكثر قراءتها يصاب بالجنون؛ لأن لكل بيت منها خاصيته، وخداماً من الجن يقضون حاجة من دعا به، ولكن قلّ من يتغلّب عليهم فيستجيبون له ويخدمونه، وأكثر من يحاول التغلب عليهم يهزم ويُصاب بالجنون» قال:

«حتى إن سكان الجزائر إذا رأوا شخصاً من حفّاظ القرآن لم تعجبهم حاله يقولون: هذا (مضميط)، يعنون: أنه فَقَدَ عقله بكثرة قراءة الضمياطية» وعلّق على ذلك بقوله:

«والمغاربة ليسوا كذّابين فيما زعموا، فإن من قرأها للسحر واستخدم الجن يصاب بالجنون والوسوسة وتجيئه خيالات تفتنه، وتفسد عقلَه»!

وذكر في كتابنا هذا أيضاً (٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥) خرافة علقت في أذهان كثير من الناس أنه عند بناء البيت الجديد لا بدّ من طبخ ذبيحة في ماء بلا ملح، ويرش ذلك الماء في جوانب البيت، وذكر قصة حصلت معه في بغداد عند بنائه بيتاً جديداً مع رئيس البنّائين، هدم فيها هذه الخرافة، بالقول والعمل، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

وفصّل في (١/ ١٧٨ ـ ١٧٩) في خرافة الخط بالرمل، وعمل الدجالين (الرمّالين) في ادعاءهم معرفة الغيب من خلال ذلك[1]، وذكر في (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢) خرافات ذكرها صاحب[2] «الإبريز في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ» ونسفها نسفاً، واستطرد في ذكر ما يشابهها، ونعت حكاية فيه (١/ ٢٤٢) بأنها

(١) لابن رشد الجد رسالة مفردة في الرد على مدَّعي الغيب من علم الخط، منشورة بتحقيقي، والحمد لله وحده.

(٢) هو أحمد بن مبارك اللمطي المغربي.

«ملعونة» وقال عنها: «يبرأ منها الله ورسوله، وجميع المسلمين الذي يعرفون ما هو الإسلام، سواء كانوا صوفية أو فقهاء، أو أهل حديث».

وذكر في (١/ ٣١٤ ـ ٣١٧) جملة من قصص فيها عبادة غير الله ﷻ، وشيوع الخرافة في المغرب ومصر عند الأضرحة، وذكر ذلك عن شيخه الورع التقي الزاهد محمد سيدي بن حبيب الله، وعن صديقه الشيخ العلّامة عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ، وأنهما ـ وغيرهما ـ حدثوه بقصص يندب بسببها على الإسلام، وتسكب الدمعات على التوحيد، واستطراده في ذكر هذه القصص من باب التحذير من الشر والشرك وشركهما، وقد قعّد أصلاً قبل ذكرها بأن كل من أشرك بالله وعبد معه غيره يختل دينه وعقله، حتى يهبط إلى عبادة الحيوان الأعجم، قال: «وعبادة الحيوان الأعجم شائعة عند المشركين في كل زمان ومكان» وأخذ بالسرد والنقل، ذاكراً من أخبره، وما شاهده.

ونزيد على ما أصّله فنقول محذِّرين: من لم يعظّم الله حق التعظيم، لا بدّ أن يعظّم غيره، ولو كان حيواناً أو حجراً أو شجراً، لا يضر ولا ينفع.

وذكر في (١/ ٣٩١) أن اعتراض المبطلين والطرقيين والخرافيين غير قائم على نقل أو عقل، وإنما على عبارات زيّنها لهم شياطين الإنس والجن، فهم يقولون لداعيهم إلى التوحيد:

«أنت تريد أن تأتينا بالمذهب الخامس، ونحن راضون بمذهبنا لا نبغي به بديلاً» ونقض هذا الكلام بقوله:

«فيقال لهم: إن كان الصحابة والتابعون أهل القرون المفضلة من مبعث النبي ﷺ إلى مئة وعشرين سنة[1] كلهم على المذهب الخامس، فما أحسن

---

(١) بيّن الهلالي في غير موطن من كتابنا هذا حال بعض أهل الحجاز ونجد قبل تمكُّن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، وهاك ـ مثلاً ـ لتعلم ـ أخي القارئ ـ بركة وثمرة ظهور هذه الدعوة المباركة، قال في (٣/ ١١١) ما نصه: «ولما زرت بلاد شرقي الحجاز وأوائل نجد وجدت عندهم كاهنات إذا أراد شخص أن يتزوج أو يسافر أو يتّجر في شيء، يأتي إلى الكاهنة ويقدم لها الحلوان ولا يكون أقل من بعير، فتبيِّت له وفي الصبح تخبره وتأمره بالإقدام أو الإحجام، وهؤلاء القوم من أهل البادية لم تبلغهم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فدَعوتُهم إلى توحيد الله وسنة رسول الله وكان معي أحد أمراء تلك النواحي ماجد بن موكّد أمير النخيل».

المذهب الخامس[(١)]! والحق أنكم كاذبون، فإنه لا يوجد في الإسلام إلا مذهب واحد، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما حدث بعدهم من المذاهب فهو ذاهب».

ومما ينبغي أن يذكر بهذا الصدد أن اعتبار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (مذهباً) جديداً **ونبزها بـ(الوهابية)!** إنما **ظهر من أعدائها**، وإنما **هي دعوة سلفية خالصة**، أُلصِقت بها تهم وبواطيل، وافتراءات وأكاذيب، وأصبح الخصوم والأعداء من القبوريين والطرقيين ينعتون الدعاة إلى التوحيد والكتاب والسنّة بـ(الوهابيين)؛ حنقاً وحقداً على التوحيد وأهله وأئمته! ولا قوة إلا بالله.

وكلمة (وهّابي) ـ على حدّ عبارات النابزين ـ تسمية غريبة، لم تنقل عن أحد من أئمة الدعوة الأول، وإنما نقلت عن خصومهم، وإلا؛ فنعم الانتساب إلى (الوهاب) ـ جلّ جلاله ـ:

إن كان توحيد الإله توهباً يا رَبِّ! فاشهد أنني وَهّابي

وهاك نصّين من كلام الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في بيان معتقده ومنهجه:

الأول: في «مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» ـ القسم الخامس (الرسائل الشخصية) (ص٢٥٢) ـ ما نصه:

«لست ـ ولله الحمد ـ أدعو إلى مذهب صوفي، أو فقيه، أو متكلم، أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم؛ مثل: ابن القيم، والذهبي، وابن كثير، وغيرهم، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنّة رسول الله ﷺ التي أوصى بها أول أمته وآخرهم، وأرجو أني لا أردّ الحق إذا أتاني، بل أُشهد الله وملائكته وجميع خلقه: إن أتانا منكم كلمة من الحق، لأقبلنها على الرأس والعين، ولأضربن الجدار بكل ما خالفها من أقوال أئمتي، حاشا رسول الله ﷺ؛ فإنه لا يقول إلا الحق...».

والآخر: جاء في رسالته لعبد الرحمٰن بن عبد الله السويدي أحد علماء العراق يذكر الإمام رحمه الله حقيقة دعوته، ومن ذلك قوله ـ كما في «مؤلفات الشيخ الإمام» (الرسائل الشخصية) (٥/٣٦):

(١) هي الفترة التي لم يظهر فيها مذهب من المذاهب الأربعة المتبوعة.

«أخبرك أني ـ ولله الحمد ـ مُتَّبِعٌ، ولست بمبتدع، عقيدتي وديني الذي أدين الله به مذهب أهل السنّة والجماعة، الذي عليه أئمة المسلمين؛ مثل: الأئمة الأربعة، وأتباعهم إلى يوم القيامة، لكني بيّنت للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يُعبَد الله به، من الذبح والنذر والتوكل والسجود، وغير ذلك مما هو حق لله الذي لا يشركه فيه ملك مقرب، ولا نبيّ مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السنّة والجماعة».

وهناك نقولات عديدة عن الإمام المجدد، وغيره من أئمة الدعوة المباركة في الاتباع، والاقتصار على الدليل، ونبذ ما يخالفه. تراها في رسالة «الإقناع بما جاء عن أئمة الدعوة من الأقوال في الاتباع».

وأما عن الشبه التي تثار في وجه هذه الدعوة، فقدْ تصدى لها بالدراسة والرد على وجه حسن غايةً: الأخ الباحث الشيخ عبد العزيز العبد اللطيف في كتابه «دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عرض ونقد».

وأما عن المؤلفات التي طبعت وفيها سموم وبواطيل حول هذه الدعوة، فقد كدتُ استيعابها والتحذير منها في كتابي «كتب حذّر من العلماء» (المجموعة الأولى) (١/ ٢٥٠ ـ ٢٨٧)، فانظره، فإنه مفيد ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ولشاعرنا الهلالي قصيدة مهمة في هذا الباب، مطلعها:

نسبوا إلى الوهاب خير عباده ... يا حبذا نسبي إلى الوهاب
اللّه أنطقهم بحق واضح ... وهم أهالي فرية وكذابِ
أكْرِم بها من فرقة سلفية ... سلكت محجّة سنّة وكِتابِ
وهي التي قصد النبي بقوله ... (هي ما عليه أنا وكل صحابِي)
قد غاظ عبادَ القبور ورهَطَهم ... توحيدُنا للّه دون تحابِ
عجزوا عن البرهان أن يجدوه إذ ... فزعوا لسرد شتائم وسِبابِ

وركّز المصنف كثيراً على بدعة التعصب المذهبي، فأصغ إليه وهو يقول في (٣/ ١١٢): «اعلم أيها القارئ الموفّق والمستمع المهتدي أن التمذهب كله شر وبدعة من أقبح البدع وحسب أهله ضلالاً: أنهم تفرقوا في دينهم وليسوا من الله في شيء ورسوله ليس منهم في شيء. والواجب على كل مسلم أن يكون في أمور الدين كما كان أصحاب رسول الله ﷺ إمام واحد، ودين واحد، وأمة واحدة،

وإله واحد لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون لا مذاهب، لا طرائق متصوفة، لا أحزاب سياسية، وحسبنا حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون. قال الشاطبي في «الاعتصام»[(١)]: «قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأني سمعت الله يقول[(٢)]: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وما لم يكن يومئذ ديناً) لا[(٣)] يكون اليوم ديناً»[(٤)]، ومن المعلوم أن التمذهب واتباع طرائق الصوفية ولبس الخرقة واتخاذ الأوراد والاجتماع للذكر بلسان واحد كما يفعل اليهود والنصارى في كنائسهم، والتفرُّق إلى أحزاب متناطحة، والاجتماع على الرقص والغناء وآلات اللهو والمكاء والتصدية، كأصوات الحيوان ونسبة ذلك إلى دين الله إفك مبين وبناء القباب على القبور والذبح عليها والنذر لها واتخاذها مواسم وأعياداً، كل ذلك لم يكن في زمن النبي ﷺ ديناً فلن يكون ديناً أبداً».

ويجعل الهلالي سرّ سؤدد وعزة المسلمين: التوحيد والاتباع، وذكر في كتابنا (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣) قصة وقعت لعمر بن عبد العزيز، وأنه قضى فيها على حال، وبلّغه عروة بن الزبير أن النبي ﷺ قضى فيها بشيء آخر، فرجع إلى قضاء رسول الله ﷺ، قال:

«في هذه القصة فائدة جليلة وهي أن ملوك المسلمين في ذلك الزمان كانوا يذعنون للحق ويفرحون به وينفذونه، ولم يكن العلماء يهابونهم إذا أخطؤوا في الحكم أن يعلِّموهم بخطئهم». وقال على إثر ذلك (٣/ ١٣٤):

«وهذا يفسر لنا ما أدركه المسلمون في ذلك الزمان من العزة والسؤدد، فأين هذا من الديمقراطية التي يتبجّح بها أهل هذا الزمان؟! لا جرم لو أن قاضياً من قضاة العصور المتأخرة حكم بحكم، فجاءه عالم، وأخبره بخطئه، لكان نصيب ذلك العالم أن يسمع منه ما يكره، هذا إذا لم يأمر بحبسه، وهذا إذا اعترض على قاضٍ فقط، فكيف بمن هو فوقه من الرؤساء، كوزير العدل؟! فضلاً عن رئيس الدولة»؟!

---

(١) (١/ ٦٢ ـ بتحقيقي).
(٢) كذا في الأصل، وفي «الاعتصام»: «لأن الله يقول».
(٣) كذا في الأصل، وفي «الاعتصام»: «فما لم... فلا».
(٤) ذكره أيضاً صاحب «تهذيب الفروق» (٤/ ٢٢٥).

وهذا الداء (التقليد والتعصب) عالجه المصنف من جميع جوانبه، فلم يكتفِ بذم التعصب المذهبي والحزبي والطرقي، بل ذكر أيضاً نوعاً أسوأ وأخطر من هذين النوعين، وهو التعصب للجنس، وردّ على دعاة العروبة، والمذاهب الوضعية، والأفكار القومية والأرضية، فاسمع إليه وهو يقول (٣/ ٢٨٨):

«لم يبق لي ما أزيده في الردّ على المقلّدين المتعصّبين للمذاهب أو الطرائق أو الأحزاب، ولكن بقي لي كلام مع السياسيين ودعاة العروبة والاشتراكية والمحاربين بزعمهم للرجعية فأقول لهم ـ وبالله أستعين ـ: قد علمتم أن الله وعد الذين آمنوا بمحمد والقرآن وعملوا الصالحات؛ أي: صدقوا في إيمانهم وشفعوا القول بالعمل أن يجعلهم خلفاء الأرض يتصرفون فيها كيف يشاؤون، فهم الحكّام وهم العلماء، وهم الأمناء على كنوز الأرض وثمرات الأعمال، لا يد فوق يدهم، واستمر ذلك من عهد النبوة إلى نهاية الحروب الصليبية، وامتد بعضه إلى الحكم العثماني، لكن ماذا حدث بعد ذلك زال الإيمان والعمل، فذهب العز والنصر، ويا أيها المسلمون، ويا أيها العرب المسلمون، ارجعوا إلى الإيمان والأعمال الصالحة والاتحاد على اتباع كتاب الله وسنّة رسول الله، ونزّهوا أنفسكم من التعصب للأوطان وللأجناس وللفِرق والمذاهب، واجعلوا إلٰهكم واحداً وارضوا بالله صاحباً، استضيئوا بنور الكتاب وسنّة النبي الكريم والأصحاب، إذا شئتم أن يرد الله لكم ما كان لأسلافكم من العزّ والتمكين والنصر المبين ويكبت أعداءكم، ألا تستحيون من الله ثم من الناس أن يجمع اليهود شملهم بعد أن تشتتوا آلاف السنين، ثم يعمدوا إلى الأرض المقدسة التي أخرجهم الله منها بسبب ذنوبهم وتركِهم رسولهم وكتابهم واختلافهم فيما بينهم، فيغتصبوا منكم تلك الأرض اغتصاباً ـ وعددهم بالنسبة إلى عددكم ـ نحو ربع واحد في المائة.

أما أنتم أيها النصارى العرب! فدعوا الكيد والدس والخداع لإضلال المسلمين وتشتيت شملهم، ولا تكونوا كالذي قال: اقتلوني ومالكاً، فإن ذلك لا يشفي ما في صدوركم ولا يغني عنكم إلا قليلاً، فإنكم دعوتم للتعصُّب للعروبة وأنتم أبعد الناس عنها، فما لكم منها إلا الاسم فإنكم عاديتم الدين الذي به شرّفتم وواليتم أعداء العرب وتسمّيتم بأسماء عجمية، فما هذه العروبة التي تدعون إليها؛ أهي عروبة محمد رسول الله؟ كلّا، فإنكم تبغضونها وتحاربونها. أم هي

عروبة أبي جهل وأبي لهب؟ فهذه العروبة ليس فيها إلا الجهل والذل والخزي والشتات وعبادة الأصنام، ووأد البنات وأكل الميتة وعدم توريث الإناث، والأنصاب والأزلام والميسر والقتل والنهب واستعباد الأخ لأخيه. أهذا هو البعث العربي؟ كلّا، والله بل هو الموت، فإن قلتم: إننا ما قمنا بهذه المكيدة إلا دفاعاً عن النفس لأن هؤلاء العرب الذين يدعون الإسلام بله العجم، لم يبق لهم من الإسلام إلا اسمه وقد تعصبوا علينا وأهانونا، قلنا: كل واحد من الفريقين يرجع عن غيّه واجتمعوا على الإنصاف».

ومن دقّة فهم صاحبنا الهلالي وعلمه، وشدة حرصه، وسعة اطلاعه، ربطه المخالفات العقدية والإصلاحية بما عليه أهل الفِرَق الضالّة، وبيان كيفية انتقالها إلى المسلمين، فذكر ـ مثلاً ـ أن السياحة من أعظم أركان الدين الهندي البرهمي، وأفاض في نقل ذلك عن كتاب الدكتور أحمد شلبي «مقارنة الأديان»، ثم ربطها بما عليه أهل البدع من المسلمين، فقال في (٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١) نقلاً عن الدكتور المذكور أنه يجب على البرهمي أن يقسّم حياته ثلاثة أقسام:

«**القسم الأول**: من طفولته إلى أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، يسيح في الأرض لطلب العلم ولا يشتغل بالكسب، بل يعيش على ما يجده من الثمر الساقط من الأشجار والنبات، وإذا اضطر إلى السؤال سأل الناس.

القسم الثاني: بعد نهاية خمسة وعشرين سنة يشتغل بالكسب ويتزوج، ويكون له أولاد إلى أن يبلغ خمسين سنة.

القسم الثالث: بعد نهاية خمسين سنة يسيح في الأرض على الصفة التي تقدم ذكرها من التقشّف والبعد عن الملاذ والاعتزال عن الناس، إلا إذا كانوا زهّاداً مثله، ويستمر على ذلك إلى أن يموت».

وجاء في سيرة بوذا: أنه كان ابن أحد كبار الأغنياء، ولما بلغ خمساً وعشرين سنة تزوج فولد له ولد ثم هجر معيشة الترف وساح هائماً على وجهه، فلقي خمسة من الزهّاد فصحبهم مدة ثم تركهم، واستمر في السياحة والتقشف وتعذيب النفس إلى أن جائته الحكمة وهو جالس تحت شجرة في الغابة، ثم توجه إلى بنارس وأخذ يعلم الناس دينه، وهذه السياحة الهندية الوثنية هي التي ذكرت عند رسول الله ﷺ فنهى عنها وقال: «قد أبدلنا الله بذلك الجهاد في

سبيل الله والتكبير على كل شرف»[١]. وقد اقتبس بعض الجهال من المتصوفة تعذيب النفس من الدين الهندي الوثني، وقد ذكر الحافظ ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس» حكايات كثيرة في تعذيب المتصوفة أنفسهم بالجوع، زادوا فيها على نسّاك الهند الوثنيين أضعافاً كثيرة أذكر منها شيئاً يسيراً، فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن الجوزي في الكتاب المذكور (ص٢٠٠): «حكى أبو حامد الطوسي عن سهل ـ يعني ابن عبد الله التستري ـ قال: كان سهل يقتات ورق النبق مدة وأكل دقاق التبن مدة ثلاث سنين واقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين».

ثم قال الهلالي:

«ولم يزل جهّال المتصوفة يأخذون هذه الضلالات عن عبدة الأصنام في الهند وعن رهبان النصارى إلى يومنا هذا، ومن ذلك السياحة التي يدعو إليها **طائفة التبليغ** المتبعين للشيخ محمد الياس الهندي وهم منتشرون في جميع أنحاء الدنيا، والركن الأعظم من طريقتهم هو ما يسمونه **الخروج في سبيل الله**، فإنهم يبذلون جهوداً عظيمة في الدعوة إلى هذا الركن وهم في ذلك مخلصون لطريقتهم وناجحون في عملهم، وكل داع مخلص ناجح على قدر إخلاصه يكون نجاحه سواء دعا إلى حق أو إلى باطل، وهذا الركن الذي يسمونه الخروج في سبيل الله وما يلزمه من التقشف في المعيشة هو بعينه السياحة التي تقدم ذكرها، ونهى عنها النبي ﷺ وهي بدعة محضة لم يفعلها النبي ﷺ، فإنه خرج إلى الطائف لدعوة أميرها ولم يكن معه إلا خادمه مولاه؛ أي عبده المعتق زيد بن حارثة، فلما دعا أمير الطائف ردّ عليه ردّاً قبيحاً وقعد له سفهاء الطائف في طريقه سماطين؛ أي صفين، ورموه بالحجارة حتى سال الدم من رجليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم رجع إلى مكة، والقصة معروفة في السيرة[٢] ولم يخرج معه أحد من المسلمين من أهل مكة، وكذلك توجه إلى دعوة أحد رؤساء العرب وهو ابن عبد ياليل بن عبد كلال وحده، فرد عليه ردّاً قبيحاً فأصابه من الغم ما أذهله حتى أنه مشى في البرية مغموماً محزوناً، فلم يشعر إلا وهو في قرن الثعالب فرفع بصره إلى السماء، فرأى سحابة وفيها جبريل ومعه ملك الجبال فسلم ملك الجبال على النبي ﷺ وأخبره أن الله تعالى أمره أن يفعل ما يأمره به النبي ﷺ، وقال له: إن

(١) انظر تخريجه في تعليقنا على (٣/ ٢٢٩).
(٢) انظر التخريج في التعليق على الكتاب (٣/ ٢٣٢).

شئت أطبقت عليهم الأخشبين؛ أي الجبلين، فقال النبي ﷺ: «**إني أرجو أن يخرج الله من ظهورهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً**»(١). وهذا أشد يوم على النبي ﷺ، فإن عائشة رضي الله عنها سألته: هل مرّ عليك يوم أشدّ من يوم أُحد؟ فقال لها: «**نعم**»، وأخبرها بالحكاية المتقدمة.

وفي غزوة أُحد كان المشركون قد حفروا حفراً في الجبل فسقط النبي ﷺ في إحدى الحفر فأغمي عليه، ودخلت حلقة من حلقات المغفر في خدّ النبي ﷺ فأخرجها أحد الصحابة عاضّاً عليها بأسنانه حتى انكسرت له سنّ وكسرت رباعية النبي ﷺ؛ أي سنّه، في ذلك السقوط وجرحت شفته وسال الدم من وجهه، ولما استفاق ورجع إلى المعسكر خرج له أُبيّ بن خلف راكباً على فرس له مدججاً بالسلاح فقال: أين محمد؟ فانتدب عشرة من الصحابة لقتاله فمنعهم النبي ﷺ وخرج له وهو على تلك الحال وأخذ حربة وكان عدو الله قد غطّى جسمه بالحديد ورأسه كذلك، ولا يظهر منه إلا ثغرة في نحره فطعنه النبي ﷺ بالحربة في تلك الثغرة فسقط على الأرض ومات(٢) بعد ذلك ورجع النبي ﷺ مظفراً منصوراً.

فهذه هي الشدائد التي أصابته في يوم أُحد، ومع ذلك كانت هذه الشدائد أهون عليه مما أصابه من الغمّ حين دعا ذلك الكافر ولم يجبه؛ لأنه كان في يوم أُحد معه جيش، وفي يوم قرن الثعالب لم يكن معه أحد، **وادعاؤهم أن تلك البدعة سنّة** النبي ﷺ وأصحابه، ولولا ذلك لم ينتشر الإسلام في الشرق والغرب **باطل**؛ لأن الصحابة حين نشروا الإسلام خرجوا للجهاد في سبيل الله وكانوا لا يتركون بلداً حتى يسلم أهله، أو يصالحوا المسلمين، أو يكونوا تحت ذمتهم، وترتفع فيه راية الإسلام ويحكم بشريعته ثم يتقدمون إلى بلد آخر لا على طريقة السياحة الصوفية المقتبسة من الديانة الوثنية التي ليس فيها جهاد ولا تغيير منكر!!

بل فيها إقرار المناكر والسكوت عليها والصلاة عند الأضرحة المعبودة وفاعلها ملعون على لسان النبي ﷺ. فقياس هذه السياحة على الجهاد في سبيل الله من أفسد القياس، وفي هذه السياحة مفاسد كثيرة منها تضييع العيال، وقد قال

(١) انظر التخريج في التعليق على الكتاب (٣/ ٢٣٢).

(٢) انظر تخريجها في التعليق على (٣/ ٢٣٣).

النبي ﷺ: «**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول**»(١). وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وعرض عليه نفسه ليجاهد في سبيل الله معه فقال له: «**ألك والدان؟**» قال: نعم. قال: «**ارجع ففيهما فجاهد**»(٢)؛ أي ارجع إلى برّهما وخدمتهما فهي أفضل من الجهاد، وهؤلاء الإلياسيون يكرهون الناس بسيف الحياء على السياحة، فإذا اعتذروا لهم بالوالدين الضعيفين أو بالأولاد والزوجة أو بالتجارة أو بالعمل الذي التزمه الإنسان، فوجب عليه أداؤه وحرم عليه تركه كالأجير والمعلم، يقولون: اترك ذلك وتوكل على الله، وكيف يترك ما أوجبه الله عليه وينقض عهد الله من بعد ميثاقه ويخون الأمانة ويكون مع ذلك متوكلاً على الله وخارجاً في سبيل الله، وقد أخبرني أحمد الزوين الذي يسوق سيارة النقل للأخ السلفي الحاج مصطفى بن هاشم الودغيري أنه كان قد حمل في سيارته ما يساوي خمسة عشر ألف درهم من فواكه، فجاءه جماعة الإلياسيين وقالوا له: تخرج معنا في سبيل الله؟ فقال لهم: انظروا هذه السلعة المحمولة على السيارة، أنا متوجه بها إلى الجزائر، فقالوا له: اتركها وتوكّل على الله. وذهبوا إلى السيد أحمد بن إدريس الإدريسي وهو صاحب معامل النسيج في مدينة مراكش وصاحب تجارة واسعة يؤدي زكاته وله زوجة شابة، فأخرجوه من بيته وأخذوه إلى الهند فبقي سبعة أشهر غائباً، وهذا حرام بلا شك من وجوه منها ما تقدم، ومنها أن عمر رضي الله عنه سأل أم المؤمنين حفصة ابنته: كم تستطيع المرأة أن تصبر عن زوجها إذا خرج للجهاد في سبيل الله، فقالت: أربعة أشهر. فأمر أن لا يتغيب جندي عن أهله أكثر من أربعة أشهر.

كم من عامل وموظف ومعلم وطالب كانوا لهم سبباً في طردهم من أعمالهم، ولا ننكر أنه تاب على أيديهم كثير من الفسّاق والفجّار واهتدوا وتمسّكوا بالدين ولكن المحافظة على رأس المال وهو سنّة النبي ﷺ قبل التشوُّف إلى الربح، وكذلك نعترف لهم بحسن الخلق وحسن المعاشرة والسمت الحسن، فعسى الله أن يوفّقهم لترك بدعة السياحة وتغيير المنكر والحب في الله والبغض في الله والموالاة لله والمعاداة لله، ويوفق أهل الهند وباكستان منهم أن يتركوا بدعة الجمود على المذهب الحنفي ويعملوا بكل حديث صحّ عن النبي ﷺ،

---

(١) انظر التخريج في التعليق على (٣/ ٢٣٣).
(٢) انظر التخريج في التعليق على (٣/ ٢٣٣).

ويتركوا كذلك العقيدة الأشعرية والماتريدية ويعتقدوا ما كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون، ومنهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله فإن عقيدته كانت مطابقة لعقيدة الصحابة والتابعين جعلنا الله من أتباعهم».

وللهلالي عناية خاصة قوية دقيقة في بيان اعوجاج ما عليه التبليغيون، وصنف فيهم كتاباً مفرداً ـ وهو مطبوع(١) متداول ـ اسمه «السراج المنير في تنبيه جماعة التبليغ على أخطائهم» فرغ منه في الثالث من شوال سنة ١٣٩٨هـ بمدينة مكناس، تعرض فيه لتاريخ جماعة التبليغ وكيفية نشوئها وأهم أشخاصها وزعمائها البارزين، ثم المدارس الكلامية والفقهية التي تأثرت بها الجماعة، وهو عبارة عن تلخيص موجز لكتاب محمد أسلم الباكستاني والمعنون بـ«جماعة التبليغ عقائدها وأفكارها ومشايخها». قال الهلالي عنه: «ذكر ما لهم وما عليهم، ونقل أخبارهم من كتبهم، وقد رأيت أن أُلخّص كلامه رجاء أن ينفع الله به...».

وانطلق الهلالي في الحكم عليهم ـ كما رأينا ـ من الدلائل الشرعية، ولذا أكثر من ذكر آثارهم السيئة، وتعرض أيضاً للأسس التي اعتمد عليها مؤسس الجماعة محمد إلياس الحنفي الديوبندي، وهي عندهم بمثابة منهج يسيرون عليه، ويسمونها (المبادئ الستة).

وعرف الهلالي بمؤسس الجماعة وبيّن مقرها الرئيسي، والمدارس التي تأثرت بها، وأهمها مدرسة بديوبند ـ وكان ينتمي إليها الشيخ ـ وكان أصحاب المدرسة يقولون: إن مؤسسها هو النبي ﷺ، وكان يأتي إليها أحياناً مع أصحابه، ثم يسترسل الهلالي في ذكر مبادئ مدرسة ديوبند التي ينتمي إليها مؤسس التبليغيين، ويظهر من الكتاب معرفة الهلالي الجيدة المحيطة والعميقة بهذه الجماعة، ولا سيّما أنه عاش في الهند(٢)، وأكثر التجوال في البلاد، واتسعت دائرة لقائه بالعلماء والمطلعين؛ ولذا أحال على كتابه هذا جمع من خصوا جماعة (التبليغ) بالدراسة والتمحيص، مثل: علي الغماري في «مناقشة خروج التبليغيين وبيان بطلانه» (ص٤٦)، وعصام مرعي في «القول البليغ في نصح جماعة التبليغ» (ص١٨، ٢٦) ونقل منه، وسيد طالب الرحمٰن في «تلخيص جماعة التبليغ في

(١) عن مطبعة النجاح، الدار البيضاء، سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، في (٩٣) صفحة.
(٢) انظر كلام الهلالي في: «السراج المنير» (ص٨٨ ـ ٨٩) عن أخطاء هذه الجماعة في الهند، وما سيأتي في كتابنا (٣/ ٢٣٣ وما بعد).

شبه القارة الهندية» (ص٢٧٣)، ونقل منه في كتابه الأصل (ص٤٥٠ ـ ٤٥٢) تحت (الرد على جماعة التبليغ: شهادة الشيخ تقي الدين الهلالي)، ومحمد محمد شرقاوي في أول بحثه «الصفات الستة عند جماعة التبليغ» ص(٩).

وكان لهذا الكتاب أثره الإيجابي القوي في تعريف طلبة العلم بهذه الجماعة من جهة، وأثره السلبي على رجالات هذه الدعوة، حتى وجدت صهيباً الزمزمي يقول في كتابه «جماعة التبليغ ـ أو أصحاب الدعوة الباكستانية ـ خطر على المسلمين» (ص٣٧):

«وقديماً بلغنا عنهم (أي: التبليغيين) أنهم يقولون عن الدكتور الهلالي أنه مسيحي! والسبب هو هو، فالدكتور الهلالي قد عاش مدة بالباكستان وعرف عنهم الكثير، فهو لذلك لا يسمّيهم إلا (الإلياسيين) نسبة إلى شيخهم، ويقول: إنهم أصحاب طريقة عصرية».

قال أبو عبيدة: وهذه كلمة الفصل فيهم، وهي تتطابق مع مقولة شيخنا العلّامة المحدث الألباني[1] ـ رحمة الله عليه ـ عنهم: (صوفية متنقلة: خرجوا من الصوامع إلى الشوارع).

أما أعداء الإسلام العاملون جهاراً نهاراً لمحاربته، فقد جعلهم الهلالي أصنافاً وأقساماً، قال في كتابنا «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢):

«الذين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم في هذا الزمان، أصناف:

أولهم: المرتدون الذين كفروا بالله تقليداً لدعاية كاذبة خاطئة وهذه الدعاية شائعة في البلدان التي كان أهلها متمسكين بالإسلام في الأزمنة الغابرة في آسية وأفريقية، وحاصلها أن الإسلام إن كان صالحاً في الزمن الماضي لترقية الشعوب وأخذ نصيبها من القوة المادية وتحصيل المعيشة السعيدة، والسيادة الكاملة، فإنه في هذا الزمان لا يتفق مع الأخذ بأسباب الحضارة والرقي، فكل أمة تمسّكت به تبقى متأخرة تسير إلى الوراء[2]، ولا تكاد تدرك شيئاً من الحضارة العصرية، فإذا

---

(١) أشاع بعض التبليغيين عنه رحمه الله توبته من تخطئتهم قُبَيْلَ وفاته، وهذا ـ والله ـ كذب، فقد سجل أخونا أبو أشرف محمد الجيزاوي رحمه الله مع ضيف جاءه من فلسطين متأثراً بهم شريطاً بصوت شيخنا الألباني فيه تفصيل أخطائهم، وكان ذلك قبيل وفاة الشيخ الألباني بأيام معدودات.

(٢) ردّ الهلالي في كتابنا «السبيل» (٢/ ٢٨٦) على هذه الفرية، ومثّل عليها بالدولة السعودية =

قيل لهم: وما دليلكم على هذا؟ يزعمون أن الأوروبيين تركوا دينهم وتقدموا، فلا يمكن أن نتقدم إلا إذا سلكنا سبيلهم، فنقول لهم: **أولاً**: نحن لا نسلم أبداً أن الأوروبيين تركوا دينهم، فإنهم لا يزالون متمسكين به، ولا نكلفكم أن تذهبوا إلى بلادهم لتعلموا أنكم كاذبون، بل نرشدكم إلى أدلة في بلادكم، فعدوا الإرساليات والكنائس التي في بلادكم للطوائف المختلفة من النصارى تجدوها كثيرة، فيها رجال ونساء قد تغربوا عن أوطانهم وتحملوا الشدائد والأخطار في سبيل نشر دينهم، وقد سمعتم عدد من قتل منهم في كونكو، ولا حاجة بكم إلى أن تبحثوا عن جهودهم في البلاد الأخرى، فحسبكم ما يصنعون في بلادكم، وما أسسوا من الوسائل الطبية والتعليمية، ولكنكم تكذبون وتغالطون وتقلدون، ثم انظروا إلى الحرب القائمة في إيرلندا بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين منذ سنين ولا سبب لها إلا الاختلاف في الدين.

على أن دينهم وإن كان لا يصلح للحضارة فإن ديننا ليس كدينهم، والعالم كله يشهد بعظمة الحضارة التي أسسها المسلمون في العصور التي كان الإسلام فيها قوياً عزيزاً، وحسبكم أن الإسلام في أواخر زمانه تصارع مع الصليب في الحروب الصليبية مدة مائة وتسعين سنة، فانهزم الصليبيون أمامه مع كثرة عَددهم وعُددهم، وسيقول المقلدون لأعداء الإسلام: هذا بكاء على الأطلال، أرونا ما

= وأنها من أغنى الدول مع عدم تعاملها - في زمانه - بالربا، فاسمع إليه وهو يقول: «من اتبع هواه في عبادة غير الله، أو تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، أو رد شيئاً مما جاء به رسول الله كالذين يقولون في هذا الزمان بتطور أصول الدين، والاجتهاد مع وجود النص والإجماع، كرفض الصيام في رمضان، بدعوى أنه لا يوافق العصر الحاضر، وتحليل الربا بدعوى أنه ضروري في هذا العصر إذا تركته دولة، قلّت أموالها، وضعف اقتصادها، وضاع حقها في المعاملات الدولية، فإنها لا بدّ أن تعطي وتأخذ، فإذا أخذت فلا مناص من دفع الربا، وإذا أعطت بلا ربا تكون هي الخاسرة، فنقول: إن هناك طريقاً آخر وهي أن تكون مستقلة غنية قوية لا تأخذ الربا ولا تعطيه، وحينئذ لا بد أن تخضع لها الدول الأجنبية وتقبل شرطها، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، ولنضرب مثلاً بالدولة السعودية فإنها لا تتعامل بالربا وهي أغنى الدول، والحاصل من اتبع هواه في الشرك بالله أو تغيير حكم شرعي أو رد ما جاء به الرسول ﷺ فهو كافر فرداً كان أو جماعة، أما من اتبع هواه في ارتكاب المحرمات، وهو يعترف أنه مذنب ويؤمل التوبة فهذا فاسق لا يخرج من الإسلام، ولا يخلد في النار بسبب التوحيد والإيمان والمحافظة على الصلاة في أوقاتها التي معه». اهـ.

صنع الإسلام في هذا الزمان، أقول لهم كما قلت من قبل: **أوجدوا لي إسلاماً، أعطكم كل ما تريدون من قوة وعظمة وتقدم في جميع الميادين**، فهل تريدون من المسلمين أن يقوموا من قبورهم ليدافعوا عنكم ويبنوا لكم حضارة جديدة؟، وقد جربتم الكفر التقليدي مئات السنين، فجربوا الإسلام سنة واحدة إن كنتم صادقين.

وثانيهم: المدَّعون للإسلام بألسنتهم مع عدم تطبيقه لا عقيدة ولا عبادة ولا حكماً فهؤلاء يدعون الإسلام بأقوال مجردة.

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

وثالثهم: الأعداء الخارجيون وهم المتعصبون من النصارى في أوروبا وأمريكا، والمتعصبون من الوثنيين في الهند وغيرها من الأمم الوثنية، ونحن نسمع المذابح التي تجري على المسلمين في أنحاء الهند وفي الفلبين وفي أريتريا(١).

رابعهم: علماء السوء، الذين باعوا دينهم بدين غيرهم، وكتموا الحق وغشوا شعوبهم جرياً وراء الحطام، فضيعوا الدين ولم يدركوا الدنيا، وهذه الأصناف تبذل جهودها لإطفاء ما بقي من نور الإسلام، وليس الإسلام بملوم؛ لأنه قد أسعد من تمسك به وخلف كنوزاً عظيمة من الآثار والعلم والمعرفة التي لا يجحدها إلا من يجحد الشمس المشرقة في يوم الصحو ومضى حميداً.

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار»

ومن عميق تأصيل وفهم الهلالي لسنن الله في شرعه وكونه، ربطه بين العدل والمساواة في الحقوق والواجبات وبين ترقي الأمم وغلبتها، فأصغ إليه وهو يقول في كتابنا هذا (٢/ ٣٥٠):

«كل أمة عمّ فيها العدل والرحمة فنصرت المظلوم وأكرمت اليتيم وأطعمت المسكين وأمنت الضعيف؛ وسع الله رزقها ونصرها على أعدائها، كما قال النبي ﷺ: «**وإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**»(٢)، وهذه قاعدة لا تتخلّف، وسنّة

---

(١) كان ذلك في زمانه، وأما في زماننا فالمذابح البدنية حصرت في أماكن ودول، وأما الدين وأهله فهم في غربة، والناس ـ إلا من رحم الله ـ صرعى أو قتلى لمعركة الإعلام والتلبيس والتدجيل!

(٢) انظر التخريج في تعليقنا عليه.

لا تتبدل في كل زمان ومكان، فانظروا إلى أمم زمننا تروا كل أمة يعم فيها العدل والمساواة في الحقوق والواجبات تروها مرزوقة منصورة عزيزة الجانب، سواء كانت في الشرق أم في الغرب، مع اختلاف عقائدها، فإن الله تعالى إنما يعذب الأمم في الحياة الدنيا وفي الآخرة على قدر ما بلغها من العلم، وأقيم عليها من الحجج، أما السعادة الكبرى التي تكون في العاجل والآجل فهي خاصة بمن آمن بالله ورسله واتبع من أناب».

وأخيراً، لا بدّ من الإشارة ونحن نتكلم عن مادة الكتاب إلى أنه أورد فيه بعض الأمور المستغربة المستملحة، فلما قرر في (٤/ ١٦٢ ـ ١٦٣) أن في كتاب الله من الأخبار والقصص والأمثال ما يفتح القلوب المقفلة الغلف، والعيون العُمي، والأذان الصم ولكن لا يحصل ذلك إلا لمن طلب الحق بإخلاص وتجرد من هوى نفسه الأمّارة بالسوء، فهذا هو الذي ينفع بالنذر والمقلد المتعصب الذي اتخذ إلٰهه هواه لا ينتفع بذلك، وقد يسّر النطق به فترى التركي والهندي كلاهما يقرآنه بغاية التجويد مع بُعد لغاتهما عن اللغة العربية، ويسر حفظه حتى إنه يوجد في البلدان التي تحبه وتعتني به كثير من الصبيان يحفظونه في سن مبكرة، فمنهم من يحفظه وهو ابن سبع سنين». ثم ذكر قصة غريبة، قال: «يوماً من الأيام كنت أسير ومعي رفيق في شارع من شوارع «لكنو» مدينة مشهورة بالهند، فمررت على باب قرأت في أعلاه ما نصه:

في هذا البيت طفلة لا يتجاوز عمرها خمس سنين تحفظ القرآن كله فمن أراد أن يشاهدها فليدخل، فدخلنا وصعدنا درجاً انتهى بنا إلى غرفة كبيرة وجدنا فيها رجلاً ذا لحية سوداء جالساً على حصير، ورأينا طفلة تلعب بلُعَب مختلفة في ناحية من الغرفة فسلمنا عليه فرد علينا السلام ودعانا إلى الجلوس فجلسنا، فقال لنا: أي من القرآن تريدان أن تقرأ لكما منه هذه الطفلة؟ فقلت: أنا، من قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ فلم ينادها ولم يأمرها بالقراءة، بل بدأ هو يقرأ بعد الاستعاذة مبتدأ بالآية التي طلبت أنا، فتركت الطفلة اللعب وأقبلت عليه وجلست أمامه وبدأت تقرأ في الموضع نفسه، فسكت هو وتركها وحدها فاستمرت كالسهم بدون تلكؤ ولا تعتعة حتى قلنا لها: حسبك، وكانت قراءتها فصيحة ومنظرها يدل على أنها إن لم تكن بنت خمس كما هو في الإعلان لا تزيد على سبع، وهذا برهان يفسّر لنا هذه الآية، وأنا

أعتقد أن هذه الطفلة لو وجدت من يعلمها معنى القرآن ولغة القرآن والسنّة التي تبيّن معناه لتعلَّمت ذلك في أقرب وقت. فيا أسفاً على هؤلاء الذين وهبهم الله القرآن يقرأ عندهم صباح مساء وهم في ظلماتهم يتخبطون لا يتدبرونه، ولا يتعظون به، ولا يتأدبون بأدبه، ولا يستضيؤون بنوره، أولئك هم الخاسرون، وأعطينا ذلك الرجل شيئاً من الدراهم، وقد سررنا غاية السرور ولم ينقض عجبنا مما رأينا وسمعنا».

وأخيراً، عسى أن أكون قد أوقفت القارئ على معالم مهمة، وأمور عملية عالجها المصنف في كتابه هذا، ولا بدّ في الختام من التنبيه على أن المصنف عرض (توحيد الأسماء والصفات) في آخر جزئين من الكتاب على وجه دقيق، وبأسلوب سهل، وأكثر من النقولات من الكتب التي قررت عقيدة السلف[(١)]، وغلب على نقله التقرير لا الرد والاعتراض، إلا الشُّبه الحاضرة، التي يرددها أهل البدع، فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ نقضها من أسسسها، ودحرها بالمنقول والمعقول، وبيَّن أصولها الفاسدة، وأسلوبه في معالجتها قوي، وحجته محررة ظاهرة، لا لبس فيها، ولا خفاء، وختم الكتاب بقصائد سبق الإلماع إليها[(٢)]، فلا داعي للإعادة والتكرار، والله هو الهادي إلى سواء السبيل، لا ربّ سواه، ولا إله غيره.

---

(١) مثل كتب الأئمة الأعلام: ابن تيمية، وابن القيم، وابن أبي العز الحنفي، ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهم. وقد سبق أن ذكرنا ـ على عجلة ـ أهم المصادر التي اعتمدها المصنف.

(٢) انظر ما قدمناه (ص٦١).



الأصل المعتمد في التحقيق وعملي فيه

لم يطبع كتاب «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» ـ فيما أعلم ـ إلا طبعة واحدة في حياة المؤلف ـ رحمة الله عليه ـ.

وتقع في ثلاثة مجلدات، في كل مجلد جزءان، وطبع على نفقة الأميرة الجليلة الجوهرة بنت سعود بن عبد العزيز آل سعود الكبير، وأشرف على الطبع المكتب التعليمي السعودي بالمغرب، وتولى الطبع مكتبة المعارف الرباط، في المملكة المغربية.

جاء في أوله (ص٥ ـ ١١) عنوان (تنويه ـ تقريظ) كتبه الأستاذ محمد بن إبراهيم بن عبد السلام عن الملحق التعليمي السعودي بالمغرب، وأرّخه بـ٧/ ١/ ١٤٠٧هـ الموافق ١١/ ٩/ ١٩٨٦م، بيَّن فيه أهمية التوحيد، وذكر أن الهلالي عالج فيه بمهارة كل القضايا والجزئيات المتعلقة بأنواع التوحيد الثلاثة المعروفة، والتي ارتكز في معالجتها على أمرين:

١ ـ الرجوع إلى المصادر الأولى: القرآن الكريم، وما ثبت عن رسول الله ﷺ من تبيان لبعض الآيات التي ينطلق منها بحثه، ثم آراء كبار المفسرين من أئمة السلف والخلف.

٢ ـ ما عايشه هذا المؤلف الجليل (الهلالي) في حياته المبكرة من ألوان المذاهب والعقائد، وما خبر بحكم تقلّبه في آفاق شتى من الأرض ما لهذه وتلك من حجج ومقومات، قال: «لعلِّي لا أبالغ إذا قلت: إن شطراً هاماً من هذا الكتاب قد تمّ إملاؤه بتأثر واضح مما عايشه من انحرافات وأباطيل، ومن دعاوى ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان».

وفي آخره شكر لمؤلفه، وبيان جهاده، مع الشكر لمن أوصى بطباعته فضيلة الشيخ العلّامة عبد العزيز بن باز، وكذا لمن تحمّلت على نفقتها الخاصة طباعة هذا المؤلف ألا وهي الأميرة الجليلة الجوهرة بنت سعود بن عبد العزيز آل سعود

الكبير - رحمهم الله جميعاً - وختم المقدم للكتاب تقدمته بقوله: «فللمؤلف الجليل - شفاه الله - ولسماحة والدنا العلّامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ولسمو الأميرة الوقورة - التي أتجاوز إرادتها - بذكر اسمها الكريم علانية، لهم مني خالص الدعاء بأن يجزيهم الله أفضل ما يجازي به عباده المؤمنين، وأن يبارك لهم فيما قدموه، ويهدينا جميعاً سواء السبيل».

وبعدها فيه (ص١٣ - ١٨): (نبذة من ترجمة المؤلف) بقلم عمر بن محمد محسن، إمام وخطيب جامع الملك عبد العزيز آنفاً - الدار البيضاء.

وسأعمل على إثبات هاتين الكلمتين بتمامهما عقب مقدمتي هذه، وسأضع عقبهما تعريفاً عاماً بالكتاب بقلم شيخنا بالإجازة العلّامة محمد بوخبزة، أخذته من كتابه «معجم التفاسير» (٢/ ٣٠٠ - ٣٠٤) والله الموفق للصالحات، والهادي للخيرات.

وأما **عملي في الكتاب**، فيتلخص في الآتي:

أولاً: قمت بضبط النص، وتصويب الأخطاء المطبعية، وإثبات الآيات برسم المصحف، وجعلت تخريجها بين معقوفتين بعدها.

ثانياً: خرّجت الأحاديث النبوية والآثار السلفية بعزوها لمصادرها من دواوين السنّة، والحكم عليها صحةً وحسناً وضعفاً[1]، وفقاً للمقرر عند أهل الصنعة الحديثية.

ثالثاً: وثّقت النقولات التي عزى إليها المصنّف، وقابلتُ ما فيها على المصادر، وأثبت الفروق بينها في الهوامش، وأفادني ذلك كثيراً في تقويم النص، وتصحيح الخطأ، وإثبات النقص.

---

(١) لعلّي أنازع المصنف في تحسين أو تجويد بعض الأسانيد، انظر - على سبيل المثال -: (ص١٧٧)، أو أتعقبه في العزو، فقد يعزو أثراً للبخاري في «صحيحه» وهو ليس فيه، انظر (٢/ ١٤٨)، أو يذكر تفرداً، والأمر ليس كذلك، انظر (٣/ ١٤٣)، وقد يعزو حديثاً لـ«الصحيحين» وهو في أحدهما فقط، وقد يعزو لغيرهما وهو فيهما أو في أحدهما، وهكذا. ومما ينبغي ذكره: إني أظهرت أحكام شيخنا الألباني على الأحاديث، لعلمي بأن المصنف يفرح بذلك، فقد وجدت في رسالة له وجهها للأستاذ أبي بكر زهير الشاويش مؤرخة بـ ٩/ ٣/ ١٣٩١هـ جاء فيها: «فأرجو من فضلكم أن تسلموا على أخينا الأستاذ ناصر الدين - يريد الألباني - وتلتمسوا منه تخريج ما عسى أن أكون تركت تخريجه من الحديث، هذا إذا عزمتم على طبع الكتاب».

ووجدت من خلال ذلك أن خطأ وقع في الرموز التي استخدمها المصنف، فهو ـ مثلاً ـ في (٦/ ١٥١) ينقل كلاماً ويرمز له بـ(ج) إشارة إلى «تفسير ابن جرير»، والنقل بحروفه من «فتح القدير» للشوكاني.

ووجدت في (١/ ١٤٣) يرمز بـ(ك) إشارة إلى «تفسير ابن كثير»، والنقل ليس فيه، وإنما عند الشوكاني في «فتح القدير» أيضاً.

ولا عجب من وقوع الأخطاء المطبعية، أو السقط، أو التحريف، فإن المصنف أملى هذا الكتاب وهو هرم، تجاوز التسعين من عمره، وقد احتوشته الأمراض، وأصيب ببصره، وكان يملي من حفظه، ويشير على تلاميذه بالنقل من بطون الكتب، ولم يراجع المطبوع بنفسه، والذي يعاني صنعة التأليف يقدر التعب والصعوبة التي تلحق بالمصنف في هذه الحالة من جهة، ورجحان احتمال وقوع الخطأ والسقط من جهة أخرى.

رابعاً: جهدت في توثيق الأشعار، وعزوها لقائليها، مع ذكر مصادرها من دواوين وكتب الأدب.

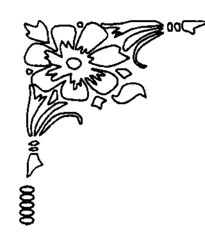
خامساً: جهدتُ في الإحالة على كتب الهلالي الأخرى، ولا سيّما أشعاره ومقالاته.

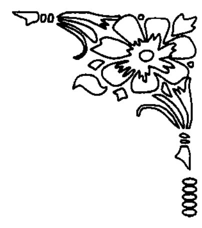
سادساً: وثّقت المسائل الفقهية، وبيّنتُ المذاهب التي أهملها، عازياً لها إلى كتب المذاهب المعتبرة.

سابعاً: وأخيراً صنعت فهارس علمية وكشافات تحليلية للكتاب، تفيد الباحث والقارئ، ويستطيع أخذ بغيته من الكتاب بسرعة، ويقف من خلالها على كنوزه وجواهره، وفوائده ومباحثه، والله الموفق، لا ربّ سواه.

والله تعالى أسأل، وبأسمائه وصفاته أتوسل أن يبارك في هذا الكتاب، وأن ينفع به قارئه وناشره ومحققه ومؤلفه، وهذا الذي دعانا اليوم للقيام بنشره، رغبة في حصول النفع به بعد ممات صاحبه ـ عليه الرحمة والرضوان ـ وتسهيلاً على من أراد الحصول عليه ممن يريد الدعوة إلى الله به على بصيرة. والله من وراء القصد.

وأخيراً، جزى الله خيراً كل من كان سبباً في نشر هذا الكتاب، والإعانة على ذلك، ولو بالكلمة الطيبة، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





بسم الله الرحمن الرحيم

تنويه ـ وتقريظ(١)

إن الحمد لله نحمده ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا، ونشهد أنه الله وحده لا شريك له ولا شبيه ولا نظير، متفرد بالسموّ والكمال، ومستحق للعبادة والتعظيم والإجلال، ونصلي ونسلّم على سيد الأولين والآخرين، والمبعوث رحمة وهداية للعالمين، محمد بن عبد الله والنبي الأمي الذي أزال الله به ظلمات الجاهلية عن العيون السادرة في الغواية، وأبطل بدعوته إلى الوحدانية المطلقة ضلال الأصنام والأوثان، وأقام من رسالته محجَّة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك.

أمَّا بعد:

فلم يكن في هذه الدنيا أمر شغل الخليقة وأثار فيها الجدل، بل مزَّق ـ أحياناً ـ أمرها كل ممزق، وفرق بين القريب والحميم، وبين الأب وبنيه، والأخ وأخيه، مثل قضايا العبادة وفهم الأمم لها سلباً أو إيجاباً. فالشرائع السماوية ودعوات رسل الله من نوح عليه السلام حتى خاتمهم محمد بن عبد الله تنطلق من منبع واحد لا يتبدل ولا يتغير، دعوة مطلقة لعبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، ومع ذلك تقوم في وجه هذه الدعوة الصريحة المنجية دعاوى وضلالات، وأباطيل وخرافات تلبس ألف ملبس وتقعد للناس كل مقعد، حتى تنحرف بالمنخدعين وراءها إلى دروب مهلكة وإلى بُعد سحيق عن كنف الله الذي لا يرضى لعباده الكفر، ومن هنا فإن أشرف ما ترقى له الهمم وتعلو به المراتب، ويتقرب به العبد إلى خالقه هو تبصير الناس بأسس التوحيد وركائزه، وبما قد يشوب هذه الركائز والأسس من انحراف قلَّ أو كثر؛ لأن إفراد الله بالعبادة

---

(١) بهذا ابتدأ المجلد الأول من الطبعة السابقة.

خالصة مطلقة، ووضع كل الحدود أمام أي زيغ أو زلل عن هذا الطريق هو بمثابة الأرض الصلبة التي يقف عليها المرء مسلماً آمناً لا عوج فيه ولا اضطراب. والقرآن الكريم من أوله إلى آخره يذكِّر التالي له ـ بين آونة وأخرى ـ بهذا النهج الأبدي السرمدي المرتكز على: أن الله ﷻ متفرد في ملكه ومستحق وحده العبادة دون وسيط مهما كانت درجة قربه، ومهما كانت مكانته عند ربه. فالله واحد في تدبيره للكون أرضاً وسماء، واحد في استحقاقه لعبادة الخلق، واحد في أسمائه وصفاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فإذا تحققنا ـ وهو ما يقرره كتاب الله ﷻ ـ من أن البشرية لم تخلق أصلاً إلا من أجل هدف كبير، وغاية سامية، وهي أن تعبد الله وتخلص له القصد في القول والعمل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] ولن تستقيم أحوالها ويستتب صوابها إلا على هذه الركيزة الأساسية: الوحدانية المطلقة لله، واتباع سنن رسله عليهم السلام، إذا تحققنا ذلك أدركنا ـ في بساطة ويسر ـ مدى العناية التي أعطاها القرآن الكريم من البداية إلى النهاية لقضية التوحيد في شمولها وعمومها، وما ضرب الله من أمثال تقربها من الأفهام وتدنيها من الوعي، وما أحاط بها في نفس الوقت من شبهات وزيغ، وما نشأ بسبب الفهم المضطرب لها ـ بين الحق وسواه ـ من فرق ونحل، ومن طرائق ومسميات، **وأدركنا في نفس الوقت الجهد الكبير الذي بذله العلامة السلفي الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الحسيني وهو يكتب مؤلفه «سبيل الرشاد» في سفر يضم ستة أجزاء «في ثلاثة مجلدات» عالج فيها بمهارة العالم المتمكن كل القضايا والجزئيات المتعلقة بأنواع التوحيد الثلاثة المعروفة**، والتي ارتكز في معالجتها على أمرين:

أ ـ الرجوع إلى المصادر الأولى: القرآن الكريم، وما ثبت عن رسول الله ﷺ من تبيان لبعض الآيات التي ينطلق منها بحثه، ثم آراء كبار المفسرين من أئمة السلف والخلف ومن نحا نحوهم وسار على خطاهم وخاصة في التوقف عن الخوض في أسماء الله وصفاته بغير علم ولا هدي، حيث يثبتونها كما أثبتها الله لنفسه من غير تحريف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تعطيل، فهي كمال مطلق لا ندرك كنهها ولا حدود قدرتها ـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ب ـ ما عايشه هذا المؤلف الجليل في حياته المبكرة من ألوان المذاهب

والعقائد، وما خبر بحكم تقلبه في آفاق شتى من الأرض ما لهذه وتلك من حجج ومقومات، ولعلي لا أبالغ إذا قلت: إن شطراً هاماً من هذا الكتاب الذي يُعنى بتتبع آيات التوحيد المبثوثة في القرآن الكريم التي تعالج هذه القضية الأساسية في التشريع، وفي تصنيف الإنسان كافراً أو مؤمناً أو زائغاً، وبالصراع الطويل القائم بين الرسل ومخالفيهم ـ على كثرتهم واختلاف بيئاتهم ـ لعلي لا أبالغ إذا قلت: **إن شطراً هاماً من هذا الكتاب قد تم إملاؤه بتأثر واضح مما عايشه من انحرافات وأباطيل، ومن دعاوى ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان، وبتأثر كبير من إقامته في المدينة النبوية معقل الرسول ومهاجره، والمثوى الكريم لجسده الطاهر ﷺ.**

إن الفكر المسلم يتجه أول ما يتجه في تلك الأرض الطيبة المفعمة بوحي الله إلى جهاد الرسول العظيم في سبيل دعوة الحق، وإلى ما ناله من أذى قومه وهو يعلنها صريحة قوية واضحة: أن اعبدوا الله وحده ولا تتخذوا من دونه من ولي ولا نصير، لقد نادى عليه السلام أقرب الناس إليه، نادى فلذة كبده فاطمة وهو يحدد موقفه من ربه ومنها، ويزيل كل لبس قد يعْلَق بأذهان أمته وعبر مسيرتها في الأرض: «**يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت وأنقذي نفسك من النار لا أغني عنك من الله شيئاً**»(١). أيُّ تحديد أَدقُّ من هذا القول النبوي الفصل، وأي كلام أنفذ منه إلى المعنى الذي قصده، فإذا كان هذا حال محمد عليه الصلاة والسلام وهو أعظم الخلق عند الله منزلة، وأرفعهم قدراً، وقائدهم يوم الحشر العظيم، وشفيع من مات من أمته موحّداً لله خاضعاً لربوبيته المطلقة، فكيف يسمح العقل لأي إنسان يدّعي الإيمان والإسلام أن يجعل بين الله وبينه شفيعاً، أو يتخذ من دونه واسطة، أو يلحد في أسمائه وصفاته، أو يصرفها عن ظاهرها ٱدِّعاء لتنزيه الله وتقديسه.

إن الخالق العظيم وقد أوجد هذا الكون على غير مثال سبق، وأودع فيه الإنسان نفحة من نفحاته ليعمره بالعمل الصالح، وبالعبادة الخالصة، وأنزل له الشرائع، وبعث له الرسل تلو الرسل، يحملون آيات بينات، ووحياً يتلقونه من السماء لإسعاد أممهم وتقويم عوجهم.

إن هذا الخالق الكبير وهو يدعو هذا الإنسان إلى الاحتماء بكنفه والالتجاء

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣، ٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤) من حديث أبي هريرة.

إليه في سرَّائه وضرَّائه، وفي يسره وعسره، إنما يريد أن يكرمه في هذه الأرض، ويحرره من الخوف، ومن سيطرة وهيمنة أي مخلوق مهما علا شأنه وعظم قدره، فالناس في شرعة الحق سواسية لا يتفاضلون إلا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إنني أيها القارئ العزيز **لا أقدم كتاب: «سبيل الرشاد» بهذه السطور المتواضعة فالكتاب يقدم نفسه، والمؤلف معروف في ساحة الجهاد العلمي وفي ميدان الدعوة إلى الله كأقوى وأصلب ما يكون الدعاة، لكنها تحية فقط لهذا النوع من الجهاد الدؤوب الذي يأبى بعد سن الخامسة والتسعين إلا أن يكد ويجد، ويكافح وينافح.**

من أجل إعلاء كلمة الله والدفاع عن عقيدة التوحيد الذي لا تشوبه شائبة، وهي تحية في نفس الوقت لسماحة العلامة الكبير الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية الذي شرَّف مكتبنا بالسهر على هذا المؤلف ـ طباعة وتوزيعاً، وهي سنة حميدة من سماحته نشهد أثرها على رقعة ممتدة من الأرض الإسلامية الفسيحة وبينها هذا البلد العزيز علينا ـ المغرب الأقصى ـ الذي حمل راية الإسلام والجهاد، وأثرى علماؤه المكتبة الإسلامية بنفائس مؤلفاتهم وكنوز معارفهم، وهي تحية تقدير للأميرة الجليلة الجوهرة بنت سعود بن عبد العزيز آل سعود الكبير التي تحملت على نفقتها الخاصة طباعة هذا المؤلف وتوزيعه مجاناً ابتغاء لوجه الله، وتطلعاً إلى مثوبته.

إن نشر العلم النافع، وتيسير تداوله بين الناس من أعظم ما تتوجه إليه الهمم العالية، ويسعى إليه ذوو النفوس الخيِّرة لأن في ذلك إتاحة للنور أن يشرق في القلوب وإنذاراً للجهل أن يرحل، ولصديء ظلمته أن يتحول إلى طريق لاحب، وإلى نهج مضيء. فإذا كان الأمر بهذه الغاية من السمو فكيف بهذا العلم إذا استهدف في الأساس تصحيح عقيدة المسلم مع ربه، وتنقية توجُّهه إليه من أي شبهة أو ابتداع، ومن أي زيغ أو إلحاد أو تحريف، إنه سمُوٌّ ما بعده سمو، وغاية تتدانى دونها كل غاية، إنَّه الانسجام التام مع الأسس التي حث عليها ديننا الحنيف، ورغَّب في فضلها، وأشاد بها في أكثر من موضع، وجعلها من الباقيات الصالحات التي تظل للإنسان بعد رحيله من هذه الحياة.

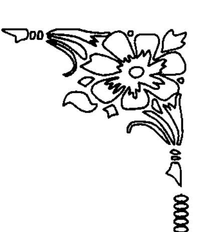
ومن هنا يمكن لنا أن نقيِّم العمل البار الذي بادرت به الأميرة الجليلة (الجوهرة بنت سعود بنت عبد العزيز آل سعود الكبير) ابتغاءاً لوجه الله وطمعاً فيما عنده.

فللمؤلف الجليل ـ شفاه الله، ولسماحة والدنا العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ولسمو الأميرة الوقورة ـ التي أتجاوز إرادتها بذكر اسمها الكريم علانية، لهم مني خالص الدعاء بأن يجزيهم الله أفضل ما يجازي به عباده المؤمنين وأن يبارك لهم فيما قدموه، ويهدينا جميعاً سواء السبيل.

محمد بن إبراهيم بن عبد السلام
الملحق التعليمي السعودي بالمغرب
الرباط في ١٤٠٧/١/٧هـ
الموافق ١٩٨٦/٩/١١م

قال أبو عبيدة: انتهى ما في الطبعة السابقة، وبعده فيها ترجمة موجزة بقلم تلميذ الهلالي الأستاذ الشيخ عمر بن محمد محسن إمام وخطيب جامع الملك عبد العزيز آنذاك بالدار البيضاء، هذا نص ما فيها، والهوامش والتعليقات بقلمي. والله المستعان لا ربَّ سواه:





نبذة من ترجمة المؤلف(١)

. . . .

---

(١) قال أبو عبيدة: لصاحب هذه السطور ترجمة حافلة مبسوطة، فيها تتبع دقيق لمجريات حياته ورحلاته ومؤلفاته ومقالاته، ومن أغنى وأجمع مصادر ترجمته كتب الهلالي ومقالاته ومراسلاته وفتاواه، فهو كثير الاستطراد فيها، وكثير الحديث عن نوادره وأعلام عصره، وظهر ذلك في المقالات على وجه أظهر وأكثر، وقد جمعت منها ـ ولله الحمد ـ لغاية تدوين هذه السطور نحو تسع مئة مقالة من مجلات وصحف وجرائد عديدة، سيأتي تسمية بعضها.

ومصادر ترجمة الهلالي كثيرة متناثرة، وما زالت منها بقية في ذكريات كبار تلاميذه وأبنائه وذويه ومن كان قريباً منه، وحصلت على شيء من ذلك من خلال مراسلات ولقاءات وظفرت بترجمة له بخطه، كان قد كتبها بطلب من الشيخ سليمان بن عبد الرحمٰن الصنيع، محفوظة في جامعة الملك سعود، أرسلها إليَّ الأخ عبد الإله الشايع حفظه الله في ٢٤/٨/١٤٢٦هـ ترى مصورتها عقب هذه الترجمة، وأجريت معه ـ أي: الهلالي ـ مقابلات عديدة نشرت في غير صحيفة تفيد كثيراً في ترجمته، وهي ـ ولله الحمد ـ مجموعة في كتابي «مقالات الهلالي».

وذكر تلميذه محمد بن عودة في مقالة نشرها في جريدة «العلم» المغربية بتأريخ ١٤/محرم/١٤٠٨هـ ـ ٩/٩/١٩٨٧، السنة (٤١) العدد (١٣٥٥٣) (ص٨) ما نصه: «وفي بعض صحواته أثناء ذلك المرض، قلت له: أرجو منك يا دكتور أن تملي عليَّ بعد شفائك ـ إن شاء الله ـ من مرضك ترجمة لحياتك حتى أكتبها، فقال: لا، بل أمليها عليك الآن؛ لأني لست أدري: هل هناك متّسع من العمر لذلك؟ وقد كتبتُ نحو الستين ورقة، وذلك في ثلاثة أيام، وشفي بعدها، واشتغلنا بكتابة الرسائل والرد على ما وصل إليه منها في مختلف الأقطار والأمصار. ولم أعد لكتابة شيء بعد ذلك من المذكرات، وأذكر أننا وصلنا إلى تجوله عبر العالم في مدينة تونس، وعمره ١٣ سنة. وقد حفظ القرآن الكريم، وقد ضاعت مني الكراستان للأسف الشديد».

ومن الدراسات الجذرية عنه: دراسة مخلص السبتي المنشورة عن المجلة المغربيّة لعلم الاجتماع السياسي سنة ١٩٩٣م في (١٦٣) صفحة بعنوان «السلفية الوهابية بالمغرب تقي الدين الهلالي رائداً» وسجل اثنان من الباحثين في الجامعة الإسلامية رسائل ماجستير عن دراسات تخص جانباً من حياته:

=

= **الأول**: أخونا الأستاذ خالد الزهراني وعنوان دراسته: «محمد تقي الدين الهلالي وجهوده في الدعوة إلى الله».

والثاني: أخونا الأستاذ عبد الرحمٰن العميسان، وعنوان دراسته «جهود محمد تقي الدين الهلالي في تقرير عقيدة السلف والرد على المخالفين».

وما زالتا قيد الإعداد.

وأخبرتني الأستاذة الدكتورة خولة ابنة الشيخ الهلالي أن بنتاً لأخت لها تعد رسالة ماجستير أيضاً، وهاتفتُ أمَّها في الجزائر، وأخبرتني أن ابنتها زينب عبد الكبير البكري تعد رسالة عن الشيخ الهلالي وترجمته لسورة يوسف مقارنة مع ترجمة أخرى، وظفرت لأبيها الأستاذ عبد الكبير البكري مقالة جيدة عن الهلالي بعنوان «نجم أفل» نشرت في جريدة «الميثاق» المغربية فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ، والعدد (٥٣٨) لسنة (٢٤) (ص٥). وهناك أطروحة دكتوراه تعد عن حياة الهلالي وفكره في جامعة جورج تاون بأمريكا، وهي بعنوان «تطور السلفية من خلال حياة وفكر محمد تقي الدين الهلالي» للوزري هنري.

وأما الكتب التي ترجمت له، فهي «تحفة الإخوان بتراجم بعض الأعيان» للعلامة ابن باز ـ قيد الإعداد بتحقيق الأخ الباحث النابه محمد زياد التكلة ـ «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين» (ص١٢٣، ١٢٤)، «إمارة الزبير بين هجرتين بين سنتي ٩٧٩ ـ ١٣٤٢هـ» لعبد الرزاق عبد المحسن الصانع وعبد العزيز عمر العلي. وفيه (٣/ ١٨٧ ـ ١٨٨) وفي مواطن متفرقة منه ومضات تخصُّ الهلالي، انظرها في (٣/ ١٤٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٣٢٦)، «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٨٣ ـ ٢١٧)، «من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة» (ص٤٨٥ ـ ٤٩٦)، وكان قد نشر ما يخص الهلالي في مجلة «المجتمع» عدد (١٢٩٨) ـ، «ذيل الأعلام» (١/ ١٧٠، ١٧١)، «إتمام الأعلام» (ص٣٤٦)، «الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال» (٢/ ٦٦٢ ـ ٦٦٧)، «من أعلامنا» فيه ترجمة في (٤٢) صفحة، «أعلام وعلماء عايشتهم» لإسماعيل بن سعد العتيق، «لمحات من الماضي» (ص٣٣٢ ـ ٣٣٤) لعبد الله الخياط، وفي كتاب «المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ وسيرته وأقواله ورحلاته» (٢/ ٥٩٢، ٥٩٨، ٦٠٤، ٦٠٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦٢٨، ٦٣٣، ٦٥٥) إضاءات مهمة عن حياته، وهنالك ومضات وإفاضات وإضافات في ترجمته في كتب أخرى، مثل: «ذكريات الطنطاوي» (٤/ ٤٦) «جولات في الفكر الإسلامي»، «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث» (ص٨٥، ٨٦، ٩٥، ٩٦) كلاهما لصديقه العلامة عبد الله كنون رَحِمَهُ اللهُ، «حياة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وآثاره» (ص٧٢)، «فتح الجليل في ترجمة وثبت شيخ الحنابلة عبد العزيز بن عبد العزيز العقيل» (ص٥٩، ١٧٤، ٣٦٤، ٣٦٦)، «معجم المعاجم والمشيخات» (١/ ٨٧، ٩٨ و٣/ ١٥٧)، «في مسيرة الحياة» (٩١، ٩٧ ـ ١٠٠، ١١٦، ١١٨، ٣٧٦)، «مذكرات سائح في الشرق العربي» (٧٣، ٧٤، ١٦٥، ٢٣٣، =

. . . .

= ٢٤٤)، «رحلات العلامة أبي الحسن الندوي» (ص٤٠٣، ٤١٠، ٤١٦) و«أسبوعان في المغرب الأقصى» (٦٣، ٧٣، ٧٧، ٨٢)، «شخصيات وكتب أثَّرت في حياتي» (ص٤٦، ١٥٠) كلها لأبي الحسن الندوي، «جهود مخلصة في خدمة السنة المطهرة» (١٨٠) «معجم الشعراء» (٤/ ٣٥٣)، «القول الوجيز» (٨٠)، «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» (ص٦٩، ٧٠) «الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر من كتاباته» (ص٦٧٣، ٦٧٤)، «السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة» (١١٩، ٣٤٥، ٣٩٣، ٣٩٥، ٥٤٨، ٥٤٩)، «عبد العزيز الثعالبي من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب» (٣٧، ٤٣)، «جماعة أنصار السنة المحمدية» (ص٢٩٤، ٣٢٠).

وللهلالي مدح وثناء وذكر لأهم الأحداث التي وقعت في حياته في عدد من «المجلات»، وأكثرها احتفاءً وعناية به: «الفتح» المصرية، و«دعوة الحق» المغربية، وله ذكر في «الصراط السوي» الجزائرية، و«الهدي النبوي» المصرية، و«البصائر» الجزائرية، و«الجامعة السلفية» و«الرائد» الهنديتان، و«التمدن الإسلامي» الدمشقية، ومجلَّتَيْه: «الضياء» الهندية، و«لسان الدين» التطوانية، وله أيضاً ذكر في «الإخوة الإسلامية» و«الثقافة الإسلامية»، و«السجل» العراقيات.

وترجم له في مجلة «التربية الإسلامية» العراقية العدد الثاني، صفر ١٤٠٩هـ (ص٥٧، ٥٨)، ومجلة «المنهل» (٤٩٩) و«الفرقان» المغربية العدد (١٠) سنة ١٩٨٧م، و«الاستجابة» السودانية العدد (٩) السنة (٣) رمضان ١٤٠٨هـ (ص٤٢ ـ ٤٣) وجريدة «الجزيرة» السعودية عدد (١٠١٢٣)، و«البحوث الإسلامية» السعودية، العدد (٨) ذو العقدة، ذو الحجة ١٤٠٣هـ (ص٢٠٦) (مختصرة) وفي مجلة «البيان» البريطانية، العدد (١٧٤) صفر سنة ١٤٢٣هـ (ص٣٨) وفي أول «ترجمة لتفسير معاني القرآن» الطبعة (١٢) سنة ١٩٩٥م (ص١٦) ترجمة موجزة له باللغة الإنجليزية. وأخبرني تلميذ الهلالي فضيلة الشيخ عبد الحميد الرحماني الهندي أنه نشر مقالة بالأردية في ترجمته في مجلة «التوعية الإسلامية» الهندية، ثم وجدت ترجمة جيدة للهلالي بقلمه نشرها في مجلة «صوت الجامعة» السنة الثالثة، العدد الأول شعبان ١٣٩٢هـ، أكتوبر ١٩٧١م (ص١٣ ـ ١٨)، ونشر سعيد الأعظمي الندوي مقالين في مجلة «البعث الإسلامي» المجلد (٣٢) العدد (٥، ٦) ١٤٠٨هـ بعنوان (عالم فقدناه العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي المراكشي)، ووجدت أيضاً في مجلة «صوت الجامعة» الهندية، المجلد الأول، العدد الثاني، شعبان ١٤٠٨هـ، (ص٤٥ ـ ٥٤)، مقالة دون توقيع بعنوان (خاتمة شاهد قرن، كيف ودعت المغرب العالم المجاهد محمد تقي الدين الهلالي؟) ونشرت في مجلة «المجتمع» الكويتية العدد (١٢٩٨) سنة ١٤١٩هـ مقالة بعنوان «الشيخ العلامة محمد تقي الدين الهلالي» بقلم المستشار عبد الله العقيل، ونشر في مجلة «الفرقان»، المغربية، العدد العاشر سنة ١٩٨٧ (ص٤ ـ ٧) ترجمة بعنوان «العالم الجليل الدكتور الهلالي في ذمة الله»، واعتمدت المجلة على ترجمة محسن المثبتة هنا، ونشرت جريدة «العلم» =

نسبه :

هو محمد تقي الدين[(١)] بن عبد القادر الهلالي، نسبة إلى هلال الجد الحادي عشر، ابن محمد المعروف بـ: بابا ابن عبد القادر بن الطيب بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن عبد النور بن عبد القادر بن هلال بن محمد بن هلال بن إدريس بن غالب بن محمد المكي بن إسماعيل بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن عبد القوي بن عبد الرحمٰن بن إدريس بن إسماعيل[(٢)] بن سليمان بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي وفاطمة الزهراء بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فهو كما ترى ينتهي نسبه ﷺ إلى الحسين بن علي ذكر ذلك غير واحد من المؤرخين، وأقر هذا النسب السلطان الحسن الأول حين قدم سجلماسة سنة ١٣١١هـ[(٣)].

نشأته :

ولد أطال الله بقاءه سنة ١٣١١هـ بالفيضة القديمة وتسمى «الفرخ» على بضعة أميال من الريصاني، والأصل قرية أولاد عبد القادر في «الغرفة» من أرض سجلماسة المعروفة بتافيلالت من المملكة المغربية.

= المغربية، بتأريخ ١٤ محرم ١٤٠٨ ـ ٩/٩/١٩٨٧ (ص٨) السنة (٤١) العدد (١٣٥٥٣) مقالة بعنوان (في رفقة الدكتور تقي الدين الهلالي) لتلميذه محمد بن عودة، ونشرت مجلة «السبيل» المغربية، العدد الثالث، بتأريخ ٢٩ شعبان ١٤٢٦هـ ـ الموافق ٤ أكتوبر ٢٠٠٥م (ص٢٣) مقالة موجزة في ترجمته، وهنالك أخبار عنه في صدور وعقول تلاميذه وعارفيه، وسمعت من غير واحد أشياء كثيرة ومهمة ومفيدة.

(١) قال الهلالي: إن والدي رأى في المنام قائلاً يقول له: سيولد لك غلام، فسمّه (محمد التقي) فكان ذلك، ولكن أهل الهند سموني (تقي الدين) فاشتهر اسمي بـ(محمد تقي الدين) من «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/١٩٣)، وفي «السلفية الوهابية» (٢٧): «ومرة سأله بعض شيوخه عن اسمه؟ فقال له: محمد التقي، فقال الشيخ: لا تقوى بدون دين، فأنت محمد تقي الدين» (أبو عبيدة).

(٢) الصحيح أن يقال: إدريس بن موسى بن إسماعيل (أبو عبيدة).

(٣) وليس له لقب، وكنيته أبو شكيب على اسم صديقه الأمير شكيب أرسلان رحمه الله.

دراسته:

قرأ القرآن على جده ووالده فحفظه وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان والده ينوي أن يبعثه إلى مقرئ ذلك العصر، الشيخ أحمد بن صالح ليقرأ عليه ختمة التجويد، كما كان عازماً على السفر به إلى القرويين بفاس لطلب العلم هناك، فعاجلته المنية وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره فقامت بذلك أمه، فقرأ على الشيخ المذكور القرآن من أوله إلى آخره بالتجويد، ثم بقي فترة بدون تعليم. ولما بلغ سن الرشد سافر إلى زاوية آيت إسحاق بقبيلة آيت أخلف، وبقي هناك سنتين، ثم عاد إلى تافيلالت، ثم سافر إلى الجزائر وأقام بقبيلة أحميان، ولم يكن يخطر له التعلم ببال إلى أن رأى النبي ﷺ[(١)] في المنام، وقال له: اقرأ العلم، فصار عنده عزم شديد على طلب العلم، فتوجه إلى الرجل الصالح الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله الشنقيطي، فقص عليه رؤياه، فأعطاه نسخة من «مختصر الشيخ خليل» وقال له ابدأ في حفظ هذا الكتاب، وكلما اجتمعنا شرحت لك بعضه، فاستمر يحفظ، وبعد مدة ذهب إليه وأقام عنده يتعلم الفقه والنحو حتى فتح الله عليه في علم النحو وصار الشيخ ينيبه عنه في غيابه، وإلى أن مات الشيخ الشنقيطي سنة ١٣٣٨هـ، ثم توجه إلى مدينة وجدة فبقي مدة عند العالم الأديب السيد أحمد السكيرج يعلم ابنه الأستاذ عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام ثم توجه إلى فاس وحضر في القرويين دروس بعض الأستاذة، وعلى رأسهم العالم المحقق المصلح السيد الفاطمي الشرادي ـ رحمة الله عليه ـ ومن أجل من لقي من علماء فاس وأكثرهم تأثيراً في أحواله واتجاهه في طلب علم الكتاب والسنة، العالم المحقق الشيخ محمد بن العربي العلوي ـ رحمة الله عليه ـ وجرت بينه وبينه مناظرة[(٢)]، فحصل على إجازة من جامع القرويين عادلتها جامعة «بون» الألمانية بالشهادة الثانوية «الباكلورية».

---

(١) انظر: كتاب «الدعوة إلى الله» للمؤلف. (منه).

(٢) انظر: كتاب «الهدية الهادية» للمؤلف (منه). قال أبو عبيدة: وذكر الهلالي في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٧٣، ٧٤) أنه نشر في صحيفة «الحرية» ثلاث مقالات تحت هذه الترجمة (كيف خرجت من الطريقة التيجانية) قال: «وذكرت فيها قصة خروجي وتوبتي من هذه الطريقة وأقمت البراهين على بطلانها». قال أبو عبيدة: وذكرتُ فيما مضى (ص٣٠ وما بعدها) خلاصة قصة رجوعه إلى التوحيد والسنة، ومناقشته مع شيخه محمد بن العربي العلوي، التي على إثرها ترك الطريقة التيجانية واتبع الكتاب والسنة بفهم سلف الأُمة (أبو عبيدة).

وفي آخر سنة ١٣٤٠هـ سافر إلى القاهرة وحضر دروس القسم العالي بالأزهر، وخلال ذلك اجتمع بعدد كبير من العلماء الأجلاء، وعلى رأسهم الإمام المصلح، السلفي الطائر الصيت الأستاذ رشيد رضا صاحب «المنار»(١).

وكانت له رغبة في طلب الحديث، فعزم على السفر إلى الهند(٢) لعلمه أنه لا تزال بقية من علماء الحديث في الهند، فسافر لأداء فريضة الحج ومنها إلى الهند، فمكث هناك يدرس الحديث ويدرس الأدب العربي إلى أن أخذ العلم والإجازة عن شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري صاحب كتاب: «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي» وله في هذا الكتاب قصيدة أثبتها المؤلف في آخر «المجلد الرابع»(٣).

وأجازه كذلك الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني نزيل «بهوبال» ثم رحل من الهند سنة ١٣٤٣هـ إلى العراق وأثناء إقامته بمدينة البصرة التقى بالعالم السلفي الأديب، المحدث المحقق الشيخ محمد بن أمين الشنقيطي(٤) فزوجه ابنته وانتفع كثيراً بمجالسته ومذاكرته، وبعد ثلاث سنوات توجه إلى المملكة العربية السعودية فأقام بها في ضيافة الملك عبد العزيز ثم عين مراقباً للمدرسين [في المسجد النبوي] مدة سنتين، ثم مدرساً في المسجد الحرام والمعهد السعودي لمدة سنة، وبعدها سافر مرة أخرى إلى الهند، فعين رئيساً لأساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء «بلكنو» مدة ثلاث سنوات تعلم

---

(١) نشر الهلالي في «المنار» مجموعة مقالات منها «مناظرة في مسألة القبور والمشاهد» نشر على (٧) حلقات و«مأساة أميرة شرقية» على حلقتين (ولم يتم)، ونقل السيد رشيد بعض مقالات نشرها الهلالي في «الفتح» وكان رضا في نزاعه مع شكيب أرسلان يحكّمان الهلالي في المسائل اللغوية. (أبو عبيدة).

(٢) لما رأى «عون المعبود» علم أن بقية من المحدثين في الهند، فرحل إليهم، والتقى بالعلامة المباركفوري وأجازه واستفاد منه.

(٣) وله أيضاً قصيدة في أوله، ولكنه لم يسمه واكتفى بقوله: «بعض الأعلام»، وانظر: عنها مقالة أخينا البحاثة الأستاذ صلاح مقبول في «العلامة أبو العلى عبد الرحمٰن المحدث المباركفوري» المنشورة في مجلة «الجامعة السلفية» المجلد (٩) العدد (١) صفر ١٣٩٧هـ (ص٦٠ ـ ٦٤). (أبو عبيدة).

(٤) ليس هو بصاحب «أضواء البيان»! كما قال بعض مترجمي الهلالي، وللهلالي ترجمة مطولة عنه نشرت في «الفتح» وعنها «المنار»، أودعتُها في كتابي «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره. (أبو عبيدة).

خلالها اللغة الإنجليزية[١]، ثم رجع إلى البصرة وبعد ثلاث سنوات سافر إلى «جنيف» ونزل عند الزعيم المجاهد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، وكانت عنده رغبة لإتمام الدراسة الجامعية فكتب الأمير شكيب أرسلان رَحِمَهُ الله إلى أحد أصدقائه بألمانيا يقول: عندي شاب مغربي أديب ما دخل ألمانيا مثله في العلم، يريد أن يدرس في إحدى الجامعات، فعسى أن تجدوا له مكاناً لتدريس الأدب العربي براتب يستعين به على الدراسة، فجاء الجواب بالقبول وعيِّن محاضراً في جامعة «بون» وفي ظرف سنة تعلم اللغة الألمانية[٢] وحصل على ديبلوم فيها، ثم صار طالباً في الجامعة.

وفي أثناء إقامته بألمانيا ترجم مع الأستاذ «باول كالي» مدير معهد العلوم الشرقية في جامعة «بون» كتابين عربيين: أحدهما كتاب «البلدان» في الجغرافية العالمية للعلامة محمد بن الفقيه البغدادي المتوفى في آخر القرن الثالث الهجري، والثاني كتاب: «طيف الخيال»[٣] للعلامة محمد بن دنيال الكحال الموصلي نزيل مصر.

---

(١) في قصة طريفة جداً ذكرها في كتابه «البراهين الإنجيلية» فانظرها هناك، تولى الله هداك. (أبو عبيدة).

(٢) كان الهلالي يتقن العربية، بل كان فحلاً وإماماً لا يبارى فيها، قال عنه العلامة حماد الأنصاري: كان كالأصمعي، وكان الهلالي يجيد الإنكليزية والألمانية والإسبانية والعبرية والبربرية، وأخبرتني ابنته خولة أنه كان ملماً بالفرنسية، ووجدته يذكر في بعض مقالاته أنه يفهم الأفغانية والسريانية، وكان عارفاً بالإمغازية وبلغة بريل، تعلمها لما أضر، وكان عنده بها «شرح العقيدة الطحاوية». (أبو عبيدة).

(٣) أشار الأستاذ كركيس عواد في «الذخائر الشرقية» (١/ ٥٢٠) أنه طبع في بغداد سنة ١٩٤٨م بعنوان «ثلاث مسرحيات عربية مثلت في القرون الوسطى»، وزاد صاحب «فهرست المطبوعات العربية» (٢/ ٣٣٠) أنها تقع في (٤٨) صفحة، ونشرت عن مطبعة الاعتماد، ومن الأعمال التي ترجمها الهلالي: «مدنية العرب في الأندلس» لجوزيف ماك كين، ترجمه عن الإنجليزية وطبع لأول مرة في بغداد عن مطبعة العاني سنة ١٥٩٠هـ بعنوان «الهلال والصليب». ثم طبع بالعنوان المذكور في الدار البيضاء، مكتبة المعارف، سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م في (١١١) صفحة وترجم جملة من المقالات، منها: «الطبقات عند العرب» ذكرها في كتابه «الخلع» (ص٥٣)، وله ترجمة «كيف يربي يهود الولايات المتحدة أولادهم» نشر في مجلة «الجامعة السلفية» المجلد (١٠) العدد (٢) صفر ١٣٩٨هـ (ص١٠، ١١)، ونشر في المغرب على هيئة كتيب، ومن أهم أعماله في الترجمة: ترجمة معاني القرآن الكريم، مع صديقه محمد محسن خان سيأتي ذكرها ضمن المؤلفات برقم =

وأثناء إقامته في ألمانيا عين مشرفاً ومرجعاً لغوياً بالقسم العربي من الإذاعة الألمانية، فوجدها فرصة سانحة لفضح جرائم المستعمرين لبلده المغرب من الفرنسيين والإنجليز، فألقى من على منبر تلك الإذاعة خطباً كانت على المستعمرين خطوباً، وكان بسببها أن نفته فرنسا من المغرب نفياً رسمياً مع أنه كان غائباً عنه كما عملت بريطانيا على نزع جنسيته العراقية التي كان تجنس بها سنة ١٩٣٤م.

وفي سنة ١٩٤٠ قدم رسالة دكتوراه، وهي ترجمة مقدمة كتاب «الجماهر في الجواهر» للبيروني مع التعليق عليها[(١)] وهكذا حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٤١م ثم بعد الحرب العالمية الثانية عين أستاذاً بجامعة بغداد وفي سنة ١٩٤٢م سافر إلى تطوان بمساعدة الأستاذ المجاهد عبد الخالق الطُّرَيْس[(٢)] رئيس حزب الإصلاح الوطني إذ ذاك فبقي إلى أن كاد له الإسبان ونزعوا منه

= (٣٢) ولنا كلمة عنها تنظر في التعليق هناك، وللهلالي أيضاً ترجمة «مختصر صحيح البخاري» بالاشترك مع خان أيضاً، وتكلمتُ عليها بإسهاب في ترجمتي المفردة له. (أبو عبيدة).

(١) ذكر الأستاذ الجراري في كتابه «التأليف ونهضته بالمغرب» (ص١٢٤) أنها طبعت في (لايبزك) في ألمانيا، قلت: نعم، رأيتها بالألماني في (٤١) صفحة، نشرت ضمن (مجموعة البحوث الشرقية) (جزء ٧) عن دار أوتو هاغاسوفيتسي، ليبزج وذكر الهلالي فيما كتب إلى المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١٩٠، ١٩١): «رغب الناشرون في نشر رسالتي على نفقتهم، ولا يقع ذلك إلا للرسائل المفضلة». وللهلالي في كتابه «الطريق إلى الله» (ص٦٤ ـ ٦٦) كلمة جامعة مهمة عن أطروحته هذه.
ثم ظفرت بكلمة جيدة للألماني (كاله) نشرت في مقدمة كتاب ابن المعمار البغدادي الحنبلي (ص١١٢) فيها مدح لعمل الهلالي في رسالته ومما قال: «وكان عملنا المشترك (يريد نص الفتوة والمروءة) من كتاب «الجماهر في الجواهر» للبيروني، ونشر في مجلة «دير إسلام» الألمانية، الجزء (٢٤)، سنة ١٩٣٧ (ص٥٤ ـ ٦٩) يهم الهلالي، لأنه حفّزه للبحث في مقدمة كتاب البيروني في «الجواهر» فاشتغل بتحقيقها على النحو الذي ابتدأنا به، وبهذا العمل نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة على يد (ريجارد هرثمن) في برلين سنة ١٩٤١، واسم رسالته «ترجمة مقدمة كتاب «الجماهير في الجواهر» للبيروني مع تعليقات عليها»، وهو عمل علمي جليل من الطراز الأول». انتهى. ونشر الهلالي في جريدة «الحرية» المغربية مقالة عن أستاذه (ريكارد) في السنة السادسة، العدد (٧٩٧) ٢٤ جمادى الثانية. (أبو عبيدة).

(٢) انظر ترجمته في: «الأعلام» (٣/ ٢٩١) (أبو عبيدة).

جوازه بدعوى أنه مزور، وفي سنة ١٩٥٩م عين أستاذاً بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم بفرعها بفاس إلى سنة ١٣٦٨هـ، حيث سافر مرة أخرى إلى ألمانيا ومنها إلى الأراضي القطبية(١).

وفي سنة ١٣٨٨هـ توجه إلى الحج وفي منى اجتمع بالعالم الورع الذي يقل نظيره في هذا العصر ألا وهو الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فقال له: إن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك، فقال: وأنا مستعدٌّ لخدمتها، فكتب الشيخ عبد العزيز وطلبه من وزارة التعليم المغربية، فالتحق أستاذاً بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وبقي بها إلى سنة ١٣٩٤هـ، حيث طلب منه إخوانه في المغرب أن يستقر في المغرب للدعوة إلى الله تعالى والمحافظة على العقيدة السلفية، فعرض الأمر على رئيس الجامعة الإسلامية آنذاك الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز فوافق عليه، ورجع إلى المغرب، وسكن مكناس فصار يعطي الدروس بمساجدها وينتقل بين مساجد مدن وقرى المملكة المغربية فثقل ذلك على المبتدعة وأغصهم بريقهم فوشوا به وطلبوا منعه وتوقيفه، ولو آمنوا بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢ ـ ٣٣] لكان خيراً لهم، وللدكتور محمد تقي الدين مواقف جليلة في الدعوة إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك(٢).

فلتراجع أخي القارئ إن أردت الوقوف عليها إلى كتابه القيم «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة».

مؤلفاته:

أما مؤلفاته فهي أكثر من أن تحصى فنذكر منها على سبيل الاختصار:

١ ـ سبيل الرشاد، الذي بين يديك (الجزء الأول) منه(٣).

---

(١) وصل إلى (النرويج)، وله مقالة منشورة في ذلك بعنوان «الشمس في نصف الليل» وهي في كتابنا «مقالات الهلالي». (أبو عبيدة).

(٢) ذكرت ذلك مطولاً في تقديمي لهذا الكتاب، وانظر منه (ص٢٦ وما بعد). والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. (أبو عبيدة).

(٣) وقد أتمه وطبع في حياته، وهذه خدمتي له، وذلك بفضل الله ومنّته. (أبو عبيدة).

٢ ـ الإلهام، في تفسير سورة الأنعام[(١)].

٣ ـ الحسام الماحق، لكل مشرك ومنافق[(٢)].

٤ ـ ديوان شعر[(٣)].

٥ ـ الإسلام والمذاهب الاشتراكية[(٤)].

٦ ـ دواء الشاكين وقامع المشككين[(٥)].

٧ ـ من يرافقني من الرباط إلى برلين[(٦)].

٨ ـ رسالة الدكتوراه[(٧)].

٩ ـ مدنية العرب في الأندلس (ترجمة)[(٨)].

١٠ ـ كتاب الدعوة إلى الله[(٩)].

---

(١) نشر على حلقات في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، وقد طبع حديثاً في بنارس، وهو مودع في «مقالاتنا» الجامعة الحافلة، والحمد لله. (أبو عبيدة).

(٢) طبع أكثر من مرة في المغرب ومصر والسعودية. (أبو عبيدة).

(٣) اسمه «منحة الكبير المتعالي في ديوان محمد تقي الدين الهلالي» حصلته مرقوماً على الآلة الكاتبة، وفرغت من تنضيده مع جمع سائر أشعاره وتوثيقها من كتبه ومقالاته. (أبو عبيدة).

(٤) له بهذا العنوان مقالة نشرت في مجلة «الجامعة الإسلامية» العدد (١٠) شوال ١٣٩٠هـ (ص٣ ـ ١٨) وأيضاً في مجلة «دعوة الحق» المغربية، السنة الثانية عشر، العددان (٧ و٨) شعبان ـ رمضان ١٣٩٧هـ (ص١٥ ـ ٢٢)، وله في مجلة «الفتح» (٥٨١) شوال ١٣٥٦هـ مقال بعنوان «الشيوعية أعظم لعنات العصر»، وله في مجلة «الهدي النبوي» المجلد (١٥) العدد (٧) رجب ١٣٧٠هـ (١٥٤ ـ ١٥٧) مقال بعنوان: «داء الشيوعية ودواؤه». (أبو عبيدة).

(٥) نشر على حلقات عديدة في مجلة «دعوة الحق» المغربية، ثم طبع على حدة. (أبو عبيدة).

(٦) نشر على حلقات في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، سنة ١٣٩٩هـ، من العدد (٢ ـ ٥، ٨). (أبو عبيدة).

(٧) سبق التعريف بها وأنها طبعت بالألمانية في لايبزك. (أبو عبيدة).

(٨) ترجمه الهلالي من الإنكليزية، وطبع مرتين: في العراق ثم في المغرب عن مكتبة المعارف ـ الدار البيضاء، وفي كل من الطبعتين زيادة على الأخرى. (أبو عبيدة).

(٩) طبع في المغرب قديماً، وعن دار الفتح في الإمارات العربية المتحدة، ويذكر تلميذ الهلالي العلامة محمد بوخبزة أنه وقع له فيه أخطاء، وصوَّر لي نقداته عليه، جزاه الله خيراً. (أبو عبيدة).

١١ ـ أحكام الخُلع في الإسلام[١].

١٢ ـ حكم تارك الصلاة[٢].

١٣ ـ الصراط المستقيم ودليله[٣].

١٤ ـ الفجر الصادق[٤].

١٥ ـ قبسة من أنوار الوحي[٥].

١٦ ـ الصبح السافر في حكم صلاة المسافر[٦].

١٧ ـ تفسير سورة الفتح[٧].

١٨ ـ فتح الرحمٰن في تفسير أم القرآن[٨].

---

(١) نشر عن المكتب الإسلامي، بيروت أكثر من مرة، وعن غيره. (أبو عبيدة).

(٢) طبع في مجموع فيه «الصراط المستقيم في صفة صلاة النبي الكريم»، و«ذيل الصراط المستقيم» بعنوان: مجموعة ثلاثة كتب للهلالي، يقع في (٣٢) صفحة، ونشر طبعة وقفية، وذكر في أوله (ص٣) أنه ألفه لما سأله جماعة من إخوانه الموحدين وانتصر فيه لتكفير تارك الصلاة تكاسلاً. (أبو عبيدة).

(٣) ألفه في مدة إقامته بتطوان، واستمرت من ربيع ١٩٤٢ إلى صيف ١٩٤٧، وقرظه أحمد الغماري في جريدة «الأخبار» المغربية، وطبع مع الكتاب السابق. (أبو عبيدة).

(٤) نشر بعنوان «بيان الفجر الصادق وامتيازه عن الفجر الكاذب»، طبع في المغرب في (١٧) صفحة. (أبو عبيدة).

(٥) طبع عن مكتبة المعارف، الرباط، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م في (١٤٦) صفحة، وهو عبارة عن أربعة أقسام: واحد في علوم القرآن، والثاني في تفسير سورة الفتح، والثالث نبذة في علوم الحديث، والأخير: نبذة عن الأحاديث مع شرحها شرحاً يعالج مشكلات العصر الحديث. (أبو عبيدة).

(٦) نشر على أربع حلقات في مجلة «الهدي النبوي» المصرية، المجلد (٢٨، ٢٩) سنة ١٣٨٣ و١٣٨٤هـ، وطبع على حدة أكثر من مرة، في المغرب ومصر، وللشيخ حماد الأنصاري كلمة في نقده، أفاده ابنه صديقنا عبد الأول في «المجموع» الخاص بحياة أبيه (٢/٦١٧ ـ ٦١٨). (أبو عبيدة).

(٧) انظر: التعليق على رقم (١٥) السابق. (أبو عبيدة).

(٨) سماه هكذا في «ذيل الصراط المستقيم» (ص٧) وفي «سبيل الرشاد» (٦/١٤٩) ـ وأورد قطعة منه ـ وأورد كذلك في كتابه «الحسام الماحق» أكثر من (٤) صفحات من تفسير له بالفاتحة سماه «المنح السانحة في تفسير سورة الفاتحة» ويحتمل أن يكون العنوانان لكتاب واحد، ثم وجدت له مقالاً منشوراً في مجلة «الثقافة الإسلامية» البغدادية السنة الثانية، العدد الرابع، السبت ١٨ جمادى الثاني ١٣٧٦هـ ـ ١٩ كانون الثاني ١٩٥٧م (ص٣، ٤) =

١٩ ـ الزند الواري شرح واختصار صحيح البخاري[1] (ج١ فقط).
٢٠ ـ من مآثر الرسول ﷺ[2].
٢١ ـ تقويم اللسانين[3].
٢٢ ـ الفوائد السامية، في تاريخ اللغات السامية[4].
٢٣ ـ الفتاوى الهلالية[5] (ج١ و٢).
٢٤ ـ الهدية الهادية[6].

= بعنوان «تفسير سورة الفاتحة» ولا أظنه هذا الكتاب. (أبو عبيدة).

(١) ذكره جل من ترجم للهلالي، لم أظفر له بذكر في كتب ومقالات الهلالي التي وقفت عليها، والعبارة المذكورة تنبئ أن الكتاب تام بخلاف عبارات المترجمين. ثم وقفت على فتاوى الهلالي المسماة بـ«العيون الزلالية» (ق٢١٣) ووجدته يذكره فيه، وسماه «الزند الواري والبدر الساري في اختصار وشرح صحيح البخاري» ونقل عشرة أسطر منه، ووجدته يذكره أيضاً في رسالة وجهها للأستاذ السلفي المربي محمود مهدي الإستانبولي كَلَّهُ، وهي مؤرخة بـ٢٦/١/١٣٨٨هـ، ومما قال فيها: «وقد بدأت في «شرح البخاري» شرحاً يستفيد منه الواعظ والطالب، وأنا بنفسي أستفيد منه؛ لأن الشروح الموجودة لا يمكن تدريسها في المساجد؛ لأنها محشوّة بأشياء تعطّل درس الوعظ، وتشوّش على السامعين». (أبو عبيدة).

(٢) نشر على حلقات في مجلة «الإرشاد» المغربية، السنة الأولى، الأعداد (١ ـ ٨) سنة ١٣٨٧هـ والسنة الثانية، الأعداد (١ ـ ٦) سنة ١٣٨٨هـ، والسنة الثالثة، الأعداد (٣ ـ ٤) سنة ١٣٨٩هـ و١٣٩٠هـ والسنة الخامسة، العدد الأول، سنة ١٣٩٢هـ. (أبو عبيدة).

(٣) نشر على حلقات عديدة في مجلة «دعوة الحق» المغربية، ثم طبع في المغرب مرتين على حدة، وله في المجلة المذكورة تتمات نشرت فيما بعد، لم تلحق بالكتاب! وهي جميعاً في كتابنا «مقالات الهلالي». (أبو عبيدة).

(٤) طبع للهلالي كتيب بعنوان «اللغة العربية»، وذكره له بهذا الاسم جمع من مترجميه.. (أبو عبيدة).

(٥) لم تنشر، وهي في مجلدين، بعضها بخط بعض الكتبة عنده، والآخر مرقوم على الآلة الكاتبة، واسمها «العيون الزلالية في الفتاوى الهلالية»، ونشر قسماً قليلاً منها في بعض المجلات والصحف المغربية. (أبو عبيدة).

(٦) تتمة اسمه «إلى الطائفة التجانية»، طبع أكثر من مرة، أولها سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، وذكر في مقدمته (ص٥ ـ ٦) أنه ألفه بطلب من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز كَلَّهُ، وذكر في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٧) أن العلامة ابن باز أمر بطبع عشرة آلاف نسخة منه، وانظر: «سبيل الرشاد» (٦/ ٢١٩) ولأهميته ذكر في رسالة وجهها الهلالي لأخيه الأستاذ زهير الشاويش حفظه الله، مؤرخة في ٤/٨/١٣٩٢هـ. ثم ظفرتُ برسالة للعلامة =

٢٥ ـ مختصر هدي الخليل[١].

٢٦ ـ البراهين الإنجيلية[٢].

٢٧ ـ مسرحيات طيف الخيال[٣] (ترجمة).

٢٨ ـ دليل الحاج[٤].

٢٩ ـ حاشية على كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب[٥].

٣٠ ـ حاشية على كشف الشبهات[٦].

٣١ ـ ترجمة القرآن باللغة الإنجليزية بمشاركة الدكتور محمد محسن[٧].

= عبد الله كنون وجهها للهلالي فيها بيان أخطاء وقعت للهلالي في هذا الكتاب، وأقر بها الهلالي في جوابه له. (أبو عبيدة).

(١) تتمة اسمه «في العقائد وعبادة الجليل» طبع أكثر من مرة، الأولى في تطوان، والثانية في بغداد، ثم في الدار البيضاء، ثم لتأليفه قصة، تجدها في كتابه «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة» (ص٨٢). (أبو عبيدة).

(٢) تتمة اسمه «على أن عيسى عليه السلام داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية» نشر على حلقتين في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، المجلد (١٧)، العدد (٢، ٣) سنة ١٤٠٥هـ، وقبل ذلك في مجلة «الإحياء» المغربية المجلد (٢)، الجزء الأول، رجب ـ ذو الحجة ١٤٠١هـ (ص٩ ـ ٢٥)، وطبع قبل ذلك عن مطابع دار الثقافة بمكة في الزاهر، عام ١٣٩٣هـ في (٤٥) صفحة. وذكر في رسالة له إلى الشاويش مؤرخة بـ٢٧/ ٣/ ١٣٩١هـ أن الشيخ ابن باز قرأه واستحسن أن يطبع منه على الآلة الكاتبة (١٥٠) نسخة، وذكر في ديباجته (ص٣، ٤) سبب تأليفه. . (أبو عبيدة).

(٣) نشر في بعض المجلات، ثم على حدة. (أبو عبيدة).

(٤) تتمة اسمه «في مناسك الحج» هكذا ذكره مترجموه، وطبع بعنوان «دليل الحاج الحنيف» عن دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، سنة ١٣٦٩هـ، ونشره قبل ذلك في سنة ١٣٤٥هـ، وألفه بطلب من الماجد النبيل والسري الجليل مصطفى بك آل إبراهيم لما عزم على الحج، وأعاد طبعه لما سأله ذلك الأستاذ راشد آل صقير. . (أبو عبيدة).

(٥)(٦) نشرهما في المغرب، ونسبهما للإمام محمد بن سليمان الدّرعي، وشكك بعض المعاصرين في خبر طبع الكتاب، بل في أصل وجوده! وهذا خطأ، فقد صرح المصنف في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٤٧، ٤٨، ٦٢) بطبعه: ونشر دعاية وإعلاناً له في مجلته «لسان الدين» السنة الثالثة، الجزء الرابع جمادى الأولى ١٣٦٨هـ (ص٢٧)، ووقفت على الثاني منهما، ولا زلت في طلب الأول، اللهم يسِّر وأعن. (أبو عبيدة).

(٧) نشرت مرات، وذكر الهلالي في مقالة له نشرت في مجلة «التوحيد» المصرية، غرة المحرم، سنة ١٣٩٥هـ (ص٤٧)، أنها في ذلك الوقت ـ أعني سنة ١٣٩٥هـ ـ كانت تحت الطبع، وأفاد الأستاذ عبد الله بن عبد الرحمٰن الخطيب في بحثه «ترجمة المصطلحات =

٣٢ ـ الهاديات (قصائد أربع)[١].

إلى غير ذلك من الكتب القيمة النافعة[٢] وله أكثر من مائة مقال[٣] نشرتها

= الدينية والشرعية في القرآن الكريم» (ص٢٥) أنها نشرت عام ١٩٧٧م في شيكاغو، وذكر الأخوان زيدان وجاسم ابنا علي جاسم في بحثهما «ترجمة سورة الفاتحة دراسة مقارنة في أشهر ترجمات القرآن الكريم» (ص٧) أن أول مرة ظهرت ترجمة الهلالي وخان في السبعينات (١٩٧٤) باستانبول وقالا عنها (ص١١): «نعتقد على العموم بوضوح الترجمة وأداء المعنى» وقالا: «من أهم الترجمات» ومدحها جمع من الباحثين، وصوبا ما فيها مع المقارنة لغيرها. وانظر كلام الدكتور وجيه محمد عبد الرحمٰن في رسالته «وقفة مع بعض الترجمات الإنكليزية لمعاني القرآن الكريم» (ص١٧): «ونستطيع الحكم عليها بأنها من أفضل الترجمات إن لم يكن أفضلها، ولا سيما من الناحية العقدية...» وتكاد تتفق كلمة الباحثين على هذا ونظراً لسلامة هذه الترجمة من الأخطاء العلمية، ودقة إصابة الحق فيها لمعاني القرآن الكريم، تبناها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة، وانظر كلمة عن الجهود التي بذلت في هذه الترجمة ونشرها في: «تطور كتابة المصحف الشريف وطباعته وعناية المملكة العربية السعودية بطبعه ونشره وترجمة معانيه» (ص٩٠ ـ ٩٢).. (أبو عبيدة).

(١) طبع في الهند، وعرف به في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص١٣٧)، والقصائد موجودة في «ديوانه» إحداها (الميمية) التي مطلعها:

من فاته المصطفى المختار من مضر

وأدرج فيه أيضاً تخميس قصيدة حميد القرطبي التي أنشدها القسطلاني في «مقدمة شرح البخاري» (١/ ٥ ـ ٦)، ومطلعها:

نور الحديث مبين فاذْنُ واقتبس   واحْدُ الركاب له نحو الرضى الندس

وأودعها شيخه المباركفوري في «مقدمة تحفة الأحوذي» (ص١٠ ـ ١٢ ط الحجرية الهندية)، وهذه القصائد من أوائل شعر الهلالي، قاله المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٠٩).. (أبو عبيدة).

(٢) وقفت له لغاية تدوين هذه السطور على ما يربو على الستين مؤلّفاً، زيادة على ستة مؤلفات عزم عليها، وعيّنها ووضع لها عناوين، ولم أظفر لها بأثر، ولم أفز عنها بخبر، ولا قوة إلا بالله، ومما انفرد ـ فيما رأيت ـ بذكره صاحبا كتاب «إمارة الزبير بين هجرتين بين سنتي ٩٧٩ ـ ١٣٤٢هـ» (٣/ ١٨٨) قولهما ما نصه: «وله مؤلَّف ضخم يردّ به على الدعوة الخمينيّة الحديثة، وهو بحث تاريخي ربطه بتاريخ الدعوات المشبوهة التي ظهرت في الإسلام». (أبو عبيدة).

(٣) وقفت ـ ولله الحمد ـ على تسعة أضعاف هذا العدد من مقالات للهلالي، ومقدمات وتقريظات ومراسلات ومقابلات ورحلات ولقاءات ومحاورات وترجمات، وهي الآن قيد التنضيد، وانظر ـ ضرورة ـ عن أهميتها: «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٠٨).. (أبو عبيدة).

مجلات عديدة في أمريكة[1] وأوربة[2] والهند[3] وبلاد الإسلام[4].

فجزى الله شيخنا عن الإسلام والمسلمين خيراً... والسلام.

عمر بن محمد محسن

إمام وخطيب جامع الملك عبد العزيز ـ آنفاً

الدار البيضاء

---

(١) انفرد الأستاذ عمر محسن بهذه الكلمة التي أتعبتني، ولم أستطع للآن الوقوف على تفصيل أو خبر مفيد عنها، نعم ظفرت له بمجموعة مهمة غاية من (المقالات) باللغة الإنكليزية نشرت مع ترجمته المختصرة للقرآن الكريم، وهنالك إشارات إلى وجود ترجمة مطولة للقرآن، نشر في (المجلد الرابع) منها ترجمته لـ«البراهين الإنجيلية» بالإنجليزية وجزمت لي الباحثة الأمريكية لوزري هنري التي تعد أطروحة دكتوراه عن الهلالي بعدم وقوفها على شيء للهلالي في المجلات الأمريكية، والله أعلم. (أبو عبيدة).

(٢) لا أعلم أنه نشر مقالات إلا في ألمانيا ولا سيما في مجلة «دير إسلام» هكذا سماها في كتابه «الخلع» (ص٥٣) وطلبت من الباحثة الألمانية (أنابيل باتشير) تصوير هذه المقالة، وبحَثَتْ في فهارس المجلة المذكورة، ولم تظفر بشيء، وتابعت البحث، وأرسلت لي في ٢٠/ شعبان/ ١٤٢٦هـ ـ الموافق ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٥م، وظفرت بالمقالة التي أحال عليها الهلالي في كتابه الآنف الذكر، وهي بعنوان (الطبقات عند العرب)، وهي منشورة في مجلة (دلي والت ديس إسلام) ـ بمعنى مجلة (العالم الإسلامي) ـ مجلد (٢٢) سنة ١٩٤٠م (ص١٠٢ ـ ١١٠)، وأرسلتها لي مشكورة، وهي قيد الترجمة الآن. ولعل للهلالي مقالات في «بريد الشرق» التي صدرت في فاتحة عام ١٣٦٩هـ عن جامع برلين بألمانيا، انظر: مجلة «لسان الدين» السنة (٤) الجزء (١)، ربيع الأول سنة ١٣٦٩هـ (ص٦)، وأنا الآن في تطلبها، اللهم يسر.. (أبو عبيدة).

(٣) أسس فيها مجلة «الضياء» وله فيها ست وعشرون مقالة، ونشر كثيراً في مجلة «الجامعة السلفية» و«البعث» و«الجامعة» و«صوت الأمة» وكلها هنديات. (أبو عبيدة).

(٤) نشر في مجلة «إصلاح» الأفغانية، و«الاعتصام» الباكستانية، و«الوعي الإسلامي» الكويتية، و«المنار» و«الفتح» و«الهدي النبوي» و«التوحيد» و«الشباب» وجريدة «الإخوان المسلمين» المصريات، و«السجل» و«الثغر» و«صدى الشبان المسلمين» و«الهداية» و«الناس» و«الثقافة الإسلامية» و«الإخوة الإيمانية» ومجلة «كلية الآداب والعلوم» العراقيات، و«الإيمان» و«العلم» ومجلة «دار الحديث الحسنية» و«الميثاق» و«الحرية» و«دعوة الحق» و«لسان الدين» و«الإرشاد» و«السفير» و«المغرب الجديد» و«الوحدة المغربية» و«الريف» و«الإحياء» و«المجلة الإسلامية» المغربيات، و«التمدن الإسلامي» و«حضارة الإسلام» وجريدة «العَلَم» الدمشقيات ومجلة «الجامعة الإسلامية» لمحمد أمين الحسيني كانت تصدر في فلسطين، و«الجامعة العربية»، و«الصراط السوي» و«البصائر» و«الشهاب» و«صحيفة السنة النبوية» الجزائريات و«صوت الحجاز» و«الجامعة الإسلامية» و«البحوث الإسلامية» السعوديات، وجمعتُ جميع ما وقفت عليه من (المقالات) في هذه (المجلات) وبطون الكتب والمراسلات والتقريظات في تصنيف مفرد، هو تحت التنضيد الآن، والله المستعان، لا رب سواه. (أبو عبيدة).

قال أبو عبيدة: لي كتاب أطلت فيه النفس في ترجمة العلامة الهلالي وذكرت فيه نماذج من كلامه وفتاويه، واعتنيتُ بجوانب الإصلاح عنده، وفصَّلت أعماله ومهامه في كل بلدة نزل فيها، واستقر، أو رحل إليها وزارها، مع بيان المجريات التي وقعت له وبينتُ فيه أثره في الإصلاح والتغيير، ودوره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكرت فيه شذرات في رحلاته وجهوده وجهاده، وفيه إطلالة قوية على منزلته عند علماء وأعلام ومصلحي ودعاة عصره. وهو شامل حافل، أخذناه باستقراء وتتبع لما في كتبه ومقالاته، وهذا المزبور بقلم تلميذ العلامة الهلالي الأستاذ عمر بن محمد محسن فيه ـ إن شاء الله ـ غنية وكفاية لمن رام أن يعرف منزلة صاحبنا في العلم والدعوة فقد أزاح الأستاذ عمر ـ شكر الله سعيه، وأحسن إليه ـ الستار، وكشف اللثام، وحقق المقام لعَلَم من الأعلام، ورحالة حاز قصب السبق في توصيل دعوة الحق إلى الأنام، في عصر استحكمت فيه غربتا الزمان والمكان للإسلام، ولذا فَقَدَهُ الناسُ لما رحل عنهم ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى دار السلام، وأخيراً هذه كلمة عن:

* وفاة الهلالي ورثاء العلماء له:

بعد رحلة في رحاب العلم والدعوة والجهاد، وتنقُّلٍ في كثير من البلاد، وحياة مليئة بالمتاعب والشداد، توفي عالمنا الهلالي في منزله بالدار البيضاء مغرب يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر شوال سنة سبع وأربع مئة وألف من الهجرة الموافق ٢٢/يونيه/سنة ١٩٨٧م، عن عمر يقارب السابعة والتسعين عاماً، وصلى عليه في اليوم الموالي عدد كبير، وجم غفير من الموالفين والمخالفين بعد صلاة الظهر في مسجد عين الشق، ثم دفن رحمه الله بمقبرة قرية الجماعة وسط جموع كبيرة من المسلمين في موكب مؤثر وفي جو من الخشوع والابتهال والدعاء إلى الله أن يتغمده برحمته، ويدخله فسيح جناته مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً[(١)].

---

(١) مجلة «الفرقان» المغربية، العدد العاشر سنة ١٩٨٧م (ص٤)، وعنها مجلة «الاستجابة» السودانية العدد (٩) السنة (٣) رمضان ١٤٠٨هـ (ص٤٢ ـ ٤٣).

وأقيمت عليه صلاة الغائب في كثير من البلدان، مثل: السعودية، والكويت، والهند، والمغرب[١].

وكتبت كثير من الصحف في التعريف به، ورثاه أصحابه وأحبابه، وهذه نماذج من كلامهم:

* نشرت جريدة «أخبار العالم الإسلامي» في عددها (١٠٥٠) (ص١١) تحت عنوان:

«كيف ودعت المغرب العالم المجاهد محمد تقي الدين الهلالي» ما نصه:

«ويصل الخبر في تلك الليلة إلى مدن المغرب وقراه، فيتوافد على منزله بالدار البيضاء من عرفه وتتلمذ عليه وقرأ له وأحبه وقدره.

وبعيون دامعة، وقلوب خاشعة، وألسنة داعية بالرحمة والمغفرة، تقدم الجنازة صباح يوم الدفن جميع تلامذته، ممن علمهم العقيدة الإسلامية الصحيحة.

وتعود الجموع الغفيرة المتشيعة بعد الانتهاء من الدفن بقلوب حزينة، يعزي بعضهم بعضاً، فقد كان المصاب عظيماً، وكان الرزء فادحاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

* ونشرت جريدة «الثورة» وتصدرها جمعية البعث الإسلامي بتطوان في عددها (٢٢٤) ما صورته:

«ما هو نصيب اهتمام إعلامنا برجالاتنا الأعلام؟

. . . لقد انتقل أخيراً إلى الرفيق الأعلى داعية السلفية ورائد الصحافة الإسلامية في المغرب، وأحد رواد الوطنية ـ والوطنية بمعناها الإسلامي الحق ـ العلامة المجتهد الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، فما تحرك الإعلام للحديث عنه، وعن دعوته الخيرة وعن جهاده الإسلامي الذي دام ما يزيد على نصف قرن من الزمن، إن الهلالي رحمه الله حي في كل قلب مسلم ولن يغير حجم جهاده الكبير إذاعة خبر عن موته أو كتابة كلمات هزيلة عن دعوته».

* ونشرت جريدة «الميثاق» المغربية السنة (٢٤) العدد (٥٣٨) بتأريخ فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ تحت عنوان (وفاة الدكتور تقي الدين الهلالي) ما نصه:

(١) مجلة «الفرقان» المغربية العدد العاشر، سنة ١٩٨٧م (ص٥).

«فجع المغرب والأوساط العلمية والحركات الإسلامية في كل البلاد بوفاة الأستاذ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي؛ الذي وافاه الأجل المحتوم يوم الاثنين ٢٥ شوال ١٤٠٧ بالدار البيضاء، عن سن تزيد بضعة أشهر على ستة وتسعين عاماً، قضاها جميعاً في نشر العلم والدعوة إلى الإسلام الصحيح، والعمل بالسنة في الداخل والخارج، لا سيما في السعودية والهند ومصر، ويمتاز الدكتور الهلالي بقوة الحجة وسرعة الإقناع لتضلعه في علم الكتاب، وتوسعه في علم الحديث، مع طلاوة حديثه وفصاحة لسانه، مما استفاده من كبار الشخصيات التي لقيها في رحلته الواسعة في الشرق والغرب، وله عدة كتب في الدعوة والثقافة والأدب تأليفاً وترجمة ونشراً، ومن آخر ما ألفه كتاب «سبيل الرشاد» في عدة مجدات أخرج منها اثنين، وأما لقاءاته الأدبية ومحاضراته العلمية فشيء يطول الحديث عنه والإلمام به:

رحمه الله رحمة واسعة وبوأه مكان صدق عنده جزاء بما قدم لأمته من الأعمال والنصائح الغالية الخالدة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* ونشرت مجلة «صوت الأمة» الهندية، المجلد الأول، العدد الثاني، شعبان ١٤٠٨هـ (ص٤٥ ـ ٥٤) تحت عنوان: (من أعلام السلفيين: خاتمة شاهد قرن: كيف ودّعت المغرب العالم المجاهد د. محمد تقي الدين الهلالي، أخذ من المذاهب المختلفة ما يوافق السنة المطهرة غير متعصب لمذهب معين) ما نصه:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾.

توضأ الشيخ الوقور، المؤمن بربه حقّاً لصلاة عصر يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر شوال عام ألف وأربع مائة وسبعة من الهجرة، الموافق للثاني والعشرين من شهر يونيو سنة ألف وتسع مائة وسبعة وثمانين للميلاد. توضأ رغم كبر سنه وعجزه الذي ألزمه الفراش حيث عمر قرناً من الزمن، فصلى العصر كعادته متكئاً بمساعدة زوجه وربيبته اللتين اهتمتا بشأنه غاية الاهتمام طيلة عجزه عن القيام، وحدثته نفسه قبل أربعة أيام فقط وهو في عجزه هذا بالغزو والجهاد في سبيل الله، فقال لزوجه وربيبته: إن لم استطع الوقوف فاحملاني واخرجا بي لمواصلة الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله.

قال ذلك وأيام العمر، بل ساعاته تقترب من النهاية، ولم يكن يعلم بها إلا

الباري ﷻ، وكأنه بذلك أراد أن يربط حلقات العمر الطويل الأخيرة بحلقاته الأولى، التي كانت كلها جهاداً ودعوة إلى الله، وقبيل غروب الشمس بنصف ساعة تقريباً شعر بارتياح لم يعهده خلال فترة عجزه عن القيام، فطلب من أحد الإخوان الحاضرين بجانبه ـ وهو من أقرباء زوجه ـ أن يتلو ما تيسر من القرآن، وهو الذي ما انفك منذ أن صار طريح الفراش يستمع إلى تلاوة الشيخ محمود خليل الحصري بالغدو والآصال، لا يتوقف عن سماع القرآن إلا إذا كان في وضوء أو صلاة أو زيارة الإخوان له، ويوم طلب من هذا الأخ الحاضر بجانبه أن يتلو عليه ما تيسر، تلا عليه، وهو يستمع وينصت، وسبابته اليمنى إلى السماء، سورة ﴿يسٓ ۝١﴾ ثم طلب منه بعد أن أتمها أن يعيد قراءتها فأعادها عليه، وما أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ حتى أسلم نفسه لله، ورجعت إلى ربها راضية مرضية.

هكذا كانت خاتمة هذا الشيخ الجليل؛ بل هكذا كانت خاتمة ووفاة والدي وشيخي الدكتور تقي الدين الهلالي، تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

ويصل الخبر في تلك الليلة إلى مدن المغرب وقراه، فيتوافد على منزله بالدار البيضاء من عرفه، وتتلمذ عليه وقرأ له وأحبه وقدره.

وبعيون دامعة، وقلوب خاشعة، وألسنة داعية بالرحمة والمغفرة، تقدم الجنازة صباح يوم الدفن جميع تلامذته ممن علمهم العقيدة الإسلامية الصحيحة.

وتعود الجموع الغفيرة المشيعة بعد الانتهاء من الدفن بقلوب حزينة، يعزى بعضهم بعضاً، فقد كان المصاب عظيماً، وكان الرزء فادحاً، فإن لله وإنا إليه راجعون.

عالم مجتهد ومحدث حافظ:

لقد كان هذا الشيخ الجليل، عالماً مجتهداً، عالماً محدثاً محققاً حافظاً، وفقيهاً حكيماً غير متعصب إلى مذهب من المذاهب الفقهية، بل يأخذ منها جميعها ما وافق السنة، فمذهبه هي السنة؛ سواء رواها أبو حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد بن حنبل، لا يلتفت إلى ما سواها من الآراء المخالفة لها، يدافع عنها بكل جهده، بلسانه وقلبه، وكان ناقداً بصيراً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يخاف في الله لومة لائم، وكان بحق إماماً سلفيّاً جامعاً بين العلوم

النقلية والعقلية بأنواعها، وإماماً علامة في اللغة والنحو والأدب والقراءات والتجويد، يتقن سبع لغات أو أزيد، العربية، والبربرية، والعبرية، والسريانية، والهندية، والإنجليزية، وخاصة الألمانية التي حصل بها على شهادة الدكتواره في الفلسفة والأدب من جامعة «بون» الألمانية سنة ١٩٤٠م؛ حيث ترجم مقدمة كتاب «الجماهر في الجواهر» للبيروني، مع التعليق عليها وتفنيد آراء الفلاسفة المستشرقين. وكثيراً ما كان ينشدنا هذين البيتين:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه ... وتلك له عند الشدائد أعوان
فبادر إلى حفظ اللغات مسارعاً ... فكل لسان في الحقيقة إنسان

وكان شاعراً عبقريّاً صرف جل شعره في الذود عن عقيدة التوحيد والسنة المطهرة، وهاجم بقوافيه البليغة أهل الشرك وأصحاب البدع، وأرسلها عليهم شهباً محرقة تدمغ باطلهم، وتقصف إفكهم. يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في مطلع قصيدة له:

سِلام بكسر السين في قصفة الرعد ... إلى عابد الأوثان في السهل والنجد
تعمهم طراً وتختص مارقاً ... تصدى بلا علم لهجو أولي المجد

وكان مثالاً فذّاً في الصدق والصراحة، وفريداً من نوعه في تطبيق ما يقوله ويدعو إليه.

جهاده في سبيل الدعوة:

كان هدفه طول حياته تصحيح عقيدة الناس، وإبعادهم عن عبادة غير الله، ودعوتهم إلى التوحيد الخالص: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الاتباع، وحذر من الشرك، والتعلق بالأوثان، وطلب المدد والعون والاستغاثة بالقبب المبنية على القبور، ودليله في ذلك الأحاديث المروية عن النبي ﷺ، ومنها ما رواه الإمام مالك في الموطأ عن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[1]، وروى مالك أيضاً عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «**لعن الله اليهود والنصارى واتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[1]، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج[1].

(١) ترى تخريجها في التعليق على هذا الكتاب (١/١٠٨، ٣٩٥، ٤١٨).

رواه أهل السنن. قال أبو عمر ابن عبد البر النمري صاحب كتاب «التمهيد»: «هذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء والصالحين مساجد». أي: يحرم على المسلمين أن يبنوا على القبور، ويتخذوها مكاناً للصلاة، ففي «الصحيح» عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**»(١).

فما أبعد الناس اليوم عن تعاليم دينهم وسنة نبيهم، فقد اتخذوا عند قبور الصالحين، أو قبور لا يعرف أصحابها، مواسم وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، فوقعوا ـ والعياذ بالله ـ فيما حذر منه النبي ﷺ ونهى عنه، وشدد في النهي بقوله ﷺ فيما رواه إمام دار الهجرة مالك بن أنس: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١) وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ كما قال الإمام ابن القيم رحمهم الله:

فأجاب ربُّ العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدرانِ
حتى غدت أرجاؤه بدعائه في عزة وحماية وصيانِ

كان الشيخ الفاضل رَحِمَهُ اللهُ يدعو أيضاً إلى اتباع السنة وينفر من البدعة، وكثيراً ما يذكر في دروسه الأثر المروي عن مالك في كتاب «الاعتصام» للشاطبي: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأني قرأت قول الله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قال مالك: فما لم يكن يومئذٍ ديناً لا يكون اليوم ديناً». وكان رحمه الله تعالى يردد علينا ما كان يردده أيضاً الإمام مالك:

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع

هكذا كانت حياة شيخنا ومربينا، فلقد طاف بالبلاد ـ بلاد الله ـ من مشرقها إلى مغربها، داعياً إلى الله صابراً ومحتسباً الأجر والثواب من الله ﷻ. يقول عن نفسه في قصيدة رائعة:

وطفت بلاد الله شرقاً ومغرباً على قدمي طوراً وطوراً على مهر
وأنضيت بعراناً وحلقت في السما على جائبات الجو كالنجم إذ يسري

(١) انظر تخريجها في (١/ ٣٩٥، ٤١٢، ٤٢٥).

وطوراً على فلك عظيم كأنه ... ثبير يروع الحوت في لجة البحر
حليف اغتراب في ثواء ورحلة ... وإن كنت في أهل كثير ذوي وفر
وما غربة الإنسان من شقة النوى ... ولكنها في الدين والخلق والبر
إلى الله أشكو غربة الدين والهدى ... وطغيان أهل الكفر والفسق والغدر

زياراته ورحلاته العلمية:

نعم طاف بالبلاد داعياً إلى الله بصدق وإخلاص، منافحاً ومجاهداً، مدرساً وأستاذاً مبرزاً، واعظاً ومرشداً، مربياً ورائداً، إماماً وخطيباً، مؤلفاً وناشراً ناقداً ومترجماً، مذيعاً ومصححاً.

عرفته مصر، وعرف فيها رجالاتها المصلحين، ومنهم إمام الدعوة في زمانه الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمة الله عليه ـ، والمفتي الكبير الشيخ محمد أمين الحسيني، والشيخ محمد الرمالي، والشيخ حسن عبد الرحمٰن، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح، والشيخ حامد الفقي، والشيخ الألمعي عبد العزيز الخولي.

وعرفته الهند أستاذاً يدرس الأدب العربي، ويأخذ فيها الإجازة في رواية الحديث عن شيخه العلامة عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري صاحب كتاب: «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي»، ويجيزة كذلك العلامة الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني، نزيل بهوبال، ونبغ على يديه هناك علماء أجلاء منهم الأستاذ الشيخ أبو الحسن علي الندوي، والأستاذ مسعود الندوي وغيرهما من العلماء والأدباء، فلا غرو أن يذاع صيته بين علماء الهند وأدبائها.

ثم يستوطن العراق، ويتعرف فيها على كثير من علمائها الأجلاء، وخاصة العالم السلفي الأديب والمحدث المحقق الشيخ محمد أمين الشنقيطي(١)، فزوجه ابنته وكان له منها شكيب وخولة، وانتفع كثيراً بمجالسته ومذاكرته.

وتستضيفه المملكة العربية السعودية سنة ١٣٤٣هـ في عهد قائدها الإمام الهمام ناصر عقيدة التوحيد وناشر لواء الحق والعدل الملك الراحل عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود تغمده الله بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جناته. فيكرم

---

(١) ليس هو صاحب التفسير، وانظر ما قدمناه (ص٩٤).

وفادته ويقربه من مجلسه، خاصة وقد حمل معه تزكية عظيمة من الإمام محمد رشيد رضا إلى الملك عبد العزيز ينوه فيها بعلمه الغزير. فينشد قصيدة وهو جالس إلى جنبه بعد أن أهداه كتابه القيم «القاضي العدل» ويقول:

يا أيها الملك الذي سعدت به ... أرجاء مكة والحطيم وزمزم
وكسى الإله به بلاد العرب ثو ... ب أمانه فغدت به تتنعم
وأشاع نور العلم والإيمان في ... أرجائها والجهل فيها مظلم
هذا هو القطب الكبير ديانة ... وشجاعة وعدالة إذ يحكم
قطب السياسة والمكارم والعلا ... حامي الحقيقة في الوغى لا يحجم
يلقى الوفود ووجهه متهلِّل ... رائيه مغتبط به متنعم

عين مدرساً في مسجد الحرام، والمعهد السعودي، ومراقباً للمدرسين. وكانت له صحبة طويلة ومتينة مع خيرة علماء نجد والحجاز، ومنهم العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، مفتي المملكة آنذاك، وقد أخذ عنه هذا الأخير علم العروض، وأخذ عنه عمر بن حسن آل الشيخ إجازة في جميع مروياته، وأخذ عنه كذلك الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ رحمه الله تعالى، وتتلمذ على يديه مجموعة من خيرة العلماء والأدباء ومنهم الأستاذ الأديب الشيخ محمد بن ناصر العبودي، والشيخ عبد الله الخياط إمام الحرم المكي سابقاً. وكان له كذلك صداقة متينة مع جد الدكتور عبد الله نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، وعرفه شيوخ أجلاء وكانوا يقدرونه أيما تقدير، منهم الشيخ محمد بن عبد الله السبيل إمام الحرم المكي ونائب رئيس إدارة الحرمين الشريفين، والشيخ محمد صالح التويجري والشيخ سليمان المنيعي بالحرم المكي، والشيخ حماد الأنصارى أستاذ علم الحديث بالجامعة الإسلامية، والشيخ عمر فلاتة، والشيخ أبو بكر جابر الجزائري، والشيخ محمد بن عبد الوهاب البنا، والشيخ سويلم وكيل مطاوعة جلالة الملك عبد العزيز.

ويعود مرة أخرى إلى المملكة العربية السعودية بعد غيبة طويلة سنة ١٣٨٨هـ، فيلتقي بالعالم الورع الذي يقل نظيره في هذا العصر ألا وهو سماحة الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ أطال الله بقاءه وأدام في سماء المعالي ارتقاءه[1] ـ الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة

(١) رحمه الله تعالى، فقد توفي في ١٤٢٠هـ.

والإرشاد، ورئيس الجامعة الإسلامية سابقاً، فيدعوه سماحته إلى التدريس بالجامعة الإسلامية قائلاً: إن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك. فيلبي الطلب، وكان يكن لسماحته أعظم التقدير والمحبة، ويثني عليه دائماً وأبداً الثناء الجميل، ويشاء الله أن أكون في أول شهر رمضان من هذه السنة من يحمل سلامه الزكي وتحياته الطيبة شفاهياً إلى سماحة الشيخ عبد العزيز فيسألني عن حاله. وبعد أن أخبرته أنه طريح الفراش في المستشفى دعا له بهذا الدعاء الذي حفظته منه وبلغته إياه قبل وفاته: «اللهم أحسن له الخاتمة، اللهم أحسن له الخاتمة، اللهم أحسن له الخاتمة» قالها ثلاثاً. وكأن الله استجاب دعاء سماحته. ونسأل الله جلت قدرته أن يشمله بعفوه ويتغمده بواسع رحمته، ويكرم ضيافته ويجعله من الذين سبقت لهم منه الحسنى.

وعرفته أيضاً في تطوافه بلاد أوربا. وفي جنيف يلتقي بصديقه العزيز الزعيم المجاهد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، فيكون واسطة له في الدخول إلى ألمانيا ليكون أستاذاً للأدب العربي يدرسه باللغة الإنجليزية التي تعلمها سابقاً في الهند، ومرجعاً لغويّاً بإذاعة ألمانيا العربية، وطالباً بجامعة «بون» ليحصل فيها بعد أربع سنين من الكد والجد والاجتهاد والعزيمة القوية ليحصل على شهادة الدكتوراه باللغة الألمانية، ووجدها فرصة سانحة أثناء تعيينه مشرفاً ومرجعاً لغويّاً بالقسم العربي من الإذاعة الألمانية لفضح جرائم المستعمرين لبلده المغرب الحبيب من الفرنسيين والإسبانيين، فألقى من على منبر تلك الإذاعة خطباً كانت على المستعمرين خطوباً، فنفته فرنسا بسببها نفياً رسميّاً مع أنه كان غائباً عن بلده.

ومن قبل عرفته أفغانستان، وعرف فيها شيوخاً كثيرين، ومنهم العالم الأمير المجاهد الشيخ عمر أوزبك.

ثم عرفته أرض المغرب ـ موطنه الأول ـ عرفته وهو يدافع عنها المستعمر الغاشم بلسانه وقلمه دفاعاً مستميتاً، فكاد له المستعمر كيداً عظيماً، فحفظه الله من كيدهم ومكائدهم، ورغم ذلك لم يثنه كيدهم عن عزمه ومواصلة كفاحه وجهاده، فيعلن للمستعمر في تصريح لم يسبقه أحد إليه ولا نطق به قلبه، ولا يحفظه له إلا المجاهدون الحقيقيون والوطنيون الغيورون والمصلحون المخلصون أمثال: شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، والأستاذ علال الفاسي، والأستاذ عبد الخالق الطريس، والمجاهد عبد الكريم الخطابي، والأستاذ أحمد بلا فريج،

والعالم الأديب الأستاذ عبد الله كنون، والأستاذ محمد الطنجي، وغيرهم من زعماء الإصلاح، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

يصرح في لهجة شديدة، وقلب غير وجل: «إن المغرب للمغاربة، لا حق في الاستيلاء عليه لفرنسا ولا لألمانيا ولا لإسبانيا». والمستعمر لا زال آنذاك يسيطر على المغرب وغيره من البلاد العربية والإفريقية، وكان لتصريحه يومئذٍ أشد الوقع وأنكأه على المستعمرين، وأثلج قلوب المغاربة الأوفياء المخلصين. ويرى من هناك من وراء البحار سنا الحرية يقترب من بلاده ليزيل عنها الظلام، فيبعث إلى صديقه عبد الخالق الطريس بهذه الأبيات من أرض الغربة:

سَنَا الحرية الغَرَّاء لاحَا ... فصَيَّر حَنْدَسَ الظَّلْمَا صَباحا
سِلَاحُ الْحَقِّ لا يخشى فُلُولا ... ويلقى من يَصُولَ به النجاحا
فيا حزباً غَدَا للخير يسعى ... لِيُبْدِلَ خُسْرَ أُمَّتِهِ رَبَاحا
سَلامُ الله يهديه إليكم ... دواماً ما غدا غادٍ وراح
أخٌ لكُمُ بِنَارِ البَيْن يُصْلَى ... غريباً مَا أَقَام ولا استراح
ولم يَنْسَ البلاد وساكنيها ... ويذكرها العشية والصباحا

ويستقل المغرب، فيعود الدكتور محمد تقي الدين الهلالي إلى بلده بعد غيبة طويلة، تنقل فيها في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وغيره، داعياً إلى الله ومدافعاً عن الإسلام، يعود وقلبه ممتلئ حبّاً وخيراً لأبناء وطنه ولكل مسلم أينما كان، فيفرح فرحاً عظيماً باستقلال المغرب وعودة ملكه إليه مظفراً منصوراً، فيصور ذلك في قصيدة رائعة مطلعها:

ألا إن الاستعمار هاوٍ وبَائِر ... ومن مَطْلَع الأَقْمار لَاحَتْ بشائر
أبى الضَّيْمَ في أرض المغارب ضَيْغَم ... فأقبل من عَرِينِه وهو زائر
وقال للاستعمار زُلْ عن بلادنا ... فإنني عليك اليوم قاضٍ وقَابِر
سَأُسْقِيك سمّاً لا بَقَاءَ لك بعده ... وشَعْبِي مِنْ خَلْفِي أُسُود حَوَاصِر

ولم يفته آنذاك أن يحث على استكمال وحدة المغرب، بل لم يفته أن يستنهض الهمم لاستقلال المغرب العربي كله:

ألستم ترون الجيش عند عدوِّكم ... يُرابِطُ في أوطاننا وهو كَاثِر
وصَحْرَاؤُنا ما أن تزال أسيرة ... فيا نعم مأسور ويا بئس آسر
وجيشُ لُيوثٍ في الجزائر رَابِض ... يدافع عن أوطاننا وهو صابر

ويقول أيضاً في نفس القصيدة:

وإن كنت لا تدري حدود بلادنا ... فدونك فاحفظ ما أنا لك ذاكر
فمن سنكال في الجنوب حدودها ... إلى أرض مصر قد حَوَتْها القَمَاطر
نُناضِلُ عنها الدَّهرَ مَنْ جاءَ غازيا ... وتَحْصُده مِنَّا السيوفُ البَوَاتِر

ولم يفته أيضاً أن يبين السر في نجاح الأمة، وبأي شيء تنال العز والنصر فيقول:

ومَنْ ظَنَّ أن العِزَّ يُدْرَك والمُنَى ... بكُفرٍ وإلْحادٍ فذلك هاذر
أوائلنا بالدين والسِّلْم أفلحوا ... وبالدين والإسلام تعلو الأواخر

المجلة: ومما يذكر في سبيل الرحلات العلمية التي قام بها الفقيد ـ رحمه الله تعالى ـ مشاركته في مؤتمر الدعوة والتعليم الذي عقدته الجامعة السلفية بنارس عام ١٤٠٠هـ، وبهذه المناسبة العلمية وجهت الدعوة إلى الفقيد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فتكرم بالحضور وساهم بكلماته القيمة النافعة في المؤتمر. وقد تم نشر كلماته ومقترحاته بخصوص الدعوة في أحد أعداد مجلة «الجامعة السلفية» الذي صدر خاصّاً بهذا المؤتمر ربيع الآخر عام ١٤٠٠هـ. انتهى.

* ونشرت صحيفة «المثياق» أيضاً في العدد (٥٣٨) السنة (٢٤) فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ ـ في السنة التي مات فيها ـ بقلم تلميذه وصهره الشيخ الأستاذ عبد الكبير البكري مقالة مهمة في ترجمته، وهي بعنوان: (نجم أفل)، جاء فيها ما نصه:

عشية يوم الاثنين ٢٥ شوال ١٤٠٧، الموافق ٢٢ يونيو ١٩٨٧ انتقل إلى جوار ربه عالم من أكابر علماء العصر، وهو العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الفلالي المغربي، الذي كرس حياته لخدمة العلم والدين والدعوة إلى الله. لقد كان هذا الرجل العصامي مطبوعاً على العظمة بلا تكلف ولا تصنع، يكتسب المعالي سائراً سائحاً غير هياب؛ لأنه وُهِب من الحزم والعزم ما يقتحم به العقبات ويذلل به الصعاب.

ولد هذا الرجل الذي فقده الإسلام في تفلالت، وبالضبط في الريسافي قصر أولاد عبد القادر بن هلال في شهر المحرم عام ١٣١١ هجرية، الموافق ١٨٩٣ ميلادية. مات أبوه بعدما أحفظه القرآن وعلمه التجويد، فخرج من تفلالت

وجعل ينتقل من قبيلة إلى قبيلة في البوادي يعلم الصبيان كتاب الله. ولما أراد الله أن يفتح له أبواب العلم هيأ له أسبابه، فبينما هو يعلم الصبيان عند قبيلة من قبائل الحدود المغربية الجزائرية إذ مر بهم عالم شنقيطي ومعه تلاميذه، ففتح لهم درساً في النحو، ولم يسبق للهلالي أن سمع بهذا العلم ولا حضر دروساً من دروسه، ولما أتم الشيخ الدرس توجه إلى أحد التلاميذ واسمه محمد المختار ليسأله عن هذا الكلام الذي لم يعرفه فقال له: إن هذا شيء بعيد عنك، اذهب إلى صبيانك لتعلمهم، وضحك مستهزءاً به، فكان هذا التهكم والاستهزاء هو الزند الوري الذي أوقد في قلبه نار الغيرة والحماس والشجاعة والإقدام، وحرك كل ما كان كامناً في نفسه من الصفات التي يرتقي بها العظماء إلى أعلى الدرجات. وهنا توجه إلى الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله وسأله، فقال له: هذا العلم يسمى علم النحو، فقال: وهل يمكنني أن أقرأه، وأين؟ فأجاب الشيخ: نعم، وعندي فعاهده على أن لا يفارقه، وذهب معه إلى البلدة التي كان الشيخ مقيماً بها وتسمى المشربة، قرية بالجزائر تبعد عن وجدة بنحوه ١٦٠ كلم، وما بقي معه إلا مدة قليلة حتى انفجر يَنَابِعُ نبوغه وذكائه الوقاد، فبزَّ أقرانه واستطاع بما أتاه الله من المواهب أن يغوص في بحور العلم من نحو وفقه ولغة وتفسير وأدب.

وفي يوم من الأيام فاجأ الناس بقصيدة رائعة مدح بها الشيخ سِكْرَج قاضي وجدة، فكشفت الغطاء عن شخصيته، وهنا قال الشيخ لأحد أصدقائه أن هذا الشاب سوف لا يكتفي بما عندي ولا بما في القرويين وسيشرق ويشتد خبره. وتحققت فراسة الشيخ، ففي سنة ١٣١٢هـ - ١٩٢٢م أخذ الهلالي عصا التسيار، وعزم على التجول في الأقطار، فركب البحر متوجهاً إلى مصر، ثم منها إلى الهند وباكستان ثم العراق، ولما أراد الخروج من الهند بعد ما قرأ فيها الحديث على الشيخ أبي خليل محمد بن حسين بن محسن اليمني، وبعد ما فتح مدرسة كون فيها أساتذة وكتاباً وأدباء، أقول لما أراد الخروج وجاء إلى الحدود وخاطبه رجال الشرطة الذين هم إنكليز بلغتهم، ورأى أنه لم يستطع فهم كلامهم ولا الرد عليهم عدل عن الخروج ورجع عازماً على ألّا يخرج حتى يخاطبهم بلغتهم، فتتلمذ على أحد الرهبان المسيحيين! فدرس اللغة الإنكليزية؛ اعتنى بحفظ مفرداتها ولم يبح لنفسه الخروج حتى ترجم كتاب «مدنية العرب في الأندلس» من الإنكليزية إلى العربية، وبهذه اللغة استعان على الدراسة في ألمانيا التي حصل فيها على الدكتوراه في الفلسفة والأدب.

وقبل الذهاب إلى ألمانيا أقام مدة بالحجاز كان فيها واعظاً مرشداً رسميّاً، ثم بالعراق الذي كان فيه واعظاً ومدرساً في كلية الملكة عالية، وقد جردته فرنسا من الجنسية المغربية ـ في زعمها ـ ولذلك لم يستطع الدخول إلى المغرب الذي كان تحت النفوذ الفرنسي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لإنقاذه من الحلفاء الذين حكموا عليه بالإعدام؛ هيأ له الوطني الغيور المرحوم الأستاذ عبد الخالق الطريس جواز سفر على أنه شمالي، وبه دخل إلى شمال المغرب عام ٤٦، وأصدر مجلة سماها «لسان الدين»، كانت حقيقة لسان الدين، وكان يكتب فيها جماعة من العلماء البارزين والوطنيين المخلصين، ومنهم العلامة الكبير شيخنا الأستاذ سيدي عبد الله كنون، ثم رجع إلى العراق وبقي مدرساً به في كلية الملكة عالية إلى أن جاء الاستقلال، فدخل إلى المغرب المتحرر وتفرغ للتدريس والتأليف والكتابة ونشر الدعوة، ليتجرد إلى الدعوة والتبليغ والكتابة، إلى أن وافته المنية عن سن يناهز المائة، فلم تزلزله الزلازل، ولم تزعزعه الفتن؛ وإنما كان يثبت ثبوت الجبال الراسخات الشامخات.

وجملة القول: إن هذا الرجل الذي جعل من أيام حياته حبراً، ومن أعماله قلماً، ومن الأرض صحيفة يخط فيها تاريخ حياته ويترك بصماته كلما مر ببلدة من البلاد أو قطر من الأقطار أو قارة من القارات، لا يكفي لترجمته بعض الصفحات. ونكتفي بهذا القدر حتى يهيئ الله وقتاً لتحرير رسالة تصور حقيقة هذا الرجل الفذ الذي استحق بمواقفه وأعماله أن ينخرط في صف الخالدين، فسلام عليه في الأولين وسلام عليه في الآخرين وسلام عليه إلى يوم الدين، وغفر الله لنا وله ولجميع المسلمين.

* ورثاه جمع من تلاميذه، منهم شيخنا العلامة محمد بوخبزة، ومما جاء في مرثيته التي هي بعنوان «أنقذنا بفضل الله» ـ ومن خطه أنقل ـ:

هي الدنيا تسير إلى زوال ... وبهجتُها خيالٌ في خيالِ
نعيش بها سُويعاتٍ نياماً ... فتوقظنا المنية بالنِّبالِ
ألا يا ناعيَ العِرفانِ أبصر ... أتدري من نعيت من الرجال؟
تقي الدين فخر بني هلال ... تُوفّي فانتشى حزبُ الضلال
قضى شيخ الدعاة فكل حُرٍّ ... بآلامِ الفجيعةِ ذو اعتلال
فقد أمضى يجاهد في دروب ... بياض العُمْرِ ممتاز الخِلالِ

يـحـبِّـر لـلـهـدى كـتـبـاً ويُـمـلـي ... دروسَ الـعـلـمِ يـدعـو لـلـنـزال
فـأنـقـذنـا بـفـضـل الله مـمـا ... سـرى فـيـنـا مـن الـدَّاء الـعُـضَـالِ

ورثاه أيضاً تلميذه محمد بنعبود، فقال:

ماذا يفيد البكا في النائبات إذا ... تصدعت بيننا الأركان والعمدُ
لقد هوى الركن من بنياننا فلنا ... من هوله نكبة لم ينسها الأبدُ
«دكتورنا» الرجل الصنديد مفخرة ... عزيزة كلما يستذكر العددُ
لسانه الصارم المقوال عدته ... يراعه المنتج السيال والمددُ
إذا قرأت سبيلاً للرشاد فعن ... ذاك السبيل من الأغواء تبتعدُ
هذا الرثاء ولكن لا مبالغة ... ولا غلو بما في القول ينتقدُ
هي الحقيقة لا أعدو الحقيقة في ... قولي، فلا ملق فيها ولا فندُ
رحماك ربي لروح أنت قابضها ... أنت الرحيم لها الغفار يا أحدُ(١)

رحم الله الهلالي وغفر له، وألحقنا به في الصالحين، وبوّأه درجة الصدّيقين، آمين، آمين، آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) جريدة «الإصلاح» جريدة نصف شهرية مغربية، العدد السابع.



ترجمة العلامة محمد تقي الدين الهلالي بخط يده

يقول تقي الدين محمد بن عبد القادر الهلالي الحسيني المغربي

ولدت سنة ١٣١١ تقريباً في البادية في قرية تسمى الفيضة القديمة
في واد يقال له سجلماسة وقرأت القرآن برواية ورش وجودته وحفظته
وعمري اثنتا عشرة سنة ثم ذهبت إلى الجزائر [illegible] لطلب العلم
في القرى والبادية ثم دخلت مدينة فاس وحصلت
علوم العربية والدينية وأخذت من [illegible]
[illegible] سنة ١٣٤٠ ثم ارتحلت إلى مصر [illegible]
لقيت الشيخ رشيد رضا وجماعة من أصحابنا السلفيين و
استفدت منهم كثيراً [illegible] وحججت لأول مرة سنة ١٣٤١
ثم سافرت إلى الهند ولقيت الأستاذ عبد الرحمن المباركفوري
وقرأت عليه [illegible] من الكتب الستة وشرحها
وكان يأبى إلا أن يقعدني في طعامه وكان [illegible]
[illegible] القرآن [illegible] وطعم [illegible]
[illegible] عليه [illegible]
[illegible]
[illegible] وكان [illegible]
[illegible] ثم من البصرة إلى [illegible]
[illegible] في التأليف والتعليم رحمه الله.

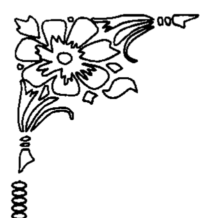
[illegible] من [illegible] ثم رجعت من الهند
إلى العراق سنة [illegible]
[illegible] سنة ١٣٤٥ حججت للمرة الثانية ثم [illegible]
[illegible] سنتين ثم انتقلت إلى مكة
[illegible] في المسجد الحرام و[illegible]
[illegible] ثم انتقلت إلى [illegible]
[illegible] أستاذاً [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] من [illegible] ثم [illegible]
[illegible] المعارف [illegible]
[illegible] من المغرب [illegible] سنة ١٩٣٦
[illegible]
[illegible] للتدريس [illegible]
[illegible] السادس عشر من مايو سنة ١٩٤٠ قدمت رسالة
الدكتوراة باللغة الألمانية [illegible]

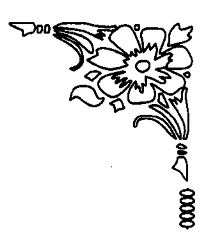
في الجواهر مع تحقيقات رددت فيها على أكابر المستشرقين الألمانيين كالأستاذ Pr. Sachau و Pr. Brockelmann . الأستاذ سخاو

والأستاذ بروكلمان في زعمهما أن البيروني كان عقله أعظم من أن يتقيد بالإسلام وخرافات أخرى وكانت الرسالة مبتكرة في أعين الممتحنين فقبلوا ذلك بالإجماع وقد قبلت الامتحان الشفهي في الوقت نفسه فنجحت بدرجة عالية وفي سنة ١٩٤٢ انتقلت إلى تطوان شمال المغرب بطريق فرنسا وإسبانيا وانتهت [illegible] وعلمت أن الفرنسيين لو [illegible] رسميا وأرادوا القبض علي [illegible] المنطقة التي كانت تحت الحماية الإسبانية والمنطقة التي كانت تحت الحماية الفرنسية وفي سنة ١٩٤٧ بعد جهود كبيرة شارك فيها جماعة من الأحرار منهم الحبيب أبو [illegible] رقيبة ومحمد علي الطاهر رجعت

(٤)

إلى العراق وعينت مدرسا في كلية الملكة عالية وفي حاضرا في كلية الآداب ثم أعطيت لقب أستاذ مساعد ثم أعطيت لقب أستاذ وفي سنة ١٩٥٣ جاء طلب من وزارة المعارف المغربية إلى وزارة المعارف العراقية بإعارتي إلى [illegible] للتدريس فبقيت فيها سنة [illegible] ودرست في الجامعة سنة وفي أواخر سنة ١٩٥٤ [illegible] بغداد وفي سنة ١٩٥٥ نقلت إلى [illegible] عن كبر [illegible] كليات بغداد [illegible] ولا أزال [illegible] إلى الآن وأسأل الله أن يختم لي بالحسنى وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه أجمعين





تعريف عام بكتاب
«سبيل الرشاد»(١)

بقلم
شيخنا بالإجازة العلامة محمد بو خبزة
(تلميذ الهلالي)

سبيل الرشاد في هدي خير العباد

[٦ أجزاء في ٣ مجلدات، طبع بالمغرب
بإشراف المكتب التعليمي السعودي على نفقة
الأميرة الجوهرة بنت سعود آل سعود، له
ترجمة في الصفحة ٣٤٧ من هذا الجزء]

أفتتح الكتاب بكلمة تنويه وتقريظ للملحق التعليمي السعودي بالمغرب، نوَّه فيها بالمؤلف وجهوده في الدعوة إلى الله التي يتجلّى بعضها في هذا الكتاب النافع الذي شرح فيه أنواع التوحيد شرحاً صافياً مع التنبيه على أنواع التحريف والابتداع التي أصابت العقيدة من جراء الإعراض عن الاهتداء بالقرآن، وتبني أسلوب الكلام والفلسفة في معرفة العقيدة، وأشار إلى عناية الشيخ عبد العزيز بن باز بالمؤلف وكتابه وسهره على طباعة الكتاب وتوزيعه، وحيَّى في الوقت نفسه، الأميرة الجوهرة التي أنفقت بسخاء على طبعه ابتغاء وجه الله، ثم تليها ترجمة جيدة مفيدة للمؤلف يحسن الاطلاع عليها، لتضمنها معلومات عنه لا توجد في غيرها، منها قائمة بمؤلفاته ما طبع منها وما لم يطبع، وقد بلغت ٣٣ مؤلفاً، ثم مقدمة المؤلف لكتابه التي بيَّن فيها منهجه في جمعه، وأنه كان يخطر بباله منذ مدة أن يجمع كتاباً لنفسه ولمن شاء الله بعده، يشرح فيه أنواع التوحيد الأربعة:

(١) نشره العلامة بوخبزة في كتابه «معجم تفاسير القرآن الكريم» (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٤)، وآثرنا إثباته دون تصرف.

توحيد الربوبية الذي رأى أن الآيات المتعلقة به في القرآن كثيرة جداً لو استوعبها مع ما يتعلق بها من الحديث والآثار لعظم حجم الكتاب جداً، ولذلك ـ إضافة إلى أنه معروف ومعتقد جميع الملل والنحل باستثناء الملاحدة المنكرين لوجود الله تعالى ـ لم يتناول آياته كلها بالكلام، وجعل بدله توحيد الاتّباع وهو داخل في توحيد العبادة والألوهية، ثم توحيد الأسماء والصفات، وقد درج الناس على جعل أقسام التوحيد ثلاثة، إلا أنه أفرد من قسم توحيد العبادة، توحيد الاتّباع وجعله قسماً رابعاً لكثرة خلاف المقلدين لما جاء به رسول الله ﷺ، وهو في هذا كله مستمد من القرآن الكريم يتتبع آياته المتعلقة بالأقسام المذكورة في المصحف الشريف كله ابتداء من الفاتحة إلى النهاية، ضامّاً النظير إلى نظيره دون مراعاة ترتيب السور، معتمداً في التفسير على ابن كثير مشيراً إليه بالكاف، وعلى «جامع البيان» لابن جرير مشيراً إليه بالجيم، منتقياً من الحديث ما صح، مشيراً إلى ما اتفق عليه البخاري ومسلم بحرف القاف، وما انفرد به البخاري بحرف الخاء، وما انفرد به مسلم بحرف الميم، وما رواه أبو داود في السنن بحرف الدال، وما رواه الترمذي في جامعه بحرف التاء، وما رواه النسائي في «سننه» بحرف النون، وما رواه الإمام أحمد في «مسنده» بالحاء والميم أو الألف المهموزة، وبعد هذه المقدمة شرع المؤلف في بيان الأقسام، مبتدئاً بتوحيد العبادة وتوحيد الربوبية، ولم يشر المؤلف في مقدمته المقتضبة هذه إلى جانب مهم من منهجه المعروف في مؤلفاته وأبحاثه، وخصوصاً في هذا الكتاب الذي هو أكبر مؤلفاته حجماً ونفعاً، وهو أنه بعد نقله بأمانة عمن ينقل عنهم، يتعقب كلامهم غالباً بفصول مفيدة ناقدة تارة، أو مضيفة إليها ما يزيدها تقوية وبياناً، وفي أثناء ذلك يتحدث عن نفسه وما جرى له من مناظرات ووقائع تتعلق بالموضوع، منبهاً على بدع ومخالفات خصوصاً ما ظهر منها على يد الصوفية ومريديهم.

نموذج هذا التفسير:

والمؤلف كثيراً ما يطيل القول فيصعب نقل كلامه كله، ولذلك ننقل من كلامه على قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾، المراد بالرسول هنا نبينا محمد ﷺ، جاء اليهود بالحق ـ وهو

الإسلام والقرآن ـ مصدقاً لما معهم من التوراة، فنبذت طائفة من اليهود ـ وهم أكثرهم، كتاب الله ـ وهو القرآن الذي جاء به رسول الله ﷺ، وقيل: المراد به التوراة.

قال محمد تقي الدين: ولا تنافي بينهما، فإن من كذب محمداً ﷺ، فقد نبذ التوراة والقرآن جميعاً؛ لأن التوراة بشرت به، وأخذ الله الميثاق على أهلها أن يؤمنوا به، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ . . . قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وقال تعالى في آل عمران أيضاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ . . . فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ والنبذ هو الطرح وجعل الشيء وراء الظهر لإهماله والإعراض عنه، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لمّا لم ينههم علمهم صاروا كمن لا يعلم؛ أي كالجاهلين، بل العالم الذي لا ينفعه علمه شر من الجاهل، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾، الخطاب هنا لليهود، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، يعني أن اليهود نبذوا ما جاء في التوراة والقرآن من وجوب الإيمان بجميع رسل الله تعالى، واتباع ما جاؤوا به من توحيد الله وطاعته، واتبعوا ما علمتهم الشياطين من السحر الذي نسبته إلى سليمان كذباً وزوراً، وسليمان رسول أمين بريء من السحر وما زعمته الشياطين لأتباعهم أن سليمان عليه السلام ما بلغ ذلك الملك العظيم، والحكم على الجن والإنس إلا بالسحر، فجاء محمد رسول الله خاتم النبيين وإمامهم، فبرأ أخاهم سليمان مما نسبت له الشياطين واليهود من السحر الذي هو كفر، فإن اليهود بنسبتهم السحر إلى نبي الله سليمان لزمهم نسبة الكفر إليه، وحاشا سليمان من الكفر، بل الشياطين وأتباعهم هم الذين كفروا بسليمان وبمحمد رسول الله ﷺ، وكفروا بتعليمهم الناس السحر وحثهم على العمل به، والسحر هو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي يحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء، وما يظنه راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير، وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال محمد تقي الدين: لا أعلم آية في كتاب الله تعالى تحيرت في تفسيرها

كما تحيرت في تفسير هذه الآية؛ لأن الناس من زمان الصحابة إلى يومنا هذا اختلفوا في تفسيرها، وأنا أستعين بالله وأختار القول بالذي أراه صحيحاً مطابقاً للأصول، وما أبرئ نفسي من الخطأ، فأقول وبالله التوفيق: أكثر المفسرين على أن (ما) موصولة، فمعناها: أن الشياطين كانوا يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين اللذين أنزلهما الله في بابل بأرض العراق، يعلمان الناس السحر فتنة لهم، للتمييز بين من يؤمن بالله ويطيع الله ويلتزم حدوده، وبين من اتبع هواه، وكفر بالله وعصى أمره، وكانا لا يعلِّمان أحداً حتى ينصحاه ويخبراه بالعاقبة الوخيمة لمن يتعلم السحر المشتمل على الكفر، فإذا أبى إلا التعلم والعمل به، علَّماه، قالوا: ولا مانع أن يبتلي الله عباده بمثل هذا.

ثم حكى الدكتور محمد تقي الدين قول ابن جرير في الآية وأن (ما) نافية، واختار هذا القول، وتعرض لحديث الملكين هاروت وماروت وافتتانهما بالمرأة التي مُسخت كوكباً هو الزُّهَرة، وبين أنه من الإسرائيليات، وأنه غير مقبول لمخالفته القرآن. ثم نقل من كتاب «التوحيد» وشرحه «تيسير العزيز الحميد» (باب ما جاء في السحر) برمته، وفيه بيان شيء من أنواع السحر، وعقب على ذلك بقوله: «قال محمد تقي الدين مؤلف هذا الكتاب: ومنه ما يسمى في هذا الزمان بعلم الرمل، وذلك أن الكاهن يضع رملاً أمامه وينكت في ذلك الرمل بأصبعه نكتاً كل نكتة فيها كحفرة صغيرة، ويجعلها أربعة أعمدة مبتدأة من الأسفل إلى الأعلى، ثم يسقط تلك العلامات اثنتين اثنتين مبتدئاً من الأسفل إلى الأعلى في الأعمدة الأربعة، ويترك الحفرة الأخيرة والحفرتين الأخيرتين فيتألف له شكل، وكل شكل له اسم، فلنفرض أنه أسقط الأعمدة الأربعة اثنتين اثنتين فبقي من كل عمود نقطة واحدة فيظهر شكل يتألف من عمود فيه أربع فقط، ويسمى هذا: الطريق، ثم يعيد العمل فيبقى مثلاً من كل عمود نقطتان أو حفرتان فيتألف منهما عمود فيه ثماني نقط أو حفر، ويسمى هذا الشكل الجماعة، ويستمر هكذا إلى أن يخرج ستة عشر عموداً على طريقة الزوج والفرد ولكل شكل اسم يدل على معنى من المعاني، فهناك الطريق والجماعة كما تقدم، وهناك النصرة الداخلة والنصرة الخارجة، والأحيان الإنكيس والأحيان البارح.

وقد ذكر هذه الأشكال كلها صاحب «القاموس» وكتب صورها فَرَاجِعْه، فإذا فرضنا أن رجلاً أو امرأة جاء أحدهما إلى الكاهن الذي سمي الرَّمَّال وقال

له: عندي مسافر غائب منذ زمان فأخبرني بخبره؛ أو يقول: عندي حاجة أخبرني بها، فينكت في الرمل، فيخرج له في أول مرة الطريق مثلاً فيقول: أنت تسأل عن شخص مسافر غائب عنك لأن الطريق يدل على ذلك، أصحيح ذلك؟ فيقول السائل: نعم فيأخذ الكاهن من السائل علماً تفصيلياً بعد أن أعطاه علماً إجمالياً، ثم يخط فتخرج له الجماعة، فيقول: أنت حريص على الاجتماع به؟ فيقول: إي والله يا سيدي هو ابني غاب عني منذ أربع سنين ولم أسمع له خبراً، فيقول: أبشر ستجتمع به، ثم يخط فيخرج له الأحيان الإنكيس فيقول: إن صاحبك وقع في شدة عظيمة، ولكن هذا شكل النصرة الخارجة إلى جانبه يدل على أنه سيخرج منها بسلام وانتصار، وهكذا لا يزال الكاهن يعطي السائل الغبي أموراً إجمالية لا يخلو منها زمان ولا مكان، والسائل المغفل يعطيه التفاصيل حتى يأخذ جميع التفاصيل منه ثم يعيدها عليه يسردها سرداً، فيعتقد هذا المغفل أنه علم من خط الرمل كل أخبار المسؤول عنه وأخبره، والحقيقة أن السائل هو الذي أخبر الكاهن بكل شيء وهو لا يشعر، فإن صدق ما أخبره به ازداد اعتقاداً في صحة كهانته، وإن أخطأ غفل عن خطأه، فهذه باختصار إشارة تعرفك أيها القارئ بحقيقة ما سمي بخط الرمل».

ثم ذكر المؤلف حكايتين وقعتا له مع بعض من يدعي علم خط الرمل وأنه كشف أمرهم وفضحهم.

سبيل الرشاد

في

هدي خير العباد

تصنيف

العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي

رحمه الله تعالى

(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)

(١٨٩٣ - ١٩٨٧ م)

قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، أشهد أنه الله الذي لا إلٰه إلا هو رب العرش الكريم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ذو الخلق العظيم، اللَّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الكبير المتعالي محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي عفا الله عنه ووفقه للعمل الصالح المتوالي: خطر ببالي منذ مدة أن أؤلِّف كتاباً لنفسي ولمن شاء الله بعدي، أشرح فيه أنواع التوحيد الأربعة[(١)] التي أولها: **توحيد الربوبية**، وثانيها: **توحيد العبادة**، وثالثها: **توحيد الاتباع**، ورابعها: **توحيد الأسماء والصفات**، ثم رأيت أن آيات توحيد الربوبية في كتاب الله كثيرة لو استوعبتها مع ما يتعلق بها من الأحاديث النبوية وكلام علماء السلف، لعظم حجم الكتاب جداً لكثرتها، فجعلتُ[(٢)] الأقسام ثلاثة: **الأول:** في توحيد العبادة ممزوجاً بما يحتاج إليه من آيات توحيد الربوبية. **والقسم الثاني:** يشتمل: على آيات توحيد الاتباع ـ أعني اتباع الكتاب والسنة ـ، **والقسم الثالث:** يشتمل على آيات توحيد الأسماء والصفات وهي الآيات التي وصف الله بها نفسه سبحانه وما يتعلق بها من الأحاديث النبوية وأقوال أئمة السلف، وقد أعانني الله سبحانه على إتمام هذا (الجزء الأول)؛ فللَّه الحمد والمنة، وإياه أسأل، وبأسمائه وصفاته أتوسل، أن يعينني على إتمام الجزئين الباقيين، وسميت هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة «**سبيل الرشاد**»؛ أسأل الله تعالى أن يجعل النفع به كثيراً، وأن يجعله من الأعمال الباقية، وأن ينفعنا به ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

---

(١) أنواع التوحيد في الحقيقة ثلاثة؛ لأن الثالث وهو الاتباع داخل في الثاني، ولكنني جعلته قسماً لكثرة خلاف المقلدين لما جاء به الرسول ﷺ. (منه).

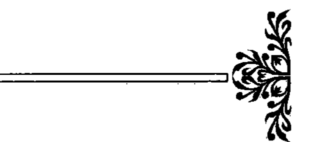
(٢) في الأصل: «فجلعت»!!

واعتمدت على تفسير الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة «٧٧٤هـ» ـ رحمة الله عليه ـ؛ لأني ما رأيت أحداً من المفسرين يعتني بالتوحيد مثله، وقد أشير «بالكاف» إلى تفسير ابن كثير[١] و«بالجيم» إلى «تفسير ابن جرير»[٢] و«بالقاف» إلى ما اتفق عليه البخاري ومسلم من الحديث و«بالخاء» إلى ما انفرد به البخاري و«بالميم» إلى ما انفرد به مسلم و«بالدال» إلى «سنن أبي داود» و«بالتاء» إلى «جامع الترمذي» «وبالنون» إلى «سنن النسائي» «وبالحاء والميم» أو «الألف المهموزة» إلى «مسند الإمام أحمد».

---

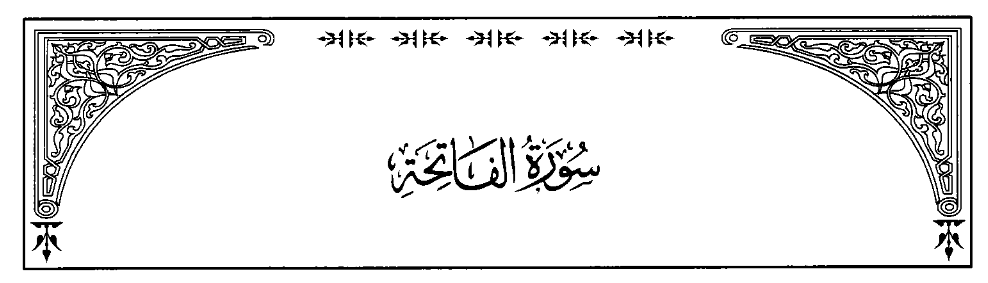
(١) لا بد من تنبيهات:
الأول: نقدات العلامة الهلالي على مطبوع «تفسير ابن كثير» ـ وكان ينقل من طبعة الاستقامة ـ، ونقده في هذا الجزء (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥) وقال (ص) عنها: «فيها أخطاء كثيرة وبتر ونقص».
الثاني: إنه نقل أيضاً من «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» لشيخنا الداعي إلى الله على بصيرة محمد نسيب الرفاعي ـ رحمه الله تعالى ـ ورمز له (خك) كما تراه ـ مثلاً ـ في (٣/ ١٢٠، ١٣٧).
وللعلامة الهلالي رحمه الله كلمة في تقريظ هذا «التيسير» مودعة في أوله (أول صفحة) قال عن مؤلفه: «أخونا العالم السلفي المحقق الأستاذ الشيخ» وقال عن مختصره هذا: «جاء اختصاره طبق ما يؤمّله كل طالب علم، موزوناً بقسطاس مستقيم».
الثالث: اعتمدتُ في التوثيق ومقابلة النص على طبعة أولاد الشيخ، مصر، وهي من أوثق النسخ، ومقابلة على النسخة الأزهرية الخطية، ونسخة في دار الكتب المصرية، وتقع في (١٥) مجلداً.

(٢) اعتمدتُ في التوثيق والتخريج على طبعة دار هجر، إلا ما صرحتُ بخلافه.




القسم الأول

توحيد العبادة وتوحيد الربوبية



سورة الفاتحة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

قال (ج): في تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] ما نصه: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لك اللهم نخشع ونذل ونستعين(١) إقراراً لك يا رب بالربوبية لا لغيرك»(٢). ثم روى بسنده إلى عبد الله بن عباس: قال جبريل لمحمد ﷺ: قل يا محمد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ «إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك»(٣)، «وذلك من قول ابن عباس بمعنى ما قلنا، وإنما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نخشع ونذل ونستعين، دون البيان عنه بأنه بمعنى: نرجو ونخاف، وإن كان الرجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة؛ لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة، وإنها تسمي الطريق المذلل الذي وطئته الأقدام وذللته السابلة معبداً، من ذلك قول طَرَفَة بن العبد(٤):

تُبَارِي عِتَاقاً نـاجيـاتٍ وأتْبَعت وَظِيـفـاً(٥) وظِيـفـاً فـوقَ مَـوْرٍ مُـعَبَّـدِ

يعني بالمور الطريق، وبالمعبَّد المذلل الموطوء، ومن ذلك قيل للبعير المذلَّل بالركوب في الحوائج: معبَّدٌ، ومنه سمي العبد عبداً، لذلته لمولاه»(٦).

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «ونستكين».

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٥٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٩)، **وإسناده منقطع**، الضحاك لم يسمع ابن عباس. انظر: «المراسيل» (٩٥، ٩٦) لابن أبي حاتم، «تهذيب الكمال» (١٣/ ٢٩٦) ومقدمة «تفسير الضحاك» (ص٥٨ ـ ٦١).

(٤) البيت في «ديوانه» (ص٣٥).

(٥) الوظيف: من رسغي البعير إلى ركبتيه في يديه، وأما في رجليه فمن رسغيه إلى عرقوبيه.

(٦) انظر: «تفسر ابن جرير» (١/ ١٥٩ ـ ١٦٠).

قال محمد تقي الدين: وقوله: «**وذللته السابلة**»، المراد بالسابلة: «أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حاجاتهم»، قاله[1] صاحب «اللسان»[2].

وقوله: «إياك نستعين» قال أبو جعفر «معنى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإياك ربنا[3] نستعين على عبادتنا إياك وطاعتنا لك[4] في أمورنا كلها لا أحداً سواك، إذا كان[5] من يكفر بك يستعين في أموره بمعبوده[6] الذي يعبده من الأوثان دونك فنحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة»[7]، ثم روى بسنده إلى الضحاك عن ابن عباس قال: «إياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها»[8].

وقال (ك) في تفسير الآية ما نصه: «والعبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبد وبعير معبد، أي: مذلل، وفي الشرع عبارةٌ تجمع[9] كمال المحبة والخضوع والخوف، وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر أي: لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع[10] إلى هذين المعنيين، وهو كما قال بعض السلف:

الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فالأول تبرّؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة وتفويض[11] إلى الله ﷻ.

وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٩].

---

(١) في المطبوع: «قال»: وصوابه المثبت.

(٢) هو ابن منظور، راجع «لسان العرب» (١١/ ٣٢٠ ـ سبل).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «يا ربنا».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «وطاعتنا في».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «إذ كان». (٦) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «معبودَه».

(٧) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٦٠).

(٨) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٩)، **وإسناده منقطع**.

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وفي الشرع عبارة عما يجمع».

(١٠) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والدين يرجع كله».

(١١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والتفويض».

وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب فيه مناسبة[(١)]؛ لأنه لما أثنى على الله[(٢)] فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى، فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وفي هذا دليل على أن السورة[(٣)] خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك، ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه، كما جاء في «الصحيحين» عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[(٤)]، وفي «صحيح مسلم» من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**»[(٥)].

وقال[(٦)] قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم». «وإنما قدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على «إياك نستعين»؛ لأن العبادة له هي المقصودة والاستعانة وسيلة إليها والاهتمام والحزم ما هو الأهم[(٧)] فالأهم»[(٨)]. ثم قال: «والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد عند الله

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو مناسبة».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعالى».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أول السورة».
(٤) أخرجه البخاري رقم (٧٥٦)، ومسلم رقم (٣٩٤).
(٥) أخرجه مسلم رقم (٣٩٥).
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال الضحاك عن ابن عباس ﭭ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها وقال قتادة...».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والاهتمام والحزم هو تقديم ما هو الأهم فالأهم».
(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١٤ _ ٢١٦).

تعالى[١]: وقد سمى الله رسوله[٢] ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] فسماه عبداً عند إنزاله عليه، وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق فيها صدره[٣] من تكذيب المخالفين، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]»[٤].

قال الشوكاني: «والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه، والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل»[٥].

في هذا الكلام فوائد

الأولى: معنى العبادة لغة وشرعاً، **والثانية**: معنى الاستعانة لغة وشرعاً، **والثالثة**: تقديم المعمول يفيد الحصر في الموضوعين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، **الرابعة**: الدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، **الخامسة**: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، **السادسة**: لا تصح صلاة من لم يقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ وما قبلها وما بعدها من الفاتحة، **السابعة**: السر في تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **الثامنة**: العبادة أشرف المقامات خلافاً لمن ظن العكس من الجاهلين من النصارى وأشباههم، **التاسعة**: من ضاق صدره فليبادر إلى العبادة.

قال محمد تقي الدين: قول الشوكاني: «والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل»، إن كان يريد المعنى اللغوي فهو صحيح، قال تعالى في سورة المؤمنين حكاية عن موسى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى كما قال بعضهم:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

وقد سمى الله...».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسول الله».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يضيق صدره».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١٦).

(٥) انظر: «فتح القدير» (١/ ٨٩).

[المؤمنون: ٤٧] أي: خاضعون متذللون خادمون، وأما إن أراد المعنى الشرعي فهو ناقص، إذ لا تتم العبادة بالخضوع والتذلل فقط حتى يصحبهما الحب والتعظيم والإجلال وتوحيد الله بذلك، وعليه يقال: العبادة غاية التذلل في غاية الحب، مع التوحيد واتباع سنة النبي ﷺ، وأداء جميع الواجبات وترك المحرمات.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] إلخ

قال (ج): «ومعنى قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] في هذا الموضع عندنا: وفقنا للثبات عليه»[١]، قال أبو جعفر: «أجمعت الأمة[٢] من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه»[٣]، «ومن[٤] ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفي:

أميرُ المؤمنين على صراطٍ إذا اعوَجَّ الموارِدُ مستقيمِ»[٥]

«ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وُصِفَ باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته والمعوجَّ باعوجاجه، ومعناه عندي[٦]: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل[٧]؛

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٦٥).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «الحجة».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «وكذلك ذلك في لغة جميع العرب».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «فمن».

(٥) البيت في «ديوانه» (١/ ٢١٨)، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «يريد: على طريق الحق، ومنه قول الهذلي أبي ذُؤَيب:

صبَحنا أرضَهم بالخيل حتى تركناها أدقَّ من الصراط

ومنه قول الراجز:

فصدَّ عن نهج الصراطِ القاصدِ ....

والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، وفيما ذكرنا غنىً عما تركنا».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ أن يكون مَعْنِيّاً به».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «وذلك الصراط المستقيم».

لأن من وُفِّق لما وفق له من أنعم الله عليه[١] فقد وفق لاتباع منهاج النبي ﷺ ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وكل عبد صالح»[٢].

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] بطاعتك وعبادتك من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وذلك نظير ما قال ربنا في تنزيله في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩] ثم روى بسنده مثل ذلك الذي قاله عن ابن عباس وغيره من السلف، ثم قال: «وفي هذه الآية دليل[٣] على أن طاعة الله لا ينالها المطيعون إلا بإنعام الله بها عليهم وتوفيقه إياهم لها»[٤].

والمراد بـ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] من ذكرهم الله ﷻ في سورة المائدة بقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾، ثم روى بسنده إلى عدي بن حاتم قال: قال لي النبي ﷺ: «﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: **اليهود**»[٥]، ثم روى مثل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين موقوفاً عليهم[٦].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي ﷺ ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم أجمعين، وكل عبد لله صالح».

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «دليل واضح».

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٧٨).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩)، والطيالسي (١٠٤٠)، والترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، وابن جرير (١/ ١٨٥ ـ ١٩٣) رقم (١٩٤ ـ ٢٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» رقم (٤٠، ٤١)، وابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦، ٧٣٦٥)، وتمام في «الفوائد» (١٣٢٥ ـ «الروض البسام»)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ رقم ٢٣٦، ٢٣٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٧٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠) من طرق عن عدي، **يصح بها إن شاء الله تعالى**، وبعضها مرسلة كما عند سعيد بن منصور (١٧٩ ـ التفسير). وانظر تعليقي على «الاعتصام» (١/ ٢٣٩) ففيه تفصيل الطرق، وحسنه ابن حجر في «الفتح» (٨/ ١٥٩) وصححه شيخنا الألباني في «التعليقات الحسان» (٦٢١٣).

(٦) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٨٨ ـ ١٨٩)، و«تفسير ابن وهب» (١/ ٥٤)، و«تفسير =

وقوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، قال (ج): «فإن قال لنا قائل: ومن هؤلاء الضالون الذين أمرنا الله بالاستعاذة بالله أن يسلك بنا سبيلهم ونضل ضلالهم؟ قيل: هم الذين وصفهم الله في تنزيله، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧]»[1]، ثم روى بسنده إلى عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قال: **النصارى**»[2].

قال محمد تقي الدين: ذكرت الآيتين الأخيرتين وجعلتهما من أدلة توحيد العبادة؛ لأنهما دعاء والدعاء عبادة كما في الحديث الصحيح: «**الدعاء هو العبادة**»[3]. رواه أحمد والأربعة والبخاري في «الأدب المفرد» عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ، وفي حديث آخر: «**الدعاء مخ العبادة**»[4]. رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً عن النبي ﷺ، فهداية القلوب لا يقدر عليها إلا الله تعالى، فمن زعم من المتصوفة أن شيخه يتصرف في قلبه هداية وإضلالاً وتنويراً وإظلاماً وليناً وقسوة وإقبالاً وإعراضاً فقد اتخذ مع الله إلهاً آخر، قال النبي ﷺ: «**يا مقلب**

= ابن أبي حاتم» (١/ ٣١)، و«الدر المنثور» (١/ ١٦).

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٩٤). (٢) مضى تخريجه قريباً، وهو **صحيح**.

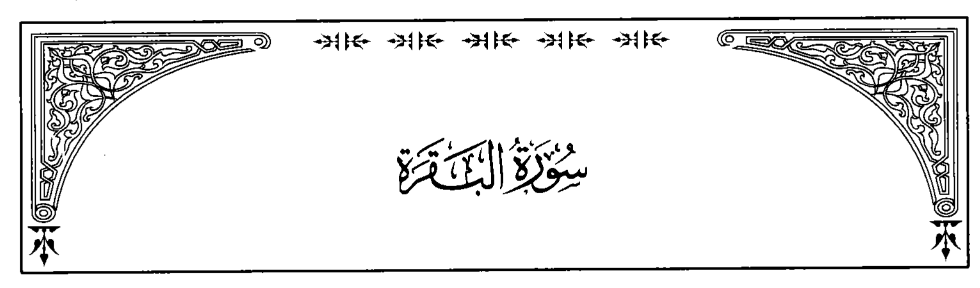
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧ و٢٧١ و٢٧٦)، والطيالسي (٨٠١)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٠٠)، وابن المبارك في «الزهد» (١٢٩٨ ـ ١٢٩٩) وفي «المسند» رقم (٧٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٦٤)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧، ٣٣٧٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والطبراني في «الصغير» (١٠٤١) وفي «الدعاء» (١ ـ ٧)، وابن منده في «التوحيد» رقم (٣٢٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩ ـ ٣٠)، وابن حبان (٨٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩٠)، وأبو نعيم (٨/ ١٢٠)، والبيهقي في «الشعب» (١١٠٥) وفي «الدعوات الكبير» (٤)، والبغوي (١٣٨٤) وفي «التفسير» (٤/ ١٠٣)، **وصححه** الحاكم ووافقه الذهبي، **وهو كما قالا**. وانظر: «الإعلام» (٤/ ١٠١ ـ ١٠٢)، «الموافقات» (٤/ ٣٩٨)، وتعليقي عليهما.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلّا من حديث ابن لهيعة» والطبراني في «الأوسط» (٣٢٢٠) من حديث أنس والحديث **ضعيف**، وضعفه شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في «ضعيف الترغيب» (١٠١٦). وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٢١).

القلوب **ثبِّت قلوبنا على دينك»**(١)، فقلوب العباد بيد الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن وفق لطلب الهداية فإن الله يهديه، وقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٠٩ و١١/ ٣٦)، وأحمد (٣/ ١١٢، ٢٥٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٨٣)، والترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وأبو يعلى (٢٣١٧، ٣٦٨٧، ٣٦٨٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٢٥)، وابن جرير (٣/ ١٨٨)، والطبراني (٧٥٩) وفي «الدعاء» (١٢٦١)، والحاكم (١/ ٥٢٦ و٢/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩)، والبغوي (٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٦)، والضياء في «المختارة» (٢٢٢٢ ـ ٢٢٢٥) من حديث أنس **وإسناده جيد**، وهو **صحيح** وله شواهد عديدة من حديث عبد الله بن عمرو والنواس بن سمعان وعائشة وأم سلمة وجابر وسبرة بن مالك رضي الله عنهم أجمعين.



سورة البقرة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]

قال (ك)[١]: «لما فرغ سبحانه من ذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين، أقبل عليهم بالخطاب التفاتاً للنكتة السابقة في الفاتحة[٢]، وإنما خص نعمة الخلق وامتن عليهم[٣]؛ لأن جميع النعم مترتبة عليها وهي أصلها الذي لا يوجد شيء بدونه[٤] وأيضاً فالكفار مقرّون بأن الله هو الخالق ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] فامتن الله عليهم بما يعترفون به ولا ينكرونه[٥]».

---

(١) هذا النقل غير موجود عند ابن كثير بل هو موجود عند الشوكاني في «فتح القدير» (١/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «و«يا» حرف نداء، والمنادى «أيّ» وهو اسم مفرد مبني على الضم؛ و«ها» حرف تنبيه مقحم بين المنادى وصفته، قال سيبويه: كأنك كررت «يا» مرتين، وصار الاسم بينهما، كما قالوا: ها هو ذا. وقد تقدم الكلام في تفسير الناس والعبادة، وإنما خص. . .».

(٣) في مطبوع «فتح القدير»: «وامتن بها عليهم».

(٤) في مطبوع «فتح القدير»: «لا يوجد شيء منها بدونها».

(٥) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «وفي أصل معنى الخلق وجهان: **أحدهما**: التقدير يقال: خلقت الأديم للسقاء: إذا قدرته قبل القطع. قال زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ... ـض القوم يخلق ثم لا يفري

الثاني: الإنشاء والاختراع والإبداع».

ولعل أصلها للترجي[(١)] وهو محال[(٢)] على الله تعالى».

فمعناها هنا أن الله يقول لعباده: وحدوا ربكم بعبادته ولا تشركوا به شيئاً وبذلك تصلون إلى التقوى وهي سبب سعادتكم، وتنجون من الشرك الذي هو سبب شقاء وهلاك. وقيل: إن العرب استعملت «لعل» مجردة من الشك بمعنى لام كي، والمعنى هنا لتتقوا.

قال الشاعر[(٣)]:

وَقُلتمْ لَنَا كُفُّوا الحروبَ لَعلَّنا ... نَكُفّ وَوَثَّقْتُم لَنَا كُلَّ مَوْثِقِ
فلمَّا كَفَفنا الحَرْبَ كانت عُهُودُكمْ ... كَشَبه سَرَابٍ في الفلا[(٤)] مُتألِّقِ

﴿فِرَٰشٗا﴾: أي وطاء يستقرون عليها، لما قدم نعمة خلقهم، أتبعه بنعمة خلقه الأرض[(٥)]»[(٦)]، «ثم أتبع ذلك بنعمة جعل السماء كالقبة المضروبة عليهم والسقف للبيت الذي يسكنون[(٧)] كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾[(٨)] [الأنبياء: ٣٢]»، ثم امتن عليهم بإنزال الماء من السماء»[(٩)]، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جمع ثمرة، والمعنى: أخرجنا لكم ألواناً من الثمرات وأنواعاً من النبات ليكون ذلك متاعاً لكم إلى حين، والأنداد: جمع ند، وهو المثيل والنظير»[(١٠)]، «﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ خطاب للكفار والمنافقين»[(١١)] وفيه دليل على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد.

---

(١) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «والطمع، والتوقع، والإشفاق».

(٢) في مطبوع «فتح القدير»: «وذلك مستحيل».

(٣) ذكر الشوكاني هذين البيتين في «فتح القدير» ولم يعزهما لأحد وهما غير منسوبين في «أمالي الشجري» (١/ ٥١)، و«تفسير ابن جرير» (١/ ٣٨٧)، و«روح المعاني» (١/ ١٨٦)، و«زاد المسير» (١/ ٤٨)، و«تفسير الثعالبي» (١/ ٣٨).

(٤) في مطبوع «فتح القدير»: «الملأ».

(٥) في مطبوع «فتح القدير»: «خلق الأرض».

(٦) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «فراشاً لهم، لما كانت الأرض التي هي مسكنهم ومحل استقرارهم من أعظم ما تدعو إليه حاجتهم».

(٧) في مطبوع «فتح القدير»: «يسكنونه».

(٨) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «وأصل البناء: وضع لبنة على أخرى».

(٩) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «وأصل ماء: موه، قلبت الواو لتحركها، وانفتاح ما قبلها ألفاً، فصار موه، فاجتمع حرفان خفيفان، فقلبت الهاء همزة».

(١٠) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «وقوله».

(١١) في مطبوع «فتح القدير»: «جملة حالية، والخطاب للكفار والمنافقين».

وأخرج (ج)[1] وغيره عن ابن عباس قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ «أي لا تشركوا به[2] غيره من الأنداد التي لا تضر ولا تنفع[3] وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره».

وأخرج (حم) و(خ) في «الأدب المفرد» وغيرهما عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «**أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده**»[4]. وأخرج ابن سعد عن قُتَيلَة بنت صَيْفِي قالت: «جاء حبر من الأحبار إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون! قال: كيف؟ قال: يقول أحدكم: لا والكعبة، فقال النبي ﷺ: «**من حلف فليحلف برب الكعبة**»، فقال: يا محمد، نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله نداً! قال: «**وكيف ذلك**»؟ قال: يقول أحدكم: ما شاء الله وشئت، فقال النبي ﷺ: «**فمن قال منكم: ما شاء الله، فليقل: ثم شئت**»[5]. وأخرج (حم) و(د) وغيرهما عن حذيفة ابن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، قولوا: ما شاء الله ثم فلان**»[6].

وأخرج (حم) وغيره عن الطفيل بن سخبرة أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مر

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ٣٩٣)، وابن أبي حاتم (١/ ٦٢) من طريق ابن إسحاق ـ وهو في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٣٣) ـ عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، **وإسناده ضعيف**، شيخ ابن إسحاق مجهول.

(٢) في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»: «بالله».

(٣) في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»: «لا تنفع ولا تضر».

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، وابن ماجه (٢١١٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٤٥)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٥)، والطبراني (١٣٠٠٦)، والبيهقي (٣/ ٢١٧)، وهو **صحيح**، وله شواهد، سيأتي بعضها.

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٢)، والنسائي في «المجتبى» (٧/ ٦) وفي «عمل اليوم والليلة» (٩٨٦، ٩٨٧)، وابن سعد في «الطبقات» (١٠/ ٢٩٢)، والطبراني (٢٥/رقم ٥، ٦، ٧)، والحاكم (٤/ ٢٩٧)، **وصححه** ابن حجر في «الإصابة» (٨/ ٧٩) وشيخنا الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٦).

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٤)، والطيالسي (٤٣٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٥)، وأبو داود (٤٩٨٠)، والبيهقي (٣/ ٢١٦) وفي «الاعتقاد» (١٥٦ ـ ١٥٧) وفي «الأسماء والصفات» (١٤٤) وهو **صحيح** وخرجته مفصلاً في تعليقي على «المجالسة» (١٩٨٨).

برهط من اليهود، فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيراً ابن الله! فقالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، ثم مر برهط من النصارى فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله! قالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبح أخبر النبي ﷺ، فخطب فقال: «**إن طفيلاً رأى رؤيا وإنكم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم، فلا تقولوها ولكن قولوا: ما شاء الله وحده لا شريك له**»(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «الأنداد، الشركاء(٢) أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان(٣) وحياتي، وتقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل:(٤) ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان(٥)، هذا كله شرك»(٦). وأخرج (خ) و(م) عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»(٧). وروى (ج) بسنده إلى ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ قال: وحِّدوه(٨).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧٢)، وابن أبي شيبة (٦٥٢) كلاهما في «المسند»، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤)، والدارمي (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٨٠)، وابن ماجه (٢١١٨)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٨/رقم ٨٥٤ ـ ٨٥٦)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٧٤٣)، وأبو القاسم البغوي في «معجم الصحابة» (٣/رقم ١٣٦٧، ١٣٦٨)، والطبراني في «الكبير» (٨٢١٤، ٨٢١٥)، والحاكم (٣/ ٤٦٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢٢)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦)، والحازمي في «الاعتبار» (٢٤٢ ـ ٢٤٣)، والخطيب في «الموضح» (١/ ٣٠٣) وهو **صحيح**، وخرجته مفصلاً في كتابي «المقدمات الممهدات السلفيات في تفسير الرؤى والمنامات» (ص٢٦ ـ ٢٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»: «هو الشرك».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»: «يا فلانة».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»: «الرجل لصاحبه».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»: «لا تجعل فيها فلان فإن هذا كله به شرك».

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٢) **وإسناده حسن**.

(٧) أخرجه البخاري رقم (٦٠٠١)، ومسلم رقم (٨٦).

(٨) ذكره ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٣٨٥) معلقاً بصيغة التمريض. ثم وصله (١/ ٣٨٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٥٩ ـ ٦٠) رقم (٢١٥، ٢١٦) عنه بلفظ: «وحدوا ربكم» **وفي إسناده ضعف**، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٣٣).

قال محمد تقي الدين: . قوله: «وحدوه»؛ لأن الذين تقدم ذكرهم من أنواع الكفار كلهم يعبدون الله ولكنهم لا يوحدونه ومن صرف من عبادته لغير الله مثقال ذرة، فلم يعبده؛ لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له من الشرك الأكبر والأصغر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾﴾ [الكافرون: ١ ـ ٣]، فنفى عنهم عبادة الله تعالى مع أنهم كانوا يعبدون الله بالحج والدعاء والصدقة والذبح إلا أنهم كانوا يشركون معه غيره، فكان قائلهم يقول إذا أهل بالحج: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»(١). فمن أهل هذا الزمان من يصلي صلاة كثيرة ويصوم ويتصدق ويذكر الله، ولكنه مع ذلك يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويذبح لغير الله ويحلف بغير الله ويخاف غير الله ويرجو غير الله ويتذلل لغير الله ظاهراً وباطناً، وبعض هذه الأمور بل كلها يحبط عمله فلا يقبل الله منه شيئاً؟ قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥ ـ ٦٦].

قال محمد تقي الدين: في هاتين الآيتين نوعان من التوحيد: **أولهما**: توحيد العبادة في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وقول ابن عباس: أي: وحدوه، **والثاني**: توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية إذا لم يكن معه توحيد العبادة لا ينفع صاحبه شيئاً؛ فإن أكثر الكفار يعتقدون أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم والمنعم عليهم فلم ينفعهم ذلك شيئاً؛ لأنهم لم يخصوه بالعبادة والتوجه والقصد والطلب، ونعم الله على عباده كثيرة لا يحصيها إلا هو كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقد ذكر ﷻ في هاتين الآيتين نعماً متعددة: **أولاها** أنه خالق كل شيء، **ثانيها** أنه جعل للناس هذه الأرض صالحة لسكناهم وفيها أسباب الراحة، **ثالثها** أنه جعل السماء سقفاً حافظاً لهم من الآفات التي تأتي من السمٰوات، **رابعها** أنه أنزل من السماء ماء مباركاً لا يستطيع إنزاله إلا هو، ولا حياة لهم بدونه، **خامسها** أنه أخرج لنا به من أنواع النبات

---

(١) هذه التلبية كان يقولها أهل الشرك في الجاهلية، أخرج ذلك مسلم في «صحيحه» (١١٨٥) عن ابن عباس.

والأشجار من الزروع والحبوب والفواكه والثمار ما لا يكاد يحصى.

وقال بعد ذلك: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: شركاء في العبادة تخافونهم وترجون نفعهم وتتملقون لهم، وأنتم تعلمون علماً لا شك فيه أن خالقكم ورازقكم ومحييكم ومميتكم واحد هو الله، هذا للذين يقرون بوجود الله، أما الذين ينكرون فهم فئة فقيرة حقيرة مكابرة مغالطة، وللكلام معهم موضع آخر.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠]

قال (ك) في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: «إسرائيل هو[١] يعقوب»[٢] وقوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ «قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم[٣] الله بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك أن فجّر لهم البحر، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونجاهم من عبودية آل فرعون[٤]، وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب[٥]، قلت: وهذا كقول[٦] موسى ﷺ لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]؛ يعني في زمانهم»[٧]، «﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]. قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي[٨] ﷺ إذا

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو نبي الله».
(٢) راجع «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٣).
(فائدة): أنت إذا تأملت القرآن الكريم، ورأيته يخاطب المشركين واليهود والنصارى، وكل من اتخذ معبوداً غير الله تعالى، ويخاطب المؤمنين بوجه خاص، تجلّى لك البرهان بعموم رسالة من أنزل عليه، فكن لهذا السّر حافظاً، وأمعن النظر فيه تزدد إيماناً وهدى. قاله العلامة ابن بدران في «جواهر الأفكار» (١٨٧).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنعم بها».
(٤) أخرجه ابن جرير (١/ ٥٩٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٩٥) رقم (٤٣٦)، وهو صحيح عنه.
(٥) أخرجه ابن جرير (١/ ٥٩٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٩٥) رقم (٤٣٥).
(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقول»!
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٤).
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «للنبي محمد».

جاءكم[١] أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه[٢] واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار[٣] والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم.

وقال الحسن البصري: هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [المائدة: ١٢].. وقال آخرون: هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل[٤] نبياً عظيماً»[٥].

فصل في ذكر البشارة بنبينا ﷺ من التوراة

قال الرازي: في (الجزء الثالث) من «تفسيره» (ص٢٦)[٦]: «وسنذكر[٧] الآن بعض ما جاء في كتب الأنبياء المتقدمين من البشارة بمقدم محمد ﷺ:

فالأول: جاء في (الفصل التاسع) من (السفر الأول) من «التوراة» «أن هاجر لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملك من قبل الله، فقال لها: يا هاجر، أين تريدين ومن أين أقبلت؟ فقالت: أهرب من سيدتي سارة! فقال لها: ارجعي إلى سيدتك واخفضي لها فإن الله سيكثر زرعك وذريتك وستحبلين وتلدين ابناً وتسمّينه إسماعيل، من أجل أن الله سمع تبتُّلك وخشوعك، وهو يكون عين[٨] الناس، وتكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، وهو يشكر على

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أوف بعهدكم، أي:».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بتصديقه».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإصر».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بني إسرائيل».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥).

(٦) المسمى بـ«التفسير الكبير» أو «مفاتيح الغيب» (٣/ ٣٤ ـ ٣٦)، ط. دار الكتب العلمية.

(٧) في المطبوع من «التفسير الكبير»: «ولنذكر».

(٨) كذا في «تفسير الرازي»، وفي الترجمة الحالية للتوراة: سفر التكوين: الإصحاح السادس عشر (١١ ـ ١٢): «وإنه يكون إنساناً وحشياً». ونقلها ابن تيمية في «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٢٣): «وحشي الناس».

رغم جميع إخوته»[١]، واعلم أن الاستدلال بهذا الكلام أن هذا الكلام خرج مخرج البشارة وليس يجوز أن يبشر الملك من قبل الله بالظلم والجور وبأمر لا يتم إلا بالكذب على الله تعالى، ومعلوم أن إسماعيل وولده لم يكونوا متصرفين في الكل، أعني في معظم الدنيا ومعظم الأمم، ولا كانوا مخالطين للكل على سبيل الاستيلاء إلا بالإسلام؛ لأنهم كانوا قبل الإسلام محصورين في البادية لا يتجاسرون على الدخول في أوائل العراق وأوائل الشام إلا على أتم خوف، فلما جاء الإسلام استولوا على الشرق والغرب بالإسلام، ومازجوا الأمم ووطئوا بلادهم ومازجتهم الأمم وحجوا بيتهم ودخلوا باديتهم بسبب مجاورة الكعبة، فلو لم يكن النبي ﷺ صادقاً لكانت هذه المخالطة منهم للأمم ومن الأمم لهم معصية لله تعالى وخروجاً عن طاعته إلى طاعة الشيطان، والله يتعالى عن أن يبشر بما هذا سبيله.

والثاني: جاء في (الفصل الحادي عشر) من (السفر الخامس): «إن الرب إلهكم يقيم لكم نبياً مثلي من بينكم ومن إخوانكم» وفي هذا الفصل: «إن الرب تعالى قال لموسى: «إني مقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوانهم وأيما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها عني ذلك الرجل باسمي أنا أنتقم منه». وهذا الكلام يدل على أن النبي الذي يقيمه الله تعالى ليس من بني إسرائيل، كما أن من قال لبني هاشم إنه سيكون من إخوانكم إمام أعقل منه أنه[٢] لا يكون من بني هاشم، ثم إن يعقوب عليه السلام هو إسرائيل، ولم يكن له أخ إلا عيص[٣] ولم يكن للعيص ولد من الأنبياء سوى أيوب وإنه كان قبل موسى عليه السلام، فلا يجوز أن يكون موسى عليه السلام مبشراً به. وأما إسماعيل فإنه كان أخاً لإسحاق والد يعقوب، ثم إن كل نبي بعث بعد موسى كان من بني إسرائيل. فالنبي ﷺ ما كان منهم لكنه من إخوانهم لأنه من ولد إسماعيل الذي هو أخ[٤] إسحاق عليه السلام.

فإن قيل: قوله: «من بينكم» يمنع من أن يكون المراد محمداً[٥] ﷺ؛ لأنه

---

(١) انظر: «العهد القديم» (ص٢٣).
(٢) في مطبوع «التفسير الكبير»: «عقل أنه».
(٣) في مطبوع «التفسير الكبير»: «العيص».
(٤) في مطبوع «التفسير الكبير»: «أخو».
(٥) كذا في مطبوع «التفسير الكبير»، وفي الأصل: «محمد»!

لم يقم من بين بني إسرائيل، قلنا: بل قد قام من بينهم؛ لأنه ﷺ ظهر بالحجاز فبعث بمكة وهاجر إلى المدينة وبها تكامل أمره، وقد كان حول المدينة بلاد اليهود كخيبر، وبني قينقاع، والنضير وغيرهم، وأيضاً فإن الحجاز يقارب الشام وجمهور اليهود كانوا إذ ذاك بالشام، فإذا قام محمد بالحجاز فقد قام بينهم[(١)]، وأيضاً فإنه إذا كان من إخوانهم فقد قام من بينهم، فإنه ليس ببعيد منهم.

الثالث: قال في (الفصل العشرين) من هذا «السفر»: «إن الرب تعالى جاء من[(٢)] طور سيناء وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران وصفّ عن يمينه القديسون[(٣)]، فمنحهم العز وحببهم إلى الشعوب ودعا لجميع قديسيه بالبركة». وجه الاستدلال أن جبال فاران هي بالحجاز[(٤)]؛ لأن في التوراة أن إسماعيل تعلم الرمي في برية فاران، ومعلوم أنه إنما سكن بمكة، إذا ثبت هذا فنقول: إن قوله: «فمنحهم العز» لا يجوز أن يكون المراد إسماعيل ﷺ؛ لأنه لم يحصل عقب[(٥)] سكنى إسماعيل ﷺ هناك عز ولا اجتمع هناك القديسون[(٦)]، فوجب حمله على محمد ﷺ[(٧)]، قالت اليهود: المراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير نار أيضاً، ومن جبل فاران أيضاً فانتشرت في هذه المواضع.

قلنا: هذا لا يصح؛ لأن الله تعالى لو خلق ناراً في موضع فإنه لا يقال: جاء الله من ذلك الموضع إلا إذا تبع تلك[(٨)] الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع أو عقوبة وما أشبه ذلك، وعندكم إن لم يتبع ظهور النار وحي ولا كلام إلا من طور سيناء، فما كان ينبغي إلا أن يقال: «جاء الله من طور سيناء

---

(١) في مطبوع «التفسير الكبير»: «من بينهم».
(٢) في مطبوع «التفسير الكبير»: «في».
(٣) في مطبوع «التفسير الكبير»: «عنوان القديسين».
(٤) في مطبوع «التفسير الكبير»: «إن جبل فاران هو بالحجاز».
قال أبو عبيدة: نقل ابن تيمية في «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٠٠) عن ابن قتيبة قوله: «وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن (فاران) هي مكة، فإن ادّعوا أنها غير مكة، فليس ينكر؛ ذلك من تحريفهم وإفكهم».
(٥) في مطبوع «التفسير الكبير»: «عقيب».
(٦) في مطبوع «التفسير الكبير»: «ربوات القديسين».
(٧) في مطبوع «التفسير الكبير»: «عليه السلام».
(٨) في مطبوع «التفسير الكبير»: «من ذلك إذا تابع ذلك».

فأما أن يقال»[١]: ظهر من ساعير ومن جبل فاران فلا يجوز وروده، كما لا يقال: جاء الله من الغمام إذا ظهر في الغمام احتراق ونيران كما يتفق ذلك في أيام الربيع[٢].

وأيضاً ففي كتاب «حبقوق»[٣] بيان ما قلنا، وهو تجلي[٤] الله من طور سيناء القدس[٥] من جبل فاران لو انكشفت[٦] السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، يكون شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعزه، تسير المنايا أمامه، ويصحب سباع الطير أجناده قام فمسح الأرض وتأمل الأمم وبحث عنها فتضعضعت الجبال القويمة[٧]، واتضعت الروابي الدهرية، وتزعزعت ستور أهل مدين، ركبت الخيول وعلوت مراكب الانقياد والغوث، وستنزع في قسيك إغراقاً

---

(١) سقط من مطبوع «التفسير الكبير».

(٢) لا يمكن أحداً أن يدّعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبي. فعلم أنه ليس بالمراد باستعلانه من جبال فاران إلَّا إرسال محمد ﷺ وهو ـ سبحانه ـ ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني، فذكر إنزال التوراة، ثم الإنجيل، ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهداه.
وقال في الأول: «جاء أو ظهر»، وفي الثاني: «أشرق»، وفي الثالث: «استعلن». وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، أو ما هو أظهر من ذلك، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس، زاد به النور والهدى، وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء، ولهذا قال: «واستعلن من جبال فاران»؛ فإن النبي ﷺ، ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس إذا استعلت في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا سماه الله سراجاً منيراً، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً. والخلق يحتاجون إلى السراج المنير، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج؛ فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت، وكما قيل: قد يَتَضَرّون به بعض الأوقات. وأما السراج المنير. فيحتاجون إليه كل وقت، وفي كل مكان، ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية. قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).
وذكر هذه النبوءة للسموأل بن يهوذا في كتابه «بذل المجهود في إقناع اليهود»، ونقلها عنه ابن بدران في «جواهر الأفكار» (١٨٩ ـ ١٩٢).

(٣) انظر (سفر حبقوق) من (الإصحاح الثالث) (٣ ـ ٧)، العدد القديم (١٠٤٦).

(٤) في مطبوع «التفسير الكبير»: «جاء».

(٥) في مطبوع «التفسير الكبير»: «والقدس».

(٦) في مطبوع «التفسير الكبير»: «وانكشفت».

(٧) في مطبوع «التفسير الكبير»: «القديمة».

ونزعاً وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء، وتخور الأرض بالأنهار، ولقد رأتك الجبال فارتاعت، وانحرف عنك شؤبوب[١] السيل، ونفرت المهاري نفيراً ورعباً، ورفعت أيديها وجلاً وفرقاً، وتوقفت[٢] الشمس والقمر عن مجراهما، وسارت العساكر في برق سهامك ولمعات بيانك[٣] تدوِّخ الأرض غضباً وتدوس الأمم زجراً؛ لأنك ظهرت بخلاص أمتك وإنقاذ تراب آبائك» هكذا نقل عن ابن رَبَّن[٤] الطبري.

أما النصارى، فقال أبو الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «الغرر»: قد رأيت في نقولهم: «وظهر من جبال فاران لقد تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود وترتوي السهام بأمرك المحمود؛ لأنك ظهرت بخلاص أمتك وإنقاذ مسيحك»، فظهر بما ذكرنا أن قوله تعالى في التوراة: «ظهر الرب من جبال فاران». ليس معناه ظهور النار منه بل معناه ظهور شخص موصوف بهذه الصفات، وما ذاك إلا رسولنا محمد ﷺ، فإن قالوا: المراد مجيء الله؛ ولهذا قال في آخر الكلام: (وإنقاذ مسيحك)، قلنا: لا يجوز وصف الله تعالى بأنه يركب الخيول وبأن شعاع منظره مثل النور، وبأنه جاز المشاعر القديمة، وأما قوله: (وإنقاذ مسيحك)، فإن محمداً ﷺ أنقذ المسيح من كذب اليهود والنصارى»[٥].

---

(١) الشؤبوب: الدّفعة من المطر.

(٢) في مطبوع «التفسير الكبير»: «وفوفقت».

(٣) في مطبوع «التفسير الكبير»: «ولمعان بيانك»، وفي «الجواب الصحيح»، و«الدين والدولة»: «ولمعان نيازكك».

(٤) في الأصل تبعاً لـ«تفسير الرازي»: «ابن رزين»!! وهو خطأ، صوابه المثبت، وهو علي بن رَبَّن الطبري، كان نصرانياً كاتباً في حدود الثلاثين والمئتين، قال ابن ناصر الدين في «التوضيح» (٤/ ١٣٢): «بفتح أوله والموحدة معاً» وخفف ابن ماكولا في «الإكمال» (٤/ ٢١) والفيروزآبادي في «القاموس» (مادة ربن) الباء الموحدة، قال ابن ناصر الدين: «والموحدة من اسم أبيه شددها المصنّف ـ أي: الذهبي ـ فيما وجدته بخطه، وهي كذلك، وقد خفّفها غيرُه». قال أبو عبيدة: طبع له «الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ»، وله ترجمة في «طبقات الأطباء» (ص٤١٤)، و«الفهرست» للنديم (٣٥٤). وذكر ابن حجر في «التبصير» (٢/ ٥٨٩) أن (الربن) المتقدّم في شريعة اليهود.

(٥) انتهى كلام الرازي، وهو مأخوذ من ابن رَبَّن في كتابه «الدين والدولة» (الباب التاسع والعاشر) (ص١٣٠ ـ ١٤٣)، وأورد (نبوءة حبقوق) (الباب العاشر) (ص١٦٨ ـ ١٧٠)، وقال على إثرها: =

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]

إنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

قال محمد تقي الدين الهلالي: والتقوى: اجتناب النواهي وامتثال الأوامر، فمن اتخذ شخصاً غير معصوم يجتنب كل ما نهاه عنه ويمتثل كل ما أمره به، فقد اتخذ مع الله إلهاً آخر، فإن كل واحد غير معصوم، وإن بلغ في العلم والصلاح ما بلغ لا يقبل قوله في الدين حتى يعرض على كتاب الله وسنة رسوله فما وافق يؤخذ وما خالف يترك، وغلاة المتصوفة يأمرون المريدين أن يطيعوا شيوخهم في كل ما يأمرون به بدون سؤال ولا مراجعة، ويقولون: (من قال لشيخه: «لم»؟ لا يفلح أبداً) وقال شاعرهم[1]:

وكُنْ عنده كالميْتِ عند مُغَسِّلٍ ... يُقَلِّبُهُ ما شاءَ وهو مطاوعُ

ويقولون: إذا رأيت امرأة حسناء دخلت على شيخك فقم سخِّن الماء،

= «فهذه النبوة الباهرة الجليلة التي لا شك فيها ولا مِرْيةً، فقد نطقتْ بالحق وباحت بالمكتوم وكشفت الأغطية وأزالت الشبهات، وسمَّى الله النبي ﷺ تسميةً مرَّتين، وأخبر أن المنايا تسير أمامهُ وتصحب سباع الطيّر راياته، وأنهُ يركب الخيل ويظهر الخلاص وترتوي السهام بأمره من الرِّماءِ، وهو الذي وقفت الشمس والقمر عن مجاريهما له، وسار العساكر في بريق سهامه ولمعان نيازكه. فإن لم يكن هو الذي وصفنا فمن إذاً؟ لعلهم بنو إسرائيل المأسورون المسبيون، أو النصارى الخاضعون المستسلمون. وكيف يكون ذلك وقد سمَّى فيها النبيَّ مرتَين ووصَفَ عساكره وحروبه، وأنهُ يَدوسُ الأممَ دوْساً ويُدوِّخُهم غضَباً ورجْزاً؟ فدَعُوا يا بني عمّي اللجاجَ والمَحكَ، وتجرَّعُوا مَراراتِ الحقّ وأفِيقوا من سكركم، وافهموا عن اللهِ تعالى وعن أنبياءه البررة الطيبين عليهم السلام والصلاة أجمعين».

وقال شيخ الإسلام في «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٦٩) على إثره:

«وهذا تصريح بمحمد، ومن رام صرف نبوة حبقوق هذه عن محمد ﷺ فقد رام ستر النار، وحبس الأنهار، وأنَّى يقدر على ذلك؟! وقد سماه باسمه مرتين، وأخبر بقوة أمته، وسير المنايا أمامهم، واتباع جوارح الطير آثارهم. وهذه النبوة لا تليق إلَّا بمحمد، ولا تصلح إلَّا له، ولا تدل إلَّا عليه. فمن حاول صرفها عنه، فقد حاول ممتنعاً».

(١) هو القطب الجيلي، سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت٨٣٢هـ)، وقال على إثره:

ولا تعتَرِض فيما جَهلتَ من امرِهِ ... عليه فإنّ الاعتراضَ تنازُعُ

وأقوالهم في ذلك كثيرة، فهؤلاء اتخذوا شيوخهم أرباباً من دون الله، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٨]

لمّا ذكّرهم تعالى بنعمه أولاً عطف على ذلك التحذير من طول عقابه لهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يغني أحد عن أحد كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] لهذا أبلغ التحذير، أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ يعني: من الكافرين كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] وكما قال في أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فداء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الأنعام: ٧٠] وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ الآية [الحديد: ١٥]، فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً كما قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] قال ابن عباس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: «بدل، والبدل: الفدية»[1]، وقال أبو العالية: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٦٣٨) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» له ولابن المنذر.

عَدْلٌ﴾ «أي: فداء»[١]، وروى ابن جرير في ذلك حديثاً مرفوعاً[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء. ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق: ١٠] أي أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يخلص منه أحد، ولا يجير منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ [الفجر: ٢٥ ـ ٢٦] وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾ [الصافات: ٢٥ ـ ٢٦] وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٨]، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ [الصافات: ٢٥]: «ما لكم اليوم لا تمانعون منا، هيهات ليس ذلك لكم اليوم»[٣]، قال ابن جرير: «وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية»[٤].

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ

---

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ٦٣٨)، وابن أبي حاتم (١/ ١٠٥) في «تفسيريهما».

(٢) يشير إلى ما أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩) بسنده إلى عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء قال: قيل: يا رسول الله ما العدل؟ قال: «العدل الفدية». **والحديث ضعيف**، عمرو بن قيس من أتباع التابعين وشيخه مجهول.

(٣) أخرجه ابن جرير (١/ ٦٤٠)، **وإسناده منقطع**.

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ٦٣٩).

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٨٣ ـ ٨٦]

قال (ك): «يذكِّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصداً وعمداً وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبدوه[١] وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ولهذا يقرن تبارك وتعالى[٢] بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى أن قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[٣]. ولهذا جاء في الحديث الصحيح: (أن رجلاً قال: يا رسول الله من أبر؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أباك ثم أدناك ثم أدناك**»)[٤].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أن يعبد».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كثيراً».

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٢٧)، ومسلم رقم (٨٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣)، وأحمد (٥/٣)، وعبد الرزاق (٢١/٢٠)، وهناد (٩٦٥)، والطحاوي في «المشكل» =

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣] قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب وهو آكد[١]، وقيل: كان أصله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ كما قرأها من قرأها من السلف، فحذفت «أن» فارتفع، وحكى عن أُبي وابن مسعود[٢] أنهما قرآها: ﴿لَا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ونقل هذا التوجيه القرطبي في «تفسيره» عن سيبويه، قال: واختاره الكسائي والفراء[٣].

قال: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحاً في قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [النساء: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] أي: كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فالحُسْن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحكم[٤] ويعفو ويصفح ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله.

وقال الإمام أحمد[٥] بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا تحتقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجد؛ فالق أخاك بوجه منطلق»**[٦] وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين

= (١٦٦٧، ١٦٦٨)، وابن حبان في «الثقات» (٨/ ٣٤٤)، والطبراني في «الكبير» (١٩/رقم ٩٥٧ ـ ٩٦٤)، والحاكم (٣/ ٦٤٢) و(٤/ ١٥٠)، والبيهقي (٤/ ١٧٩ و٨/ ٢) وفي «الشعب» (٧٨٣٩) كلهم من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده **وإسناده حسن**؛ والحديث **صحيح لغيره**.

(١) انظر: «تفسير الكشاف» (١/ ١٥٩).

(٢) انظر: «معاني الفراء» (١/ ٥٣)، و«البحر المحيط» (١/ ٢٨٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٣٧٢)، و«مختصر ابن خالويه» (٧)، وقال الزجاج في «معانيه» (١/ ١٦٢): «لا يقرأ؛ لأنه مخالف للمصحف».

(٣) زاد معهما القرطبي في «تفسيره» (٢/ ١٣) المبرد.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويعلم».

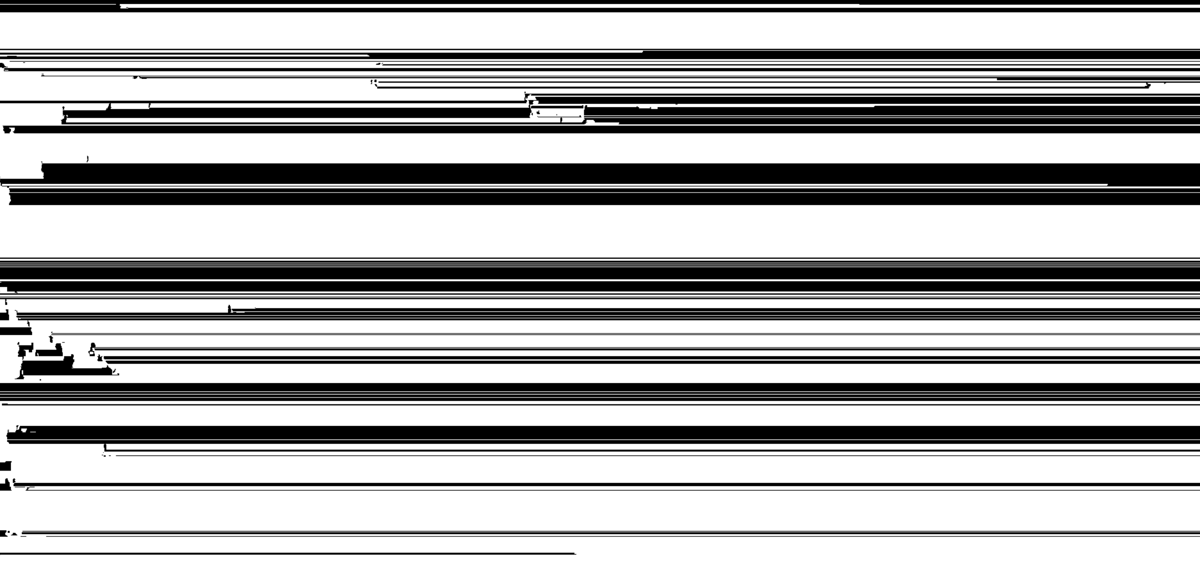
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حدثنا روح، حدثنا أبو عامر الخزاز، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت» وقد وضع الشيخ تقي الدين «بسنده» اختصاراً، هكذا في جميع الكتاب.

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، ومسلم (٢٦٢٦)، والترمذي (١٨٣٣) وغيرهم.

طرفي الإحسان الفعلي والقولي، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين[١] من ذلك، وهو الصلاة والزكاة فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣] وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه ـ على عهد بعد العلم به ـ إلا القليل منهم، وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]»[٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٦].

«يقول الله تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ



من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه كما قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤] أي: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ الآية [البقرة: ٨٥]، قال: محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة[(٢)] عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ الآية، قال: «أنبأهم[(٣)] الله بذلك من فعلهم وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها افتداء[(٤)] أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة وهم حلفاء الأوس. فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانهم، حتى تسافكوا[(٥)] دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا ناراً ولا بعثاً ولا قيامة ولا كتاباً ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة وأخذاً به[(٦)] يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون[(٧)] ما أصابوا من

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير.

(٢) في الأصل: «وعكرمة» والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنّهم». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فداء».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتسافكوا».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بعضهم من بعض».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويطلون».

دمائهم وقتلوا[١] من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم.

يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم ذلك[٢] ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] أي: تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه إلا من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دون الله[٣] ابتغاء عرض الدنيا، ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغني نزلت هذه القصة»[٤].

وقال أسباط عن السدي عن عبد خير قال: «غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بلنجر[٥] فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة فلما مر برأس الجالوت نزل به فقال له عبد الله: يا رأس الجالوت هل[٦] في عجوز ههنا من أهل دينك تشتريها مني؟ قال: نعم، قال: أخذتها بسبعمائة درهم، قال: فإني أربحك سبعمائة أخرى، قال: فإني حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف، قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله لتشترينها أو لتكفرن بدينك الذي أنت عليه، قال: ادن مني فدنا منه فقرأ في أذنه مما[٧] في التوراة: (إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته) ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم، قال: فجاء بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين...» وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالحجة[٨]، فلهذا لا يؤمنون[٩]

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقتلى». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بذلك».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من دونه».

(٤) أخرجه ابن إسحاق ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/١٨٧) ـ ومن طريقه ابن أبي حاتم مفرقاً (١/٢٦٣ رقم ٨٥٦، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٧، ٨٧٠)، وابن جرير (٢/٢٠٧ ـ ٢٠٨) **وإسناده ضعيف**، محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت مجهول، قال الذهبي في «الميزان» (٤/٢٦): «لا يعرف»، وانظر: «العجاب» (١/٢٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/٤٧٦ ـ ٤٧٨).

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وتحرفت في الأصل إلى «خيبر»!

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لك».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التي».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالصحة».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يؤتمنون».

على ما فيها ولا على نقلها ولا يصدقون فيما كتموه(١) من صفة رسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليه الصلاة والسلام(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٥] أي: لسبب(٣) مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥] جزاء على مخالفتهم الكتاب(٤) الذي بأيديهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ واختاروها(٥) ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ٨٦] أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥ ـ ٨٦] أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه»(٦).

قال محمد تقي الدين: كل من ترك أمراً أمره الله به وهو قادر على فعله يعتبر كافراً بذلك الأمر، فإن الله ﷻ أمر اليهود بأمور، **أولها**: أن لا يقتل بعضهم بعضاً، **وثانيها**: أن لا يخرج أحد أحداً منهم من داره، **وثالثها**: أن يفديه إذا وجده أسيراً، فارتكب اليهود اثنين من الممنوعات: **أحدها**: القتل، **والثاني**: الإخراج، وعملوا بواحد وهو الفداء فسماهم الله كافرين ببعض الكتاب أي بما لم يعملوا به، هذا صريح لا مفر منه للمتخاذلين(٧)، والله المستعان.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يكتمونه».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بسبب».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جزاء على ما كتموه من كتاب الله».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: استحبوها على الآخرة واختاروها».

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/٤٧٦ ـ ٤٧٩).

(٧) وأنت خبير بأن الله تعالى إنما ذمهم؛ لأنهم لا همّ لهم إلا مقاومة دين الله وشرعه، والتلاعب به على مقتضى أهوائهم، حفظاً لرياستهم واستبداداً منهم على ضعفائهم، فانتقض بذلك أمرهم عليهم، وحل بهم ما حل من البلاء، وكذلك كل أمة سلكت هذا المسلك فإنه يصيبها ما أصابهم، ويتلاشى أمرها حتى ترجع إلى دينها. قاله ابن بدران في «جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار» (٢٥٣).

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٣]

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [البقرة: ١٠١].

المراد بالرسول هنا: نبينا محمد ﷺ، جاء اليهودَ بالحق وهو الإسلام والقرآن مصدقاً لما معهم من التوراة، فنبذت طائفة من اليهود وهم أكثرهم كتاب الله وهو القرآن الذي جاء به رسول الله ﷺ، وقيل: المراد به التوراة.

قال محمد تقي الدين: ولا تنافي بينهما فإن من كذب محمداً ﷺ فقد نبذ التوراة والقرآن جميعاً؛ لأن التوراة بشرت به وأخذ الله الميثاق على أهلها أن يؤمنوا به، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾، وقال تعالى في آل عمران أيضاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧] والنبذ هو الطرح وجعل الشيء وراء الظهر لإهماله والإعراض عنه.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١] لمّا لم ينفعهم علمهم

صاروا كمن لا يعلم، أي كالجاهلين، بل العالم الذي لا ينفعه علمه شر من الجاهل كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢] الخطاب هنا أيضاً لليهود.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ يعني أن اليهود نبذوا ما جاء في التوراة والقرآن من وجوب الإيمان بجميع رسل الله تعالى، واتباع ما جاؤوا به من توحيد الله وطاعته، واتبعوا ما علمتهم الشياطين من السحر الذي تنسبه إلى سليمان كذباً وزوراً! وسليمان رسول أمين بريء من السحر[1]، وما زعمته الشياطين لأتباعهم أن سليمان عليه السلام ما بلغ ذلك الملك العظيم والحكم على الجن والإنس إلا بالسحر، فجاء محمد رسول الله خاتم النبيين وإمامهم فبرّأ أخاه سليمان مما نسبت له الشياطين واليهود من السحر الذي هو كفر، فإن اليهود بنسبتهم السحر إلى نبي الله سليمان لزمهم نسبة الكفر إليه، وحاشا سليمان من الكفر، بل الشياطين وأتباعهم هم الذين كفروا بسليمان وبمحمد رسول الله صلى الله عليهما وسلم، وكفروا بتعليمهم الناس السحر وحثهم على العمل به، والسحر هو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء، وما يظنه راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير، وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة[2]، قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال محمد تقي الدين: لا أعلم آية في كتاب الله تعالى تحيرت في تفسيرها كما تحيرت في تفسير هذه الآية؛ لأن الناس من زمان الصحابة إلى يومنا هذا اختلفوا في تفسيرها، وأنا أستعين بالله وأختار القول الذي أراه صحيحاً مطابقاً للأصول، وما أبرئ نفسي من الخطأ، فأقول وبالله التوفيق: أكثر المفسرين على أن (ما)، موصولة، فمعناها أن الشياطين كانوا يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين اللذين أنزلهما الله في بابل بأرض العراق يعلمان الناس

---

(١) لا تلتفت إلى ما يسمى بـ«العهود السليمانية» وما ينسجه القصاص عن (خاتمه) من أساطير، وكذا عن (بساطه).

(٢) هذا هو الصحيح، فليس كل السحر تخييلات وطلسمات، انظر تفصيل ذلك في: «عالم السحر والشعوذة» (ص١٤٩ ـ ١٦٣).

السحر فتنة لهم، للتمييز بين من يؤمن بالله ويطيع الله ويلتزم حدوده، وبين من اتبع هواه وكفر بالله وعصى أمره، وكانا لا يعلّمان أحداً حتى ينصحاه ويخبراه بالعاقبة الوخيمة لمن يتعلم السحر المشتمل على الكفر، فإذا أبى إلا التعلم والعمل به علّماه، قالوا: ولا مانع أن يبتلي الله عباده بمثل هذا.

وقال آخرون ـ منهم ابن جرير الطبري سيد المفسرين في زمانه ـ: «أن، (ما)، نافية؛ أي: لم ينزل الله السحر على الملكين، وهما جبريل وميكائيل، أو هما[1] ملكان آخران؛ لأن الله حرم السحر وجعله كفراً وشراً وفساداً، فكيف ينزله على الملكين ليعلماه الناس، وقد أخبر أن الشياطين هم الذين كفروا، وهم الذين يعلمون الناس السحر، فكيف يفعل الملكان ما تفعله الشياطين، والله لطيف بعباده؟»[2].

وهذا القول **هو الذي انشرحت له نفسي، واطمأن إليه قلبي**، أما هاروت وماروت، فعلى القول الأول، هما اسمان للملكين، وعلى القول الذي اخترته وتبعت فيه ابن جرير، هما اسمان لرجلين من أهل بابل[3] كانا يفعلان ذلك وكانا

---

(١) وقرئ (على الملِكين) بكسر اللام، وهي قراءة شاذة ولكنها صحيحة السند، ولا إشكال في القول بالنفي على هذه القراءة، أما على قراءة الفتح فقد قيل: إنهما كانا رجلين يشبهان الملائكة في صلاحهما. (انظر حاشية الجمل على الجلالين) (منه).
قال أبو عبيدة: المَلِكان ـ على هذه القراءة ـ يعني به: رجلين من بني آدم، وهي قراءة رويت عن ابن عباس والحسن بن علي وأبي الأسود الدؤلي والضحاك وابن أبزى وسعيد بن جبير والزهري وقتيبة عن الكسائي، وردّ هذه القراءة الطبري وخطأها.
انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٢٩)، «المحرر الوجيز» (١/ ٤١٧)، «المحتسب» (١/ ١٠٠)، «الكشاف» (١/ ٢٣١)، «معاني القرآن» (١/ ٦٤) للفراء، «الدر المصون» (١/ ٣٢١).

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢) وقد تصرف فيه المؤلف.

(٣) وعليه فإن هاروت وماروت بدل من الشياطين، وهذا ـ كما قال القرطبي ـ أولى ما حملت عليه الآية وأصح، قال: «ولا يلتفت إلى ما سواه» وتبنّاه ابن كثير، وجوّده شيخنا محمد نسيب الرفاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تيسير العزيز الحميد» (١/ ٨٤) فقال: «قلت: إننا مع ابن كثير في تبنيه تأويل القرطبي... إلا في ما ذهب إليه القرطبي من أن هاروت وماروت بدل من الشياطين لأن الشياطين ليس من فطرتهم النصح لبني آدم حتى يقولوا لهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ بل إن من أولى مهماتهم وفطرهم التي جبلوا عليها أن يفتنوا بني آدم ويغووهم. لذا فإنني أرجح أن يكون هاروت وماروت بدلاً من الناس وعلى هذا... يكون تأويل الآية: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين السحر، ولكن الشياطين كفروا بتعليمهم السحر للناس؛ أي يعلمون هاروت وماروت اللذين هما رجلان من الناس =

مع ذلك ينصحان الناس بعدم التعلم، فمن أبى علماه وأدليا حبله على غاربه وحمّلاه إثم ذلك، ومن هذا السحر ما يفرقون به بين الرجل وامرأته بإيقاع البغض بينهما، وهو فساد وشر لا يستطيع شياطين الإنس والجن أن يفرقوا أحداً بسحر إلا أن يشاء الله ذلك، وأخبرنا ﷺ أن تعلم السحر يضر ولا ينفع، واختلف العلماء في حكم تعلمه، فقال الجمهور: إنه حرام أو كفر(١)، وقال طائفة منهم الإمام الشافعي رَحِمَهُ الله: من تعلمه بقصد تحذير الناس منه ومعرفة حقيقته نصحاً لله ولعباده، فلا إثم عليه(٢)، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: علم المتعلمون له، لمن اشتراه؛ أي استبدله بالتورع عنه واختاره معصية لله تعالى، ما له في الآخرة من خلاق؛ أي ما له نصيب في رحمة الله تعالى.

ثم اعلم أن هناك حكاية حكاها أكثر المفسرين تقشعر منها الجلود وقد رواها كثير منهم عن النبي ﷺ، وصحح الحافظ ابن كثير أنها ليست مرفوعة إلى النبي ﷺ، وإنما رواها عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار، وهو أخذها من الإسرائيليات، وملخصها أن الملائكة قالوا: «يا رب تصبر على بني آدم في انهماكهم في المعاصي وتمردهم وتؤخر عقابهم وتمهلهم، فقال الله تعالى: إنهم يؤمنون بي غيباً وأنتم تؤمنون بي مشاهدة، قد ركّبت فيهم الشهوة وسلطت عليهم

= ثم يعلم هذان الناس... وما يعلمان أحداً منهم حتى يقولا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. فيكون هاروت وماروت بدلاً من الناس الذين من فطرتهم النصح، وفي هذا ينزّه الله عن تنزيل السحر على الملكين ثم ننزهما من تعليم السحر للناس، والسحر هو في أساسه كفر فلن يستطيع أحد أن يعلم السحر إلّا أن يكفر، ولا يستطيع المتعلم أن يتعلّم إلا أن يكفر والملائكة منزّهون عن الكفر وتعلّمه وتعليمه. وإن الله لا يرضى لعباده الكفر». وانظر لتفسير هذه الآيات: «جواهر الأفكار ومعادن الأسرار» للعلامة عبد القادر بن بدران (٢٨١ ـ ٢٩٠)، فقد أجاد وأفاد في ذلك.

(١) كالنووي، انظر: «المجموع» (١٩/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، ونوّع القرافي في «الفروق» (٤/ ١٤٨) وفصّل متى يكون كفراً، ومتى يكون حراماً، فانظره إن أردت التفصيل، وانظر: «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٤)، و«الكبائر» (الكبيرة الثالثة) (ص١٠١ وما بعد) للذهبي، وتعليقي عليه.

(٢) في صحة نسبة هذا القول للشافعي نظر! قال ابن قدامة: «تعلّم السحر وتعليمه حرام، لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم». انظر تفصيل المسألة في: «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٣٩) وكتاب «موقف الإسلام من السحر» أ. حياة سعيد عمر باأخضر (٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦٧)، و«عالم السحر والشعوذة» (ص٢١٥ ـ ٢٢٦).

الشياطين، فلو أنكم ابتليتم بما ابتلوا به لوقعتم في المعصية، فأنكروا ذلك، فقال الله تعالى: اختاروا ملكين منكم من أفضلكم لأركّب فيهما الشهوة وأسلط عليهما الشيطان، فاختاروا هاروت وماروت، فأوصاهما الله تعالى إذا نزلا إلى الأرض أن يحكما بين الناس بالعدل، وأن يتجنبا الشرك به سبحانه والمعاصي، فنزلا إلى الأرض وأخذا يحكمان بين الناس بالعدل حتى جاءتهما امرأة جميلة جداً تختصم مع زوجها، قيل: إنها فارسية، اسمها بالفارسية: أناهيد، وبالنبطية: بيدخت، ففتنتهما بجمالها، فحكما على زوجها جوراً وراوداها عن نفسها فامتنعت منهما إلا بشرط أن يقتلا ابن جارها، ويشربا خمراً، ويسجدا لصنمها، فلما رضيا بذلك مكّنتهما من نفسها فزنيا بها، وشرطت عليهما شرطاً آخر وهو أن يعلماها الاسم الأعظم الذي به يصعدان إلى السماء فعلماها إياه فصعدت إلى السماء بعد ما تلته، فمسخت كوكباً وهو الزهرة أحد الكواكب السيارة»(١).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢)، وعبدُ بنُ حُميد في «المنتخب» (٧٨٧)، وابن حبان (٦١٨٦)، والبزار (٢٩٣٨ ـ زوائده)، وابن السنِّي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥١)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (ورقة ٧٥/ب)، والبيهقي (١٠/ ٥٤) من طريق زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر رفعه، وذكره ابن كثير في «التفسير» (١/ ١٣٨) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات من رجال «الصحيحين»؛ إلا موسى بن جبير هذا، وهو الأنصاري السَّلَميّ مولاهم المديني الحذَّاء» ثم ذكر أشياخه، ومَن رووا عنه، ثم قال: «وذكره ابن أبي حاتم في كتاب «الجرح والتعديل»، ولم يحكِ فيه شيئاً مِن هذا ولا هذا، فهو مستور الحال، وقد تفرَّد به عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ».

وقال البزار: «رواه بعضهم عن نافع عن ابن عمر موقوفاً، وإنما أُتي رفع هذا عندي من زهير؛ لأنه لم يكن بالحافظ». نعم ذكر ابن كثير متابعاً له من وجه آخر عن نافع؛ من رواية ابن مردويه، حدثنا دعلج بن أحمد، حدثنا هشام بن علي بن هشام، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر، سمع النبي ﷺ يقول... فذكره بطوله.

ثم ذكر نحواً من هذه القصة من رواية الطبري في «جامع البيان ـ وهي فيه برقم (١٦٨٨) وعند الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٤٢، ٤٣) ـ من طريق سنيد بن داود ـ صاحب «التفسير» ـ، حدثنا الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ.... به، ثم قال ابن كثير: «وهذان أيضاً غريبان جداً، وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار لا عن النبي ﷺ؛ كما قال عبد الرزاق في «تفسيره»: عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن =

= كعب الأحبار» وقال أيضاً: «رواه ابن جرير من طريقين عن عبد الرزاق به».
قلت في «جامع البيان» برقم (١٦٨٤): حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى؛ قالا: حدثنا مؤمل بن إسماعيل. (ح) وحدثنا الحسن بن يحيى؛ قال: أخبرنا عبد الرزاق؛ جميعاً عن الثوري به.
ثم قال: «ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن عصام عن مؤمل عن سفيان الثوري به.
ورواه ابن جرير أيضاً: حدثني المثنى؛ قال: حدثنا معلى بن أسد؛ قال: حدثنا عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة؛ قال: حدثني سالم؛ أنه سمع عبد الله يحدث عن كعب الأحبار... فذكره».
وهو في «جامع البيان» برقم (١٦٨٥)، ثم قال: «فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل، والله أعلم». انتهى.
وموسى بن جبير راوي هذا الحديث عن نافع: هو الأنصاري المدني الحذَّاء، مولى بني سَلَمَة، ذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال: «كان يخطئ ويخالف»، وقال ابن القطان: «لا يُعرف حاله» واغترَّ به الهيثمي، فقال في «المجمع» (٦/ ٢١٤) بعدما عزا الحديث لأحمد: «ورجاله رجال الصحيح؛ غير موسى بن جبير، وهو ثقة!!».
ولولا أن ابن حبان أورده في كتابه ساكتاً عليه ـ كما هو غالب عادته ـ لما جاز الاعتماد عليه؛ لما عُرف عنه من التساهل في التوثيق، فكيف وهو قد وصفه بقوله: «يخطئ ويخالف»؟! وليت شعري؛ مَن كان هذا وصفه؛ فكيف يكون ثقة؟!، أفاده شيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٠).
ثم إن الراوي عنه زهير بن محمد، وإنْ كان من رجال «الصحيحين»، ففي حفظه كلام كثير، ضعَّفه من أجله جماعة، وقال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٢/ ٥٩٠): «محلُّه الصِّدق، وفي حفظه سوء، وكان حديثه بالشَّام، أنكر من حديثه بالعراق لسوء حفظه، فما حدَّث من كتبه؛ فهو صالح، وما حدَّث من حفظه؛ ففيه أغاليط».
ومن أين لنا أن نعلم إذا كان حدَّث بهذا الحديث من كتابه أو من حفظه؟!
ففي هذه الحالة يُتَوَقَّف عن قبول حديثه، إن سلم من شيخه المستور على حدّ تعبير الحافظ ابن حجر.
أما رواية ابن مردويه؛ ففيها عبد الله بن رجاء الغُداني، وهو وإن كان صدوقاً ومن شيوخ البخاري؛ إلا أنه كان كثير الغلط والتصحيف؛ كما قال ابن معين، وعمرو بن علي الفلاس.
وسعيد بن سلمة بن أبي الحسام؛ ترجمه البخاري (٣/ ١٦٠٠)، وضعفه النسائي، وقال أبو حاتم: «سألت ابن معين عنه، فلم يعرفه حق معرفته».
وموسى بن سَرْجِس؛ ترجمه البخاري (٧/ ١٢١٣)، وهو لا يُعرف حاله.
وقد ذكر هذا الحديث أيضاً الهيثميُّ في «المجمع» (٥/ ٦٨)، وقال: «رواه أحمد والبزار، =

= ورجاله رجال الصحيح؛ خلا موسى بن جبير، وهو ثقة».
وكذلك ذكره في (٦/ ٣١٣ و٣١٤) من «المجمع».
وذكره الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٢٥)، وقال: «وقصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن من حديث ابن عمر في «مسند أحمد»، وأطنب الطبري في إيراد طرقها، بحيث يقضى بمجموعها على أن للقصة أصلاً؛ خلافاً لمن زعم بطلانها؛ كعياض ومَن تبعه».
وذكره في «القول المسدد» (٤٠ ـ ٤١)، ثم قال: «أورده ابن الجوزي من طريق الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع، وقال: لا يصح، والفرج بن فضالة ضعفه يحيى، وقال ابن حبان: يقلب الأسانيد، ويلزق المتون الواهية بالأسانيد الصحيحة».
ثم قال ابن حجر: «وله طرق كثيرة، جمعتها في جزء مفرد يكاد الواقف عليه أن يقطع بوقوع هذه القصة؛ لكثرة الطرق الواردة فيها، وقوة مخارج أكثرها». قال أبو عبيدة: قال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على «المسند» (٩/ ٣٢) متعقباً ابن حجر: «أما هذا الذي جزم به الحافظ بصحة وقوع هذه القصة، صحة قريبة من القطع؛ لكثرة طرقها وقوة مخارج أكثرها؛ فلا، فإنها كلها طرق معلولة أو واهية، إلى مخالفتها الواضحة للعقل، لا من جهة عصمة الملائكة القطعية فقط، بل من ناحية أن الكوكب الذي نراه صغيراً في عين الناظر قد يكون حجمُه أضعافَ حجم الكُرة الأرضية بالآلافِ المؤلَّفَةِ من الأضعافِ، فأنى يكون جسمُ المرأةِ الصغير إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة».
ومما يجدر التنبيه عليه أنه لم يرد في هذا الخبر عند من خرجه أن المرأة التي تسمى الزهرة قد مسخت نجماً، قال ابن حبان بعد أن أورد الحديث: «الزهَرةُ هذه: امرأة كانت في ذلك الزمان، لا أنها الزهرة التي هي في السماء التي هي من الخُنَّس». انتهى.
وقد رواه الحاكم بسياق آخر في «المستدرك» (٤/ ٦٠٧ و٦٠٨) من طريق يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عمر، وصححه وأنكر عليه الذهبي، وقال عن يحيى هذا: «قال النسائي: متروك. وقال أبو حاتم: منكر الحديث».
وأخرجه ابن السنِّي في «عمل اليوم والليلة» (٦٤٨)، وابن منده في «تفسيره»، وابن راهويه؛ كما في «الجامع الصغير» (٤٦٨٥ ـ ضعيفه)، و«الدر المنثور» (١/ ٩٧)؛ من حديث علي بن أبي طالب مختصراً بلفظ: **«لَعَنَ اللهُ الزّهْرَةَ؛ فإنَّها هِيَ التي فَتَنَتِ المَلَكَيْنِ هَاروتَ ومَاروتَ»**.
وهو حديث موضوع، آفته جابر بن زيد الجعفي، وهو متهم بالكذب، وكان يؤمن برجعة علي، ويقول: إنه دابة الأرض المذكورة في القرآن!! قاله شيخنا الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٩١٣).
والخلاصة: أن هذه القصة من الإسرائيليات التي لا يصح رفعها إلى النبي ﷺ، وقد استنكرها جماعة من الحفاظ المتقدمين، والعلماء المتأخرين:
فقال أبو حاتم الرازي ـ كما في «علل الحديث» (٢/ ٦٩ ـ ٧٠) لابنه ـ: «هذا حديث منكر».
وروى حنبل الحديث من طريق أحمد، ثم قال: «قال أبو عبد الله (يعني: الإمام أحمد): =

وأعظم دليل على بطلان هذه الحكاية ما جاء في كتاب الله العزيز من عصمة الملائكة قال تعالى في سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦] وقال تعالى في سورة الأنبياء (رقم ١٩) وما بعده: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠]، وقال تعالى في السورة نفسها (رقم ٢٦ ـ ٢٩): ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۝٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٩] لا يطعن في عصمتهم لأنه مبني على مستحيل، كقوله تعالى في سورة الزمر (رقم ٦٥) وما بعده: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ

= هذا منكر، وإنما يُروى عن كعب»، وكذا قال الحافظ ابن كثير، وعلق على كلامه الشيخ رشيد رضا رحمه الله بقوله: «من المحقَّق أن هذه القصة لم تُذكر في كتبهم المقدسة، فإنْ لم تكن وُضعت في زمن روايتها؛ فهي من كتبهم الخرافية، ورحم الله ابن كثير الذي بيَّن لنا أن الحكاية خرافة إسرائيلية، وأن الحديث المرفوع لا يثبت».

وقال شيخُنا محدث الديار الشاميّة محمد ناصر الدين الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (١٧٠): «باطل مرفوعاً».

وأسهب في بيان ذلك، ثم قال ـ رحمه الله تعالى ـ: «قلت: وممَّا يؤيِّد بطلان رفع الحديث من طريق ابن عمر أنَّ سعيد بن جبير ومجاهداً روياه عن ابن عمر موقوفاً عليه؛ كما في «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٩٧ ـ ٩٨).

وقال ابن كثير في طريق مجاهد: «وهذا إسناد جيِّد إلى عبد الله بن عمر، ثم هو ـ والله أعلم ـ من رواية ابن عمر عن كعب؛ كما تقدَّم بيانُه من رواية سالم عن أبيه».

ومن ذلك أنَّ فيه وصف الملكين بأنهما عَصَيا الله تبارك وتعالى بأنواع من المعاصي؛ على خِلاف ما وصف الله تعالى لعموم ملائكته في قوله ﷻ: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

و(الزُّهَرَة): بضم الزاي وفتح الهاء؛ كتُؤَدَة: كوكب مضيء من السيارات المعروفة، ومَن قاله بإسكان الهاء؛ فقد غلط.

قال الشاعر:

قَدْ وَكَّلَتْنِي طَلَّتِي بالسَّمْسَرَهْ   وأَيْقَظَتْنِي لِطُلوعِ الزُّهَرَهْ

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥ ـ ٦٦] فإن النبي ﷺ معصوم من الشرك والكبائر والصغائر، كما قال تعالى في سورة النجم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] وقال تعالى في سورة الحاقة (رقم ٤٤) وما بعده: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] ومحمد رسول الله ﷺ لا يتقول على الله أبداً، وهذه الأمور مبنية على فرض المستحيل، ومن العجب أني طالعت أربعة من كبار التفاسير وهي: ابن كثير، وابن جرير، و«الدر المنثور»، والرازي، ولم أر أحداً منهم احتج بالقرآن على عصمة الملائكة، ولم أحبب أن أسوق الحكاية بطولها وذيولها الكثيرة، بل حكى بعضهم عن الملكين أنهما علّما بعض الناس السحر حتى بعد توبتهما وتعذيب الله لهما بتعليقهما منكوسين بين السماء والأرض، وهذه في نظري غفلة من المفسرين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

خاتمة هذا البحث

أحببت أن أورد هنا نبذة من شرح (باب ما جاء في السحر) من كتاب **«التوحيد»** لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، والشرح من «تيسير العزيز الحميد» للشيخ الإمام سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب؛ لأنهما أجادا وأفادا فجزاهما الله عن الإسلام خيراً كثيراً وسأجعل المتن ممزوجاً بالشرح، وأختصر ما أرى اختصاره مفيداً، وهذا نصه:

«(باب ما جاء في السحر) السحر في اللغة: هو ما خفي ولطف سببه ولهذا جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحراً**»[(١)] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] أي: أخفوا عنهم علمهم[(٢)]، ولما كان السحر من أنواع الشرك إذ لا يأتي السحر بدونه، ولهذا جاء في الحديث «**ومن سحر فقد أشرك**»[(٣)]، أدخله المصنف في كتاب التوحيد ليبين ذلك تحذيراً منه كما ذكر غيره

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦) من حديث ابن عمر، ومسلم (٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر.

(٢) لعل الصواب: عملهم: مصححه (منه).

(٣) أخرجه النسائي (٤٠٧٩)، وابن عدي في «الكامل» (١٦٤٨/٤)، والطبراني في «الأوسط» (١٤٩٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٦٩/١٤) من طريق عباد بن ميسرة المنقري عن =

من أنواع الشرك، قال أبو محمد المقدسي في «الكافي»[(١)]: «السحر عزائم ورقى وعقد يؤثر[(٢)] في القلوب والأبدان[(٣)] فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه، قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾ [الفلق: ١] إلى قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④﴾ [الفلق: ٤]؛ يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه»، وقد زعم قوم من المعتزلة وغيرهم أن السحر تخييل لا حقيقة له، وهذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل منه ما هو تخييل ومنه ما له حقيقة مما تقدم.

قال: وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا السحر عن متابعة الرسل والإيمان بالله ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ومتابعة رسله ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

قال ابن عباس: «من نصيب»[(٤)]، قال قتادة: «وقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم، أن الساحر لا خلاق له في الآخرة»[(٥)]، وقال الحسن: «ليس له دين»[(٦)]، فدلت

= الحسن البصري عن أبي هريرة، **وإسناده ضعيف ومنقطع**، قال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٣٧٨): «هذا حديث لا يصح للين عباد وانقطاعه» قلت: يريد أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وضعفه شيخنا الألباني. وتحسين ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٧٨) له بشواهده التي تدل على قبح تعلم السحر شرعاً، وأما الآية فلا تصلح شاهداً لتصحيح الحديث أو تحسينه؛ لأن المبحث ليس لكون ما في الحديث حقاً أم باطلاً، وإنما: هل قاله النبي ﷺ أم لا، فتأمل! ويؤكد ضعفه رواية أبان ـ وهو أوثق من عباد ـ إذ رواه عن الحسن مرسلاً، أخرج ذلك عبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ١٧) رقم (١٩٧٧٢).

(١) (٥/ ٣٣١). (٢) في مطبوع الكافي: «تؤثّر».

(٣) في مطبوع الكافي: «في الأبدان والقلوب».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٥) رقم (١٠٢٦) ولم يعزها في «الدر» (١/ ٥٣٧) إلا له، وهو من ضمن «مسائل نافع بن الأزرق لابن عباس»، أخرجها الطستيّ في «مسائله»، أفاده السيوطي أيضاً.

(٥) أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٦٣).

(٦) أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٦٦)، وعبد الرزاق (١/ ٥٤)، وابن أبي حاتم (١/ ١٩٥) في «تفاسيرهم»، وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٣٧)، وانظر: «الدر» (١/ ٥٣٧).

الآية على تحريم السحر، وهو كذلك، بل هو محرم في جميع أديان الرسل ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] وقد نص أصحاب أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه، وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً، كان آخر عهده من الله**»[(١)]. وهذا مرسل، وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر وإن سمّي سحراً فعلى سبيل المجاز، كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً، ولكنه يكون حراماً لمضرته يعزر من يفعله تعزيراً بليغاً، قال عمر بن الخطاب: «الجبت: السحر، والطاغوت الشيطان»[(٢)]، هذا الأثر، رواه ابن أبي حاتم[(٣)] وغيره، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»: قالوا: يا رسول الله ما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[(٤)]، رواه البخاري ومسلم، فالموبقات المهلكات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات وفي الآخرة من العذاب.

. بيان شيء من أنواع السحر

لما ذكر المصنف ما جاء في السحر أراد هنا أن يبين شيئاً من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس، حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدرت عنه هذه

---

(١) رواه عبد الرزاق (١٠/ ١٨٤)، وابن حزم في «المحلى» (١١/ ٣٩٦) عن صفوان بن سليم وفيه إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي كذبوه، فهو **واهٍ بمرة**.

(٢) ذكره البخاري تعليقاً عن عمر كتاب التفسير، باب (١٠) «**وإن كنتم مرضى أو على سفر...**» بصيغة الجزم وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٣١٨، ط. دار السلام): «وصله عبد بن حميد في «تفسيره» ومسدد في «مسنده» وعبد الرحمٰن بن رستة في كتاب «الإيمان» كلهم من طريق أبي إسحاق عن حسان بن فائد عن عمر مثله **وإسناده قوي**، وقد وقع التصريح بسماع أبي إسحاق له من حسان وسماع حسان من عمر في رواية رستة».
وأخرج ابن أبي حاتم الجزء الأول منه في «تفسيره» (٣/ ٩٧٤ ـ ٥٤٤٣) بإسناد، والجزء الثاني في «تفسيره (٣/ ٩٧٥ ـ ٥٤٤٩) بإسناد آخر، من طريق أبي إسحاق عن حسان بن فائد عن عمر، فهو **صحيح** إن شاء الله تعالى، وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ٢٣٠) للفريابي وسعيد بن منصور، وعزاه ابن كثير لأبي القاسم البغوي.

(٣) في الأصل: «هاشم»!

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

الأمور فهو من الأولياء، وعدّوها من كرامات الأولياء، وآل الأمر إلى أن عبد أصحابها ورجى منهم النفع والضر والحفظ والكلاءة والنصر أحياء وأمواتاً، بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن لهم التصرف التام المطلق في الملك، ولا بد من ذكر فرقان يفرق به المؤمن بين ولي الله وبين عدو الله من ساحر وكاهن وعائف وزاجر ومتطير ونحوهم ممن قد يجري على يده شيء من الخوارق، فاعلم أنه ليس كل من جرى على يده شيء من خوارق العادة يجب أن يكون ولياً لله تعالى؛ لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب، مما يخبره به الشياطين المسترقون للسمع، وفعل الشياطين بأناس ينتسبون إلى دين وصلاح ورياضة مخالفة للشريعة كأناس من الصوفية وكرهبان النصارى ونحوهم فيطيرون بهم في الهواء ويمشون بهم على الماء ويأتون بالطعام والشراب والدراهم، وقد يكون ذلك بعزائم ورقى شيطانية وأدوية كالذين يدخلون النار بحجر الطلق ودهن. .(١) وقد يكون ذلك برؤيا صادقة فيها ما يستدل به على وقوع ما يقع، وهذه مشتركة بين ولي الله وعدوه، وقد يكون ذلك بنوع طيرة يجدها الإنسان في نفسه فتوافق القدر وتقع كما أخبر، وقد يكون لعلم الرمل والضرب بالحصى، وقد يكون ذلك أشد وطءاً، والأحوال الشيطانية كثيرة، وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه في كتابه، فاعتصم به وحده لا إله إلا هو فإنه لا يضل من اعتصم به ولا يشقى، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣] فذكر تعالى أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون، ولم يشترط أن يجري على أيديهم شيء من خوارق العادة. تدل على أن الشخص قد يكون ولياً لله وإن لم يجر على يديه شيء من الخوارق إذا كان مؤمناً متقياً، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١] فأولياء الله المحبوبون عند الله هم المتبعون للرسول ﷺ

---

(١) كذا بياض في الأصل! وأفاد شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١١/٤٥٩) وغيره ـ عند كلامه عن البطائحية ـ، أنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع، وباطن قشر النارنج، وحجر الطلق، وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم، . . . في كلام بديع ينظر فيه، ليعلم دجل هؤلاء الأدعياء، وصدق شيخ الإسلام إذ تحداهم أن يدخل النار، فأبَوْا.

باطناً وظاهراً، ومن كان بخلاف هذا فليس بمؤمن فضلاً عن أن يكون ولياً لله تعالى،.وإنما أحبهم الله تعالى لأنهم والوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا على ما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما ينهى، وأعطوا من يحب أن يعطي ومنعوا من يحب أن يمنع، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد، وبالجملة أولياؤه أحباؤه المتقربون إليه بالفرائض والنوافل وترك المحارم، الموحدون له الذين لا يشركون بالله شيئاً. ولشيخ الإسلام كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» فراجعه فإنه أتى فيه بالحق المبين(١).

---

(١) **(تذييل مهم في أنواع السحر)** دلت الآية على أن السحر نوعان: منه ما يؤثر عن الشياطين، ومنه ما يتوصل إليه بسبب علوم لم تكن موضوعة له خاصة، كالذي أنزل على الملكين ببابل. وقد قسم العلماء السحر إلى أقسام:

أولها: سحر «الكلدانيين» وهم: أهل بابل، و«الكسدانيين» وهم: النبط الذين كانوا في قديم الدهر، وهم قوم يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدر الخيرات والشرور، والسعادة والنحوسة، وهم الذين بعث الله إبراهيم ﷺ مبطلاً لمقالتهم راداً عليهم في مذاهبهم، وكان لهم في هذا النوع تآليف وآثار قد وصل إلى علماء هذه الملة منها النزر اليسير، فأخذوا منه أحكام النجوم، وصور الدرج، والكواكب والسيمياء والكيمياء.

وأكثر من اعتنى بتخليص ذلك وضبط قواعده «مسلمة بن أحمد المجريطي الأندلسي» في كتابه الذي سماه «غاية الحكيم».

ثانيها: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، وعلله الرئيس ابن سينا في «الشفاء»، بأن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية، وذلك أن الوهم إذا تسلط على شيء أثر فيه تأثيراً ظاهراً.

وعندي لذلك تعليل أسمِّيه بالكهربائية النفسانية، وذلك أن الهمة إذا سلطت على شيء اهتماماً تاماً، انفصل من صاحب تلك الهمة مغناطيس جذاب، فاتصل بالشيء التي وجهت الهمة نحوه فحصل له الجذب والانفعال، وتصرف الجاذب بالمجذوب تصرفاً قهرياً له، وهذا يشبه اتصال العاشق بالمعشوق، فإن المعشوق لما كانت كهربائيته أقوى، جذب العاشق جذب ملك وقهر، وتلك الكهربائية لا ينكر وجودها في الأجسام إلا من ليس له اطلاع على هذا الفن، وعسانا أن نوضح هذا ونثبته في مكان آخر، ومن هذا النوع ما يسمى في زمننا بالتنويم المغناطيسي الذي اشتهر عند كثير من الناس.

ثالثها: من السحر التخيلات والأخذ بالعيون، كما هو شأن المشعبذ الحاذق، فإنه يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه، عمل عملاً آخر بسرعة شديدة، فيبقى ذلك العمل خفياً لتفاوت =

فصل في أنواع أخرى من هذا القبيل

روى أحمد بسند جيد عن [قَطَن بن][(١)] قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال:

«إن العيافة والطَّرْق والطيرة من الجبت»[(٢)] قال عوف: «العيافة،

= الشيئين، أحدهما اشتغالهم بالأمر الأول، والثاني سرعة الإتيان بهذا العمل الثاني، وحينئذٍ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه، فيتعجبون منه جداً، ولو أنه مكث ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعلمه، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله.

رابعها: الاستعانة بالأرواح الأرضية بأعمال مخصوصة يذكرها أصحاب هذه الصناعة في كتبهم، وهذا النوع هو المسمى: بالعزائم وتسخير الجن.

خامسها: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة، على النسب الهندسية تارة، وعلى ضروب الخيلا أخرى، ومن هذا النوع ما يسمى في زمننا «بالسيموتوغرافيا»، حيث يظهر للناظر بتسلط الأشعة الكهربائية على الستار صورة البحر والجبال، والجيوش والبساتين والأنهار، والناس والدواب تغدو وتروح، ومن هذا النوع كان سحر سحرة فرعون، ويندرج فيه فن جر الأثقال، وهذا النوع لا يعد من السحر إلا من كونه مما لطف ورق، ويمكن أن يكون هذا مما أنزل على الملكين ببابل.

سادسها: الاستعانة بخواص الأدوية المبلدة المزيلة للعقل.

سابعها: تعليق القلب، وهو أن يدَّعي الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم، وأن الجنَّ يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز، اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة، وإذا حصل الخوف ضعُفت القوى الحساسة، فحينئذٍ يتمكن الساحر من أن يفعل حينئذٍ ما يشاء. ومن هذا النوع ما يفعله المدعون للتصوف، ويرغبون في إقبال الناس عليهم جراً للمنافع الدنيوية، وكم رأينا مثل هؤلاء من تصرف في أموال مريده وغيرهم بتعليق قلوبهم بالوصول إلى فن الكيمياء والجفر والزايرجة، وسر الوفق والحروف، وبالوصول إلى المقامات العالية، التي حرم الخواص الوصول إليها بزعمهم. قاله العلامة ابن بدران في «جواهر البحار» (٢٩٤ ـ ٢٩٦).

(١) سقط من المطبوع، وأثبته من مصادر التخريج.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٠٨)، وأبو داود (٣٩٠٧)، وعبد الرزاق (١٩٥٠٢)، وابن أبي شيبة (٩/ ٤٢ ـ ٤٣)، وابن سعد (٧/ ٣٥)، والحربي في «غريب الحديث» (٣/ ١١٧٧)، والطحاوي (٤/ ٣١٢ ـ ٣١٣)، وابن حبان (٦١٣١)، والطبراني (١٨/ رقم ٩٤١ ـ ٩٤٥)، والبغوي (٣٢٥٦)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٨٦)، والبيهقي (٨/ ١٣٩)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ١٥٨)، والخطيب (١٠/ ٤٢٥) =

زجر الطير، والطرق: الخط.. خط[1] في الأرض»[2] والجبت، قال الحسن: «رنة الشيطان»[3]، ولأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه» المسند منه، قال أبو السعادات[4]: «العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرِّها، وهو من عادة العرب كثيراً وهو كثير في أشعارهم»، والطرق: «الخط يخط في الأرض»، هكذا فسره عوف وهو تفسير صحيح، قال أبو السعادات[5]: «هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء»، وقلت: أياً ما كان فهو الجبت»[6].

قال محمد تقي الدين مؤلف هذا الكتاب: ومنه ما يسمى في هذا الزمان بعلم الرمل[7]، وذلك أن الكاهن يضع رملاً أمامه وينكت في ذلك الرمل بإصبعه نكتاً كل نكتة فيها كحفرة صغيرة، ويجعلها أربعة أعمدة مبتدأة من الأسفل إلى الأعلى، ثم يسقط تلك العلامات اثنتين اثنتين مبتدئاً من الأسفل إلى الأعلى في الأعمدة الأربعة، ويترك الحفرة الأخيرة والحفرتين الأخيرتين فيتألف له شكل، وكل شكل له اسم، فلنفرض أنه أسقط الأعمدة الأربعة اثنتين اثنتين فبقي من كل عمود نقطة واحدة فيظهر شكل يتألف من عمود فيه أربع نقط، ويسمى هذا: الطريق، ثم يعيد العمل فيبقى مثلاً من كل عمود نقطتان أو حفرتان فيتألف منهما عمود فيه ثمان نقط أو حفر، ويسمى هذا الشكل: الجماعة ويستمر هكذا، إلى أن يخرج ستة عشر عموداً على طريقة الزوج والفرد، ولكل شكل اسم يدل على معنى من المعاني، فهناك الطريق والجماعة كما تقدم، وهناك النصرة الداخلة

= من طرق عن عوف بن أبي جميلة: حدثني حيان: حدثني قطن به. **وإسناده ضعيف**، آفته حيان وهو ابن العلاء، ولم يروه عنه غير عوف، ولم يوثقه غير ابن حبان! فتجويد المصنف له ليس بجيد! وضعفه شيخنا الألباني، انظر: «غاية المرام» (٣٠١) (ص١٤٨ ـ ١٤٩).

(١) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «بخط» بباء موحدة أوله!

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٨) وقال شيخنا الألباني: «صحيح مقطوع».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١١٦) دون ذكر «رنة».

(٤) في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ٣٣٠).

(٥) في «النهاية» (٣/ ١٢١).

(٦) «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٨٢ ـ ٣٩٩) بتصرف.

(٧) لابن رشد الفقيه (محمد بن أحمد) (ت٥٢٠هـ ـ ١١٢٦م) رسالة بعنوان «الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط؛ لما روي في ذلك من أحاديث، ووجه تأويلها» وهي مطبوعة بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

والنصرة الخارجة، والأحيان الأنكيس والأحيان الفارح وقد ذكر هذه الأشكال كلها صاحب «القاموس»(١) وكتب صورها فراجعه.

فإذا فرضنا أن رجلاً أو امرأة جاء أحدهما إلى الكاهن الذي يسمى الرَّمَّال، وقال له: عندي مسافر غائب منذ زمان فأخبرني بخبره. أو يقول: عندي حاجة أخبرني بها. فينكت في الرمل فيخرج له في أول مرة: الطريق مثلاً فيقول: أنت تسأل عن شخص مسافر غائب عنك؛ لأن الطريق يدل على ذلك، أصحيح ذلك؟. فيقول السائل: نعم، فيأخذ الكاهن من السائل علماً تفصيلياً بعد أن أعطاه علماً إجماليّاً، ثم يخط فتخرج له الجماعة، فيقول: أنت حريص على الاجتماع به؟ فيقول: إي والله يا سيدي هو ابني غاب عني منذ أربع سنين، ولم أسمع له خبراً، فيقول: أبشر ستجتمع به. ثم يخط فيخرج له الأحيان الأنكيس، فيقول: إن صاحبك وقع في شدة عظيمة، ولكن هذا شكل النصرة الخارجة إلى جانبه يدل على أنه سيخرج منها بسلام وانتصار، وهكذا لا يزال الكاهن يعطي السائل الغبي أموراً إجمالية لا يخلو منها زمان ولا مكان، والسائل المغفل يعطيه التفاصيل حتى يأخذ جميع التفاصيل منه، ثم يعيدها عليه يسردها سرداً، فيعتقد هذا المغفل أنه علم من خط الرمل كل أخبار المسؤول عنه وأخبره، والحقيقة أن السائل هو الذي أخبر الكاهن بكل شيء وهو لا يشعر، فإن صدق ما أخبره به ازداد اعتقاداً في صحة كهانته، وإن أخطأ غفل عن خطئه، فهذه باختصار إشارة تعرفك أيها القارئ بحقيقة ما يسمى بخط الرمل، وأزيدك بياناً فأقول: أن رمّالاً كبيراً كان يستخرج السرقات بزعمهم لقيته فقلت له: كم تأخذ من كل سائل؟ فقال: آخذ ربع ريال. فقلت له: إن أجبتني عما سألتك عنه أعطيك بدل ربع ريال ريالاً كاملاً؟ فقال: قل، فخبأت له أربعة رؤوس أقلام من نحاس أحمر فأخذ يخط فقال لي أولاً: إن هذا الشيء الذي تسأل عنه أحمر لأنه ظهر لي شكل الحمرة، أهو كذلك؟ فقلت له: أنا لا أخبرك بشيء فينقلب المستخبر ـ بالكسر ـ مستخبَراً ـ بفتح الباء ـ اجمع أشكالاً كلها واستخرج منها الخبر وأخبرني به وخذ ريالاً، فقال لي: أنت ليس لك قصد حسن ولا نية طيبة، وهذا الأمر يتوقف على حسن النية، فقلت له: حسن النية هنا لا يؤثر شيئاً وكذلك سوء النية إن كنت

---

(١) لم أظفر بهذا في «القاموس» مواد (طرق، خط، رمل)، وانظره في شرحه: «التاج» (٢٦/ ٦٤).

صادقاً فيما تدعيه من استخراج المغيبات؛ فأخبرني بما سألتك عنه. ثم خط في الرمل وقال لي: هذا شيء دخل النار وخرج منها، هل هذا صحيح؟ فقلت: أنا سائل لا مخبر، واستمر معي على هذا الشكل من الحوار كلما أراد أن يستخرج مني علماً تفصيلياً امتنعت من ذلك؛ لأنني أعرف سر حرفته، فافتضح وعجز.

وأذكر حكاية أخرى تزيد الأمر وضوحاً: كنت أنا ورفيقي وأخي الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في ضيافة العالم السلفي النبيل الشيخ عبد الرحمن بركات عمدة مدينة ميت غمر، في مصر، وكنا قد تعشينا وجلسنا نمص قصب السكر ونتحدث، فطرق الباب رجل ففتح له البواب وقال: من أنت؟ فقال: أنا حكيم مغربي عالم بالروحانيات أريد زيارة سعادة العمدة، فأذن له في الدخول، فلما جاء سلم على العمدة وجلس، فأمر له بالعشاء وتعشى، ثم قال له الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة رحمة الله عليه: هاهنا مغربي يشير إلي فأخبره ببلدك في المغرب، فقال: عفواً أنا لست مغربياً في الحقيقة وإنما أستاذي الذي علمني الحكمة والعلم الروحاني كان مغربياً؛ فانتسبت إلى المغرب من هذا الوجه، فقال له: تعرف خط الرمل؟ فقال: طبعاً أعرفه، فقال: أريد أن أخبأ لك خبأً فإن اطلعت عليه وأخبرتني به أعطيتك حلواناً كبيراً، فقال: إن السماء متغيمة وخط الرمل ينبغي أن يكون في الصحو، فقال: أنت عالم روحاني وشيخك مغربي فلا يضرك عدم صحو السماء، فقال: طيب اسأل عما بدا لك، فقال: سأكتب سؤالي واختر أنت واحداً من الحاضرين تثق به وأنا أضعه عنده، ثم اشتغل أنت بخط الرمل حتى تعرف ما خبأت لك وأخبرنا به، ثم نخرج السؤال المكتوب، فإن كان جوابك مطابقاً له ظهر صدقك وثبت لك الحلوان، وإن ظهر خلاف ذلك لم يثبت لك شيء مما تدعيه.

فأخذ يخط في ورقة بيضاء يضع فيها نقطاً على شكل أعمدة كما تقدم، واشتغل فيها طويلاً ثم قال في النتيجة: إنك تسأل عن شخص أسمر طويل غاب عنك منذ مدة وستجتمع به في زمان قريب، فقال له: هذا السؤال المكتوب واقرأه، وكان قد اختار فضيلة الشيخ عبد الرحمن، فأخذه منه فقرأه فوجد فيه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، فضحك الحاضرون وغضب الزائر وسب الشيخ محمد حمزة ـ رحمة الله عليه ـ وحلف أن لا يبقى في مجلس يوجد فيه، فانصرف يجر أذيال الخيبة، وليس

مقصودي بهاتين الحكايتين وما ذكرت معهما أن الكاهن الحقيقي لا يطلع على شيء أبداً من المغيبات، فقد ثبت في «الصحيح» أن النبي ﷺ خبأ لابن صياد في نفسه عليه الصلاة والسلام سورة الدخان، ثم سأل النبي ﷺ ابن صياد بقوله: **«قد خبأت لك خبأً فما هو؟»** فقال: هو الدخ: يعني الدخان، فقال له النبي ﷺ: **«اخسأ فلن تعدو قدرك»**[1]؛ يعني إنما أنت كاهن، وقال ابن صياد للنبي ﷺ: «يأتيني صادق وكاذب»[2] وهذا شأن الكهنة، فإن **«الشياطين تخبرهم بالخبر الصحيح وتزيد معه مائة كذبة»**[3]، أما أمثال الكاهنين بل الرمّالين المتقدم ذكرهما فإنهما كانا محتالين على أكل أموال المغفلين بالباطل، وما أكثر أمثالهما في هذا الزمان في البلاد الإسلامية التي نكبت بأنواع الدجاجلة لما أعرض أهلها عن كتاب الله وسنة رسوله، وقال الطيبي في شرح الحديث المذكور آنفاً: «من»[4]، إما ابتدائية أو تبعيضية فعلى الأول يكون المعنى[5]: الطيرة ناشئة من السحر[6]، وعلى الثاني المعنى: الطيرة[7] من جملة السحر والكهانة أو من جملة عبادة غير الله أي الشرك، يؤيده قوله في الحديث الآتي: **«الطيرة شرك»**[8].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٢٤) من حديث ابن عمر.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر.
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة.
(٤) بعدها في مطبوع «شرح الطيبي»: «فيه».
(٥) في مطبوع «شرح الطيبي»: «فعلى الأول المعنى».
(٦) في مطبوع «شرح الطيبي»: «من الساحر».
(٧) في مطبوع «شرح الطيبي»: «وعلى الثاني: الطيرة...».
(٨) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩ و٤٣٨ و٤٤٠)، والطيالسي (٣٥٦)، وأبو يعلى (٥٠٩٢، ٥٢٢٩)، والشاشي (٦٥٥) في «مسانيدهم»، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٣٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٩)، وأبو داود في الطب، باب الطيرة (٣٩١٠)، والترمذي في السير، باب ما جاء في الطيرة (١٦١٤) وفي «علله الكبير» (٢/ ٦٩٠)، وابن ماجه في الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (٣٥٣٨)، وابن أبي الدنيا في «التوكل على الله» رقم (٤١، ٤٢)، وابن خزيمة في «التوكل» ـ كما في «إتحاف المهرة» (١٠/ ١٩٢) رقم (١٢٥٥٧) ـ، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣١٢) وفي «المشكل» (٨٢٧ و٨٢٩ و١٧٤٧ و١٧٤٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٢٢ ـ «الإحسان»)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٧ ـ ١٨ و١٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٣٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨) رقم (٣٢٥٧) من =

قال: وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»**[(١)]. رواه أبو داود **بإسناد صحيح**.

= طرق عن سلمة بن كهيل، عن عيسى بن عاصم الأسدي، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود به. **وإسناده صحيح**.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي في «التلخيص»، وقال في «المهذب» (٦/ ٣٢٣٤): «قلت: صححه الترمذي»، وصححه العراقي في «أماليه على المستدرك»، نقله المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٢٩٤)، وصححه ـ أيضاً ـ ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٥/ ٥٧٨ ـ بتحقيقي).

وانظر: «شرح الطيبي» (٩/ ٢٩٨٣).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في النجوم (٤/ ١٥ ـ ١٦) رقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه في كتاب الآداب، باب تعلّم النجوم رقم (٣٧٢٦) في «سننهما»، وأحمد (١/ ٢٢٧، ٣١١)، وعبد بن حميد (٧١٤ ـ «المنتخب») في «مسنديهما»، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٦٠٢)، والحربي في «غريب الحديث» (٣/ ١١١٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ١٣٥) رقم (١١٢٧٨)، وابن خزيمة في «التوكل» ـ كما في «إتحاف المهرة» (٨/ ١٤٣) رقم (٩٠٩٠) ـ، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٢٥) رقم (٧٠٢)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» رقم (٧٧٩)، والخطيب في «القول في علم النجوم» (ص١٧٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥١٩٧)، و«السنن الكبرى» (٨/ ١٣٨)، و«الآداب» (٤٦٦)، والجصاص في «أحكام القرآن» (١/ ٥١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٣٩) من طريق الوليد بن عبد الله، عن يوسف بن ماهِك، عن ابن عباس مرفوعاً.

وإسناده صحيح؛ وصححه الذهبي في «الكبائر» (٣٣٧/ ٢٧٠ ـ بتحقيقي)، ونقل المناوي في «الفيض» (٦/ ٨٠) تصحيحه له أيضاً.

وصححه النووي في «رياض الصالحين» رقم (١٦٧٩)، و«الفتاوى» جمع تلميذه ابن العطار (ص١٦٥)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩٣)، والعراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٤/ ١١٧)، والمناوي في «التيسير» (٢/ ٤٠٣)، وجوَّد إسناده ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٣٤)، وشيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٩٣)، وغيرهم.

(تنبيهات وفوائد):

الأولى: لفظ أبي داود وأحد لفظي أحمد: «من اقتبس علماً من النجوم»، وزاد في آخره: «زاد ما زاد».

ولفظ أحمد الآخر: «**ما اقتبس رجل علماً من...**».

واللفظ المذكور لابن خزيمة في «التوكل»، والمعنى واحد.

الثانية: قال الحربي: قوله: «من اقتبس علماً من النجوم»؛ قَبَسْتُ العلم واقْتَبَسْتُه: إذا تعلمته. =

قال شيخ الإسلام: «فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]»[(١)] «فعلم أن تأثير[(٢)] النجوم باطل محرم وكذا العمل[(٣)] بمقتضاه كالتقرب إليها[(٤)] بتقريب[(٥)] القرابين لها كفر»[(٦)]، قاله ابن رجب. وقال: «وللنسائي من حديث أبي هريرة: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه**»[(٧)].

هذا الحديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي ولم يبين هل هو موقوف أو مرفوع، وقد رواه النسائي مرفوعاً، وذكر المصنف عن الذهبي أنه

= **الثالثة**: المنهي عنه من علم النجوم هو علم التأثير، الذي يقول أصحابه: إنّ جميعَ أجزاء العالم السُّفْلي صادرٌ عن تأثير الكواكب والروحانيات، فهذا محرَّم لا شك فيه؛ لأنه ضرب من الأوهام، وما سوى ذلك من علم الفلك فتعلّمُه مباح لا حرج فيه، بل هو فرض كفاية لا بُدَّ أنْ يقوم به نفرٌ من المسلمين ليَرفعَ الإثمَ عن عامتهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

قال ابن رجب في «بيان فضل علم السلف على علم الخلف» (ص٢٦): «فعلم تأثير النجوم باطل محرم، والعمل بمقتضاه كالتقرب إلى النجوم وتقريب القرابين لها كفر، وأما علم التيسير؛ فإذا تعلم ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق؛ كان جائزاً عند الجمهور، وما زاد عليه؛ فلا حاجة إليه، وهو يشغل عما هو أهم منه».

وللخطيب البغدادي كتاب مطبوع بعنوان «القول في علم النجوم»، ذكر فيه (ص١٢٦ وما بعد) المشروع منه، وذكر (ص١٦٨ وما بعد) المحظور منه. وانظر: «البيان والتحصيل» لابن رشد (١٧/ ٤٠٧)، و«الفروق» (٤/ ٢٥٩)، و«مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٦٦)، و«الفصل» لابن حزم (٥/ ١٤٨)، و«مجموع فتاوى ابن تيمية» (٣٥/ ١٩٢)، و«إتحاف السادة المتقين» (١/ ٢٢١)، و«أبجد العلوم» (٢/ ٥٥١)، و«الفروق» للقرافي (٤/ ١٤٠٣، ط. السلام) (الفرق الحادي والسبعين والمئتين: بين قاعدة ما يجب تعلمه من النجوم وبين قاعدة ما لا يجب).

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩٣).

(٢) في مطبوع «فضل علم السلف»: «فَعِلْم تأثير النجوم...».

(٣) في مطبوع «فضل علم السلف»: «والعمل بمقتضاه».

(٤) في مطبوع «فضل علم السلف»: «إلى النجوم».

(٥) في مطبوع «فضل علم السلف»: «وتقريب».

(٦) «فضل علم السلف على الخلف» (ص٢١).

(٧) أخرجه النسائي (٤٠٧٩) **بإسناد ضعيف**، وتقدم بيان ذلك مع التخريج المفصّل عند تخريج حديث: «ومن سحر فقد أشرك» في (ص١٧١).

قال: لا يصح»[1]، قوله: «**ومن تعلق شيئاً وكل إليه**»، أي من تعلق قلبه شيئاً بحيث يتوكل عليه ويرجوه وكلّه الله إلى ذلك الشيء، فإن تعلق العبد على ربه وإلهه وسيده ومولاه ورب كل شيء ومليكه وكله إليه فكفاه ووقاه وحفظه وتولاه، ونعم المولى ونعم النصير، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] ومن تعلق على السحر والشياطين وكّله الله إليهم فأهلكوه في الدنيا والآخرة، وبالجملة من[2] توكل على غير الله كائناً من كان وكل إليه، وأتاه الشر في الدنيا والآخرة من جهته مقابلة له بنقيض قصده، وهذه سنة الله في عباده التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول أن من اطمأن إلى غيره أو وثق بسواه أو ركن إلى مخلوق يدبره أجرى الله تعالى بسببه[3] أو من جهته خلاف ما علّق به آماله وهذا أمر معلوم بالنص والعيان، ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق بعين البصيرة النافذة، رأى ذلك عياناً وفائدة هذه الجملة بعدما قبلها الإشارة إلى أن الساحر متعلق على غير الله فإنه متعلق على الشياطين»[4].

شرح قول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً»[5]

«البيان: البلاغة والفصاحة، قال صعصعة بن صوحان: «صدق نبي الله، أما قوله: «**إن من البيان لسحراً**» فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق»[6]، وقال ابن عبد البر[7]: «تأولته طائفة على الذم لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان، قال: وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله فقال: هذا والله السحر الحلال»[8].

قال صاحب «التيسير»: «قلت: الأول أصح، وهو أنه خرج مخرج الذم

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (ص٤٠١). (٢) في مطبوع «التيسير»: «فمن».
(٣) في مطبوع «التيسير»: «أجرى الله تعالى له بسببه».
(٤) «التيسير» (ص٤٠٢ ـ ٤٠٣).
(٥) أخرجه البخاري (٥١٤٦) من حديث ابن عمر، ومسلم (٨٦٩) من حديث عمار.
(٦) أخرجه أبو داود: الأدب: ما جاء في الشعر (٤/ ٣٠٣) رقم (٥٠١٢)، ومن طريقه ابن عبد البر في «التمهيد» (١٦/ ٣٤٥)، **وإسناده ضعيف**، فيه أبو جعفر النحوي وصخر بن عبد الله بن بريدة مجهولان، وأما صعصعة فتابعي كبير ثقة.
(٧) في «التمهيد» (١٦/ ٣٤٠، ط. الفاروق) بنحوه.
(٨) «التيسير» (ص٤٠٤) ونحوه عند ابن عبد البر في «التمهيد» (١٦/ ٣٤٢)، والزرقاني في «شرح الموطأ» (٤/ ٤٠٤)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢/ ٣٦٥) وفيها أثر عمر بن عبد العزيز.

لبعض البيان لا كله وهو الذي فيه تصويب الباطل وتحسينه حتى يتوهم السامع أنه حق، ويكون[1] فيه بلاغة زائدة عن الحد، أو قوة في الخصومة حتى يسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق، ونحو ذلك، فسماه سحراً لأنه يستميل القلوب كالسحر، ولهذا قال ﷺ لما جاءه رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما؛ فقال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**[2]»[3].

قال محمد تقي الدين: الجمع بين القولين ممكن فيقال: إذا كان تأثير البيان يكشف حقاً خفياً أو يبين ظلماً قد لبسه الظالم بالحق أو يسكن غضب سلطان جائر أو يثير في الناس الرغبة لفعل الخير، أو الذم على فعل الشر فهو من السحر الحلال، وهو محمود يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في شعر أحد أصحابه وهو عبد الله بن رواحة يوم فتح مكة:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال بعض الصحابة للشاعر: أفي حرم الله وبين يدي رسوله تقول هذا؟ فقال النبي ﷺ: «**دعه فإنها أسرع فيهم من النبل**»[4]. ويدل على ذلك أيضاً قول عمر بن عبد العزيز المتقدم ذكره: «هذا والله السحر الحلال»، وإن كان البيان يثير عكس ذلك في السامعين فهو مذموم[5]. وبالله التوفيق.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ

---

(١) في مطبوع «التيسير»: «أو يكون». (٢) سبق تخريجه.

(٣) «التيسير» (ص٤٠٤ ـ ٤٠٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) وفي «الشمائل» (٢٤٦)، والنسائي (٥/ ٢٠٢، ٢١١)، وعبد بن حميد (١٢٥٧)، وأبو يعلى (٣٣٩٤، ٣٤٤٠)، وابن خزيمة (٢٦٨٠)، وابن حبان (٥٧٨٨)، والطبراني في «الأوسط» (٨١٥٧)، وأبو نعيم (٦/ ٢٩٢)، والبغوي (٣٤٠٤)، والبيهقي (١٠/ ٢٢٨) من حديث أنس، وهو **صحيح**.

(٥) بيّنتُ ـ لله الحمد ـ متى يمدح البيان ومتى يذم في كتابي «المحاماة تاريخها في النظم وموقف الشريعة الإسلامية منها» (ص٩٩ ـ ١٠٢) وقد طبع قديماً، وستظهر منه طبعة جديدة منقّحة ومزيّدة، يسر الله ذلك بخير وعافية.

مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢]

قال (ك): «يبين الله تعالى[(١)] اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، ورد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وقال أبو العالية: أماني تمنوها على الله بغير حق، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ قال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس: حجتكم، وقال قتادة: بيّنتكم على ذلك. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فيما تدعونه[(٢)]، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يبين تعالى».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثم».

قال أبو عبيدة: مما فات المصنف التنبيه عليه أمور:

الأول: جمع الأماني في قوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، مع أن قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أمنية واحدة، إشارة إلى الأماني المذكورة، وهي أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم، أي: تلك الأماني الباطلة أمانيهم.

الثاني ـ وهو على شرط المصنف وفاته التنبيه عليها في (القسم الثالث) من هذا الكتاب أيضاً ـ: لما كان كل مدع لغيب مفتقراً في تصحيح دعواه إلى دليل، وكان مثل هذا لا يقنع فيه إلا بقاطع؛ أَمَرَ أعلم الخلق؛ لأنه لا ينهض بإخراسهم في علمهم ولَدَدهم غيرُه بمطالبتهم بذلك، ناقضاً لدعواهم، فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: هلموا حجتكم، على اختصاصكم بدخول الجنة، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين، وإن كل قول لا دليل فهو باطل غير ثابت، و«هات» صوت بمنزلة هاء بمعنى: أحضر، و«البرهان» هو البيان والحجة والبينة ـ ويقال له: الشاهد ـ قال:

مـن ادعـى شـيـئـاً بـلا شـاهـد   لا بـد أن تـبـطـل دعـواه

الثالث: لما نادى عليهم بالكذب في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أثبت لغيرهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ ما ادعوا الاختصاص به، فـ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة، =

﴿مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقال أبو العالية والربيع: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ يقول: من أخلص لله، وقال سعيد بن جبير: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أخلص ﴿وَجْهَهُۥ﴾ قال: فيه دينه[١]: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: اتبع[٢] فيه الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: **أحدهما** أن يكون خالصاً لله وحده، **والآخر** أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» رواه مسلم[٣] من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام، فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخصلون فيه لله، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكونوا في ذلك متبعين[٤] للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٥] وروي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه تأولها في الرهبان[٥] كما سيأتي، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال

= وأفادت أيضاً أنه تعالى لما نفى أن يكون لهم برهان، أثبت لمن أسلم وجهه لله برهاناً، وأفادت أيضاً ترغيبهم في الإسلام، وبياناً لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة لكي يقلعوا عما هم عليه، ويعدلوا إلى هذه الطريقة، فكأنه قيل لهم: أنتم على ما أنتم لا تفوزون بالجنة، بلى؛ إن غيرتم طريقتكم وأسلمتم وجهكم لله، وأحسنتم فلكم الجنة. انظر: «جواهر الأفكار» (٣١٤ ـ ٣١٥).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فيه»!

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «متبع».

(٣) برقم (١٧١٨).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حتى يكون ذلك متابعاً».

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/٢٩٩) رقم (٣٥٨٨)، والحاكم (٢/٥٢١ ـ ٥٢٢)، وأبو بكر البرقاني ـ كما في «تفسير ابن كثير» (١٤/٣٣٠)، و«مسند الفاروق» (٢/٦٢٠ ـ ٦٢١) ـ **وإسناده ضعيف**، لانقطاعه، فإن أبا عمران الجوني لم يدرك زمان عمر، قاله الحاكم. فقول ابن كثير في «مسند الفاروق»: «إسناده جيد» ليس بجيد. وعزاه في «الدر المنثور» (٦/٣٤٢) لابن المنذر.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]. وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الماعون: ٤ ـ ٦] ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وأمنهم مما يخافونه من المحذور فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى مما يتركونه كما قال سعيد بن جبير فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يحزنون للموت»[(١)].

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١٢]؛ يعني سبحانه أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، وقد اتبعهم بعض هذه الأمة كما أخبر النبي ﷺ بذلك في «الصحيح»[(٢)] بقوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»، قيل: من يا رسول الله؟ اليهود والنصارى وفارس؟ قال: «**ومن القوم إلا أولئك**». وقد ادعى قوم من هذه الأمة في آخر الأزمنة أن شيخهم ضمن لهم الجنة بلا حساب ولا عقاب، وضمن لمن لا يصدقهم فيما نسبوا إلى شيخهم أن يموتوا على الكفر، وأن يدخلوا النار خالدين فيها أبداً، فهؤلاء أشبهوا اليهود والنصارى واتبعوا سننهم، بل قول اليهود أقل ضلالاً من قولهم؛ لأن اليهود قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] وهؤلاء يقولون: لن تمسنا النار البتة، انظر كتاب «الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية»[(٣)] لمصنف هذا الكتاب.

وقال تعالى في الرد على اليهود والنصارى ومن سلك سبيلهم، وحجر رحمة الله بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير في سورة النساء: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١ ـ ٢٢).
(٢) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد نحوه.
(٣) انظر منه (ص٨٢).

﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٣ ـ ١٢٥] فهاتان الآيتان مشابهتان في المعنى لآيتي البقرة. والإسلام الموجه لله، معناه: أن لا يتوجه الإنسان برهبة ولا رغبة إلا لله وحده لا شريك له، ولا يطلب المدد الحسي كالمعيشة، أو المعنوي كتنوير القلب وانشراح الصدر بالإسلام إلا من الله تعالى، ومن طلب شيئاً من ذلك من غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر؛ لأن الأرزاق الحسية والمعنوية كلها بيد الله.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٦ ـ ١١٧]

«اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى(١)، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولداً، فقال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم(٢) ومسيِّرهم ومصرِّفهم كما يشاء، والجميع عبيد له(٣)، فكيف يكون له ولد منهم؟ والولد إنما يكون متولِّداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم لعائن الله».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومقدرهم ومسخرهم».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وملك له».

ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء عنده[١] مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد؟ ولهذا قال البخاري[٢] في تفسير هذه الآية بسنده إلى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي؛ فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان. وأما شتمه إياي: فقوله أن لي ولداً فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**»، تفرد به البخاري[٣] من هذا الوجه.

وفي «الصحيحين»[٤] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم**». وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] قال ابن أبي حاتم[٥] بسنده عن ابن عباس: «﴿قَٰنِتُونَ﴾: مصلُّون» وقال عكرمة وأبو مالك: «﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مقرّون له[٦] بالعبودية»[٧]. وقال مجاهد: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون. قال مجاهد: «طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره»[٨]، وهذا القول عن مجاهد، وهو اختيار ابن جرير يجمع[٩] الأقوال كلها[١٠] كما قال

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «غيره».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من البقرة».
(٣) في «صحيحه» برقم (٤٤٨٢).
(٤) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٤) رقم (١١٣١)، وابن جرير (٢/ ٤٦٢) في «تفسيريهما»، ونسبه في «الدر المنثور» (١/ ١١٠) لابن المنذر أيضاً.
(٦) في مطبوع «ابن أبي حاتم»: «كل له مقرون».
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٤) رقم (١١٣٢)، وابن جرير (٢/ ٤٦٣) في «تفسيريهما».
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٣) رقم (١١٢٩)، وابن جرير (٢/ ٤٦٢) في «تفسيريهما»، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٢١٢).
(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الجميع»!
(١٠) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو أن القنوت هو الطاعة والاستكانة إلى الله هو شرعي وقدري»، وانظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤).

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥][(١)]، وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي؛ خالقهما على غير مثال سبق. قال مجاهد والسدي: «وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة»[(٢)].

وقال (ج): «﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما، وإنما هو مفعل فصرف إلى فعيل كما صرف المؤلم إلى الأليم، والمسمع إلى السميع، ومعنى المبدع: المنشئ والمحدث ما لا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد»، قال: «ولذلك سمى المبتدع في الدين مبتدعاً لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره»[(٣)]. وقال (ج): «فمعنى الكلام: سبحان الله أنى يكون[(٤)] له ولد؟ وهو مالك ما في السموات والأرض يشهد[(٥)] له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله لعباده[(٦)]؛ أن من[(٧)] يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوته، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى[(٨)] من غير والد بقدرته»[(٩)]. «وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] يبين بذلك كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدّر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له: كن؛ أي مرة واحد، فيكون، أي فيوجد على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]»[(١٠)] «ونبه بذلك أيضاً

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥ ـ ٣٦).
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٨)، و«تفسير ابن جرير» (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢١٤).
(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٤٦٤).
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن جرير»، وفي الأصل: «أن يكن»!
(٥) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «تشهد». (٦) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «عباده».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «أن مما».
(٨) في مطبوع «التفسير الكبير»: «ابتدع المسيح من غير والد».
(٩) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٤٦٥).
(١٠) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال الشاعر:
إذا ما أراد الله أمراً فإنما ... يقول له كن قوله فيكون»

على أنه خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]».

قال محمد تقي الدين: لم يبق لي ما أقوله بعدما حقق الإمامان (ك) و(ج) تفسير هاتين الآيتين، إلا أنه كان ينبغي أن تدرج في (القسم الثاني) من هذا الكتاب، وهو (توحيد الربوبية)، لأنهما عليه أدل، وإليه أدنى ولكن هذين النوعين من التوحيد متلازمان لتحقيق الإيمان بالله، فإن توحيد العبادة يستلزم توحيد الربوبية؛ لأن من وحَّد الله في عبادته، قد علم وأيقن وآمن أنه لا رب له ولا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت ولا حافظ لوجوده ولا متصرف فيه إلا واحد، وهو الله تعالى، أما توحيد الربوبية فإنه لا ينفع إلا إذا كان معه توحيد العبادة، ولكن لما كان النصارى قد اتخذوا ادعاء بنوة عيسى لله تعالى ذريعة لعبادته وإشراكه مع الله تعالى، كانت هناك مناسبة لإدخال الآيتين في قسم توحيد العبادة، وهكذا جميع المشركين حين يعبدون غير الله تعالى يزعمون أنهم ما عبدوا ذلك المعبود إلا لقربه من الله تعالى وعلو مكانته عنده، كما قال تعالى في أول سورة الزمر: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣] فجعلهم الله تعالى كاذبين وكافرين أشد الكفر بقولهم ذلك.

الباب التاسع

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]

قال (ك): «يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم، وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم، فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم؛ أي اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن كلهن كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧] أي: وفّى

جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٧ ـ ٦٨].

وقال محمد تقي الدين: والكلمات العشر التي امتحن الله بها إبراهيم، فرائض فرضها عليه فوفى بها وعمل بها وأتمها، وقد اختلف المفسرون في تعيينها اختلافاً كثيراً، ولم يثبت عن النبي ﷺ في تعيينها شيء كما قاله (ع)(١)، فنفوض أمرها إلى الله تعالى، إذ لا سبيل إلى معرفة أعيانها إلا بالرواية عن النبي ﷺ كأمره ببناء البيت مع ابنه إسماعيل وأمره بتطهيره، وأمره بذبح ابنه، وقد فعل كلَّ ما أمره ربه به على أحسن وجه، ولذلك جعله الله إماماً لأهل الحنيفية يقتدى به من بعده والله أعلم. قال (ك): «وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونوا أئمة يقتدى بهم، والدليل أنه أجيب إلى طلبه، قوله تعالى في سورة العنكبوت: الآية ٢٧: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه». ثم قال (ك) ـ بعد كلام طويل للمفسرين في قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ـ ما نصه: «فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية(٢)، وإن كانت ظاهرة الخبر(٣) أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام،

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧) ووردت آثار في تعيين ذلك، تنظر في: «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٥٧)، «تفسير ابن وهب» (١/ ١٣١) رقم (٣٠١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٢١)، و«تاريخ ابن جرير» (١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١١/ ٥٢١)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦/ ١٩٣ ـ ١٩٥).

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على ما نقله ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ رحمهما الله تعالى ـ واختار ابن جرير أن هذه الآية».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ظاهرة في الخبر».

أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد[١] وغيره، والله أعلم. وقال ابن خويز منداد المالكي: الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً»[٢].

الباب العاشر

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨]

قال (ج): «يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك»[٣].

قال محمد تقي الدين: إن إبراهيم وإسماعيل كانا مسلمين نبيين رسولين ولكنهما كما قال (ج) سألا الله أن يجعل قلوبهما ونفوسهما على الدوام مطيعة مخلصة موحدة له في عبادته وفي طاعته، ودعاء الأنبياء في هذا تعبد وخضوع؛ لأنهم معصومون، ثم عطف عليه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. نقل (ك) عن السدي أن المراد بهذه الأمة العرب، وخالفه (ج) فقال: «إن هذا الدعاء يعم العرب وبني إسرائيل، لقوله تعالى في سورة الأعراف ١٥٩: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩]»[٤]، وأجاب (ك) بأن «هذا لا يتنافى مع تفسير السدي ولا سيما والكلام الآن في العرب، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩]، وهذا الرسول بلا شك هو محمد ﷺ، وهو من العرب، وكلا الوجهين صحيح، فكل من اتبع ملة إبراهيم من العرب والإسرائيليين داخل في هذا الدعاء»[٥].

---

(١) أسنده عنه: ابن وهب في «تفسير القرآن» (١/ ٢٢)، وسعيد بن منصور (٢١٣)، وابن جرير (٢/ ٥١٢) وبنحوه عند سفيان الثوري في «تفسيره» (ص٤٨)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٢٣) وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ١١٨) لعبد بن حميد ووكيع.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٥ ـ ٥٧).

(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٥٦٥).

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٥٦٦).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٩٤).

الباب الحادي عشر

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٤]

قال (ك): «يقول تبارك وتعالى راداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢] ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ(١) إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طرق الضلالة والغي، فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: عن طريقته ومنهجه، فيخالفها ويرغب عنها».

أكبر من هذا؟[١] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]. قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود أحدثوا طريقاً ليست من عند الله وخالفوا ملة إبرهيم فيما أحدثوه[٢]، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران: ٦٧ ـ ٦٨] وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة: ١٣١] أي: أمره الله تعالى بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً، وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي: وصى بهذه الملة وهي الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨]»[٣] وقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] «أي: أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا؛ ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته، بأن من قصد الخير وفق له ويُسِّر[٤] عليه، ومن نوى صالحاً ثبت عليه، وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[٥]. لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «**فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس**»[٦]. وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من هذا كله كما».

(٢) أخرجه ابن جرير (٢/ ٥٧٨)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٣٨) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٣٩) إلى عبد بن حميد أيضاً، **وهو مرسل**، وانظر: «العجاب» (١/ ٣٧٨).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٩٨ ـ ٩٩).

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وييسير»!

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود.

(٦) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) من حديث سهل بن سعد.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠] قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٣٤﴾ [البقرة: ١٣٣ ـ ١٣٤].

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل ـ وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ـ بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهذا من باب التغليب؛ لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمي العم أباً، نقله القرطبي[(١)]، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أباً، وحجب به الأخوة، كما هو قول الصديق، حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير[(٢)]، ثم قال البخاري ولم يختلف عليه[(٣)]، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين[(٤)]، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء[(٥)]، وهو مذهب أبي حنيفة[(٦)] وغير واحد من السلف والخلف[(٧)]،

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ١٣٨)، وهذا الموضع لا وجود له في مطبوع «معاني القرآن» للنحاس، إذ أصله الخطي فيه نقص.

(٣) بل حكاه البخاري في «صحيحه»: كتاب الفرائض: باب ميراث الجد مع الأب والإخوة عنهم جميعاً، وهذا نص كلامه: «وقال أبو بكر وابن عباس وابن الزبير: الجد أب» وسيأتي توضيح ذلك، وبيانه في (ص٥٣٩).

(٣) عبارة البخاري في الموطن السابق: «ولم يذكر أنّ أحداً خالف أبا بكر في زمانه، وأصحاب النبي ﷺ متوافرون».

(٤) وهو قول معاذ بن جبل وأُبيّ بن كعب وأبي هريرة وأبي الدرداء وأبي الطفيل وأبي موسى وعمران بن حصين وجابر بن عبد الله وعبادة بن الصامت.
انظر: «مصنف عبد الرزاق» (١٠/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، «مصنف ابن أبي شيبة» (٦/ ٣٥٨ أو ١١/ ٢٨٨، ط. الهندية)، «سنن الدارمي» (٢/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣ أو ١٠/ ٦٤ وما بعدها ـ مع «فتح المنان»)، «سنن البيهقي» (٦/ ٢٤٦)، «المحلى» (٩/ ٢٨٨)، «فتح الباري» (١٢/ ١٨ ـ ٢٠).

(٥) وجابر بن زيد وقتادة وابن سيرين، وعثمان البتّي والمزني وداود، انظر: «المحلى» (٩/ ٢٨٨)، «العذب الفائض» (١/ ١٠٥)، «مختصر اختلاف العلماء» (٤/ ٤٦١)، «حاشية البقري على الرحبية» (٩٧).

(٦) انظر: «مختصر الطحاوي» (١٤٧)، «المبسوط» (٢٩/ ١٨٠)، «الاختيار» (٥/ ١٠١)، «الأشباه والنظائر» (٢٩٨) لابن نجيم، «حاشية ابن عابدين» (٦/ ٧٨١)، «شرح السراجية» (٧٨).

(٧) قال عنه العلامة السعدي في «فتاواه» (٤٨٠): «الموافق لظاهر الكتاب والسنة، والموافق =

وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه: إنه يقاسم الأخوة[١]، وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت[٢] وجماعة من السلف والخلف[٣]، واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبو يوسف، ومحمد بن الحسن[٤]، وقوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: نوحّده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] والآيات في هذا كثير، والأحاديث: فمنها قوله ﷺ: **«نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»**[٥]»[٦]. قال ابن منظور في «لسان العرب»: «معنى أولاد العلات أنهم لأمهات مختلفة ودينهم واحد، كذا في «التهذيب»[٧]»،

= لمواقع الإجماع في غير هذه المسألة، والموافق للمعاني الصحيحة، وهو قول منضبط، لا تناقض فيه، ولا غموض، ولا إشكال».
قلت: «وهذا المذهب مروي عن بضعة عشر من الصحابة، أفاده ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٤٢) ونصره بقوة. وانظر تعليقي على: «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (٥/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم (١٩٦٠).

(١) وهو قول الشعبي والنخعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة والحسن بن صالح والزهري والأوزاعي والثوري، وأبي عبيد، انظر: «المجموع» (١٧/ ١٨١)، «الحاوي الكبير» (٨/ ١٢٥)، «الموطأ» (٢/ ٥٠٦)، «الذخيرة» (١٣/ ٤٩)، «حاشية الدسوقي» (٤/ ٤١١)، «المغني» (٩/ ٦٦ ـ ٦٩)، «الإنصاف» (٧/ ٣٠٥)، «التهذيب في الفرائض» (٩٧ ـ ٩٩)، «نهاية الهداية» (١/ ٣٥١)، «الفوائد الشنشورية» (ص١٣٠)، «التحقيقات المرضية» (١٣٣).

(٢) انظر مذاهبهم مسندة في: «الفرائض» (ص٣١ ـ ٣٢) لسفيان الثوري، «مصنف عبد الرزاق» (١٠/ ٢٦٨)، «مصنف ابن أبي شيبة» (٦/ ٢٦٠)، «سنن الدارمي» (٢/ ٣٥٤)، «اختلاف العلماء» للطحاوي (٤/ ٤٦٢ ـ مختصر الجصاص)، «السنن الكبرى» للبيهقي (٦/ ٢٤٩)، و«الخلافيات» له (٣/ ق١٢)، «تغليق التعليق» (٥/ ٢١٩، ٢٢١)، وانظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ١٥٠، ٣٧٥ ـ ٣٧٦ و٣/ ٥٤٤ ـ بتحقيقي).

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولتقريرها موضع آخر».

(٤) انظر: «مختصر اختلاف العلماء» (٤/ ١٦١)، «شرح السراجية» (٧٨)، «تبيين الحقائق» (٦/ ٢٣٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٤٢) من حديث أبي هريرة.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٩٨ ـ ١٠١).

(٧) (١/ ١٠٥) للأزهري.

وفي «النهاية»[١] لابن الأثير: أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة»[٢].

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٢٩١ ـ علل).
(٢) انظر: «اللسان» (١١/ ٤٧٠ ـ علل).
(إفاضة وإضافة): أهمل المصنف ـ عفى الله عنا وعنه ـ تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وفي آخر آية ضمن الآيات التي فسرها، وظننتُ أنه أرجأ الكلام عليها في (القسم الثالث) من الكتاب، الخاص بـ(توحيد الاتباع)، وأكثر فيه من الكلام على (التقليد) وانتزع ذمه من كثير من الآيات، ونذكر هنا ما استنبطه ابن بدران في «جواهر الأفكار» (ص٣٥٥)، قال رحمه الله تعالى:
«وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم، وما عطف عليه، وبنوهم الموحدون. والمعنى: إن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلَّا ما اكتسبتم، وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم، وقد شايعهم في هذه الأمة أناس اتكلوا على الأنساب، وعملوا بأكثر ما حرمه الكتاب، وأبناء العلماء تركوا العلم وادعوا أن ولد العالم لا يكون إلا عالماً، كأنهم يقولون بالتناسخ، ويزعم بعضهم أن أرواح آبائهم تمدهم وتلهمهم العلم إلهاماً بدون تعلم، وما أقبح هذه الدعوى وما أفظعها.
وقوله تعالى: ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ يدل على أن كسب كل واحد مختص به، ولا ينتفع به غيره، وهذا يدل على بطلان التقليد، كما قاله الرازي، إذ لو كان التقليد جائزاً لكان كسب المتبوع نافعاً للتابع، فكأنه قال: إني ما ذكرت حكاية أحوالهم طالباً منكم أن تقلدوهم، ولكن لتتنبهوا على ما يلزمكم، فتستدلوا وتعلموا أن ما كان عليه إبراهيم، وما عطف عليه من الملة هو الحق، وفي الآية رد على اليهود لأنهم يقولون: بأن صلاح آبائهم ينفعهم، ويقولون: إنهم يعذبون في النار لكفر آبائهم باتخاذ العجل».
وقال في تفسير الآية نفسها (ص٣٦٥ ـ ٣٦٦) في الموطن لمكرر رقم (١٤١) من السورة نفسها:
«ولما حاج تعالى اليهود والنصارى في هؤلاء الأنبياء عقب ذلك الحجاج بقوله:
﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.
لتكون هذه الآية وعظاً لهم وزجراً، حتى لا يتكلوا على فضل الآباء، فكل واحد يؤخذ بعمله، وإعلاماً لهم، بأنه متى لا يستنكر أن يكون فرضكم عين فرضهم، لاختلاف المصالح، لم يستنكر أن تختلف المصالح، فينقلكم محمد ﷺ، من ملة إلى ملة.
وتدل الآية على أن كل إنسان مسؤول عن عمله، ولا عذر له في ترك الحق، إن توهم أنه متمسك بطريقة من تقدم؛ لأنهم أصابوا أو أخطؤوا، لا يضر هؤلاء ولا ينفعهم، لئلا يتوهم أن طريقة الدين التقليد.
وفي الآية زجر عظيم لمن جعل التقليد مذهبه، وسار مع قوله مقلده كيفما كان، ثم إن إتاه الحق وظهر له الدليل أعرض عنه جانباً، وراغ عنه، وأخذ يؤوله حسبما يريد، ويختار له هواه، ويسلك مسالك أولئك المعاندين، الذين قلدوا أحبارهم ورهبانهم فيما =

قال محمد تقي الدين الهلالي: شبه النبي ﷺ الشرائع بالأمهات والدين بالأب، فالدين هو توحيد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، والإيمان به وبجميع رسله وأنبيائه من آدم إلى محمد ﷺ، وإقامة العدل والإحسان، فهذه أصول الدين لا يختلف فيها الأنبياء والرسل، أما الشرائع والأحكام، فإن الشرائع مختلفة؛ لأن أزمنتهم مختلفة، وأحوال أهلها مختلفة، وقد شرع الله لكل واحد منهم شريعة تناسب زمانه وقومه، ثم ختم الرسل والأنبياء والشرائع ببعثة محمد ﷺ، فنسخت شريعته كل الشرائع المتقدمة؛ لأنها صالحة(١) لكل زمان ومكان ولكل قوم، وهي خالدة باقية إلى يوم القيامة.

قال المؤلف: قد نقلت في تفسير هذه الآيات ما جعلها واضحة للقراء وأزيد شيئاً من البيان تنبيهاً للمعاصرين فأقول: إن المسلمين قد أهملوا توحيد الله في أكثر أوطانهم، وانغمسوا في الشرك الأكبر، واستوى في ذلك عالمهم وجاهلهم إلا قليلاً ممن أخذ الله بيده، فلو أن عالماً من علماء المسلمين نشأ في بلد إسلامي، وله أولاد علمهم القرآن، وعلمهم كتب العلوم الإسلامية على ما عليه العامة ممن يسمون بالعلماء، وعاش معهم زمناً طويلاً يؤدون العبادات المفروضة ثم حضرته الوفاة، فجمع أولاده، وقال لهم: ما تعبدون من بعد موتي؟ لقال الناس: إنه أصيب بجنون، وأنه يهذي هذيان المحموم؛ لأنهم يزعمون أن من صلى وصام وحج وقرأ القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام وإن عبد غير الله تعالى بالدعاء والاستغاثة والاستعاذة والتوكل والخوف والرجاء والحلف والذبح

= ابتدعوه لهم من الدين، ورتبوه لهم من المفتريات، ولما جاءهم الحق الذي لا مرية فيه وهو القرآن الكريم، أعرضوا عنه اتباعاً لقول أحبارهم ورهبانهم، كما أضل هؤلاء من سار سيرهم واتبع طريقتهم، فأعرض عن كتاب الله وسنة نبيه، وحرفه وبدله وساقه نحو هواه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] وتكرير هذه الآية يدل، والله أعلم، على أنه متى اختلفت الأوقات والأحوال والمواطن، لم يكن التكرار عبثاً فكأنه تعالى قال: ما هذا إلا شر، فوصف هؤلاء الأنبياء فيما أنتم عليه من الدين، لا يسوغ التقليد في هذا الجنس، فعليكم بترك الكلام على إبراهيم وما عطف عليه من تلك الأمة، فلها ما كسبت، وانظروا فيما دعاكم إليه محمد ﷺ، فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم بكل خير، ولا تسألون إلا عن عملكم، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

(١) ومصلحة أيضاً، وعبارة (الإسلام مصلح لكل زمان ومكان) أوفى وأتم من (صالح)! فتأمل.

والنذر، وجعل الحكم لغير الله وما أشبه ذلك مما تقدم ذكره، لا يضره ذلك شيئاً وهو مسلم مؤمن كامل الإيمان، ولا يخافون عليه ضلالاً ولا زيغاً، وهذا إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، يوصي بنيه بتوحيد الله تعالى، وهذا يعقوب حفيده نبي الله تعالى لم يكفه إجمال الوصية بالإسلام، بل يؤكد ذلك بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ وذلك عندما حضره الموت، فلم يقولوا له: نحن أبناؤك ولم نزل نعبد الله معك وحده لا شريك له، فكيف تسألنا هذا السؤال؟ بل أجابوه جواباً واضحاً بقولهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ لا نشرك به شيئاً ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ بقلوبنا وألسنتنا لا نتوجه لغيره أبداً، وبهذا اطمأنت نفس يعقوب عليه السلام على أولاده، وكذلك قول إبراهيم الخليل عليه السلام في سورة إبراهيم: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] والجاهلون في هذا الزمان يقولون: نحن نقول: لا إله إلا الله، ونصلي ونصوم، فكيف تخاف الشرك علينا وعلى أولادنا؟ وهذا هو الجهل المركب من جهلين: **أحدهما**: إنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام، **والثاني**: إنهم يجهلون أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة، فهم كما قال شاعر على لسان حمار الطبيب توما الذي يضرب به المثل في الجهل بالطب:

قال حِمَارُ الحكيم توما ... لو أنصفوني ما كُنتُ أُركَبُ
لأنَّ جهلي غدا بَسِيطاً ... وراكبي جهله مركَّبُ[1]

الباب الثاني عشر

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٩]

---

(١) البيتان في «المثل السائر» (٢/ ٣٣٨) منسوبان لبعض العراقيين.

قال محمد بن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عباس قال: قال عبد بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهُدى إلا ما نحن عليه فاتَّبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾(١). «وقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥] أي: لا نريد ما

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٠٢) ـ ومن طريقه ابن جرير (٣/ ١٠١ ـ ١٠٢) رقم (٢٠٩٠)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٩٦) رقم (١٣٠٠) في «تفسيريهما» **وإسناده ضعيف**، فيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، مجهول، تفرد عنه ابن إسحاق. قاله الحافظ في «التقريب»، وقال عنه الذهبي في «الميزان» (٤/ ٢٦): «لا يعرف»، وضعّفه ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٠٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ٣٣٧) لابن المنذر.

(ومضة): هذه الدعوى التي ادعاها أولئك لم تزل دعواهم إلى يومنا هذا، وإلى ما بعده، ولكن اليهود لما لم يكن لهم شوكة، وكانت عادتهم البخل والشح لم يظهروها، وأما النصارى فإنهم يجاهرون بها، ويرسلون المبشرين لأجلها إلى الأقطار ويصحبونهم بالأموال الطائلة، ويفتحون المدارس في بلاد المسلمين لاتساع تلك الدعوى وبثها، ويؤلفون الكتب في الرد على القرآن وتزييفه على زعمهم، وفي الرد على الدين الإسلامي، ويأخذون الخرافات التي حشاها جهلة المؤلفين في كتبهم، وينسبونها إلى الدين الإسلامي طعناً فيه، ويأتون من حشو أدمغتهم بالخرافات التي ليست من دين الإسلام في شيء، فيقولون لهم: إن النصارى لم ترتق إلا بدينها، فلذلك عظمت دولهم، واهتدوا إلى الاختراعات العجيبة، وأما أنتم معاشر المسلمين، فإن دينكم هو الذي أخركم وجعلكم أحط الأمم قدراً، وأعظمها فقراً، فيروج ذلك على عباد الأوهام.

وأما من يدخل مدارسهم فيكون على ثلاثة أقسام:

قسم منهم وهو القليل يتمسك بدينه الإسلامي، لكنه يكون متهاوناً بالعبادات وبالتكاليف.

وقسم منهم ينسلخ من الأديان كلها ويأخذ بالزندقة والإلحاد، ويعتقد أن الطبيعة هي الفعال المطلق، وأن لا إله في الوجود.

وقسم يميل إلى النصرانية ميلاً لا اتباعاً، فيكون مذبذباً بين النطق بكلمة التوحيد، وبين الزندقة والنصرانية.

والذي نشهد الله عليه: أنه ما أضل مَنْ ضل إلا جهلةُ المؤلفين والمدرسين، وبعض أهل العلم الذين يلقون إلى العامة الخرافات التي لم يأت بها قرآن، ولا صح منها شيء عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه، ولا عن التابعين لهم بإحسان، وإنما هي دسائس من الوثنيين والنصارى واليهود، والزنادقة، وأهل التناسخ من القرامطة، ومن كان على شاكلتهم وخصوصاً القرامطة، فإنهم كانت لهم دولة، وكان لهم دعاة يلبسون دعوتهم لباس الفلسفة، ويبرزونها في صورة التصوف، ومن دعاتهم من كان واسع التخيل إما بطبعه، وإما باستعمال ما يعين على ذلك، كالحشيشة وأمثالها، فتجرؤوا على تفسير =

دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: مستقيماً، قاله محمد بن كعب القرظي، وعيسى بن جارية، وقاله خصيف[١] عن مجاهد ملخصاً»[٢].

قال محمد تقي الدين: الحنيف هو الذي يؤمن بجميع الأنبياء والرسل، ويوحِّد الله تعالى ويتبرأ من الشرك والمشركين ويعاديهم في الله ويحاربهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، يدل على ذلك ما وصف الله به إبراهيم والذين معه في سورة الممتحنة، وفي خصامه مع أبيه في سورة مريم، وفي سورة الأنعام: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤] أرشد الله عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرق بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا﴾ الآية [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]. وقال البخاري بسنده إلى أبي هريرة قال: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم** ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية»[٣]. «قال أبو العالية والربيع

= كتاب الله تعالى حتى أخرجوه عن موضوعه، وظهروا بمظهر الفقر والإرشاد، فراج مظهرهم على العوام، وعلى المغفلين من أهل العلم، فقلدوهم في ذلك وشرحوا أقوالهم، وزينوا بها مؤلفاتهم على زعمهم، وراموا اللحاق بمقامات زينها لهم الداعون، فماتوا ولم يصلوا إليها؛ لأنها خيال في خيال، لا حقيقة لها، حتى جرهم ذلك إلى القول بالاتحاد وطرح التكاليف الشرعية، وقالوا: إن العارف إذا وصل إلى مقام المعرفة سقط عنه التكليف، وما التكليف إلا حجاب بين العبد وبين ربه، وأن الله سبحانه حالٌّ في الأشخاص كلها وفي جميع الموجدات، فأنت هو، وهو أنت، فمن المكلف؟ هل تكلف ذاتُه ذاتَه؟ وهذا هو مقام المعرفة عندهم. لهذا المذهب في زمننا رواج عظيم، حتى عند المغفلين من أعاظم العلماء، فإذا كان النصارى كفروا بالتثليث، فهؤلاء جعلوا آلهة لا يحصيها إلا الله تعالى، هؤلاء أولى بأن يقال لهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. قاله ابن بدران في «جواهر الأفكار» (٣٥٦ ـ ٣٥٧).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال خصيف».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٣٦٢).

وقتادة: الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط»[١].

قال محمد تقي الدين: السبط، يلفظ به في اللغة العبرانية ـ شفيط ـ وهو غصن الشجرة، وسمي أبناء يعقوب الاثنا عشر أسباطاً؛ لأنهم أبناء أب واحد كأغصان الشجرة.

«قال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل»[٢]، ثم قال (ك) بعد نقول متعددة بمعنى ما تقدم: «وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ الآية [المائدة: ٢٠]»[٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ [الأعراف: ١٦٠] ثم قال (ك): «عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة، إدريس[٤]، ونوح، وهود، وصالح، وشعيب وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ومحمد ﷺ»[٣]. وقال ابن أبي حاتم بسنده عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: **«آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن»**[٥].

قال محمد تقي الدين: مقتضاه أن المسلمين لا يأخذون دينهم من الكتب السابقة، وإنما يأخذونه من القرآن والسنة؛ لأن القرآن ناسخ لما تقدم قبله من الكتب، ولأن الله تعالى جعل لهم الأسوة والقدوة في أفضل النبيين وإمام المرسلين محمد ﷺ، فلا حاجة بهم إلى غيره[٦].اهـ.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٣)، و«تفسير ابن جرير» (٢/ ٥٩٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٤٣).

(٢) انظر: «العين» للخليل (٧/ ٢١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٤).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٤).

(٤) لا يوجد في مطبوع «تفسير ابن كثير» ذكر لإدريس ﷺ.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٤٠٠) رقم (١٣١٢) **وإسناده ضعيف**، فيه عبيد الله بن أبي حميد متفق على ضعفه ويروي عن أبي المليح عجائب. انظر: «الميزان» (٣/ ٥)، و«التهذيب» (٧/ ٩).

(٦) وأنت إذا تأملت هذه الآية والتي قبلها، وجدتهما يشيران إشارة من ألطف الإشارات، ويلفتان إلى معنىً من أدق المعاني، ويلوحان إلى أن النصارى واليهود وأمثالهما يدعون =

= إلى دينهما، فلا تطعهما في دعواهما، واتبع دين الفطرة والاستدلال الذي هو دين إبراهيم ﷺ، حيث استدل بالمصنوعات على الصانع، وذلك مما فطر كل كامل العقل عليه، فأفرد الحق تعالى بالوحدانية، وذلك دين لا يتغير بتغير الأزمان، ولا يختلف بتبدل الأمم واختلاف ألسنتها، ومجيء أمة بعد أمة، وهو الإيمان بالله تعالى إيماناً خالياً مما دسه المبتدعون، وتقوله المتقولون، والإيمان لما أنزله من الكتب إجمالاً، وبسائر أنبيائه ورسله الذين أوحى إليهم وأرسلهم إلى الأمم كلهم فإن الإيمان ببعضهم دون البعض، يوقع العالم في الشقاق المؤدي إلى انفراط المدنية الحقة، ويجر من آمن بالبعض إلى التعصب لمن آمن به، حتى يزعم أنه ليس على وجه البسيطة ناس غيره يستحق من الله الوحي إليه.

ولما كانت هذه الأمة أكمل الأمم ديناً بشهادة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وأن الدين الذي هذا شأنه ينهض بصاحبه إلى الارتقاء في الفكر والعمل، لا جرم أمر الله المؤمنين بقوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية، يدعوهم بها إلى أن يكونوا في مقدمة الأمم في إصلاح النوع الإنساني كله، الذي لم تبعث به أمة من الأمم قبلهم، بدليل قوله ﷺ: **«وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»**[1]. فكل نبي من الأنبياء كان يبعث إلى إصلاح أمته، ونبينا بعث لإصلاح جميع الأمم، ولا يمكن ذلك الإصلاح إلا بالدين الفطري الأصلي، والتسليم لنبوة سائر أنبياء الله تعالى، من أي أمة كانوا، وفي أي زمان وجدوا.

وهذا المعنى كان نصب أعين الصحابة رضوان الله عليهم، فلذلك جدوا بما كانوا يجدون فيه، ولأجله كان انتهاء سائر الأديان إلى هذا الدين، كما ورد في الحديث: **«لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي»**[2]، وهذا سر ما ورد من أنه ﷺ صلى بالأنبياء إماماً ليلة المعراج، ولذلك كان هذا الدين هو النقطة الجامعة لكل الأمم على السواء؛ لأن مبناه الإيمان بالله، وهو بلا شك إله السماوات والأرض وما بينهما، والإيمان بسائر رسله الذين أرسلهم إلى الأمم، وعدم التعصب لنبي دون نبي، فأي عذر بعد هذا لهندي أو لصيني أو لإفريقي أو لأوروبي، وغيرهم في عدم اتباعهم هذا الحق المبين، والبرهان الظاهر، وأي حجة لهم في تعصب كل منهم لتصديق نبي دون نبي.

واعلم: أن من يلاحظ حالة الحياة الاجتماعية العمومية اليوم، ويحصل له إلمام باشتباك المصالح التجارية ببعضها، ويعلم مقدار تأثير الروابط الاقتصادية بين الأمم في وجود الاتفاق، والاتحاد بينها، يعلم تبعاً لذلك: أن ذلك التقرب سيكسر من شَرَه التعصبات الدينية الذميمة، ويمحو من بينهم تلك الأحقاد الاعتقادية الموروثة، ولا يمكن للإنسان أن يتخيل نقطة جامعة يرضى بها الكل على السواء، إلا بتصديق كل أمة بأنبياء جاراتها وبكتابها المنزل عليها، فما أبدع الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية.

=

(١) انظره في (ص٢٣٨).

(٢) الحديث حسن. وقد خرجته مطولاً في تعليقي على «الأقوال القويمة» للبقاعي، وسلمته من سنوات للطباعة، يسر الله نشره بخير وعافية.

«يقول تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾[(١)]؛ يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. قال ابن عباس وغيره من السلف: «﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: دين الله»[(٢)]، «وانتصاب صبغة الله، إما على الإغراء كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الزموا][(٣)] ذلك عليكموه، وقال بعضهم: بدلاً من قوله: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾»[(٤)] قال (ش): «وقد ذكر المفسرون أن أصل ذلك، أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء وهو الذي يسمونه المعمودية، ويجعلون ذلك تطهيراً لهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً حقاً، فرد الله عليهم بقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الإسلام وسماه صبغة، استعارة، ومنه قول بعض شعراء همدان:

وكلٌّ أناس لهم صبغةٌ ... وصبغةُ هَمْدان خير الصِّبغْ
صَبَغنا على ذاك أولادنا ... فأكْرِم بصبْغَتنا في الصِّبَغْ»[(٥)]

قال (ك) في قوله تعالى: «﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: تناظروننا في

= ولو أن العقلاء رجعوا إلى كتب الله المنزلة قبل القرآن، وجردوا وحيها الإلٰهي مما افتراه عليه أكثر الأمم من الخرافات وخلطوه به من أفكارهم مما لا ينطبق عليه، لوصلوا إلى الدين الفطري، النقي من الشوائب. ولمّا كان الدين الإسلامي الخالي من الخرافات، ومن تقولات الملحدين والمخدوعين بهذه المثابة؛ صَحَّ أن يكون هو الناسخ لجميع الأديان قبله، وأنه لا ناسخ له على ممر الزمان، وأنه لا يأتي زمان إلا ويغرس الله تعالى فيه غرساً ينفون عنه تقول الضالين، وإلحاد الملحدين، ولن تزال طائفة من أهله قائمة على الحق لا يضرها من خذلها، ولا من افترى عليها، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. قاله العلامة ابن بدران في «جواهر الأفكار» (٣٥٩ ـ ٣٦١).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بمثل ما آمنتم به».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٥) رقم (١٣١٣)، وابن جرير (٢/ ٦٠٥) وحكياه عن جمع من السلف، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٥)، و«المجالسة» (١٤٦٤، ١٤٦٥ ـ بتحقيقي). ولعلي القاري رسالة مفردة في هذه الآية، سماها «صنعة الله في صبغة الله»، ولي عليها حواشٍ وتخريجات من رأس القلم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي الزموا».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٥).

(٥) انظر: «فتح القدير» (١/ ٢٨١).

توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص [الألوهية][(١)] له وحده لا شريك له ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم ومما تعبدون»[(٢)].

الباب الثالث عشر

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢]

قال (ك): «يذكّر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثه الرسول محمداً ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم؛ أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء [سفهاء لا يعقلون][(٣)]، فانتقلوا ببركة رسالته ويُمن سفارته إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ[(٤)] يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]، وذم[(٥)] من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال[(٦)] تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨] قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمداً ﷺ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة، ومقابلتها بذكره وشكره، فقال[(٦)]: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢] قال مجاهد في قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني، قال عبد الله بن وهب عن هشام بن سعد[(٧)] عن

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإلهية». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/١٠٦).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يسفهون بالقول الفرى».

(٤) في الأصل: «رسولاً منهم»!

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وفي»!

(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال».

(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وهو الصواب كما في مصادر التخريج، وهو من رجال =

زيد بن أسلم أن موسى ﷺ قال: «يا رب كيف أشكرك»؟ قال له ربه: «تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني»[(١)]. قال ابن أبي حاتم بسنده إلى مكحول الأزدي «قال: قلت لابن عمر: أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني [يذكرون][(٢)] الله؟ وقد قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت»[(٣)]، وفي الحديث الصحيح[(٤)] يقول الله تعالى: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه**». وقال الإمام أحمد[(٥)] بسنده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ﷻ: يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملإ ذكرتك في ملإ من الملائكة** ـ أو قال: **في ملإ خير منه** ـ **وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة**»، صحيح الإسناد، أخرجه البخاري، وقوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أمر الله بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]»[(٦)].

قال محمد تقي الدين: محل الشاهد في إيراد الآيتين، أن من عبد غير الله تعالى من قبور الصالحين وغيرها لم يشكر الله؛ لأنه بدل نعمة الله ـ وهي القرآن والرسول ـ كفراً، وأحل نفسه وقومه دار البوار. اهـ.

= «الكمال». وفي الأصل: «سعيد»!

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٦١) رقم (١٤٠٢، ١٤٠٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧١١)، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٣٨) لابن أبي الدنيا أيضاً، وفي «الشكر» له بمعناه بالأرقام (٦، ١٢، ٣٩، ١٥١، ١٦٤).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يذكر».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٦٠) رقم (١٣٩٧) **بإسناد ضعيف**، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٣٩) لعبد بن حميد أيضاً.

وورد نحوه عن ابن عباس فيما أوحى الله إلى داود ﷺ، أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٨ و١٣/ ٢٠١ و٥١٢)، وأحمد في «الزهد» (ص٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٨٣)، وهو أشبه.

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٢)، والبخاري (٧٥٣٦).

(٦) من «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٢٤ ـ ١٢٦) بتصرف.

الباب الرابع عشر

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة: ١٦٣ ـ ١٦٧]

قال (ك): «يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد[١] الفرد الصمد، الذي لا إله إلا هو الرحمن[٢] الرحيم، وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة، وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾ و﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢]»[٣] ثم ذكر الدليل على تفرده[٤] بالإلهية

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأحد».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنه الرحمن».

(٣) أخرجه أحمد (٦/٤٦١)، والترمذي (٣٤٧٨)، وأبو داود (١٤٩٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، والدارمي (٣٣٨٩)، والطحاوي في «المشكل» (١٧٨، ١٧٩)، والفريابي (٤٦)، وابن الضريس (١٨٢)، كلاهما في «فضائل القرآن»، والطبراني (٢٤/رقم ٤٤٠، ٤٤١)، وفي «الدعاء» (١١٣)، والبيهقي في «الشعب» (٢٣٨٣)، وفي «الأسماء والصفات» (١٨٤)، والبغوي (١٢٦١)، من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن، **وإسناده ضعيف**، فيه عبيد الله بن أبي زياد وشهر بن حوشب.

وفي الباب عن أبي أمامة عند ابن ماجه (٣٨٥٦)، والطحاوي في «المشكل» (١٧٦، ١٧٧).

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بتفرده».

بخلق السموات والأرض وما [فيها][١]، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته [بقوله تعالى][٢]: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، [وهذه][٣] في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، واختلاف الليل والنهار، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠] تارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا، ثم يتعارضان كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: ٢٧] أي [يزيد في هذا من هذا][٤]، ومن هذا في هذا ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: في تسخير البحر [بحمل][٥] السفن من جانب إلى جانب، [لمعايش][٦] الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى [أولئك][٧]، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾. إلى قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦]. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها[٨]، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦] ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صباً، وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبوراً وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة، وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتباً

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيهما». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذه الأرض».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يزيد من هذا في هذا».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لحمل». (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لمعاش».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هؤلاء».
(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وصغيرها وكبيرها».

كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا والله أعلم، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما [يصرفه تعالى][(١)] ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، [كما قال تعالى][(٢)]:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١]»[(٣)].

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ حجة في توحيد العبادة على كل من يؤمن بالله رباً، فلا يعبد غيره ولا يتوجه إلى غيره بأي وجه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دليل على ذلك؛ لأن الذي خلق السمٰوات والأرض وما ذكر بعدها، وهو الذي يصرفه كيف يشاء، وهو الذي يستحق العبادة وحده، فتوحيد الربوبية دليل على توحيد الإلهية عند كل عاقل رشيد ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

ثم قال (ك) في تفسير الآية الثانية: «يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً، أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه، وفي «الصحيحين»[(٤)] عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**». وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجؤون في جميع أمورهم إليه، ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وإن جميع الأشياء تحت [غلبته

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يصرفه الله تعالى».

(٢) سقط من الأصل، وأثبتّه من «تفسير ابن كثير».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/١٣٨ ـ ١٤٠) بتصرف.

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث ابن مسعود.

وقهره][1] وسلطانه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ [الفجر: ٢٥ ـ ٢٦]، يقول: لو [يعلمون][2] ما يعاينونه هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال، ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبريء المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين[3] يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ويقولون: ﴿سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١] والجن أيضاً تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢] وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٣﴾ [سبأ: ٣٢ ـ ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي: عاينوا عذاب الله

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قهره وغلبته».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «علموا».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كانوا».

وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً، وقال عطاء عن ابن عباس: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، قال: المودة[١]، وكذا قال مجاهد[٢] في رواية ابن أبي نجيح، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ أي: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحد الله وحده بالعبادة وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تذهب وتضمحل، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾»[٣].

يقول مؤلفه محمد تقي الدين عفا الله عنه: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن كل معبود عبد من دون الله أو متبوع اتبع في الباطل، يتبرأ من كل من عبده أو تبعه في الباطل يوم القيامة، فلا تسأل عما يحل بالمشركين في ذلك اليوم من الندامة والحسرات.

الثانية: إن كل من عبد مخلوقاً اتبعه في الباطل، يعذبه الله تعالى عذاباً شديداً، ولا ينفعه متبوعه شيئاً.

الثالثة: إن هذه الأسباب الواقعة في الدنيا بين المشركين وبين معبوديهم من دون الله: كالذبائح والنذور والاستغاثة والاستعاذة والدعاء والتوكل والتوالي على

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٧٨) رقم (١٤٩٢)، وابن جرير (٣/ ٢٧)، والحاكم (٢/ ٢٧٢) وصححه، وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ١٦٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) انظر: «تفسيره» (ص٢١٨)، و«تفسير سفيان» (ص٥٤)، وهو عند سعيد بن منصور (٢٤٠، ٢٤١)، وابن جرير (٣/ ٢٦)، وابن أبي حاتم (١/ رقم ١٤٩٣)، وأبي نعيم (٣/ ٢٨٥)، وعزاه في «الدر» (١/ ١٦٦) إلى وكيع وعبد بن حميد.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٤٢ _ ١٤٤).

ذلك والتحاب فيه والاجتماع عليه، كل ذلك يزول يوم القيامة حين تطلع شمس الحقيقة، ويزول ظلام الكذب.

الرابعة: إن أولئك المشركين المتَّبعين في الباطل لا يستطيعون أن يكتموا ما يصيبهم من الندم والجزع، بل يصرخون أمام الأشهاد، ويقولون: يا ليتنا نعود إلى الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء المعبودين كما تبرؤوا منا وخذلونا.

الخامسة: إن كل من مات وهو يعبد مخلوقاً ـ وإن جلّت مرتبته، وعلا قدرهُ ـ يخلد في النار ولا يخرج منها أبداً، ولا تنفعه صلاة ولا زكاة ولا حج ولا جهاد ولا غير ذلك من الأعمال التي كان يعملها في الدنيا.

الباب الخامس عشر

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]

قال (ك): «عن جماعة من المفسرين الأولين بأسانيدهم إلى [الصُّلْب[1] بن حكيم بن] معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده «أن أعرابياً قال: يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾»[2]. أخرج أحمد والجماعة بأسانيدهم إلى أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا، فقال: **«يا أيها الناس، أربَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»**[3]. وقال الإمام

(١) سقط من الأصل، وأثبتُّه من «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٦).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (ص٧٧) (١٩٠)، وابن مردويه ـ كما في «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٦)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١٤) رقم (١٦٦٧)، وابن جرير (٣/ ٢٢٣)، والدارقطني في «المؤتلف» (٣/ ١٤٣٥) من طريق جرير عن عبدة بن أبي برزة عن الصُّلب به. وزاد الدارقطني بين الصلب وأبيه: «عن رجل من الأنصار». **وإسناده ضعيف**.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٢)، والبخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

أحمد بسنده عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني**»(١)، وقال الإمام أحمد بسنده إلى أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»(٢). قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله لموسى وهارون عليهما السلام ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

والمراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داعٍ ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، وروى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بأسانيدهم عن سلمان الفارسي، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله يستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين**»(٣).

قال الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو الله ﷻ بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»، قالوا: إذاً نكثر، قال: «**الله أكثر**»(٤). أخرج مالك

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٠)، والبخاري (٧٥٣٦) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠)، وابن ماجه (٣٧٩٢)، والحاكم (١/ ٤٩٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٤٢) من حديث أبي هريرة وإسناده حسن، والحديث **صحيح**. انظر: «تغليق التغليق» (٥/ ٣٦٣)، و«تهذيب الكمال» (٣٥/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٨)، وفي «الزهد» (١٥١)، وأبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، ووكيع (٥٠٤)، وهناد (١٣٦١) كلاهما في «الزهد»، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٠ و١٣/ ٣٣٩)، وابن حبان (٨٨٠)، والطبراني (٦١٣٠)، وفي «الدعاء» (٢٠٢)، والحاكم (١/ ٤٩٧، ٥٣٥)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٨١)، وفي «الأسماء والصفات» (٩٠ ـ ٩١) عن سلمان مرفوعاً وموقوفاً، وهو **صحيح**، وروى حماد بن سلمة عن «سلمان أنه قال: أجد في التوراة» وساق نحوه كذا عند البيهقي في «الأسماء والصفات» وتفرد حماد بقوله: «أجد في التوراة»! وفيها نظر!

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٨)، وعبد بن حميد (٩٣٧ ـ المنتخب)، والبزار (٣١٤٣ ـ زوائد)، وأبو يعلى (١٠١٩) في «مسانيدهم»، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٠١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، وأبو نعيم (٦/ ٣١١، ٣١٢)، والبيهقي في «الشعب»، (١١٢٩، ١١٣٠)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٣٤٤)، وابن عبد البر في =

والبخاري ومسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي**»(١). وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**»(٢).

قال البزار بسنده عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: يا ابن آدم، واحدة لك، وواحدة لي، وواحدة فيما بيني وبينك، فأما التي لي: فتعبدني ولا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك: فما عملت من شيء أو من عمل وفيتكه، وأما الذي بيني وبينك: فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة**»(٣). «وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة**». فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا»(٤).

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه بسنده عن عبد الله بن عمرو قال:

= «التمهيد» (٥/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢١/ ٧٥) من حديث أبي سعيد الخدري، **وإسناده جيد** وله شواهد يصح بها.

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٢١٣)، والبخاري (٦٨٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٨) وقال: «رواه أحمد وإسناده حسن»! وحسنه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٢)! **قلت:** فيه عبد الله بن لهيعة، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند الترمذي (٣٤٧٩)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، وابن عدي (٤/ ٣٨٠)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٧٢) وفيه صالح المري متروك.

(٣) أخرجه البزار في «البحر الزخار» (١٣/ ٢١٦) رقم (٦٦٩٣) ـ وهو في «كشف الأستار» (١٩)، وأبو يعلى (٢٧٥٧)، وابن عدي (٤/ ٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (١١١٨٦) من طرق عن صالح المرّي عن الحسن عن أنس **وإسناده ضعيف جداً**، قال البزار: «لا نعلم رواه عن الحسن عن أنس إلا صالح المري، تفرد به»، وبنحوه قال ابن عدي. قلت: صالح المري ضعيف، والحسن مدلس وقد عنعن، وانظر: «مجمع الزوائد» (١/ ٥١).

(٤) أخرجه الطيالسي في «مسنده» (٢٢٦٢) ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٣٩٠٧) وفي إسناده أبو محمد المليكي، قال شيخنا الألباني في «الإرواء» (٤/ ٤٤): «لم أعرفه» قلت: يحتمل أنه عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن عبيد الله بن أبي مليكة؛ فهو من هذه الطبقة، وهو **ضعيف جداً**.

قال النبي ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد». قال عبد الله بن أبي مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي»[(١)]. وفي «مسند الإمام أحمد» و«سنن الترمذي» والنسائي، وابن ماجه[(٢)] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**»[(٣)].

قال محمد تقي الدين: قد تبين لك أيها القارئ والسامع معنى هذه الآية بغاية الوضوح، واستفدنا منها فوائد عظيمة نفعنا الله بها، وأزيد على ذلك فأقول: أيها المشرك الداعي غير الله، الكافر لنعمة الله، ألا تستحيي من الله، ما عذرك في دعائك غير الله، وطلب الحاجات من غير الله، وخضوعك وتملقك وشكواك لأهل القبور، وابتهالك إليهم ليجلبوا لك خيراً، ويدفعوا عنك شراً، وهذا رب العالمين الغني الحميد الرؤوف الرحيم السميع المجيب، يرغّبك في دعائه ويعدك ـ ومن أصدق من الله ـ وعداً بإجابة دعوتك وقضاء حاجتك، بشرط أن تستجيب له بالإيمان به وبرسله وما جاؤوا به، وتفعل ما أمرك به وتجتنب ما نهاك عنه، فانظر إلى هذه السفاهة التي وقعت فيها، والخسران المبين، فوحّد ربك وتوجّه إليه وحده؛ تر العجب العجاب من لطفه وبركاته، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣)، والطبراني في «الدعاء» (٩١٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٨١)، والحاكم (١/ ٤٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٣٩٠٤ ـ ٣٠٩٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٨/ ٢٥٦) **وإسناده ضعيف**، فيه إسحاق بن عبيد الله بن المهاجر مجهول، قاله شيخنا الألباني في «الإرواء» (٩٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٥)، والطيالسي (٢٥٨٣، ٢٥٨٤)، والترمذي (٣٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢)، وابن خزيمة (١٩٠١)، وابن حبان (٢٤٠٧ ـ موارد)، والطبراني في «الدعاء» (١٣١٥، ١٣١٦)، والبيهقي (٨/ ١٦٢)، وأبو نعيم في «فضيلة العادلين» (رقم ٢٣ ـ بتحقيقي)، وعزاه ابن حجر في «النكت الظراف» (١١/ ٩٠) لعبد بن حميد، **والحديث صحيح بطرقه وشواهده**. انظر بعضها في: «فضيلة العادلين» رقم (٢٣، ٢٤) للحافظ أبي نعيم وتعليقي عليه، فقد أطلت النفس في تخريجه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وانظر: «نصب الراية» (٤/ ٦٨).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٦ ـ ١٩٣) بتصرف.

الباب السادس عشر

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١]

«هذا تحريم من الله ﷻ على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مراداً وإنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائدة: ٥] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب[(١)]، وهكذا قال جماعة المفسرين من السلف، وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان. ولم يرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول»[(٢)].

قال (ج) بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: «وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني»[(٣)]، ثم روى (ج) بسنده عن شقيق قال: «تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلِّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام، فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكنني أخاف أن تعاطوا[(٤)] المؤمنات منهن»[(٥)]. وهذا **إسناد صحيح**. ثم روى بسنده إلى عمر،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٩٧) رقم (٢٠٩٥)، وابن جرير (٣/ ٧١٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص٩٤)، والبيهقي (٧/ ١٧١)، وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ٢٥٦) إلى ابن المنذر، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٩٤).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩٦) بتصرف يسير.

(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٣/ ٧١٥ ـ ٧١٦).

(٤) كذا بالأصل، ولعل الصواب: (أن تعافوا اهـ). مصححه. (منه).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ١٥٨)، وعبد الرزاق (١٢٦٧٠) في «مصنفيهما»، وابن جرير في «تفسيره» (٤/ ٣٦٦ رقم ٤٢٢٣ ـ ط شاكر)، وسعيد بن منصور (٧١٦)، والبيهقي (٧/ ١٧٢) في «سننهما» من طريق الصَّلت بن بهرام عن شقيق به، **وإسناده صحيح**، وصححه ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٩٧).

قال: «المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة»[١]. قال: وهذا أصح إسناداً من الأول، ثم روى بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **«نتزوج نساء أهل الكتاب، ولا يتزوَّجون نساءنا»**[٢]. ثم قال: وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه، فالقول به لإجماع الجميع من الأمة [عليه][٣]، كذا قال (ج)[٤]. وقال أبو بكر الخلال بسنده إلى صالح بن أحمد: أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن قول الله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام[٥]. ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ قال السدي: نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمة سوداء، فغضب عليها فلطمها، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها، فقال له: **«ما هي؟»** قال: تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال: **«يا عبد الله هذه مؤمنة»**، فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمته، وكانوا يريدون أن ينكحوا بنات المشركين[٦] وينكحوهم [بناتهم][٧] رغبة في أحسابهم، فأنزل الله[٨]: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾. قال عبد[٩] بن حميد بسنده عن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٧١٥ ـ ٧١٦)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٠٠٥٨)، والبيهقي (٧/ ١٧٢)، وقال ابن كثير (٢/ ٢٩٧): «وهذا أصح إسناداً من الأول».

(٢) لم يعزه السيوطي في «الدر المنثور» إلا لابن جرير، وهو في «تفسيره» (٤/ ٣٦٧ رقم ٤٢٢٤ ـ ط شاكر) **وإسناده ضعيف**، وأشار إلى ذلك ابن كثير (٢/ ٢٩٧) بقوله: «وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه» قلت: هو من رواية الحسن عن جابر، وفي سماعه منه اختلاف بسطه أخونا البحَّاثة النابه الشريف حاتم العوني في كتابه الجيد «المرسل الخفي» (٢/ ٨٥٣ ـ ٨٨٦)، وفي إسناد الحديث أيضاً أشعث بن سوار ضعيف.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «على صحة القول به».

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (٣/ ٧١٦).

(٥) انظر: «أهل الملل والردة» من كتاب «الجامع» للخلال (١/ ٢٤٦) رقم (٤٧٦).

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى المشركين».

(٧) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٨) أخرجه بنحوه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٤٥) من طريق أسباط بن نصر عن السدي عن غزوان أبي مالك عن ابن عباس، **وإسناده ضعيف**، فيه أسباط.

(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عبد الله»!!

عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «**لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن، وأنكحوهن على الدين، فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل**»[(١)(٢)]. وقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[(٣)].

ولمسلم عن جابر مثله[(٤)]، وله عن ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[(٥)]. وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ۚ﴾ أي: لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ [الممتحنة: ١٠]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ﴾ أي: [لرجل][(٦)] مؤمن ولو كان عبداً حبشياً خير من مشرك وإن كان رئيساً سرياً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة. ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ﴾ أي: بشرعه وما أمر به [ونهى عنه][(٧)] ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾»[(٨)].

قال محمد تقي الدين: قد تبين معنى هذه الآية من كلام الأئمة والأحاديث النبوية، وأزيد شيئاً فأقول: **رب فرخ لا يزال أعمى في عشه يعترض ويقول**: لماذا أباح شرعكم أن يتزوج المسلم اليهودية والنصرانية ومنعتم اليهودي والنصراني من تزوج المسلمة؟ فقد قسمتم وفضَّلتم أنفسكم، ولم تنصفوا، وهذا من التعصب!

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (٣٢٨)، وابن ماجه (١٨٥٩)، والبيهقي (٧/ ٨٠) **وإسناده ضعيف**، فيه عبد الرحمٰن بن زياد الإفريقي، وهو ضعيف، وعزاه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (ق١٢٠) للعدني في «مسنده»، وسعيد بن منصور، وذكر له شواهد، وهي قاصرة، ليس فيها سوى جملة التزوج على الدين، وانظر: «الضعيفة» (١٠٦٠) لشيخنا الألباني رحمه الله تعالى.

(٢) في سنده عبد الرحمن الإفريقي، وهو ضعيف (منه).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) في «صحيحيهما».

(٤) أخرجه مسلم (٧١٥)، وأحمد (٣/ ٣٠٢)، والترمذي (١٠٨٦) وغيرهم.

(٥) أخرجه مسلم (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولرجل».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وما نهى عنه».

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

فنقول: على رسلك أيها الفريخ! إن المسلم إذا تزوج يهودية أو نصرانية يؤمن برسلها، ويقدس كتبها، ويحترم دينها؛ لأنه لو طعن في رسلها وكتبها لكفر بالإسلام، أما اليهودي والنصراني، فإنه كافر بمحمد ﷺ وبالقرآن فهو إنما يعيش معها على المداهنة والخداع لو تزوجها، ومن سيئات الاستعمار الفرنسي، بل من سيئات المغاربة وضعف دينهم، أنهم كانوا في زمان الاستعمار يزوِّجون اليهود والنصارى بناتهم، وهو واقع، وإن كان نادراً إلى زماننا هذا، حتى بعد الاستقلال، وهذا خزي ينفردون به من دون الشعوب الإسلامية(١)، فنعوذ بالله من الكفر والضلال. أما الحديث الذي في سنده عبد الرحمن الإفريقي وهو ضعيف، فلا يضره ذلك لأن معناه صحيح تشهد له الأدلة والأصول، وأما قول عمر رضي الله عنه في حكايته مع حذيفة: «أخاف أن تعاطوا المؤمنات منهن»(٢)، فالمراد به أخاف إن أكثرتم من تزوج اليهوديات والنصرانيات أن تبقى المؤمنات ضائعات بلا زواج، ويدل على هذا رواية «أخاف أن تزهدوا في المسلمات»(٣).

الباب السابع عشر

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ

---

(١) رأيته ـ يا للأسف ـ كثيراً بين مسلمي أندونيسيا هذه الآيام، ولا قوة إلا بالله!

(٢) سبق تخريجه.

(٣) هذا من كلام ابن جرير في «التفسير» (٣/٧١٦ ـ ط هجر) قال بعد إسناده منع عمر لطلحة وحذيفة نكاح اليهودية والنصرانية، قال: «حَذَراً من أن يقتدي بهما الناسُ في ذلك، فيزهدوا في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني، فأمر بتخليتهما».

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤ ـ ٢٥٨]

قال (ك): «يأمر تعالى بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ أي: لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادى بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته، بل ولا [نسبه][(١)]، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ أي: لا تنفعهم شفاعة الشافعين[(٢)] ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مبتدأ محصور في خبره[(٣)]، أي: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافراً، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون»[(٤)]، قال (ك): «هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله، قال الإمام أحمد بسنده إلى أُبيّ بن كعب أن النبي ﷺ سأله: «**أي آية في كتاب الله أعظم؟**» قال: «الله ورسوله أعلم»، فرددها مراراً ثم قال أبي: «آية الكرسي»، قال: «**ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده، إن لها لساناً وشفتين، تقدس الملك عند ساق العرش**»[(٥)]، وأخرجه

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نسابته».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «خبر»!
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٨٥) رقم (٢٥٦٧).
(٥) أخرجه أحمد وابنه عبد الله (٥/ ١٤١)، وعبد الرزاق (٦٠٠١)، وعبد بن حميد (١٧٨)، والطيالسي (٥٥٠)، وأبو داود (١٤٦٠)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٨٤٧)، والحاكم (٣/ ٣٠٤)، والطبراني (٥٢٦) **وإسناده صحيح**، وأصله في «الصحيحين» كما سيأتي.

مسلم به[١]، وليس عنده زيادة «**نفسي بيده**»[٢] إلخ، وقال البخاري «في فضائل القرآن» وفي كتاب «الوكالة»، وفي «صفة إبليس» من «صحيحه»[٣] عن أبي هريرة قال:

«وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني، فإني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟**» قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، قال: «**أما أنه كذبك وسيعود**»: فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله ﷺ: «**إنه سيعود**» فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟**» قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله، قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**»، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلّمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرك البارحة؟**» قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: «**ما هي؟**» قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، وقال لي:

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨١٠). (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٠).

(٣) ذكره البخاري معلقاً الأرقام (٢٣١١، ٣٢٧٥، ٥٠١٠) ووصله في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٥٨، ٩٥٩)، وفي «فضائل القرآن» (٥٢)، وابن خزيمة ـ كما «التغليق» (٣/ ٢٩٦)، و«الترغيب والترهيب» (١/ ٤٢٠) ـ والبغوي (١١٩٦)، وفي «التفسير» (١/ ٣٥٨)، والبيهقي (٧/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، وأبو نعيم (ص٣١٣، ٥٢٦) كلاهما في «الدلائل»، وعزاه ابن حجر في «الفتح» (٤/ ٤٨٨)، و«هدي الساري» (ص٤٢) لأبي بكر الإسماعيلي وأبي نعيم، وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ٣٢٠)، وفي «الخصائص الكبرى» (٢/ ٩٥) لابن مردويه، وهو **صحيح**.

لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: «**أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟**» قلت: لا، قال: «**ذاك شيطان**». كذا رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم»[(١)].

قال محمد تقي الدين: وصيغة الجزم: أن يقول البخاري قال فلان عن فلان، أو ذكر فلان، وتقابلها صيغة التمريض، وهي: يُذكر ويُروى، وحتى هذه ليست دائماً صيغة تمريض عند البخاري، فقد حقق الحافظ صحة الحديث المعبَّر عنه بها في بعض المواضع. اهـ.

ثم ذكر (ك) أحاديث كثيرة في فضل آية الكرسي، وأن أُبيّ بن كعب وقع له مع صبي مثل ما وقع لأبي هريرة[(٢)]، ثم روى حديثاً للترمذي وأبي داود أن هذه الآية تشتمل على اسم الله الأعظم[(٣)]، ثم قال (ك): «روى ابن حبان في «صحيحه» وغيره عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**»[(٤)]. قال (ك): «وإسناده

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤).

(٢) يشير إلى ما أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٧، ٢٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢)، وابن حبان (٧٨١ ـ ط الحوت)، والحارث بن أبي أسامة (٢/ ق ١٢٧ ـ بغية الباحث)، والطبراني (٥٤١)، والحاكم (١/ ٥٦١ ـ ٥٦٢)، والبغوي (١١٩٧)، والبيهقي (٧/ ١٠٨ ـ ١٠٩)، وأبو نعيم (ص٥٢٥) كلاهما في «الدلائل» **وإسناده صحيح**، وصححه المنذري في «الترغيب» (١/ ٣٢٢) وهو في «صحيحه» (٦٥٨) لشيخنا الألباني، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦).

(٣) مضى تخريجه.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٩٩٢٨)، وابن شاهين في «الأفراد» رقم (٣٤)، والروياني في «مسنده» رقم (١٢٦٨)، وابن حبان في «الصلاة» المفرد ـ كما في «نتائج الأفكار» (٢/ ٢٨٠) ـ، والطبراني (٧٥٣٢)، وفي «الأوسط» (٨٠٦٨) وفي «مسند الشاميين» (٨٢٤)، وفي «الدعاء» (٦٧٥)، والشجري في «أماليه» (١/ ١١١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (١٢١)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٣٥٤) من طرق عن محمد بن حمير عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي أمامة رفعه، وهو **صحيح**، وأعل بتفرد ابن حمير به! وصححه ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ٢٧٨ ـ ٢٨٠)، وفي «النكت على ابن الصلاح» (٢/ ٨٤٩)، وأنكر الضياء المقدسي على ابن الجوزي إيراده له في «الموضوعات»، وقال محمد بن عبد الهادي: «لم يصب أبو الفرج، والحديث صحيح»، وانظر: «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٣٠٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٧٢).

صحيح على شرط البخاري وقد زعم أبو الفرج ابن الجوزي[١] أنه حديث موضوع والله أعلم»[٢]. «وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة: فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً القيم لغيره، وكان عمر يقرأ **(القيام)**[٣] فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها[٤] ولا قوام لها بدون أمره كقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥] وقوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى[٥] عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سِنَة ولا نوم، فقوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ﴾ أي: لا تغلبه سنة، وهو الوسن، والنعاس، ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوۡمٞ﴾ لأنه أقوى من السِّنَةِ، وفي «الصحيح»[٦] عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات: فقال: **«إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**».

«وقوله[٧]: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ كقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦] وكقوله: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه ﷻ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه[٨] له في الشفاعة، كما في حديث[٩]: **«آتي تحت العرش، فأخر ساجداً، فيدعني ما شاء أن**

---

(١) انظر: «الموضوعات» (١/ ٢٤٤) وما سبق في التخريج.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٧).

(٣) وهكذا قرأها ابنه عبد الله وابن مسعود وعلقمة والنخعي والأعمش والمطوعي، انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٢٧٧)، و«الدر المصون» (١/ ٦١٣)، وقال القرطبي (٢/ ٢٧٢): «ولا خلاف بين أهل اللغة في أن ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ أعرف عند العرب، وأصحُّ بناءً، وأثبت عِلَّةً».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عنهما»!

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخفى».

(٦) هو في «صحيح مسلم» (١٧٩).

(٧) قبلها في الأصل: «وقال عبد الرزاق» ولا معنى لها!

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أن يأذن».

(٩) أخرجه أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (٣٢٣) في «صحيحيهما».

يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع، قال: فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة»، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤] وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله ﷻ وأطلعه عليه[١]، لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم[٢].

قال محمد تقي الدين: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال بعض المفسرين من السلف: كرسيه: علمه[٣]، وقال أكثر المفسرين: إن لله كرسياً هو أصغر من العرش[٤]، وجاءت الأخبار التي رواها المفسرون وأهل الحديث، أن الكرسي في عظمته لو جمعت السمٰوات السبع وقوبلت بالكرسي لكانت كحلقة ملقاة في فلاة، ونحن نؤمن بهذا، ونترك تفسيره إلى الله تعالى، وهذه الأمور لا يطلب من مؤمن معرفة تفاصيلها إلا ما ورد عن النبي ﷺ، وإنما يطلب منه الإيمان بها.

قال (ك): «﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يثقله ولا يكرثه حفظ السمٰوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم،

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويحتمل أن يكون المراد».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله عليه كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾».

(٣) روي عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير. انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٤١)، و«تفسير ابن جرير» (٤/ ٥٣٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٩٠)، و«الأسماء والصفات» (ص٢٣٣)، و«الدر المنثور» (١/ ٣٢٧).

(٤) كالسدي والضحاك ومسلم البطين وأبي موسى. انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٤١)، و«تفسير ابن جرير» (٤/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩)، و«المجالسة» (رقم ٢١ ـ بتحقيقي)، و«العظمة» (٢٤٧)، و«رد الدارمي على بشر المريسي» (ص٦٧ ـ ٧٤)، و«العرش» (٦٠). والأدلة على هذا لائحة، وأشار المصنف إليها، وسيأتي تخريج ذلك لاحقاً، والله الموفق، لا ربَّ سواه.

لا إله غيره ولا رب سواه، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ كقوله: هو ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح، الأجود فيها طريقة السلف الصالح، أمرّوها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه».

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي، دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره[١] على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار[٢]، وإن كان حكمها عاماً، وقال ابن جرير، عن ابن عباس قال: «كانت المرأة تكون مقلاتاً[٣] فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده»، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾. وقد رواه أبو داود والنسائي جميعاً عن بُنْدار به[٤]، وقال محمد بن إسحاق: عن ابن عباس قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصين[٥] كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك[٦]، رواه ابن

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أحد».

(٢) انظر ذلك مفصلاً عند: ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٣)، وابن جرير (٤/ ٥٥٠)، و«الجزء فيه تفسير القرآن ليحيى بن يمان...» رقم (١٣٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (٥٩)، و«النواسخ» (ص٢١٨) لابن الجوزي.

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مقلاة».

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٨٢)، والنسائي في «تفسيره» رقم (٦٨، ٦٩)، وابن حبان (١٤٠)، والطحاوي في «المشكل» (٧/ ٢٧٦٤ و١١/ ٤٢٧٩، ٤٢٨٠ و١٥/ ٦١١٤)، والنحاس في «معاني القرآن» (١/ ١٦٦، ١٦٧)، وابن أبي حاتم (٢/رقم ٢٦٠٩)، وابن جرير (٣/ ١٠) في «تفسيرهما»، والخطابي في «غريب الحديث» (٣/ ٨٠، ٨١)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (٤٢٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٥٢)، والبيهقي (٩/ ١٨٦)، والضياء في «المختارة» (١٠/رقم ٦٤، ٦٥) من حديث ابن عباس، **وإسناده صحيح**.

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: ومصادر التخريج، وفي الأصل: «الحصيني»!

(٦) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٣/ ١٠) بسندٍ **مسلسل بالعلل**، فيه محمد بن أبي محمد شيخ ابن إسحاق مجهول، وابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وفيه سلمة بن الفضل =

جرير، وروى السدي نحو ذلك، وزاد «وكانا قد تنصرا على أيدي تجار قدموا من الشام يحملون زيتاً[١] فلما عزما على الذهاب معهم، أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية»، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عوف، أخبرنا شريك عن أبي هلال عن أُسَقّ[٢] قال: كنت في دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب، فكان يعرض عليَّ الإسلامَ، فآبى، فيقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾. ويقول: يا أُسَقّ[٢] لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين[٣].

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل، إذا بذلوا الجزية، وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول[٤]، ولم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، وهذا معنى [﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾][٥]، قال الله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣]. وفي «الصحيح»[٦]: «**عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل**[٧]**، وتصلح أعمالهم وسرائرهم، فيكونون من أهل**

= الأبرش، صدوق كثير الخطأ، وشيخ ابن جرير محمد بن حميد متهم.
وأخرج نحوه سعيد بن منصور في «سننه» (٤٢٩) عن مجاهد مرسلاً، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٢٠) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «زبيباً»!!
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، و«تفسير ابن أبي حاتم» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «أسبق»!!
(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٤٩٣) رقم (٢٦١٠) ولوين في «جزئه» رقم (٤٦) **وفي إسناده لين**، وانظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٤٥٥).
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بعدها: «فيه».
(٥) بدل ما بين المعقوفتين في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإكراه».
(٦) أخرجه البخاري (٣٠١٠) من حديث أبي هريرة.
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعني: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في =

الجنة». فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد[١]، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «**أسلم**» قال: «إني أجدني كارهاً»، قال: «**وإن كنت كارهاً**» فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له، بل هي كارهة، فقال له: «**أسلم وإن كنت كارهاً**»، فإن الله [يرزقك][٢] حسن النية والإخلاص، وقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبدون من دون الله ووحد الله وحده، وشهد أن لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريقة المثلى، والصراط المستقيم»[٣].

قال محمد تقي الدين: قال علماء التوحيد: الطاغوت: مأخوذ من الطغيان، والطغيان مجاوزة الحد في الكفر والضلال والإضلال، ومنه الطاغوت، جاء في «لسان العرب»[٤]: «قال الشعبي وعطاء ومجاهد: «الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، والكاهن، وكل رأس في الضلال، قد يكون واحداً»؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠]، وقد يكون جَمْعاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾».

قال محمد تقي الدين: قال علماء التوحيد: الطواغيت كثيرة، أولهم إبليس لعنه الله، ومن دعا الناس إلى عبادته أو عبادة غيره، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والكاهن، والساحر، ويجب على كل مؤمن أن يكفر بجميع الطواغيت، فإن القلب مثل الإناء، فلا بدّ من تطهيره قبل حلول الإيمان فيه، فإن الإيمان بالطاغوت نجاسة تجب إزالتها من القلب، ليمتلئ بالإيمان بالله تعالى، وسيأتي إن شاء الله في سورة النساء زيادة على هذا.

= الوثاق والأغلال والقيود والأكبال ثم بعد ذلك يسلمون».

(١) أخرجه أحمد (٣/١٠٩، ١٨١) ومن طريقه الضياء في «المختارة» (١٩٩٠، ١٩٩١): حدثنا يحيى عن حميد عن أنس، **وإسناده صحيح على شرط الشيخين**.
وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٣٧٦٥، ٣٨٧٩)، والضياء (١٩٨٩، ١٩٩٢) وغيرهما.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سيرزقك».

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/٤٤٤ ـ ٤٤٦) بتصرف يسير.

(٤) (١٥/٩ ـ طغي).

ثم قال (ﷺ): «وقوله: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، هي[١] في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قويٌّ شديد، ولهذا قال: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ الآية».

قال مجاهد: العروة الوثقى: يعني الإيمان[٢]، وقال السدي: هو الإسلام[٣]، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني لا إله إلا الله[٤]، وعن أنس بن مالك: العروة الوثقى: القرآن[٥]، وعن سالم بن أبي الجعد، قال: هو الحب في الله، والبغض في الله[٦]، وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها، وقال معاذ بن جبل في قوله: «﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾[٧] دون دخول الجنة»[٨].

«وقال الإمام أحمد بسنده إلى محمد بن قيس بن عبادة قال: «كنت في المسجد فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل[٩] فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثته فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت[١٠] المسجد قالوا: كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك[١١]، إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه، رأيت كأني[١٢] في روضة

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فهي».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦)، وابن جرير (٤/ ٥٦٠)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١/ ٣٣٠)، وهو في «تفسير مجاهد» (١/ ٤٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦)، وابن جرير (٤/ ٥٦٠).

(٤) علقه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦) عن جبير، ووصله عنه وعن الضحاك: ابن جرير (٤/ ٥٦٠ ـ ٥٦١)، ووصله عن سعيد أيضاً: الطبراني في «الدعاء» رقم (١٥٦٦، ١٥٦٧). وانظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٢٨٢).

(٥) علقه عنه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦) رقم (٢٦٢٦).

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا انقطاع لها».

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧) رقم (٢٦٢٨)، **وإسناده ضعيف**.

(٩) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.

(١٠) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مثل».

(١١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لِمَ».

(١٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كأنني».

خضراء، قال ابن عون[١]: فذكر من خضرتها وسعتها، وفي وسطها عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي: اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع. فجاءني منصف ـ قال ابن عون[١]: هو الوصيف ـ فرفع ثيابي من خلفي فقال: اصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، واستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، فقال: **«أما الروضة، فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت»**[٢]، قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجاه في «الصحيحين»».

ثم قال (ﷀ): «يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي البين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان[٣]، يزين[٤] لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم، ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ولهذا وحد تعالى لفظ النور، وجمع الظلمات لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[٥] قال (ﷀ): «هذا الذي حاج إبراهيم في ربه ـ وهو ملك بابل ـ نمرود بن كنعان، قال مجاهد: «ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان، وكافران، المؤمنان: سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمرود، وبخت نصر»[٦]، ومعنى قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي:

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عوف»!
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٢)، والبخاري (٣٨١٣)، ومسلم (٦٤٨٤).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أولياؤهم الشيطان».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تزين». (٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٥٠).
(٦) أخرجه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٦/ ١٩٠) عن مجاهد قوله باللفظ نفسه، وعزاه ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٨٥)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٥٧) إلى الزبير بن بكار في «النسب» ـ وأوردا إسناده ـ من قول سفيان، وعزاه ابن حجر إلى وكيع في «تفسيره» من قول مجاهد، وهو عند ابن أبي شيبة في «مصنفه» في كتاب (الفضائل) (٧/ ٤٦٩)، وأنهاه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٨٩)، وابن بشران في «أماليه» ـ ومن طريقه ابن عساكر (١٧/ ٣٣٦) ـ **بسند ضعيف** عن معاوية، قال: «ملك الأرض أربعة: سليمان بن داود النّبي، وذو القرنين، ورجل من أهل حُلوان، ورجل آخر، فقيل له: الخضر؟ قالا: لا». =

بقلبك يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ أي: وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون[(١)] إلٰه غيره، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] وما حمله على[(٢)] الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته في الملك[(٣)]، وكان[(٤)] طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه. فقال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بدّ لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته[(٥)] لا شريك له، فعند ذلك قال الحاج وهو نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة، والظاهر ـ والله أعلم ـ، أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم، ولا في معناه؛ لأنه مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه فاعل لذلك، وإنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ

= وأسنده وباللفظ المذكور: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٦، ٣٣٧) ـ بإسنادين متفرقين ـ عن سفيان الثوري، وسعيد بن بشير قولهما، وهو الأشبه.

وأخرج أبو سعيد النقاش في «فنون العجائب» (رقم ٨٧ ـ بتحقيقي) **بسند فيه كذاب** ـ وهو محمد بن السائب الكلبي، وابنه هشام، قال عنه الدارقطني وغيره: متروك. انظر لهما ـ على الترتيب ـ: «الميزان» (٣/ ٥٥٦ و٤/ ٣٠٤) ـ عن ابن عباس قال: «لم يملك الدنيا كلها إلا أربعة رهط: مؤمنان وكافران، وكان المؤمنان: ذو القرنين، وسليمان بن داود ﷺ، والكافران: نمرود بن كنعان، الذي بنى المجدل بأرض بابل، والضحاك بن عدنان، وتقول الأزد منهم».

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثمَّ».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذا».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكأنه».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وحده».

﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي: إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود، في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما تدعي، [تحيي وتميت][1]، فَأْتِ بها من المغرب، فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت أي أخرس، فلا يتكلم وقامت عليه الحجة، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦][2].

فوائد هذا الباب:

الفائدة الأولى: قال محمد تقي الدين: كل من أشرك بالله وعبد غيره بدعاء، أو ذبح، أو نذر، أو استغاثة، أو استعانة، أو استعاذة، فيما لا يقدر عليه إلا الله، يأتي يوم القيامة مفلساً يائساً لا ينفعه أحد من الذين كان يتعلق بهم في الدنيا كشيوخ الطريقة، ولا يشفع له أحد؛ لأن المشرك بالله لا تنفعه شفاعة الشافعين، وإن كان هذا المشرك ابناً لنبي كابن نوح، أو أباً لنبي كآزر أبي إبراهيم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

الفائدة الثانية: قول عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ولم يقل: «الظالمون هم الكافرون»[3]، قال **محمد تقي الدين: الظلم نوعان: الظلم الأكبر والظلم الأصغر، فالظلم الأكبر:** أن تصرف حق الله وهو العبادة إلى غير الله، وذلك هو الشرك الأكبر، فكل من ارتكب الظلم الأكبر، فهو من الكافرين، **وأما الظلم الأصغر** فهو أكل أموال الناس بالباطل، والاعتداء عليهم في أنفسهم وأعراضهم، فإن صاحب هذا لا يكون من الكافرين، إلا إذا استحل ذلك، ولو قال الله تعالى: والظالمون هم الكافرون، لكان كل ظالم كافراً، ولو كان ظلمه صغيراً.

الفائدة الثالثة: قد رأيت من فضائلها ما فيه من الكفاية، وعلمت أنها أعظم آية في القرآن وهي كما قال ابن كثير: «تشتمل على عشر جمل»[4].

---

(١) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥١). (٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٨ ـ ٤٤٤) والجمل المذكورة الآتية منه بتصرف من المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ.

الجملة الأولى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود في الأرض ولا في السماء سواه، ومن عبد غيره صار من أعدائه، استوجب العذاب الدائم في الدنيا والآخرة، إن لم يتب من شركه.

الجملة الثانية: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وحياته سبحانه هي الحياة الكاملة التي لم توهب ولم تعط ولم تؤخذ من غيره، وليس لها بداية ولا نهاية، وليس لها حدود، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾، وفي قراءة عمر رضي الله عنه: **(القيام)**[1]، هو الذي يقوم به كل ما سواه من المخلوقين، وبدونه لا يقوم ولا يوجد، ولا يحفظ عليه وجوده إلا بالحي القيوم.

الجملة الثالثة: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وقد بين (ك) معنى السِّنة ومعنى النوم، وهما من لوازم البشر، ومن الدلائل على نقصهم، ولذلك لا يستطيع أحد منهم أن يدبر شؤون العالم، وقد علم الله سبحانه أن بعض البشر سيزعمون أنه يوجد رجل في كل زمان يسمى (القطب الفرد) ينوب عن الله تعالى في جميع مملكته ويدبر شؤونها، فلا تتحرك ذرة في العالم إلا بإذنه، انظر تفاصيل خبره في كتابي «الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية»[2] فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فكيف يستطيع هذا (القطب) المزعوم أن يدبر شؤون العالم عند النوم، ونفي السنة والنوم، من نفي النقائص عن الحي القيوم.

الجملة الرابعة: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ملكاً وخلقاً وعبيداً متصرفاً فيهم، والمملوك المخلوق العبد، لا يكون إلهاً معبوداً أبداً، ففيه ردّ على المشركين.

الجملة الخامسة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، نفي للشفاعة الشركية التي يشفع الشافع فيها لدى المشفوع عنده؛ لأنه قريب، وله حق عليه كالوالد عند ولده، أو بالعكس، أو لأنه صديقه، أو قائد جيشه، أو وزيره الأعظم الذي يعينه على تدبير ملكه، والمشركون الجاهلون يظنون، بل يعتقدون أن شفاعة الشفعاء عند الله من هذا القبيل، وتعالى الله أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه[3].

---

(١) انظر ما قدمناه عنها (ص٢٢٤). (٢) انظر منه (ص٤٧ ـ ٥٢، ط. الأولى).

(٣) فصل ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» (١/٣٤١ ـ ٣٤٣) في موضوع الشفاعة، وتكلم عن حال (الضالين) الذين أكثر المصنف من ذكرهم وردّ عليهم، وأسوق لك ـ أخي القارئ ـ كلام ابن القيم عنهم، لتعلم أن المصنف مسبوق بأحكامه ومواقفه الآتية، =

....

= وحتى لا تتهم المصنف كَلَّلَهُ بالشدّة وعدم اللين، أو الغلو والتعصب وعدم الإنصاف، قال مبيّناً جهل أبناء زمانه في (الشفاعة): «ومن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه وليّاً أو شفيعاً: أنه يشفع له، وينفعه عند الله. كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم. ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله. كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ؟﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وبقي فصل ثالث؛ وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟»».

فهذه ثلاثة أصول؛ تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه. ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله. ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله. فالله تعالى: لا يغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة، كما في الآية الأخرى ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨]، وكما في آية البقرة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ترى المشرك يكذب حالُه وعملُه قولَه، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله، ولا نسوّيهم بالله، ثم يغضب لهم ولحرماتهم ـ إذا انتهكت ـ أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم، ويتبشبش به، سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهمُ البابُ بين الله وبين عباده. فإنك ترى المشرك يفرح ويُسَرُّ وَيَحِنُّ قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له الله وحده، وَجَرَّدْت توحيدَه لحقتْه وَحْشَة، وضيق، وحرج ورماك بنقص الإلٰهية التي له، وربما عاداك.

رأينا والله منهم هذا عياناً، ورمونا بعداوتهم، وبغوا لنا الغوائل، والله مخزيهم في الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله. وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ، لما قال لهم: «إن المسيح عبد الله» قالوا: تنقصت المسيح وَعِبْته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثاناً تعبد، ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلَّقَ بها المشركون جميعاً، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون الله وليّاً، أو شفيعاً. فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ =

الجملة السادسة: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: هو محيط علماً بجميع أمور العباد من الأزل إلى الأبد، ولا يتصف أحد بهذه الصفة سواه.

الجملة السابعة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، أي: كل من سوى الله تعالى من المخلوقين لا يعلم من علم الله تعالى إلا ما علمه الله، وما سوى ذلك يخفى عليه، ويدعي كثير من المشركين في هذا الزمان أن النبي ﷺ يعلم كل ما يعلمه الله، وهذا كفر بإجماع المسلمين، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ في (سورة الأنعام) بيانه، ويزعمون أن آلهتهم التي يسمونها بالأولياء تعلم الغيب، ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

الجملة الثامنة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، قد تقدم بيان معناها بما لا يحتاج إلى مزيد.

الجملة التاسعة: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾، كل من وكل إليه حفظ شيء من

= ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربعة: إما مَالِكٌ لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظَهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفَى الْمِلْكَ، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومَوَادِّهِ لمن عَقَلَهَا. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها. ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يُعْقِبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناولُ القرآن لهم كتناوله لأولئك».

قال أبو عبيدة: فصل الهلالي ـ رحمه الله تعالى ـ في تناول القرآن لمن يفعل الشرك تحت الآيات التي تخصهم على وجه ظاهر قويّ، وصرح فيه بضرورة إقامة الحجة، وقرر أنه لا يلزم كل من وقع في الشرك أن يكون مشركاً، فليكن ذلك على بالك في جميع تقريراته الآتية، والله الهادي.

المخلوقين يثقل عليه، ويحتاج فيه إلى اهتمام وتعب، والله تعالى يحفظ السموات والأرض، يحفظ عليهما وجودهما، ويمدهما بكل ما تحتاجان إليه، ويحتاج إليه من فيهما دون أن يلحقه في ذلك أي مشقة أو تعب.

الجملة العاشرة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وتقدم معنى العلو الثابت له تعالى، والعظيم الذي لا يماثله أحد في عظمته.

الفائدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾. اعلم أن من يدين بالإكراه لا ينتفع بذلك الدين؛ لأنه لم يؤمن به، ولا ينتفع أهل ذلك الدين به، بل يعيش بينهم جاسوساً يتربص بهم الدوائر، أما حديث: «**عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل**»(١). فهم لم يقودوهم ليدخلوهم في دين الإسلام كرهاً، وإنما قادوهم أسارى بأمر الله تعالى، وتطبيقاً لقواعد الحرب، فلما دخل أولئك الأسارى إلى بلاد الإسلام، رأوا نور الإسلام وأخلاقه وفضله، فانشرحت صدورهم، ودخلوا فيه باختيارهم، وكذلك حديث ثمامة بن أثال(٢): حين قبضت عليه خيل النبي ﷺ، وربط إلى سارية من سواري المسجد ثلاثة أيام، فأطلق النبي ﷺ سراحه، ولم يكرهه على الإسلام، ولكن ما شاهده في المسجد من نور الإسلام وأخلاق الإسلام، أخذ بمجامع قلبه، فخرج إلى حائط من حوائط المدينة، فاغتسل، ورجع إلى النبي ﷺ، وقال له: والله لقد جئت هذا البلد وما على وجه الأرض بلد أبغض إليَّ منه، والآن ما على وجه الأرض بلد أحب إليَّ منه، وقد جئتك وما على وجه الأرض أبغض إليَّ منك، والآن ما على وجه الأرض أحد أحب إليّ منك، فمرني بأمرك؟» الحديث. **والمسلمون في هذا الزمان هم أكبر مانع لغيرهم من الدخول في الإسلام، لعدم تمسكهم بالإسلام، وانحرافهم عن جادته، وبعدهم عن أخلاقه**، حكى لي العالم السلفي عبد الكريم الصاعقة(٣) البغدادي رحمه الله: أنه كان جالساً في سطح المسجد، وهو يرى صاحب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) هو الشيخ العالم العلامة، بقية السلف، ومحدث بغداد، والمسند الممجد، صاعقة أوانه في حفظه واتباعه وإتقانه، الثقة الشيخ السيد: عبد الكريم بن السيد عباس بن ياس آل الوزير الحسني نسباً، اليماني أصلاً، البغدادي الأزجي الشيخلي مولداً، السلفي الأثري الرباني معتقداً ومنهجاً ومسلكاً، ولد سنة ١٢٨٥هـ. للشيخ سليمان بن سحمان رسالة أرسلها له تراها في «الدرر السنية» (٨/ ٢٦٦)، ومنها يظهر معتقد شيخنا الصاعقة. =

دكان من تجار الصابئة يسمع القرآن من الإذاعة، فجاءه شخص من المحسوبين على الإسلام، فقال له: لماذا تسمع القرآن وأنت صابئ؟ فقال له: لأني أحبه. فقال: إذا كنت تحب القرآن فما يمنعك من الإسلام؟ فقال: منعني من الإسلام أنت وأمثالك؛ يعني: أنه يكره أن يدخل في دين الإسلام وينضم إلى أدعياء الإسلام، لفساد أخلاقهم، وعدم تطبيقهم لأحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه.

الفائدة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية، اعلم أن الجهال وأصحاب الأغراض الفاسدة من زنادقة المتصوفة وجهلتهم حرّفوا معنى ولي الله، فزعموا أن ولي الله هو الذي ينظر بعين بصيرته إلى الحقيقة، والحقيقة عندهم هي أصل الدين، والشريعة إنما هي ظواهر شرعت للعامة، أما الولي فلا يتقيد بها، فيتبع الحقيقة، قالوا: وكثيراً ما تكون الحقيقة مخالفة للشريعة، كالخلوة بالأجنبية مثلاً، فإنهم يحلّونها للولي، وإن حرمها الشرع، ويضربون لذلك مثلاً بقصة موسى والخضر، ويزعمون أن الخضر كان مطلعاً على الحقيقة؛ لأنه كان من الأولياء، وموسى لم يكن مطلعاً على الحقيقة لأنه كان رسولاً نبياً يتبع ما يوحى إليه، فخرق السفينة وقتل الغلام كان محرماً في شريعة موسى من الذنوب الكبائر، ولكن الخضر كان يعرف الحقيقة، وأن ذلك ليس محرماً، بل فيه خير وصلاح، فلما أخبر الخضر موسى بحقيقة ذلك، سلم له أمره، ولم يعترض عليه[1]، فكذلك ينبغي للمسلمين إذا رأوا ولياً معروفاً عند العامة بالولاية، أو

= توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٣٧٩هـ ـ الموافق ١٩٥٩/١٢/٧م، على إثر ورم في رأسه، أدى فيما بعد إلى وفاته. له كتب كثيرة، منها: «أصول الحديث»، و«رسالة في مختلف الحديث» و«رسالة في أصول الفقه»، و«معارضة الحنفية لأقوال خير البرية»، و«نظرات في التفسير»، كشف فيه عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات، والتفاسير الباطنية والصوفية. حدثني تلميذه الشيخ صبحي السامرائي أنه كان يستظهر «الكتب الستة»، وكان الهلالي يخطب في جامع الدهان قرب محلة الأعظمية برصافة بغداد، وكان الصاعقة يحضر عنده الجمع والعيدين، وهو من أعز أقرانه وإخوانه، وصار هذا المسجد فيما بعد منطلقاً لشرارة السنة، ونصرة دين الحق.

(١) وقع لبعض الجهلة: إن من الأولياء مَن يسوغُ له الخروج عن الشريعة النبويَّة؛ كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى، وإنه قد يكون للولي من المكاشفة والمخاطبة ما يستغني به عن متابعة الرسول في عموم أحواله أو بعضها!!

وهذا من أعظم الجهالات والضلالات، بل من أعظم أنواع النفاق والإلحاد والكفر؛ فإنه قد عُلِم بالاضطرار من دين الإسلام أن رسالة محمد بن عبد الله ﷺ لجميع الناس؛ =

= عربهم وعجمهم، وملوكهم وزهادهم، وعلمائهم وعامَّتهم، بل لعامة الثقلين؛ الجن والإنس، وأنها باقية دائمة إلى يوم القيامة، وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين وما سنَّه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات، بل لو كان الأنبياء المتقدِّمون قبله أحياء؛ لوجب عليهم متابعته ومطاوعته؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس: «ما بَعَثَ الله نبيّاً إلا أخذ عليه الميثاق؛ لئن بُعِث محمدٌ وهُو حيٌّ؛ ليؤمننَّ به ولينصرَنَّه، وأمره بأخذ الميثاق على أمَّته لئن بُعِثَ محمدٌ وهو حيٌّ؛ ليؤمنُنَّ به ولينصرُنَّه».

بل قد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن المسيح عيسى ابن مريم إذا نزل من السماء؛ فإنه يكون متَّبعاً لشريعة محمد ﷺ، فإذا كان ﷺ يجب اتباعه ونصره على من يدركه من الأنبياء؛ فكيف بمن دونهم؟

بل مما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز لمن بلغته دعوته أن يتَّبع شريعة رسولٍ غيرِه؛ كموسى وعيسى، فإذا لم يَجُزِ الخروجُ عن شريعته إلى شريعة رسولٍ؛ فكيف بالخروج عنه وعن الرسل؟!

قال الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٦ ـ ١٣٧].

ومما يبيِّن الغلطَ الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا أوجب الله على الخضر متابعته وطاعته، بل قد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أن الخضر قال له: **«يا موسى! إني على علم من علم الله علَّمنيهِ الله لا تعلمُه، وأنت على علم من علم الله علَّمَكَهُ الله لا أعلَمُه»**.

وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة، وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال فيما فضَّلَهُ الله به على الأنبياء؛ قال: **«كانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصة، وبُعِثْتُ إلى الناس عامة»**.

فدعوة محمد ﷺ شاملة لجميع العباد، ليس لأحدٍ الخروجُ عن متابعته وطاعته، ولا استغناء عن رسالته؛ كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته مستغنياً عنه بما علَّمه الله، وليس لأحدٍ ممَّن أدركه الإسلامُ أن يقول لمحمد ﷺ: إني على علم من علم الله علَّمَنيهِ الله لا تعلَمُهُ!! ومَن سوَّغ هذا، أو اعتقد أنَّ أحداً من الخلق ـ الزُّهَّاد، والعبَّاد، أو غيرهم ـ له الخروج عن دعوة محمد ﷺ ومتابعته؛ فهو كافر باتِّفاق المسلمين، ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا. =

....

= وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة، ولهذا لما بيَّن الخضرُ لموسى الأسباب، التي فعل لأجلها ما فعل؛ وافقه موسى، ولم يختَلِفا حينئذٍ، ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى؛ لما وافقه.

ومثل هذا وأمثاله يقعُ للمؤمنين بأن يختصَّ أحدُ الشخصين بالعلم بسببٍ يبيحُ له الفعلَ في الشريعة، والآخر لا يعلم ذلك السبب ـ وإنْ كان قد يكون أفضل من الأوَّل ـ؛ مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص، وكان أحدُهما يعلم طيبَ نفسه بالتصرُّف في منزله، إما بإذن لفظيٍّ أو غيره، فيتصرَّفُ، وذلك مباحٌ في الشريعةِ، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرَّف.

وخَرْق السفينة كان من هذا الباب، فإن الخضر كان يعلم أنَّ أمامهم ملِك يأخذ كل سفينة غصباً، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة ـ إذا علموا ذلك ـ أن يخرقوها؛ لئلا يأخذها الملك؛ لأن بقاءها مع الخرق فيها خير من انتزاعها منهم.

وكذلك قتل الغلام كان من باب دفع الصَّائل على أبويه؛ لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما، وقتلُ الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين، بل يجوز قتلُهم لدفع الصَّول على الأموال، ولهذا ثبت في «صحيح البخاري» أنَّ نجدةَ الحروريَّ لما سأل ابنَ عباس عن قتل الغلمان؛ قال: «إنْ كنتَ تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام؛ فاقتلهم، وإلا؛ فلا تقتلهم».

وكذلك في «الصحيحين» أن عمر لما استأذن النبيَّ ﷺ في قتل ابن صياد ـ وكان مراهقاً ـ لما ظنَّه الدَّجالَ، فقال: «**إنْ يَكُنْه؛ فلن تسلَّط عليه، وإن لم يكنْهُ؛ فلا خير لك في قتله**».

فلم يقل: **إن يكنه**؛ فلا خير لك في قتله، بل قال: «**فلن تسلَّط عليه**»، وذلك يدلُّ على أنه لو أمكنٍ إعدامُه قبل بلوغه لِقَطْع فسادِهِ؛ لم يكن ذلك محذوراً، وإلا كان التعليل بالصغر كافياً، فإنَّ الأعمَّ إذا كان مستقلّاً بالحكم؛ كان الأخص عديم التأثير.

وأما بناء الجدار؛ فإنما فيه ترك أخذ الجُعْل مع جوعهم، وقد بيَّن الخضر أنَّ أهله فيهم من الشيم وصلاح الوالد ما يستحقُّون به التَّبرع، وإنْ كان جائعاً.

والمقصود من هذا كله: أنه ليس في قصة الخضر ما يسوِّغُ مخالفة رسول الله ﷺ لأحد من الخلق، أفاده ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٢٠ وما بعدها).

ولله درُّ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ فقد قال فيما نقلَهُ عنه تلميذُهُ الإمام القرطبيُّ المفسِّرُ في تفسيره: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٤٠ ـ ٤١) ما نصُّه: «ذهب قومٌ من زنادقة الباطنيَّة إلى سلوك طريقٍ تلزم منه هدم الأحكام الشرعية، فقالوا: **هذه الأحكام الشرعية العامةُ إنما يُحْكَمُ بها على الأغبياء والعامَّة!!** وأما الأولياء وأهل الخصوص؛ فلا يحتاجون إلى تلك النُّصوص!! بل إنما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم!! ويُحْكَمُ عليهم بما يغلب على خواطرهم!!

وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلَّى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، =

. . . .

= فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات؛ كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما تجلّى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم!!

وقد جاء فيما ينقلون: استفتِ قلبَكَ وإنْ أفتاكَ المُفْتون!».

قال الإمام القرطبيُّ: «قال شيخنا ﷺ: وهذا القول زندقةٌ وكفرٌ، يُقتَلُ قائله، ولا يستتاب؛ لأنَّه إنكار ما عُلم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنَّته وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رسالة السُّفراء بينَه وبينَ خلقه، وهم المبلِّغون عنه رسالته وكلامه، المبيِّنون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصَّهم بما هنالك؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ [الحج: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]... إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى الجملة؛ فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، وإجماع السَّلَف والخلف على أن لا طريقة لمعرفة أحكام الله تعالى، التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرف شيءٌ منها؛ إلا من جهة الرسل، فمَن قال: إنَّ هناك طريقاً آخر يُعرف بها أمرُه ونهيه غير الرسل، بحيث يستغني عن الرسل؛ فهو كافر، يُقتل ولا يُستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب.

ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبيِّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبيَّ بعده ولا رسول.

وبيان ذلك أن مَن قال: يأخذ عن قلبه، وأن ما يقع فيه هو حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة؛ فقد أثبت لنفسه خاصَّة النبوَّة». اهـ.

وانظر من: «تفسير القرطبي» (٧/ ٣٩).

وقال الشيخُ عليُّ القاري ـ رحمه الله تعالى ـ في «المقدمة السالمة في خوف الخاتمة» (ص١٩ ـ بتحقيقي).

«لا اعتبار لمكاشفات الأولياء، ومحاضرات الأصفياء، بحيث يُعتمد عليها بالكليَّة في الأمور الشرعيَّة، أو في الأطوار الحقيقية، فإنَّ الإنسان ما دام في هذه الدَّار المشوبة بالأكدار، لا تصفى له الأسرار، ولا تتجلى له الأنوار؛ بخلاف الأنبياء الأبرار، والرسل الكبار، ولذا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق: ٢٢]. وانظر في هدم الكشف: «القائد لتصحيح المعقائد» (ص٣٧ وما بعدها)، «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٥/ ٤٩١)، «الجواب الصحيح» (٢/ ٩٢).

ومما لا ينبغي أن ينسى في هذا المقام أنه وقع لبعض الجهلة مغلطة عظيمة، فقال: إن الخضر أفضل من موسى؛ تمسُّكاً بهذه القصَّة وبما اشتملت عليه.

وهذا إنما يصدر ممَّن قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر فيما خصَّ الله به موسى ﷺ =

مدَّعياً لها، يرتكب شيئاً من المحرمات كالزنا وشرب الخمر، لا ينبغي لهم أن يعترضوا عليه، وأشاعوا ذلك بين جهال المسلمين، حتى استقر في أذهانهم وألفوه، وينشدون من أشعارهم قول بعضهم(١):

وكُنْ عنده كالميت عند مُغَسِّل يقلِّبه ما شاء وهو مطاوعُ

ويقولون: من قال لشيخه: لم؟ لا يفلح أبداً، ويقولون: إذا رأيت امرأة جميلة دخلت على شيخك، فقم سخن الماء ليغتسل، وإياك أن تظن به إلا خيراً، وفي كتاب «الإبريز في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ»(٢) لمؤلفه أحمد بن مبارك اللمطي المغربي هذه الحكاية: زعم أن شيخه رواها له، قال: قال ﷺ: كان لأحد الشيوخ مريد مخلص، وطالت خدمته بإخلاص وتعظيم، فأراد أن يمتحنه ليعطيه الولاية إذا نجح في الامتحان، فقال له: يا فلان: أتحبني؟ قال: نعم أحبك بدون حد، فقال: أرأيت لو أمرتك بأمر أتطيعني؟ فقال: يا سيدي لا يمكن أن أعصي أمرك أبداً، فقال: لو قلت لك: اذهب الآن إلى والدك واضرب عنقه وأتني برأسه أتفعل ذلك؟ فقال له: سوف ترى، وذهب في الحال إلى بيت أبيه فوجده يجامع أمه، فقطع رأسه وجاءه به في مخلاة، ووضعه أمامه، فقال له

= من الرسالة، وسماع كلام الله، وإعطائه التوراة، فيها علم كل شيء، وأنَّ أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، ومخاطبون بحكم نبوَّته، حتى عيسى عليه السلام، وأدلّة ذلك في القرآن كثيرة، ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].
ومن ثمَّ؛ فإن الخضر، وإن كان نبيّاً؛ فليس برسولٍ اتفاقاً، والرسولُ أفضلُ مِن نبيٍّ ليسَ برسول، ولو تنزَّلنا على أنه رسول؛ فرسالة موسى أعظم، وأمته أكثر، فهو أفضل، وغاية الخضر أن يكون واحداً من أنبياء بني إسرائيل، وموسى أفضلهم.
وإن قلنا: إنَّ الخضر ليس بنبيٍّ بل وليّ، فالنبيُّ أفضل من الوليّ، وهو أمر مقطوعٌ به عقلاً ونقلاً، والصائر إلى خلافه كافر؛ لأنه أمر معلومٌ من الشرع بالضرورة، وإنما كانت قصة الخضر مع موسى عليه السلام امتحاناً لموسى ليعتبر، انظر: «فتح الباري» (١/ ٢٢١)، وقال ابن حجر في «الزهر النضر في نبأ الخضر» (٢/ ٢٣٤ ـ مطبوع مع «الرسائل المنيرية»): «والذي تميل إليه النفس من حيث الأدلة القوية، خلاف ما يعتقده العوام من استمرار حياته» ثم قال: «والذي لا يتوقف فيه الجزم بنبوّته».

(١) قائله عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني (٧٦٧ ـ ٨٣٢هـ) أو (١٣٦٥ ـ ١٤٢٨م).

(٢) الكتاب مطبوع، رأيته في مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة النبويّة، والمصنف أكثر من انتقاده وبيان طاماته، ومخالفته العقيدة الصحيحة.

الشيخ: ما هذا؟ فقال المريد: هذا الذي أمرت به، فقال: ما أمرتك بشيء؟ وإنما سألتك سؤالاً؟ فقال له: إن كلامك عندي كله حق، ليس فيه تأويل ولا مجاز، وهذا رأس أبي أمامك، فغضب عليه وقال له: كيف ترتكب هذا الجرم العظيم لمجرد سؤال ألقيته عليك؟ فأعاد عليه قوله من أن كلامه عنده لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما كنت أظنك غبياً إلى هذا الحد، هات القنديل، فلما جاء المريد بالقنديل، وأخرج الرأس من المخلاة، وجده رأس نصراني كان يزني بأمه، فعلم بذلك الشيخ من طريقة علم الغيب، وأراد أن يصيد عصفورين بحجر واحد، **الأول**: امتحان مريده هل بلغ من طاعته إلى الحد الذي يستحق أن يمنح الولاية، **والثاني**: أن يقتل ذلك النصراني الذي هتك حرمة والدته عقاباً له، ويحكون من أمثال هذه الحكاية كثيراً ليضلوا الناس، ويعطلوا العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، انظر كتابي «الهدية الهادية، إلى الطائفة التيجانية»(١).

وهذه الحكاية الملعونة يبرأ منها الله ورسوله، وجميع المسلمين الذين يعرفون ما هو الإسلام، سواء كانوا صوفية أو فقهاء، أو أهل حديث، فقد قال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ وهو سيد الطائفة: «أمرنا هذا ـ يعني التصوف ـ مبني على أربعة أمور، **أولها**: اتباع السنة، والوقوف عند حدود الشريعة، **وثانيها**: أكل الحلال، **وثالثها**: كف الأذى، **ورابعها**: حمل الأذى». وقال: «إذا رأيتم الرجل يطير في السماء، أو يمشي على الماء، فلا تعتبروه شيئاً، حتى تنظروا إلى تمسكه بالكتاب والسنة»(٢)، وقد ألف الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية كتاباً سماه «الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان»(٣).

وحكى لي الثقة الصادق السيد محمد المؤذن، وكان من أعيان تطوان

---

(١) انظره (ص١٢٩ وما بعد) وقال الهلالي فيه عن صاحب «الإبريز»: «حشاه بالأكاذيب»، وأورد نصوصاً في الاقتصار على الطاعة بالمعروف. ثم قال: «وماذا عسى أن يكون هذا الشيخ؟ الواصل إلى الدرك الأسفل من ولاية الشيطان وعداوة الرحمٰن حتى يطاع طاعة مطلقة».

(٢) ستأتي العبارتان في (٣/ ٢٣٦)، وبيّنتُ هناك أن قائلهما غير الجنيد، والظاهر أن المصنف ينقل من حفظه، والحفظ يخون، والله أعلم.

(٣) طبع أكثر من مرة، أحسنها طبعة دار الفضيلة، بتحقيق الشيخ الدكتور عبد الرحمٰن اليحيى، وهي مقابلة على ست نسخ خطية.

المتمسكين بالسنة بعدما دعوت الناس إليها من سنة إحدى وستين وثلاثمائة وألف إلى سنة ست وستين وثلاثمائة وألف، حكى: إن مجذوباً ـ «المجذوب» عندهم: هو الذي فَقَدَ عقلَه، وصار يمشي عرياناً، ولا يتقيد بشيء من العبادة ولا من المروءة، وهذا عندهم معظَّم من كبار الأولياء الذين جذبهم الحق إلى حضرة محبته لهم بدون عبادة، ويقسّمون الأولياء إلى مجذوب، وسالك. فالسالك: هو الذي يسلك الطريقة والشريعة، ويؤدي الواجبات والنوافل حتى يصل إلى الولاية على يد شيخ من شيوخ المتصوفة ـ أخبرني أن مجذوباً ومجذوبة كانا في مدينة تطوان يمشيان في الأسواق عريانين، ويتكلَّمان بكلام لا يفهم، وفي يوم من الأيام وثب المجذوب على المجذوبة في وسط السوق، فأضجعها وزنا بها، والناس ينظرون، ولم يستطع أحد أن ينبس ببنت شفة، بل أخذهم رعب وخوف عظيم، وتأولوا ذلك على أن أمراً عظيماً سيحدث، وبعد ذلك بأيام، انهزم الجيش المغربي أمام الإسبانيين حتى دخل الإسبانيون تطوان واستولوا عليها، ففسر الناس ذلك الزنا الذي وقع بين المجذوب والمجذوبة باستيلاء الإسبانيين على تطوان، **فهل مثل هؤلاء مسلمون حقاً يرضى الله دينهم وعقيدتهم وينصرهم على أعداء الإسلام؟ ألا لا، ثم لا،** فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣] **ومن بلغ في الجهل بالإسلام إلى ذلك الحد فحاشا لله أن يكون من المؤمنين، وأن يستحق النصر على الكافرين،** والله سبحانه وتعالى يبين لنا معنى من هم أولياؤه بياناً شافياً وافياً، وقال تعالى في سورة يونس: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤] فأخبر سبحانه أن الإيمان والتقوى شرط في ولايته، وأن أولياءه لهم علامات، منها البشرى في الحياة الدنيا، بالنصر والتأييد والاستقامة، والاجتماع على كلمة الحق والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك، ولذلك قال هنا سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يتولاهم دائماً ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ في حياتهم الدنيا وفي الآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ أي: الشياطين

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الفائدة السادسة: محاجة إبراهيم لنمرود، ملك بابل: هي من الآيات الدالة على توحيد الربوبية، وآية الكرسي نفسها، مشتملة على توحيد العبادة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وعلى توحيد الربوبية فيما بعد ذلك.

الباب الثامن عشر

قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢]

قال (ك): «قال أبو عبد الرحمن النسائي بسنده: عن ابن عباس، قال: «كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا، فرخص لهم»»[(١)].

قال محمد تقي الدين: الرضخ: هو العطاء القليل، وفي هذا الزمان قلب معناه جهال الكتاب، فصاروا يقولون: رضخ له، يعني أذعن وخضع له، **وهذا زمان محنة اللغة العربية وشقائها بالمتكلمين بها**، وفي هذا الحديث دليل على جواز الإحسان إلى الكافر إذا كان قريباً، وكذلك إذا كان بعيداً، قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]. فعلى هذا يجوز الإحسان إليه.

ثم قال (ك): بسنده[(٢)] إلى ابن عباس عن النبي ﷺ: «**إنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية**: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين»[(٣)].

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٠٥٢)، وابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٣٩) بنحوه، وتمام تخريجه فيما يأتي قريباً.

(٢) عند ابن كثير (٢/ ٤٧٦) بسند ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الفريابي ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٨٦) ومن طريقه النسائي في «الكبرى» (٦/ رقم ١١٠٥٢) ـ، وابن أبي حاتم (٢/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨) رقم (٢٨٥٣)، وابن جرير (٣/ ٦٣)، وابن المنذر (١/ ٤٠) في «تفاسيرهم»، والطبراني (١٢/ رقم ١٢٤٥٣) ـ ومن طريقه الضياء =

قال محمد تقي الدين: وهذا كله في صدقة التطوع، أما الزكاة المفروضة فقد بيّن الله تعالى من تصرف لهم في سورة التوبة، فلا يعطاها الفقير الكافر إلا إذا كان من المؤلفة قلوبهم، لقول النبي ﷺ في حديث معاذ حينما بعثه إلى اليمن: «**ثم أخبرهم أن الله قد افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنياءهم فترد على فقراءهم**»(١)، أي على فقراء المسلمين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. قال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله، وهذا معنى حسن، وحاصله: إن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله، فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب، ألِبَرٍّ أو لفاجرٍ، أو مستحقٍ(٢) أو غيره، وهو مثاب على قصده ومستند(٣) هذا تمام الآية: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢] والحديث المخرج في «الصحيحين»(٤) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها بيد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقنَّ الليلة بصدقة، فوضعها في يد غنيّ! فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غنيٍّ، فقال: اللهم لك الحمد على غنيٍّ، لأتصدقنَّ الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني، وعلى سارق، فأتي فقيل له: أما صدقتك فقُبِلت، أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته**».

قال محمد تقي الدين: قد علمنا سبب نزول هذه الآية وما فيها من الأحكام

= المقدسي في «المختارة» (١٠/ ٧٦ ـ ٧٧) رقم (٦٨، ٦٩) ـ، والبزار (٢١٩٣ ـ زوائده)، والحاكم (٢/ ٢٨٥ و٤/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، والبيهقي (٤/ ١٩١)، **وإسناده صحيح**، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٨٦) لابن مردويه.

(١) أخرجه مسلم (١٩) من حديث ابن عباس.

(٢) في الأصل: «مستحقاً».

(٣) في الأصل: «ومستنده».

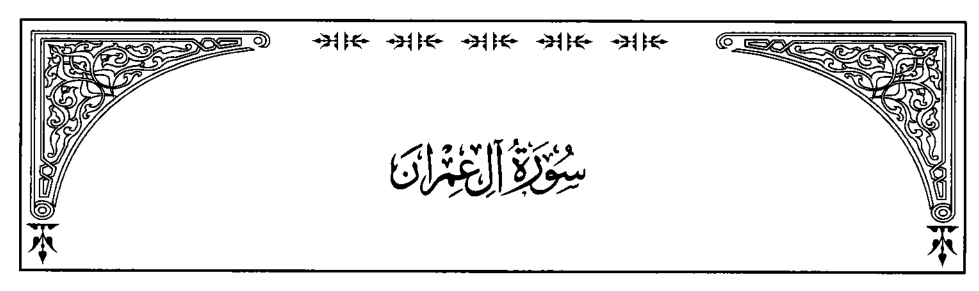
(٤) أخرجه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢).

والحكم، وهناك أمر آخر لم يذكر من قبل، وهو أن هداية القلوب ليست واجبة على النبي ﷺ ولا هي مقدورة له، قال تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]. فهداية النبي ﷺ للبشر، إنما هي تبليغه إياهم ما أمر بتبليغه قولاً وعملاً على أحسن وجه، وقد فعل ذلك، وبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه، ولكن الضُّلّال المتصوفة يزعمون: أن الشيخ الكامل يتصرف في قلب مريده وينقله من الضلال إلى الهدى، وبنظرة واحدة ينظرها إليه يصير ولياً، وفي «جواهر المعاني» و«كتاب الرماح» زعموا: أن الشيخ التيجاني قال لهم: «قال لي سيد الوجود ﷺ: بعون ربي أكون معك يوم الاثنين ويوم الجمعة، فكل من رآك في هذين اليومين، وقال: أشهد بأني رأيتك، يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب»[1]. فلم يقتصر على رؤية الشيخ للمريد، وهدايته له بالنظر، حتى جعلوا كل من رأى الشيخ يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب، ألم يعلموا أن أبا طالب عم النبي ﷺ كان يرى النبي ﷺ ويراه كل يوم لمدة طويلة، وكان النبي ﷺ حريصاً على هدايته وإنقاذه من النار ودعاه إلى الإسلام جهده فلم يستجب، ومات كافراً، فحزن عليه النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]، فقال النبي ﷺ: **«لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»**[2]، فأنزل الله تعالى في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

---

(١) علق المصنف على هذا القول في كتابه «الهدية الهادية» (ص٧٤) بقوله: «لا يستطيع أحد أن يعتقد هذا الخبر إلا إذا تجرد من العقل والدين والمروءة...».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٣)، والبخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).



سورة آل عمران

الباب الأول

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ
۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ
۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: ١ ـ ٦]

قال (ك): «قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ١، ٢]، عند تفسير آية الكرسي وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وتقدم[(١)] الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] في تفسير آية الكرسي. وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣] يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، أي: لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله[(٢)]، ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣] أي: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدق[(٣)] بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أيضاً».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عز وجل».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تصدقه».

محمد صلى الله عليه[1] وسلم[2]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ [آل عمران: ٣] أي: على موسى بن عمران ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣] أي على عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ [آل عمران: ٤] أي: من قبل هذا القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٤][3] في زمانهما ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤] وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل والغي والرشاد بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيّنات[4] والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعة[5]، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشده إليه [ينبهه][6] عليه من ذلك، وقال قتادة والربيع بن أنس: «الفرقان هٰهنا: القرآن»[7] واختار ابن جرير[8] أنه مصدر هٰهنا لتقدم ذكر القرآن في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣] وهو القرآن[9] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥] أي: جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران: ٥] أي: يوم القيامة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ [آل عمران: ٥] أي: منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٥] أي: ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام».

ثم قال (ك): «يخبر تعالى أنه يعلم غيب السمٰوات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦] أي: يخلقكم [في الأرحام كما يشاء][10]، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦] أي: هو الذي خلق، وهو

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وآله».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وإنزال القرآن العظيم عليه».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والبيان»!
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القاطعات».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ينبّه».
(٧) أخرجه ابن جرير (٥/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٥٨٨) رقم (٣١٤٥ ـ ٣١٤٦)، وابن المنذر (١/ ١١٥) رقم (٢١١ ـ ٢١٢) في «تفاسيرهم»، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٤٣) إلى عبد بن حميد.
(٨) انظر: «تفسيره» (٥/ ١٨٢).
(٩) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأما ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي صالح، أن المراد هاهنا بالفرقان: التوراة، فضعيف أيضاً لتقدم ذكرها والله أعلم».
(١٠) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما يشاء في الأرحام».

المستحق [للألوهية](١) وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام والحكمة والأحكام، وهذه الآية فيها(٢) تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صوّره في الرحم، وخلقه كيف يشاء، فكيف يكون إلٰهاً كما زعمته النصارى(٣)، وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾ [الزمر: ٦]»(٤).

قال محمد تقي الدين: ابتدأ الله هذا الكلام بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ٢] فنزه نفسه عن الشرك لينزه عباده عنه، وختمه بقوله: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦] وذكر فيما بينهما إنزال الكتب من السماء «هدى» ورحمة للمؤمنين، وأخبر أن الذين كفروا بهذه الكتب وبمن جاء بها لهم عذاب شديد، يعني في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٣٤﴾ [الرعد: ٣٤] أخبر سبحانه أنه العزيز الذي لا يغالب، ومن تمسك بطاعته وتوحيده ضمن له العزة الأبدية، وأخبر سبحانه أنه ذو انتقام من المرتدين والجاحدين، وأخبر ﷻ ومن دلائل ربوبيته أنه ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وأنه يخلق عباده ويصورهم في الأرحام كيف يشاء، فكيف تصرف الوجوه إلى غيره؟! وكيف يتوجه الداعي بدعائه إلى سواه؟! ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

الباب الثاني

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩ فَإِنْ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإلهية».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعريض بل».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم لعائن الله».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥ ـ ٧).

حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨ ـ ٢٠]

قال (ك): «شهد تعالى ـ وكفى به شهيداً ـ، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه وهو الغني عما سواه، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ﴾ [النساء: ١٦٦] الآية. ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ منصوب على الحال، وهو في جميع الأحوال، كذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يرام [جناب عظمته وكبريائه][(١)]، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وقال الإمام أحمد[(٢)] بسنده عن الزبير بن العوام: قال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨] **«وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب»**»[(٣)].

«وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩] إخبار منه تعالى[(٤)] بأنه لا دين عنده يُقْبَلُ[(٥)] من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ؛ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة النبي ﷺ بدين[(٦)] على غير شريعته

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جنابه عظمة وكبرياء».
(٢) أخرجه أحمد (١/١٦٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٤٦ ـ آل عمران)، والطبراني (٢٥٠)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٣٥) **وإسناده ضعيف**، فيه مجاهيل، هم: أبو سعد الأنصاري، وأبو يحيى مولى آل الزبير، وجبير بن عمرو القرشي، وأشار إليهم الهيثمي بقوله في «مجمع الزوائد» (٦/٣٢٨) ـ وعزاه إلى أحمد وبنحوه للطبراني ـ: «وفي أسانيدهما مجاهيل»، وكذا قال العلامة أحمد شاكر في تحقيقه لـ«المسند» (١٤٢١).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/٣٤ ـ ٣٥).
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من الله تعالى».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقبله».
(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يدين» بياء آخر الحروف أوله!

فليس بمُتقبَّل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] الآية، وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ «أنَّ» ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(١)، أي: شهد هو والملائكة وأولو العلم من البشر، بأن الدين عند الله الإسلام(٢)، ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب(٣) إنما اختلفوا بعد ما قامت(٤) الحجة بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقاً، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: من جحد ما أنزل الله في كتابه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: فإن الله سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي: جادلوك في التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له، ولا ند له، ولا ولد له، ولا صاحبة له ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أي: على ديني، يقول: كمقالتي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨] ثم قال تعالى: آمراً [عبده](٥) ورسوله

---

(١) أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص٥٩)، وذكره ابن جرير في «التفسير» (٥/ ٢٧٦)، وينظر: «البحر المحيط» (٢/٤٠٣)، و«المحتسب» (١/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، و«الكشاف» (١/ ٣١٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٣١٦)، و«الدر المصون» (٢/ ٤١)، و«روح المعاني» (٣/ ١٠٤)، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بكسر (إن) وفتح (أن الدين عند الله الإسلام)».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والجمهور قرؤوها بالكسر على الخبر وكلا المعنيين صحيح، ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم»، وانظر: «النشر» (٢/ ٢٣٨)، «الحجة» لابن خالويه (١٠٧)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٢٣٨)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢٨٤)، والهامش السابق.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأول».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لعبده».

محمداً ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله به إلى الكتابيين من الصليبيين[1] والأميين من المشركين، فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾، أي: والله عليه حسابهم، وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وله الحكمة [البالغة][2] والحجة الدامغة[3]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾»[4].

قال محمد تقي الدين: في هذه الباب فوائد، **الأولى**: إن الله وملائكته وأهل العلم بالله من جميع الأديان التي شرعها الله، وهي في الحقيقة دين واحد وهو الإسلام، يشهدون أن لا معبود بحق إلا الله، وكل من عبد من دونه - ولو كان نبياً، ولو كان ملكاً، ولو كان شهيداً، ولو كان صديقاً - فعبادته باطلة، ومن عبده فهو من أهل النار خالداً فيها أبداً، إن لم يتب قبل موته.

الفائدة الثانية: إن الله ﷻ كرر قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، مرتين في موضع واحد للتوكيد.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ المراد بالإسلام هنا توحيد الله تعالى بالقلب والجوارح، وتوجيه الوجه له لا شريك له، والإسلام هنا يشمل الإيمان بالقلب واللسان والعمل.

الفائدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ يعني بالذين أوتوا الكتاب: اليهود والنصارى، وبالأميين: المشركين، ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ﴾؟ أي: وحّدتم الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، واتباع من بعث إليكم من رسله، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟﴾، أي: وحّدوا الله تعالى على هذه الصفة، ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾ إلى الحق، وإن أعرضوا عن هذا الإسلام، فحسابهم وعقابهم على الله، وليس عليك يا محمد إلا البلاغ، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: عليم بأحوالهم، وسيجزيهم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الملتين».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في ذلك».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «البالغة».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٦ - ٣٧).

الباب الثالث

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٤]

قال (ك): «يقول جل وعلا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ حيث خلقه(١) من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرىٰ، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فيجوز(٢) في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه(٣) في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى(٤)، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقال هنا(٥): ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾، أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإن الله تعالى خلقه...».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فجواز ذلك».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فدعواها».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هاهنا».

﴿ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] أي نحضرهم[١] في حال المباهلة: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نلتعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي منا ومنكم. وكان[٢] سبب نزول المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران: إن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلٰهية، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره. قال ابن إسحاق في «سيرته» المشهورة وغيره[٣]: وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، يؤول أمرهم إليهم، وفيهم[٤] العاقب، واسمه: عبد المسيح، والسيد، وهو: الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل». اهـ.

وذكر ابن كثير بقية أسمائهم بالتفصيل، تركت ذكرها اختصاراً، ثم قال (ك): «وكان أميرهم[٥] وذا رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، [و] السيد وكان صاحب رحلتهم[٦] ومجتمعهم، [و] أبو حارثة ابن علقمة وكان أسقفهم[٧] وصاحب مدارستهم، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل، ولكنه تنصّر فعظَّمته الروم وملوكها وشرَّفوه، وبنوا له الكنائس[٨]، وأخدموه لما [يعلمونه][٩] من صلابته في دينهم، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه بما[١٠] علمه من الكتب المتقدمة[١١]، ولكن حمله ذلك[١٢] على الاستمرار

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نحضرهم»، وفي الأصل: «نحصرهم» بصاد مهملة!
(٢) سقطت «كان» من الأصل، وأثبتها من «تفسير ابن كثير».
(٣) انظر: «السيرة» لابن هشام (٢/ ٤١٢)، وأخرجه الطبري رقم (٦٥٤٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٢١ ـ ٢٢) رقم (١٩)، وابن المنذر (١/ ٢٢٧) رقم (٥٤٥) في «تفاسيرهم»، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٨٣)، وخرجته في جزء مفرد لي عن (المباهلة) وأحكامها الشرعية، وأخبارها التاريخية، يسر الله إتمامه بخير وعافية.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومنهم».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «العاقب وكان أمير القوم...».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم...».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وحبرهم وإمامهم».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وموّلوه». (٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعلمون».
(١٠) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مما».
(١١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جيداً».
(١٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «احتمله جهله».

في النصرانية، لما يرى من تعظيمه فيها، وجاهه(١) عند أهلها.

ذكر محاجتهم للنبي ﷺ

وقد(٢) قدموا على النبي(٣) ﷺ، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات: [جباب](٤) وأردية، [من رجال](٥) بني الحارث بن كعب، قال: يقول(٦) من رآهم من أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ(٧)، فقال رسول الله ﷺ: **«دعوهم»** صلوا إلى المشرق، قال: فكلم رسول الله ﷺ منهم أبا حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والسيد الأيهم وهم من النصرانية [على دين التثليث](٨)، يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً(٩) فهم يحتجون في قولهم: هو الله، بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير(١٠) ينفخ فيه فيكون [طائراً](١١) وذلك كله بأمر الله، وليجعله الله آية للناس، ويحتجّون في قولهم بأنه ابن الله، يقولون: لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله، ويحتجّون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة، بقول الله تعالى: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا: فعلت، وأمرت، وقضيت، وخلقت، ولكنه هو عيسى ومريم، تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، وفي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن، فلما كلمه الحبران، قال لهما رسول الله ﷺ:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ووجاهته».
(٢) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسول الله».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جُبَب».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في جمال رجال».
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بعض».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يصلون».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على دين الملك مع اختلاف أمرهم».
(٩) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكذلك قول النصرانية».
(١٠) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثم».
(١١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «طيراً».

«**أسلما**»، قالا: «قد أسلمنا»، قال: «**إنكما لم تسلما، فأسلما**»، قالا: «بلى قد أسلمنا قبلك»، قال: «**كذبتما، يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير**»، قالا: «فمن أبوه يا محمد»؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها[(١)]، ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها إلى أن قال: «فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه [دعاءهم][(٢)] إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم! دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد[(٣)] أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟! فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً [نبي][(٤)] مرسل، ولقد جاءكم بالفصل[(٥)] من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه الاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك[(٦)] ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أحوالنا[(٧)]، فإنكم عندنا رضا، قال محمد بن جعفر، فقال رسول الله ﷺ: «**ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين**»، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذٍ رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجراً فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له ليراني فلم يزل[(٨)] ببصره،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٤ ـ ٧٥)، و«السيرة» لابن هشام (٢/ ٤١٣ ـ ٤١٤)، و«تفسير ابن جرير» (٦/ ١٥٢، ١٥٣) رقم (٦٥٤٣).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «دعاهم».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «تريد» بتاء مثناة فوقية!

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «النبي».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بالفعل»!

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على دينك».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من أموالنا».

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يلتمس».

حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه، فقال: «**اخرج معهم؛ فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه**»، قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة رضي الله عنه»[(١)]. هذه القصة رواها البخاري ومسلم وغيرهما باختصار وشيء من الزيادة[(٢)].

وأخرج البخاري بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**»[(٣)]. ثم قال (ﷻ) بعد كلام طويل تركته اختصاراً: «ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى، هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾[(٤)] عن هذا إلى غيره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من عدل عن الحق إلى الباطل، فهو المفسد، والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده، ونعوذ به من حلول نقمته»[(٥)].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية. «هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾[(٦)] [إلى][(٧)] عدل ونَصَف، ونستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ﴾ لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٥ ـ ٧٦)، و«تفسير ابن المنذر» (١/ ٢٣٣)، و«السيرة» لابن هشام (٢/ ٤٢٢).

(٢) أخرجها البخاري (٣٧٤٥)، ومسلم (٢٤٢٠) من حديث حذيفة، وتكلمت على أسانيدها وألفاظها في جزء مفرد لي عن المباهلة وأحكامها الشرعية وأخبارها التاريخية؛ يسر الله إتمامه بمنه وكرمه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩) من حديث أنس. وهذا هو المقدار المرفوع الصحيح من الحديث، وله تتمة الراجح أنها من مرسل قتادة، بيّنت ذلك في جزء مفرد مطبوع بعنوان «طرق حديث أرحم أمتي بأمتي أبو بكر» والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٨٢).

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: ...».

(٧) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة: فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم»[١]. ذكر (ك) حديث البخاري عن ابن عباس[٢] عن أبي سفيان بن حرب حين دخل على قيصر ملك الروم وما جرى بينه وبينه من الأسئلة والأجوبة، وذكر كتاب النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، وأما بعد، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت [فإن][٣] عليك إثم الأريسيين، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾»[١]. انتهى كلام ابن كثير.

قال محمد تقي الدين: ينبغي أن أثبت هنا بقية حديث ابن عباس الذي رواه البخاري في (كتاب بدء الوحي) من «صحيحه»؛ لأن الأسئلة التي سألها هرقل أبا سفيان والأجوبة التي أجاب بها، ثم الاستدلال الذي استنبط هرقل من أجوبة أبي سفيان، في ذلك كله حُجج عقلية قاطعة يسلِّمها كل منصف في كل زمان ومكان، على أن نبينا محمداً ﷺ صادق مصدق، قامت به الحجج على جميع أهل الأرض، قال البخاري في «صحيحه»[٤] بسنده إلى ابن عباس: «أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٨٣). (٢) أخرجه البخاري (٧).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنما». (٤) سبق تخريجه.

لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا [عن هذا][(١)] الرجل، فإنْ كذَبني فكذِّبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول فيكم[(٢)] أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم يمكنني[(٣)] كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله[(٤)] ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدقة[(٥)] والعفاف والصلة.

فقال للترجمان، قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك [لقلت][(٦)]: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتدَّ أحد منهم[(٧)] سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حينما[(٨)] تخالط

(١) سقط من الأصل، وأثبته من مطبوع «صحيح البخاري».
(٢) في مطبوع «صحيح البخاري»: «منكم». (٣) في مطبوع «صحيح البخاري»: «تُمكنّي».
(٤) بعدها في مطبوع «صحيح البخاري»: «وحده».
(٥) في مطبوع «صحيح البخاري»: «والصدق». (٦) في مطبوع «صحيح البخاري»: «قلت».
(٧) غير موجودة في مطبوع «صحيح البخاري».
(٨) في مطبوع البخاري: «حين».

بشاشته القلوب، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألت: بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدقة[1] والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[2]، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأ فإذا فيه...»، فذكر كتاب النبي ﷺ إلى هرقل المتقدم ذكره مع اختلاف قليل في اللفظ.

قال محمد تقي الدين: في هذا الباب فوائد:

الأولى: المباهلة، لما أقام النبي ﷺ الحجج القاطعة على أن الله واحد لا شريك له في إلهيته ولا في ربوبيته ولا في أسمائه ولا في صفاته في محاجته لوفد نجران، وظهرت عليهم حجج الله على أن عيسى عبد الله وليس ابن الله وليس هو الله وليس ثالث ثلاثة كما يزعمون؛ ركبوا رؤوسهم وعاندوا؛ فأمر الله نبيه ﷺ أن يباهلهم، ومعنى المباهلة[3]: أي يخرج كل فريق من الفريقين المتخاصمين أعز الناس إليه في الفضاء خارج البلد، فيدعو كل فريق منهما الله تعالى أن يلعن المبطل ويهلكه، ولم يستطع وفد نجران مباهلة النبي ﷺ؛ لعلمهم أنه رسول الله حقاً إلى جميع أهل الأرض، فاختاروا أن يعطوا الجزية ويدخلوا تحت حكم حاكم مسلم، مع أنهم كانت عندهم قوة عظيمة للقتال، وقد تقدم أن عدد المقاتلين منهم كان مائة وعشرين ألف مقاتل، ولم يكن عند النبي ﷺ في ذلك الوقت مثل هذا العدد ولا عُشره، فإن النبي ﷺ حين توجه إلى فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة كان جيشه مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل، هذه معجزة عظيمة للنبي ﷺ يقر بها كل منصف.

الفائدة الثانية: اختلف الأئمة المتقدمون في جواز دخول الكافر المسجد[4]، وفي هذا الخبر دليل على أن الراجح جواز دخوله إن أذن له أولو

---

(١) في مطبوع البخاري: «والصدق». (٢) في مطبوع البخاري: «قدمه».

(٣) لصاحب هذه السطور جزء حافل في «المباهلة» وفقهها، وذكر أشهر ما وقع في التأريخ من (المباهلات)، يسر الله له إتمامه ونشره.

(٤) الجواز قول أبي حنيفة، وبه قال الشافعي عدا المسجد الحرام، وانظر المسألة في: =

الأمر من المسلمين، وكذلك في حديث ثمامة بن أثال الذي أسرته خيل النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ أمر بإدخاله المسجد وربطه في إحدى سواريه، وقد تقدم ذلك[1].

الفائدة الثالثة: من سماحة الإسلام التي جاء بها النبي ﷺ أنه سمح لهم أن يؤدوا صلاتهم في مسجده عليه الصلاة والسلام.

الفائدة الرابعة: هجرهم وعدم رد النبي ﷺ، والتحدث معهم حين تكبروا ولبسوا ثياب الحرير وخواتم الذهب، فأظهر لهم بذلك أن عملهم ذلك محرم في شريعة المسيح، وفي شريعة الإسلام، وإن فاعله يجب هجره إن وجد إليه سبيل.

الفائدة الخامسة: احتجاج وفد نجران على التثليث، بأن الله تعالى يقول: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، دليل على جهلهم بلغتهم العربية أو تجاهلهم، فإن الضمير في: فعلنا ونفعل لا ينحصر في المتكلم ومعه غيره، بل يستعمل كذلك في كلام المعظم نفسه، والله تعالى عظيم يعظم نفسه ويعظّمه الصالحون من خلقه، إلا أنهم لا يعظمونه بخطاب الجمع مراعاة لجانب التوحيد، وهذا واضح.

الفائدة السادسة: حب عمر رضي الله عنه أن يُرْسَلَ أميراً مع وفد نجران لم يكن لغرض دنيوي، ولكن لما سمع النبي ﷺ يخبرهم أنه سيرسل معهم القوي الأمين، أحب أن يكون هو الموصوف بذلك، وإن فاتته هذه فله مناقب وفضائل أعظم منها، فهو أفضل الناس بعد أبي بكر الصديق باتفاق أهل السنة والجماعة.

الفائدة السابعة: معنى الرب، هو المربِّي بنِعَمه، فكل من اعتقد فيه المشركون أنه يعطيهم الأولاد، أو يجعل الأم التي لا يعيش لها ولد يعيش أولادها، وتطول أعمارهم، أو يأتي بالنصر على الأعداء، وهو غائب أو ميت، أو يقتل بهيمته من لا يخضع بعبادته، أو يمرضهم أو يعطي المطر، أو يحفظ المزروعات، أو يقضي الدين، أو يشفي المريض، أو ينور القلوب، ويخرجها من الضلال إلى الهدى إلى غير ذلك، فهو أحد أربابهم، فإن قال المشركون من أهل هذا الزمان: إنهم لا يسألون ذلك من المخلوقين! فإنَّ الموحِّدين كلهم وغير الموحدين من اليهود والنصارى والمشركين يكذبونهم، ودونك بعض الأدلة: قال أحد المشركين من أهل المغرب يطلب النصر على الفرنسيين من الإمام إدريس بن

= «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (١/٣٤٨ ـ ٣٤٩) رقم (٢٦٥)، وتعليقي عليه.

(١) (ص٢٣٦)، وهناك تخريجه.

عبد الله المدفون في زرهون من بلاد المغرب، لما حاصر الفرنسيون مدينة فاس:

أمولاي يا إدريس يا ابن نبينا ... وملجأ هذا القطر في العسر واليسرِ
تكنفنا الأسد الضراة وإننا ... على خطر إنْ لم تُغِثْنا على الفورِ

والله تعالى يقول: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

الثاني: من عادة التيجانيين إذا فرغوا من قراءة «الوظيفة» أن ينشدوا هذه الأبيات بلسان واحد:

يا أحمد التيجاني يا نورَ القلوب ... أما ترى ما نحن فيه من كروب
أما ترى الضيم الذي أصابا ... وأنت غوث لم تزل مجابا
العَجَلَ العَجَلَ بالإغاثه ... يا مَنْ له كلُّ العُلَا وِراثهْ

ومن عادة الدرقاويين إذا فرغوا من قراءة (الحفيظة) أن ينشدوا بلسان واحد:

تَشَفَّعْ يا رسولَ الله فينا ... فما نرجو الشفاعة من سواكا
أغِثْ يا خيرَ خلقِ الله قوماً ... ضعافاً ظلهم أبداً لواكا
وأسرع في إغاثتنا فإنا ... نرى المولى يسارع في رضاكا

انظر آخر كتاب: «الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية»[(١)] وكذلك كتاب: «الإبريز في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ» وكتاب: «الطبقات الكبرى»[(٢)] للشعراني وسائر كتب المتصوفة المتأخرين، فإنها مشحونة بالأدلة على أن مشركي هذا الزمان اتخذوا المخلوقين أرباباً من دون الله، وهذا خلاف الإسلام الذي جاء به جميع الرسل، وخاتمهم وأفضلهم محمد رسول الله ﷺ وعليهم السلام، وهذه الآية حُجّة على كل مشرك من الأولين والآخرين، وقوله تعالى: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ يعم جميع الأشياء من أهل السمٰوات والأرض، لو كان المشركون يعقلون؛ لكفَتْهم هذه الآية.

الفائدة الثامنة: قوله: «في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش»، معنى مادهم فيها: أي تصالح معهم على المهادنة وترك المحاربة عشر سنين في غزوة الحديبية، فنقضت قريش هذه المعاهدة بعد مدة قليلة، فتوجه

---

(١) (ص١٤٠).

(٢) انظر عنه وعن الذي قبله أيضاً كتابي: «كتب حذر منها العلماء»، ولأخينا عزمي الجوابرة دراسة مفصلة عن «طبقات الشعراني» بيّن ما فيه من فضائح ومخازٍ وبلايا ورزايا! نسأل الله العافية، وسيأتيك بعضها في التعليق على (ص٥٤٢).

النبي ﷺ إلى فتح مكة بعشرة آلاف مقاتل، وفتحها سنة ثمان للهجرة.

الفائدة التاسعة: قال أبو سفيان: «ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها»، يعني: لقد وقعت بيننا وبينه معاهدة صلح وهدنة، لا ندري أيحافظ على المعاهدة أم يغدر، قال أبو سفيان: كنت حريصاً على أن أتنقَّص محمداً ﷺ، ولكنني خفت أن يكذبني أصحابي فلم أجد فرصة أدخل فيها شيئاً من التنقص والتشكيك إلا هذه الكلمة، يؤيده قوله فيما سبق: «فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عني كذباً لكذبت عنه».

الفائدة العاشرة: أول شيء بدأ به أبو سفيان في الجواب عما يأمر به النبي ﷺ قوله: يقول: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم»، فبدأ بالتوحيد الذي هو أول ما دعا إليه النبي ﷺ وأعظمه، وهو الأصل العظيم الذي يبنى عليه الإسلام، فمن جاء به وبمتمِّمه وهو شهادة أن محمداً رسول الله، ومات على ذلك، يرجى له الخير وإن قصر في بعض الأعمال، ومن لم يجئ به لا ينفعه عمل.

الفائدة الحادية عشرة: قول هرقل لأبي سفيان: «إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين»، يعني: إنْ كنتَ صادقاً فيما وصفت به هذا النبي، فإنه سينتصر هو ومن اتبعه من أمته علينا نحن معشر الروم، وعلى جميع أعدائه، وسيخرجوننا من بلاد الشام.

قال محمد تقي الدين: وكذلك وقع، فإن عمر رضي الله عنه أخرجهم من بلاد الشام، وسكنها المسلمون.

الباب الرابع

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨]

قال (ك): «ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى[(١)] محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم كما قال محمد بن إسحاق بن يسار حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن [عكرمة أو سعيد بن جبير عن][(٢)] ابن عباس رضي الله عنه قال: اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾»[(٣)] الآية أي: كيف تدّعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وقد كان زمنه قبل أن تنزل التوارة على موسى، وكيف تدّعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[(٤)] ثم قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الآية، هذا الكلام على من حاج[(٥)] فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها[(٦)]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أي: متحنّفاً عن الشرك، قاصداً إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ يقول

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وأثبته من مصادر التخريج.

(٣) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» ـ كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٣) ـ، وابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٢٤٤) رقم (٥٧٢) مقطوعاً على ابن إسحاق، وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٤٩٠) رقم (٧٢٠٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٨٤) من طريق ابن إسحاق بسنده إلى ابن عباس موقوفاً عليه، **وإسناده ضعيف**، فيه شيخ ابن إسحاق محمد بن أبي محمد مجهول.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنكار».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يحاج».

(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وجليتها».

تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل، الذين اتبعوه[١] وهذا النبي، يعني محمداً ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم بعدهم، وروى الترمذي وسعيد بن منصور والبزار وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل نبي ولاية من النبيين، فإن وليي منهم أبي وخليل ربي عز وجل إبراهيم** عليه السلام»[٢]. ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولي جميع المؤمنين برسله»[٣].

الباب الخامس

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]

قال (ك): «قال محمد بن إسحاق، بسنده عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني - يقال له: الرئيس -: أوَ: ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني**»[٤].

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على دينه».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٩٨)، وأحمد (١/ ٤٠١، ٤٢٩ - ٤٣٠)، وسعيد بن منصور (٥٠١ - «التفسير»)، والبزار في «مسنده» (١٩٧٣)، وابن جرير (٥/ ٤٨٩)، وابن أبي حاتم (٢/ ٣٢٦، ط. حكمت بشير ياسين) في «تفسيريهما»، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٠٠٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص١٠٣ - ١٠٤)، والحاكم (٢/ ٢٩٢، ٥٥٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ٢٢١) **وإسناده صحيح**، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٢٣٨) إلى عبد بن حميد وابن المنذر، وأعلّه أبو حاتم وأبو زرعة الرازيان - كما في «العلل» (٢/ ٦٣) رقم (١٦٧٧) - بالإرسال، ورده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على «تفسير ابن جرير» (٦/ ٤٩٩)، وجزم بصحته.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٨٥ - ٨٦).

(٤) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» - كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٣٩٥) - ومن طريقه =

أو كما قال ﷺ، فأنزل الله في ذلك من [قوله](١): ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة، أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله، أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى، ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته، قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً، يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون(٢) أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وفي «المسند» والترمذي كما سيأتي أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله ما عبدوهم! قال: «**بلى: إنهم أحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»(٣)، فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم

= ابن جرير (٦/ ٥٣٩) رقم (٧٢٩٦، ٧٢٩٧)، وابن أبي حاتم (٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠) رقم (٨٧٥)، وابن المنذر (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧) رقم (٦٤٢) في «تفاسيرهم»، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٨٤) **وإسناده ضعيف**، فيه محمد بن أبي محمد شيخ ابن إسحاق مجهول.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قولهما». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتعبدون»!

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٠٩٥)، وابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٨١)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٢/رقم ٢١٨، ٢١٩)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٧٨٤) رقم (١٠٠٥٧)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١١٦)، و«المدخل» رقم (٢٦١)، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٣٠) ـ، وابن حزم في «الأحكام» (٦/ ١٣٢ ـ ١٣٣)، والمزي في «تهذيب الكمال» (ق١٠٩٠) من حديث عدي بن حاتم.

قال الترمذي عقبه: «وهذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروفٍ في الحديث»، وقال المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٣٦٥) في تخريجه: «أخرجه الترمذي وحَسَّنه»! ولم يحسنه الترمذي.

وانظر: «تحفة الأشراف» (٧/ ٢٨٤)، و«العارضة» (١١/ ٢٤٦).

قلت: غطيف ـ ويقال: غضيف ـ ضعيف، ضعفه الدارقطني. انظر: «الضعفاء والمتروكين» رقم (٤٣٠)، و«اللسان» (٤/ ٢٤٠). وله شاهد من حديث أبي العالية عند ابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٨١) وشاهد آخر عن حذيفة موقوفاً، وله حكم الرفع، كما هو مقرر في علم المصطلح.

أخرجه بنحو اللفظ المذكور ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٨٦١)، وبنحوه رواه سفيان الثوري في «تفسيره» (ص١٢٤) رقم (٣٣٣)، وعنه عبد الرزاق (٢/ ٢٧٢)، والطبري =

والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به وبلَّغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهون عما نهاهم الله عنه وبلَّغتهم إياه رسلُه الكرام، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة، وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم القيام، ونصحوا الخلق، وبلَّغوهم الحق، وقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد: أي: حكماء، علماء حلماء[1]،

= (١٠/ ٨١٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٤) رقم (١٠٠٥٨) في «تفاسيرهم»، وابن عبد البر رقم (١٨٦٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٦٧)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦)، وفي «المدخل» (٢٥٨ و٢٥٩)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٨٦٤) من طريق الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري عن حذيفة.

وتابع الأعمش: العَوَّامُ بن حوشب، أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٥/ ٢٤٥) رقم (١٠١٢)، وابن جرير (١٤/ ٢١١ رقم ١٦٦٣٦، ط. شاكر) وعطاءُ بن السائب، أخرجه ابن جرير (١٤/ ٢١٣) رقم (١٦٦٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٤٥ رقم ٩٣٩٤، ط. دار الكتب العلمية) من طريق سفيان عن عطاء به.

ورجاله ثقات لكنه منقطع، أبو البَخْتَري سعيد بن فيروز الطائي لم يسمع من حذيفة، قال ابن سعد في «طبقاته» (٦/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣): «وكان أبو البختري، كثير الحديث، يرسل حديثه، ويروي عن أصحاب رسول الله ﷺ ولم يسمع من كبير أحد، فما كان من حديثه سماعاً فهو حسن، وما كان عن فهو ضعيف» قلت: وأرسل عن حذيفة كما في «تهذيب الكمال» (١١/ ٣٢ ـ ٣٥)، وعزاه في «الدر» (٣/ ٢٣١) أيضاً للفريابي، وابن المنذر وأبي الشيخ.

ورواه جماعة عن عطاء عن أبي البختري قوله: أخرجه ابن عبد البر (٢/ ٩٧٦) رقم (١٨٦٣)، وابن جرير (١٤/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم (١٦٦٣٧)، وابن حزم في «الأحكام» (٦/ ١٧٩ ـ ١٨٠) **بإسناد حسن**، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٢٧٦) عن آدم بن أبي إياس عن ورقاء قوله.

فالحديث حسن بطرقه المتعددة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: «الإيمان» (٦٤)، وعزاه ابن القيم في «الإعلام» (٣/ ٤٥١ ـ بتحقيقي)، وابن كثير في «التفسير» (٢/ ٣٤٨) للإمام أحمد في «المسند» من حديث عدي!! وأقر ذلك المصنف، ولم أظفر به في «مسنده» (٤/ ٢٥٦ ـ ٣٧٧) (مسند عدي)، ولا في «أطراف المسند (٤/ ٣٢٦ ـ ٣٣٢) ثم وجدتُ الشيخ أحمد شاكر يقول في تعليقه على «الإحكام»: «وهذا الحديث لم يروه أحمد في «مسنده» على سعته».

(١) ذكره البخاري تعليقاً بصيغة الجزم. «ووصله ابن أبي عاصم أيضاً **بإسناد حسن**، والخطيب =

وقال الحسن وغير واحد: فقهاء»[١]. وبمثل هذا قال أكثر السلف.

قال محمد تقي الدين: يروى عن ابن عباس أنه قال: «الرباني: هو الذي يربيّ الناس بصغار العلم قبل كباره»[٢]، ومعنى ذلك أنه يعلمهم المسائل السهلة قبل الصعبة، وقال الضحاك في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: «حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً»، ﴿تَعْلَمُونَ﴾[٣]، أي: تفقهون معناه، وقرئ: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد[٤] من التعليم ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تحفظون ألفاظه، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله: لا نبي مرسل، ولا ملك مقرَّب، ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى

= **بإسناد آخر حسن** ووافقه ابن مسعود فيما رواه إبراهيم الحربي في «غريبه» عنه **بإسناد صحيح**» أفاده ابن حجر. انظر: «الفتح» (١/ ٢١٣)، و«تغليق التعليق» (٢/ ٨٠ ـ ٨١).
وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥/ ٥٢٨) موقوفاً عن ابن عباس، وابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٢٦٨) موقوفاً عن ابن مسعود.
وأخرجه ابن جرير (٥/ ٥٢٨)، وسعيد بن منصور (٥٠٤)، وعبد الرزاق (١/ ١٢٥)، وسفيان الثوري (ص٧٨) رقم (١٥١) في «تفاسيرهم» **بسندٍ صحيح** عن أبي رَزين، وهو مسعود بن مالك الأسدي الكوفي.
وأخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨٥) رقم (١٧٨) مقطوعاً عن سعيد بن جبير.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٨ ـ ٩٩).
(٢) عزاه المصنف لابن عباس والصواب أنه من كلام البخاري. انظر لذلك: «فتح الباري» (١/ ٢١٣)، و«إرشاد الساري» (١/ ١٦٨)، و«شرح الكرماني» (٢/ ٣١ ـ ٣٢).
(٣) هذه قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبان عن عاصم وأبي جعفر ويعقوب، وهي التي اعتمدها المصنف، لأنها قراءة ورش، انظر الهامش الآتي.
(٤) هذه قراءة عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف والأعمش، واختارها أبو عبيد، ورجحها الطبري. انظر: «السبعة» (٢١٣)، «النشر» (٢/ ٢٤٠)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٥١)، «الحجة» للفارسي (٣/ ٥٩)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢٩٠)، «الدر المصون» (٢/ ١٤٨).

إخباراً عن الملائكة: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٩][1].

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن سبب نزول الآيتين أن أحبار اليهود والنصارى من أهل نجران اجتمعوا عند النبي ﷺ فقال اليهود: أتريد يا محمد أن نعبدك كما عبدت النصارى عيسى ابن مريم؟ فأنكر النبي ﷺ ذلك أشد الإنكار، وقال لهم: «**معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني**»[2]، وهذا الذي قال النبي ﷺ، هو قول جميع النبيين والمرسلين، وجميع عباد الله الصالحين، من لدن آدم إلى يوم القيامة.

الثانية: إن النصارى الذين ينسبون إلى عيسى أنه أمرهم أن يتخذوه رباً، كاذبون على عيسى بشهادة نصوص القرآن والأناجيل الأربعة التي ينسبون إليها ذلك، وعلى ما فيها من التحريف والتبديل والتغيير لا تزال فيها نصوص صريحة تشهد عليهم بأن عيسى قال لهم: إنما أنا بشر، ولا يعبد إلا الله، انظر كتاب «البراهين الإنجيلية» على أن عيسى داخل في العبودية، وبريء من الألوهية[3]، **لمؤلف هذا الكتاب، وقد أمر بطبعه رئيسنا الجليل الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز[4] أجزل الله ثوابه.** وترجم بالإنجليزية، ونشر ضمن (المجلد الرابع) من

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٩). (٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر التعليق على (٢/ ٢٧ و٣/ ١٦٨) فقد نقلت منه ما يفصّل الإجمال المذكور هنا، وينظر ما سيأتي قريباً (ص٣١٠) والله الموفق الهادي.

(٤) كان الهلالي يكثر من ذكر العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز، فها هو يقول في «فتاواه» المسماة «العيون الزلالية في الفتاوى الهلالية» (ق٣١٥) في جواب سؤال مؤرخ بفاتح صفر سنة ١٣٩٣: «أشركت معي عالماً كبيراً مشهوراً بالورع، وهو رئيس جامعتنا الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز...».

وظفرت بخط الهلالي على طرة كتابه «الطريق إلى الله» مؤرخاً بـ ٨/ ١١/ ١٣٩١هـ ما نصه: «هدية من المؤلف إلى الإمام المصلح الداعي إلى الله على بصيرة سماحة الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مع أطيب التحيات».

وللهلالي قصيدة رنانة في مدح الشيخ عبد العزيز بن باز، لم أرها في «ديوانه»، ولعله أسقطها منه بسبب اعتراض الشيخ ابن باز على ما فيها، وقد نشرت في مجلة «الجامعة السلفية» بالهند في شعبان سنة ١٣٩٧هـ، وها هو نصُّها:

خليلي عُوْجَا بي لنغتنمَ الأجرا   على آل باز إنهم بالعلى أحرى =

= فما منهمو إلا كريم وماجدٌ ... تراه إذا ما زرته في الندى بحرا
فعالمهم جَلَّى بعلم وحكمةٍ ... وفارسهم أولى عداة الهدى قهرا
فسل عنهمُ القاموسَ والكُتبَ التي ... بعلم حديث المصطفى قد سمت قدرا
أعُمُّهمو مدحاً وإني مقصرٌ ... وأختص من حاز المعالي والفخرا
أمامَ الهدى عبدَ العزيز الذي بدا ... بعلم وأخلاق أمام الورى بدرا
تراه إذا ما جئته متهللاً ... ينيلك ترحيباً ويمنحك البشرى
وأما قِرى الأضيافِ فهو إمامُه ... فحاتم لم يتْرك له في الورى ذكرا
حليمٌ عن الجاني إذا فاه بالخنا ... ولو شاء أرداه وجلله خُسرا
يقابل بالعفو المسيء تكرماً ... ويبدل بالحسنى مساءته غُفرا
وزهده في الدنيا لو أن ابنِ أدهم ... رآه ارتأى فيه المشقة والعسرا
وكم رامت الدنيا تحلُّ فؤاده ... فأبدلها نُكْراً وأوسعها هَجْرا
فقالت له: دعني بكفِّك إنني ... بقلبك لم أطمع فحسبي به وَكْرا
خطيب بليغ دون أدنى تلعثم ... ومن دون لحن حين يكتب أو يقرا
بعَصْرٍ يرى قُراؤه اللحنَ واجباً ... عليهم ومحتوماً ولو قرأوا سطرا
بتفسير قرآنٍ وسنة أحمد ... يُعمِّر أوقاتاً وينشرها دُرّا
وينصر مظلوماً ويسعف طالباً ... بحاجاته ما إن يخيِّب مضطرا
قضى في القضا دهراً فكان شُريحَه ... بخرج(١) أزال الظّلمَ والحيفَ والقسرا
وكليةَ التشريعِ قد كان قُطْبَها ... فأفعمها علماً فنال به شكرا
وجامعة الإسلامَ أطلع شمسَها ... فَعَمَّت به أنوارُها السَّهْلَ والوعرا
تيمّمَها الطلابُ من كل وُجْهَةٍ ... ونالوا بها علماً وكان لهم ذخرا
فمن كان منهم ذا خداع فخاسر ... ومن كان منهم مخلصاً فله البشرى
ولم أر في هذا الزمان نظيره ... وآتاك شيخاً صالحاً عالماً بَرًّا
وأصبح في الإفتا إماماً مُحَقِّقاً ... بعلم وأخلاق بدا عَرْفُها نَشْرا
وأما بحوث العلم فهو طبيبُها ... مشاكله العسرى به أُبدلت يسرا
ويعرف معروفاً وينكر منكراً ... ولم يخش في الإنكار زيداً ولا عمرا
وما زال في الدعوى سراجاً منوِّراً ... دُجَى الجهل والإشراك يدحره دحرا
بدعوته أضحت جموعٌ كثيرةٌ ... تحقق دين الحق تنصره نصرا
ألم نره في موسم الحج قائماً ... كيعسوب نحلٍ والحشودُ له تترا
وما زال في التوحيد بدر كماله ... يحققه للسامعين وللقُرا
ويثبت للرحمٰن كل صفاته ... على رغم جهمي يعطلها جهرا
ويعلن حرباً ليس فيه هوادة ... على أهل إلحاد ومن عبد القبرا =

---

(١) الخرج: منطقة تبعد عن الرياض ثلاثين كيلاً.

«ترجمة صحيح البخاري» للدكتور محمد محسن، فكل من نسب إلى نبي أو عبد صالح أنه يرضى بعبادة غير الله تعالى، فقد أساء إليه وكذب عليه.

الثالثة: إن هؤلاء المشركين الذين يعبدون قبور الصالحين وأرواحهم ويزعمون أنهم بهذه العبادة ينالون رضا الله وقضاء حاجاتهم العاجلة والآجلة، ليس لهم علم ولا عقل، أما **العلم**؛ فلأن نصوص القرآن والسنة في غاية الوضوح دالة على أن من أشرك بالله في عبادته أو ربوبيته كافر يائس من رحمة الله في الدار الآخرة، خالد في جهنم أبداً، وقد ذكر الحافظ ابن كثير فيما نقلت عنه هنا بعض الآيات المصرحة بذلك، ولو لم يكن في القرآن من ذلك إلا هاتان الآيتان، لكانتا كافيتين في بيان ذلك لكل من يقرأ القرآن، ويعرف اللغة العربية، ولكن من طبع الله على قلبه وأعمى بصره، لا حيلة فيه. وأما **العقل**؛ فإنَّ كلَّ عاقل يعلم أن المتصرف في هذا العالم بالعطاء والمنع هو خالقه ﷻ، وأن المخلوق كيفما كانت منزلته عالية لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فكيف بغيره؟! إلا أن العقل وحده لا يستطيع أن يحقق التوحيد بدون الاستضاءة بأنوار الوحي، ولذلك لم

= وما قلت هذا رغبة أو تملقاً ... ولكن قلبي بالذي قلته أدرى
فيا رب مَتِّعْنَا بطول حياته ... وحفظاً له من كل ما ساء أو ضرًّا
فلو كان في الدنيا أناس كمثله ... بأقطار إسلام بهم تكشف الضرَّا
فيا أيها المَلْكُ المعظم خالدٌ ... بإرشاده اعمل تحرز الفتح والنصرا
فقد خصَّه الرحمٰن باليمن والمنى ... وآتاك شخصاً صالحاً عالماً بَرًّا
فأنت لأهل الكفر والشرك ضيغم ... تذيقهموا صاباً وتسقيهمو المُرا
فلا زلت للإسلام تنصر أهله ... وتردي بأهل الكفر ترديهمو كسرا
وحبَّبك الرحمٰنُ للناس كلِّهم ... سوى حاسد أو مشرك أضمر الكفرا
وقد أبغض الكفارُ أكرَمَ مُرسلٍ ... وإن كان خير الخلق والنعمة الكبرى
عليه صلاة اللّه ثم سلامه ... يدومان في الدنيا وفي النشأة الأخرى
كذا الآل والصحب الأجلاء ما بكت ... مطوقةٌ ورقاءُ في دوحة خضرا
وما طاف بالبيت العتيق تقرباً ... حجيج يُرَجُّون المثوبة والأجرا
وما قال مشتاق وقد بان إلفه ... خليلي عوجا بي لنغتنم الأجرا
فيا أيها الأستاذ خذها ظعينةً ... مقنَّعةً شعثاء تلتمس العذرا
فقابل جفاها بالقبول وأَوْلِها ... من العفو جلباباً يكون لها سترا

وذكرتُها في جمعي لشعره ضمن ترجمة حافلة له، وانظر: «جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز» (ص١٤٢ ـ ١٤٦).

يجعله الله وحده حجة على الناس[1]، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

الباب السادس

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٣ ـ ٨٥]

«يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: استسلم له من فيها ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[2] الآية، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٨ ـ ٥٠]. فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع»[3]. «ثم قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني القرآن: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: من الصحف والوحي ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل ـ وهو يعقوب ـ الاثني عشر ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهذا يعمُّ جميعَ الأنبياء جملة

---

(١) فقد ولاه الشرع ثم عزله، وهو شاهد والشرع قاضٍ، ويجوز للقاضي أن يطرد الشاهد متى شاء، ورحم الله إلْكِيا الهَرَّاسي لما قال: «إذا صالت النصوص في مهادين الكفاح، طارت العقول على أسنّة الرِّماح».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ الآية».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٢).

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾. يعني: بل نؤمن بجميعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية، أي: من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله، فلن يقبل منه: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم بسنده عن أبي هريرة إذ ذاك ونحن بالمدينة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام، فيقول: يا رب أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم يجئ الأعمال، كل ذلك يقول الله: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام، وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي، قال الله في كتابه:** ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾»[٢]. تفرد به أحمد»[٣].

فائدة

قال محمد تقي الدين: دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه بعد بعثة محمد ﷺ هو الإسلام. والإسلام الصحيح الذي يسعد صاحبه في الدنيا والآخرة هو الإسلام النقي لله تعالى إيماناً وعبادة وإخلاصاً، فلا يتوجه العبد إلى غيره لطلب نفع أو لدفع ضر، ولا يتحاكم إلا إلى شرعه، ولا يرضى إلا به، أما

---

(١) سبق تخريجه، وهو **صحيح**.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢)، وأبو يعلى (٦٢٣١)، والطبراني في «الأوسط» (٦٧٠٧)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٤٨) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في «الأوسط»... وفيه عباد بن راشد، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة وبقية رجال أحمد رجال الصحيح».

قلت: **إسناده ضعيف**، الراوي له عن أبي هريرة الحسن البصري ولم يسمع منه، فهو منقطع.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

الإسلام الظاهر وهو الإنقياد للإسلام ظاهراً مع إضمار الانحراف والتكذيب، فهو دين المنافقين، وهم في الدرك الأسفل من النار، وكذلك الإسلام الذي يشرك صاحبه بالله تعالى في عبادته بالدعاء، والاستغاثة، والذبح، والنذر، والتوكل، والخوف، والرجاء إلى غير ذلك من أنواع العبادات، فإنه لا ينفع صاحبه ولا ينجِّيه من الخلود في نار جهنم، كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ومعنى حديث أبي هريرة: إن الأعمال كلها من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد لا يتقبل شيء منها إلا مع الإسلام الصحيح، لقوله تعالى في الحديث: «**بك اليوم آخذ، وبك أعطي**»(١).

الباب السابع

قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٥]

قال (ك) في تفسيرها: «قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي: قل يا محمد: صدق الله فيما أخبر به، وفيما شرعه في القرآن ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اتَّبعوا ملَّةَ إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣]»(٢). اهـ.

قال محمد تقي الدين: وكل من عبد شيوخ الصوفية بالاستمداد منهم، أو عبد قبور الصالحين أو الطالحين بالذبح والنذر والطواف والتمسح وإقامة الأعياد حولها، فلم يتَّبع ملة إبراهيم، ولم يكن حنيفاً.

---

(١) قطعة من الحديث المتقدم، وهو منقطع، كما سبق بيانه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/١١٣ ـ ١١٤).

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]

قال (ك): «قال ابن أبي حاتم: وذكر سنده إلى عبد الله بن مسعود ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال: «أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر»(١)». ثم قال: «وهذا إسناد صحيح موقوف، ورواه الحاكم في «مستدركه» مرفوعاً، وقال: صحيح على شرط الشيخين».

قال (ك): «والأظهر، أنه موقوف، وقال جماعة من السلف إنها منسوخة(٢) بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] في سورة التغابن، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾. قال: «لم تنسخ، ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم»(٣)، وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم؛ لتموتوا عليه فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه، أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك»، ثم قال: «قال الإمام أحمد(٤)، وذكر سنده إلى عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلْتُدْرِكْه منيَّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي(٥) إلى الناس ما يحبُّ أن يؤتى إليه**»»(٦).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٤٦) رقم (١٠٧٩)، وعبد الرزاق (١/ ١٢٩)، والطبري (٧/ ٦٥) رقم (٧٥٣٦، ٧٥٣٧، ط. شاكر)، وابن المنذر (١/ ٣١٧) رقم (٧٦٨) في «تفاسيرهم»، والطبراني (٩/ ٩٣) رقم (٨٥٠١)، والحاكم (٢/ ٢٩٤) من طريق زبيد اليامي عن مرة عن ابن مسعود، ومنهم من رفعه ومنهم من وقفه. **وإسناده صحيح**. وممن رواه مرفوعاً ابن مردويه، أفاده ابن كثير (٣/ ١٣١) وصحَّح الموقوف.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: «الموافقات» (٣/ ٣٥٧) للشاطبي، مع تعليقي عليه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٢) رقم (٣٩١٠)، وابن جرير (٥/ ٦٤١)، وابن المنذر (١/ ٣١٨) رقم (٧٧٠) في «تفاسيرهم».

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٢)، ومسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «ويؤتى».

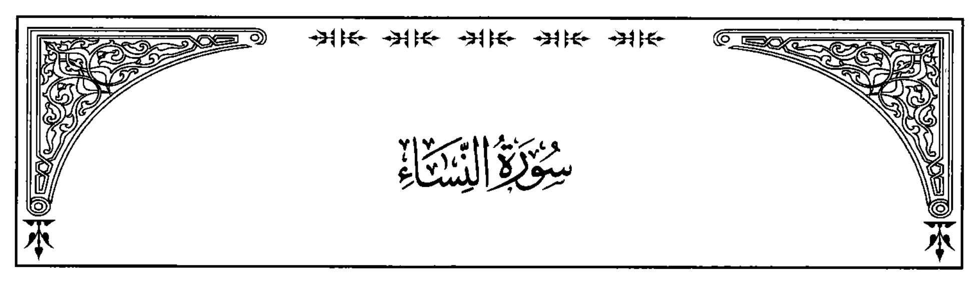
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٣٠ ـ ١٣٢) بتصرف.

فائدتان:

قال محمد تقي الدين: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ليس المراد به الإسلام الظاهر فقط؛ لأنه لا ينجي صاحبه من عذاب الله ولا يوصله إلى رضوان الله، فإن المنافقين كانوا مسلمين فيما يظهر للناس، وهم كافرون، بل المراد: الإسلام بالقلب واللسان والجوارح، مع تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك وأهله. فإذا عاش الإنسان على هذا الإسلام يرجى من فضل الله ورحمته أن يموت على ذلك، كما ذكره ابن كثير.

الثانية: من المعلوم أن قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ من سورة التغابن وهي مكية، وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ من آل عمران، وهي مدنية، والآية المكية متقدمة على الآية المدنية، فكيف تنسخها؟! فالقول بالنسخ سهو[1]، والصواب أنها محكمة كما قال ابن عباس. اهـ.

(١) حقق الشاطبي في «الموافقات» (٣/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨) أن الآيتين مدنيتان، قال: «ولم تنزّلا إلا بعد تقرير أنّ الدين لا حرج فيه، وأن التكليف بما لا يستطاع مرفوع، فصار معنى قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]: فيما استطعتم، وهو معنى قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، فإنما أرادوا (أي من قال بالنسخ من السلف، وهم جماعة) بالنسخ أن إطلاق سورة آل عمران مُقيَّد بسورة التغابن».
وانظر في ذلك: «الإيضاح» (ص٢٠٣) لمكي بن أبي طالب، «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ١٢٦) لابن العربي، «زاد المسير» (١/ ٤٣٢)، «نواسخ القرآن» (١٠٨)، «تفسير القرطبي» (٤/ ١٥٧).



سُورَةُ النِّسَاءِ

الباب الأول

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦]

قال (ك): «يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرزاق المنعم المتفضل على خلقه في جميع[1] الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحِّدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**أتدري ما حق الله على العباد؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**»، ثم قال: «**أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم**»[2]. ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، كما جاء في الحديث: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة**»[3]. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآنات و....».

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٧، ١٨)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٩٢)، والدارمي (١/ ٣٩٧)، والترمذي (٦٥٨)، والنسائي في «المجتبى» (٥/ ٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٣٦)، والطبراني في «الكبير» (٦٢١٢)، والفسوي (٣/ ٤٠٥)، =

وذلك لأنهم[١] فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم، والحنوّ عليهم، ثم قال: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات، الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم، وتزول به ضرورتهم، وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة. وقوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، يعني الذي بينك وبينه قرابة، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة»[٢]، وكذا روي عن جماعة من مفسري السلف، وقال جابر الجعفي، عن الشعبي، عن علي وابن مسعود: «﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: المرأة»، وقال مجاهد أيضاً في قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ يعني: «الرفيق في السفر»، وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان:

الحديث الأول: قال البخاري ومسلم[٣] عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه**».

الحديث الثاني: روى الترمذي[٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «**خير الأصحاب عند الله، خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**». قال الترمذي: حديث حسن غريب.

= وابن خزيمة (٢٣٨٥)، وابن حبان (٣٣٤٤)، والطبراني (٦٢١١)، والحاكم (١/ ٤٠٧)، والبيهقي (٤/ ١٧٤) من حديث سلمان بن عامر الضَّبِّي، والحديث **صحيح بشواهده**.

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قد».

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٤٨) رقم (٥٢٩٦)، وابن المنذر (٢/ ٧٠٠ ـ ٧٠١) رقم (١٧٥١ ـ ١٧٥٣) في «تفاسيرهم»، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٢٤) بنحوه، وانظر: «صحيفة علي بن أبي طلحة» (٢٢٣ ـ ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٤٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٥)، وأحمد (٢/ ١٦٧، ١٦٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣٤٢)، وسعيد بن منصور (٢٣٨٨)، والدارمي (٢/ ٢١٥)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٣٢٩)، وابن خزيمة (٢٥٣٩)، وابن حبان (٥١٨، ٥١٩)، والحاكم (١/ ٤٤٣ و٢/ ١٠١ و١٦٤)، والطحاوي في «المشكل» (٤/ ١٤٠)، وابن بشران في «الأمالي» (٧١٠)، والفاكهاني في «حديثه» (٢٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٧٧) و«الآداب» (٩٥٦)، **وإسناده حسن**، وانظر تخريجه مطولاً في «الأجوبة العلية عن الأسئلة الدمياطية» رقم (١٢٧) للسخاوي، وتعليقي عليه.

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد[١] بسنده عن المقداد بن الأسود يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**ما تقولون في الزنا؟**» قالوا: حرام، حرمه الله ورسوله، وهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: «**لأن يزني الرجل بعشر نسوة، أيسر عليه من أن يزني بحليلة جاره**»، قال: «**ما تقولون في السرقة؟**» قالوا: حرمها الله ورسوله، فهي حرام إلى يوم القيامة، قال: «**لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من جاره**». تفرد به أحمد، وله شاهد في «الصحيح»[٢] من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله! أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[٣].

الحديث الخامس: قال أبو بكر البزار[٤] بسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، وهو أفضل الجيران حقاً، فأما الجار الذي له حق واحد، فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار، وأما الجار الذي له حقان، فجار مسلم، له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق، فجار مسلم ذو رحم، له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم**».

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣)، و«التاريخ الكبير» (٨/ ٥٤)، والبزار في «مسنده» (٦/ ٢١١٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/رقم ٦٠٥)، و«الأوسط» (٦/ ٦٣٣٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٩٥٥٢) **وإسناده قوي**، وقال المنذري في «الترغيب» (٣/ ٢٧٩، ٣٥٢)، والهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٦٨): «رجاله ثقات».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيحين».

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٤) هو في «كشف الأستار» (٢/رقم ١٨٩٦) وفي «مختصر الزوائد» لابن حجر (٢/ ١٨٠٤)، وهو عند الأصفهاني في «الترغيب» (٨٧٠)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٦٧) وقال: «رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد الحارثي وهو **وضاع**». وبه أعله ابن حجر فقال: «**الحارثي متهم**»، **فإسناده واهٍ بمرّة**. لكنه عند أبي نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٠٧) من غير طريق الحارثي، ولكن فيه عطاء الخراساني ضعيف. والحسن لم يسمع من جابر، **فإسناده ضعيف**. وله شواهد لا يفرح بها، انظرها عند ابن عدي (٦/ ٢٩٢)، وهناد في «الزهد» (١٠٣٦)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١/ ٢٣٧)، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٦٠).

الحديث السادس: روى أحمد والبخاري[(١)] عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ، فقالت: إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «**إلى أقربهما منك باباً**».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة[(٢)]، أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»[(٣)]، فجعل يرددها حتى ما يفيص بها لسانه. وقال الإمام أحمد بسنده عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة**»[(٤)]، ورواه النسائي من حديث بقية، **وإسناده صحيح**، ولله الحمد. وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعطهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «**كفى المرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم**». رواه مسلم[(٥)]. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق**»، رواه مسلم[(٦)]. وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**هم إخوانكم**[(٧)]»،

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٧٥)، والبخاري (٢٢٥٩)، وأبو داود (٥١٥٥) وغيرهم.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الجنبة».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٦٩٧)، والنسائي في «الكبرى» (٧٠٩٤ ـ ٧٠٩٧)، وأحمد (٣/ ١١٧)، وعبد بن حميد (٢١١٤)، وابن سعد (٢/ ٣٥٢)، والطحاوي في «المشكل» (٣٢٠٠ ـ ٣٢٠٢)، وأبو يعلى (٢٩٣٣، ٢٩٩٠)، وصححه ابن حبان (١٤/ ٦٦٠٥)، والحاكم (٣/ ٥٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢٠٥)، وفي «الشعب» (٨٥٥٢) من حديث أنس، وحسن إسناده البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٣٦١)؛ **والحديث صحيح**.
و«يفيص» بالصاد غير معجمة، خلافاً لما في الأصل، ومعناه ما يبين كلامه، أفاده البغوي في «شرح السنة» (٩/ ٣٥٠).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٣١)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٨٥، ٩٢٠٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨٢، ١٩٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٦٣٤)، وفي «مسند الشاميين» (١١٢٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ١٧٩)، وأبو نعيم (٩/ ٣٠٩) وفي «ذكر تاريخ أصبهان» (٢/ ٧٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ٥١٧). **والحديث حسن**، وانظر: «مجمع الزوائد» (٣/ ١١٩).

(٥) أخرجه مسلم (٩٩٦).

(٦) أخرجه مسلم (١٦٦٢).

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خولكم».

جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[١]، أخرجاه»[٢].

قال محمد تقي الدين: اشتمل هذا الباب أولاً، على توحيد الله في عبادته، والنهي عن الشرك به، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ جاءت ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي[٣]، تعمُّ كل شيء من الملائكة، والأنبياء الصالحين، وغيرهم، ويشتمل على الحقوق الواجبة على الإنسان للأقارب والأباعد، ممن لهم به علاقة، وذلك من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيم، فمن وفَّى بذلك كان من خير خلق الله، وإذا وجدت أمة تحافظ على توحيد الله وهذه الأخلاق، تكون أسعد الأمم في دينها ودنياها وبالله التوفيق.اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]

قال (ك): «قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]».

قال محمد تقي الدين: قرئ عليَّ تفسير ابن كثير لهذه الآية، فوجدت في النسخة التي بأيدينا حديثاً ذهب أوله، وأنا أحفظ هذا الحديث، ولكن لم أعتمد على حفظي، فنظرتُ في «الجامع الصغير»، فوجدت الأمر كما ظننت، فقد حذف في هذه النسخة، وهي مطبوعة في مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٧٢هـ. الطبعة الثانية، وقد كتب في أول صفحة ما نصه: «قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية، وصححها نخبة من العلماء»، فأقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، كيف تتفق عدة نسخ خطية على إسقاط ثلاث وعشرين كلمة من الحديث؟ وكيف جاز على نخبة من العلماء أن لا يتفطنوا إلى هذا الخلل؟ والحقيقة: أن الكتب التي يطبعها التجار مضيعة، فلا مقابلة فيها ولا تصحيح،

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٧)، ومسلم (١٦٦٣).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٢ ـ ٤٤) بتصرف.

(٣) في الأصل: «العموم»! وهو سبق قلم!

وبذلك يقع التغيير والتبديل والحذف، **فلا تكاد تجد في أكثر بلاد المسلمين مطبعة واحدة يوثق بها! على حين المطابع في البلاد الأوروبية يبذل أهلها أقصى العناية بكل ما يطبعونه**، فكثير من المطابع في البلاد الأوروبية وبجرمانية يعلن أصحابها في كل كتاب يطبعونه، أن كل من وجد لهم خطأ في مطبوعاتهم، يعطونه خمسمائة مارك ! فشتان ما بين الفريقين ـ والساقط من هذا الحديث في هذه النسخة، هو من أوله إلى قوله: «**وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به**» وسأثبته كاملاً فأقول:

قال صاحب «الجامع الصغير» في حرف الدال[1]: «**الدواوين ثلاثة، فديوان لا يغفر الله منه شيئاً، وديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك منه شيئاً، فأما الديوان الذي لا يغفر الله منه شيئاً، فالإشراك بالله، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله يغفر ذلك إن شاء ويتجاوز، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فمظالم العباد، بينهم القصاص لا محالة**». «حم ك» يعني: أخرجه الإمام أحمد والحاكم[2]. اهـ.

ثم قال (ﷺ): «**الحديث الثاني**: قال البزار[3] وذكر سنده عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يترك الله منه شيئاً، فأما الظلم الذي لا يغفره الله، فالشرك، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ**

(١) انظر: «الجامع الصغير» (ص٤٤٣) رقم (٣٠٢٢ ـ «ضعيفه»).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٥، ٥٧٦)، وأبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (٢/ ٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٧٣، ٧٤٧٤) **وإسناده ضعيف**، انفرد به صدقة بن موسى، وانظر ـ لزاماً ـ تعليقي على: «المجالسة» (١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٤) فقد أسهبتُ في الكلام على شواهده، **وهو حسن بها**، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٩٢٧).

(ملاحظة): الحديث موجود بتمامه في الطبعة التي اعتمدناها من «تفسير ابن كثير»، وهي طبعة مكتبة أولاد الشيخ المصرية، وهي مقابلة على النسخة الأزهرية، وعلى نسخة كاملة بدار الكتب المصرية، وهو موجود في غير طبعة جيدة من هذا «التفسير»، ظهرت بعد وفاة الهلالي رحمه الله تعالى، وسبقت الإشارة إلى بعضها، والله الموفِّق.

(٣) كما في «كشف الأستار» (٤/رقم ٣٤٣٩)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٥١) وقال: «رواه البزار عن شيخه أحمد بن مالك القشيري، ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا على ضعفهم»، وانظر: «الصحيحة» (٤/ ١٩٢٧).

عَظِيمٌ﴾ **وأما الظلم الذي يغفره الله، فظلم العباد لأنفسهم، فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه، فظلم العباد بعضهم بعضاً، حتى يدين لبعضهم من بعض»**.

الحديث الثالث(١): قال الإمام أحمد في «مسنده»: إن أبا ذر حدثه عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقول: يا عبدي ما عبدتني وما رجوتني فإني غافر لك على ما كان منك، يا عبدي إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لقيتك بقرابها مغفرة**»(٢)، تفرد به أحمد من هذا الوجه.

الحديث [الرابع](٣): أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم(٤) عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة**». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق ثلاثاً**»، ثم قال في الرابعة: «**على رغم أنف أبي ذر**». قال: فخرج أبو ذر وهو يجرّ إزاره، وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر. وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد، ويقول: وإن رغم أنف أبي ذر»(٥)، «وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»(٦). اهـ.

قال محمد تقي الدين: قول النبي ﷺ: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة**» يجب أن يقيد بما دلت عليه الأدلة الأخرى،

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان بن عيسى: حدثنا ثور بن يزيد عن أبي عون عن أبي إدريس قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلّا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً**» ورواه النسائي عن محمد بن مثنى عن صفوان بن عيسى به. **الحديث الرابع**: ....».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٤) وبنحوه عند البخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٠)، ومسلم في «الصحيح» (٢٥٧٧)، **وإسناد أحمد ضعيف**، فيه ليث بن أبي سليم وشهر بن حوشب، **والحديث صحيح**، ولم ينفرد أحمد به، وتقييد ابن كثير انفراده بقوله: «من هذا الوجه» كلام دقيق، كعادته في دقته التي استفادها من حماه المزي، ـ رحمهما الله تعالى ـ.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الخامس».

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٦)، والبخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (١٥٤).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٩٩ ـ ١٠٢).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١١٠).

ويفهم منها شروط ثلاثة: **أولها**: أن يقولها بلسانه، إن كان قادراً. **وثانيها**: أن يعرف معناها ويعتقده بقلبه. **ثالثها**: أن يعمل بمقتضاها. أما قولها بدون مراعاة هذه الشروط، فلا تنفع صاحبها شيئاً؛ لأن المنافقين كانوا يقولونها بألسنتهم، وهم في الدرك الأسفل من النار، وهم شر من الكفار والمسيئين لكفرهم، ونرى في هذا الزمان كثيراً من الناس يقولون: لا إله إلا الله، وهم يشركون بالله، بالدعاء، والذبح، والنذر، والحلف، والخوف بالغيب، والتوكل، والرجاء، والصدقة لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والاستعاذة بغيره، والتحاكم إلى غير شرعه، وتحليل ما حرم الله، إلى غير ذلك من أعمال الكفر، وبعض هؤلاء يجهل معناها، فيظن أن الإله المنفي فيها، هو الرب الخالق الرازق المحيي المميت! وهذا جهل عظيم، فإن هذا توحيد الربوبية، وقد كان المشركون في زمان النبي ﷺ يوحدون الله تعالى في ربوبيته، ويشركون به في عبادته، فلم ينفعهم ذلك التوحيد شيئاً، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

الباب الثالث

قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء: ٨٧ ـ ٨٨]

قال (ك): «﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمن قسماً لقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهذه اللام موطئة للقسم، فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر وقسم، أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه»[1]، ثم «يقول تعالى منكراً على المؤمنين في اختلافهم

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٧).

في المنافقين على قولين[١]، واختلف في سبب ذلك، فقال الإمام أحمد[٢] بسنده عن زيد بن ثابت: إن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، هم المؤمنون، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث [الحديد]**»[٣] أخرجاه في «الصحيحين»[٤]، وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أُبيّ بن سلول رجع يومئذٍ بثلث الجيش، رجع بثلاثمائة، وبقي النبي ﷺ في سبعمائة»[٥].

«وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ أي: ردهم [ودفعهم][٦] في الخطأ[٧]. وقال قتادة: أهلكهم[٨] وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ أي: بسبب عصيانهم، ومخالفتهم الرسول، واتباعهم الباطل، قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي: لا طريق إلى الهدى ولا مخلص له إليه»[٩].

قال محمد تقي الدين: أخبر الله تعالى وهو أصدق القائلين، أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا يعبد سواه، ولا يتخذ إلٰه غيره، ومن دعا غير الله أو استغاث به أو طلب المدد منه كهداية القلوب وانشراح الصدور، أو نذر لغيره، أو ذبح له، وتمسح به، فقد اتخذه إلٰهاً من دون الله، ونقض معنى لا إلٰه إلا الله جهلاً أو عناداً فلا ينفعه قولها، وعداوة المنافقين واجبة، فمن اتخذهم أولياء فقد تعرض لسخط الله تعالى وغضبه، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قولهم»!
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٤، ١٨٧)، والبخاري (١٨٨٤)، ومسلم (٤٩٠).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الفضة».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من حديث شعبة».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٧ ـ ١٨٨).
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأوقعهم».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال ابن عباس: ﴿أَرْكَسَهُم﴾ أي: أوقعهم».
(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال السدي: أضلهم».
(٩) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٩).

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]

قال (ك): «قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله[(١)]. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [ثم أفلح][(٢)] حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان[(٣)]، وكذا روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: تخاصم أهل الأديان، فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام، وكتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا خاتم النبيين، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا، فقضى الله بينهم فقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] الآية، وخير بين الأديان، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[(٤)].

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منكم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فأفلح الله».

(٣) مرسل قتادة، عند ابن جرير (٥/ ١٨٥) وإسناده صحيح، وعزاه في «الدر» (٦/ ٦٩٤) لابن المنذر وعبد بن حميد، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكذا روي عن السدي والضحاك وأبي صالح وغيرهم».
قال أبو عبيدة: معضل السدي، عند ابن جرير (٥/ ١٨٥) وفيه أسباط بن نصر ضعيف، ومعضل الضحاك، عنده وفيه انقطاع بين ابن جرير والحسين بن فرج، وله طريق آخر عنده وعند ابن المنذر كما في «الدر» (٢/ ٦٩٤) وفيه جويبر متروك، ومرسل أبي صالح السمان، عند ابن جرير (٥/ ١٨٥ ـ ١٨٩)، وابن أبي حاتم (٤/رقم ٦٠٠١) بسند صحيح، وعزاه في «الدر» (٢/ ٦٩٥) لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ١٨٥) من طريق العوفي به، **بإسناد ضعيف جداً**، مسلسل بالضعفاء =

ثم قال (ك): «ومعنى[(١)] هذه الآية: إن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه هو على الحق[(٢)] سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، ولهذا قال[(٣)] بعده: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وقد روي أن هذه الآية لما نزلت، شق ذلك على كثير من الصحابة، قال الإمام أحمد[(٤)] وذكر سنده عن أبي بكر، قال: «يا رسول الله، كيف الفلاح بعد هذه الآية ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]؟! فكل سوء عملناه جزينا به، فقال النبي ﷺ: **«غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟! ألست تنصب؟! ألست تحزن؟! ألست تصيبك الأدواء[(٥)]؟»** قال: بلى، قال: **«فهو مما[(٦)] تجزون به»**». اهـ.

قال محمد تقي الدين: الدين إسلام الوجه لله تعالى، واتباع ملة إبراهيم الحنيفية، لا يجتمع أبداً مع دعاء غير الله وعبادة القبور والاستمداد من أرواح الشيوخ، بل هذا ضد الحنيفية.

= والمجاهيل من العوفيين.
وبنحوه عند ابن أبي حاتم (٤/رقم ٥٩٩١) **بسندٍ ضعيف**، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٦٩٥) لعبد بن حميد، ولم أقف على إسناده، وما سبق من «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والمعنى في».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو المحق».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعالى ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة رسله الكرام ولهذا قال».

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١١)، والمروزي في «مسند أبي بكر الصديق» (١١١، ١١٢)، وأبو يعلى (٩٨ ـ ١٠١)، وابن حبان (٢٩١٠، ٢٩٢٦)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٩٢)، والحاكم (٣/ ٧٤، ٧٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٣٧٣)، وفي «الشعب» (٧/ ٩٨٠٥)، **والحديث صحيح**، وانظر: «صحيح مسلم» (٢٥٧٤).

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «اللأواء».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧١ ـ ١٧٥]

قال (ك): «ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلوّ والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى[١]، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة، إلى أن اتخذوه إلٰهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه ـ وأتباعه[٢] ممن زعم أنه على دينه ـ فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، الآية. وقال الإمام أحمد[٣] وذكر سنده عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»، قال علي بن المديني: هذا حديث صحيح سنده[٤]،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حد التصديق بعيسى».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأشياعه».

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٣)، والبخاري (٣٤٤٥)، وسيأتي لفظه.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مسند»!

ورواه البخاري، ولفظه: «**فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

وقال الإمام أحمد(١): بسنده عن أنس بن مالك، أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، عليكم بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ**». وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، أي: لا تفتروا عليه، وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله ﷻ عن ذلك علواً كبيراً، وتنزَّه وتقدَّس وتوحَّد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلق الله(٢) قال له: كن، فكان، ورسول من رسله، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه ﷻ(٣)، وكانت تلك التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله ﷻ، ولهذا [قيل](٤) لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه؛ وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له: بها ﴿كُن﴾، فكان، والروح التي أرسل بها جبريل، قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢] إلى آخره. وقد بين ابن أبي

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣) ـ ومن طريقه الضياء في «المختارة» (١٦٢٧) ـ، وعبد بن حميد (١٣٣٧)، والبخاري في «التاريخ الأوسط» (١/ ١١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٤٨، ٢٤٩)، وابن حبان (٦٢٤٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٩٨)، والضياء في «المختارة» (١٦٢٦) **وإسناده صحيح**، وانظر: «الصحيحة» (١٠٩٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خلقه».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فكان عيسى بإذن الله ﷻ وصارت تلك النفخة في....».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال»!

حاتم بسنده عن شاذان بن يحيى يقول في قول الله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ «ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى»(١)، وهذا أحسن مما ادعى ابن جرير في قوله: ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي أعلمها بها(٢)، كما زعمه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي: يعلمك بكلمة منه، ويجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى عليه السلام.

وقال البخاري(٣)، بسنده عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: **«من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، و[أنّ](٤) النار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»**، وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أي من خلقه، ومن عنده، وليست ﴿مِّنْ﴾ للتبعيض كما تقوله النصارى(٥)، بل هي لابتداء الغاية، كما في الآية الأخرى، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] وفي قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: فصدِّقوا بأن الله واحد أحد، [لا ولد له، ولا صاحبة](٦)، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى﴾ [المائدة: ١١٦] الآية.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/١١٢٣) رقم (٦٣١٠) وغيره.
(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (٥/٤٠٦).
(٣) في «صحيحه» رقم (٣٤٣٥)، وأخرجه مسلم (٢٨) أيضاً.
(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم لعائن الله المتتابعة»، وفي الأصل: «تقول النصارى»!
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا صاحبة له ولا ولد».

وقال في أولها: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] الآية، **فالنصارى من جهلهم ليس لهم ضابط ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم باطلة، وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهاً، ومنهم من يعتقده شريكاً، ومنهم من يعتقده ولداً، وهم طوائف كثيرة، لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً**، ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم، وهو سعيد بن بطريق، في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير، الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفي أسقف فكانوا أحزاباً كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص، فلما رأى [منهم عصابة][(١)] قد زادوا على الثلاثمائة [بثمانية][(٢)] عشر نفراً، قد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها وكان فيلسوفاً داهية، وترك ما عداها من الأقوال، وانتظم دستور أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتباً وقوانين، وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من [الصغار يعتقدوها][(٣)]، ويعمِّدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم **(الملكية)**[(٤)]، ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم **(اليعقوبية)**[(٥)]، ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم **(النسطورية)**[(٦)]، وكل هذه الفرق

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عصابة منهم».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وثمانية».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصغر ليعتقدونها».
(٤) هم جلُّ النصارى اليوم، وانقسموا إلى طوائف، منهم: المارونية، والكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، وكان قسطنطين قد عقد هذا المجمع سنة ٣٢٥م في نيقية ـ وهي مدينة في تركيا تسمى الآن (أرنك) ـ، ويرى المؤرخ فيشر في كتابه «تاريخ أوروبا في العصور الوسطى» (ص٦ ـ ٧)، والمؤرخ النصراني ول ديورانت في «قصة الحضارة» (٣/ ١١/ ٣٨٧، ط. الثالثة) أن أهداف قسطنطين فيما قام به كانت سياسية. وانظر عنه: «محاضرات في النصرانية» (١٢٠ ـ ١٢١) لمحمد أبو زهرة، «أضواء على المسيحية» (٩٤ ـ ٩٥)، «تاريخ الفكر المسيحي» (١/ ٦١٩)، «التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة» (ص٤٩ ـ ٥٣).
(٥) أو (اليعاقبة) نسبة إلى يعقوب البراذعي، الذي انتحل مذهب القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة، وهي التقاء اللاهوت والناسوت في المسيح!
(٦) نسبة إلى نسطور الذي كان بطريرك القسطنطينية سنة ٤٢٨هـ، خلافاً لما ذهب إليه =

تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا أو ما اتحدا، أو امتزجا، أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفّر الفرقة الأخرى(١)، **ونحن نكفّر الثلاثة**، ولهذا

= الشهرستاني في «الملل والنحل» (١/ ٢٢٤) أنه ظهر في أيام المأمون! وذكر الشيخ محمد أبو زهرة في «محاضرات في النصرانية» (ص١٣٥) أن مذهب نسطور بأن عيسى لم يكن إلهاً في حدّ ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو ملهم من الله، وأنه فوق الناس. وانظر لتأكيده: «تاريخ الأقباط» (١/ ١٧٧)، «مختصر تاريخ الكنيسة» (١/ ٣٣٨)، «النصرانية من التوحيد» (٢٠٢)، «نشأة الطوائف المسيحية» (٤٧ ـ ٤٨).

(١) ينبغي لكل حريص على توحيده أن يتنبه لخطورة ما يسمى الآن بـ(التقريب بين الأديان) و(التآخي) و(الوحدة) بينها، وهذه دعوة خطيرة جداً، وهي من حصاد (النظام العالمي الجديد) أو (العولمة)! وللعلامة الشيخ بكر أبو زيد «الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان» وهو مهم في بابه.

وللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (فتوى) برقم (١٩٤٠٢) بتأريخ ٢٥/ ١/ ١٤١٨هـ بشأن (الدعوة إلى وحدة الأديان)، ومما جاء فيها بعد تقرير **أصول عقدية جاءت في نصوص متواترة**: أن القرآن آخر كتب الله نزولاً، وأن التوراة والإنجيل نسخا به، وأن نبينا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، واعتقاد كفرِ كلِّ مَنْ لَمْ يدخل الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم: «وأمام هذه الأصول الاعتقادية، والحقائق الشرعية؛ فإنّ الدعوة إلى (وحدة الأديان) والتقارب بينها وصهرها في قالب واحد، دعوة خبيثة ماكرة، والغرض منها: خلط الحق بالباطل، وهدم الإسلام وتقويض دعائمه، وجرُّ أهله إلى ردة شاملة، ومصداق ذلك في قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾، وقوله جل وعلا: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾» وفيها أيضاً:

«وإن من آثار هذه الدعوة الآثمة: إلغاء الفوارق بين الإسلام والكفر، والحق والباطل، والمعروف والمنكر، وكسر حاجز النفرة بين المسلمين والكافرين، فلا ولاء ولا براء، ولا جهاد ولا قتال لإعلاء كلمة الله في أرض الله، والله جل وتقدس يقول: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾، ويقول جل وعلا: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾» وفيها أيضاً:

«إن الدعوة إلى (وحدة الأديان) إن صدرت من مسلم فهي تعتبر ردة صريحة عن دين الإسلام؛ لأنها تصطدم مع أصول الاعتقاد، فترضى بالكفر بالله ﷻ، وتبطل صدق القرآن ونسخه لجميع ما قبله من الكتب، وتبطل نسخ الإسلام لجميع ما قبله من الشرائع والأديان، وبناءً على ذلك فهي فكرة مرفوضة شرعاً، محرمة قطعاً بجميع أدلة التشريع في الإسلام من قرآن وسنة وإجماع».

قال تعالى: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾[(١)]، ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾ أي: تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أي: الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ كما قال في الآية الأخرى ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]»[(٢)].

قال محمد تقي الدين: في هذا الباب فوائد:

الأولى: غلو النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام، وهذا الغلو لا يقبله أي عقل سليم، ولا يتفق أبداً مع الفطرة التي فطر الله عليها عباده، فإن عيسى بشر ولدته امرأة، فتعالى الذي خلق السمٰوات والأرض أن يكون في رحم امرأة، ثم يربَّى بالرضاعة والرعاية، ويجوع ويأكل، ويعطش ويشرب، ويتعب ويركب، ويمرض ويشفى، ولكن الدعاية الفاسدة تفسد فطرة بني آدم، وتمسخ عقولهم حتى يعتقدوا مثل هذه العقيدة، انظر كتابي «البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية»[(٣)].

الثانية: تأمّل قول النبي محمد ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»**[(٤)]. والحديث الذي بعده، ومع ذلك غلب الجهل على قوم فأطروه وعصوه، وقال قائلهم[(٥)]:

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: يكن خيراً لكم».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٨٥ ـ ٣٩٠) بتصرف.

(٣) طبع عن دار الثقافة، مكة، عام ١٣٩٣هـ، ثم نشر على حلقتين في مجلة «الجامعة السلفية» المجلد السابع عشر، العددان: الثاني والثالث، الهندية سنة ١٤٠٥هـ، ووجدته ـ فيما بعد ـ قد نشر قبل ذلك في مجلة «الإحياء» المغربية، المجلد الثاني، الجزء الأول، ذو الحجة، ١٤٠١هـ، وسأنقل منه في التعليق على (٢/ ٢٧ و٣/ ١٦٨) بعض البراهين والأدلة من «الإنجيل» على عبودية عيسى عليه السلام لله عز وجل، وأنه ليس بإله، فانظره فإنه مفيد، وينظر ما سيأتي قريباً (ص٣١٠).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) الأبيات من قصيدة «البردة» للبوصيري، وهي منتقدة انتقده بسببها غير واحد، وبيّنت ذلك =



لولاه لم تخرج الدُّنيا مِنَ العَدَمِ(١)

وقال:

يا أكرمَ الخَلْقِ ما لي مَنْ أَلوذُ به ... سواكَ عند حُلولِ الحَادِثِ العمم
فإنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنيا وضَرَّتَها ... ومنْ عُلومك عِلمُ اللوح والقَلَمِ

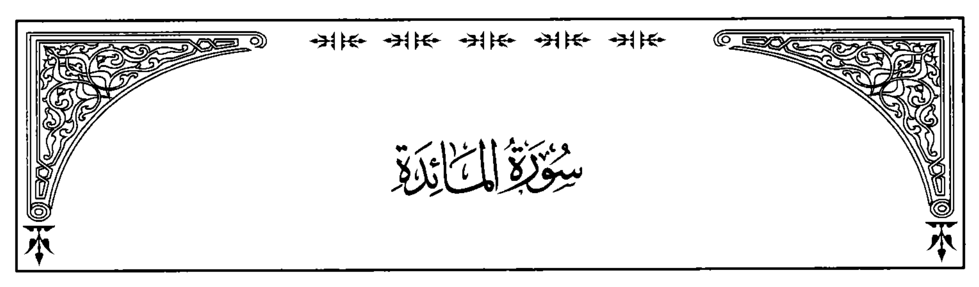
وقال فيما تخيله في شركه وجهله:

ومنذ ألزمتُ أفكاري مدائحَه ... وجدتُه لخلاصي خيرَ مُلْتَزمِ

ومن يستطِيعُ تخليص بني آدم من شدائدهم وكُربهم وأمراضهم ومصائبهم إلا الله سبحانه لا شريك له، ومن الغريب أن هؤلاء الجهال من جهة يغلون في النبي ﷺ حتى يصفوه بصفات الله تعالى من علم الغيب، وكونه موجوداً في السمٰوات والأرض، يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث من استغاث به، ويتصرف في ملكوت الله، بل وصفوا غيره من الصالحين وغير الصالحين بمثل ذلك، ومن جهة يخالفون سنته، ويعصون أمره، ولا يحكّمون شريعته، ويعادون من اتبع سنته.

الثالثة: لماذا سُمِّي عيسى كلمة الله وروح الله؟ بينه الحافظ ابن كثير غاية البيان، فأما كونه كلمة الله، فلأنه خلقه بكلمة ﴿كُن﴾ فهو من تسمية المسبب باسم السبب، وأما كونه، روح الله، فالإضافة هنا، إضافة تشريف وتكريم،

أن يحل في خلقه، أو يحل فيه شيء من خلقه، فهو مستوٍ على عرش، مباين لخلقه.

سُورَةُ المَائِدَةِ

الباب الأول

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾ [المائدة: ١٧، ١٨]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً وحاكياً لكفر[١] النصارى في اعتقادهم[٢] في المسيح ابن مريم ـ وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه ـ أنه هو الله، تعالى [الله] عن قولهم علواً كبيراً، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؟ أي لو أراد ذلك، فمن ذا الذي كان يمنعه منه؟ أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟ ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: جميع الموجودات ملكه وخلقه، وهو القادر على ما يشاء، لا يسأل عما يفعل لقدرته وسلطانه وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى[٣]، ثم قال تعالى ردّاً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أي: نحن

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وحاكماً بكفر».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ادعائهم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم لعائن الله المتتابعة».

منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم، أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بكري» فحملوا هذا على غير تأويله، وحرفوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى من كتابهم أن عيسى قال لهم: «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم»، يعني: ربي وربكم، ومعلوم أنهم لم يدّعوا لأنفسهم من البنوة، ما ادعوه في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه، وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾؟ أي: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه، فلِمَ أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه، فتلا عليه الصوفي هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد في «مسند الإمام أحمد»(1)، وذكر سنده عن أنس قال: مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: «أي ابني». وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله! ما كانت هذه لتلقي ولدها في النار، قال: فخفَّضهم النبي ﷺ فقال: «**لا والله ما يلقي [الحبيب]**(2) **حبيبه في النار**».

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام اختلال، وهو هكذا في النسخة التي بين أيدينا(3)، والمعنى: ـ إن الله يحب عباده الصالحين، فلا يلقيهم في النار.

«﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: فعال لما يريد، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا

---

(1) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٤، ٢٣٥)، وأبو يعلى (٦/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨) رقم (٣٧٤٧ ـ ٣٧٤٩)، والبزار في «البحر الزخار» (١٣/ ١٦١) رقم (٦٥٧٩) أو رقم (٣٤٧٦ ـ كشف الأستار)، والحاكم (١/ ٥٨)، وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٢٢)، والضياء في «المختارة» (٦/ ٣٦) **وإسناده صحيح**، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٨٦) وقال: «رواه أحمد والبزار بنحوه وأبو يعلى، ورجالهم رجال الصحيح» وللحديث شاهد من حديث عمر، رواه البخاري (٥٩٩٩)، وسيأتي لفظه.

(2) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(3) وهو هكذا في النسخ المحققة!

﴿بَيْنَهُمَا﴾ أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه. و﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور»[1].

قال محمد تقي الدين: لله در الحافظ ابن كثير! ما أوسع اطلاعه! فمع تبحره في علوم الكتاب والسنة والتاريخ، درس عقيدة النصارى واليهود فصار يرميهم بأحجارهم، ويأخذهم بإقرارهم. ونص ترجمة ما جاء في الإنجيل:

«... إن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلٰهي وإلهكم». اهـ. فقوله: «وإلهي وإلهكم». يثبت أن الله ربه وربهم، وكلهم عبيده فلا فرق بين المسيح وبين أتباعه في العبودية.

الثانية: وجه استنباط هذا الصوفي ما استنبطه من الآية، أن اليهود والنصارى زعموا أنهم أحباء الله، فكذبهم الله تعالى وأقام البرهان على كذبهم بتعذيبه إياهم في الدنيا بالمصائب، وفي الآخرة بعذاب النار كما يعذب غيرهم، فعلم من ذلك أن الحبيب لا يعذب حبيبه.

الثالثة: حديث الإمام أحمد في قصة المرأة التي خافت على ولدها أن يطأه الجيش، أذكر أني رأيت هذا الحديث في بعض كتب الحديث بغير هذا اللفظ ومعنى ما رأيته أن النبي ﷺ لما رأى المرأة تسعى لتأخذ ولدها قال لأصحابه: **«أترون هذه طارحة ولدها في النار»**؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: **«فإن الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها»**[2] قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣، ٤٤].

الباب الثاني

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ

(١) من «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٧ - ١٣٨) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر، ولفظهما: **«لله أرحم بعباده من هذه بولدها»**.

نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٧]

قال (ك): «ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام[١]، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ قال ابن أبي حاتم[٢] بسنده عن عياض، أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر! وقال له[٣]: هل أنت قارئ لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا، بل نصراني! قال: فانتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ ثم روى ابن أبي حاتم[٤] بسنده

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأهله قاتلهم الله».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٥٦) رقم (٦٥١٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٢٧، ٣٢٧) وفي «الشعب» (٩٣٨٤) **وإسناده حسن**، فيه كثير بن شهاب هو المذحجي، قال عنه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٧/ الترجمة ٨٥٣): «كتبت عنه بقزوين وهو صدوق» وعمرو بن أبي قيس قال ابن حجر في «التقريب»: صدوق له أوهام.
والأثر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٥١٦) أو (٥/ ٣٥٠، ط. هجر) وزاد نسبته للبيهقي في «شعب الإيمان»، وانظر: «مسند الفاروق» (٢/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥) لابن كثير.

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إن هذا لحفيظ،».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٥٦) رقم (٦٥١١)، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٠) لعبد بن حميد عن حذيفة.

عن محمد بن سيرين قال: قال عبد الله بن عتبة: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر! قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وريب ونفاق ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم، أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك، عند ذلك قال تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾. قال السدي: يعني: فتح مكة، وقال غيره: يعني: القضاء والفصل ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قال السدي: يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾ يعني: الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الموالاة ﴿نَٰدِمِينَ﴾ أي: على ما كان منهم مما لم يُجْدِ عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فُضِحُوا، وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم، تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين. فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾. قال ابن جريج عن مجاهد: «فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده» تقديره: حينئذٍ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾»[(١)]، وروى ابن جرير[(٢)] في سبب

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٥٨) رقم (٦٥٢٢)، وابن جرير (٨/ ٥١٥)، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٣١٠).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٢٨، ٤٢٩) ـ ومن طريقه ابن جرير (٨/ ٥٠٥)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٥٥) رقم (٦٥٠٦) في «تفسيريهما»، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٧٤، ١٧٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ١٩١ ـ ١٩٢)، حدثني والدي إسحاق بن يسار عن عباد بن الوليد به، وهو مرسل. وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٥١٥) لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه. وروي من طريق آخر أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٣٧)، وابن جرير (٨/ ٥٠٤) بسندٍ رجاله ثقات إلّا عطية بن سعيد العوفي، وهو ضعيف، وقد أرسله، **فالقصة ضعيفة** من هذين الطريقين.

نزول هذه الآية، أنه لما وقعت الحرب بين النبي ﷺ وبين بني قينقاع من يهود المدينة؛ جاء عبادة بن الصامت رضي الله عنه - وكان حليف بني قينقاع في الجاهلية - إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني أبرأ من بني قينقاع، وأتولى الله ورسوله، وجاء عبد الله بن أبيّ - رأس المنافقين - فأخبر النبي ﷺ أنه ثابت على موالاة حلفائه في الجاهلية، بني قينقاع، ففيهما نزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ﴾، إلى ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾»[1].

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة، أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير له[2] منه، وأشد منعة وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٦، ١٧] أي: بممتنع ولا صعب، وقال تعالى ههنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل، قال الحسن البصري: نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه، رواه ابن أبي حاتم[3]، وقال [أبو بكر بن عياش][4] في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾: هم أهل القادسية، وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩][5]، وقوله عز وجل: ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي: لا يردهم عما هم فيه من

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٥٣ - ٢٥٦).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لهما»!

(٣) في «تفسيره» (٤/ ١١٦٠) رقم (٦٥٣٧)، وابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٥١٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣٦٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ٣٠٩، ٣١٠) **بإسناد صحيح إلى الحسن، وهو مرسل عنه**، والأثر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٥١٧) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وخيثمة الأطرابلسي في «فضائل الصحابة».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وهو الصواب، وتحرف في الأصل إلى «ابن عباس»! ثم وجدته مسنداً على الجادة عند ابن أبي حاتم (٤/ ١١٦١) رقم (٦٥٣٩).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»، «وفي صفة رسول الله ﷺ: أنه الضحوك القتال، فهو الضحوك لأوليائه قتال لأعدائه».

طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل، قال الإمام أحمد[١] وذكر سنده عن أبي ذر قال: «أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين، والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مُراً، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش». وقال الإمام أحمد[٢] بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرِّب من أجل ولا يباعد من رزق، أن يقول بحق، أو أن يذكر بعظيم»**، تفرد به أحمد.

وروى أحمد وابن ماجه[٣] بسندهما عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: **«إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى إنه ليسأله يقول له: أي عبدي أرأيت منكراً فلم تنكره؟ فإذا لقَّن الله عبداً حُجَّته، قال: أي رب! وثقتُ بك، وخفت الناس»**. وثبت في «الصحيح»: **«ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه»** قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: **«يتحمَّل من البلاء ما لا يطيق»**[٤]. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٣٥٤) - وهو في «الكبرى» رقم (١٠١٨٦) -، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٣٢)، وابن حبان (٤٤٩)، والبزار (٣٩٦٦)، والطبراني في «الكبير» (١٦٤٩)، وفي «الأوسط» (٧٧٣٩)، وفي «الصغير» (٨/ ٧٥)، وفي «الدعاء» (١٦٤٨ - ١٦٥٢)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٩١)، و«الشعب» (٦/ ٩٣، ٩٤) رقم (٧٥٨٣)، وأبو نعيم (١/ ١٥٩ - ١٦٠) من حديث أبي ذر، وهو **صحيح**.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠)، والترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٧)، وأبو يعلى (١٤١١)، والطبراني في «الأوسط» (٢٨٢٥، ٤٩٠٦)، و«الصغير» (١/ ٢٥٨)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٩٠)، وابن حبان (٢٧٥، ٢٧٨) **والحديث صحيح**، وانظر: «الصحيحة» (١٦٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٧، ٢٩، ٧٧)، والحميدي (٧٣٩)، وعبد بن حميد (٩٧٤)، وأبو يعلى (١٠٨٩) في «مسانيدهم»، وابن ماجه (٤٠١٧)، وابن حبان (٧٣٦٨)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٩٠)، و«الشعب» (٧٥٧٤، ٧٥٧٥)، والخطابي في «العزلة» (ص١١٠) **وإسناده حسن**، وجوده العراقي في «تخريجه أحاديث الإحياء» (٢/ ٢٢٩).

(٤) الحديث غير موجود في أي من «الصحيحين»! وإنما هو عند الترمذي (٢٢٥٤)، =

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من اتصف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه، وتوفيقه له: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن[1] يحرمه إياه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: المؤمنون المتصفون بهذه الصفات مِنْ إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي له وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين، ومساعدة للمحتاجين، من الضعفاء والمساكين، وأما قوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع، أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب، أن هذه الآية نزلت فيه، وذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه، فأعطاه خاتمه»[2]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: وذكر (ك) آثاراً تدل على أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب حين أعطى المسكين خاتمه وهو راكع، وقال: إنه لا يصح شيء منها[3]. «وقد تقدم في الأحاديث التي أوردناها أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه، حين تبرأ من حلف اليهود ورضي بولاية الله[4] ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ

= وابن ماجه (٤٠١٦)، وأحمد (٥/ ٤٠٥)، والبزار (٢٧٩٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٦٦، ٨٦٧)، وابن عدي (٦/ ٢٣٠٧)، وأبي الشيخ في «الأمثال» (١٥١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٨٢٤)، والبغوي (٣٦٠١) من حديث حذيفة، وفي الباب عن ابن عمر وعلي، وجوَّده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٥٢)، وذكره شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٦١٣).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ومن»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٥٨ ـ ٢٦٥) بتصرف.

(٣) نعم، جميع ما ورد في هذا الباب لم يثبت، وقد فصلت ذلك في كتابي «قصص لا تثبت»، وتكلم على طرق هذه القصة مفصلاً الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٠٩ ـ ٤١٠)، وابن حجر في «الكافي الشاف» (٥٦)، والمناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٥٧٢)، وانظر: «علوم الحديث» (١٠٢) لابن الصلاح.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ورضي بالله».

ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢١، ٢٢]، فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة، ومنصور في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾»(١).

«وقوله تعالى: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ الآية وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، ويتخذونها هزواً، يستهزؤون بها، ﴿وَلَعِبًا﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، كما قال القائل(٢):

وَكَمْ مِنْ عائبٍ قولاً صحيحاً … وآفته من الفَهْمِ السَّقِيمِ

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ ﴿مِّنَ﴾ هٰهنا لبيان الجنس كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وقرأ بعضهم(٣): ﴿وَالْكُفَّارِ﴾، بالخفض عطفاً، وقرأ آخرون: بالنصب على أنه معمول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾(٤) وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء، إن كنتم مؤمنين(٥) بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٢) هو أبو الطيب المتنبي، والبيت في «ديوانه» (١/ ٢٣٩ ـ مع شرحه «العرف الطيب»).

(٣) هذه قراءة أبي عمرو والكسائي وسهل ويعقوب واليزيدي، انظر: «النشر» (٢/ ٢٥٥)، «السبعة» (٢٤٥)، «التبصرة» (٤٨٧)، «المكرر» (٣٥).

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تقديره: وَلَا الْكُفَّار أَوْلِيَاءَ أي: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

ﵟاللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ٢٨ﵞ [آل عمران: ٢٨]»[1].

قال محمد تقي الدين: قول النبي ﷺ: «**فإذا لقن الله عبده حجته، قال: أي رب، وثقت بك، وخفت الناس..**»[2] وثبت في «الصحيح» إلى آخره.. في هذا دليل على لطف الله ورحمته بعباده، فمن عجز عن تغيير المنكر بيده أو بلسانه، ورأى أن ذلك يوصله إلى الهلاك، ترك التغيير باليد واللسان، واكتفى بتغيير المنكر بقلبه[3]، والله ﷻ يعذره بعجزه وضعفه.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) لتغيير المنكر أربع درجات: أن يزول ويخلفه ضده، أن يقِلَّ وإن لم يَزُل بجملته، أن يخلفه ما هو مثله، أن يخلفه ما هو شر منه. فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة. قاله ابن القيم في «الإعلام» (٤/ ٣٣٩ ـ بتحقيقي).
والحال التي ذكرها المصنف، يزاد عليها: إن فعل صابراً محتسباً قيامه في ذلك عند الله ﷻ صح وكان مأجوراً، وبسط ذلك ابن المناصف في كتابه البديع «الإنجاد» (١/ ١٤ ـ بتحقيقي). ومما يلزم معرفته بهذا الصدد أمران:
الأول وهو مهم، كثير الوقوع، والحاجة إليه ماسة: إن أيس الآمرُ من كفّ فاعل المنكر، أو إزالته، فهل يبقى الأمر واجباً عليه أم لا؟ الذي رجحه ابن المناصف في «الإنجاد» (١/ ١٥ ـ بتحقيقي) الوجوب، قال:
«**والأظهر عندي في هذا الوجه:** أنه يجب عليه القول، وإن كان يائساً من كفّ ذلك المنكر؛ لأن الإنكار أخصُّ فريضةً، لا يسقطه عدم تأثر المنكر عليه، ألا ترى أن إنكار القلب حيث لا يستطاع الإنكار بالقول واجبٌ باتفاق، وهو لا أثَرَ له في دفع ذلك المنكر؟! فكذلك يجب القول إذا أمكنه، وإن لم يؤثر. وأيضاً ففي إعلان الإنكار تقريرُ معالم الشرع، فلو وقع التَّمالؤ في مثل هذا على التَّرْكِ حيث لا يغني الكفّ والإقلاع، لأوشك دروسها؛ قال الله ﷻ: ﵟوَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِﵞ [آل عمران: ١٠٤]، فالقول إذا قدر عليه واجب أثّر أو لم يؤثر».
قال أبو عبيدة: هذا الذي استظهره هو الراجح في نظري، لما يلي:
أولاً: إذا جرى الحديث عن تأثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو عدم تأثيره، أريد به ظهور المعروف حينما أمر به، وانتفاء المنكر حينما نهى عنه، وبالعكس، ولكن لننظر في الأمر من وجهة نظر أخرى: وهي أن المسلم ـ ولو لم يؤثر فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأثيراً عاجلاً ـ لا بدَّ أن يتأثر في شعوره إلى حدٍّ ما، ومن الممكن أن يصير هذا التأثير، سبباً لفعله المعروف، وتركه المنكر فيما بعد، ومن هذه الناحية درس الإمام محمد بن الحسن الشيباني في «شرح السير الكبير» (٣/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠)، نفسيَّة الأمة =

= المسلمة مراعاة كاملة، فقال: «وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسعه الإقدام، وإن كان يعلم أن القوم يقتلونه، وأنّه لا يتفرق جمعهم بسببه؛ لأنَّ القوم هناك مسلمون، معتقدون لما يأمرهم به، فلا بد من أنَّ فعله ينكئ في قلوبهم، وإن كانوا لا يظهرون ذلك».

ثانياً: إذا أهمل السعي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة عدم جدواه، تقطعت أسباب الرجاء عن الإصلاح، وهلك المجتمع كله.

ثالثاً: لا يصح بناء الحكم الفقهي على (التأثير) و(عدمه) فنقول: يجب الأمر بالمعروف عند حصول التأثير والإفادة، والعكس بالعكس؛ لأن التأثير وعدمه أمر غير ظاهر وغير منضبط، فكم من مأمور بالمعروف يُرجى فيه الخير ومنهيٍّ عن المنكر لا يرجى فيه ذلك، ولا يستجيب الأول ويستجيب الثاني.

قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٢/ ٢٣): «قال العلماء: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله؛ فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول، وكما قال الله ﷻ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]».

رابعاً: إن صح القول الأول؛ فيحمل على أنَّ العامة عليهم أن يحافظوا على دينهم وإيمانهم، ولا يصح أن يلقى عليهم أعباء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن الخاصة منهم ـ أيضاً ـ إن لم يتقدموا إلى ذلك ظلموا أنفسهم وقدراتهم وإمكاناتهم.

والقول بالوجوب رواية عن أحمد، وصححه أبو يعلى، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وعزاه ابن رجب إلى أكثر العلماء، كما في «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٤٣٥).

وانظر بسطاً للمسألة في: «أحكام القرآن» (٢/ ٧٩٧)، و«مختصر الفتاوى المصرية» (٥٨)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٤٨، ١٤٩)، و«طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٨٠)، و«الآداب الشرعية» (١/ ١٧٨)، و«الإحياء» (٢/ ٢٨٠)، و«مبارق الأزهار» (١/ ٥٠) لابن ملك، و«نصاب الاحتساب» (٣١٣)، و«أضواء البيان» (١/ ١٧٥)، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص١٥٧ وما بعدها) لجلال العمري، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وواقع المسلمين اليوم» (ص١٠٣ وما بعدها) لصالح الدرويش، و«الأمر بالمعروف» (ص٥٠)، لعبد الرحمن المقيط، و«الأمر بالمعروف» (ص٣٨٦) لخالد السبت، و«الجواب الأبهر لمن سأل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص٥٧ ـ ٦١)، و«أصول الدعوة» (١٩٠، ٣١٢) لعبد الكريم زيدان.

الثاني: ينبغي استعمال الحكمة في الأمر والنهي، والحكمة: أن تضع الشيء في مكانه: شدة وغلظة أو ليناً ورفقاً، قال ابن المناصف في «تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام» (ص٣٢٠):

«فأمّا إن خيف مع الرّفق فوات عين المنكر، أو اتّصال الاستطالة على مثله لاستخفاف المقوّم عليه وقلّة التفاته ومبالاته، وعلم أن الرّفق لا ينفع في مثل ذلك، وأمن أن يثير =

الباب الثالث

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ
فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)
لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ
وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤)
مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ
صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ
ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ
لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا
تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ
وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٧]

= الإغلاظ منكراً أشدّ من الحاضر، فينبغي المعالجة بما يقاومه ويصلح به ذلك الأمر من الشدّة والعنف، وبحسب عظم المنكر وما يليق في مثله، ويؤدي إلى إزالة فعله، قال الله ـ تعالى ـ في صفة القوم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ و﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾».

ثم نقل رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيخه المشتهر بابن أبي درقة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنت مرّةً في غرَّة الشباب، ومبادي الطلب، فتشاغلت عن إحدى صلاتي العشاء إلى أن شارفت الفوات، فأتيت عَجِلاً إلى بعض المساجد، واعتمدت بعض زواياه، فصلّيتها مبادراً متجوّزاً في بعض أركانها، وإذا بعض الشّيوخ يسارقني النَّظر، بحيث لم أشعر به، فلمّا أتممت صلاتي، وهممت بالانصراف استدعاني، فأتيته، فسألني قليلاً، ثم قال: يا بنيّ، رجلٌ تسلّف دراهم إلى وقتٍ، فلمّا حلّ الأجل، والغريم موسر قادرٌ على الأداء، تهاون بذلك واستخفّ، ولم يزل يتراخى به إلى أن استحق ذمّ التأخير، ثم أتاه بها بعد ذلك ناقصةً، زيُوفاً، فَجَمَعَ بين جنسي الإساءة في القضاء، فهل يكون لهذا حظٌّ في القبول؟ فما أتم كلامه حتى فهمت مقصده وتعريضه بما فعلت في صلاتي، فخجلت، ثم قلت له: فهمت يا عمّ، فما زاد على أن قال: قم يا بنيّ بارك الله فيك، فعدت لإتمام صلاتي، وأثّر ذلك عندي خير تأثير».

ثم قال: «فهذا النوع من الرِّفق والتلطّف في التّعليم بحسب فهم صاحب النّازلة وما يليق به، أوقع في النفوس وأقرب إلى الإجابة من كثير من العنف والشِّدَّة».

«يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية، واليعقوبية، والنسطورية ممن[(١)] قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً، هذا وقد تقدم [أن المسيح][(٢)] عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد، أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: إني أنا الله، ولا ابن الله، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٦] وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ١١٦] وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠] وفي «الصحيحين»[(٣)] أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس: «**إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة**»، وفي لفظ: «**مؤمنة**»[(٤)] وتقدم في أول سورة النساء عند قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١١٦] حديث يزيد بن أبي موسى عن عائشة: «**الدواوين ثلاثة...**»، فذكر منهم: «**ديواناً لا يغفره الله هو الشرك بالله**». قال الله تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ والحديث في «مسند أحمد»[(٥)]، ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: وما لهم[(٦)] عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هم[(٧)] فيه»[(٨)].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فمن»!
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليهم المسيح بأنه».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيح».
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٣٧٧) من حديث ابن مسعود.
(٥) سبق تخريجه، وانظر له: «المجالسة» رقم (٦) وتعليقي عليه، فقد أطلت النفس في تخريجه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «له». (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو».
(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/٢٩٦ ـ ٢٩٧).

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾.

قال (ك): «اختلفوا ـ أي المفسرون ـ، فقيل: المراد بذلك كفرهم[١] في قولهم بالأقانيم الثلاثة، وهي[٢]: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال ابن جرير[٣] وغيره: والطوائف الثلاثة من الملكية، واليعقوبية، والنسطورية[٤]، تقول بهذه الأقانيم، وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً[٥]، فكل[٦] فرقة منهم تكفّر الأخرى، والحق أن الثلاث كافرة، وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلٰهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وهذا القول هو الأظهر والله أعلم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ أي: ليس متعدداً، بل هو وحده لا شريك له، إلٰه جميع الكائنات وسائر الموجودات، ثم قال تعالى متوعّداً لهم ومتهدّداً: ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هذا الافتراء والكذب: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة[٧]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾. وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه، وقوله[٨] تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: له سوية[٩] أمثاله

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كفارهم»!

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو». (٣) في «تفسيره» (٨/ ٥٨٠).

(٤) هم لا يقولون بالأقانيم الثلاثة، وقدمنا ذلك عنهم قريباً، فالاتحاد عندهم ليس حقيقياً بل مجازياً؛ لأن الإله منح عيسى المحبة فصار بمنزلة الابن، ومعنى ذلك أن المسيح لم يكن فيه عنصر إلهي قط، فليس إلهاً ولا ابن إله، وهذا ما تقرره صاحبة «تاريخ الأمة القبطية»، ويرى الدكتور أحمد شلبي في كتابه «المسيحية» (ص١٨٩) أن مذهب نسطور كان محاولة للعودة إلى التوحيد. وانظر: «تحريف رسالة المسيح ﷺ عبر التاريخ» (ص٣٠٨ ـ ٣١٠).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ليس هذا موضوع بسطه».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكل».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من الأغلال والنكال».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثم قال».

(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أسوة»!

من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: مؤمنة به، مصدِّقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية، كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك[(١)]، وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليسا بإلٰهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة[(٢)]، ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نوضحها ونظهرها: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون؟ وبأي قول يتمسّكون؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟»[(٣)].

«وقال[(٤)] تعالى منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبيّناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلٰهية [فقال تعالى][(٥)]: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر على [دفع ضر عنكم، ولا إيصال نفع إليكم][(٦)]. ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع

---

(١) انظر مبحث (نبوة النساء) وبيان أن الراجح حصرها في الرجال: «فتح الباري» (٦/٤٤٧ ـ ٤٤٨ و٦/٤٧٣)، «لوامع الأنوار البهية» (٢/٢٦٦)، و«الرسل والرسالات» (ص٨٦ ـ ٨٩)، وكتابي «الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير» (ص١٢٦).

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/٢٩٦ ـ ٢٩٨).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقول». (٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إيصال خير إليكم ولا إيجاد نفع».

ولا يبصر ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه، ثم قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا تجاوزوا الحدَّ في اتّباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلٰهية كما صنعتم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلٰهاً من دون الله، وما ذلك إلا لاقتدائكم [بشيوخكم][1]، بشيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً: ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال»[2]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: رأيت من المفيد لمن يقرأ هذا الكتاب، أن أنقل بعض الأدلة من الأناجيل الأربعة التي يؤمن بها النصارى في هذا الزمان، وهي واضحة الدلالة على أن عيسى عبد الله ورسوله، وليس إلٰهاً ولا ابن الله[3]:

الأول: في (الباب التاسع عشر) من «إنجيل متى» (رقم١٦ و١٧): «وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله». اهـ. ففي قوله: «لا صالح إلا واحد وهو الله». اعتراف بعبودية المسيح لله تعالى؛ لأنه أراد بالصالح الكامل الذي لا يعتريه النقص بحال، وليس ذلك إلا لله تعالى.

وفي (الفصل ٢١) من «إنجيل متى» (رقم ٤٦): «وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خلفوا من الجموع؛ لأنه كان عندهم مثل نبي». وهذا من أقوى الحجج على القائلين بألوهيته لو كانوا يعقلون!!

وفي «إنجيل متى» (الفصل ٢٣ رقم ٨): «وأما أنتم فلا تدعوا أحداً سيدكم، فإن سيدكم ـ حتى المسيح ـ واحد» يعني: وهو الله؛ لأن المسيح نهى الرجل أن يسميه سيداً، وأخبر أن السيد هو الله تعالى، وكل من سواه حتى المسيح عبيد، وقد حرفت هذه الآية في الترجمة العربية، أما الترجمة الإنجليزية

---

(١) غير موجود في «مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٩٩).
(٣) للهلالي جزء مفرد مطبوع بعنوان «البراهين الإنجيلية على أن عيسى عليه السلام داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية»، وترجم للإنجليزية، وتقدم ذكره، ومكان نشره، وانظر التعليق على (ص٢٩٣)، ففيه نقل مهم.

فليس فيها تحريف(١).

وفي (رقم ٩) من «إنجيل متى»: «ولا تدعوا لكم أباً على الأرض؛ لأن أباكم واحد، وهو الذي في السماء». اهـ.

ومن ذلك تعرف أن الأبوّة والبنوّة بمعنى العلاقة بين الرب والعبد ثابتة في الإنجيل لجميع الناس، لا خصوصية للمسيح في ذلك.

وفي (الفصل ٢٤ رقم ٣٦): «أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمها أحد من الناس، ولا ملائكة السماء، ولكن أبي وحده هو يعلمها». فهذا دليل قاطع على أن تلك الساعة لا يعلمها أحد إلا الله، ففيه دليل على أن علم المسيح قاصر كسائر البشر، والله وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً.

---

(١) من عجيب أمر العلامة الهلالي أنه تعلَّم الإنكليزية على يد إرسالية تبشيرية في الهند، صاحبها كندي، والتقى هناك بقسيس أميركي، قال للهلالي بعد محاورة: «يمنعكم التعصب عن قراءة التوراة والإنجيل، وأما أنا، فإن القرآن عندي بثلاث لغات». قال الهلالي: «فقلت له: أما الإنجيل بالعربية فلغته ركيكة لا تفهم، وأما بالإنكليزية، فأنا أدرسها لأقرأه بها». قال: «فقال لي ـ أي القسيس ـ: عدني أن تقرأه وأنا أطلب لك نسخة من لندن، تصلك بعد شهر، فوعدته، فلما وصلته النسخة، كتب إليّ معها كتاباً بالإنجليزية، جاء فيه: أسأل الله أن يعطيك في هذا الكتاب بركات كثيرة! فأخذت في قراءته، واستخرجت الكلمات التي لم أفهمها من المعاجم، ثم قرأته المرة الثالثة، وذكرت تلك المسائل في جزء سمّيته «حواشٍ شتى على إنجيل متى»، ونشرت هذا الجزء في مجلة «الشبان المسلمين» التي تصدر في البصرة، كان يصدرها صديقنا الحاج طه الفياض رحمة الله عليه، ولما أخبرت بهذه الحواشي الأمير شكيب أرسلان رَحِمَهُ اللهُ سألني عنها، فقلت: ضاعت في المطبعة، فتأسفت كثيراً على ضياعها، وأنا الآن مستعد أن أؤلف حواشي مثلها، أو أحسن منها، ولكن الكثير من إخواننا المسلمين لا يهتمون بالدفاع عن دينهم، ولا يعينون من أراد أن يدافع عنه بل يخذلونه»! في قصة طويلة ذكرها في «البراهين الإنجيلية» (ص٢٠ ـ ٢٧).

قال أبو عبيدة: أتعبت هاتفي، وأكللت طلبة العلم في العراق باتصالاتي، وأنا أتطلّب مقالات الهلالي المنشورة هناك، وحصلت على قسم لا بأس به منها، ضمّنتها كتابي «مقالات الهلالي»، ولم أظفر لغاية كتابة هذه السطور بِـ«حواشٍ شتى»، والأيام حبالى، والله الرزاق، وهو الوهاب، وما كنت أحلم أن أحصل شيئاً ذا بال من هناك، فمنَّ الرب عَجَّلَ عليَّ بمقالات من بلاد شتّى، مكثت قرابة خمس سنوات أتطلّبها، لترى ـ إن شاء الله ـ قريباً النور، أسأل الله أن ينفعَ بها، ويشرح لها القلوب والصدور، وأن ييسِّر لي الأمور.

وفي (الفصل ٢٠ رقم ١٦) من «يوحنا»: «قال لها يسوع: يا مريم، فالتفتت تلك، وقالت له: ربُّوني، ومعناه: يا معلم، قال يسوع: لا تلمسيني؛ لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلٰهي وإلٰهكم، فجاءت مريم المجدلية، وأخبرت التلاميذ أنها رأت السيد، وأنه قال لها ذلك». اهـ.

أقول: فقد شهد المسيح أن الله إلٰهه وإلٰههم، ولا فرق بينه وبينهم في العبودية، **فمن زعم أن المسيح إلٰه فقد كذَّب المسيح، وكذَّب جميعَ الأنبياء والمرسلين.**

قال محمد تقي الدين: ولم أنقل هنا كل (البراهين) التي في «الأناجيل»، وهي تدل دلالة قطعية على عبودية المسيح، وأن الألوهية خاصة بالله سبحانه، ولا حظ فيها للمسيح، **ولكن القسيسين والرهبان يخدعون أتباعهم، ويضلونهم وهم يعلمون أنهم كاذبون خادعون.**

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣]

قال (ك): «قال البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب قال: «**البحيرة**: التي يمنح درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيّبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء»[(١)] اهـ. قال صاحب «اللسان»: «ومنه ـ أي البحر، بمعنى الشق ـ قيل للناقة التي كانوا يشقون في أذنها شقاً بَحِيرة، وبَحَرْتُ أُذُنَ الناقة بحراً: شققتُها وخرقتُها، ابن سيده: بَحَرَ الناقة والشاة يَبْحَرُها بَحْراً: شق أذنها بنصفين، وقيل: بنصفين طولاً، وهي البَحِيرة، وكانت العرب تفعل بهما ذلك إذا نُتِجتا عشرةَ أبطن، فلا يُنتفع منهما بلبن ولا ظَهْر، وتُتْرك البَحِيرة ترعى [وتشرب][(٢)] الماء، ويُحرّم لحمها على النساء، ويحلّل للرجال، فنهى الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦) من طريق ابن شهاب عن ابن المسيب به. وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣٨٨/٥).

(٢) في مطبوع «اللسان»: «وترد».

عن ذلك فقال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ثم قال: قال أبو إسحاق النحوي: أثْبَتُ ما [رويناه][1] عن أهل اللغة في البَحِيرة، أنها الناقة كانت إذا نُتِجَتْ خمسةَ أبطن فكان آخرها ذكراً، بَحَروا أُذنها، أي: شقوها وأَعْفَوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح، ولا تذاد[2] عن ماء ترده، ولا تمنع من مرعى، وإذا لقيها المُعيى المنقطع[3] به لم يركبها، وجاء في الحديث[4]: «**إن أوّل من بحر البحائر، وحمى الحامي، وغيَّر دينَ إسماعيل، عمرو بن لحي**»[5]. اهـ. كلام «لسان العرب».

قال محمد تقي الدين: وفيما نقله ابن منظور صاحب «اللسان» عن اللغويين هنا تناقض، فقد نقل عن بعضهم أن لحم البحيرة يحرم على النساء دون الرجال عند أهل الجاهلية، ونقل عن أبي إسحاق النحوي، أنهم لم يكونوا يذبحونها، يعني: لم يكونوا ينحرونها، فإن الإبل لا تذبح وإنما تنحر، وفيه تناقض آخر، وهو أن بعضهم قال: إذا نتجت عشرة أبطن، وأبو إسحاق قال: إذا نتجت خمسة أبطن، ثم قال (ك): «قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب**»[6].

و(**الوصيلة**): الناقة تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثنِّي بعد بأنثى، وكانوا يسيّبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر.

و(**الحام**): فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه وَدَعُوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي. كذا رواه

---

(١) في مطبوع «اللسان»: «روينا». (٢) في مطبوع «اللسان»: «تُحلأ».

(٣) كذا في مطبوع «اللسان»، وفي الأصل: «المتقطع»!!

(٤) أخرجه أحمد وابن أبي عروبة وابن منده ـ كما في «الإصابة» (١/ ٦١ ـ ترجمة أكثم بن أبي الجَوْن)، وابن إسحاق ـ كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٧٨، ٧٩) ـ، وابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٢٧)، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (٨٣)، والحاكم (٤/ ٦٠٥) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، **وإسناده حسن**، وله شاهد في «الصحيح» يأتي قريباً.

(٥) «لسان العرب» (٤/ ٤٣ ـ بحر).

(٦) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة، وأخرجه البخاري (٤٦٢٤) من حديث عائشة بنحوه.

مسلم والنسائي»[١]. ثم قال (ﷺ): «فعمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جُرهم، وكان أول من غيّر دين إبراهيم الخليل فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلى آخر الآيات.

وأما (**السائبة**)، فقال محمد بن إسحاق: هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر، سُيِّبَتْ فلم تركب، ولم يُجزّ وبرها، ولم يحلب لبنها إلا لضيف». اهـ[٢]. وهناك أقوال في تفسير السائبة ذكرها (ﷺ)، تركتُها اختصاراً. ثم قال (ﷺ): «وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ما شرع الله هذه الأشياء، ولا هي عنده قُربة، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعاً لهم، وقُربة يتقرّبون بها، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم»[٣].

قال محمد تقي الدين: كل من أشرك بالله، وعبد معه غيره من المخلوقين، سواء كان ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلاً، أو صالحاً تقياً، يختل دينه وعقله حتى يهبط إلى عبادة الحيوان الأعجم، كأهل الهند الوثنيين الذين يعبدون البقرة الأنثى ولا يعبدون الثور، ويعبدون الفروج، وعبادة الحيوان الأعجم شائعة عند المشركين في كل زمان ومكان، فقد حدثني شيخنا الورع التقي الزاهد محمد سيدي بن حبيب الله[٤] ـ رحمة الله عليه ـ أن أحد العلماء في بلاد شنقيط كان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٥٦)، وأحمد (٢/ ٣٦٦) وغيرهم.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٩٠ ـ ٣٩١).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).
(٤) هو شنقيطي، وأول شيخ تعلم منه الهلالي مبادئ العلوم الشرعية وعلم النحو، ولازمه نحو سبع سنوات، وظفرتُ برسالة للهلالي كتبها وهو يدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ومؤرخة بـ٢٥/ ١٢/ ١٣٩٠هـ، وأرسلها للهند للشيخ عبد الرحيم أشرف، ومما جاء فيها ترجمة موجزة لشيخه هذا، وهذا ما يخصنا منها:
«وأشهد الله أنني كنت أتعلم مبادئ العلوم من شيخنا محمد سيدي بن حبيب الله التندغي ـ نسبة إلى قبيلة تندغ ـ الشنقيطي المغربي، وكان في بادية حيان ـ قبيلة من بلاد الجزائر ـ، أسس مدرسة وكان عدد تلامذته عشرة، المدرسة خيمة نصبها لهم بقرب خيمته التي يسكن فيها مع أهل بيته، فكان ﷺ يأتينا بقصعة الطعام ونحن شباب وهو كهل فيضعها =

له بقر كثير وله رعاة، وكان يتفقّد هذا البقر الفينة بعد الفينة، فذهب ذات يوم ليتفقد بقره، فرأى الرعاة يمتاحون الماء من البئر ليملؤوا الحوض الذي يرده البقر، ويمنعون البقر من الورود حتى يمتلئ الحوض، إلا بقرة واحدة فإنها تقدمت لتشرب فلم يمنعها أحد، فقال للراعي: امنع تلك البقرة حتى ترد مع سائر البقر، فقال: يا سيدي هذه البقرة فيها بركة، فقد جربنا أننا كلما زجرناها أو ضربناها تموت بقرة أخرى! فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويلكم، بلغ بكم الجهل إلى عبادة البقر، اضربها، فضربها، فماتت بقرة أخرى فأخبروه بذلك، فقال: اضربوها كل يوم ولو فنى البقر كله، فضربوها للمرة الثانية فماتت بقرة أخرى، ثم صاروا يضربونها فلا يموت شيء من البقر. ورأيت في مصر ثيراناً وعجولاً مسيَّبة معظَّمة، تفعل كل يوم جرائم في المزارع، وفي داخل البيوت، فلا يتعرض لها أحد بسوء، يسمى كل واحد منها (عجل السيد) ـ الجيم ينطق بها «كافاً» معقودة في الوجه البحري، أي الشمال، وجيماً عربية في الوجه القبلي، أي الجنوب، وهذا عيب في عامة القراء والخطباء والمذيعين من المصريين، قلَّ من يهتم به منهم، يُغيِّرون نُطق هذا الحرف بحرف عجمي، لا وجود له في اللغة العربية الفصحى، حاشا قراء القرآن، فإنهم ينطقون بها نطقاً صحيحاً ـ ثم نعود إلى الكلام على (عجل السيد)، فقلت لهم: وما معنى عجل السيد؟ قالوا: ينذر الواحد من الناس إن ولدت له بقرته عجلاً أن يهبه للسيد أحمد البدوي المدفون في طنطا، وله موسم سنوي تشارك فيه الحكومة باحتفال عظيم، يحضره عشرات الألوف حتى يموت بعض الناس من الزحام، وتكتب رقاع الشكايات والرغبات وتلقى في مكان معلوم في التابوت الذي على قبره(١)، ولا يكاد يغير هذا المنكر إلا القليل من علماء مصر، وتجيء البغايا

= أمامنا فنأكل أطايبها ونترك الفضلة بعد أن نشبع، فيأكل من تلك الفضلة أمامنا، ولا يزيد على ذلك شيئاً، ولزمته سبع سنين، فالتمس منه أحد الأمراء أن يعطيه أحد تلامذته ليؤسس له مدرسة، ويتعلم فيها الأمير وأبناؤه وغيرهم، فأمرني أن أذهب معه، وقال لي: **«كل من جاءك ليطلب العلم فاعتقد أن له فضلاً عليك، وإياك أن تعتقد العكس؛ لأنه هذَّب نفسه وجاهدها حتى ارتضاك معلِّماً، وجلس بين يديك، فابذل كل جهد في استبقاء مودته ونشاطه واجتهاده»**. **وأشهد بالله أني عاجز كل العجز عن اقتفاء سيرته وأخلاقه، ولكني أرجو الله تعالى أن لا يحرمني من الأخلاق الحسنة التي تحسن بالعالم والمتعلم»**.

(١) وما زال الجهلة والضلال يفعلون هذا عند قبور الصحابة، وقد أخبرني بعض القائمين =

لحضور هذا الموسم فيتصدقن بفروجهن! كما أخبرني بذلك الشيخ عبد الرحمٰن حسن رحمة الله عليه، أخبرني أن (. . . .) زنى بامرأة عند ضريح البدوي، ثم اجتمعنا بـ (. . . .) وهو أشيب، فسأله عن ذلك؟ فأقر به، وقد شاع عندهم أنَّ كل من زنى في هذا الموسم عند قبر البدوي من الرجال والنساء فذنبه مغفور؛ لأن السيد أحمد البدوي بحر، والبحر لا تؤثر فيه النجاسة، وهذا الأمر قديم.

فقد ذكر الشعراني في «الطبقات الكبرى» أن فقيهاً كان ينكر على الفساق ما يرتكبونه من الفواحش عند ضريح البدوي، فأنكر عليهم ذات يوم ثم رجع إلى بيته، فقدَّموا له سمكاً، فأخذ يأكل، فغُصَّ بعظم صغير من عظام السمك، ووقف في حلقه لا يصعد ولا يهبط، ثم تعفَّن الجرح فصار الصديد يخرج من فمه ولا يستطيع أن يأكل شيئاً، وإنما يتغذى بقليل من لبن الحليب وبقي على ذلك سنتين، فخطر في باله أن سبب هذه المصيبة إنكاره على الفساق فجورهم عند قبر السيد أحمد البدوي، فتاب إليه وندم، ففي الحال سقط صبي من الدرج إلى أسفل، فصاح الرجل صيحة عظيمة، فخرج العظيم وبرئ الجرح[1]، وهذا شر من عبادة أهل الهند للبقرة. أما (عجل السيد) فلا يزال يعيث فساداً في البساتين والبيوت، ينطح الصغار، ويأكل كلَّ ما وجد إليه سبيلاً، وهو مقدَّس، لا يضرب ولا يمس بسوء. الناس كلهم يقدمون له العلف فيسمن سمناً فاحشاً، حتى أنهم يضربون به المثل، فيقال: «فلان سمين زي عكل السيد» يعني: مثل عجل السيد، فإذا تم نموه ساقوه باحتفال عظيم إلى ضريح السيد أحمد البدوي وذبحوه قرباناً له، وهذا من أعظم الجهل والكفر. ولما هدى الله أهل الريرمون من صعيد مصر في مديرية أسيوط، بدعوتي[2] سنة ١٣٤١هـ كانت عندهم عجول وثيران منذورة للسيد أحمد البدوي، فسألوني: ماذا يصنعون بها، أيذبحونها لله ويوزعون لحمها على الفقراء؟ فقلت لهم: لا تذبحوها لئلا

= على الاحتساب عند قبور شهداء أُحد، أنهم يجدون بين الفينة والفينة رقاعاً وشكايات وطلبات من الأموات! ولا قوة إلا بالله.

(١) سيعيد المصنف هذه القصة في (ص٥٤٣)، انظر تعليقنا هناك، ومنه تعلم الخرافات والأوابد، والطامات والبلايا الموجودة في «الطبقات الكبرى» للشعراني، ولا قوة إلا بالله!

(٢) فصل المصنف في كتابه «الدعوة إلى الله تعالى» (ص١٦ ـ ٢٥) ما قام به من جهد في دعوة أهل (الريرمون) وما حصل له هناك، وتبيَّن لي أنه بقي مراسلاً بعضهم إلى وفاته، متواصياً وإياه بالحق والصبر.

يوسوس لكم الشيطان فتقصدوا بها المخلوق، بل بيعوها وتصدَّقوا بثمنها على الفقراء.

ومن عبادة البهائم: ما حكى لي ثقة من أهل طرابلس الغرب، أنه كان هناك شيخ صوفي منقطع هو وأصحابه للعبادة، وكان له حمار يبعثه كل يوم يدور في القرية وعليه خرج، فيمر على البيوت فيضع أهل كل بيت في الخرج ما تيسر من الطعام، ثم يرجع الحمار بذلك الطعام إلى الشيخ فيأكله هو والمريدون، فلما مات الشيخ وتفرق تلاميذه بقي الحمار بلا عمل، فأخذ أهل القرية يقدمون له العلف ويتبركون به، فلما مات دفنوه وبنوا عليه قُبّةً، وصاروا يعبدون قبره.

ومن ذلك أن رجلاً فرنسياً كان في المغرب يملك أراضي واسعة في زمان الاستعمار، وكان له كلب عزيز عنده، فمات ذلك الكلب فدفنه، وجصص قبره وبنى عليه قبة، فلما ثار المغاربة على الفرنسيين، وأخذوا يقتلونهم حيثما وجدوهم، وهرب ذلك الفرنسي إلى فرنسة، فلما استقل المغرب واستقرت أحواله وعم فيه الأمن، رجع ذلك الفرنسي إلى أرضه فوجد الجهال يعبدون ضريح الكلب بالذبح والنذر والاحتفال، ويشغلون قطعة من أرضه التي حول القبة، فكلمهم برفق وطلب منهم أن يخرجوا من أرضه، فغضبوا وأرادوا أن يبطشوا به، فذهب إلى رئيس الشرطة وأخبره، وقال له: إن هؤلاء القوم استولوا على قطعة من أرضي وزعموا أن هناك قبر ولي من الأولياء، فأرجو أن تبعث معي بعض رجالك لنبش قبره، فإن وجدنا فيه آدمياً رجلاً أو امرأة، فالأرض كلها لهم، وإن وجدنا كلباً يتركون أرضي ويعلمون أنهم كانوا يعبدون قبر كلب، فبعث معه بعض رجاله، ونبشوا القبر، فوجدوا المدفون فيه كلباً.

ومن ذلك أن معلمة اسمها خديجة النعيمي ـ المعلمة في مدينة الدار البيضاء من المملكة المغربية ـ كانت تسير مع نسوة جاهلات، فمررن بكوم من حجارة، فأخذت النسوة يقبِّلن الأحجار، ويقُلن: (انتاع الله يا للا حمارة) معناه: أعطينا شيئاً لوجه الله يا سيدتنا الحمارة، يعنين الأتان أنثى الحمير، قالت: فقلتُ لهن: أتتخذن الأولياء حتى من الحمير؟ قالت: فغضبن وقلن لي: احذري نقمتها، إنها ولية كبيرة، تقضي الحاجات، فكتبت خديجة النعيمي مقالاً يتضمن هذه القصة، وقالت فيه: أيها العلماء! اتقوا الله وعلّموا الناس أمور دينهم، فقد أهملتموهم حتى صاروا يعبدون الحمير، فكتبتُ أنا مقالاً طويلاً

نشرته صحيفة «العَلَم»[١] موزَّعاً على ثلاثة أجزاء، بيَّنتُ فيه توحيد الله تعالى، ولم يستجب لدعوتها أحد غيري.

ومن ذلك أن صخرة فاتنة[٢] خارجة عن الماء بقرب شاطئ طنجة، يسميها الجهال: (سيدي ميمون) ويعبدونها بالذبح والنذر، وسبب معرفتي لهذا: أني ركبت سيارة حافلة من طنجة إلى تطوان، وكان بقربي شاب وبجانبه زوجته، سلّم علي فلم أعرفه، فقال لي: أنا واحد من الذين يحضرون دروس وعظك في الجامع الأعظم بتطوان، وهذه زوجتي، وإذ كنا لا يعيش لنا ولد، نذرت زوجتي إن ولد لنا ولد أن تذبح لسيدي ميمون في كل سنة شاة ما دام حياً، فولد لنا ولد وقد كاد يتم السنة الأولى من عمره، وهي تطالبني بالذبيحة، فقلتُ لها ـ حسب ما سمعت منك ـ إن هذا شرك، وإنه لا يتصرف في الخلق بالإحياء والإماتة إلا الله، فلم تقتنع، فأرجو أن تكلمها لعل الله يهديها، فكلمتها مدة ساعة إلى أن وصلنا تطوان، ولا أدري هل نفعها الله بما قلت لها أم لا؟

ومن ذلك أن بئراً في القصر الكبير في شمال المغرب يقصدها كل من يحس بوجع رأسه، ويطلب من ساكنها ـ ميمون بن شمهروش أمير الجن ـ الشفاء، إلى غير ذلك، فهؤلاء بلغوا في الجهل والشرك بالله أكثر مما بلغه المشركون الأولون.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ

---

(١) حصلته ـ ولله الحمد ـ، وهو منشور فيها في السنة (١٥) الأعداد (٤١١٣، ٤١١٩، ٤١٣١) سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م. ووضعته في «المقالات» التي جمعتها للمصنف، ويسر الله لي ـ بمنه وكرمه ـ كثيراً من المقالات النادرة النافعة الماتعة، زاد عددها لغاية كتابة هذه السطور على الثمان مئة، وهي الآن قيد التنضيد، يسر الله نشرها والانتفاع بها، بمنّه وكرمه، فهي تفرح دعاة التوحيد والسنة.

(٢) كذا في الأصل: ولعل صوابها: «ناتئة».

﴿ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨]

قال (ك): «هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلٰهين من دون الله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ وهذا تهديد للنصارى، وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، هكذا قاله[1] قتادة وغيره.

واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال السدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا، قال ابن جرير: هذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه إلى السماء الدنيا، واحتج ابن جرير[2] على ذلك بمعنيين:

أحدهما: إن الكلام بلفظ المضي.

والثاني: قوله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾. وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيراً من أمور القيامة ذكر بلفظ الماضي ليدل على الوقوع والثبوت، ومعنى قوله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ الآية التبري منهم، ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر ـ والله أعلم ـ أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة»[3].

قال محمد تقي الدين: تقدم[4] أن النسخة التي بأيدينا من «تفسير ابن كثير» فيها اختلال في مواضع متعددة، وقد نظرت في نسخة أخرى مطبوعة في بيروت فوجدتها مختلة أيضاً، ولذلك سأتكلم في تفسير ما بقي من هذه الآيات بما يفتح الله به، فأقول: يسأل الله تعالى عيسى ابن مريم يوم القيامة وهو عليم بما وقع، توبيخاً للنصارى وتكذيباً لهم ليفضحهم على رؤوس الأشهاد، وليتبرأ عيسى مما نسبوه إليه كذباً وزوراً، وقد تقدم نقل ما في «أناجيلهم» مما بقي من الحق، ولم يشمله التحريف والحذف والتبديل ما يشهد عليهم بالكذب، وهو موافق لما

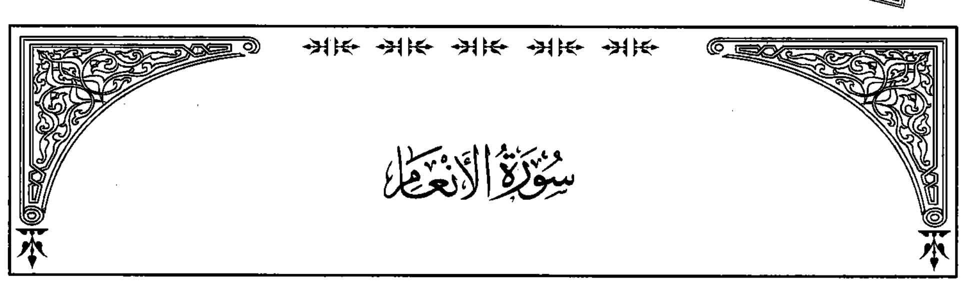
---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال». (٢) انظر: «تفسيره» (٩/ ١٤٢).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).
(٤) (ص٢٨١).

جاء به القرآن، **فياحسرتهم وندامتهم حين يسمعون جواب عيسى** وهو يقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: أنزهك عن الشريك ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي: لا يجوز لي ولا ينبغي لي: ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ وهو اتخاذهم لي ولأمي إلٰهين من دون الله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾ فأنت تعلم، أني لم أقل ذلك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ لأنك بكل شيء عليم ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ وإنما أعلم ما علمتني ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ولا يعلم الغيب أحد سواك ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ﴾ وقد تقدم ما نقلناه من الإنجيل مما يطابق ما هو في القرآن من توحيد الله في ربوبيته وفي عبادته، ثم قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ﴾ أي: كنت شاهداً على بني إسرائيل مدة بقائي معهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: المكث والمدة التي قضيت لي أن أكون معهم ورفعتني إليك ﴿كُنتَ أَنتَ﴾ وحدك ﴿ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ تعلم ما يفعلون ولم يبق لي أنا علم بأعمالهم، فإن قيل: قوله: ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ دليل على موت عيسى كما تدَّعي النصارى واليهود، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥] فالجواب: إن التوفي في لغة العرب لا يدل دائماً على الموت، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ﴾ [الأنعام: ٦٠] فالتوفي هنا بمعنى النوم.

وكذلك قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ [الزمر: ٤٢] أخبر الله سبحانه أنه يقبض أرواح الناس بالموت وبالنوم، فالأرواح التي قبضها بالموت يمسكها إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة، ثم يردها إلى أجسادها لتجزى على أعمالها، وأما التي يقبضها بالنوم، فإنه يرسلها بالاستيقاظ من النوم، فتبين أنه لا حجة لهم في الآيتين. فالتوفي في الحقيقة هو استيفاء المدة، أي: إتمامها وإكمالها، ثم قال تعالى حكاية عن عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ﴾ ولا حق لي أنا فيهم ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب، القاهر ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذين لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ظاهرة للناس أو خفية عنهم، قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ﴾ [المائدة: ١١٩] والصادقون هم الذين صدقوا الله ووحَّدوه واتبعوا رسله، فهؤلاء هم الذي يستحقون المغفرة والرحمة، أما المشركون فإنهم لا يستحقون إلا العذاب، لقوله تعالى في سورة

المـائـدة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].



سُورَةُ الأَنعَام

الباب الأول

قال تعالى: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾ [الأنعام: ١٣ ـ ١٩]

قال (ك): «ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أي[(١)]: كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، لا إله إلا هو. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم، ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم، وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كقوله: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر: ٦٤] والمعنى لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السمٰوات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق، ﴿وَهُوَ

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إنّ»!

﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ أي: هو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الآية [الذاريات: ٥٦] وقرأ بعضهم ههنا: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ أي: لا يأكل، وفي حديث ابن أبي صالح، عن أبي هريرة[١] رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام، فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه، قال: «**الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، ومنَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب، وكسانا من العري وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافئ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله أطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب وكسانا من العري، وهدانا من الضلال وبصرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين**»[٢].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ﴾ أي: من هذه الأمة، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾؛ يعني: فقد رحمه الله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] والفوز[٣] حصول الربح ونفي الخسارة»[٤].

«ويقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ

---

(١) كذا في الأصل: وصوابه «سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة».
(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ١٠١٣٣) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٣٠١) ـ وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٥)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (٦٨٠)، وأبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» (٥٨٦، ٩٩٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٨٦)، وابن حبان (٥٢١٩)، والطبراني في «الدعاء» (٥/ ٨٩٦)، والحاكم (١/ ٥٤٦)، وأبو نعيم (٦/ ٢٤٢)، والبغوي في «الشمائل المحمدية» (١٠٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٤٣٧٧)، وفي «الدعوات الكبير» (٤٧٧)، والشجري في «الأمالي» (١/ ٢٥٣)، وعبد الغني المقدسي في «الترغيب في الدعاء» (١١٠)، وابن المفضل المقدسي في «الأربعين في فضل الدعاء والداعين» (ص١٥٠)، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، **والحديث حسن غريب**، قاله ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ق ٢٦٩).
(٣) بعده في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٤ ـ ١٦).

لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٢] وفي «الصحيح»[١] أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**». ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته[٢] الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع [أفعاله][٣] ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ [بمواضيع][٤] الأشياء ومحالّها فلا يعطي إلا [من يستحق][٥] ثم قال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ﴾ أي: من أعظم الأشياء شهادة؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۚ﴾ أي: هو العالم بما جئتكم به، وما أنتم قائلون لي ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ أي: وهو نذير لكل من بلغه، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ﴾ [هود: ١٧] قال ابن [أبي][٦] حاتم وذكر سنده إلى محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾: «من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ، زاد أبو خالد: وكلمه»[٧]، وقال عبد الرزاق: عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ أن رسول الله ﷺ قال: «**بلغوا عن الله، فمن بلغه آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله**»[٨]. وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر بالذي أنذر[٩]، وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (١٣٧)، وأبو داود (١٥٠٥)، وغيرهم من حديث المغيرة بن شعبة.
(٢) بعدها في الأصل: «على» وهي غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما يفعله».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بمواضع».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لمن يستحق، ولا يمنع إلّا من يستحق».
(٦) سقطت من الأصل!
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧١٦٥)، وابن جرير (١١/ ١٣١٢٠) في «تفسيريهما».
(٨) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٠٥) ومن طريقه ابن جرير (١١/ ١٣١١٩)، وابن أبي حاتم (٤/ ٧١٦٦) جميعهم في «التفسير»، من مرسل قتادة، فهو ضعيف، وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٣/ ١٣) إلى عبد بن حميد.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ٧١٦٧).

أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ كقوله: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠] ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾»(١).

قال محمد تقي الدين: في هذا الباب فوائد:

الأولى: أن قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ هو من السكنى، أي: له ما حل في الليل والنهار.

الثانية: معنى: ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أي: أتولاه بالعبادة والطاعة والخوف والرجاء والرغبة والرهبة والتوكل والدعاء والاستعانة والاستغاثة والمحبة والذبح والنذر والصلاة وسائر أنواع العبادة، لا أجعل لغيره شيئاً منها، فالمسلم المحقق للتوحيد ليس له ولي إلا الله، والمشرك المتهوك يتخذ أولياء من دون الله، يستغيث بهم في الشدائد، ويرجوهم ويخافهم، وقد نهى الله عن اتخاذ الأولياء من دونه في مواضع كثيرة من القرآن، سيأتي ذكرها في مواضعها إن شاء الله.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ كل من تيقن أنه لا ينفع إلا الله، ولا يضر إلا الله، ولا يعطي إلا الله، ولا يمنع إلا الله، وأن غير الله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف يملكه لغيره؟ كل من تيقن ذلك، فلا بدّ أن يخلص التوحيد لله، ولا يصرف شيئاً من أنواع العبادة لغيره أبداً، ومن زعم أنه متيقن ذلك، وتعلق بالأضرحة زاعماً أنه لا يطلب منهم جلب نفع ولا دفع ضر، وإنما يتبرك بزيارة تلك الأضرحة، ويدعو الله عندها فإنه يخادع نفسه ويخادع الموحدين، ويتملق لعبّاد القبور؛ لأن الدعاء الذي يرجى قبوله، يكون في جوف الثلث الأخير من الليل، وهو ساجد في صلاته، ويكون في سجود الصلوات المفروضة في المساجد، ولا يكون عند الأضرحة والأوثان المزخرفة المشيدة التي يرتكب عندها الشرك من ذبح ونذر وطواف وتقبيل واستغاثة واختلاط الرجال بالنساء، فهذه الأماكن لا ينال زائرها إلا سخط الله وغضبه، فمن قدر أن يغير المنكر بهدمها أو تنفير الناس منها، فليذهب إليها بهذا القصد، ومن عجز عن ذلك، فليغيِّر هذا المنكر بلسانه أو بقلبه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ الخطاب

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/١٦ ـ ١٨).

للنبي ﷺ، والمراد بالإسلام هنا إسلام القلب والجوارح بالقصد والتوجه لله وحده لا شريك له في العبادة والدعاء، وكل مقومات التوحيد المضادة للشرك، وقد تقدم مثل ذلك في مواضع من كتاب الله، وسيأتي إن شاء الله، وليس المراد الإسلام الظاهر فقط، الذي يشترك فيه المؤمن والمنافق.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ حجة للحنفاء الذين يدعون إلى اتباع كتاب الله وبيانه من سنة رسوله ﷺ، وينبذون التقليد والتفرق في الدين، فكل من بلغه القرآن وجب عليه اتباعه إلى يوم القيامة، ومثل هذا قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤] والمراد بالوحي: القرآن والسنة الصحيحة التي هي بيانه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٢ ـ ٢٤]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها[١] قائلاً لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال الضحاك: عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقال ابن جرير: «والصواب لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذاراً عما[٢] سلف من الشرك بالله ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾»[٣]. وقال ابن أبي حاتم وذكر

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من دونه».

(٢) في «تفسير ابن جرير»: «مما».

(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/ ١٩١ ـ ١٩٢).

سنده إلى ابن عباس: «إنه أتاه رجل فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: أما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم إذا[1] رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ [لأنه][2] ليس من القرآن شيء إلا ونزل[3] فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه»[4]. وقوله سبحانه: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ كقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤]»[5].

الباب الثالث

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا معقب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أي: أتاكم هذا أو هذا ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع[6] ذلك سواه، ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في اتخاذكم آلهة معه، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: في وقت الضرورة لا

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنه».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقد نزل».

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١/ ١٦٠ ـ ١٦١)، وابن أبي حاتم (٤/ ٧١٨٠)، وابن جرير (٨/ ٩٥٢٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٠٥٩٤)، والحاكم (٢/ ٣٠٦، ٣٠٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٠٩)، وفي «البعث والنشور» (٧٨)، والذهبي في «السير» (١٠/ ٤٨٦) **وإسناده صحيح**، والأثر علقه البخاري: كتاب التفسير، باب سورة حم السجدة (٨/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦ ـ «فتح الباري») بصيغة الجزم.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٨ ـ ٢٠) بتصرف.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «دفع».

تدعون أحداً سواه، وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]»[١].

فائدة:

قال محمد تقي الدين: دلت هذه الآية وآيات أخرى في معناها على أن المشركين الذين كانوا في زمان النبي ﷺ كانوا يشركون مع الله غيره في العبادة في وقت الرخاء، أما في وقت الشدة فكانوا لا يدعون إلا الله لكشف ما نزل بهم من الضر؛ لأنهم يعلمون مما بقي عندهم من دين إبراهيم وإسماعيل، أن الشرك بدعة وكفر لا يرضاه الله تعالى، ويعلمون أن معبوديهم ولو كانوا ملائكة أو أنبياء أو صالحين لا يستطيعون كشف ذلك الضر فيخلصون الدعاء لله، فإذا ذهب الضر عنهم وأمنوا واطمأنوا رجعوا إلى الشرك.

أما المشركون في هذا الزمان، فإنهم يشركون بالله غيره من أوثانهم وأوليائهم الذين اتخذوهم آلهة في الرخاء وفي الشدة، بل منهم من يخلص الدعاء كله في الشدائد لغير الله تعالى، ولا يذكر الله أصلاً، وأنا بنفسي وقع لي مثل هذا لما كنت مشركاً، وأنا قد ناهزت الاحتلام، كنت مع رفيق في السفر، وأحسست - بل تيقنت - أنه يأتمر مع جماعة بقتلي وسلب مالي، انتبذت مكاناً بعيداً، وجلست أستغيث بالأولياء، وكلما استغثت بواحد منهم خططت في الأرض خطاً، فلما فرغت من الاستغاثة عددت الخطوط، فوجدتها أربعة وثمانين خطاً، ولم أستغث بالله، ولكن الله علم أني جاهل فرحمني وأغاثني، وظننت أنا في ذلك الوقت أن أولئك الأولياء هم الذين أغاثوني، وهم في الدار الآخرة لا علم لهم بما وقع لي ولا باستغاثتي بهم، ولو علموا ما قدروا أن يعملوا شيئاً، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

ومرة كنت أطالع كتاباً في مدينة وجدة وقد انتصف الليل وانقضت الشمعة التي كنت أطالع على ضوئها، فخرجت مسرعاً لعلّي أجد دكاناً مفتوحاً لأشتري منه شمعة، وبعد لأي وجدت دكاناً مفتوحاً فاشتريت الشمعة ورجعت بها مسرعاً

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٦).

متلهفاً لإكمال مطالعة الكتاب، وكنت في طريقي أسمع الطوافين يسألون الصدقات متوسلين بأسماء الأولياء، هذا يقول: من يعطيني صدقة لوجه الشيخ عبد القادر الجيلاني، والآخر يقول: لوجه فلان، والثالث يقول: لوجه فلان، وبعضهم يقول: لوجه الله، فلم أعبأ بهم، ولما وصلت البيت وأردت أن أفتحه سمعت طوّافاً من بعيد يقول: من يعطيني صدقة لوجه سيدي أحمد التيجاني، فرجعت وأعطيته صدقة، ففي ذلك الوقت كانت رغبتي ورهبتي للشيخ التيجاني أكثر من رغبتي ورهبتي لله، والمشركون في هذا الزمان إذا حلفت لهم ألف يمين بالله لا يصدقونك، وإذا حلفت لهم بشيخك يصدقون، وفي هذا دليل على أنهم يخافون ويرجون شيوخهم أكثر من خوفهم ورجائهم لله، ويحكى أن قوماً كانوا في سفينة فاختل سير السفينة، وبدأت تغرق فأخذ ركاب السفينة يصرخون ويستغيثون بأوليائهم من دون الله، وكان معهم عالم سلفي ساكت فقالوا له: أيها الشيخ! ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا تستغيث؟ فقال: أسأل الله أن يغرقكم وأنا معكم، فقالوا له: أما تخاف الله؟ أتدعو علينا بهذا الدعاء؟ فقال: إنكم تستحقون الإغراق؛ لأنكم أعرضتم عن الله الذي بيده ملكوت السمٰوات والأرض، وأخذتم تستغيثون بالمخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً.

الباب الرابع

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٤٦، ٤٧]

«يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها، [كما قال تعالى][(١)]: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الملك: ٢٣][(٢)] وقال:

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنه».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي ولهذا قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ كما قال: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾».



﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾ أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه، ولهذا قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نبيّنها ونوضّحها ونفسّرها، دالة على أنه لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: ثم هم مع هذا البيان يصدفون، أي: يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتباعه»(١).

فائدة

قال محمد تقي الدين: إيجاد المخلوقين كلهم، واستمرار وجودهم، وإمدادهم بالقوى التي يحتاجون إليها من سمع وبصر وعقل وحركة وفهم وعلم، كل ذلك بيد الله، فمن علم وتيقن أن ذلك بيد الله، لم يخف مخلوقاً، ولم يرغب مخلوقاً، ولم يتوجه إلى مخلوق بطلب، ومن أشرك مع الله غيره، يتشتت همه، ويتوجه قلبه إلى غير الله تعالى من المعبودين، فيخسر في دنياه وفي أخراه، فمن خاف الله وحده خوّف الله منه كل شيء، ومن خاف غير الله ورجا غير الله ولم يخف الله خوفه الله من كل شيء، وقد ذكر الحافظ ابن كثير في أخذ السمع والأبصار وجهين: **أحدهما** أن تذهب أسماعهم والأبصار فيصيرون عمياً وصماً، **والثاني** أن يحرموا الانتفاع الشرعي بالسمع والبصر، فينتفعون بأسماعهم وأبصارهم في أمور دنياهم، ولا ينتفعون بها في أمور دينهم.

أقول: لا مانع أن يراد المعنيان جميعاً؛ لأن الله تعالى يملكهما جميعاً كما يملك القلوب من كل وجه.

فائدة أخرى

ذكر الله تعالى في الآية الثانية نوعين من العذاب، **أحدهما** يأتي بغتة، **والآخر** يأتي جهرة، والعذاب الذي أصاب المسلمين في هذا الزمان وجلّلهم خزياً وعاراً في قضية فلسطين والاستعمار، وتسلط أعداء الإسلام عليهم من الداخل والخارج يسومونهم سوء العذاب من النوع الذي جاء جهرة، ومع ذلك لا يزالون معرضين عن الله، عن شرعه وتوحيده وطاعته واتباع رسوله ﷺ، فنسأل الله العافية.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٩ ـ ٤٠).

الباب الخامس

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥٠، ٥١]

قال (ك): «يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: لست أملكها، ولا أتصرف فيها ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله ﷻ، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: ولا أدعي أني ملك، إنما أنا بشر من البشر يوحى إلي من الله ﷻ، شرفني بذلك، وأنعم علي به، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: لست أخرج عنه قيد شبر، ولا أدنى منه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي من اتبع الحق وهدي إليه، ومن ضل عنه فلم[(١)] ينقد له؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩] وقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، والذين ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة: ﴿لَيْسَ لَهُم﴾ أي: يومئذٍ ﴿مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: [أنذرهم][(٢)] هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله ﷻ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه»[(٣)].

فائدة

قال محمد تقي الدين: أمر الله نبيه وخير خلقه محمداً ﷺ أن يقول لجميع الناس الذين يدعوهم إلى الله: اعلموا أنني لا أملك من خزائن فضل الله شيئاً،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولم».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنذر».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤١ ـ ٤٢).

ولا أستطيع أن أعطي أحداً رزقاً حسياً أو معنوياً، ولا أعلم من الغيب إلا ما علمني ربي، ولست ملكاً له قوة خارقة للعادة، مستغنٍ عن الطعام والشراب، لا تعتريه الأعراض البشرية، إنما أنا بشر مثلكم يجري عليّ ما يجري عليكم، ولا أختلف عنكم إلا بشيء واحد، وهو الوحي والرسالة التي أكرمني الله بها، وأوجب عليكم اتباعي وطاعتي، وسيأتي مثل هذا إن شاء الله في (سورة الأعراف)، وفي (سورة يونس)، وفي (سورة هود)، والعجب ممن يدعي العلم بالكتاب والسنة والشرع، ومع ذلك يعمى عن هذا البيان ويستغيث بالنبي ﷺ إذا قام يقول: «يا رسول الله». وإذا قعد يقول: «يا رسول الله». وإذا فزع يقول: «يا رسول الله». فهذا مكذب لهذه الآية، فكأنه يقول: بل عندك خزائن الله، وأنت تعلم الغيب، وقد ألف رجل شاعر يقول الشعر، ولكنه غير شاعر بتوحيد الله، ألف كتاباً سماه: «شواهد الحق، في الاستغاثة بسيد الخلق»[1]. وزعم أن أهل السنة هم المشركون الذين يستغيثون بالنبي ﷺ وغيره من المخلوقين، وأن من وحّد الله تعالى وامتنع من الاستغاثة بغيره وهابي خارج عن مذهب أهل السنة، والحقيقة أن مذهب هذا الجاهل الذي يهرف بما لا يعرف هو مذهب أهل السِّنَةِ، (بكسر السين وتخفيف النون) والغفلة والجهالة والضلالة، ولو كان عنده ذرة من عقل وإيمان، لكانت هذه الآية كافية له، وإلا فلماذا يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعلن للناس أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن غيره، وأنه لا يعلم الغيب؟ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فكم قصائد نظمت في الاستغاثة بالنبي[2] ﷺ، وأنا بنفسي نظمت أبياتاً أستغيث فيها

---

(١) مؤلفه يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت١٣٥٠)، وكتابه المذكور مطبوع بمصر قديماً في مطبعة البابي الحلبي، ثم صور مرات في بيروت، قال عنه العلامة محمد رشيد رضا في مجلة «المنار» (م١٣) الجزء العاشر (ص٧٩٧): «كتبه مملوءة بالروايات الموضوعة والمنكرة، وكان يروّج كتبه لكي يمهّد بذلك السبيل ادّعاء المهديّة لنفسه». وذكر الشيخ إسماعيل بن سعد العتيق في كتابه «القول الفصل النفيس» (ص٤) بعض كتبه، وقال: «فيها شطحات لا تغتفر».
قال أبو عبيدة: وله فيها افتراء كثير وكبير على الدعوة السلفية، وأعلامها الأجلاء، مثل: ابن تيمية، وكتبه ـ يا للأسف ـ طافحة في الطعن على الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، وانظر عنه كتابي: «كتب حذر منها العلماء» (١/ ٢٦٩).

(٢) أتيت على طرف منها في كتابي «شعر خالف الشرع»، يسر الله إتمامه ونشره بخير وعافية.

بالنبي ﷺ، وأطلب منه أن يعطيني العلم، ولا أحب أن أذكر هذه الأبيات، فالحمد لله الذي هدانا وبصّرنا من العمى، ومنَّ علينا بتوحيده لا إله إلا هو.

فائدة أخرى

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم المنتفعون بالإنذار ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ لا ينصرهم أحد ولا يشفع لهم أحد الشفاعة الشركية، اعلم ـ علمت خيراً ووقيت ضيراً ـ أن الشفاعة وردت في كتاب الله تعالى نوعين: **أحدهما**: الشفاعة الشركية، وهي أن يشفع الشافع بدون استئذان من المشفَّع، ويرى أن له من المنزلة والمكانة عند المشفِّع ـ بالكسر ـ ما لا يحتاج معه إلى إذن، بل ربما اعتقد أن قبول شفاعته واجب على من يشفع عنده، كشفاعة الأب عند ابنه، وشفاعة الابن عند أبيه، والزوجة عند زوجها، والصديق عند صديقه، والوزير المخلص عند مليكه، ونحو ذلك، فهذا النوع هو المنفي في القرآن كما في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] وكذلك من مات كافراً بشرك أو جحود، فنفي الشفاعة في حقه مطلق، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والنوع الثاني: الشفاعة التي يتفضل الله بها على الشفعاء، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بعد أن يستأذنوه فيأذن لهم، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]وقال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال تعالى في سورة طه: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] وقد تواترت الأحاديث التي هي كالشمس في رابعة النهار عن النبي ﷺ أنه يشفع لأهل الكبائر[1]، فيخرجون من النار بشفاعته، وقد أنكر هذه الشفاعة الخوارج

---

(١) أفردها جمع بالتصنيف: منهم الذهبي، له «إثبات الشفاعة» وفيه (ص٢٠): «فمن رد شفاعتَه ورد أحاديثها جهلاً منه، فهو ضال جاهل قد ظنَّ أنها أخبار آحاد، وليس الأمر كذلك، بل هي في المتواتر القطعي مع ما في القرآن من ذلك». ولأبي الوفاء محمد =

والمعتزلة لقلة علمهم بالكتاب وجهلهم بالسنة، وما ذكر من الآيات وما أشرت إليه من الأحاديث حجة عليهم، وفي هذه الآية نفسها من الحجة عليهم ما لا يخفى، لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ﴿أَنذِرْ﴾ يا محمد بالقرآن المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ غير واجدين، من دونه ولياً ينصرهم ولا شفيعاً يشفع لهم، فإن خوفهم من الله دليل على إيمانهم. والخوارج والمعتزلة يقولون: إن الشفاعة خاصة بالمؤمنين في رفع الدرجات، أما من مات كافراً أو مصراً على الكبائر فلا شفاعة له. وهذه الآية تدل على نفي الشفاعة عن المؤمنين الذين يخافون الله، فهذا النفي مطلق وعام يخصصه قوله تعالى فيما سبق ذكره: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طـه: ١٠٩] ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣، النور: ٤٦].

الباب السادس

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٦ ـ ٥٩]

قال محمد تقي الدين: ذكرت فيما مضى أن النسخة التي كانت عندي من

= درويش «قل لله الشفاعة جميعاً» وللشيخ مقبل بن هادي «الشفاعة»، وللدكتور ناصر الجديع «الشفاعة عند أهل السنة والرد على المخالفين فيها». وممن نص على تواتر أحاديث الشفاعة شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، وانظر: «لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (٢/٢٠٨، ٢٠٩).

«تفسير ابن كثير» التي نشرتها المطبعة التي تسمي نفسها: «مطبعة الاستقامة»، فيها أخطاء كثيرة وبتر ونقص، وفي هذا الموضع ترك تفسير آية بأكملها، وقد فزعت إلى طبعة بيروت لعلي أجدها سالمة من ذلك الداء، فإذا بها مسروقة من الطبعة المذكورة[1]، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] على فساد الكنوز التي خلفها لنا السلف، فصارت بأيدي التجار الفجار يطبعونها لأجل الربح الدنيوي ولا يبالون بما يرتكبونه من الجرائم في حق طلبة العلم، وعلوم الإسلام يتيمة كعلوم اللغة العربية، ليس لها جماعة تشرف على طبعها ونشرها وتأذن في ذلك لمن يكون له أهلاً، وتضرب على هؤلاء التجار الفجار **وليس للتجار ضمائر ولا مروءة تحملهم على المحافظة على هذا التراث وعلى أن لا يصدر من مطابعهم ما يشين سمعتهم، وهذا جزء من الشقاء الذي يعانيه المسلمون في هذا الزمان،** فهم كما قال الله تعالى في بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨١].

فإن قيل: كيف سوغت لنفسك أن تذكر هذه الآيات التي نزلت في كفار بني إسرائيل وتريد أن تطبقها على المسلمين؟ أليس هذا من الغلو؟ **أقول:** جاء في الحديث الصحيح في تفسير هذه الآيات من كلام النبي ﷺ: «**لتضربُن على يد الظالم، ولتقصرنه على الحق قصراً، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليلعننكم الله كما**

(١) قال أبو عبيدة: رجعت إلى أكثر من طبعة من «تفسير ابن كثير»، واعتمدت بعضها على نسخ خطية موثوقة، فلم أظفر بتفسير هذه الآية، وقد طبع هذا التفسير طبعات كثيرة بعد المصنف، بلغت في مكتبتي أربع عشرة طبعة، وأحسنها ـ في تقديري ـ طبعة أولاد الشيخ، وهي في (١٥) مجلدة، وطبعة دار طيبة وهي في (٨) مجلدات، وطبعة دار القبلة، وهي في (٨) مجلدات أيضاً، وهذه الطبعات قوبلت على نسخ متعددة. وقال محقق ط دار القبلة (د. محمد إبراهيم البنا) في هذا الموضع (٣/ ١٣٠٣): «لم يذكر ابن كثير ـ حسب ما انتهى إلينا من النسخ ـ تفسير الآية (٥٦). . .»، وفحصت جميع الطبعات السابقة في هذا الموطن، فوجدت التفسير عليها غير مذكور.

لعنهم»[1]. اهـ ما أردته من الحديث. انظر: «رياض الصالحين»[2] في (باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، لتطلع على الحديث بطوله، والآن أفسر هذه الآية بما يفتح الله به، إذ ليس عندي تفسير على طريقة (ك)، فأقول وبالله التوفيق: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي: نهاني الله تعالى أن أعبد الذين تدعون من دون الله ـ يا أيها المشركون ـ بأي نوع من أنواع العبادة التي تقدم ذكرها مراراً، وأهمها: الدعاء والاستغاثة، سواء أكان المدعوون ملائكة أو أنبياء أو صالحين أو غيرهم، والنهي هنا للأمة لأن النبي ﷺ معصوم من الشرك ومن جميع الذنوب ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ أي: لا أوافقكم على ما تشتهون من عبادة غير الله ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ لو وافقتكم على ذلك، لكنت من الضالين البعيدين عن الهدى، وأنا الهادي بنص القرآن، ولا يكون الهادي هادياً إلا إذا كان مهتدياً. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

هذا ما يسره الله في معنى الآية، ثم قال (ك): «وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إلي: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من الله: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: من العذاب ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، ولهذا قال: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين في الحكم[3] بين عباده، وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧، ٣٠٤٨)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، وعبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٩٤)، وأحمد (١/ ٣٩١)، وأبو يعلى (٥٠٣٥، ٥٠٩٤)، وابن جرير (١٢٣٠٧٦ ـ ١٢٣١١)، والطبراني (١٠٢٦٤ ـ ١٠٢٦٨)، وابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف» رقم (٤، ١٩)، والخطيب في «تاريخه» (٨/ ٢٩٩)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧)، والبيهقي (١٠/ ٩٣)، وأبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢٩٨) من حديث ابن مسعود، وجعله بعضهم من مرسل ابنه أبي عبيدة، وهذا الذي رجحه الدارقطني في «العلل» (٤/ ٢٥٣) وأبو حاتم الرازي في «العلل» (٢/ ٤٣٠) أيضاً، ووهم بعض الرواة فجعله من (مسند أبي موسى الأشعري)!! واضطرب فيه بعض الرواة على وجهين آخرين، ومداره على طريق منقطعة، فهو **ضعيف** بخلاف حكم المصنف، وضعفه شيخنا الألباني في «الضعيفة» (١١٠٥).

(٢) انظره (ص١٢٧ ـ ١٢٨/رقم ٢٠١، ط. شيخنا الألباني).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الحاكمين».

﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لو كان مرجع [ذلك][(١)] إلي، لأوقعت [بكم][(٢)] ما تستحقونه من ذلك ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في «الصحيحين»[(٣)] من طريق ابن وهب عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل** عليه السلام**، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلّم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول الله** ﷺ: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً**». وهذا لفظ مسلم، فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾؟ **فالجواب** ـ والله أعلم ـ: إن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم، وأما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً، فلهذا استأنى بهم، وسأل الرفق لهم، وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ قال البخاري[(٤)] بسنده عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس ـ لا [يعلمهن]**[(٥)] **إلا الله ـ**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما تستعجلونه به».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لكم»!
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).
(٤) أخرجه البخاري (٤٦٢٧)، وأحمد (٢/ ١٢٢) وغيرهما.
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعلمها».

وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]». وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: يعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنّهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]»[١].

فائدة

قال محمد تقي الدين: أجمع المسلمون على ما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله، أن مفاتح الغيب الخمسة المفصلة في آخر سورة لقمان بنص النبي ﷺ، لا يعلمها إلا الله، ومن ادعى أن أحداً من مخلوقات الله يعلمها فهو كافر، نقله القسطلاني[٢] عن الزجاجي في شرح الحديث المذكور أعلاه، وأكثر الذين يدعون الإسلام في هذا الزمان يعتقدون أن غير الله يعلم هذه الخمسة. ففي كتاب «الإبريز» لمؤلفه أحمد ابن المبارك اللمطي المغربي ما معناه: أنه قال لشيخه عبد العزيز: إن علماء الظاهر يقولون: إن هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله، فقال له: ماذا تقولون؟ لو كنت ميتاً، لعلمت هذه الخمسة، فكيف وأنا حي؟ وهذا الكتاب: مقدس عند أكثر علماء الأزهر وعلماء المغرب!! من ذلك تعلم أن علم الكتاب والسنة قد مات، **وصار أهله غرباء!!**

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥١ ـ ٥٣) بتصرف.

(٢) قال في «إرشاد الساري» (٧/ ١١٨) بعد ذكره ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾: «فمن ادّعى علم شيء منها، فقد كفر بالقرآن العظيم». وفي النفس حب لمعرفة الغيب لبّاه الشرع ووظفه فيما يعود على الإنسان بالخير من خلال إخبار رسول الله ﷺ بأشراط الساعة، وما عداه من التكهنات فهو من الكفر، وظفرت بكتاب عنوانه: «قصة التنبؤ بالغيب عبر التاريخ» ذكر فيه صاحبه (التنبؤ) في الحضارات السابقة، وكذا في الجاهلية والدولة الأموية والعباسية، وينبغي أن يعلم أن «ما أخرجه العلم من مجهول الغيبيات فسقط من الحظر، فالإسلام يبارك أن تتحقق آية الله فيما سخر لنا». قالته عائشة عبد الرحمن في كتابها «الشخصية الإسلامية» (ص١٥٧). والغيب أقسام باعتبارات علمية، ويختلف حكمها ويتشعّب، انظره في «الإيمان بالغيب» (ص٣٢ وما بعد) لبسام سلامة. وألف أبو هارون عيسى بن يحيى رسالة جيدة مطبوعة بعنوان: «كفر من ادعى علم الغيب».

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَٰطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ ۚ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧١ ـ ٧٣]

روى (ج) عن[١] السدي أنه[٢] قال: قال المشركون للمسلمين[٣]: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق، فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من تبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام[٤]، وقال قتادة: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَٰطِينُ فِى الْأَرْضِ﴾ أضلته في الأرض، يعني: استهوته، سيرته كقوله: ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ أي: نخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: أمرنا بإقامة الصلاة، وبتقواه في جميع الأحوال ﴿وَهُوَ الَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ يعني: يوم القيامة الذي

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «للمؤمنين» والمثبت في «تفسير ابن كثير» (٦/ ٧٩).

(٤) رواه ابن جرير (٩/ ٣٢٩)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٢٠ ـ ١٣٢٢) في «تفسيريهما»، وهو **معضل**، وعزاه السيوطي في «الدر» (٣/ ٢٢) إلى أبي الشيخ.

يقول الله: كن، فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب، ويوم: منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر يوم يقول: كن، فيكون، وقوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ صفتان لرب العالمين، وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وكقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦] قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ المراد به هنا القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل: قال (ج): تظاهرت الأخبار عندنا أن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ، رواه مسلم(١) في «صحيحه»(٢).

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ تنبيه لعبّاد القبور وغيرها من المخلوقات على فرط جهلهم وعمى بصائرهم، فإنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، ولذلك لا يعبد إلا الله، وهذه الآية تصدق على كل من خالف جماعته، سواء أكانوا أقرباء أو أصدقاء وعبد غير الله، وهم يدعونه إلى الهدى، وهو توحيد الله واتباع نبيه الكريم، وهو يأبى أن يرجع إلى الحق ويمعن في الشرك، وفيها أيضاً تنبيه على أن المؤمن لا ينبغي له أن يأمن مكر الله، وينبغي له أن يدعو الله تعالى بالدعاء الذي علمنا إياه في سورة آل عمران، وهو دعاء الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨] وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١] هو كما قال (ك) رَحِمَهُ اللَّهُ: أن نخلص العبادة له وحده لا نشرك به شيئاً، مؤمنين برسوله ﷺ، مجردين الاتباع له، وهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبعد ذلك تجيء إقامة الصلاة، فإن

---

(١) علقه ابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٣٤٠)، ووصل نحوه أحمد (٣/ ٧، ٧٣)، والترمذي (٢٤٣١)، وابن ماجه (٤٢٧٣)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ١٧٥)، وابن المبارك في «الزهد» (١٥٩٧)، والدولابي (٢/ ٥٠)، والطحاوي في «المشكل» (٥٣٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢٠٢١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٩٨، ٣٩٩)، والبغوي (٤٢٩٨، ٤٢٩٩)، وفي «التفسير» (٢/ ١٤٧)، وأبو نعيم (٥/ ١٠٥ و٧/ ١٣٠ ـ ١٣١) ولم أظفر به في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري، **والحديث صحيح**. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٦٦) رقم (١٠٧٩) وحكى الحليمي الإجماع على أن صاحب الصور إسرافيل، نقله ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٣٦٨).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٧٩ ـ ٨٢) بتصرف.

الصلاة عماد الدين، فمن تركها فهو كافر لا حظ له في الإسلام كما قال عمر رضي الله عنه عند موته[١]، انظر: كتاب «الصلاة»[٢] لابن القيم، وأيضاً كتاب «القول الفصل في حكم تارك الصلاة»[٣] للمؤلف.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُۚ﴾ أي: امتثلوا ما أمركم به ظاهراً وباطناً، واجتنبوا ما نهاكم عنه ظاهراً وباطناً، لأنكم تحشرون إليه يوم القيامة، فيجزيكم بأعمالكم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ هو خالق كل شيء، وحافظ الوجود على كل موجود، وهو الذي يحيي ويميت، فما أجهل من يدعو غيره وما أشقاه، وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أي: فلا يعبد غيره، فنسأل الله أن يجعلنا ممن حقق التوحيد بأنواعه، ويختم لنا بالإيمان، ويجعل أسعد أيامنا يوم لقائه.

الباب الثامن

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٥٧٩، ٥٨١، ٥٠١)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (١٠٣)، ومالك (٤٥/رقم ٨٤)، وابن سعد (٣/ ٣٥٠ ـ ٣٥١)، وعبد الله بن أحمد في «مسائل أبيه» رقم (١٩٣)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (٩٢٣ ـ ٩٣١)، والخلال في «جامعه» رقم (١٣٩٤) و«السنة» رقم (١٣٧١، ١٣٨١، ١٣٨٨)، والدارقطني في «السنن» (٢/ ٣٥)، وابن بطة في «الإبانة» (٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣)، والآجري في «الشريعة» (٢٩٤)، واللالكائي في «السنة» (١٥٢٨، ١٥٢٩) من طرق عن عمر قال: «لا حظ لأحد في الإسلام أضاع الصلاة». وفي لفظ: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة»، وهو **صحيح**.

(٢) انظره (ص٤٠، ط. دار ابن رجب).

(٣) انظره (ص١٦ وما بعد)، ومسألة (تكفير تارك الصلاة) تكاسلاً مما اتّسع فيه الخلاف، وهي مسألة فقهية وليست بعقدية، ولا يجوز أن يقع التباغض والتهاجر بسببها، ولا أن ينبز غير المكفر بأنه مرجئ، ولا المكفِّر بأنه خارجي، وإلى الله وحده المشتكى من تناكد أهل السنة في هذه المسألة في هذه الأيام! ولا قوة إلا بالله!

هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٩]

قال محمد تقي الدين: اختلف المفسرون في آزر، فقال بعضهم: هو اسم صنم؛ لأن أبا إبراهيم اسمه تارح كما في التوراة، وقال محققون ومنهم (ج): «هو اسم لأبي إبراهيم»[(١)]، ولا غرابة أن يكون له اسمان: **أحدهما**، تارح، **والآخر** آزر، أو يكون آزر لقباً له، ولا يمكن أن يسميه الله تعالى ولا يكون في الحقيقة كذلك، والقرآن أصح كتاب نزل من الله تعالى، وقد رأينا في التوراة في جميع أقسامها أشياء كثيرة لا يستطيع مؤمن أن ينسبها لله ولا للرسل عليهم الصلاة والسلام.

قال (ك) في قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ «أي: أتأله صنماً[(٢)] تعبده من دون الله؟ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ﴾ أي: السالكين مسلكك، ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: تائهين، لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل، وأمركم في الجهالة والضلال بيِّن واضح لكل ذي عقل سليم[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٨] فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه، [كما][(٤)] قال

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/ ٣٤٥).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أتتأله لصنم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صحيح».
(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير»!.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]. وثبت في «الصحيح»[(١)]: «**إن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة، فيقول له آزر: يا بني، لا أعصيك اليوم، فيقول إبراهيم: أي رب! ألم تعدني أنك لا تخزني يوم الدين؟ وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراءك فإذا هو بذيخ[(٢)] متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**».

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: نبين له وجه الدلالة ـ في نظره إلى [خلقهما][(٣)] ـ على وحدانية الله ﷻ في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٩].

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ قيل: الواو زائدة[(٤)] تقديره: «وكذلكَ نُرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرضِ ليَكُونَ من الموقِنِينَ».

كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥] وقيل: هي على بابها، أي: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: تغشاه وستره: ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ أي: نجماً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب، قال محمد بن إسحاق بن يسار: الأفول: الذهاب، وقال (ج): «يقال: أفل النجم يأفُل ويأفِل، أي بكسر الفاء وضمها، أفولاً[(٥)]، ويقال: أين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «بذبح»!

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «خالقهما»!!

(٤) انظر ضعف هذا القول في «تفسير الرازي» (١٣/ ٤٥) و«البحر المحيط» (٤/ ١٦٥) و«الدر المصون» (٥/ ٧)، وفصلت الدكتورة هيفاء فدا في كتابها الجيد «زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم» (ص٤٨٣ ـ ٤٨٧) وجه المنع، وبيّنت سر هذه (الواو) وفائدتها على وجه حسن مليح، فلينظر، فإنه مفيد.

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير» (٩/ ٣٦١): «وأفلاً: إذا غاب ومنه قول ذي الرمة:
مصابيحُ ليست باللواتي تقودُها   نجومٌ ولا بالآفلات الدَّوالِكِ»
قلت: والبيت في «ديوان ذي الرمة» (٣/ ١٧٣٤).

أفلت عنا؟ بمعنى أين غبت عنا، قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ أي: طالعاً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: هذا المنير الطالع ربي ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ أي: جرماً من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ أي: غابت ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٧٩﴾ أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ أي: في حال كوني حنيفاً، أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير [عن][1] علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾.

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم[2] عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المنيرة[3] وهي القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزُهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من طريق».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتحيرة».

للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً، ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤] وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٢] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣] وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾؟ [الأنعام: ١٦١] وقد ثبت في «الصحيحين»[(١)] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة**»»[(٢)].

قال محمد تقي الدين: قد رأينا أن اختيار (**ك**) أن إبراهيم عليه السلام كان مناظراً لا ناظراً، قد أقام عليه براهين قاطعة، ومعنى مناظراً لا ناظراً؛ أنه لم يكن في أول أمره يعتقد أن النجم ربه ثم انتقل إلى اعتقاد أن القمر ربه، ثم انتقل إلى اعتقاد أن الشمس ربه، ثم انتقل من ذلك إلى توحيد الله تعالى والبراءة من معبودات قومه؛ لأن الله حفظ أولياءه ورسله من الشرك والمعاصي قبل النبوة، وهيأهم لها فقوله لما رأى النجم قال: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ أي: بزعمكم أيها المشركون؛ فإن كان ما تدعون حقاً فإنه سيثبت ولا يزول، فلما غاب انتقل إلى طالع آخر أقوى منه ليستدرجهم إلى توحيد الله تعالى، فقال لما رأى القمر: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾،

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٤ ـ ٩٩) بتصرف يسير.

أي: بزعمكم، فلما غاب القمر، ظهر لهم أنه لا يستحق أن يكون رباً، وقال مثل ذلك في الشمس، فلما غابت واحتجبت ظهرت حجته عليهم، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: مما تعبدون من المخلوقين والمخلوقات: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وقلبي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ﴾ أي: نابذاً لجميع الأديان والمعتقدات إلا دين التوحيد.

الباب التاسع

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٣]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول أنه قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ أي: تجادلوني[1] في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو وقد بصرني وهداني إلى الحق، وأنا على بينة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟ وقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۗ﴾ أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أباليها، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظرون، بل عاجلوني بذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۗ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ﴾ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا تخفى[2] عليه خافية، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيما بينته لكم أفلا تعتبرون[3] أن هذه

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «تجادلونني».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يخفى».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فتعتبرون».

الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها؟ وهذه الحجة نظير ما احتج به[١] نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قص الله عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٦] وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله؟ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾[٢] وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فأي الطائفتين أصوب، الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل؟ أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ قال [الله] تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

قال البخاري بسنده عن علقمة عن عبد الله قال: «لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس للذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك»[٣]. وروى أحمد [وابن مردويه][٤] بإسناديهما عن ثابت عن زاذان عن جرير بن عبد الله قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة، إذا راكب يوضع نحونا، فقال رسول الله ﷺ: **«كأن هذا الراكب إياكم يريد»**، فانتهى إلينا الرجل، فسلم فرددنا عليه فقال له النبي ﷺ: **«من أين أقبلت؟»** قال: من أهلي وولدي وعشيرتي، قال: **«فأين تريد؟»** قال: أريد رسول الله ﷺ، قال: **«فقد أصبته»**، قال: يا رسول الله، علمني ما الإيمان؟ قال: **«أن تشهد**

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بها».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال ابن عباس وغير واحد من السلف؛ أي: حجة وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾».

(٣) أخرجه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٠٦٩)، وأحمد (١/ ٣٧٨).

(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، قال: قد أقررت، قال: «ثم إن بعيره دخلت يده في بيت جرذان، فهوى بعيره» وهوى الرجل، فوقع على هامته فمات! فقال رسول الله ﷺ: «**عليَّ بالرجل!**» فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه، فقالا: يا رسول الله قبض الرجل فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ: «**أما رأيتما إعراضي عن الرجل، فإني رأيت ملكين يدسان في فمه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعاً**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**هذا من الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾**» ثم قال: «**دونكم أخاكم**»، فاحتملناه إلى الماء، فغسلناه، وحنطناه، وكفناه، وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر، فقال: «**ألحدوا ولا تشقوا، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا**»[(١)]. وروى ابن مردويه بسنده عن عبد الله بن سخبرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أعطى فشكر، ومنع فصبر، وظلم فاستغفر، وظلم فغفر**»[(٢)]. وسكت، فقالوا: يا رسول الله، ما له؟ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: وجهنا حجته [عليهم][(٣)]

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٩) - ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠٣) - وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٤٦، ٤٧) وقال: «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» وفي إسناده أبو جناب وهو مدلس وقد عنعن» كذا عزاه للطبراني في «الكبير» من هذه الطريق، وإنما أخرجه (٢/ رقم ٢٣٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٤٣١٨) من طريق أبي حمزة الثمالي عن أبي اليقظان عن زاذان به، وأبو اليقظان وأبو حمزة الثمالي ضعيفان، والحديث زاد نسبته السيوطي في «الدر» (٣/ ٥٠) إلى أبي الشيخ وابن مردويه، **وأرجو أن يكون حسناً بمجموع طرقه وشواهده.**

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٠) له، وأخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٥٤٨)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ١٤٤٠، ١٤٤١) رقم (٣٦٥٤، ٣٦٥٥) من طريق محمد بن المعلى به هكذا مرسلاً. وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ٦٦١٣، ٦٦١٤)، وابن قانع (٦/ رقم ٦٩٩)، وأبو القاسم البغوي (٣/ ٢٦٩) رقم (١٢٠٨) كلاهما في «معجم الصحابة»، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ١٤٤٠) رقم (٣٦٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٤٤٣١)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢/ ٦٨٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٠/ ٢١٠) من طريق محمد بن المعلى به موصولاً من حديث سخبرة والد عبد الله (غير أنه تحرف سخبرة إلى سمرة في مطبوع «الشعب») وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٨٧): «رواه الطبراني وفيه أبو داود الأعمى وهو متروك». قلت: وكذبه ابن معين، وشيخه عبد الله بن سخبرة مجهول، **فالحديث واهٍ جداً.**

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على قومه».

قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ وقد صدقه[1] الله، وحكم له بالأمن والهداية، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قرئ بالإضافة وبلا إضافة، كما في سورة يوسف، وكلاهما قريب في المعنى، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، عليم [أي:] بمن يهديه ومن يضله، وأن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧] ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾»[2].

فائدة

قال محمد تقي الدين: المشركون في كل زمان ومكان طبيعتهم واحدة لا تختلف إذا نهاهم ناهٍ عن الشرك بالله، حاولوا أن يلتمسوا عذراً لأنفسهم، فيقولون مثلاً: إن هذا الضريح، أو هذا التمثال، أو هذه الشجرة، أو هذا الحجر، أو هذا المكان، كل ذلك، منسوب إلى ملك مقرب أو نبي كريم، أو صالح من أولياء الله، فتعظيمنا له تعظيم للمنسوب إليه، ومنزلته عند الله عالية، ونحن مذنبون خاطئون، إذا دعونا الله لا يستجيب لنا، وإذا تشفعنا إليه بهذه الآثار المنسوبة إلى أوليائه يقضي حاجتنا، قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٠] فأنت ترى أن الله لم يقبل عذرهم، وسمى عبادتهم لتلك الآثار وللمنسوبة إليهم شركاً.

فائدة ثانية: إذا رأى المشركون أن الذي ينهاهم عن الشرك لا يقبل عذرهم، انتقلوا إلى حجة أخرى وهي تخويفه من شركائهم، كما حكى الله عن قوم إبراهيم وقوم هود، فقال لهم إبراهيم: أنا لا أخاف ما تشركون به من

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «صدق»!
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٠٠ ـ ١٠٦) بتصرف.

الآثار، ولا الذين تنسبونها إليهم؛ لأني أعلم أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، ولما كنت في تطوان أدعو إلى توحيد الله، أصابني مرض الربو، فقال المشركون: إن السيد السعيدي هو الذي أصابني بذلك المرض؛ لأني أنكرت عليهم عبادته بالذبح والنذر والاستغاثة وطلب قضاء الحاجات، حتى المطر يطلبونه منه، فقلت لهم على كرسي الوعظ في المسجد الجامع: إن قوماً زعموا أن السيد السعيدي هو الذي أصابني بهذا المرض، وهؤلاء ليس لهم عقل ولا دين، أما الدليل على أنهم ليس لهم عقل، فهو أن رجالاً ونساء كثيراً من أهل تطوان مصابون بهذا المرض، وهم يعبدون السيد السعيدي، فمن أصابهم به؟ وأما الدليل على أن ليس لهم دين، فإن السعيدي إن كان صالحاً كما تقولون، فإنه لا يعلم ما أدعو إليه؛ لأنه مشغول بما أعد الله له من نعيم الجنة، ولا يعلم الغيب، ولو علم أني أدعو إلى توحيد الله واتباع رسوله لفرح بذلك، وإن كان السعيدي لا يحب توحيد الله تعالى ولا اتباع رسوله ﷺ فليس بصالح، ولا مؤمن بالله، فأنا لا أبالي به مع أنه عاجز عن النفع والضر.

فائدة ثالثة: قال إبراهيم عليه السلام في الحجة التي آتاه الله على قومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي: كيف أخاف أصنامكم ومن وراءهم من المعبودين، وأنا موحد لله، لا أشرك به شيئاً، ولا تخافون أنتم من عذاب الله، وقد أشركتم به بعض خلقه، فأينا أحق بالأمن؟ وأينا أحق بالخوف؟ قال الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وعدهم الله بالأمن من الخوف، وشهد لهم بالاهتداء، ومقتضى هذا: أن الذين أشركوا بالله هم أحق بالخوف، وهم ضالون، **فمع توحيد الله الأمن والهدى، ومع الشرك بالله الخوف والضلال.**

الباب العاشر

قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ

﴿وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٨]

(ك) «يذكر[1] تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾ [هود: ٧٢ ـ ٧٣] فبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلاً وعقباً، كما قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾ [الصافات: ١١٢] وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي: ويولد لهذا المولود في حياتكما، فتقر أعينكما به، كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم ﷺ حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله ﷻ عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)﴾ [مريم: ٤٩] وقال هـهـنـا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح ﷺ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، وهم الذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته[2]، وأما الخليل إبراهيم ﷺ، فلم يبعث الله ﷻ بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ[3] النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقال

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخبر».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذرية نوح». (٣) في الأصل: «ذريتهما»!

تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨] وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾، وعود الضمير إلى نوح ـ لأنه أقرب المذكورين ـ ظاهر لا إشكال فيه، وهو اختيار (ج)(١).

وعوده إلى إبراهيم؛ لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل عليه(٢) لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه ماران(٣) بن آزر، اللهم إلا أن يقال: أنه دخل في الذرية تغليباً، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣] فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليباً، وكما قال في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة؛ لأنه كان في تشبه بهم، فعومل معاملتهم، ودخل معهم تغليباً، وإلا فهو كان من الجن، وطبيعته من النار، والملائكة من النور، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل؛ لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام، فإنه لا أب له، قال ابن أبي حاتم(٤) وذكر سنده إلى [أبي](٥) حرب بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر، فقال: «بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِن

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/ ٣٨١).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على ذلك».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «هارون»!

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ٧٥٥٤)، وعبد الله بن عطاء ترجم له ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٥/ ١٣٢) وكذا البخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٦٥) ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الذهبي: صدوق إن شاء الله. انظر: «الميزان» (٣/ ٤٤٥١) وعلي بن عابس ضعيف كما في «التقريب».

(٥) سقط من الأصل، وأثبته من «تفسيري ابن أبي حاتم وابن كثير».

ﮋﺫُﺭِّﻳَّﺘِﻪِۦ ﺩَﺍﻭُۥﺩَ ﻭَﺳُﻠَﻴۡﻤَٰﻦَﮊ حتى بلغ: ﮋﻭَﻳَﺤۡﻴَﻰٰ ﻭَﻋِﻴﺴَﻰٰﮊ قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب؟ قال: صدقت» فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته، أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم[١]، فأما إذا أعطى الرجل بنيه، أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه، وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربي[٢]:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعدِ[٣]

وقال آخرون: ويدخل بنو النبات فيهم أيضاً؛ لما ثبت في «صحيح البخاري»[٤]، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: **«إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**. فسماه ابناً، فدل على دخوله في الأبناء، وقال آخرون: هذا تجوز، وقوله: ﮋﻭَﻣِﻦۡ ﺀَﺍﺑَﺂﺋِﻬِﻢۡ ﻭَﺫُﺭِّﻳَّٰﺘِﻬِﻢۡ ﻭَﺇِﺧۡﻮَٰﻧِﻬِﻢۡﮊ ذكر أصولهم وفروعهم وذوي طبقتهم، وإن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، ولهذا قال: ﮋﻭَﭐﺟۡﺘَﺒَﻴۡﻨَٰﻬُﻢۡ ﻭَﻫَﺪَﻳۡﻨَٰﻬُﻢۡ ﺇِﻟَﻰٰ ﺻِﺮَٰﻁٖ ﻣُّﺴۡﺘَﻘِﻴﻢٖﮊ ثم قال تعالى: ﮋﺫَٰﻟِﻚَ ﻫُﺪَﻯ ﭐﻟﻠَّﻪِ ﻳَﻬۡﺪِﻱ ﺑِﻪِۦ ﻣَﻦ ﻳَﺸَﺂﺀُ ﻣِﻦۡ ﻋِﺒَﺎﺩِﻩِۦﮊ أي: إنما حصل لهم ذلك[٥] بتوفيق الله وهدايته إياهم: ﮋﻭَﻟَﻮۡ ﺃَﺷۡﺮَﻛُﻮﺍْ ﻟَﺤَﺒِﻂَ ﻋَﻨۡﻬُﻢ ﻣَّﺎ ﻛَﺎﻧُﻮﺍْ ﻳَﻌۡﻤَﻠُﻮﻥَﮊ تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته، كقوله تعالى: ﮋﻭَﻟَﻘَﺪۡ ﺃُﻭﺣِﻲَ ﺇِﻟَﻴۡﻚَ ﻭَﺇِﻟَﻰ ﭐﻟَّﺬِﻳﻦَ ﻣِﻦ ﻗَﺒۡﻠِﻚَ ﻟَﺌِﻦۡ ﺃَﺷۡﺮَﻛۡﺖَ ﻟَﻴَﺤۡﺒَﻄَﻦَّ ﻋَﻤَﻠُﻚَﮊ [الزمر: ٦٥] وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله: ﮋﻗُﻞۡ ﺇِﻥ ﻛَﺎﻥَ ﻟِﻠﺮَّﺣۡﻤَٰﻦِ ﻭَﻟَﺪٞ ﻓَﺄَﻧَﺎ۠ ﺃَﻭَّﻝُ ﭐﻟۡﻌَٰﺒِﺪِﻳﻦَ ﴿٨١﴾ﮊ [الزخرف: ٨١] وكقوله: ﮋﻟَﻮۡ ﺃَﺭَﺩۡﻧَﺎٓ ﺃَﻥ ﻧَّﺘَّﺨِﺬَ ﻟَﻬۡﻮٗﺍ ﻟَّﭑﺗَّﺨَﺬۡﻧَٰﻪُ ﻣِﻦ ﻟَّﺪُﻧَّﺎٓ ﺇِﻥ ﻛُﻨَّﺎ ﻓَٰﻌِﻠِﻴﻦَ ﴿١٧﴾ﮊ [الأنبياء: ١٧] وكقوله: ﮋﻟَّﻮۡ ﺃَﺭَﺍﺩَ ﭐﻟﻠَّﻪُ ﺃَﻥ ﻳَﺘَّﺨِﺬَ ﻭَﻟَﺪٗﺍ ﻟَّﭑﺻۡﻄَﻔَﻰٰ ﻣِﻤَّﺎ ﻳَﺨۡﻠُﻖُ ﻣَﺎ ﻳَﺸَﺂﺀُۚ ﺳُﺒۡﺤَٰﻨَﻪُۥۖ ﻫُﻮَ ﭐﻟﻠَّﻪُ ﭐﻟۡﻮَٰﺣِﺪُ ﭐﻟۡﻘَﻬَّﺎﺭُ ﴿٤﴾ﮊ [الزمر: ٤]»[٦].

---

(١) انظر: «التهذيب في الفرائض» للكلوذاني (٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٠)، «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص٣٨٦ ـ ٣٨٧ ـ بتحقيقي)، ولبعضهم رسائل مفردة في ذلك، انظر: «معجم المصنفات المطروقة» (٢/ ١٣٥٤).

(٢) هو الفرزدق، والبيت في «ديوانه» (٢١٧).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأجانب».

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) من حديث أبي بكرة.

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٠٦ ـ ١٠٩).

فائدة

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «وهذا مجازاة حين اعتزل قومه... إلخ»، قال تعالى في سورة مريم: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤٩ ـ ٥٠] يؤخذ من هذا أن كل من اعتزل المشركين المصرِّين على عبادة غير الله وهجرهم، وتوجَّه إلى الله طالباً وجود قوم يتعاونون معهم على عبادة الله وحده لا شريك له واتباع الرسول ﷺ، لا بد أن يقر الله عينه ويعطيه من خير الدنيا والآخرة فوق ما كان يؤمل، ويجعل له لسان صدق في الآخرين، ومن شك في هذا فليجرّب، فهذه سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

الفائدة الثانية: قول (ك) في إبليس: «إنه كان في تشبه بهم»، أي: بالملائكة، فيه ركاكة، ولعله محرف، والمراد بالتشبه بهم، أنه كان يعبد الله مثل عبادتهم.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ المذكورون من قبلُ بعضهم أنبياء، ويستحيل عليهم أن يشركوا، وقد بين (ك) غاية البيان، أن الشرط يتعلق بما لا يجوِّز وقوعه، وبعضهم يجوز عليهم الشرك بل وقع فيهم كأبي إبراهيم آزر، وابن نوح الذي غرق، والمقصود أن الشرك يحبط جميع الأعمال، ومن مات عليه لا يدخل الجنة أبداً وهذا هو الأصل في هذا الباب.

الباب الحادي عشر

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]

قال (ك): «أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث، وقوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُم

﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا وراء ظهوركم، وثبت في «الصحيح»[(١)] أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس**». وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة، فيقول الله ﷻ [له]: أين ما جمعت؟ فيقول: يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول له: يا ابن آدم! أين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدَّم شيئاً. وتلا هذه الآية: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ رواه ابن أبي حاتم[(٢)]، وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، وانزاح الضلال وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب جل جلاله على رؤوس الخلائق: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢ و٧٤] ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٢ ـ ٩٣] ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم، ثم قال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ قرئ بالرفع[(٣)] أي: شملكم، وبالنصب[(٤)]، أي: لقد تقطع[(٥)] ما بينكم من الأسباب والصلات[(٦)] والوسائل، ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي: ذهب عنكم ﴿مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ من نفع[(٧)]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٩) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ٧٦٤١) معلقاً، وزاد نسبته السيوطي في «الدر» (٣/ ٦٠) إلى عبد بن حميد.

(٣) قراءة الرفع هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩٠)، «البحر المحيط» (٦/ ١٦٣)، «الكشاف» (٢/ ٢٧١)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٣٢٩).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقرئ بالنصب» قلت: وقراءة النصب هي قراءة الكافة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٦٠)، «السبعة» (٢٦٣)، «روح المعاني» (٧/ ٢٢٥).

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «انقطع».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والوصلات».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رجاء».

الأصنام والأنداد، كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤] وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠]»[١].

قال محمد تقي الدين: قوله[٢]: «إن كان ثم معاد»: يعني بالنسبة إلى المشركين، فإن كثيراً منهم كانوا ينكرون المعاد أو يشكّون فيه.

فائدة

قال محمد تقي الدين: آيات هذا الباب تدل دلالة في غاية الوضوح على أن عبّاد القبور وأصحاب الطرائق يخسرون يوم القيامة خسراناً مبيناً؛ لأنهم يظنون بل يعتقدون أن شيوخهم يشفعون لهم عند الله ويدخلونهم الجنة، فإذا بهم يتبرؤون منهم ويقولون لهم بلسان فصيح: ما كنتم إيانا تعبدون، يعنون: إنما كنتم تعبدون شياطين الإنس والجن الذين أضلوكم وزينوا لكم الشرك ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: ٢٩] وذلك أن المقبور إما أن يكون نبياً أو صالحاً فهو غافل عن عبادة المشركين بما أعد الله له من النعيم، وإما أن يكون طالحاً راضياً بالشرك فهو غافل عن عبادتهم بما أعده الله له من عذاب أليم.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١١٣ ـ ١١٥).

(٢) المراد ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ.

الباب الثاني عشر

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠٥]

قال (ك): «هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا به في عبادته، بأن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم، فإن قيل: فكيف عبدت الجن [مع أنهم](١) إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها(٢) إلا عن طاعة الجن، وأمرهم إياهم بذلك كقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢٠] وكقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] الآية، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: ٤٤] وكقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١] وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١] ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد خلقهم فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عبدوا الأصنام».

غيره؟ كقول إبراهيم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦] ومعنى الآية أنه ﷻ هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له، وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ينبه به تعالى عن ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولداً، كما يزعم[1] من قاله من اليهود في عزير ومن النصارى في عيسى[2]، ومن قال [من مشركي العرب][3] في الملائكة أنها بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ومعنى خرقوا[4] أي: اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا كما قاله علماء السلف.

قال (ج): وتأويله[5] إذاً: جعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه[6]، وهو المتفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[7] بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلاً بالله وبعظمته، فإنه لا ينبغي لمن كان إلـٰهاً أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء. ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي، ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد؟ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ أي: والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة له ولا ولد كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يزعمه».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المسيح».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكما قال المشركون من العرب».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله: ﴿وَخَرَقُوا﴾».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن جرير» (٩/ ٤٥٦): «فتأويل الكلام».
(٦) كذا في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»، وفي الأصل: «إياهم»!
(٧) بعدها في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»: «يقول: وتخرصوا لله كذباً فافتعلوا له بنين وبنات ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾».

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥] ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبين تعالى أنه خلق كل شيء وهو[1] بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له[2] ولا نظير ولا عديل: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ ورقيب، يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار»[3].

فائدة

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «فإن قيل: كيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟» وجوابه عن ذلك، بأن الجن يوسوسون لعبّاد الأصنام يزينون لهم عبادتها فنسبت إليهم العبادة لذلك. فيه نظر؛ لأن القرآن قد صرح بأن بعض المشركين كانوا يعبدون الجن حقيقة، كما في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١] وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦] قال (ك) في تفسير هذه الآية: «أي: كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها، وكما كانت عادة العرب في جاهليتها، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أنّ يصيبهم بشيء يسوءهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي: خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى صاروا[4] أشد منهم

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنه».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا والد ولا صاحبه له».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٢٠ ـ ١٢٢).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تبقوا».

مخافة وأكثر تعوذاً بهم، كما قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثماً وازدادت الجن عليهم بذلك جرأة، وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها، فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر وأنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي، قال قتادة: فإذا عاذ بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك»(١). اهـ.

قال محمد تقي الدين: فقد تبين أن مشركي العرب كانوا يعبدون الجن بالعياذ والخوف، وتقدم أن الجهال في هذا الزمان يعبدون الجن إذا بنوا بيتاً جديداً يذبحون ذبيحة للجن قرباناً لهم لئلا يؤذوهم، والسحرة في هذا الزمان إذا دعوا لعلاج شخص مصروع يأمرون أهله بذبح ذبيحة لذلك الجن الذي صرعه بزعمهم.

الباب الثالث عشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦ ـ ١٠٧]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ أي: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به، فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه، لأنه لا إله إلا هو: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً، [﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ﴾ [الأنعام: ٣٥]](٢)، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ﴾ أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ أي: حافظاً تحفظ أقوالهم وأعمالهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم، إن عليك إلا البلاغ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤٨/١٤).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

[الغاشية: ٢١ ـ ٢٢] وقال: ﴿فَإِنَّمَا[1] عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ وفي ضمنه خطاب لأمته: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يشمل الوحي كله، سواء أكان قرآناً أم حديثاً، فإن الحديث يوحى إلى النبي ﷺ أيضاً، ولكن لا يسمى قرآناً؛ لقوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] وفي «الصحيح»[3]: إن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة وجد أهلها يلقّحون النخل، فقال لهم: «**ما هذا؟**» فقالوا: شيء نأخذه من الذكر ونضعه في الأنثى، يصلح عليه التمر، فقال: «**ما أراه ينفع**»، فتركوا التلقيح، ففسد التمر وصار شيصاً فأخبروا النبي ﷺ بذلك، فقال: «**إذا حدثتكم عن الله فخذوا به، فإني لا أكذب على الله، وأنتم أعلم بأمور دينكم**».

أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فكل ما تكلم به النبي ﷺ في أمور الدين، فهو من الله تعالى وأهم أمور الدين توحيد الله تعالى في **ربوبيته**، فلا رب غيره، وفي **عبادته** فلا يعبد غيره، وفي **أسمائه وصفاته** فلا يشاركه فيها غيره، وفي **الاتباع** فلا يتبع إلا وحيه وهو القرآن والحديث الثابت، **وعلى هذه الأربعة نويت أن أؤلف هذا الكتاب وقد بدأته وتمامه على الله**، فاتباع توحيد الله تعالى بأنواعه الأربعة فرض على كل مسلم، والإعراض عن المشركين بمخالفتهم والبراءة منهم واجب حتم.

الباب الرابع عشر

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ

---

(١) في الأصل: «إنما»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٣١ ـ ١٣٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) وغيره من حديث أنس.

﴿فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢١ ـ ١٢٢]

قال (ك): «استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها [وإن][(١)] كان الذابح مسلماً، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً، وهو مرويٌّ عن ابن عمر ونافع مولاه وعامر الشعبي ومحمد بن سيرين، وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور وداود الظاهري، واختار ذلك أبو الفتوح[(٢)] محمد بن محمد بن علي الطائي من متأخري الشافعية في كتابه «الأربعين»[(٣)] واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، وبقوله في آية الصيد: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤] ثم أكد في هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثي عدي ابن حاتم[(٤)] وأبي ثعلبة[(٥)]: «**إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه، فكل ما أمسك عليك**»، [وهو][(٦)] في «الصحيحين» أيضاً، وحديث ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال للجن: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه**». رواه مسلم[(٧)]،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولو».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب إذ هكذا ذكرت الكتب التي ترجمت له. انظر: «السير» (٢٠/ ٣٦٠)، «طبقات الشافعية الكبرى» (٦/ ١٨٨)، وفي الأصل: «أبو الفتح»!

(٣) تمام اسم كتابه «في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين» وهو مشهور بـ«الأربعين الطائية»، وكلامه على المسألة فيه على (الحديث الأربعين) (ص٢٠٨ ـ ٢٠٩، ط. المعارف)، وقال عن عدم الحل سواء ترك التسمية عمداً أو ناسياً: «وهو الأشبه بظاهر الكتاب والسنة»، وقد فصلت في المسألة في تعليقي على «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي (٤/ ٣٤٦) مسألة رقم (١٦٩٣)، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٩)، والبخاري (١٧٥) واللفظ لمسلم.

(٥) أخرجه البخاري (٥٤٧٨)، ومسلم (١٩٣٠).

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهما».

(٧) في «صحيحه» برقم (٤٥٠).

وحديث جندب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله**». أخرجاه[(١)(٢)]، وعن عائشة رضي الله عنها: «أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «**سموا عليه أنتم وكلوا**»، قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر». رواه البخاري[(٣)]، ووجه الدلالة، أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح، إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد.

والمذهب الثاني في المسألة: إنه لا يشترط التسمية بل هي مستحبة؛ فإن تركها عمداً أو نسياناً لا يضر، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب[(٤)] وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥] وقال ابن جريج عن عطاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان، وينهى عن ذبائح المجوس، وهذا المسلك الذي [طرده][(٥)] الإمام الشافعي قوي، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حالية أي: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقاً ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهل به لغير الله، ثم ادعى أن هذا متعين، ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة؛ لأنه يلزم فيه[(٦)] عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية، وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ فإنها عاطفة لا محالة، فإن كانت الواو التي ادعى أنها حالية[(٧)] بطل ما قال من أصله والله أعلم.

---

(١) يعني البخاري ومسلم (منه).
(٢) أخرجه البخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٠٥٧)، وأبو داود (٢٨٢٩) وغيرهما.
(٤) انظر في المسألة: «المغني» (٨/ ٥٣٩)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٧٥).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «طرقه». (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منه».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صحيحة على ما قال؛ امتنع عطف هذه عليها فإن عطفت على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره، وإن لم تكن الواو حالية».

وقال ابن أبي حاتم[(١)] بسنده عن ابن عباس في الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: هي الميتة، وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في «المراسيل»[(٢)]، وذكر سنده إلى الصَّلت السَّدُوسي قال: قال رسول الله ﷺ: «**ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم الله أو لم يذكر، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله**». وهذا مرسل، يعضد بما رواه الدراقطني[(٣)] عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله».

المذهب الثالث في المسألة: إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر وإن تركها عمد لا[(٤)] تحل، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه وهو يحكى[(٥)] عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وقال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله: من حرم ذبيحة الناسي، فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ، يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي[(٦)] بسنده عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**المسلم يكفيه اسمه إن نسي**

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ١٣٧٨ رقم ٨٧٣٣)، وابن جرير (٩/ ٥٢٨)، وعزاه في «الدر المنثور» (٣/ ٤٢) لابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) أخرجه أبو داود في «المراسيل» رقم (٣٧٨) ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٤٠)، وابن الجوزي في «التحقيق» (٢/رقم ١٩٣٨).
وقال عبد الحق في «الأحكام الوسطى» (٧/ ١٠٤): «**هذا مرسل وضعيف**» وقال ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٣/رقم ١٣٦٩): «وعلته مع الإرسال هي: أن الصلت السدوسي لا تعرف له حال، ولا يعرف بغير هذا، ولا روى عنه إلا ثور بن يزيد»، وانظر: «نصب الراية» (٤/ ١٨٣) و«التلخيص الحبير» (٤/ ١٥١)، و«الإرواء» (٨/ ١٧٠).

(٣) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٤/ ٢٩٥، ٢٩٦) رقم (٩٦) وكذا أخرجه سعيد بن منصور (٥/ ٨١ رقم ٩١٤ ـ «التفسير») ـ ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٣٩) ـ وعبد الرزاق (٨٥٣٨، ٨٥٤٨)، والبيهقي في «المعرفة» (١٣/ ٤٤٧) رقم (١٨٧٩١) والحميدي ـ ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٣٩، ٢٤٠) ـ **وإسناده صحيح**، وصححه ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ٦٢٤).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لم».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «محكي».

(٦) رواه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٧/رقم ٥٥٩٧)، وأخرجه في «الكبرى» =

أن يسمي حين يذبح، وليذكر اسم الله وليأكل»، وهذا الحديث رفعه خطأ أخطأ فيه معقل بن عبيد الله [الجزري][(١)]، ورواه سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس موقوفاً، قال (ك): «وهذا أصح، نص عليه البيهقي»[(٢)].

قال (ج): «ولا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه»[(٣)]. قال (ك): «وهذا الذي قاله صحيح»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ روى ابن أبي حاتم[(٥)] بسنده إلى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، أنهما قالا في المختار بن أبي عبيد لما ادعى أن الوحي ينزل عليه: صدق، وقرأ هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ يعنيان أن المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب كان من أولياء الشياطين.

قال محمد تقي الدين: مرادهما: أن الوحي الذي ادعاه المختار ابن أبي عبيد هو من وحي الشياطين، ثم قال (ك): «روى أبو داود[(٦)] وذكر سنده عن

= (٩/ ٢٣٩) ومن قبله الدارقطني في «السنن» (٤/ ٢٩٦) رقم (٩٨) ـ ومن طريقه ابن الجوزي في «التحقيق» (٢/ ٣٦٠) رقم (١٩٣٧) ـ **وإسناده ضعيف مرفوعاً، وهو صحيح موقوفاً**.
قال البيهقي: «المحفوظ رواية سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس موقوفاً.
فقال ابن حجر في «الدراية» (٢/ ٢٠٦): «صوّب الحفاظ وقفه».
وقال في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٥١) عن المرفوع: «**في إسناده ضعف** وأعله ابن الجوزي بمعقل بن عبيد الله فزعم أنه مجهول فأخطأ بل هو ثقة من رجال مسلم...»، وأعله ابن القطان بمحمد بن يزيد وهو ابن سنان الرُّهاوي. انظر: «الوهم والإيهام» (٣/ ١٣٧٠) و«نصب الراية» (٤/ ١٨٢).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الجزيري».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥١).
(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/ ٥٢٩) بمعناه.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٥).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ٧٨٤٠)، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٤) عن ابن عمر، وأخرجه عن ابن عباس: ابن جرير (١٢/ ١٣٨٣٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٧٩) ونحوه عند القرطبي في «التفسير» (٧/ ٧٧) عن ابن الزبير، وانظر آخر: «المستجاد» للتنوخي رقم (٢٠٦) وتعليقي عليه.
(٦) أخرجه أبو داود (٢٨١٩) ـ ومن طريقه البيهقي (٩/ ٢٤١)، وفي «المعرفة» (٧/رقم ٥٥٩٩) ـ، والترمذي (٣٠٦٩)، والبزار ـ كما في «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٦) ـ، =

عبد الله بن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلناه ولا نأكل مما قتل الله، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال (ك) بعد كلام: «وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة: **أحدها**: إن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا. **الثاني**: إن الآية من الأنعام[1] مكية. **الثالث**: إن هذا الحديث رواه الترمذي[2] وذكر سنده عن ابن عباس أن ناساً أتوا النبي ﷺ. . . إلى آخره،

= وابن جرير (٨/ ١٥)، وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٦)، ومن طريقه الضياء في «المختارة» (١٠/رقم ٢٧٠، ٢٧١) ـ، والطبراني في «الكبير» (١١/رقم ١٢٢٩٥) ـ ومن طريقه الضياء (٢٦٩) ـ، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٤٠) من طريقين عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه **وإسناده ضعيف**، عطاء مختلط، والراويان عنه (عمران بن عيينة وزياد بن عبد الله البكائي) لم يحملا عنه قبل اختلاطه. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن عباس أيضاً، ورواه بعضهم عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن النبي ﷺ مرسلاً».

قال أبو عبيدة: أخرج الطريق المرسلة: ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/رقم ٧٨٣٢) **بسندٍ جيد**، وعزاه في «الدر» (٣/ ٣٤٦) لابن المنذر وأبي الشيخ.

وذكر اليهود في الموصول والمرسل منكر، قال ابن كثير (٦/ ١٥٦ ـ ١٥٧) عن الرواية التي فيها ذكر لهم: «وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة:

أحدها: إن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا.

الثاني: إن الآية من الأنعام وهي مكية ثم أورد في (**الثالث**) بعض الطرق التي فيها ذكر للمشركين لا لليهود.

قلت: أخرج أبو داود (٢٨١٨)، وابن ماجه (٣١٧٣)، والبيهقي (٩/ ٢٤١) في «سننهم»، وابن أبي حاتم (٤/رقم ٧٨٤٥)، وابن جرير (٨/ ١٣) في «تفسيريهما»، والحاكم (٤/ ١١٣، ٢٣١) من طريق سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: «يقولون: ما ذبح الله فلاناً كلوه. . .» بنحوه مع إبهام القائلين: قال ابن كثير (٦/ ١٥٨): «**هذا إسناد صحيح**» قال: «وليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ، والله أعلم».

قلت: رواية سماك عن عكرمة مضطربة، وهذا أمر معروف بين العلماء، وقد وقع التصريح عن ابن عباس قال: «جادل المشركون المسلمين. . .» بنحوه.

أخرجه النسائي (٧/ ٢٣٧)، وفي «الكبرى» (٣/رقم ٤٥٢٦ و٦/رقم ١١١٧١) ـ ومن طريقه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص٤٤١) ـ، وابن جرير (٨/ ١٣)، والحاكم (٤/ ٢٣٣)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٤٢٤) **وإسناده حسن**، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وزاد في «الدر المنثور» (٣/ ٧٨) نسبته للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهي». (٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠١).

وقال الترمذي: حسن غريب»، ثم ذكر (ك) أخباراً ونقولاً تدل على أن الذي قال ذلك هم المشركون، وهو الصحيح؛ لأنهم يأكلون الميتة.

«وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وقد روى الترمذي[1] في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: «**بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»[2]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: الذي نختاره من هذه الأقوال الثلاثة هو أن الذبيحة إذا ترك ذابحها التسمية سهواً يجوز أكلها وإن تركها عمداً لا يجوز أكلها، والمراد بالشرك هنا كما قال (ك) رَحِمَهُ اللَّهُ: جعل التشريع لغير الله، فمن اتخذ إماماً أو شيخاً وبالغ في تعظيمه حتى جعل له الحكم إذا حلل شيئاً أو حرمه أو أوجبه لم يطالبه بدليل، بل لو كان قوله مخالفاً لكلام الله وكلام رسوله رجحه عليهما، وقال: (إمامي أو شيخي أعلم بالحديث وبالقرآن) فقد أشرك بالله واتخذ شيخه وإمامه رباً من دون الله، وسيأتي إن شاء الله مزيد على هذا في (القسم الثاني) من هذا الكتاب عند تفسير آية التوبة المشار إليها أعلاه.

الباب الخامس

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ [الأنعام: ١٣٦]

قال محمد تقي الدين: وجدت تفسير هذه الآية في (ك) محرفاً فاسداً[3]

(١) أخرجه برقم (٣٠٩٥) **والحديث حسن** بمجموع طرقه، وتقدم تخريجه مفصّلاً.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/١٤٦ ـ ١٥٩) بتصرف.
(٣) لا تنس ما قدمه المصنف مراراً عن سوء طبعات «تفسير ابن كثير» التي وقف عليها، =

فاضطررت أن أفسرها بكلامي مما فهمته من التفاسير، قال تعالى عائباً على المشركين: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: خلق ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ أي: غلة الزرع ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ هي الإبل والبقر والغنم، ﴿نَصِيبًا﴾ أي: قسماً، وجعلوا لأوثانهم نصيباً آخر، فقالوا: هذا لله، وأطعموه الضيوف والمساكين، وأما النصيب الذي جعلوه لأوثانهم فإنهم يعطونه سدنتها، فإذا وقع من النصيب الذي جعلوه لله شيء في النصيب الذي جعلوه لأوثانهم، تركوه مع نصيب الأوثان، وقالوا: إن الله غني، والأوثان فقيرة، أما إذا وقع في النصيب الذي جعلوه لله شيء من النصيب الذي جعلوه لأوثانهم أخذوه وردوه إلى نصيب الأوثان، وهذا يدل على أن خوفهم ورجاءهم للأوثان أكثر من خوفهم ورجائهم لله تعالى، فلذلك يتساهلون في حق الله ولا يتساهلون في حق الأوثان.

وهكذا يعمل مشركو هذا الزمان، وقد تقدم بيان ذلك، هذا معنى ما رأيته في عدة من التفاسير، ويظهر لي أن معنى الآية أن المشركين، يتصدقون بنصيب من أموالهم لوجه الله، ويتصدقون بنصيب آخر تقرباً إلى أوثانهم، فما جعلوه لله لا يقبله منهم فلا يصل إلى الله، أي: لا يكون مقبولاً عنده، وما جعلوه من الصدقة لشركائهم فهو للشركاء وكذلك ما جعلوه لله أيضاً يرجع للشركاء؛ لأن الله تعالى غني عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان كله خالصاً له، فمن جعل من عبادته تسعمائة وتسعة وتسعين جزءاً لله تعالى وجزءاً واحداً لغير الله تعالى، أحبط الله عمله ولم يقبل من عبادته شيئاً، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»**(١). وفي حديث آخر يقول الله تعالى: **«أنا خير الشريكين»**(٢) وهذا المعنى ظاهر في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝﴾ [الكافرون: ١ ـ ٣] فنفى الله عنهم عبادته مع أنهم كانوا يعبدونه بالحج والصدقة لأنهم كانوا يعبدون معه غيره.

= فالتحريف والفساد من الطبعة، لا في «التفسير»، فتنبه ولا تكن من الغافلين.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠١)، ومسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٩٣٨) (٢/ ٦٧، ٦٨) من حديث أبي هريرة فيما رواه النبي ﷺ عن الله ﷻ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، والطيالسي (١١٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٧١٣٩)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، وأبو نعيم (١/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٨٤٤) **وإسناده ضعيف**، فيه شهر بن حوشب.

وفي هذا الزمان ينفق المشركون الأموال الكثيرة بسخاء وطيب نفس تقرباً إلى آلهتهم التي يسمونها أولياء، ويمنعون الزكاة والصدقة لأنهم يخافون أولياءهم وشركاءهم الذين اتخذوهم مع الله، ويرجون منهم ما لا يخافون ولا يرجون من الله تعالى، ولو ساووهم بالله تعالى لكانوا من أكفر الكافرين وأظلم الظالمين، كما قال تعالى حكاية عن المشركين السابقين في سورة الشعراء: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ٩٢ ـ ١٠٢].

قلت: وقد كانوا مؤمنين بتوحيد الربوبية، فلم ينفعهم ذلك شيئاً؛ لأنهم أشركوا مع الله في عبادته. اهـ.

الباب السادس عشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١]

قال (ك): «عن ابن مسعود ﷺ قال: «من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾، إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»[1]، وأخرج الحاكم في «مستدركه»[2] عن ابن عباس قال: «في الأنعام آيات محكمات من أم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/٨٠٥٦)، والطبراني في «الكبير» (١٠/١٠٠٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٦/٧٩١٨) **وإسناده ضعيف**، فيه داود بن يزيد الأودي فيه كلام وزاد نسبته السيوطي في «الدر» (٣/١٠٣) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٣١٧ ـ ٣١٨) وصحح إسناده ووافقه الذهبي! وفي إسناده عبد الله بن خليفة لم يوثقه غير ابن حبان في «الثقات» (٥/٢٨) وقال الذهبي نفسه في «الميزان» عنه: =

الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وأما تفسيرها، فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذي عبدوا غير الله وحرموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمراً من عنده ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتقول العرب: «أمرتك أن لا تقوم». وفي «الصحيحين»[(1)] من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ قال: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر»**. وفي بعض الروايات، أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة: **«وإن رغم أنف أبي ذر»** فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: **«وإن رغم أنف أبي ذر»**.

وفي بعض «المسانيد» و«السنن»[(2)] عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ:

= «لا يعرف» ولكنه توبع، تابعه عبد الله بن قيس عند ابن أبي حاتم (٢/ ٣١٦٨ و٥/ ٨٠٥٧)، والحاكم (٢/ ٢٨٨) وله طريق أخرى عن ابن عباس عند ابن أبي حاتم (٢/ ٣١٦٩) وابن جرير (٦/ رقم ٦٥٧٣) بسندٍ فيه جهالة، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٦) لسعيد بن منصور وابن مردويه، **والأثر بمجموع طرقه حسن ـ إن شاء الله تعالى ـ.**

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٢)، والدارمي في «السنن» (٢٧٩١)، وأبو عوانة ـ كما في «إتحاف المهرة» (١٤/ ١٩٥ ـ ١٩٦) وفي إسناده شهر بن حوشب وهو ضعيف من قبل حفظه.

وله شاهد من حديث أنس عند أحمد (٣/ ٢٣٨)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٦٥)، وأبي يعلى (٤٢٢٦)، والضياء في «المختارة» (١٥٤٤، ١٥٤٥)، وفي إسناده جهالة.

وله طريق آخر عند الترمذي (٣٥٣٤) ـ وحسنه ـ، وأبي نعيم (٢/ ٢٣١) وفي إسناده كثير بن فائد لم يوثقه غير ابن حبان في «الثقات» (٩/ ٢٥). =

يقول الله تعالى: «**يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطايا أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك**».

ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وفي «صحيح مسلم»(١) عن ابن مسعود: «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**» والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً، وروى ابن مردويه من حديث عبادة وأبي الدرداء(٢): «**لا تشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو صلبتم أو حرقتم**».

= وله شاهد آخر من حديث ابن عباس عند الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٢٣٤٦)، و«الأوسط» (٥/ ٥٤٨٣)، و«الصغير» (٢/ ٢٠)، وفي «الدعاء» (٢/رقم ١٩)، وأبي نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠١).

قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢١٩): «وفيه إبراهيم بن إسحاق الصيني وقيس بن الربيع وكلاهما مختلف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح».

وجزءه الأوسط أصله عند مسلم (٢٦٨٧) وكذا جزءه الأخير له شاهد من حديث أبي أيوب وأبي هريرة عند مسلم (٢٧٤٨) **فالحديث صحيح بمجموع شواهده**، وانظر: «التلخيص الحبير» (٢/ ١٥٥)، «الصحيحة» (١/رقم ١٢٧).

(١) برقم (٩٢) وأخرجه أيضاً البخاري (١٢٣٨).

(٢) حديث أبي الدرداء أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٨) ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩١١)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٤/ ١٥٢٤) مطولاً، وأخرجه ابن ماجه (٣٣٧١، ٤٠٣٤)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٥٥٨٩)، وقد ضعف هذا الإسناد ابن حجر في «التلخيص» (٢/ ١٥٥) لكن للحديث شواهد يتقوى بها منها حديث معاذ بن جبل عند أحمد (٥/ ٢٣٨) وفي سنده انقطاع، عبد الرحمٰن بن جبير بن نفير لم يدرك معاذاً. وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/رقم ١٥٦) وفي «الأوسط» (٨/ ٥٦، ٨٩)، وفي «مسند الشاميين» (٢٢٠٤)، والمروزي (٩٢١) وفي إسناده عمرو بن واقد متروك، وقد **صحح شيخنا الألباني حديث معاذ بالشواهد**، فانظر: «الإرواء» (٧/رقم ٢٠٢٦).

وأما حديث عبادة فقد أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢/ ٧٥)، والشاشي في «مسنده» (٣/ ٢٠٩ ـ ٢١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٨٠٥٨)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩٢٠)، واللالكائي في «السنة» (٤/رقم ١٥٢٢) وإسناده ضعيف، قال البخاري: «لا يعرف إسناده» قلت: فيه سلمة بن شريح، قال الذهبي في «الميزان»: «لا يعرف» وأقره ابن حجر في «اللسان»، وعزاه في «المجمع» (٤/ ٢١٩) للطبراني، وأعله بسلمة.

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أي أن تحسنوا إليهما[١] كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقرأ بعضهم[٢]: ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً، أي: أن تحسنوا إليهما[٣] والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]، فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] الآية، والآيات كثيرة، وفي «الصحيحين»[٤] عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادني». وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، بسنده عن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت كل منهما يقول: أوصاني خليلي رسول الله ﷺ: «**أطع والديك وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل**»[٥]. ولكن في إسناديهما ضعف»[٦].

قال محمد تقي الدين: إن صحت هذه العبارة عن النبي ﷺ فالمراد بها لو ملكت ما ملكت من متاع الدنيا، وأراد منك الوالدن أن تعطيهما إياه، فافعل، وإن كان الحديث غير صحيح ولا حسن فلا يثبت به حكم.اهـ.

قال (ك): «﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد[٧] عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليهم».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور **بإسنادٍ جيد** عن ابن عباس، قاله ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٢٨٣، ٢٩٥). وانظر ـ لزاماً ـ: «البحر المحيط» (٦/ ٢٥)، «معجم القراءات» (٥/ ٣٧ ـ ٣٨).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: أحسنوا إليهم».

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٥) هو قطعة من وصية للنبي ﷺ سبق منها قريباً عدم الإشراك بالله، وإن قطع المسلم أو صلب أو حرق، وهناك تخريج حديثي أبي الدرداء وعبادة رضي الله عنهما، **وهو صحيح بشواهده**.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٠٦ ـ ٢١٠).

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ببر الآباء والأجداد».

والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، ولهذا ورد في «الصحيحين»[(١)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سأل رسول ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية وقوله تعالى: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ﴾ قال ابن عباس: هو الفقر، أي: لا تقتلوهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۢ﴾ [الإسراء: ٣١] أي: لا تقتلوهم خوفاً من الفقر[(٢)] في الآجل، ولهذا قال هناك: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي لا تخافوا من ظفركم بسبب رزقهم فهو[(٣)] على الله، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلاً قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه الأهم هٰهنا، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] وقد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠] وفي «الصحيحين»[(٤)] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**».

وقال عبد الملك بن عُمير عن ورَّاد عن مولاه المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[(٥)]. وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خشية حصول فقر».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقركم بسببهم فرزقهم».

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٥) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤١٩).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى عن النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في «الصحيحين»[١] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**». وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب، فروى البخاري[٢] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ مرفوعاً: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً**». وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً**». رواه ابن ماجه والترمذي[٣]، وقال: حسن صحيح، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذا [مما] وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه»[٤]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: اشتملت هذه الآية على خمس وصايا:

الأولى: توحيد الله تعالى والنهي عن الشرك به.

والثانية: بر الوالدين.

والثالثة: النهي عن قتل الأولاد الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، وفي هذا الزّمان يقتلون النطف في الأرحام منعاً من الحمل خوفاً من قلة الرزق، وهذا يؤول بهم إلى إنكار القرآن، وقد قال الله تعالى في مواضع كثيرة، أنه متكفل برزق كل مخلوق، كقوله تعالى في أول سورة هود: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وكقوله في هذه الآية: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ إلى غير ذلك ولم يقتصروا على قتل النطف بمنعها من الوصول إلى الرحم مع أن النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١٤)، وأحمد (٢/ ١٨٦)، والنسائي (٨/ ٢٥)، وابن ماجه (٢٦٨٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٦٨٧)، والترمذي (١٤٠٣)، وأبو يعلى (٦٤٥٢)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٣، ٨٠١١) من حديث أبي هريرة، **وهو صحيح بمجموع طرقه وشواهده.** انظر: «الصحيحة» (٥/ ٢٣٥٦)، و«غاية المرام» (٤٥٠).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢١٠ ـ ٢١٥) بتصرف.

قال في العزل: «**إنه الموؤدة الصغرى**»[1]، أي: قتل الأولاد الأصغر حتى أضافوا إلى ذلك قتل الجنين في رحم أمه؛ مخافة أن يأكل معهم.

وليس العجب من الأوربيين إذا فعلوا ذلك فإنهم جاهلون بالله وبصفاته، ولكن العجب ممن يدعي الإسلام، ويؤمن بهذا الضلال ويقتبسه منهم كأنه فضيلة، وقد كانت حكومة «هتلر» تقرض كل رجل وامرأة يريدان الزواج خمسة آلاف مارك ألماني بشرط أن يفحصهما طبيب ويجدهما صالحين للتناسل، أما الغرباء الذين ليسوا جرمانيين ولا أوربيين فكانوا يمنعونهم من التناسل ويجبرونهم على الاختصاء تعصباً منهم لجنسهم، وهؤلاء الجاهلون يقطعون نسل أبناء جنسهم، وقد ألّفت مقالة طويلة في حكم منع النسل، وأقمت البراهين على بطلانه من الوجهة الشرعية ومن الوجهة الاقتصادية، إلا إذا كان فيه ضرر محقق على الوالدين أو الأولاد، فيكون بقدره ونشر هذا المقال في صحيفة «دعوة الحق»[2] المغربية.

الرابعة: النهي عن إتيان الفواحش وهي الكبائر ما ظهر منها وما بطن.

الخامسة: تحريم قتل النفس التي حرم الله إلا من أوجب الشرع قتله لإقامة العدل بين الناس.

وهناك خمس وصايا أخرى لم نثبت آياتها وتفسيرها اختصاراً، وهي: أكل مال اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان، والتزام العدل في القول والعمل، والوفاء بالعهد، واتباع الصراط المستقيم، وهو ما كان عليه النبي ﷺ من أمور الدين فهذه عشر وصايا جمعت الخير كله، ما من أمة تحافظ عليها إلا سعدت في دنياها وآخرتها، وما من أمة تضيعها إلا شقيت في عاجلها وآجلها، وبالله التوفيق.

---

(١) ثبت في «صحيح مسلم» (١٤٤٢) من حديث جذامة بنت وهب وصف النبي ﷺ للعزل، بقوله: «**ذلك الوأد الخفي**».

(٢) على ثلاث حلقات، السنة السادسة، الأعداد السادس والسابع بتأريخ شوال، وذي القعدة ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م (ص١ ـ ٩ و٤ ـ ١٠) والسنة السابعة، العدد الثاني سنة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ (ص١ ـ ٦)، وهو فيها بعنوان (رأي في تحديد النسل والعدوى). ثم رأيته نفسه منشوراً على خمس حلقات في مجلة «الجامعة السلفية» المجلد العاشر، الأعداد (٧ ـ ١١) سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨ بعنوان (حكم الإسلام في العزل والعدوى)، وهي مودعة في كتابي «مقالات الهلالي».

الباب السابع عشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين، أن يخبر بما أنعم(١) به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي قائماً ثابتاً: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

وليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه ﵇ قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال، ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى(٢) الخليل ﵇، وروى ابن مردويه(٣) بسنده عن ابن أبزى عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال:

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إبراهيم».

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٢٣)، وأخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦)، وابنه عبد الله في «زوائده على المسند» (٣/ ٤٠٧)، والدارمي (٢/ ٢٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٣١، ١٠١٧٥ ـ ١٠١٧٧) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» رقم (٣٤٣، ٣٤٤) ـ **وإسناده صحيح**، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١١٩) وقال: «رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح» ومسند (عبد الرحمٰن بن أبزى) ساقط من مطبوع «المعجم الكبير».

«**أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**». وقال الإمام أحمد[١] بسنده إلى ابن عباس أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»، وقال أحمد بسنده[٢] عن عائشة رضي الله عنها قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه لأنظر إلى زفن الحبشة، حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه، قال عبد الرحمن عن أبيه قال: قال لي عروة أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذٍ: «**لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمحة**». أصل الحديث مخرج في «الصحيحين»[٣]، والزيادة لها شواهد من طرق عدة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته[٤] ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢] أي: أخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال ابن أبي حاتم[٥] بسنده عن جابر بن عبد الله قال: ضحى رسول الله ﷺ في

---

(١) علقه البخاري في «صحيحه»: كتاب الإيمان، باب الدين يسر (١/ ٩٣) بصيغة الجزم ووصله أحمد (١/ ٢٣٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥٦٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٧)، والبزار (١/رقم ٧٨ ـ كشف)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١١٥٧١، ١١٥٧٢)، وفي «الأوسط» (١/رقم ١٠٠٦) ومع كون هذا الإسناد ضعيفاً إلّا أن **الحديث له شواهد كثيرة يصح** بها، منها الحديث الذي بعده، **وحسنه** ابن حجر في «الفتح» وخرجته مفصلاً في تعليقي على جزء «الجواب الذي انضبط» للسخاوي، وهو مطبوع.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١١٦) ونقله الحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (٢/ ٤٣) وقال عقبه: «**هذا الإسناد حسن** وفي الباب عن أبي بن كعب وجابر وابن عمر وأبي أمامة وأبي هريرة، وأسعد بن عبد الله الخزاعي وغيرهم». وذكر الحافظ له هناك عدة شواهد أخرى مرسلة مصححاً بعضها، وذكره شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٤٤٣) من طريق أحمد هذه مجوِّداً لإسناده **وصحح** اللفظ المقصود هنا من قبل في «الصحيحة» أيضاً (٢/رقم ٨٨١)، وخرجتُ جميع ما ورد في الباب بتفصيل وزدتُ حديثاً فات ابن حجر في تعليقي على جزء السخاوي «الجواب الذي انضبط»، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢). (٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لله».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٨١٨٣)، وأخرجه أيضاً: الدارمي (١٩٤٦)، =

يوم عيد النحر بكبشين، وقال حين ذبحهما: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أي من[1] هذه الأمة، وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢] وقال يوسف عليه السلام: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١] وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤] [وقال][2] تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى

= وأبو داود (٢٧٩٥)، وابن ماجه (٣١٢١)، وأحمد (٣/ ٣٧٥)، والطحاوي (٤/ ١٧٧)، وابن خزيمة (٤/ ٢٨٩٩)، والحاكم (١/ ٤٦٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٨٧)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٣٤/ ١٦٣ ـ ١٦٤ ـ ترجمة أبي عياش) من طريق خالد بن أبي عمران عن أبي عياش عن جابر به. وفيه أبو عياش وهو ابن النعمان المعافري المصري، روى عنه ثلاثة من الثقات، وقال الذهبي عنه: شيخ، فإسناده محتمل للتحسين، وصححه ابن خزيمة والحاكم والذهبي.

ولهذا اللفظ شاهد من حديث عمران بن حصين عند الحاكم (٤/ ٢٢٢) **وصحح إسناده!** وردّه الذهبي لأن فيه أبا حمزة وهو الثمالي ضعيف جداً وابن إسماعيل وهو النضر بن إسماعيل البجلي ليس بذاك، ولهذا أورده شيخنا العلامة الألباني في «الضعيفة» (٢/ رقم ٥٢٨)

وللحديث طرق أخرى بألفاظ أخر صحيحة، انظرها في: «الإرواء» (٤/ رقم ١١٣٨).

(١) المثبت من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».

ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة، وأعلامها منشورة[1] إلى قيام الساعة، ولهذا قال عليه السلام: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد**»[2] وأولاد[3] العلات هم: الإخوة من أب واحد، وأمهات شتى، فالدين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، وقال الإمام أحمد بسنده[4] عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ثم قال: «﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾، ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾**﴾، **اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي أنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك**». ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد. وقد رواه مسلم في «صحيحه»».

ثم قال (ك): «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أي: أطلب رباً سواه ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر، ففي هذه الآية الأمر[5] بإخلاص التوكل، كما تضمنت[6] التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مشهورة». (٢) سبق تخريجه.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإن أولاد».
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٩٤)، ومسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٤٤، ٧٦٠)، والترمذي (٢٦٦، ٣٤١٨).
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالعبادة وإخلاص».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآية».

شريك له، وهذا المعنى[١] يقرن بالآخر كثيراً في القرآن كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [المائدة: ٢٩] وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٩] وأشباه ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة[٢] أحد على أحد، وهذا من عدله تعالى كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨] وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] قال علماء التفسير أي: فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٣٩] معناه كل نفس مرتهنة بعملها السوء[٣]، ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾، فإنه قد تعود بركة[٤] أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقراباتهم، كما قال في سورة الطور: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أي: ألحقنا بهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال بل في أصل الإيمان.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ أي: أنقصنا[٥] أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً، حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة[٦] الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنّه[٧]، ثم قال: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] أي من شره[٨] كقوله[٩]: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «معنى». (٢) في الأصل: «خطيئته».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «السيء».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعود بركات».
(٥) في الأصل: «﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾: «نقصنا...».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منازل».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومنته».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شر».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».

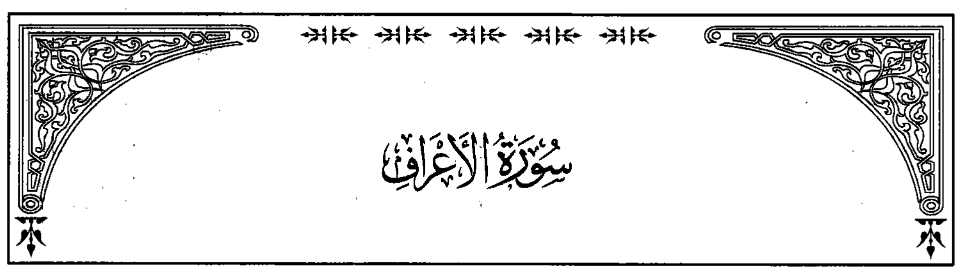
[الأنعام: ١٦٤] أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كقوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٥ ـ ٢٦]»[١].

فائدة

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «إن أصل الإسلام عبادة الله وحده لا شريك له». يريد بذلك الإسلام الصحيح الذي يكون فيه القلب مطابقاً للسان والجوارح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] أما إسلام المنافقين وأدعياء الإسلام من المشركين، فإنه لا ينفعهم ولا يرفعهم بل هم في الدرك الأسفل من النار، فمن يلتجئ إلى غير الله في قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أو يحلل ما حرم الله، أو يستحسن الحكم بغير ما أنزل الله، فلا حظ له في الإسلام الصحيح ولا نجاة له من الخلود في العذاب الأليم، إن لم يتب ويخلص الدين لله تعالى قبل موته.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٤٦ ـ ٢٥٣) بتصرف.



الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٩ ـ ٣٠]

قال (ك): «قوله[(١)] تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المويدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وما جاؤوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال (ج): «عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً، وأيده بما رواه عن ابن عباس[(٢)] قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «**يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً**»، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾» وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين»»[(٣)].

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقول»!

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣٨٥، ٣٨٦)، وأحمد (١/ ٢٣٥)، والبخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٨١ ـ ٢٨٢).

كل من هداه الله تعالى فبفضله، وكل من أضله فبعدله، ولكن من طلب الهدى هداه الله، لقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم**»(١). وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] وقال في أهل الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال فيهم: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٢٧﴾ [البقرة: ٢٦ ـ ٢٧] وقال هنا: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فقد زينت لهم الشياطين عبادة القبور والمقبورين فيها، وعبادة شيوخ التصوف والاستمداد منهم، وهو شرك.

واعتقاد أنهم يؤثرون في قلب المريد إذا رضوا عنه، إما فتحاً وتنويراً وجذباً إلى الله تعالى، وإما طرداً وإبعاداً وطمساً للقلب وسداً له، وهذا شرك في الربوبية، فإن الذي يعطي ويمنع وينور القلوب ويزيل ظلمتها وقسوتها ويصلحها ويملؤها نوراً وخشوعاً وتوكلاً على الله وإيماناً به، ليس الشيخ المتصوف ولا غيره من الخلق، وإنما يفعل ذلك الله وحده لا شريك له، وصحبة التلميذ لمعلمه إذا كان المعلم من أهل العلم والعمل، والأخلاق الكريمة، يستفيد منها التلميذ، كما يدل على ذلك قصة طلب موسى لصحبة الخضر، أما التأثير، فلله وحده لا شريك له، بيده الهداية والإضلال والنفع والضر، سبحانه عما يشركون.

الباب الثاني

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]

معنى تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن تقدم في (الباب السادس عشر) من (سورة الأنعام)، والإثم: قال (ك): «حاصل ما فسر به الإثم: إنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي: هو التعدي على(٢) الناس، فحرم الله هذا وهذا،

---

(١) قطعة من حديث إلهي طويل، أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر.
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى»!

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب، من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]»(١). اهـ.

قال محمد تقي الدين: فسر العلماء القول على الله بلا علم، بالقضاء والإفتاء بالتقليد؛ لأن التقليد جهل محض، فلا يجوز للمقلد أن يفتي، ولا أن يقضي في قليل ولا كثير؛ لأنه بمنزلة الأعمى، والأعمى يقاد ولا يقود، قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»(٢) نظماً أنشده لنفسه ومنه قوله:

لا فرق بين مقلِّد وبهيمةٍ ... تنقاد بين جنادل ودعاثرِ
تباً لقاضٍ أو لمفتٍ لا يرى ... عللاً ومعنى للمقال السائرِ
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنـ ... ـة المبعوث بالدين الحنيف الطاهرِ
وإذا الخلاف أتى فدونك فاجتهد ... ومع الدليل فمِلْ بفهم حاضرِ(٣)
وقس الفروع على الأصول(٤) ولا تقس ... فرعاً بفرع كالجَهول الحائرِ

وهي طويلة فانظرها فيه، وقوله: وقس الفروع على الأصول... البيت، يعني: إذا لم تجد في المسألة نصاً من الكتاب ولا من السنة فقس الفروع على الأصول، والمراد بالفروع ما لم يرد فيه نص قسه على ما يماثله مما ورد فيه نص، مثال ذلك صدقة الفطر، فقد جاء في الحديث أنها كانت تؤدى في زمان النبي ﷺ من الشعير والبر والتمر والأقط(٥)، وهذا كان غالب قوتهم فالبلاد التي غالب قوت أهلها من الأرز، يؤدون صدقة الفطر من الأرز قياساً على ما تقدم من قوت أهل المدينة في ذلك الزمان؛ لأن العلة واحدة وهي التغذية فهذا بيان قياس الفروع على الأصول، أما قياس الفروع على الفروع الذي نهى عنه الإمام أبو

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٩٢). (٢) (٢/ ٩٩٠) رقم (١٨٨٨).

(٣) في مطبوع «جامع بيان العلم وفضله»: «نهم وافر».

(٤) في مطبوع «جامع بيان العلم وفضله»: «وعلى الأصول فقس فروعك».

(٥) ورد ذلك في حديث أبي سعيد الخدري، قال: «كنا نخرج زكاة الفطر: صاعاً من طعام أو صاعاً من شعير، أو صاعاً من تمر، أو صاعاً من أقِط، أو صاعاً من زبيب» أخرجه البخاري (١٥٠٦) ـ والمذكور لفظه ـ ومسلم (١٥٠٥).

عمر ابن عبد البر، فهو ما يفعله المقلدون للمذاهب، فإذا رأوا أن إمامهم لم يجد نصاً في مسألة فاجتهد وأفتى فيها برأيه، يتخذون رأيه أصلاً كأنه قرآن أو حديث، ويقيسون على تلك المسألة التي أفتى فيها إمامهم بالرأي ما يماثلها من المسائل ولا يبحثون عن النصوص، وقد أطال الحافظ ابن القيم الكلام في هذا المعنى في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين»[(١)]. اهـ.

الباب الثالث

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٢]

قال (ك): «لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوّروا[(٢)] أولئك فيها؛ ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا[(٣)] أجساداً على تلك

---

(١) قدمت له ـ ولله الحمد ـ بمجلدة مفردة، وفيها (ص١٥ ـ ١٨) تحت عنوان (فصول نافعة وأصول جامعة في القياس) دقة ابن القيم المتناهية، وتحريره الدقيق لموضوع (القياس)، وأنه توسط فيه، ورد على مانعيه وعلى المتوسّعين فيه، وصدق صديق حسن خان لما قال في كتابه «ظفر اللاظي بما يجب في القضاء على القاضي» في آخر (مقدمته) (ص٢٨): «وفي «إعلام الموقعين عن رب العالمين» فصول نافعة، وأصول جامعة في تقرير القياس، والاحتجاج به، ولعلك لا تظفر بها في غير ذلك الكتاب، ولا بقريب منه». ونحوه في كتابه «الجُنَّة بالأسوة الحسنة بالسنة». وكذلك فعل ابنه محمد أبو الخير في «الطريقة المثلى في الإرشاد إلى ترك التقليد واتباع ما هو الأولى» (ص٤٩ ـ ٦١) (الفصلان: السابع والثامن) بتمامهما، والله الموفّق.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صور».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تلك الصور».

الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين: وداً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً، فلما تفاقم الأمر بعث الله ﷻ ـ وله الحمد والمنة ـ رسوله نوحاً فأمرهم[1] بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة، إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به، ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا آباءنا عليها.

وهكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾ [المطففين: ٣٢] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾ [الأحقاف: ١١] إلى غير ذلك من الآيات: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾ أي: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول من رب العالمين، رب كل شيء ومليكه: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون مبلِّغاً[2] فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه[3] أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في «صحيح مسلم»[4] أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة ـ وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً ـ: «**أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم، ويقول: «**اللهم اشهد، اللهم اشهد**»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الباب فائدتان:

الأولى: أن الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثاناً تعبد من دون الله كما وقع لقوم نوح، ومن أعظم أسباب الشرك بالله الغلو في الأنبياء والصالحين والمبالغة في تعظيمهم، إلى أن يجعل لهم حق الله، وهو العبادة كما فعلت

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يأمرهم». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بليغاً».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يدركهم». (٤) برقم (١٢١٨) من حديث جابر.
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٢٦) بتصرف يسير.

النصارى مع عيسى وكما يفعل المشركون الأولون والآخرون مع قبور الصالحين، وقد قال النبي ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١). وقد تقدم في الآية السابقة التنبيه على مفاسد الغلو.

الثانية: إن المحاربين لدعوة الرسل وأتباعهم في كل زمان ومكان هم الرؤساء والكبراء ومن يقتدي بهم من العوام، ولكن العاقبة لأهل التوحيد، والخسران لأهل الشرك، جعلنا الله ممن نصر توحيده واتبع سنة نبيه ﷺ.

الباب الرابع

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٧٢]

قال (ك): «يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم، قلت: هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد

---

(١) سبق تخريجه.

في البر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: ٦ - ٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾ [فصلت: ١٥].

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل، وقد كان هود من أشرف قومه نسباً؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملأ: هم الجمهور والسادة والقادة منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: في ضلالة حيث [تدعونا](١) إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجّب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧﴾ [ص: ٥ - ٧]، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦٧﴾ أي(٢): إني لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل: البلاغ(٣)، والنصح، والأمانة: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذلكم(٤): ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: واذكروا نعمة الله عليكم في(٥) جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ أي: زاد طولكم على الناس ﴿بَصْطَةً﴾ أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله في قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «دعوتنا».
(٢) سقطت من الأصل، وأثبتها من «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «البلاغة». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذاكم».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إذ».

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمته ومنته عليكم: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والآلاء جمع ألى».

ثم قال (ك): «يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ الآية، كقول[1] الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢] وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: صداً[2] وآخر يقال له: صموداً[3]، وآخر يقال له: إلهنا[4]، ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: وقد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم ﴿رِجْسٌ﴾ قيل: هو مقلوب من رجز، وعن ابن عباس: معناه: سخط وغضب.

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أي: أتحاجوني في هذه الأصنام التي ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه[5] بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤٢]»[6]. اهـ.

إيضاح

قال محمد تقي الدين: كل أمة استولى عليها الجهل بالله تعالى وفشت فيها عبادة الأوثان واتباع الهوى وعمها ظلام الكفر تبغض دعاة الحق في كل زمان وتقابلهم بالتمرد والعناد والتعجب، فالمشركون في هذا الزمان كالمشركين في الأزمنة الأولى، وجوابهم لدعاة الحق كجواب أولئك لرسلهم، والعلماء ورثة

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما قال».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صُداء». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صمود».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الهباء». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عقب».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٢٩ ـ ٣٣١) بتصرف.

الأنبياء، والوارث يلاقي من أهل الشرك مثل ما لاقاه الموروث، ففي هذا الزمان إذا قلنا لعبّاد القبور: دعوا عبادة القبور واتخاذها أوثاناً واعبدوا الله وحده، قالوا: يا عجباً منذ خلقنا الله لم نزل نرى العلماء الكبار الذين لا تساوي تراب نعالهم وهم كانوا يروننا نذبح للأولياء وننذر لهم ونتمسح بقبورهم ونستغيث بهم فما نهونا عن ذلك، ولا قالوا: إنه شرك ولا كفر، وآباؤنا وجدوا آباءهم كذلك وعلماء زمانهم كذلك، فمن أين أتيت بهذا الدين الجديد، فإذا تلوت عليهم كتاب الله، وذكرت لهم حديث رسول الله ﷺ، قالوا: إن أولئك العلماء يعرفون القرآن والحديث أحسن منك، وعلماء زماننا كذلك، فهل انحصر العلم فيك وحدك؟ فهل تريد أن تدخلنا في المذهب الوهابي، وتنقلنا من مذهب أهل السنة؟ لا نسمع ولا نطيع، فأنت ترى أن المشركين تشابهت قلوبهم وتماثلت أجوبتهم للمصلحين، ورحم الله الشيخ عمران اللَّنجي[1] إذ يقول:

إنْ كان تابعُ أحمدٍ متوهِّباً ... فأنا المقِرُّ بأنني وهَّابي
أنفي الشريك عن الإله فليس لي ... ربٌّ سوى المتفرِّدِ الوهَّابِ
لاقُبّة تُرْجَى ولا وَثَن ولا ... قبر له سببٌ مِن الأسبابِ[2]
أيضاً ولستُ معلِّقاً لتميمةٍ ... أو حَلْقَةٍ أو وَدْعَةٍ أو نَابِ
لرجاءِ نفعٍ أو لدفعِ مضرة[3] ... اللهُ ينفَعُني ويدفَعُ ما بي
والابتداعُ وكلُّ أمرٍ مُحْدَثٍ ... في الدينِ يُنْكِرُه ذوو[4] الألبابِ
أرجو بأنّي لا أقارِبُه ولا ... أرضاهُ دِيناً وهو غيرُ صوابِ[5]

---

(١) هو عمران بن علي بن رضوان بن مالك الحارثي الشافعي. نسبته «النجة» وهي مدينة ساحلية، وميناء ثانوي على الشط الشرقي للخليج العربي من الجانب الفارسي، وهي الآن تابعة لإيران، قالت كاملة القاسمي في «تاريخ لنجة» (١/ ١٩٢) عنه: «كان عالماً فاضلاً وشاعراً أديباً» وقال عنه الشيخ ابن مانع في «تعليقاته على الطحاوية» (ص٢٦): «العلامة»، توفي سنة ١٢٨٠هـ.

(٢) بعده:

كلا ولا شجرٌ ولا حجرٌ ولا ... عينٌ ولا نُصُبٌ من الأنصابِ

(٣) في بعض النسخ: «بليّة».

(٤) في بعض النسخ: «أولوا».

(٥) بعدها في قصيدته:

وأمِرُّ آياتِ الصِّفاتِ كما أتَتْ ... بخلافِ كلِّ مؤوّلٍ مُرتابِ
والإستواءُ فإنّ حَسْبي قُدْوَةً ... فيه مقالُ السَّادةِ الأقطابِ

كالشافعيِّ ومالكٍ وأبي حنيـ ـفة ثم أحمد[(١)] التقي الأوابِ[(٢)]

وإذا قلت لهم: لماذا تخالفون حديث النبي ﷺ وهو صحيح صريح؟ قالوا: هذا مذهبنا، وإمامنا أعلم بالحديث منك، فما ترك العمل به إلا لأمر حمله على ذلك. فإن قلت لهم: متى أمركم الله أو أذن لكم أن تتخذوا هذا المذهب الذي يمنعكم من اتباع الرسول ﷺ؟ فهل كانت للصحابة مذاهب أو للتابعين أو للأئمة المجتهدين أو لأحد من القرون المفضلة الثلاثة بنص النبي ﷺ: **«خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته، يخونون ولا يؤتمنون، ويعدون ولا يوفون»**[(٣)]. أو كما قال عليه الصلاة والسلام؟ يجيبونك عن هذا، أنت تريد أن تأتينا بالمذهب الخامس، ونحن راضون بمذهبنا لا نبغي به بديلاً، فيقال لهم: إن كان الصحابة والتابعون أهل القرون المفضلة من مبعث النبي ﷺ إلى مائة وعشرين سنة كلهم على المذهب الخامس، فما أحسن المذهب الخامس! والحق أنكم كاذبون، فإنه لا يوجد في الإسلام إلا مذهب واحد، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما حدث بعدهم من المذاهب فهو ذاهب.اهـ.

الباب الخامس

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ

(١) في بعض النسخ: «وأبي حنيفة وابن حنبل».

(٢) طبعت القصيدة ضمن «مجموع عيسى بن رُميح» في الهند، ثم ضمن مجموع «الهديّة السنية والتحفة الوهابية النجدية» (ص١١٠ ـ ١١٢) ثم في كتاب مستقل بعنوان «قصيدة أنا المقر بأنني وهابي»، بعناية الدكتور عبد السلام الشويعر مع تضمين الهلالي لها، وتضمينه في «ديوانه» (ق٧ ـ ٩) وفي آخر «الحسام الماحق» (ص١١٨ ـ ١٢٠، ط. دار الصحوة).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين، والبخاري (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود.

وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ
بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ
ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن
لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٣ ـ ٧٩].

قال (ك): «قال علماء[١] النسب: ثمود بن عاثر، أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام، إلى وادي القرى وما حولها». ثم قال: «﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾ فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾ أي: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء ـ عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها: الكاتبة ـ فطلبوا منه أن تخرج[٢] لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم[٣] ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «علماء التفسير و».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخرج».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «طلبتهم».

الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة[(١)] وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها[(٢)] فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة [تشرب من بئرها وتدعه لهم يوماً][(٣)] وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٢٨] وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥][(٤)].

فلما طال[(٥)] واشتد تكذيبهم لصالح النبي ﷺ، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها[(٦)] طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن[(٧)]، قلت: وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس: ١٤] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ فأسند[(٨)] ذلك إلى[(٩)] مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك، فلما عقروا الناقة وقتلوها قال لهم نبيهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] أي: وبعدها يأتيكم العذاب، وعد الله الذي وعد به رسوله صالحاً، وكان الذين تولوا عقر الناقة تسعة رهط كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨] وتقاسموا فيما بينهم وتعاهدوا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً عجلنا به قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته، قال الله تعالى في سورة النمل: ﴿قَالُوا۟

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جوفاء».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تشرب ماء بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم ذلك».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قتل الناقة».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعلى الصبيان».
(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وتحرف في المطبوع إلى «فامتد»!
(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي المطبوع: «على»!

تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٤٩ ـ ٥١] فأهلك الله أولئك الرهط وعجل لهم الهلاك قبل قومهم. وبعد ثلاثة أيام جاءت الصيحة فأهلكتهم جميعاً في ساعة واحدة: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: صرعى».

ثم قال (ك): «هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك كما ثبت في «الصحيحين»[(١)]:

إن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث[(٢)] من آخر الليل، فركبها ثم سار حتى وقف على القليب ـ قليب بدر ـ فجعل يقول: «**يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً**»، فقال له عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع مما أقول منهم ولكن لا يجيبون**»»[(٣)].

قال محمد تقي الدين: العرب العاربة هم سكان الجزيرة العربية الذين ليسوا من ذرية إسماعيل عليه السلام؛ لأن إبراهيم أبا إسماعيل وإسحاق ليس عربياً فابنه إسماعيل استعرب فهو وذريته مستعربون، وهذا يدل على أن كل من تعلم العربية وصارت لغته من القبائل يسمون عرباً وإن كانوا في الأصل عجماً.

والمقصود بسرد هذه القصة: بيان أن كل رسول أرسله الله إلى قومه يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾؛ **لأن التوحيد هو الأصل الذي تبنى عليه أمور الدين كلها، فإذا حقق وثبت ثبت ما بعده، وإذا لم يحقق ولم يثبت تهدم كل شيء من أمور الدين**؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨] **وهذا هو**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥)، وأحمد (٤/ ٢٩) وغيرهم من حديث أبي طلحة، وأخرجه مسلم (٢٨٧٤) من حديث أنس.

(٢) هكذا في الأصل ومعناه غير ظاهر (منه).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٣٦ ـ ٣٤٤) بتصرف.

الغرض من تأليف هذا الكتاب؛ لأن المسلمين في هذا الزمان بعدوا عن أصول دينهم، وفشت فيهم الضلالات، وشرها الشرك بالله، فبنوا القباب على القبور وزخرفوها وأنفقوا عليها الأموال الطائلة التي لا ينفقون عشرها في سبيل الله في بناء المساجد والمدارس الدينية والجهاد في سبيل الله وبناء دور اليتامى، وقد قال النبي ﷺ: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» ـ يحذر ما صنعوا ـ قالت راوية الحديث عائشة ﵂: ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً». رواه البخاري ومسلم(١).

واتخاذ القبور مساجد يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله، يدل على ذلك قول النبي ﷺ فيما رواه مالك في «الموطأ»(٢) أن النبي ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». وإنما اشتد غضب الله عليهم؛ لأن اتخاذ المساجد على القبور يؤدي إلى عبادتها كما هو مشاهد.

الباب السادس

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٣١) واللفظ للبخاري من حديث عائشة.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٦)، والحميدي (١٠٢٥)، وابن سعد (٢/ ٢٤١، ٢٤٢)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٤٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٤٣، ٤٤) من حديث أبي هريرة، **وإسناده قويّ**. وبعضهم جعله عن عطاء مرسلاً، ووصله بعض الضعفاء فجعله عن عطاء عن أبي سعيد مرفوعاً، أخرجه مالك (١/ ١٧٢) رقم (٨٥)، وابن سعد (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، والبزار (٤٤٠ ـ زوائده)، وابن عبد البر (٥/ ٤٢ ـ ٤٣).

بِالَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٩٣]

قال (ك): «مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ أي: قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به. ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١ ـ ٦] وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له: خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته»، قال (ك): «ينهاهم[1] عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون الناس

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شعيب».

بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي وغيره: كانوا عشارين، وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهو الطريق[١]، وهذا الثاني وهو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي: كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: قد اختلفتم عليَّ، ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أي: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم أي: يفصل: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين والدمار على الكافرين».

ثم قال (ﷺ): «هذا خبر[٢] من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن[٣] القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول، والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة، وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يقول: أوأنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا[٤] إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه[٥] أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تنفير منه عن اتباعهم[٦].

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وهذا رد إلى الله المسبب[٧]، فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً[٨] ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: في أمورنا، ما نأتي منها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي:

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الطرق». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إخبار».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تدعونا».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقد».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «اتباعه». (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المشيئة».
(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل!

احكم[١] بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين فإنك العادل الذي لا يجور أبداً».

ثم قال (ﷺ): «يخبر تعالى عن شدة كفرهم[٢] وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فلهذا عقبه تعالى[٣] بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أخبر تعالى[٤] أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه، وتوعدوهم[٥] بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ والمناسبة هناك[٦] ـ والله أعلم ـ، أنهم لما تهكموا به[٧] في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقال تعالى[٨] في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة.

وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ﴾ وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجة[٩] من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ﴾ أي: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها، ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾» ثم قال (ﷺ): «أي: فتولى عنهم

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «افصل».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كفر قوم شعيب».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عقب ذلك».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هاهنا».
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وتوعدهم».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في ذلك».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بنبيّ الله شعيب».
(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إخباراً عنهم».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ورجفة».

شعيب عليه السلام بعد [ما أصابهم][١] من العذاب والنقمة والنكال. وقال مقرِّعاً لهم وموبِّخاً: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: قد أديت إليكم ما أرسلت به، فلا آسف[٢] عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، فلهذا[٣] قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: مَنْ حقق توحيد الله تعالى بأن أفرده بالعبادة، ولم يدع مع الله أحداً، وحقق اتباع رسوله ﷺ، واتخذه إماماً وقدوة لا يبغي به بديلاً ويرضاه في طريقه دليلاً، لا بد أن يعمل بمقتضى الشهادتين، فيطيع الله ورسوله ويحافظ على الأوامر ويجتنب المنهيات، فلا يغش مسلماً ولا معاهداً، وفي «الصحيح»[٥]: «أن النبي ﷺ ذهب إلى السوق فوجد صبرة من طعام، فأدخل يده فيها، فوجد أسفل الحب مبتلاً وأعلاه يابساً، فقال: **«ما هذا يا صاحب الطعام؟»** فقال: يا رسول الله، أصابته السماء من الليل، فقال النبي ﷺ: **«فهلا أظهرته؟ من غشنا فليس منا»**»، هذا معنى الحديث.

وبيان هذا الحديث، أن رجلاً من أهل المدينة كان يبيع الحبوب، فنزل المطر فابتل الحب، فجاء بحب ناشف لم يصبه المطر، فغطى الحب المبتل به، وهذا غش لأنه أخفى العيب الذي في حبه ولم يظهره للناس، فالذي يغش المسلمين أو المعاهدين لم يعمل بمقتضى الشهادتين، فمثل هؤلاء هم الذين يخونون الأمانات ويأكلون أموال الناس بلا حق، ولا يوفون الكيل ولا الميزان، ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها، ويقعدون بكل سبيل يتوعدون الناس بالأذى ليأكلوا أموالهم بالمكس ونحوه، وهم أهل لكل شر لما عندهم من النفاق، ولأن قلوبهم خالية من نور الإيمان، وهو نور لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقوله: «كانوا عشارين» العشار: هو المكاس الذي يأخذ العشر من البضائع

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير» مكررة مرتين. (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أسفة».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولهذا».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/٣٤٨ ـ ٣٥١).
(٥) أخرجه مسلم (١٠٢) من حديث أبي هريرة، ولفظه: «أفلا جعلته فوق الطعام، كي يراه الناس، من غش فليس مني».

التي تمر عليه في الطريق، وأخذ المكوس والأعشار حرام بالإجماع، وهو من أعظم الذنوب، يدلك على ذلك أن النبي ﷺ لما صلى على المرأة الغامدية التي اعترفت بالزنى وطلبت منه إقامة الحد ؓ، قيل له: كيف تصلي عليها وقد زنت؟ فقال: **«إنها تابت توبة لو قسمت على سبعين منكم لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن تجود بنفسها؟»**(١). اهـ. وصدق رسول الله ﷺ، فإن الجود بالنفس أقصى غاية الجود، وفي رواية: **«إنها تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»**(٢).

وقد استباح الناس في هذا الزمان المكوس في مشارق الأرض ومغاربها، وصارت عندهم من الأمر بالمعروف الذي لا ينكره الخاصة والعامة، فلذلك سلط الله عليهم عدوهم وأذلهم وأهانهم، ولا يزالون كذلك حتى يرجعوا إلى اتباع الرسول ﷺ في كل ما جاء به.

فصل

قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقال: ما أشبه الليلة بالبارحة، فما زال المشركون يأكلون خير الله ويعبدون غير الله، ما زالوا في كل زمان ومكان يصدون الناس عن سبيل الله، أي: توحيد الله واتباع رسله، وفي هذا الزمان كل من وحّد الله واتبع سنة رسوله ﷺ يقفون له بالمرصاد، ويقولون: احذروا فلاناً فإنه وهابي وقد صدقوا وهم كاذبون، فإن من وحّد الله واتبع رسوله ﷺ تصح نسبته إلى الوهاب سبحانه كما قال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤٩ ـ ٥٠] لما اعتزل إبراهيم المشركين في العراق وهو وطنه، وذهب في أرض الله متوكلاً على الله، وهب الله له ذرية طيبة إسماعيل وإسحاق، وبشره كذلك بيعقوب بن إسحاق ليرى أبناءه وأحفاده

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٤٠)، والترمذي (١٤٣٥)، والنسائي (٤/ ٦٣، ٦٤)، وعبد الرزاق (١٣٣٤٨)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٨٧ ـ ٨٨)، وأحمد (٤/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠، ٤٣٥ ـ ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٠)، والدارمي (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١)، والطيالسي (٨٤٨)، وابن الجارود (٨١٥)، وابن حبان (٦/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤ ـ «التعليقات الحسان») رقم (٤٤٢٤)، والطبراني (١٨/ رقم ٤٧٥، ٤٧٦)، والدارقطني (٣/ ١٠١، ١٠٢)، والبيهقي (٨/ ٢٢٥) من حديث عمران بن حصين، **وإسناده صحيح**.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩٥) من حديث بريدة.

صالحين، وأعطاه أموالاً كثيرة كما هو معروف في التاريخ، وقد أشار إلى ذلك القرآن، فإن الملائكة لما زاروه ضيوفاً بالغ في إكرامهم وجاءهم بعجل حنيذٍ، أي: مشوي، يفهم من ذلك أن أمواله كانت كثيرة، فيا أيها الشخص الذي أكرمه الله بالتوحيد واتباع السنة، ظفرت بحبل الله فاعتصم: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

فصل

قوله: «في توعدهم إياه بالنفي ومن معه، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم».

قال محمد تقي الدين: هكذا كان المشركون الأولون يعاملون الرسل ومن معهم، ومشركو هذا الزمان يتبعونهم في ذلك، حذو النعل بالنعل، فإنهم متى دعاهم داع إلى توحيد الله واتباع سنة رسول الله ﷺ والحكم بشريعة الله يسعون في نفيه من البلاد أو يجبرونه على العودة في ملتهم الشركية، ولو بالسكوت والمشاركة، و(الساكت عن قول الحق شيطان أخرس)(١)، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢] وقال تعالى فيها أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

وفي سنة ١٣٤١هـ حججت الحجة الأولى في زمان ملك الحجاز الحسين بن علي واجتمعت بمحمد حبيب الله بن مايابا الشنقيطي ووقعت بيننا مناظرة، قال لي في أثنائها: أنت وهابي، وأنتم عندي معشر الوهابية ثلاثة أصناف: **الصنف الأول**: أهل نجد وهم عندنا كفار كاليهود والنصارى، ونحن المسلمون، **والصنف الثاني**: وهابية الشام، وأنت منهم وهذا الصنف عندنا ضلال، **والصنف الثالث**: وهم وهابية الهند، وهم عندنا مخطئون.

وبعد هذه المناظرة سمعت أن جماعة من الحجاج الأندونيسيين من أصحاب الشيخ أحمد السُّركتي(٢) رحمة الله عليه، جاهروا بالتوحيد فأنكر عليهم

(١) اشتهر هذا على أنه حديث، وليس كذلك.

(٢) هو العلامة السلفي المصلح الشيخ أحمد بن محمد بن محمد بن محمد =

الناس وساقوهم إلى مجلس العلماء، فسألهم أولئك المسمون بالعلماء؟ فاعترفوا، فاستتابوهم وهددوهم فتابوا، فلما سمعت هذا الخبر اختفيت ثمانية أيام في المعابدة عند بعض المغاربة؛ خوفاً من أن يخبر الشيخ المذكور مجلس العلماء المعين من قبل الملك حسين، فيستتيبوني، وكان صاحب البيت الذي أنا فيه يذهب إلى المسجد الحرام ويتحسس: هل يُبحث عني؟ فلم يسمع شيئاً، وكانت هذه حسنة من ذلك الشيخ إذ لم يخبر عني، مع أنه من رجال المجلس ومن المقربين عند الملك حسين، انظر هذه القصة بتمامها وغيرها في كتابي «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة»[1] فإن فيه من هذا القبيل الشيء الكثير، فنسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

= السوركتي، ولد سنة ١٨٧٦م في جزيرة أرْمَو من أعمال دنقلا في السودان من أبوين ينتسبان إلى أحد نقباء الخزرج وهو الصحابي جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري، سافر إلى الحجاز، وانقطع مجاوراً في المدينة النبوية، ومكث فيها أربع سنوات ونصفاً لطلب العلم، ثم تحول إلى مكة، وتدرج في الطلب إلى أن حصل الشهادة العالمية من مجلس علمائها، وعيّن سنة ١٣٢٦هـ مدرساً في الحرم المكي، ثم سافر إلى أندونيسيا، ودرّس هناك، وتخرج على يده مئات التلاميذ، له كثير من الكتب، حصّلت ـ ولله الحمد ـ جلها في سفرتي لأندونيسيا، منها: «صورة الجواب»، «الوصية العامرية»، «توجيه الإخوان إلى آداب القرآن» ـ لم يطبع ـ، «المسائل الثلاث»، «أمهات الأخلاق»، «منظومة الخواطر الحسان»، و«حقوق الزوجين» ـ مترجم للماليزية ـ «الأخلاق القرآنية» ـ مترجم للهولاندية ـ وله عشرات (المقالات)، وظفرتُ له في مجلة «الإرشاد» باباً للفتاوى، وسلسلة في التنبيه على الأحاديث الضعيفة المشتهرة، وقد احتجبت هذه المجلة عن الصدور سنة ١٩٢١م، مات الشيخ أحمد السوركتي ـ رحمه الله تعالى ـ بعد جهاد في الدعوة إلى الله على بصيرة سنة ١٩٤٣م ـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأدخله فسيح جنانه ـ. انظر: «تاريخ حركة الإصلاح وشيخ الإرشاديين أحمد محمد السوركتي في أندونيسيا» تقديم وتحقيق أحمد أبو شوك، وهي مخطوطة مجهولة المؤلف بحوزة صديقنا الأستاذ عبد القادر التميمي، وأهداني إياها في ٦/ محرم/ ١٤٢٣هـ، جزاه الله خيراً.

(١) رأيتُ من المفيد إثبات المناظرة بتمامها، قال المصنف في كتابه «الدعوة إلى الله تعالى» (ص١٢٤ ـ ١٢٧): «كان الشيخ حبيب الله بن مايابا الجكني من العلماء المقربين عند الملك حسين، وكانت له مدرسة تشرف على المسجد الحرام، وكان المسجد الحرام في ذلك الزمان محاطاً بالمدارس وهذه المدارس كان يستغلها المقربون من العلماء والجهال، إذا جاء والي المسجد الحرام يجلسون فيها ويتوضؤون وينامون ويصلون فيها أيضاً؛ لأن كل واحدة منها كانت لها طاقة واسعة مواجهة للكعبة، فقصدت زيارة الشيخ المذكور في مدرسته، وأخذت أتحدث معه حديثاً يشبه المناظرة في التوحيد والاتباع، =

. . . .

= وكان عنده رجل أشيب فلما سمع كلامي ظهرت عليه أمارات الحزن، وقال لي: هذا الذي تقوله تعلمته في الشرق أم في الغرب؟ فقلت له: بل في المغرب. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وصل هذا البلاء إلى المغرب - يعني بالبلاء: توحيد الله تعالى واتباع سنة رسوله ﷺ -، وأخبرني الشيخ حبيب الله أن ذلك الشيخ كان شنقيطياً كنتياً نسبة إلى (كنته) وهي قبيلة معروفة في شنقيط، فقال الشيخ حبيب الله: وأنت وهابي وأنتم معشر الوهابية عندي ثلاثة أصناف، وهابية نجد ووهابية مصر والشام، وأنت منهم ووهابية الهند، فأما وهابية نجد فإنهم كفار بيننا وبينهم ما بين اليهود والنصارى والمسلمين، هم اليهود والنصارى ونحن المسلمون، وأما وهابية مصر والشام فهم ضلال، وأما وهابية الهند فهم مخطئون، فقلت له: اشرح لي ما ذكرته وبيِّن لي سبب هذه التفرقة؟ فقال لي: أما وهابية نجد فهم عندي كفار؛ لأنهم يقولون: إن ربهم في السماء، وأما وهابية مصر والشام فهم ضلال؛ لأنهم يدعون الاجتهاد، وادعاء الاجتهاد ضلال ولا يبلغ إلى حد الكفر، وأنا بنفسي لا أقول بالتقليد المحض، بل أقول بمنزلة بين منزلتين، ثم سرد علي أبياتاً من أرجوزة له لا أحفظ منها إلا شطراً واحداً، وهو قوله: (وإنما أقول بالتبصر).

فقلت له: هذا التفصيل فيه نظر؛ لأن جميع السلفيين في نجد وفي مصر والشام وفي المغرب وفي الهند يقولون ويعتقدون أن الله في السماء مستوٍ على عرشه بدون تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل، وأدلة هذا لا تخفى عليك، وأما ما سميته بالاجتهاد فنحن نسميه الاتباع، والأصناف الثلاثة أيضاً متفقون عليه، إلا أن أهل نجد ينتسبون إلى المذهب الحنبلي في الفروع ونحن لا ننتسب إليه إلا في الأصول، ثم قلت له: ولماذا خففت الحكم على أهل الهند؟ فلم تجعلهم كفاراً ولا ضلالاً بل جعلتهم مخطئين فقط، فقال لي: لأنهم يزورون قبر النبي ﷺ فليس عندهم مما ينتقد إلا مسألة الاجتهاد، فقلت له: فعلام ضللتنا نحن بالاجتهاد وغفرته لهم، فقال: قلت لك: إنهم يزورون قبر النبي ﷺ فقلت له: ماذا تعني بزيارة القبر أتقصد السلام على النبي ﷺ في مسجده أم أمام حجرته أم تقصد شد الرحال؟ فقال: أقصد ذلك كله، فقلت له: إن السلفيين في الهند لا يقولون بجواز شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة، فظهر تناقضه، ولم أكن أعلم سبب ذلك التناقض حينئذٍ غير أني عرفته فيما بعد، وذلك أن الشيخ عبد الوهاب الدهلوي التاجر العالم كان بمكة وكان تلميذاً له يدرس عليه بعض فروع العلم وكان يحسن إليه، فلذلك خفف الحكم على السلفيين من أهل الهند وكان يتبع هواه والهوى يعمي ويصم». قال: «ولما استتيب الأندونوسيون وكان هذا الرجل من الذين استتابوهم اختفيت أنا ثمانية أيام في مكة عند بعض المغاربة وكنت أبعثه كل يوم إلى المسجد الحرام، ليتحسس هل هناك أحد يبحث فلم يجد لذلك أثراً فخرجت من مختبئي، وهذه حسنة أعدها له، إذ لم يسع في استتابتي، وسوف يرتكب سيئة تمحو هذه الحسنة». ثم قال تحت عنوان (مداهنته لمن يسميهم بالوهابية) ما نصه:

«لما استولى الملك عبد العزيز على الحجاز بعد هذا التاريخ بقليل، أخذ يداهن الملك =

. . . .

= عبد العزيز وأهل نجد الذين كان بالأمس يكفرهم، وفي يوم من الأيام جاء الملك عبد العزيز رحمة الله عليه إلى المسجد الحرام فوجد الشيخ حبيب الله والسيد أحمد السنوسي يملآن الأثر المسمى بموضع قدم إبراهيم بماء زمزم ويكرعان فيه بأفواههما كالبهائم، فوبخهما وقال لهما: إذا كنتما تفعلان هذا وأنتما بزعمكما من العلماء فماذا تركتما للجهال، وحدث أنه كان ذات ليلة في مجلس الملك عبد العزيز آل سعود وكان الملك يتكلم في التوحيد، فعارضه فغضب عليه الملك عبد العزيز غضباً شديداً، فظن أن حتفه قد دنا، فتقدم إلى الملك وألقى نفسه بين يديه وأظهر التوبة والرجوع عما قاله، وإنما فعل ذلك خوفاً أن يبطش به، ولم يكن الملك عبد العزيز رحمه الله سريعاً إلى البطش، بل كان إذا غضب يقتصر على الكلام ولا يتجاوزه، وعلى إثر ذلك أخذ زوجته إلى المدينة وتركها في بيت أخيه الشيخ محمد الخضر وهرب إلى مصر، وكانت العلاقات بين مصر والمملكة السعودية في ذلك الزمان سيئة جداً، بسبب المحمل الذي كانت تبعثه الحكومة المصرية إلى مكة في كل سنة، وهو شيء كالهودج يطاف به في القاهرة ثلاثة أيام يتمسح الناس به ويتبركون به، ثم يبعث مع الوفد المصري إلى مكة، فيتمسح به الجهال أيضاً في جدة، وفي الطريق إلى مكة، فأمر الملك عبد العزيز رحمه الله بالمنع من التمسح به والإتيان به إلى مكة، وأمر أن يترك في جدة، وبعد الحج يرجع به الوفد إلى مصر، فرأى الوفد المصري أن ذلك إهانة له، وكانت كسوة الكعبة المشرفة يؤتى بها من مصر يحملها الوفد المصري كل سنة إلى مكة. فلما ساءت العلاقة بين المملكتين استغنى الملك عبد العزيز عن كسوة الكعبة التي كان يؤتى بها من مصر، وطلب الصناع من الهند وأسس داراً بمكة لصنع الكسوة، فاغتنم الشيخ حبيب الله هذا الخلاف والتجأ إلى حكام مصر، وشكى لهم ما أصابه من السعوديين، والحقيقة أنه لم يصبه شيء، فرحبوا به وجعلوه مدرساً في الأزهر، وفي سنة ١٣٤٥ توجهت من العراق إلى الحج بصحبة الشيخ مصطفى آل إبراهيم ومررنا بالقاهرة، وكان الشيخ حبيب الله مستقراً بها، فعلمت أن شخصاً قال له: هل تعرف الهلالي، فقال: نعم أعرفه، فقال له: أهو من أهل العلم فقال له: لا يصلح أن يكون جليساً لأهل العلم، فكيف يكون من أهل العلم؟ فكتبت كتاباً إليه قلت له فيه: بلغني أنك قلت: كيت وكيت وقد ناظرتك في مدرستك سنة ١٣٤١هـ من الظهر إلى العصر كنت تناضل عن عقيدة أسلافك الأرذلين كالجهم بن صفوان والجعد بن درهم، وكنت أناضل عن عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، فما وجدت فيّ بحمد الله ضعفاً ولا ونى، وأنشدته في ذلك الكتاب أبياتاً أذكر منها قول الشاعر:

لقد زادني حباً لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائلِ
وإني شقي باللئام ولا ترى ... شقياً بهم إلا كريمُ الشمائلِ

وقول المتنبي أيضاً:

ويظهر الجهل بي وأعرافه ... والدُّرُّ دُرٌّ برغم مَنْ جهله =

الباب السابع

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٨]

قال محمد تقي الدين عفا الله عنه: نظرت في تفاسير عدة لأنقل تفسير هاتين الآيتين كعادتي، فوجدتها مشحونة بالقال والقيل، اختلفت فيها الآراء، ولا دليل على شيء منها، والأصل فيما وقع قبل الإسلام أن يأتينا من طريق النبي ﷺ، فإذا لم نجد خبراً مرفوعاً إليه وتضاربت الآراء، توكلنا على الله وفسرنا القرآن بما يظهر لنا من اللفظ، فأقول:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ تقدم أنهم الأشراف والرؤساء متعجبين من فرعون لصبره على موسى وقومه، كيف تترك موسى وقومه يفسدون عقائد رعيتك بصرفهم عن طاعتك وعبادة آلهتك إلى طاعة الله وحده لا شريك له؟ ولا غرابة في ذلك، **فإن المفسدين في كل زمان ومكان يرون الصلاح فساداً، والفساد صلاحاً**، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١] فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢] وكانت لفراعنة المصريين ولرعاياهم آلهة يعبدونها كما سيأتي عن قريب في هذه السورة.

وقول فرعون لموسى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] لا يتنافى مع وجود تلك الآلهة التي هي أصنامهم، وتاريخ قدماء المصريين وآثارهم الباقية، لا تبقي شكاً فيما ذكرته، والمشركون في كل زمان ومكان لا يحبون من يعرض عن آلهتهم ولو لم يمنعهم من عبادتها، ولم يدعهم إلى عبادة الواحد الأحد، فكيف إذا عاب عليهم

= وأبياتاً أخرى نسيتها، وكتبت عليه عنوانه، وهممت أن ألقيه في صندوق البريد ليصل إليه ويشويه، ولكن أخانا السلفي الشيخ إبراهيم الوادنوني تلطف وتحيل، وقال لي: ناولني هذا الكتاب وأنا أبلغه إليه فناولته إياه، وكان مقصوده أن يمنع وصوله إليه حتى لا يسوءه؛ لأنه كانت بينه وبينه صداقة مع اختلافهما في العقيدة».

عبادتها، وصرح لهم بأنها لا تنفع ولا تشفع؟ فحينئذٍ تثور ثائرتهم ويحاربون الداعي حرباً لا تسامح فيها.

وكان فرعون أيضاً يعلم أن رب العالمين وخالقهم الذي أنزل الكتب وأرسل الرسل هو الله وحده لا شريك له، وإنما كان يجحد كما قال تعالى في سورة الإسراء حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال تعالى مخبراً عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

والظاهر أن الذي كان يهم فرعون أن يكون سيداً مطاعاً منفرداً بالتشريع، فما أوجبه فهو واجب على قومه، وما حرمه فهو محرم على قومه، ولا يحب أن ينازعه أحد ولو كان رسولاً من الله تعالى إليه، فلما عاتبه رؤساء دولته واتهموه بالتسامح مع موسى عليه السلام، قال لهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ أي: أبناء بني إسرائيل ﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: تبقى نساؤهم فلا نقتلهن، لنعبِّدهن ونسخرهن في خدمتنا ﴿وَإِنَّا﴾ معشر المصريين ﴿فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ غالبون لا نخشى بأسهم، إنما هم عبيدنا فلا تخافوا موسى ولا قومه.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ فبالاستعانة بالله وحده على أعدائكم، وبالصبر على ما يصيبكم من أذاهم حتى يجيء نصر الله، بهذين الأمرين تبلغون ما وعدكم الله من نصركم وإهلاك عدوكم، واعلموا ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ لا لفرعون ولا لقومه، ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوحِّدون الله ويتبعون رسله وكتبه، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

الباب الثامن

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠]

قال (ك): «يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَأَتَوْا﴾[(١)] أي: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾، قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين، وقيل: كانوا من لخم، قال ابن جريج[(٢)]: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾»[(٣)].

قال العلامة المحقق سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله في «شرحه لكتاب التوحيد» الذي ألفه الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب، واسم هذا الشرح، «تيسير العزيز الحميد» في صفحة ٤٣، ما نصه:

«(باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوها) كبقعة وغار وعين وقبر ونحو ذلك مما يعتقد كثير من عباد القبور وأشباههم فيه البركة، فيقصدونه رجاء البركة، ويعني بقوله: «تبرك» أي: طلب البركة ورجاها واعتقدها، ما حكمه هل هو شرك أم لا؟» ثم قال: «وعن أبي واقد الليثي قال: قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: **«الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، لتركبن سنن من كان قبلكم»** رواه الترمذي وصححه[(٤)].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قالوا»!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وهو الصواب، وفي الأصل: «ج»! إشارة إلى ابن جرير.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٧٩).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٢١٨٠)، والشافعي (٢٣ ـ بدائع المنن)، وعبد الرزاق (٢٠٧٦٣)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٠١)، والحميدي (٨٤٨)، والطيالسي (١٣٤٦)، وابن أبي عاصم (٧٦)، ومحمد بن نصر المروزي (٣٧ ـ ٤٠) كلاهما في «السنة»، وأبو يعلى (١٤٤١)، وابن إسحاق ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٤/ ٨٤ ـ ٨٥)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ١٧٢)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٣٢٩٢، ٣٢٩٣، ٣٢٩٤)، والبيهقي في «دلائل التوحيد» (٥/ ١٢٤ ـ ١٢٥)، والواحدي =

قال الشارح: «رواه الترمذي كما قال المصنف، ثم ذكر الشارح إسناد الترمذي إلى أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: **«سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم»**. هذا حديث حسن صحيح، وأبو واقد الليثي اسمه الحارث بن عوف، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة، هذا لفظ الترمذي بحروفه، وفيه مخالفة لما في الكتاب لفظاً ومعنى، وقد اتفق اللفظان على المقصود هنا، وقد رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى وابن أبي شيبة والنسائي، و(ج) وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني بنحوه.

قوله: **«عن أبي واقد الليثي»** اسمه الحارث بن عوف، كما قال الترمذي وقيل: الحارث بن مالك[(١)] صحابي مشهور مات سنة ٦٨هـ وله خمس وثمانون سنة. قوله: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، في حديث عمرو بن عوف قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح ونحن ألف ونيف، حتى إذا كنا بين حنين والطائف»[(٢)]. لا مخالفة بينهما في المعنى، فإن غزوتي[(٣)] الفتح وحنين[(٤)] كانتا في سفر واحد، وقوله: **«نحن حدثاء عهد بكفر»**. أي: قريبو عهد بكفر، ففيه دليل أن غيرهم لا يجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادات الباطلة، ذكره المصنف.

قوله: **«يعكفون عندها»** الاعتكاف: هو الإقامة على الشيء بالمكان ولزومه[(٥)]،

= في «الوسيط» (٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤) **وإسناده صحيح**.

(١) كذا سمي عند ابن إسحاق، وفي مطبوع «سيرة ابن هشام»: «عن أبي واقد الليثي أن الحارث بن مالك»! وهو خطأ. وصوابه «وهو الحارث...».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/ رقم ٢٧) وابن أبي حاتم وابن مردويه في «تفسيريهما»، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٥٣٤) من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه كثير بن عبد الله وهو متروك.

(٣) في مطبوع «التيسير»: «غزوة».

(٤) تحرفت (حنين) في مطبوع «جامع الترمذي» و«مسند أبي يعلى» و«معجم ابن قانع» في حديث أبي واقد السابق إلى (خيبر)!! فلتصوب.

(٥) في مطبوع «التيسير»: «ولزومها».

ومنه قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وكانوا يعكفون عند هذه السدرة تبركاً بها، وفي حديث عمرو بن عوف قال: «كان يناط بها السلاح، فسميت ذات أنواط، وكانت تعبد من دون الله، فلما رآها رسول الله ﷺ انصرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها...» الحديث، فيجمع بينهما بأن عبادتها هي العكوف عندها رجاء لبركتها.

وقوله: «**وينوطون بها أسلحتهم**» أي: يعلقونها عليها للبركة، وقوله: «**يقال لها: ذات أنواط**»، قال أبو السعادات(١): «سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك، وأنواط: جمع نوط، وهو مصدر سُمِّي به المنوط»(٢)، وقوله: «**فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط**»، أي: شجرة مثلها نعلق عليها [أسلحتنا](٣). ونعكف حواليها، ظنوا أن هذا الأمر(٤) محبوب عند الله فقصدوا التقرب إلى الله بذلك، وإلا فهم أجلّ قدراً ـ وإن كانوا حديثي عهد بكفر ـ عن قصد مخالفة النبي ﷺ، وقوله: «**فقال النبي ﷺ: الله أكبر**» هكذا في بعض الروايات، وفي رواية الترمذي: «**سبحان الله**»، والمقصود باللفظين واحد؛ لأن المراد تعظيم الله وتنزيهه عن الشرك، والتقرب به إليه، وفيه تكبير الله وتنزيهه عند التعجب أو ذكر الشرك خلافاً لمن كرهه.

قوله: «**إنها السُّنن**» بضم السين، أي: الطرق، فقوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً... إلخ**» أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذي طلبوه منه، وهو اتخاذ الشجرة(٥) للعكوف عندها، وتعليق الأسلحة بها تبركاً، كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام حيث قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عبّاد القبور من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والطواف بقبورهم وتقبيلها، وتقبيل أعتابها، وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها؟ وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركاً؟

---

(١) في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١٢٨/٥).
(٢) كذا في «النهاية» و«التيسير»، وفي الأصل: «النوط»!!
(٣) غير موجود في مطبوع «التيسير». (٤) في مطبوع «التيسير»: «أمر».
(٥) في مطبوع «التيسير»: «شجرة».

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي[١] من أئمة المالكية: «فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس [ويعظمونها][٢] ويرجون البرء والشفاء من قبلها، [وينوطون بها][٣] المسامير والخرق، فهي ذات أنواط فاقطعوها».

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب «البدع والحوادث»: ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشياطين للعامة، تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم [يتجاوز][٤] هذا إلى أن يعظّم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظمونها [فيرجون][٥] الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لهم[٦] وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر، وفي مدينة ـ دمشق صانها الله من ذلك ـ مواضع متعددة كعوينة[٧] الحمى خارج باب توما، والعمود المخلّق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهّل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث».

ثم ذكر الحديث المتقدم، وكلام الطرطوشي الذي ذكرنا، ثم قال: «ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجِبْنِياني[٨] ـ رحمه الله تعالى ـ أحد

(١) في كتابه «الحوادث والبدع» (ص٣٨ ـ ٣٩).
(٢) في مطبوع «الحوادث»: «ويعظمون من شأنها».
(٣) كذا في مطبوع «الحوادث» وفي الأصل: «ويضربون»!.
(٤) في مطبوع «الباعث»: «يتجاوزون».
(٥) في مطبوع «الباعث»: «ويرجون».
(٦) في مطبوع «الباعث»: «لها».
(٧) في مطبوع «الباعث»: «تعوينة»، وفي الأصل: «كمدينة»! ولا وجه لها، وراجعت لها مخطوطة «الباعث على إنكار البدع والحوادث» لأبي شامة، فوجدت المثبت في نسخة خطية (ق١٥٧/أ ـ ضمن مجموع تأريخ نسخه ٧٩٧هـ) محفوظ في شستربتي، دبلن، إيرلنده.
(٨) في مطبوع «الباعث»: «الجبيناني»! وفي الأصل: «الجنياني»! والصواب المثبت، نسبة إلى (جِبْنِيانة) ـ بكسر الجيم، ثم موحدة ساكنة، ثم نون مكسورة، تليها مثناة تحت ثم ألف ثم نون مفتوحة، ثم هاء ـ من بلاد المغرب، هكذا ضبطها ابن ناصر الدين في «التوضيح» (٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، وذكر تحتها صاحبنا أبا إسحاق، ونعته بقوله: «الشيخ العارف». وقال =

الصالحين ببلاد إفريقية في المائة الرابعة، حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي العباس المؤدب «أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية، وكانت[1] العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق، من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت: امضوا بي إلى العافية فتعرف بها الفتنة. قال أبو عبد الله: فأتاني[2] في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحاق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها وأذن الصبح عليها ثم قال: اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأساً، قال: فما رفع لها رأس إلى الآن»[3].

قلت: أبو إسحاق الذي هدمها إمام مشهور من أئمة المالكية زاهد اسمه إبراهيم بن أحمد بن علي بن أسلم[4]، وكان الإمام أبو محمد بن أبي زيد يعظم شأنه ويقول: طريق أبي إسحاق خالية لا يسلكها أحد في الوقت، وكان القابسي[5] يقول: الجبنياني[6] إمام يقتدى به، مات سنة ٣٦٩هـ. وذكر ابن القيم نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: «فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر؛ أي تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له»[7].

وقال العلامة المذكور في الكتاب نفسه في (صفحة ٢٩٢، المتن موجود بالشرح) ما نصه (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله) أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة أموراً: **الأول**: التحذير من الغلو في

= عنه: «الزاهد أحد العباد المشهورين». ونقل عن ابن أبي زيد قوله عنه: «لو فاخرتنا بنو إسرائيل بعبَّادها؛ لفاخرناهم بالجبنياني». وقال: «جمع له أبو القاسم عبد الرحمٰن بن محمد اللَّبيدي ترجمةً ومناقب في مصنَّف» وتنظر ترجمته في «الدِّيباج المُذْهَب» (١/ ٢٦٤ - ٢٦٥)، و«شجرة النور الزكية» (١/ ٩٥).

(١) كذا في مطبوع «الباعث»، وفي الأصل: «كان».
(٢) في مطبوع «الباعث»: «فإنا».
(٣) انظر: «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص١٠١ - ١٠٤ - بتحقيقي).
(٤) في مصادر ترجمته: «سالم».
(٥) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «القاسمي»!
(٦) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «الجنياني»!
(٧) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص١٧٤، ١٨٠ - ١٨٤).

قبور الصالحين، **الثاني**: إن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها، **الثالث**: إنها إذا عبدت سميت أوثاناً ولو كانت قبور الصالحين، **الرابع**: التنبيه على العلة في المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد، والأوثان هي[(١)]: المعبودات التي لا صورة لها كالقبور والأشجار والعمد والحيطان والأحجار ونحوها، وقد تقدم بيان ذلك، وقيل: الوثن هو الصنم، والصنم هو الوثن، وهذا غير صحيح إلا مع التجريد، فأحدهما قد يعنى به الآخر، وأما مع الاقتران فيفسَّر[(٢)] كل واحد بمعناه[(٣)].

قال: روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(٤)]. هذا الحديث رواه مالك في باب «جامع الصلاة» مرسلاً عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قاله[(٥)]، ورواه البزار عن عمر بن محمد عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً وعمر بن محمد[(٦)] من ذرية[(٧)] عمر بن الخطاب ثقة من أشراف[(٨)] المدينة[(٩)] وله شاهد عند الإمام أحمد والعقيلي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(١٠)]. قوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**»، قد استجاب الله دعاء رسوله ﷺ، فمنع الناس من الوصول إلى قبره؛ لئلا يعبد

(١) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «من».
(٢) من مطبوع «التيسير»، وسقط من الأصل.
(٣) كذا في «فرائد اللغة في الفروق» (ص١٦٦، رقم ٦٢٣)، وقال: ابن عشيرة في «بهجة الناظر» (ص١٥٤): «إن الوثن من الخشب خاصة، ومثله: الصليب للنصارى، والصنم أعم من أن يكون ذهباً أو فضة أو حديداً أو غير ذلك»!!
(٤) سبق تخريجه.
(٥) بعدها في مطبوع «التيسير»، ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» عن أبي خالد الأحمر عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به ولم يذكر عطاء».
(٦) بعدها في مطبوع «التيسير»: «ابن زيد بن عبد الله ابن».
(٧) غير موجود في مطبوع «التيسير». (٨) بعدها في مطبوع «التيسير»: «أهل».
(٩) بعدها في مطبوع «التيسير»: «روى عنه مالك والثوري وسليمان بن بلال، **فالحديث صحيح** عند من يحتج بمراسيل الثقات وعند من قال بالمسند لإسناد عمر بن محمد له بلفظ «الموطأ» سواء، وهو ممن تقبل زيادته»، وانظر تخريجنا المتقدم (ص٣٩٥)، فقد فصَّلنا الكلام على الطرق المذكورة هنا.
(١٠) مضى تخريجه من الطرق المتقدمة جميعاً.

استجابة لدعاء رسوله ﷺ، كما قال ابن القيم(١):

[ودعا بأن لا يُجْعَلَ القبرُ الذي قد ضَمَّهُ وَثَناً من الأوثانِ](٢)
فأجاب ربُّ العَالَمين دُعَاءه وأحاطه بثلاثةِ الجُدرانِ
[حتى اغْتَدَتْ(٣) أرجَاؤُهُ بدُعائهِ في عزّةٍ وحِمَايةٍ وصِيَانِ](٢)

ودلَّ الحديث على أن قبر الرسول ﷺ لو عبد لكان وثناً، فما ظنك بقبر غيره من القبور التي عبدت هي وأربابها من دون الله، وإذا أريد تغيير شيء من ذلك أنف عبّادها واشمأزت قلوبهم، واستكبرت نفوسهم، وقالوا: تنقص أهل الرتب العالية، ورموهم بالعظائم، فماذا يقولون لو قيل لهم: إنها أوثان تعبد من دون الله؟ فالله المستعان على غربة الإسلام، وهذه هي الفتنة العظمى التي قال فيها عبد الله بن مسعود: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس، يتخذونها سنة إذا غُيِّرت قيل: غُيِّرت السنة»(٤).

---

(١) في «الكافية الشافية» (ص٢٤٨). (٢) غير موجود في مطبوع «التيسير».
(٣) كذا في مطبوع «الكافية» وفي الأصل: «غدت».
(٤) أخرجه ابن وضاح في «البدع» رقم (٨٠) من طريق زُبَيْد الأيامي عن ابن مسعود به.
قلت: وسنده ضعيف؛ منقطع بين زبيد وابن مسعود.
وأخرجه ابن وضاح رقم (٢٨٥)، ومن طريقه ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١١٣٥)، وابن حزم في «الإحكام» (٧/ ٨٨١) من طريق سفيان الثوري، والدارمي في «سننه» رقم (١٩٢) من طريق خالد بن عبد الله، كلاهما عن يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود بنحوه مطولاً.
قلت: وإسناده ضعيف؛ يزيد هذا ـ هو الشامي ـ ضعيف كما في «التقريب» رقم (٧٧١٧).
وقد خولف سفيان وخالد مخالفةً غير مؤثرة:
فرواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٦) من طريق محمد بن نبهان عن يزيد به مرفوعاً.
وقال عقبه: «كذا رواه محمد بن نبهان مرفوعاً، والمشهور من قول عبد الله بن مسعود موقوف».
قلت: وهو الصواب؛ ابن نبهان ضُعِّف كما في «لسان الميزان» (٥/ ٤٣٦)، فلا قيمة لمخالفته.
ورواه الدارمي في «سننه» رقم (١٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥١٤) من طريق يعلى بن عبيد عن الأعمش عن شقيق بن سلمة عن ابن مسعود به **وسنده صحيح**.
وله طريق أخرى عند عبد الرزاق في «المصنف» رقم (٢٠٧٤٢)، ومن طريقه: الخطابي في «العزلة» (ص١١١)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٥٤٩)، عن معمر عن قتادة عنه به.
قلت: وسنده ضعيف؛ قتادة لم يسمع من أحد من الصحابة غير أنس.

ويؤخذ من الحديث المنع من تتبع آثار الأنبياء والصالحين، كقبورهم ومجالسهم ومواضع صلاتهم للصلاة والدعاء عندها، فإن ذلك من البدع أنكره السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم، ولا نعلم أحداً أجازه أو فعله إلا ابن عمر على وجه غير معروف عند عبّاد القبور، وهو إرادة التشبه برسول الله ﷺ في الصلاة فيما صلى فيه ونحو ذلك، ومع ذلك فلا نعلم أحداً وافقه عليه من الصحابة، بل خالفه أبوه وغيره، لئلا يفضي ذلك إلى اتخاذها أوثاناً كما وقع، قال ابن عبد الباقي في «شرح الموطأ»: «روى أشهب عن مالك أنه كره لذلك[١] أن يدفن في المسجد»، قال: «وإذا منع من[٢] ذلك[٣] فسائر آثاره أحرى بذلك، وقد كره مالك[٤] طلب موضع شجرة بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنصارى»[٥]. اهـ.

وقال ابن وضاح: «سمعت عيسى بن يونس[٦] يقول: أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة. قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر ﷺ»[٧]، وقال المعرور بن سويد: «صليت مع عمر بن الخطاب في طريق مكة صلاة الصبح فقرأ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١﴾، ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين،

---

(١) في مطبوع «شرح الزرقاني»: «لذلك كره».
(٢) غير موجود في مطبوع «شرح الزرقاني».
(٣) بعدها في مطبوع «شرح الزرقاني»: «في قبره».
(٤) بعدها في مطبوع «شرح الزرقاني»: «وغيره».
(٥) انظر: «شرح الزرقاني على الموطأ» (١/ ٣٥١). ويعجبني ما نقله ابن وضاح في «البدع» (ص٩١ ـ ٩٢) رقم (١٠٦ ـ ١٠٨)، وابن تيمية في «الاقتضاء» (٢/ ٧٤٥)، والشاطبي في «الاعتصام» (٢/ ٢٣٧ ـ بتحقيقي): «وكان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبي ﷺ ما عدا قباء وحده».
(٦) بعدها في مطبوع «البدع»: «مفتي أهل طرسوس».
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٥)، وابن سعد (٢/ ١٠٠)، وابن وضاح في «البدع» رقم (١٠٥) من طريق ابن عون به.
وإسناده صحيح إلى نافع، رجاله ثقات، وفيه انقطاع بين نافع وعمر. انظر: «فتح الباري» (٧/ ٤٤٨)، و«الاعتصام» للشاطبي (٢/ ٢٣٧) وتعليقي عليه، والأثر الآتي.

مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فهم يصلون فيه، فقال: إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتبعون[١] آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض لا يتعمدها»[٢].

وفي «مغازي بن إسحاق» من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار: حدثنا أبو العالية قال: «لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب قرأته مثل ما أقرأ القرآن، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه، قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال[٣]، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا، إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض»[٤].

---

(١) في مطبوع «التيسير»: «يتتبعون».

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١١٨ ـ ١١٩) رقم (٢٧٣٤)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧) في «مصنفيهما»، وسعيد بن منصور ـ كما في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٤٤) ـ وابن وضاح في «البدع» رقم (١٠٣، ١٠٤)، والطحاوي في «المشكل» (١٤/ ٣٩٧) من طرق عن الأعمش عن معرور بن سويد به.

وسنده صحيح، ولفظ ابن أبي شيبة بنحو المذكور هنا، وأشار ابن حجر في «الفتح» (١/ ٥٦٩) إلى ثبوت هذه القصة، وعزاها ابن كثير في «مسند الفاروق» (١/ ١٤٢) لإسماعيل بن محمد الصفار في «مسنده»، وقال عقبه: «هذا **إسناد صحيح**».

(٣) دانيال: من سبط يهوذا، ويمتد نسبه إلى عائلة داود بن يسي، ومعنى اسمه في العبرية (الله دياني أو قاضي) عاش عصر المحنة الكبرى التي تعرض لها شعب يهوذا، وقد أسر في غزو بابل وله ذكر في بعض أسفار التوراة. انظر: «العهد القديم» (١٢٦٠)، «التراث الإسرائيلي» (٢١١)، «البداية والنهاية» (٢/ ٤٠).

(٤) ذكرها ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٤٠ ـ ٤٢)، وقال: «**إسنادها صحيح** إلى أبي العالية» وذكر لها طرقاً يظهر منها صحتها! ولابن أبي الدنيا جزء مفرد في أخباره، لا أعلم عنه شيئاً ولعله مفقود، ولكن الأيام حبالى، ولا ندري ماذا تلد؟! وصحة إسناد أبي العالية لا تنهض للجزم بنبوَّته، فالسكوت أسلم، والله أعلم.

قال ابن القيم[^(١)] ـ رحمه الله تعالى ـ: «في هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره؛ لئلا يفتتن به ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله» قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهو إنكار منهم لذلك»[^(٢)]. فمن قصد بقعة يرجو الخير [لقصدها][^(٣)]، ولم يستحب الشارع قصدها فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها أو لينسك[^(٤)] عندها (أي يذبح) بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيصها به لا نوعاً ولا عيناً؛ لأن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا بقصد[^(٥)] الدعاء فيها، كمن يدعو الله في طريقه ويتفق أن يمر في طريقه بالقبور أو كمن يزورها ويسلّم عليها ويسأل الله العافية له وللموتى، كما جاءت به السنة، فإن ذلك ونحوه لا بأس به، وأما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره، فهذا هو المنهي عنه والفرق بين النوعين ظاهر، فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب أو كنيسة أو دخل إليها ليبيت فيها مبيتاً جائزاً ودعا الله في الليل وأتى بعض أصدقائه ودعا الله في بيته لم يكن بهذا بأس، ولو تحرى الدعاء عند هذه المواضع لكان من العظائم بل قد يكون كفراً.

قوله: «**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[^(٦)]. هذه الجملة بعد الأولى تنبيه على سبب لحوق اللعن بهم، وهو توسلهم بذلك إلى أن تصير أوثاناً تعبد، ففيه إشارة إلى ما ترجم له المصنف، وفيه تحريم البناء على القبور، وتحريم الصلاة عندها، وقد روى أصحاب مالك عنه أنه كره أن يقول القائل: زرت قبر النبي ﷺ[^(٧)] وعلل وجه الكراهة بقوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[^(٦)] فكره إضافة

---

(١) في «إغاثة اللهفان» (١/٢٠٣ ـ ٢٠٤، ط. الفقي).
(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/١٩٩ ـ ٢٠٠).
(٣) في مطبوع «التيسير»: «بقصدها».
(٤) في مطبوع «التيسير»: «ليسكن».
(٥) في مطبوع «التيسير»: «لقصد».
(٦) مضى تخريجه.
(٧) انظر في كراهية هذه اللفظة: «الصارم المنكي» (٤٦، ٧٤، ٢٣٢، ٢٥٣)، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٢٤٦، ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، «مجموع الفتاوى» (١/٢٣٥ ـ ٢٣٩، ٣٥٥، و٢٧/١١٨ ـ ١٣٢، ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، «منهاج السنة النبوية» (٢/٤٢).

هذا اللفظ إلى القبر؛ لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سداً للذريعة وحسماً للباب، ذكره الطبري وفيه أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. ذكره المصنف، قال: ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ [النجم: ١٩] قال: كان يَلُتُّ لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره، [فعبدوه](١)، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يَلُتُّ سَوِيقَ الحاج(٢).

قوله: «**ولابن جرير**»: هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب «التفسير» و«التاريخ» وغيرهما، قال ابن خزيمة: لا أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير، وكان من الأئمة المجتهدين لا يقلد أحداً، وله أصحاب يتفقهون على مذهبه، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين(٣)، ومات ليومين بقيا من شوال(٤) سنة عشر وثلاثمائة.

قوله: «**كان يَلُتُّ لهم السَّويق فمات فعكفوا على قبره**»، **لتُّ السِويق**: هو خلطه بسمن ونحوه، وقد قيل: إن اسم الرجل: صرمة بن غنم، وعن ابن عباس: «كان يَلُتَّ السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه». رواه ابن أبي حاتم(٥)، وعن مجاهد: «كان اللات رجلاً في الجاهلية وكان له غنم فكان

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/٤٨)، والفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٩٧ ـ ٩٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر. وما بين المعقوفين من «تفسير ابن جرير».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٩) وهكذا فيه (سُويق الحاج) وكذا في مطبوع «التيسير» وفي الأصل: «السويق للحجاج».

(٣) في آخرها، أو في مطلع سنة ٢٢٥هـ ـ ٨٣٩م، وقد سأله القاضي ابن كامل أحد تلاميذه الذين أرخوا له: كيف وقع لك الشك في سنة مولدك؟ فقال أبو جعفر: كان أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دون السنين، فأرخ مولدي بحادث كان في البلد، فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث فاختلف المخبرون، قال بعضهم: كان ذلك في آخر سنة أربع وعشرين ومائتين. وقال آخرون: بل كان في أول سنة خمس وعشرين ومائتين. انظر: «معجم البلدان» (١/ ١٨)، و«طبقات الشافعية» (٢/ ١٣٥)، و«لسان الميزان» (٥/ ١٠٢)، وكتاب «الطبري» للحوفي (ص٣١).

(٤) لكن اختلفوا في اليوم والوقت على ثلاثة أقوال، انظر: «الإمام أبو جعفر الطبري» (٩١) لعلي الشيل.

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٥٩)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٤٨) بنحوه، وعزاه في «الدر» (٦/ ١٢٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه، وهو غير موجود في القسم المطبوع من «تفسير ابن أبي حاتم».

يحلب من رِسْلها، ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر من الناس، فلما مات عبدوه وقالوا: هو اللات»[(١)]. وكان يقرأ: اللاتَّ، مشددة[(٢)]، رواه سعيد بن منصور والفاكهي.

قوله: **«وكذا قال أبو الجوزاء»** وأثر أبي الجوزاء رواه البخاري[(٣)]، والسبب في عبادة الصالحين: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وغيرهم اليوم فإنهم غلوا فيهم وبنوا على قبورهم القباب والمشاهد، وجعلوها ملاذاً لقضاء المآرب، وبالجملة فالغلو أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى يوم القيامة، وقد أمرنا الله تعالى بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم فلا نرفعهم فوق منزلتهم ولا نحطهم منها؛ لما يعلمه تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم فإن الشرك بهم غلو فيهم، وأنزلوهم منازل الإلهية وعصوا أمرهم وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم العاكفين على قبورهم معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته، عائبين لها مشتغلين بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه.

وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما [هي][(٤)] باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم، دون عبادتهم وعبادة قبورهم والعكوف عليها، كالذين يعكفون على الأصنام واتخاذها[(٥)] مجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات، فإن من اقتفى آثارهم كان متسبباً في تكثير أجورهم باتباعه لهم ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر، فأي تعظيم[(٦)] واحترام في هذا؟

قال: وعن ابن عباس قال: **«لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها**

---

(١) أخرجه الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٩٧، ٩٨)، وابن جرير (٢٢/ ٤٧ ـ ٤٨)، وعزاه في «الدر» (٦/ ١٢٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) قرأها مجاهد وجماعة بتشديد التاء مع المدّ للسَّاكنين، انظر: «معاني القرآن» (٥/ ٧٢ ـ ٧٣) للزجاج و(٣/ ٩٧ ـ ٩٨) للفراء و«إيضاح الوقف والابتداء» (٢٩٥ ـ ٢٩٦)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، وقسم (التفسير) من «سنن سعيد بن منصور» ناقص، وليس فيه هذا الأثر، وكذا «أخبار مكة» للفاكهي.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في مطبوع «التيسير»: «هم».

(٥) بعدها في مطبوع «التيسير»: أعياداً».

(٦) بعدها في مطبوع «التيسير»: «لهم».

المساجد والسرج»(١)، رواه أهل [السنة](٢).

قوله: **«لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور»**، أي: من النساء وهذا يدل على تحريم زيارة القبور عليهن كما هو مذهب أحمد وطائفة(٣)، وقيل في تعليل ذلك: إنه يخرجها إلى الجزع والندب والنياحة والافتتان بها وبصورتها وتؤذي الميت ببكائها، كما في حديث آخر: **«فإنكن تفتن الحي وتؤذين الميت»**(٤). وإذا كانت زيارة النساء مظنة وسبباً للأمور المحرمة في حقهن وحق الرجال، وتقدير ذلك غير مضبوط؛ لأنه لا يمكن حد المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك ولا التمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشريعة أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها، فتحرم سداً للذريعة كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة لما في ذلك من الفتنة، وكما حرمت الخلوة بالأجنبية، وليس في زيارتها من المصلحة ما يعارض

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٤/ ٩٥، ٩٦)، وابن ماجه (١٥٧٥)، وأحمد (١/ ٢٢٩، ٢٨٧)، والطيالسي (٢٧٣٣)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٦ و٣/ ٣٤٤)، وابن حبان (٣١٧٩، ٣١٨٠)، والطبراني في «الكبير» (١٢٧٢٥)، والحاكم (١/ ٣٧٤)، والبغوي (٥١٠)، والبيهقي (٤/ ٧٨)، والخطيب في «تأريخ بغداد» (٨/ ٧٠، ٧١)، وإسناده ضعيف، **والحديث حسن لغيره دون ذكر السرج**.

(٢) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التيسير»: «السنن»، وهو أصوب.

(٣) انتصر للقول بالحرمة، وترجيح مذهب أحمد: فضيلة الشيخ العلامة بكر أبو زيد في «جزء في زيارة النساء للقبور»، وإليه مال المصنف بقوّة، وجزم به في فتاواه «العيون الزلالية»، خلافاً لقول آخرين، كما تراه بتطويل وتدليل في «أحكام الجنائز» (ص٢٢٩ ـ ٢٣٧)، لشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ ولينظر تحقيقنا في المسألة في التعليق على «التذكرة» للقرطبي، يسر الله نشره بمنّه وكرمه.

(٤) أخرجه الخطيب في «التاريخ» (٦/ ٢٠١) ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٠٦) من طريق أبي هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس بلفظ: **«مفتنات الأحياء، مؤذيات الأموات»**، وأبو هدبة كذاب دجال ادعى السماع من أنس بعد المائتين، قال ابن الجوزي: **«هذا حديث لا يصح**، وفيه أبو هدبة وقد أجمعوا على أنه كذاب».

وأخرجه عبد الرزاق (٣/ ٤٥٧) عن معمر عن عمر موقوفاً وسنده ضعيف، للانقطاع بين معمر وعمر، ورواه أيضاً (٣/ ٤٥٨) عن ابن عمر موقوفاً، وفيه عبد الكريم بن أبي أمية، ضعيف تركه بعضهم.

والمحفوظ في هذا الباب ما أخرجه البخاري (١٢٧٨)، ومسلم (٩٣٨) بسنديهما إلى أم عطية قالت: «نُهينا عن اتباع الجنائز ولم يُعْزَم علينا»، وله حكم الرفع، كما هو المقرر في علم المصطلح.

هذه المفسدة؛ لأنه ليس في زيارتها إلا دعاؤها[١] للميت أو اعتبارها به، وذلك ممكن في بيتها.

وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن حسان بن ثابت مرفوعاً: **«لعن الله زوّارات القبور»**[٢]. وعن أبي هريرة: **إن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور**[٣]. رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه، وضعفه عبد الحق، وحسنه ابن القطان، ولا يعارض هذا حديث: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»**[٤]. رواه مسلم وغيره؛ [لأنه][٥] إن سلم دخول النساء فيه فهو عام، والأول خاص والخاص مقدم عليه، وأيضاً ففي دخول النساء في خطاب الذكور خلاف عند الأصوليين[٦].

---

(١) في مطبوع «التيسير»: «دعواها».

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٢، ٤٤٣)، وابن ماجه (١٥٧٤)، والحاكم (١/ ٣٧٤)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٠٧١)، والطبراني في «الكبير» (٣٥٩١، ٣٥٩٢)، والبيهقي (٤/ ٧٨)، وفيه عبد الرحمن بن بهمان قال ابن المديني: «لا نعرفه» كما في «التهذيب» (٦/ ١٤٩) وقال الذهبي في «ديوان الضعفاء» (٢٤٢٥): «تابعي مجهول»، **والحديث حسن لغيره بشواهده.**

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، والترمذي (١٠٥٦)، والطيالسي (٢٣٥٨)، وأبو يعلى (٥٩٠٨٠)، وابن حبان (٣١٧٨)، والبيهقي (٤/ ٧٨) وفيه عمر بن أبي سلمة **وهو حسن الحديث في الشواهد والمتابعات**، ورواه عبد الرزاق (٣/ ٥٦٩) عن عكرمة مولى ابن عباس مرسلاً.

(٤) أخرجه مسلم (٩٧٧)، وأحمد (٢/ ٤٤١)، وابن ماجه (١٥٧٢)، والبيهقي (٤/ ٧٦) وغيرهم.

(٥) في مطبوع «التيسير»: «لأن هذا».

(٦) الراجح أن النساء يدخلن في خطاب الرجال لثلاثة أدلة:
أولاً: قول النَّبِيِّ ﷺ: **«النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»**.
أخرجه الترمذي (١١٣)، وأبو داود (٢٣٦)، وابن ماجه (٦١٢)، وأحمد (٦/ ٢٥٦)، وابن راهوية (١٧٠٦)، وأبو يعلى (٤٦٩٤) في «مسانيدهم»، وابن أبي شيبة (١/ ٧٨)، وابن الجارود في «المنتقى» (٨٩، ٩٠)، والبيهقي (١/ ١٦٨)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٨/ ٣٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، **وإسناده صحيح.**
ثانياً: إجماع أهل اللُّغة على تغليب الذكور على الإناث في الجمع؛ فَإِنِ اجتمع الذكورُ مع الإناثِ فإنَّ الرجالَ يغلبون، على حدِّ قول الشاعر:
كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ علينا ... وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ
ثالثاً: العرف الشرعي يدلُّ على ذلك، فقال عن مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]؛ فـ﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ جمعُ مُذكرٍ سالمٌ، وقال عن امرأةِ =

قوله: **«والمتخذين عليها المساجد»** تقدم في الباب قبله شرحه وتعليله، قوله: **«والسرج»** هذا دليل على تحريم اتخاذ السرج على القبور، قال أبو محمد المقدسي: «لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله؛ لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور، أشبه تعظيم الأصنام»(١)، وقال ابن القيم: «اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر»(٢).

ووجه إيراد المصنف هذا الحديث في هذا الباب دون الذي قبله هو أنه لعن المتخذين عليها المساجد والسرج، وقرن بينهما، فهما قرينان في اللعنة، فدلَّ ذلك على أنه ليس المنع من اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة، بل لأجل نجاسة الشرك، ولذلك قرن بينه وبين من أسرج عليها وليس النهي عن الإسراج لأجل النجاسة فكذلك البناء، قوله: رواه أهل [السنة](٣)، يعني هنا: أبا داود وابن ماجه والترمذي فقط، ولم يروه النسائي»(٤).

الباب التاسع

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ

= العزيز: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، ولم يقل (الخاطئات)؛ فهي داخلة في جمع الذكور، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨]، ومن بين هؤلاء حواء.

(١) انظر: «الباعث» (ص١٣٤ ـ بتحقيقي).
(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ١٩٧، ط. الفقي).
(٣) في مطبوع «التيسير»: «السنن».
(٤) انظر: «التيسير» (ص٣٣٨ ـ ٣٤٧) بتصرف، وسبق التخريج قريباً.

ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨ ـ ١٥٣]

قال (ﷺ): «يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه قبضة(1) من التراب أخذها من أثر فرس جبرائيل(2) عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار، **والخوار**: صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٨٥] وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحماً ودماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوِّت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم، ويقال إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا له(3) وافتتنوا به، وقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨].

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**حبك الشيء يعمي ويصم**»(4).

---

(1) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القبضة». (2) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جبريل».
(3) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حوله».
(4) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٠٧ و٣/ ١٧١ ـ ١٧٢)، وأبو داود (٥١٣٠)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٤٥٤، ١٤٦٨)، وفي «الأوسط» (٤٣٥٦)، والدولابي في «الكنى» (١/ ١٠١)، وعبد بن حميد (٢٠٥)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٤٧٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢١٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤١١)، وفيه أبو بكر بن أبي مريم وهو **ضعيف، وصح موقوفاً** على أبي الدرداء، أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٠٧) وعلقه (٣/ ١٧٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٢)، **وإسناده صحيح**.

وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على ما فعلوا: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وقرأ بعضهم[1]: ﴿لئن لم ترحمنا﴾ بالتاء المثناة من فوق ﴿رَبَّنَا﴾ منادى ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله ﷻ».

ثم قال (ك): «يخبر تعالى أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف، قال أبو الدرداء: الأسف أشد الغضب[2]. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ يقول: بئس ما صنعتم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[3] ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٣]، ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسقني سياقهم[4]

---

(١) قرأها هكذا بالتاء المثناة من فوق: حمزة والكسائي والشعبي وابن وثاب وعاصم الجحدري وطلحة بن مصرف والأعمش وأيوب وخلف والمفضل، ونسبت إلى ابن مسعود. انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٧٧)، «النشر» (٢/ ٢٧٢)، «حجة القراءات» (٢٩٦)، «شرح الشاطبية» (٢٠٧)، «تفسير ابن جرير» (١٠/ ٤٤٨)، «معجم القراءات» (٣/ ١٦٥).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٤٥٠) وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٨٩٩٨)، والبزار (١/ رقم ٢٠٠ ـ كشف الأستار)، وابن حبان (٦٢١٣، ٦٢١٤)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥)، وفي «الكبير» (١٢/ ١٢٤٥١)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٥٩٦)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٤٧، ١١٨٢ ـ ١١٨٤)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص٥٠٥)، والحاكم (٢/ ٣٢١، ٣٨٠، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٥٦ و٨/ ١٢)، والضياء في «المختارة» (١٠/ رقم ٧٣، ٧٦) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ـ وله تتمة سيأتي ذكرها عند المصنف فيما سينقله عن السخاوي في «المقاصد الحسنة» ـ، وهو صحيح.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مساقهم».

وتجعلني[(١)] معهم وإنما قال: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾ ليكون أرق[(٢)] وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشاد[(٣)] متصلة من قبله على كتفيه، كما قال الحسن البصري: «إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين»، وهكذا روى أيوب السختياني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل[(٤)]، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق، ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد يا رسول التوبة ونبي الرحمة[(٥)]، ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾»[(٦)].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من عبد غير الله تعالى فهو من الذين لا يعقلون، وهو من شر الدواب الذين لا يسمعون، وهؤلاء المشركون بعضهم أضل من بعض، فالذين عبدوا الأنبياء والصالحين في ضلال مبين، والذين عبدوا قبورهم أضل منهم، وأهل الهند الذين يعبدون البقرة الأنثى، وقوم موسى الذين عبدوا عجلاً من ذهب له خوار أقل ضلالاً من الذين يعبدون القبور والأشجار

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا تخلطني».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أرأف».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الرسالة».
(٤) أخرج مقولة ابن عيينة: ابن جرير (٦/ ٩٦) وأخرجها ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٧١) رقم (٩٠٠٤، ٩٠٠٥) عن أبي قلابة وابن عيينة، وانظر: «الاعتصام» (١/ ٩٧ ـ بتحقيقي).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الرحمة نبي النور».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٩٥ ـ ٣٩٨).

والأحجار؛ لأن القبور إنما هي تراب ليس فيها روح ولا حياة، فالذين يعبدونها أضعف عقلاً من الذين يعبدون البقرة التي فيها منافع، وعجل السامري له خوار.

والغلو في الأنبياء والصالحين يفضي إلى الكفر كما وقع للنصارى حين غلوا في عيسى عليه السلام، وكما وقع لقوم نوح حين غلوا في الصالحين حتى عبدوهم وعبدوا قبورهم، ثم تماثيلهم كما قال النبي ﷺ: «**أولئك قوم إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**»[1]. وقد تقدم ذلك مبسوطاً.

فصل

استدل بهذا السلف على ضلال من ينكر كلام الله تعالى من المعتزلة الذين يقولون إن كلام الله مخلوق، ومتأخري الأشعرية الذين يزعمون أن كلام الله معنى قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا بالعربية ولا بالعجمية، وليس فيه تقديم ولا تأخير، ويزعمون أن القرآن ليس كلام الله، وإنما هو دال على مدلول كلام الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وإنما يسمعه هذا المشرك من لسان النبي ﷺ بحرف وصوت، والعجز عن التكلم نقص، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩] فالذي لا يستطيع الكلام ولا يملك الضر والنفع لا يعبد ولا يكون إلهاً.

فصل

قول (ك): «وهذا دلالة على ما جاء في الحديث: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[2]». نص الحديث على ما ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» عن أبي هريرة وأنس مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**» ونسب حديث أنس إلى الطبراني في «الأوسط»، وحديث أبي هريرة إلى الخطيب، ثم ذكر حديثاً آخر عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**» أن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤) من حديث عائشة.

(٢) سبق تخريجه.

صنعوا ألقى الألواح فانكسرت، أخرجه أحمد والطبراني في «الأوسط» والحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس وعلّم عليه السيوطي بعلامة الحسن.

قال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: «**ليس الخبر كالمعاينة**» أخرجه أحمد وابن منيع والطبراني والعسكري من حديث أبي بشر جعفر بن أبي وحشية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، بزيادة: «إن الله قال لموسى: إن قومك فعلوا كذا وكذا فلما عاين ألقى الألواح». وفي لفظ: «إن موسى أخبر أن قومه قد ضلوا من بعده، فلم يلق الألواح، فلما رأى ما أحدثوا ألقى الألواح». وقد صحح هذا الحديث ابن حبان والحاكم وغيرهما، وأورده الدارقطني في «الأفراد» من طريق ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن جابر، وقال: إنه باطل لا يصح عن عمرو ولا عن ابن عيينة»[1].اهـ.

قال محمد تقي الدين: تضمن هذا الحديث أمرين:

أحدهما: عام، وهو أن العلم الحاصل بالأخبار لا يبلغ درجة العلم الحاصل بالمعاينة، وفي هذا تفصيل، فإن كان المخبر ممن يجوز عليه الوهم أو الخطأ أو الكذب فالأمر واضح، وإن كان ممن لا يجوز عليه ذلك كالأنبياء ثم العدول الثقات فهما متساويان.

الأمر الثاني: ادعاء أن موسى حين أخبره الله بأن قومه قد اتخذوا العجل أنها من بعد غيبته عنهم لم يحصل له من العلم مثل ما حصل له برؤيتهم؛ فيه نظر، وقد أشار (ك) إلى ذلك بقوله: «ظاهر السياق أنه ألقى الألواح غضباً على قومه»، يعني لا أنه كان في شك ثم تيقن لما رآهم كذلك، ولا يمكن أن يشك موسى، بل ولا الصالحون من المؤمنين فيما أخبر الله به أبداً، هذا ما ظهر لي، والله أعلم.

---

(١) انظر: «المقاصد الحسنة» (ص٣٥١ ـ ٣٥٢) بتصرف، وحديث ابن عباس **صحيح**، تقدم تخريجه. وحديث أنس عند ابن عدي (١/ ٢٠٣ و٦/ ٢٢٩٣)، والديلمي (٥٢١٦، ٥٢١٨)، والخطيب (٣/ ٢٠٠، ٣٥٩ ـ ٣٦٠)، والضياء في «المختارة» (١٨٢٧، ١٨٢٨) وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٥٣): وعزاه لـ «أوسط الطبراني»: «ورجاله ثقات»، وعن أبي هريرة عند الخطيب (٨/ ٢٨)، وعن ابن عمر عند ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٤٩٣)، وعن جابر عند الدارقطني في «الأفراد» (٢/ ٣٥٨ رقم ١٩٥٣ ـ «أطراف الغرائب»)، ومنه تعلم ما في قول ابن عبد البر في «التمهيد» (٤/ ٣٣٤) عن الحديث: «رواه ابن عباس عن النبي ﷺ، ولم يروه غيره، والله أعلم»!

الباب العاشر

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] وفي «الصحيحين»(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة»** وفي رواية: **«على هذه الملة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تولد البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»**.

وفي «صحيح مسلم»(٢) عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم»**. وروى أحمد والنسائي و(ج)(٣) عن الأسود بن سريع قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية، فقال رجل: يا رسول الله بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال: **«ما بال أقوام يتناولون الذرية»**. فقال رجل: يا رسول الله أليسوا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) ضمن حديث طويل.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥ و٤/ ٢٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٤٤٥)، والنسائي في «الكبرى» (٨٦١٦)، والدارمي (٢/ ١٢٣)، وعبد الرزاق (٢٠٠٩٠)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٨٦)، والطحاوي في «المشكل» (١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٦٠، ١١٦٢)، وأبو يعلى (٩٤٢)، وابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ١٥٣٥٣)، والطبراني (٨٢٦ ـ ٨٣٥)، وفي «الأوسط» (٢٠٠٥)، وابن حبان (١/ رقم ١٣٢)، والحاكم (٢/ ١٢٣)، والبيهقي (٩/ ١٣٠)، والحازمي في «الاعتبار» (ص٢١٣)، وإسناده منقطع، **والحديث صحيح بشواهده**، وبعضها تقدم، وانظر: «نصب الراية» (١/ ٩٠) و«الإنجاد في أبواب الجهاد» لابن المناصف (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥ و٢٧٣ ـ ٢٧٤) وتعليقي عليه.

أبناء المشركين؟ فقال: «**إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها**». قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾».

ثم قال (ك): «وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال[1] بأن الله ربهم، وأخرج (خ) و(م)[2] عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي**». وروى (حم، ن، ج)[3]، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كلَّ ذرِّية ذرأها فنشرها بين يديه، ثم كلمهم قُبُلاً قال:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾».

قال (ك): «وأخرجه الحاكم في «المستدرك»[4] وقال: صحيح[5] على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ثم ذكر اختلاف الرواة في وقفه ورفعه ثم رجح وقفه، وبعد أن ساق (ك) أحاديث كثيرة بعضها مرفوع وبعضها موقوف بمعنى حديث ابن عباس المتقدم الذكر، قال ما نصه: «والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أي: حالهم شاهد عليهم

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وفي بعضها الاستشهاد عليهم».

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٢٧)، والبخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (١/٢٧٢)، والنسائي في «التفسير» من «الكبرى» (٦/١١١٩١)، وابن جرير في «تفسيره» (١٣/١٥٣٣٨)، والحاكم (١/٢٧، ٢٨ و٢/٥٤٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٢٠٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٣٢٦، ٣٢٧)، **ورجح ابن كثير وقفه على ابن عباس**، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٤/١٦٢٣).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مستدركه».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإسناد».

بذلك لا أنهم قائلون[١] ذلك، وكذا[٢] قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات: ٧].

كما أن السؤال تارة يكون بالمقال[٣] وتارة يكون بالحال كقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال؛ لكان كل[٤] أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أن الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية»[٥].

الباب الحادي عشر

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾ [الأعراف: ١٨٨ ـ ١٩٢]

قال (ك): «أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قائلوا».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكذلك».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالقال».
(٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣٣ ـ ٤٣٦، ٤٤٧ ـ ٤٤٨) بتصرف.

يعلم الغيب المستقبل[١] ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧] الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ قال الضحاك: عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: من المال، وفي رواية: لعلمت إذ اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه[٢] ولا يصيبني الفقر[٣]، وقال (ج): وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت[٤] الغلاء من الرخص فاستعددتُ له من الرخص. وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته»[٥]. اهـ.

قال محمد تقي الدين عفا الله عنه: هؤلاء الأئمة الفحول قد فسروا هذه الآية بكلام عام ولم يضربوا لذلك مثلاً بالجزئيات، مع كثرتها في سيرة النبي ﷺ وأنا أذكر هنا ما يحضرني منها:

الأول: قصة القراء السبعين[٦] الذين بعثهم رسول الله ﷺ مع قبائل المشركين الذين ادعوا الإسلام وطلبوا من النبي ﷺ أن يبعث إليهم معلمين يعلمونهم الإسلام، فاختار النبي ﷺ سبعين من خيرة أصحابه، كلهم يحفظ القرآن فأخذوهم إلى أهلهم وقتلوهم كلهم إلا واحداً تركوه ليبلغ الخبر، وهذه مكيدة عظيمة وحبالة خبيثة، نصبها أعداء الإسلام للنبي ﷺ فحزن النبي ﷺ على قتلهم حزناً عظيماً، والقصة في كتب الحديث مشهورة، فلو كان النبي ﷺ يعلم الغيب ما بعثهم معهم.

الثاني: قصة الحديبية[٧] فإن النبي ﷺ بعد ما رأى في المنام ـ «ورؤيا

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وما مسني السوء، قال:».
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٢٩)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٩) لأبي الشيخ، **وإسناده منقطع**.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولعرفت».
(٥) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦١٦)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٦) لأبي الشيخ، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩) بتصرف.
(٦) أخرجه البخاري (١٠٠٢)، ومسلم (٦٧٧) من حديث أنس.
(٧) أخرجه البخاري (١٦٩٤، ١٨١١، ٢٧١١، ٢٧١٢، ١٧٣١، ١٧٣٢، ٤١٥٨، ٤١٧٨، =

الأنبياء حق»[١] ـ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ـ أي بعضهم حلق، وبعضهم قصر ـ، عرض على أصحابه التوجه إلى مكة للعمرة، فلما وصل إلى الحديبية ـ وهي مكان قريب من وادي فاطمة ـ خرج له أهل مكة متأهبين للقتال ومنعوه من دخول مكة، فرجع هو وأصحابه دون أن يدخلوا مكة، فلو كان النبي ﷺ يعلم أنهم سيمنعونه ما توجه إلى مكة، ولكن العاقبة كانت خيراً، فإن صلح الحديبية حصل به من انتشار الإسلام ما لم يحصل بالحرب.

الثالث: قصة الإفك[٢]، لو أن النبي ﷺ كان يعلم أن عائشة لم تكن في الهودج حين حمله الرجال الأربعة ووضعوه على بعيرها، لأمرهم بالانتظار إلى أن تجيء، وقد حصل بسبب قصة الإفك غم وحزن للنبي ﷺ، وعقاب لأهل الشرك وشر كبير، وأشد ذلك ما وقع لعائشة نفسها من الحزن والمرض ولأبويها، وهي الطاهرة المطهرة التي نزلت براءتها من السماء وهلك فيها من هلك.

الرابع: إن النبي ﷺ لما كان راجعاً من غزوة خيبر منتصراً وقد أردف صفية ﵂ خلفه عثر بعيره فسقط وسقطت صفية على الأرض[٣]، فلو كان يعلم الغيب لأناخ البعير ونزل قبل أن يعثر.

الخامس: مما يدل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، قوله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع حين أمر من لم يسق الهدي من أصحابه أن يفسخ حجه

= ٤١٧٩، ٤١٨٠، ٤١٨١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، وسيأتيك في التعليق على (٣/ ٧٨ ـ ٨٠) تحليل قوي لهذه الحادثة، قارنه بكلام المصنف هنا.

(١) أخرجه البخاري (١٣٨) من حديث ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٥٠) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٠٨٦) بسنده إلى أنس بن مالك ﵁: أنه أقبل هو وأبو طلحة مع النبي ﷺ، ومع النبي ﷺ صفية مردفها على راحلته، فلما كانوا ببعض الطريق عثرت الناقة، فصرع النبي ﷺ والمرأة، وإن أبا طلحة ـ قال: أحسب قال: ـ اقتحم عن بعيره فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله جعلني الله فداءك، هل أصابك من شيء؟ قال: «**لا ولكن عليك بالمرأة**». فألقى أبو طلحة ثوبه على وجهه فقصد قصدها، فألقى ثوبه عليها، فقامت المرأة، فشد لهما على راحلتهما فركبا، فساروا حتى إذا كانوا بظهر المدينة، أو قال: أشرفوا على المدينة، قال النبي ﷺ: «**آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون**». فلم يزل يقولها، حتى دخل المدينة.

ويجعله عمرة[١]، فلما شق عليهم ذلك قال: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما سقت الهدي**».

السادس: إن النبي ﷺ لما توجه إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة، ما كان يعلم أن أمير الطائف سيقابله بالتكذيب ويرد عليه بأقبح رد، وإن سفهاء أهل الطائف سيقعدون له سماطين، ويرمونه بالحجارة حتى يسيل الدم من رجليه الشريفتين، وأنه سيحتاج في الرجوع إلى مكة إلى من يجيره من أهلها؛ لأنهم سيغضبون عليه حين يذهب لدعوة أعدائهم، فاضطر إلى أن يبعث مولاه زيد بن حارثة إلى المُطعِم بن عدي أحد سادات مكة ليدخل في جواره، أي حمايته، وحصل له غم عظيم عند رجوعه من الطائف، فدعا بالدعاء المشهور: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليّ غضبك أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[٢].

ومن تتبع سيرة النبي ﷺ وجد الشيء الكثير من ذلك، فالعجب من المشركين في هذا الزمن الذين يزعمون أن النبي ﷺ يعلم الغيب ويتصرف في السمٰوات والأرض وهو موجود في كل مكان[٣]، ثم هم مع ذلك يخالفون سنته،

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٨٨)، ومسلم (١٢١١) من حديث عائشة ﵂، والبخاري (١٦٩١)، ومسلم (١٢٢٧) من حديث ابن عمر ﵄.

(٢) أخرج هذه القصة ابن إسحاق (١/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢) بسند رجاله ثقات عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً، وقوله: «**اللهم إليك أشكو...**» إلخ الدعاء ذكره بدون سند. وكذلك رواه ابن جرير (١/ ٨٠ ـ ٨١) من طريق ابن إسحاق وروى هذه القصة الطبراني في «الكبير» من حديث عبد الله بن جعفر مختصراً وفيه الدعاء المذكور بنحوه، قال الهيثمي (٦/ ٣٥): «وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات» **فالحديث ضعيف**، أفاده شيخنا الألباني. انظر: «فقه السيرة» (ص١٣٢).
وانظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ٣٤٥، ط. دار المعارف)، و«كنز العمال» (٢/ ١٧٥، ط. الرسالة).

(٣) لبعض المبتدعة رسالة مطبوعة في مكتبتي بعنوان «أبدع ما كان في إثبات أن محمداً ﷺ لا يخلو من زمان ولا مكان»! اللهم احفظ علينا عقولنا وديننا.

ويحكمون بخلاف شريعته، ويزعمون أن هذه المحبة الشركية الكاذبة تغنيهم عن الاتباع، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وإذا كان النبي ﷺ لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه نفعاً لا ضراً، فكيف يستطيع قضاء حاجات هؤلاء الغربان الناعبين في كل حين إذا قاموا قالوا: يا رسول الله، وإذا قصدوا قالوا: يا رسول الله، وإذا فزعوا قالوا: يا رسول الله، والله تعالى يقول في سورة المائدة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير؛ أي نذير للكافرين من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

ثم قال (ﷺ): «ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم ﷺ وأنه خلق منه زوجته[١] حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ﴾ [النساء: ١] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ﴾ أي: ليألفها كقوله[٢] تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ﴾ [الروم: ٢١] فلا ألفة بين اثنين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجته[٣].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك[٤] الحمل لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة، وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله[٥] فشكت أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا﴾ أي: بشراً

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «زوجه».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويسكن بها؛ كما قال».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وزوجه».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أول».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال العوفي عن ابن عباس: استمرت به».

سـويـاً، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾»(١).

ذكر (ك) في تفسير هذه الآية حديثاً رواه أحمد والترمذي وابن جرير وغيرهم من طريق الحسن عن سمرة مرفوعاً عن النبي ﷺ، قال: «**لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمِّيه عبد الحارث، فإنه يعيش فسمته عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**»(٢). حسنه

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠) بتصرف.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٧)، وأحمد (٥/ ١١)، والروياني (٢/ ٨١٦)، والبزار في (الكتانية/ ٢٥٤) في «مسانيدهم»، وابن جرير في «التاريخ» (١/ ١٤٨)، وفي «تفسيره» (١٣/ ١٥٥١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٨٦٣٧، ٨٦٤١)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٦٨٩٥)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٠٠)، والحاكم (٢/ ٥٤٥) من طريق عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة رفعه.

قال الترمذي: «حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه».

وأخرجه ابن عدي (٣/ ١٢٩٨) من طريق سليمان الشاذكوني: ثنا غندر عن شعبة عن قتادة به. والشاذكوني متهم، فهذا الطريق عدم، ولذا قال ابن عدي عنه: «هذا من حديث شعبة عن قتادة منكر، لا أعرفه إلا من حديث الشاذكوني عن غندر عنه، وإنما يروي هذا الحديث عن قتادة عمر بن إبراهيم».

وقال عقب الموطن الأول: «وهذا لا أعلم يرويه عن قتادة غير عمر بن إبراهيم».

ورواية عمر عن قتادة فيها ضعف واضطراب، وهاء التفصيل: عمر بن إبراهيم العبدي وثقه أحمد وغيره، ولكنه قال: «يروي عن قتادة أحاديث مناكير، يخالف». انظر: «الضعفاء الكبير» للعقيلي (٣/ ١٤٦) رقم (١١٣٠)، و«تهذيب الكمال» (٢١/ ٢٧٠). وقال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٦/ ٩٨): «يكتب حديثه ولا يحتج به». وقال ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٠٠ ـ ١٧٠١): «يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها، وحديثه خاصة عن قتادة مضطرب». وذكره ابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤٤٦) وقال: «يخطئ، ويخالف». ثم ذكره في «الضعفاء» (٢/ ٨٩) فقال: «كان ممن ينفرد عن قتادة بما لا يشبه حديثه؛ فلا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد، فأما فيما وافق الثقات؛ فإن اعتبر به معتبر لم أر بذلك بأساً». وقال الدارقطني: «لين، يترك»، كما في «سؤالات البرقاني» رقم (٣٤٩).

قال ابن كثير في «قصص الأنبياء» (ص٧١، ط. دار بغداد) بعد أن أورد كلام الترمذي عليه: «فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي وهذا أشبه. والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات، وهكذا روي موقوفاً على ابن عباس. والظاهر أن هذا متلقى =

. . . .

= عن كعب الأحبار وذويه، والله أعلم.
وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره، والله أعلم.
وأيضاً؛ فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء فيكونا أصل البشر، وليبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً؟!
والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي ﷺ خطأ، والصواب وقفه، والله أعلم، وقد حررنا هذا في كتابنا «التفسير»، ولله الحمد.
ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا، فإن آدم أبو البشر الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته».
وقد أعلّ في «التفسير» (٣/ ٥٢٩، ط. الشعب) هذه القصة من ثلاثة وجوه:
الأول: أن عمر بن إبراهيم لا يحتج به.
الثاني: أنها قد رويت من قول سمرة نفسه غير مرفوعة.
أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٣/رقم ١٥٥١٤، ١٥٥١٥)، وعبد بن حميد، وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٣) ـ.
الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية، بغير هذه القصة، وساق ما أخرجه ابن جرير (١٣/ ٣١٤ ـ ٣١٥) رقم (١٥٥٢٦، ١٥٥٢٧، ١٥٥٢٨) عنه: «كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم»، وقوله: «عنى بهذا ذرية آدم، من أشرك منهم بعده»، وقوله: «هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوَّدوا ونصَّروا».
وأخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ أيضاً بنحوه ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٧) ـ.
وقال ابن كثير: «وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رحمه الله أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، لا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم».
وساق جملة من الآثار عن ابن عباس وأُبيّ بن كعب، وأفاد أن جماعة من التابعين ـ كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومن الطبقة الثانية: قتادة والسدي ـ تلقوه عن ابن عباس، قال: «وكأنه ـ والله أعلم ـ أصله مأخوذ من أهل الكتاب»، ثم ساق بعض الآثار، وقال: «وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب».
ثم قال: «أما نحن؛ فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته». وعلق عليه شيخنا محمد نسيب الرفاعي ـ رحمه الله تعالى ـ في اختصاره لـ«تفسير ابن كثير» المسمى «تيسير العلي القدير» (٢/ ٢٦٢) ـ وهو من أحسن المختصرات ـ بقوله: «ونحن نؤيد هذا القول لأن آدم =

....

= نبيٌّ معصوم، ويستحيل أن يشرك بالله».
قلت: ونحن نقول بما قالوا ـ رحمهم الله ـ، ولا سيما أن المرفوع في ذلك لا يثبت كما قدمناه، والله الموفق.
وارتضى كلام ابن كثير جماعة من العلماء، فنقلوه ونصروه، قال الشنقيطي في «أضواء البيان» (٢/ ٣٤١): «وقد جاء بنحو هذا حديث مرفوع، وهو معلول، كما أوضحه ابن كثير في «تفسيره»» وقال رشيد رضا في «المنار» (٩/ ٥٢١) بعد كلام:
«وأما الإشكال الذي أشرنا إليه فهو ما روي عن بعض الصحابة والتابعين، وفي حديث مرفوع أيضاً من أن الآية في آدم وحواء»، ثم ذكر الحديث السابق وفيه القصة المذكورة وقال: «وهو على كثرة مخرجيه غريب وضعيف كما سيأتي، وقد جاءت الآثار في هذا المعنى مفصلة ومطولة وفيها زيادات خرافية، تشهد عليها بأنها من الدسائس الإسرائيلية، وهذه الآثار يعدها بعض العلماء من قبيل الأحاديث المرفوعة لأنها لا تقال بالرأي، والذي نعتقده وجرينا عليه في التفسير أن كل ما هو منها مظنة للإسرائيليات المتلقاة عن مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه فهي لا يوثق بها، فإن كانت مع ذلك مشتملة على ما ينكره الدين أو العلم الصحيح قطعنا ببطلانها وكونها دسيسة إسرائيلية، ومنها ما نحن فيه لأن فيه طعناً صريحاً في آدم وحواء ﷺ ورمياً لهما بالشرك، ولذلك رفضها بعض المفسرين وتكلف آخرون في تأويلها بما تنكره اللغة، وقد اعتمد بعض المتأخرين؛ كصاحب «فتح البيان» وصاحب «روح المعاني» الأخذ بحديث سمرة دون آثار الصحابة والتابعين التي فيها ما ليس فيه من رمي آدم بالشرك الصريح، وظنا أنه حجة ووصفاه تبعاً للترمذي والحاكم بالحسن وبالصحيح، وما هو بحسن ولا صحيح، على أنه لم يرد تفسيراً للآية كتلك الآثار.
وذهب بعض المفسرين ـ كالبيضاوي في «أنوار التنزيل» (١/ ٣٧١) ـ إلى أن الخطاب في الآية لقريش وأن المراد فيها بالنفس الواحدة قصي جدهم، وأن المراد جعل زوجها منها أنها قرشية أو عربية؛ لما روي أنها من خزاعة لا من قريش، وأن المراد بشركهما: تسمية أبنائهما الأربعة عبد مناف، وعبد شمس، وعبد العزى، وعبد الدار ـ يعني دار الندوة ـ وفيه نظر من وجوه ذكرها بعض المفسرين لا نضيع الوقت بذكرها، وإنما الذي يصح أن يذكر ويبين بطلانه؛ فهو الروايات التي انخدع بها ولا يزال ينخدع بها الكثيرون، وعمدتنا في تمحيصها وبيان عللها الحافظ ابن كثير، فقد قال في تفسيره ما نصه...» ونقل كلامه.
وقد أحسن أبو حيان في «البحر المحيط» (٤/ ٤٤٠) لما قال: «من جعل الآية في آدم وحواء جعل الضمائر والأخبار لهما، وذكروا في ذلك محاورات جرت بين إبليس وآدم وحواء لم تثبت في قرآن ولا حديث صحيح، فأطرحتُ ذكرها».
ذكر بعض المحققين المحررين من المفسرين وجوهاً في فساد التأويل المذكور في القصة للآيات، وهي قوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ =

= [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]، ونستطيع أن نجمل هذه الوجوه بالأمور الآتية(١):

أحدها: قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ فدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة.

وثانيها: قال بعده: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١]، وهذا يدل على أن المقصود من الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، ولم يجر لإبليس اللعين في هذه الآية ذكر.

وثالثها: لو كان المراد إبليس لقال: أيشركون من لا يخلق؛ لأن العاقل إنما يُذْكَر بصيغة (من).

ورابعها: إن آدم ﷺ كان من أشد الناس معرفة بإبليس، وكان عالماً بجميع الأسماء كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]؛ فلا بد وأن يكون قد علم أن اسم إبليس هو الحارث، فمع العداوة الشديدة التي بينهما ومع علمه بأن اسم إبليس الحارث كيف يسمي ولده بعبد الحارث؟! وكيف ضاقت عليه الأسماء بحيث لم يجد سوى هذا الاسم؟!

وخامسها: أن أحدنا لو حصل له ولد فجاءه إنسان ودعاه إلى أن يسمي ولده بهذا الاسم لزجره وأنكر عليه أشد الإنكار، فآدم ﷺ مع نبوته وعلمه الكثير الذي حصل من قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وتجاربه الكثيرة التي حصلت له بسبب الزلة لأجل وسوسة إبليس، كيف لم يتنبه لهذا القدر المنكر؟!

وسادسها: إن بتقدير أن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سماه بعبد الحارث؛ فلا يخلو إما أن يقال: إنه جعل هذا اللفظ اسم علم له أو جعله صفة له، بمعنى أنه أخبر بهذا اللفظ أنه عبد الحارث، فإن كان الأول لم يكن هذا شركاً لأن أسماء الأعلام والألقاب لا تفيد في المسميات فائدة، فلا يلزم من هذه التسمية حصول الإشراك، وإن كان الثاني كان هذا قولاً بأن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ اعتقد أن لله شريكاً في الخلق والإيجاد، وذلك يوجب الجزم بكفر آدم، وذلك لا يقوله عاقل؛ فثبت فساد هذا القول.

*** بين ابن تيمية وصلاح الدين الصفدي فيما يخص هذه القصة:**

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في كتاب «الغيث المسجم» (٢/ ٢٤ ـ ٢٥): «سألت الشيخ الإمام العلامة تقي الدين أحمد بن تيمية ﷺ سنة سبع مئة وثمانية عشر أو سنة =

---

(١) انظرها في: «تفسير الرازي» (١٥/ ٧٠ ـ ٧١)، و«اللباب في علم الكتاب» (٩/ ٤١٩).

وحاول الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ١٠٩) ـ وتبعه البقاعي في «نظم الدرر» (٨/ ١٩١) والشهاب في «حاشيته على تفسير البيضاوي» (٤/ ٤١٨) ـ رد هذه القصة، فأخرج الآيات عن سياقها بتقدير مضاف، فقال: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: «آتى أولادهما». وتعقبه أبو حيان في «البحر المحيط» (٤/ ٤٤٠) بقوله: «وفي كلامه تفكيك للكلام عن سياقه»، وتعقبه أيضاً ابن المنير بنحو هذا؛ فانظر كلامه.

= سبع مئة وسبعة عشر بدمشق المحروسة عن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩٠]؛ فأجاب بما قاله المفسرون في الجواب، وهو آدم وحواء، وأن حواء لما أثقلت بالحمل أتاها إبليس في صورة رجل، وقال: أخاف من هذا الذي في بطنك أن يخرج من دبرك أو يشق بطنك، وما يدريك لعله يكون بهيمة أو كلباً. فلم تزل في همٍّ حتى أتاها ثانياً وقال: سألت الله أن يجعله بشراً سوياً، وإن كان كذلك؛ فسميه «عبد الحارث»، وكان اسم إبليس في الملائكة «الحارث». فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ فقلت له: هذا فاسد من وجوه:

الأول: إنه تعالى قال في الآية الثانية: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ فهذا دليل على أن القصة في حق جماعة.

الثاني: إنه ليس لإبليس في الكلام ذكر.

الثالث: إن الله ـ تعالى ـ علم آدم الأسماء كلها، فلا بد وأنه كان يعلم أن الحارث اسمٌ لإبليس.

الرابع: إنه تعالى قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١]، وهذا يدل على أن المراد به الأصنام؛ لأن «ما» لما لا يعقل، ولو كان إبليس لقال: «من» هي التي لمن يعقل.

فقال الشيخ تقي الدين: «قد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بهذا قصي لأنه سمى أولاده الأربعة: عبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد الدار، والضمير في يشركون له ولأعقابه الذين يسمون أولادهم بهذه الأسماء وأمثالها. قلت: وهذا أيضاً فاسد لأنه ـ تعالى ـ قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وليس كذلك إلا آدم؛ لأن الله ـ تعالى ـ خلق حواء من ضلعه.

فقال [أي ابن تيمية]: المراد بهذا أن زوجته من جنسه قرشية عربية؛ فما رأيت التطويل معه»اهـ.

وأشار الصفدي إلى هذه المناظرة في كتابه «أعيان العصر» (١/ ٢٣٨) في ترجمة ابن تيمية بقوله: «وأول ما اجتمعتُ أنا به كان في سنة ثماني عشرة أو سبع عشرة، وهو بمدرسته في القصَّاعين بدمشق المحروسة، وسألته مسألةً مشكلة في التفسير (يريد ما قدمه آنفاً)، ومسألة مشكلة في الإعراب، ومسألة مشكلة في الممكن والواجب، وقد ذكرتُ ذلك في ترجمته في «تاريخي الكبير» (٧/ ٢٠ وما بعد)، ثم اجتمعتُ به بعد ذلك مرات، وحضرتُ دروسه في الحنبلية، فكنتُ أرى منه عجباً من عجائب البر والبحر، ونوعاً فرداً وشكلاً غريباً».

والممعن فيما دار بين ابن تيمية والصفدي يجد أن كلام الصفدي وجيه، ولا يخرج عن الوجوه التي قدَّمناها، والله الموفق، لا ربَّ سواه.

ومال ابن جرير إلى إثبات هذه القصة، فقال بعد كلام طويل (١٣/ ٣١٥، ط. شاكر): «وأولى =

= القولين بالصواب قول من قال: ـ عنى بقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ ـ في الاسم لا في العبادة، وأن المعنى بذلك آدم وحواء لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك».

ولم يوافقه على هذا محققا «تفسيره» الشيخان الإمامان الجليلان محمود وأحمد شاكر، فقالا ـ رحمهما الله ـ: «سترى أن أبا جعفر قد رجح أن المعنيَّ بذلك آدم وحواء، قال: «لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك»، وإجماع أهل التأويل في مثل هذا مما لا يقوم: **الأول**: لأن الآية مشكلة، ففيها نسبة الشرك إلى آدم الذي اصطفاه ربه، بنص كتاب الله، وقد أراد أبو جعفر أن يخرج من ذلك؛ فزعم أن القول عن آدم وحواء انقضى عند قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ ثم استأنف قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني عما يشرك به مشركو العرب من عبدة الأوثان، وهذا مخرج ضعيف جداً[1].

الثاني: إن مثل هذا المشكل في أمر آدم وحواء ونسبة الشرك إليهما مما لا يقضى به إلا بحجة يجب التسليم لها من نص كتاب، أو خبر عن رسول الله ﷺ، ولا خبر بذلك، إلا هذا الخبر الضعيف الذي بينا ضعفه، وأنه من رواية عمر بن إبراهيم، عن قتادة، وروايته عن قتادة مضطربة، خالف فيها ما روى عن الحسن أنه عنى بالآية بعض أهل الملل والمشركون.

هذا وقد رد هذا القول جماعة من المفسرين؛ كابن كثير في «تفسيره» ـ وسبق كلامه بحروفه، وأومأ إليه المصنف ـ، والفخر الرازي (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٥)، وحاول الزمخشري في «تفسيره» (٢/ ١٠٩) أن يرده فلم يحسن، وتعقبه أحمد بن محمد بن المنير في «الانتصاف» ـ وسيأتي كلامه قريباً ـ وغير هؤلاء كثير.

ولكن بعد هذا كله نجد أن تفسير ألفاظ الآية ومطابقته للمعنى الصحيح الذي ذهب العلماء إليه في نفي الشرك عن أبينا آدم عليه السلام وفي أن الآية لا تعني أبانا آدم وأمنا حواء بقي مبهماً، لم يتناوله أحد ببيان صحيح، وكنت أحب أن يتيسر لي بيانه في هذا الموضع، ولكني وجدت الأمر أعسر من أن أتكلم فيه في مثل هذا التعليق» انتهى كلامهما.

قلت: بيَّنه أبو حيان في «البحر المحيط» (٤/ ٤٤٠)، وابن المنيّر في «الانتصاف» (٢/ ١٠٩) ـ والكلام له[2] ـ بأن «المراد جنسي الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين، وكأن المعنى ـ والله أعلم ـ خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن، فلما تغشَّى الجنس ـ الذي هو الذكر ـ الجنس الآخر ـ الذي هو الأنثى ـ جرى من هذين الجنسين كيت وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس، وإن كان فيهم الموحِّدون؛ =

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٧): «وهذا تحكم لا يساعده اللفظ».

(٢) اقتصر السيد رشيد رضا في تفسيره «المنار» (٩/ ٥٢٠) عليه، وارتضاه الشنقيطي في «أضواء البيان» (٢/ ٣٤١) وقال: «واختار هذا الوجه غير واحد لدلالة القرآن عليه».
وانظر لنصرته: «التفسير المنير» (٩/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣، ٢٠٧)، ويذكر الرافضة مناظرة بين الرضا والمأمون تؤيده.
انظر: «عيون أخبار الرضا» (١/ ١٧٥)، و«البرهان في تفسير القرآن» (٣/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦)، و«تفسير الصافي» (٢/ ٢٥٩)، واستبعده الشهاب في «عناية القاضي» (٤/ ٤٢٠)!!

= لأن المشركين منهم كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: ٦٦]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ٢]».

وأخيراً... لا بد من بيان أن من معاني قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ـ على هذا التفسير ـ الشرك الجلي والشرك الخفي الذي نراه اليوم بكثرة من جنسي بني آدم (الذكر والأنثى) عند الحمل والولادة، ولا قوة إلا بالله.

فمثال الشرك الخفي في إنعام الله عليهم بالنسل ما يسندونه إلى الأسباب في سلامة الحامل من الأمراض في أثناء الحمل أو في حالة الوضع، وفي سلامة الطفل عند الوضع وعقبه وفيما بعد ذلك من الموت أو التشويه أو الأمراض؛ كقولهم: لولا أن فعلنا كذا لكان كذا، ولولا فلان أو فلانة من طبيب أو مرشد أو قابلة لهلك الولد أو لأجهضت أمه إجهاضاً، أو جاءت بسقط لم يستهل، أو لمات عقب إسقاطه لعدم استعداده للحياة، وينسون في هذه الأحوال فضل الله ـ تعالى ـ عليهم بما منَّ به من العافية والتوفيق، وتسخير الأسباب من البشر وغيرهم، وإن كانوا ممن يذكرونها ولا ينكرونها إذا ذكِّروا بها، ذلك شأن كثير من الناس في كل نعمة تمسهم، أو نقمة يدفعها الله ـ تعالى ـ عنهم، وهذا الشرك ليس خروجاً من الملة، ولكنه نقص في شكر المنعم، ويحتمل أن يكون المراد بالشرك هنا ترجيح حب الأولاد على حب الله ـ تعالى ـ وشغلهم للوالدين عن ذكره وشكره، وإيثارهم لهم على طاعته والتزام ما شرعه من أحكام الحلال والحرام، وهو كسابقه نقص في التوحيد لا نقض له، وغفلة عنه لا جحد به.

ومثال الشرك الجلي إسناد هذه النعم إلى غيره ـ تعالى ـ ممن يدعونهم من دونه أو معه من الأولياء والقديسين، أو الأنبياء والمرسلين، أو ما يذكر بهم أو بمثلهم من القبور أو الأصنام والتماثيل، يقولون: لولا سيدي فلان ولولا مولانا علان لما كان كذا مما نحب، أو لكان كذا وكذا مما نكره، يعتقدون أن لهم فيما كان من نفع ومنع ضرر تأثيراً غيبياً يستقلون به هو فوق تأثير الأسباب. انظر: «تفسير المنار» (٩/ ٥١٩ ـ ٥٢٠).

*** الخلاصة: إن القصة المذكورة يأباها سياق الآيات، وتنكرها العقول، فإن البراهين الساطعة التي لا يصح فيها الاحتمال، ولا يتطرق إليها المجاز والاتساع، قد دلت على عصمة الأنبياء ﷺ؛ فلا يجوز عليهم الشرك[1] والمعاصي وطاعة الشيطان، فلو لم نعلم تأويل الآية لعلمنا على الجملة أن هذه القصة منكرة؛ فكيف وقد طعن فيها أهل الصنعة الحديثية؟!**

---

(١) حتى بالتسمية الذي اختاره ابن جرير والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٨٦) وأقره العز بن عبد السلام في «اختصاره» له (١/ ٥١٧).
وذكر بعضهم أن شرك آدم وحواء كان «شرك طاعة وليس شرك عبادة»، وعزي إلى ابن عباس، ولم يصح عنه! انظر: «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٦)، و«فتح المجيد» (٤٤١، ط. الصميعي)، و«تفسير القمي» (١/ ٢٧٩)، و«تفسير الصافي» (٢/ ٢٥٩).

الترمذي، واستغربه وأعله (ﷺ) بثلاث علل وضعفه بها وهو الحق، وهناك علة رابعة وهي أن يقال: كيف تقع حواء، وهي زوجة نبي في الشرك الأكبر ولا يعلم ذلك زوجها؟ أو يعلمه ولا يمنعها؟ ومن العلل الثلاث، أن الحسن الذي هو راوي الحديث فسر الحديث بخلاف ما دل عليه الحديث، وهو أن الشرك وقع من ذرية آدم وحواء لأمتهما، وهو الصحيح.

ثم ذكر (ﷺ) آثاراً عن ابن عباس[١] حاصلها أن آدم وحواء كانا يلدان أولاداً يُعبّدانهم لله تعالى، أي: يسميانهم عبد الله وعبد الرحمن وعبد العزيز، فكانوا يموتون، فجاءهما إبليس وزيّن لهما أن يسميا من يولد لهما عبد الحارث، أي: عبد إبليس، فسمياه بذلك فعاش، وهذا من أعظم الكذب الذي اختلقه أهل الكتاب، فرواه عنهم بعض الرواة لغفلتهم، وإلا كيف يعقل أن عالماً من العلماء المحققين يسمي ابنه عبد الحارث، أي: عبد إبليس؟ فكيف بصحابي؟ وكيف بنبيٍّ؟ أما أهل الكتاب فيجيزون على الأنبياء الكبائر والكفر، فلا عبرة برواياتهم وأنبياء الله منزَّهون ومعصومون من الكفر والذنوب.

ثم قال (ﷺ) في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾: «هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام[٢] وهي مخلوقة مربوبة، مصنوعة لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك، ولا تسمع، ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾[٣] ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣ ـ ٧٤].

أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير الطعام[٤] وطارت لما استطاعوا إنقاذه[٥] منها، فمن

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/٤٨٣ ـ ٤٨٤).
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأوثان».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المطاعم».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «استنقاذ ذلك».

هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى[(١)]: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لعابديهم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يعني ولا أنفسهم[(٢)] ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٩٣] وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨].

وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومها بذلك، ويرتأوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيداً في قومه ـ صنم يعبده ويطيّبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو بن الجَمُوح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيّبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر ثم يعودان لمثله[(٣)] ويعود إلى صنيعته أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه بكلب[(٤)] ميت، ودلّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل ثم أسلم، فحسن إسلامه[(٥)]، وقتل يوم أحد شهيداً، رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه»[(٦)].

فصل

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «وهي جماد لا تسمع ولا تبصر»، ولا

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ثم قال تعالى».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لأنفسهم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لمثل ذلك».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقرنّا معه جرو كلب».

(٥) أخرج هذه القصة ابن إسحاق في «المغازي» ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٧٤، ٤٧٥)، و«الإصابة» لابن حجر (٧/ ٩٤، ٩٥) ـ ومن طريقه الزجاجي في «أخباره» (ص٢٣٤)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/ ٢٠٧، ٢٠٨) **وإسنادها معضل.**

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٨٥ ـ ٤٨٧).

شك أن المشركين في كل زمان ومكان يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار والأبنية والقباب والمياه والنيران، ويزعمون أن وراءها أرواحاً للملائكة والأولياء والصالحين والجن والشياطين تتلبس بها وتقضي حاجة من طاف بها وعكف عندها، وكل أولئك عاجزون، من يعقل منهم ومن لا يعقل، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨] إلخ، أما التعبيد للمخلوقين، فإنه واقع عند المشركين من أهل هذا الزمان، فإن الشيعة يسمون عبد علي، وعبد الزهراء، وكلب علي، وعبد الحسن، وعبد الحسين، وعبد الأمير، وعبد السادة، ومن يزعمون أنه من أهل السنة وهم أهل شرك وبدعة، ويسمون عبد الرسول، وعبد النبي، طاعة لإبليس وإرضاء له ومعصية لله تعالى وإسخاطاً له، فنعوذ بالله من الخذلان.

الباب الثاني عشر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤ ـ ١٩٨]

قال (ك): «ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم، بل الناس[1] أكمل [منها][2]؛ لأنها تسمع، وتبصر، وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك، وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الآية، أي: استنصروا بها عليَّ، فلا تؤخّروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم: ﴿إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي: الله حسبي، [وكافيّ][3]، وهو نصيري، وعليه متّكلي، وإليه ألجأ،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأناسي».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «منهم».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وكافيني».

وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥] وكقول الخليل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٨] الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]»[1].

فصل

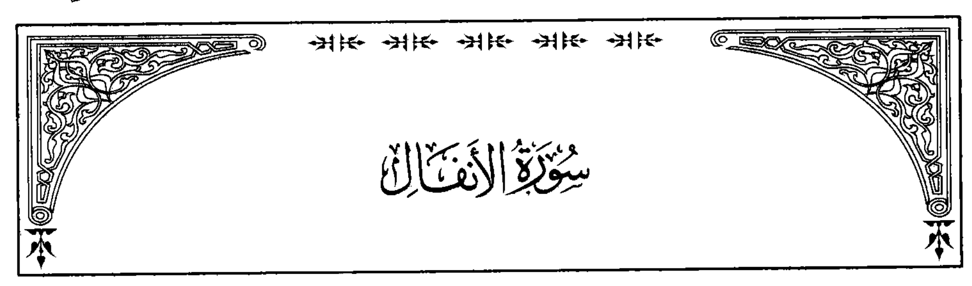
قال محمد تقي الدين: قول (ك): «أنها عبيد مثل عابديها» اعلم أنهم لا يعبدون التماثيل والقباب والأشجار والأحجار لذاتها، وإنما يعبدونها لما يزعمون فيها من [البركات][2] التي تجعلها أفضل منهم، والتي بسببها تقضى الحاجات، وتنفرج الكربات بزعمهم، ولذلك تراهم إذا جاء السيل وجرف قبة يعودون إلى بنائها من جديد ويعبدونها، ولا يقولون في أنفسهم: لو كانت هذه القبة تملك نفعاً أو ضراً، أو كان صاحبها الذي تنسب إليه يملك نفعاً أو ضراً لحفظ قبته، فإذا عجز عن حفظها من السيل فهو عن حفظ العابدين أعجز، ولكن المشركين لا يعقلون.

وقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ﴾ تشنيع على عبّاد الأصنام والأوثان؛ لأن الأصنام وإن كانت لها أرجل وأيد وأعين وآذان إلا أنها لا تمشي، ولا تبطش، ولا تبصر، ولا تسمع، أما الأوثان كالقباب والأحجار فليس لها أرجل ولا أيد ولا أعين ولا آذان، ولكن عبّادها يزعمون أن الأرواح المتلبسة بها تسمع وتبصر وتعلم الغيب وتضر وتنفع، ويسألونها قضاء الحاجات، فإن قضيت نسبوا قضاءها إليها، وإن لم تقض، نسبوا التقصير إلى أنفسهم لا إلى أوثانهم، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٨٧).

(٢) سقطت من الأصل، والسياق يقتضيها.



سورة الأنفال

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

[الأنفال: ٩ ـ ١٠]

روى (**حم، م، د، ت، ج**) «عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً**».
قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾**﴾.

فلما كان يومئذٍ التقوا فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب؟**»، قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم

وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء.

فلما كان من الغد، قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر، وهما يبكيان، فقلت: ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ قال النبي ﷺ: «**للذي**[1] **عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة**»، لشجرة قريبة من النبي ﷺ، وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٩] فأحل لهم الغنائم فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون رجلاً، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]»[2].

وقال البخاري[3] في كتاب المغازي: باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ عن عبد الله بن مسعود قال: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره». يعني: قوله»[4].

قال محمد تقي الدين: المراد بذكر هذه الآية أن الاستغاثة في الشدائد لا تكون إلا بالله، ومن استغاث بغير الله فقد كفر؛ لأن الله تعالى أخبرنا أن النبي ﷺ وأصحابه في غزوة بدر حين اشتد بهم الكرب وتكاثرت عليهم الأعداء، استغاثوا كلهم بالله، استغاث النبي ﷺ واستغاث الصحابة بالله، ولم يستغث الصحابة بالنبي

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الذي».
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠)، ومسلم (١٧٦٣)، وأبو داود (٢٦٩٠)، والترمذي (٣٠٨١)، وابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ١٥٧٣٤) وغيرهم.
(٣) في «صحيحه» (٣٩٥٢).
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٤ ـ ٢٦) بتصرف.

ويستغيث النبي ﷺ بالله، كما يفعل المشركون في هذا الزمان، وهذا من أعظم البراهين على ضلال هؤلاء المشركين، لو كانوا يعقلون، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] فهذا كتاب الله وهذه سنة رسول الله الصحيحة الصريحة، فأين تذهبون، توبوا إلى الله، ووحّدوا ربكم، وارجعوا إلى الحق إن كنتم مؤمنين.

لعمري لقد نَبَّهتُ مَنْ كان نائماً وأسمعتُ مَنْ كانتْ له أُذُنانِ(١)

ثم قال (ﷺ): «وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، الآية، أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم [﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي:](٢) بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾»(٣). اهـ.

قال محمد تقي الدين: وهذا محل الشاهد أن النصر لا يأتي إلا من الله، ولا ينبغي للمؤمن أن يطلبه إلا من الله، فإن طلبه من غيره خاب وخسر، ولم يظفر به أبداً، ولهذا ترى المشركين في هذا الزمان يتعلقون بالأوربيين ويطلبون منهم السلاح، ويتعلمون استعماله منهم، ويظنون أن ذلك كل شيء، ولم ينفعهم ذلك شيئاً، ولن ينصروا أبداً، إلا إذا رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وحكّموا شريعة الله، وقد مضت عليهم مئات السنين وهم يجربون طريقهم العقيم، فما حصدوا إلا الخيبة والخسران، ولو جربوا طريق الحق سنة واحدة لطلع عليهم فجر السعادة، وذهب نحسهم وظهر سعدهم ﴿وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الباب الثاني

قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٩ ـ ٤٠]

(١) البيت في «العين» للخليل بن أحمد (٤/ ٦٠) غير منسوب. وظفرتُ به في «الأغاني» (١٥/ ٧٩، ط. دار إحياء التراث العربي) ضمن أبيات قالها صخر بن عمرو يخاطب بها امرأته سَلْمى، وفيه «نبَّهتِ» و«أسمعتِ».

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٨).

قال (ك): «عن نافع عن ابن عمر أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: «إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم علي دم أخي المسلم، قالوا: أولم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾؟ قال: «قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله»[(١)]، ثم روى عن أسامة بن زيد أنه قال: «لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله، أبداً. فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله، أبداً، فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾؟ فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله»[(٢)]، رواه ابن مردويه، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾؛ يعني: لا يكون شرك[(٣)]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وقتادة والحسن والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾: «حتى لا يفتن مسلم في دينه». وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال: يخلص التوحيد لله[(٤)].

وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله ليس فيه شرك ويخلع ما دونه من الأنداد، ويشهد لهذا ما ثبت في «الصحيحين»[(٥)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ﷻ**». وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٣، ٤٦٥١) بنحوه، وله طرق وألفاظ. انظر: «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٨٧ ـ ١٨٨)، «الإنجاد» (٢/ ٦٦١) لابن المناصف وتعليقنا عليه.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٦٤)، وابن حبان في «الثقات» (٢/ ٢٧١) بنحوه، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ق ٦٤٢ ـ مختصراً).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠١) من طريق الضحاك عن ابن عباس، **وهو منقطع**، ولكنه عند ابن جرير (١١/ ١٧٩) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٨٢) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو في «صحيفته» (رقم ٥٤٢).

(٤) انظر: «الإنجاد» لابن المناصف (٢/ ٦٦١ ـ ٦٦٢ ـ بتحقيقي).

(٥) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا[١] وإن لم تعلموا بواطنهم. وفي «الصحيح»[٢] أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال: لا إله إلا الله، فضربه فقتله فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: «**أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟**» فقال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً، قال: «**شققت عن قلبه؟**» وجعل يقول ويكرر عليه: «**من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة**». فقال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذٍ»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: اعلم ـ وفقني الله وإياك لمعرفة الحق والتمسك به ـ أن لا إله إلا الله لا تنفع أحداً إلا إذا قالها وهو عالم بمعناها وعامل بمقتضاها، ولعلك لم تنس حديث أبي واقد الليثي الذي قال فيه النبي ﷺ: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى**: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]»[٤]. وقد تقدم الكلام على ذلك مستوفى في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وأطلت الكلام فيه، فمن يقول: لا إله إلا الله، وينادي بأعلى صوته: يا رسول الله أغثني، يا علي، يا فلان يا فلان، فإذا قلت له: وحِّد الله بدعائك، صاح عليك: أنت وهابي، تبغض النبي وتبغض الأولياء، فهل هذا وأمثالهم تنفعهم لا إله إلا الله، كلا والله.

فصل

اعلم أيضاً أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كعبد الله بن عمر رضي الله عنهما لم يروا القتال مع علي ولا مع عثمان اجتهاداً منهم، والصواب الذي لا شك فيه ما ذهب جمهور الصحابة من قتال البغاة الخارجين على أئمة الحق، لقول الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] الآية، فقتال

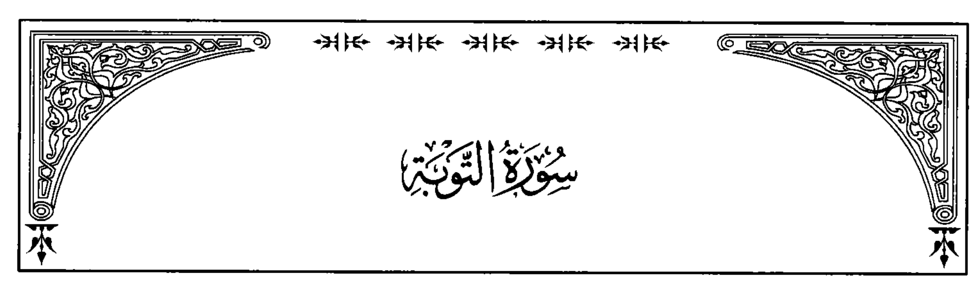
(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنهم».
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٧٦ ـ ٧٨) بتصرف.
(٤) سبق تخريجه.

الخارجين على عثمان والخارجين على علي هو الحق بلا شك، لهذه الآية ولقول رسول الله ﷺ: **«ويح عمار تقتله الفئة الباغية»**[١]، وكان عمار يقاتل مع علي فقتله جيش معاوية، وقال النبي ﷺ: **«إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»**[٢] والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧) من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري.



سُورَةُ التَّوْبَةِ

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
(١) فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ
مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢) وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ
أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
(٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ
يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
(٤) فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟
ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾ [التوبة: ١ ـ ٥]

قال (ك) بعد أن ذكر أن عثمان ﷺ لم يكتب في أول التوبة بسم الله الرحمن الرحيم، لظنه أنها والأنفال سورة واحدة(١): «وأول هذه السورة الكريمة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ١٢٠)، وأحمد (١/ ٥٧، ٦٩)، وأبو داود (٧٨٦، ٧٨٧)، والترمذي (٣٠٨٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٠٧)، وابن أبي داود في «المصاحف» (٣٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٤٧٧، ٤٧٨)، وابن حبان (٤٣)، والحاكم (٢/ ٢٢١، ٣٣٠)، والبيهقي (٢/ ٤٢ و٧/ ١٥٢)، **وإسناده ضعيف**، مداره على يزيد الفارسي، وهو ضعيف. وانظر «ضعيف سنن أبي داود» (٩/ ٣٠٦ ـ ٣٠٩، ط. دار غراس).

وعزاه في «الدر المنثور» (٧/ ٢٢٢) لابن الأنباري في «المصاحف» وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

نزل[1] على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وهمَّ بالحج ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك[2] السنة؛ ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس [﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾][3] فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ، لكونه عصبة له كما سيأتي بيانه، فقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: هذه[4] براءة، أي: تبرّؤ[5] من الله ورسوله:

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كبيراً[6] فقال قائلون: هذه الآية لذي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ الآية. ولما سيأتي في الحديث، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته، وهذا أحسن الأقوال وأقواها وقد اختاره (ج)[7] قال ابن عباس: «حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيث شاؤوا وأَجّل[8] من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ[9] المحرم، فذلك خمسون ليلة»[10] [قال الضحاك][11]: «فأمر الله نبيه إذا انسلخ

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «منزّل».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «هذا».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «برئوا».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذه».
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «برئوا».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كثيراً».
(٧) انظر: «تفسير ابن جرير» (١١/ ٣١١).
(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أجَلَ»: وعند ابن جرير: «وحَدَّ أجل».
(٩) في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»: «انسلاخ».
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/١٧٤٦، ١٧٥١، ١٧٥٢) الأرقام (٩٢١٨، ٩٢٥٠، ٩٢٥٥)، وابن جرير (١١/٣٠٦)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٠). وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٥٥٦)، وأورده مختصراً النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص١٦١).
(١١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً، حتى يدخلوا في الإسلام»[١].

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وتقدم، وإنذار إلى الناس: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك [وأظهرها وأكبرها][٢]، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: بريء منهم أيضاً، ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ بل هو قادر عليكم، وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

قال البخاري[٣] رحمه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر، يؤذن بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن[٤] بالبيت عريان» قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذّن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

ثم ذكر (ك) هذا الحديث من رواية أبي هريرة، أيضاً في «صحيح البخاري»[٥] في (كتاب الجهاد)[٦] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾، «هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق، ليس

---

(١) أخرجه ابن جرير (١١/٣٠٧)، وابن أبي حاتم (٦/١٧٥٢)، وعلقه على إثر رقم (٩٢٠)، وانظر: «تفسير الضحاك» (١/٣٩٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أطهرها وأكثرها جمعاً».

(٣) في «صحيحه» (٤٦٥٥).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يطوف».

(٥) برقم (٤٣٦٣).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٣٦ ـ ١٣٩).

بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى المدة المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ، فعهده إلى مدته، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده، فلا[1] يظاهر على المسلمين أحداً؛ أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفي له بذمته وعهده إلى مدته، ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، اختلف المفسرون في الأشهر[2] الحرام[3] فذهب (ج) إلى أنها [الأربعة][4] المذكورة، في قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [إلا أن المحرم هو آخرها في حقهم][5]. قال (ك): «وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق: ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وآخرون[6]: أن المراد بها أشهر [السيح][7] الأربعة المنصوص عليها بقوله[8]: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر. ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة، سيأتي بيان

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولم».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في المراد بالأشهر».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الحرم هاهنا ما هي».
(٤) غير موجود في المطبوع من «تفسير ابن كثير».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قاله أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم»، وانظر: «تفسير ابن جرير» (١١/ ٣١٨).
(٦) خرجت ذلك في تعليقي على «الإنجاد» (١/ ٣٨)، وانظر: «تفسير مجاهد» (١/ ٢٧٢) وأثره عند ابن جرير (٦/ ٧٩)، وابن أبي حاتم (٦/رقم ٩٢٢٠)، وعزاه في «الدر» (٤/ ١٢٢، ١٣١) لأبي الشيخ وابن أبي شيبة، وابن المنذر. وممن قال بهذا قتادة وابن زيد والضحاك والسدي. انظر ـ عدا «تفسيري ابن جرير وابن أبي حاتم» ـ «تفسير السدي الكبير» (ص٢٨٧، ٢٩٢)، و«تفسير الضحاك» (١/ ٣٩٧).
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التسيير».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في قوله».

حكمها في آية أخرى بعد، في هذه السورة الكريمة، وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم، بقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: وأسروهم، إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً، وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي: الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي: أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة.

وقد جاء في «الصحيحين»(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة»**، الحديث، وقال أبو إسحاق: عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال(٢): «أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له»(٣). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «أبى الله أن يقبل الصلاة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سقطت من الأصل، وأثبتها من مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢/٤) (رقم ٩٩١٤، ط. الرشد)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٢٧) رقم (١٠٠٩٥) من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: . . . فذكره، **وإسناده ضعيف** فيه إسماعيل بن عمرو البجلي.
قال شيخنا الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (ص٣٥):
«قلت: وهذا إسناد ضعيف من أجل البجلي هذا أورده الذهبي في «الضعفاء» وقال: «ضعفه غير واحد».
قلت: لكنه لم يتفرد به، فقد قال عبد الله بن أحمد في «كتاب السنة» (ص٩٨): حدثني =

إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه»». ثم قال (ﷺ): «وهذه الآية الكريمة هي آية السيف، التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: «أنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عقد[1] وكل مدة»[2]. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية [الكريمة][3]: «لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة»[4]، وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من

= أبي حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق به بلفظ:
«من أقام الصلاة، ولم يؤد الزكاة فلا صلاة له».
وهذا رجاله ثقات رجال مسلم غير أن أبا إسحاق وهو عمرو بن عبد الله السبيعي كان اختلط، ثم هو مدلس وقد عنعنه. ولم يتنبه المنذري لذلك فقال في «الترغيب» (١/ ٢٦٩): «رواه الطبراني في «الكبير» موقوفاً هكذا بأسانيد أحدها صحيح»! وتبعه الهيثمي فقال (٣/ ٦٢):
«رواه الطبراني في «الكبير»، وله إسناد صحيح».
فإذا كانا يعنيان هذا الإسناد الذي فيه أبو إسحاق كما أرجح، فلا وجه لتصحيحه، وإن كانا يريدان غيره، فما هو، وأنا لم أر له في «المعجم» إسناداً آخر، ولكن النسخة مخرومة والله أعلم».
وصح عنه: **«من لم يصل فلا دين له»** و**«من ترك الصلاة فلا دين له»** أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٧) وفي «الإيمان» رقم (٤٧)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٧٧٢)، وفي «مسائله لأبيه» (٣٩٣)، والخلال في «السنة» (رقم ١٣٨٧)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢١٥) رقم (٨٩٤١، ٨٩٤٢)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (٩٣٥ ـ ٩٣٨) بأسانيد بعضها **حسن**.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عهد».

(٢) المشهور عنه أن قوله تعالى: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] ناسخة لعموم قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وبيّنتُ ذلك مفصلاً في تعليقي على «الإنجاد» لابن المناصف (٢/ ٢٦٠)، فانظره غير مأمور، وانظر: «مصنف عبد الرزاق» (٩٤٠٥)، و«تفسير ابن جرير» (٢٦/ ٤١)، و«الإيضاح» (ص٣٠٩) لمكي، و«الناسخ والمنسوخ» (ص٣٥) لابن البارزي، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٠١ ـ ٩٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٦/ ٤١٢)، و«الكشاف» (٢/ ١٧٥)، و«تفسير الضحاك» (٢/ ٧٦١).

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٦/ ٤١)، وابن الجوزي في «الناسخ والمنسوخ» (ص٢٨) عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ...﴾ إلى آخر الآية. قال: الفداء منسوخ، نسختها ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ...﴾ إلى ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. قال: فلم يبق لأحدٍ من المشركين عهد ولا حرمة بعد براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم. =

المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر، من يوم أذَّن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: تبرأ الله ﷻ ورسوله ﷺ من المشركين بقوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨] وقال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] فوجب على كل مؤمن أن يتبرأ من المشركين في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

= **وإسناده مظلم، فهو مسلسل بالمجاهيل.**

وعزاه السيوطي في «الدر» (٧/ ٤٥٧) إلى ابن مردويه في «تفسيره».

وأخرج أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (ص٢٠٩) رقم (٣٩٢)، وفي كتاب «الأموال» (ص١٧٠) رقم (٣٤٢)، والطبري في «التفسير» (١٤/ ٥٩) رقم (١٦٢٨٦، ط. شاكر)، وأبو جعفر النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص١٩٠، ٢٥٩)، وابن المنذر في «الأوسط» (١١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾. قال: ذلك يوم بدر، والمسلمون يومئذٍ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم، أنزل الله ﷻ بعد هذا في الأسارى ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فجعل الله ﷻ النبي ﷺ والمؤمنين في الأسارى بالخيار: إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا فادوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم. شكَّ أبو عبيد في «استعبدوهم».

قلت: علي بن أبي طلحة. قال العلائي في «جامع التحصيل» (ص٢٤٠) رقم (٥٤٢): «قال دُحيم: لم يسمع التفسير من ابن عباس، وقال أبو حاتم: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل». وقال أبو زرعة العراقي في «تحفة التحصيل» (ص٢٣٤): «قلت: قال الفسوي: روى عن ابن عباس الناسخ والمنسوخ، ولم يره».

قلت: لعليٍّ بن أبي طلحة صحيفة رواها عن ابن عباس، فلعله أخذ هذا عن ابن عباس من الصحيفة؛ فيصح الأثر، والله الموفق، وانظر: «الإيضاح» (ص٣٠١) لمكي.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٤٧ ـ ١٥٠) بتصرف.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: ٦ ـ ١١]

قال (ك): «يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [أي][(١)]: الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي: (القرآن) تقرؤه عليه، وتذكر له شيئاً من [أمر][(٢)] الدين، تقيم به عليه[(٣)] حجة الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان، حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء، ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده، وقال ابن أبي نجيح: عن مجاهد في تفسير هذه الآية، قال: «إنسان يأتيك يسمع ما تقول، وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه[(٤)] كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء»:

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه[(٥)] يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد،

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليه به». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيسمع».
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «جاء»!

يترددون في القضية[١] بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك[٢]، كان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: **«أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟** قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ **«لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك»**[٣]. وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر[٤] فضربت عنقه[٥]، لا رحمه الله ولعنه.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام، في أداء رسالة، أو تجارة، أو طلب صلح، أو مهادنة، أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي أماناً، ما دام متردّداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك، فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة، قولان عن الإمام الشافعي[٦] وغيره من العلماء رحمهم الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية، يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قضية».

(٢) انظر القصة مفصلة في: «صحيح البخاري» (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٧)، وأبو داود (٢٧٦١)، والطحاوي في «المشكل» (٢٨٦٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٠٩)، والحاكم (٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣ و٣/ ٥٢)، والبيهقي (٩/ ٢١١)، وفي «الدلائل» (٥/ ٢٣٢) من حديث نُعيم بن مسعود الأشجعي، **وهو صحيح بطرقه وشواهده.**

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «به».

(٥) بنحوه في «مسند الطيالسي» (٢٥١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٣٢)، «البداية والنهاية» (٧/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠/ ط هجر).

(٦) انظر: «الأم» (٤/ ٢٠١)، و«الأوسط» لابن المنذر (١١/ ٣٣٣)، و«الإنجاد في أبواب الجهاد» (٢/ ٣٣١ ـ بتحقيقي).

أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي: أمان، ويتركون فيما هم فيه، وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله، ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥] الآية، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه، وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد، ومالؤوا حلفاءهم وهم(١) بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان، سنة ثمان، ففتح الله البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة، فأطلق(٢) منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وَفَرَّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء، ومنهم (صفوان بن أمية)، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ الآية، يقول الله تعالى تحريضاً(٣) للمؤمنين على معاداتهم والتبرؤ منهم، ومبيناً أنهم لا يستأهلون(٤) أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلّاً ولا ذمة، وقال ابن عباس وغيره: «الإل: (القرابة) والذمة: (العهد)»، قال تميم بن مقبل:

أفسَدَ الناسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا قَطَعوا الإلَّ وأعرَاقَ الرَّحِم(٥)

وقال حسان بن ثابت(٦) رضي الله عنه:

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من أسلم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «محرضاً».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يستحقون». (٥) البيت في «تفسير الطبري» (١١/٣٥٨).
(٦) هكذا نسبه ابن كثير إلى حسان بن ثابت ولم نجده في «ديوانه» المطبوع والبيت في «تفسير =

وَجَدْنَاهُمُ كَاذِباً إِلَّهُمْ وذو الإلِّ والعهدِ لا يَكْذِبُ[(١)]

وقيل: الإل هو الله، ومنه جبرائيل، وميكائيل، وما أشبه ذلك، والتفسير الأول أحسن. ﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ الآية، يقول تعالى ذماً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم: ﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ يعني: إنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَلَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخرها تقدمت، وروى البزار بسنده عن أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: **«من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به وأقام الصلاة وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راضٍ»** وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هَرْج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿فَإِن تَابُواْ﴾[(٢)] فإن خلعوا الأوثان وعبادتها: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[(٣)].

= الطبري» غير منسوب (١١/ ٣٥٨ ـ ٣٥٦) و(الإل) ذكر في شعر حسان. في بيت آخر هو في «ديوانه» (ص٣٣٦) وفي «لسان العرب» مادة (ألل).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٥١ ـ ١٥٣).

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقول».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٧٠) ـ مختصراً إلى قوله: **«والله عنه راض»** ـ وكذلك أخرجه ابن جرير (١٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦) رقم (١٦٤٧٥ ـ بتحقيق شاكر).

وأخرجه بتمامه: البزار في «البحر الزخار» (١٣/ ١٣٢) رقم (٦٥٢٤)، والحاكم (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢) ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (١، ٢١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٥٦).

وقال الحاكم: «صحيح» وتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: صدر الحديث مرفوع وسائره مدرج فيما أرى» وكذا عند ابن الملقن في «مختصر استدراك الذهبي» (٢/ ٨٠٦) رقم (٣١١) **وإسناده ضعيف**، فيه أبو جعفر الرازي، صدوق سيئ الحفظ وفي روايته عن الربيع بن أنس اضطراب ووقع التصريح في الرواية الثانية عند ابن نصر أنه من كلام أنس! وهكذا قال الحافظ ابن كثير فيما مضى.

وعزاه في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٣) للبزار وأبي يعلى ـ وليس هو في رواية ابن حمدان المطبوعة، وإنما في رواية ابن المقرئ المطولة التي يكثر الضياء في إيراد طرقها المقبولة ـ وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

ثم قال البزار[١]: «آخر الحديث عندي والله أعلم: «**فارقها وهو عنه راضٍ**»، وباقيه عندي من كلام الربيع بن أنس»»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: من زعم من المعتزلة والخوارج أن القرآن ليس كلام الله، وإنما هو خلق من خلقه فقد كفر بهذه الآية؛ لأن السامع إنما يسمعه من قراءة النبي ﷺ، والكلام ينسب لقائله الأصلي، وهو الله تعالى، والعجز عن الكلام نقص في حق المخلوق، فكيف بالخالق؟ وكذلك الأشعرية المتأخرون الذين يزعمون أن كلام الله ليس بحرف ولا صوت، ولا بعربية ولا عجمية، وأنه صفة نفسية، وينكرون أن القرآن كلام الله، فهذه الآية حجة عليهم، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] والمسلمون إذا كانوا مسلمين حقاً ومتخلقين بالقرآن وبسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام محكمين شريعة الله، محافظين على حدود الله، متى دخل بلادهم مشرك اعترته هيبة منهم، وامتلأ قلبه تعظيماً للإسلام وأهله، وانجذب إليهم، فإما أن يدخل في دين الله ويسعد به، وإما أن تقوم عليه حجة الله، أما إذا دخل بلادهم ووجدهم متخلقين بمساوئ الأخلاق، منهمكين في الموبقات، لا يتبعون القرآن ولا الرسول، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فإنه يزداد عداوة للإسلام وبعداً عنه وعن أهله.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٧ ـ ١٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ[٣]: «**مسجد الله**» فأراد به

(١) في «البحر الزخار» (١٣/ ١٣٢). (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٥٤).

(٣) هذه قراءة أبي عمرو ويعقوب والجحدري وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وابن محيصن واليزيدي وعبد الوارث وخارجة وحسين وحماد بن أبي سلمة عن ابن كثير، =

المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بُني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسَّسه خليل الرحمٰن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، ولو سألت اليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئ؟ لقال: صابئ، والمشرك؟ لقال: مشرك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بشركهم؛ ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فشهد الله بالإيمان لعمّار المساجد كما قال الإمام أحمد[1] بسنده عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان**»، ورواه الترمذي والحاكم في «المستدرك» به[2].

وقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله [تعالى]، ولم يخش سواه، ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا

= وعزيت لابن عباس، انظر: «حجة القراءات» (٣١٦)، «السبعة» (٣١٣)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٠)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٣٥٦)، «إعراب القراءات السبع وعللها» (١/ ٢٣٦)، «روح المعاني» (١٠/ ٦٤)، «البحر المحيط» (٥/ ١٨).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٦٨)، والترمذي (٢٦١٧، ٣٠٩٣)، والدارمي (١/ ٢٧٨)، وابن خزيمة (١٥٠٢)، وابن حبان (١٧٢١)، وابن عدي (٣/ ٩٨١)، والحاكم (١/ ٢١٢ ـ ٢١٣ و٢/ ٣٣٢)، وأبو نعيم (٨/ ٣٢٧)، والبيهقي (٣/ ٦٦) وفيه دراج عن أبي الهيثم، **وهو ضعيف في روايته عنه خاصة**، وانظر: «الضعيفة» رقم (١٦٨٢).

(٢) لا معنى لها هكذا، وسببه حذف المصنف للأسانيد، فأورد ابن كثير في «تفسيره» سند أحمد من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد. . . . وسرده، وقال عقبه:
«ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في «مستدركه» من حديث عبد الله بن وهب به» فكان المذكور نتيجة للحذف، ومثله يقع كثيراً لشيخنا محمد نسيب الرفاعي رحمه الله في اختصاره لـ «تفسير ابن كثير» المسمى «تيسير العلي القدير»، على وجه فيه مؤاخذات ظاهرة، تنبئ عن عدم اشتغالهم التطبيقي في تخريج الحديث، والله هو العاصم والواقي.

﴿يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ يقول: من وحَّد الله وآمن باليوم الآخر، يقول من آمن بما أنزل الله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني الصلوات الخمس: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقول: لم يعبد إلا الله، ثم قال: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ يقول تعالى: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[(١)] [الإسراء: ٧٩] وهي الشفاعة وكل عسى في القرآن فهي واجبة»[(٢)]، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ اللهُ: وعسى من الله حق»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآية دليل على أن كل مسجد بني لله تعالى لا يجوز لمشرك أن يدخله ولا أن يتعبد فيه بعبادته الشركية التي يقول فيها: يا رسول الله أعطني، ويستغيث بالمخلوقين، وكذلك المبتدع الذي يعمرها بالمكاء والتصدية، وهو الخوار الذي يفعله أصحاب الطرائق كخوار البقر[(٤)]، أصوات قبيحة لا معنى لها في أي لغة، ويسمون ذلك زوراً وبهتاناً ذكر الله، ومعاذ الله أن يكون ذلك ذكر الله؛ لأن ذكر الله معلوم في كتب السنة، مطابق لفعل الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، وصدق من سمى ذلك مكاء وتصدية وتشبهاً بأهل الجاهلية، فهل فعله رسول الله ﷺ أو الصحابة أو التابعون أو الأئمة المجتهدون؟ حشاهم من ذلك، وما أحسن قول شاعر مصلح:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاؤك إذ غنّى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ... ولا ارتعاش كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحقَّ والقرآنَ والدِّينا
وأن تُرى خاشعاً لله مكتئباً ... على ذُنوبك طول الدَّهر محزونا

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً».
(٢) أخرجه ابن جرير (١١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٦٦) وعزاه في «الدر» (٣/ ٢١٦) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٥٦٠).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٥٨، ١٦٠).
(٤) يعجبني كلام للإمام القرطبي، ذكر في «تفسيره» (٧/ ٣٦٦) في أوائل سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، قال: «فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام، والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير».

وقال آخر[١]:

يا عصبة ما ضرَّ أمة أحمد   وسعى على إفسادها إلّا هيْ
طارٌ ومزمارٌ ونغمةُ شادنٍ   أرأيتَ قطُّ عبادةً بملاهِ

وكذلك المبتدعة الذين يجلسون حلقة في المسجد، ويذكرون الله بذكر مشروع، ولكنهم يذكرونه بلسان واحد أو بمقدَّم يؤمُّهم في ذلك الذكر، وهم يقتدون به، فقد روى ابن وضاح في كتاب «البدع» ـ ونقله الشاطبي في «الاعتصام»[٢] ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه بلغه أن ناساً يجتمعون في مسجد الكوفة حلقة وبين أيديهم الحصى، فيقول أحدهم: سبحوا مائة فيسبحون، ثم يقول: هللوا مائة فيهللون، ثم يقول: كبروا مائة فيكبرون، فلبس البرنس وانطلق حتى جلس إليهم ورأى بعينه صنيعهم، فقال: «والله لقد فُقتم أصحاب محمد ﷺ علماً، أو جئتم ببدعة ظلماً» فقالوا: يا أبا عبد الرحمن، ما فُقنا أصحاب محمد ﷺ علماً، ولا جئنا ببدعة ظلماً، ولكننا نذكر ربَّنا، فقال عبد الله بن مسعود: بلى والذي نفس ابن مسعود بيده، لقد فُقتم أصحاب محمد ﷺ علماً أو جئتم ببدعة ظلماً». ثم طردهم من المسجد فذهبوا وبنوا مسجداً بظاهر الكوفة، أي خارجاً عن مدينة الكوفة، وأخذوا يصنعون فيه ذلك الصنيع، فبلغ ابن مسعود خبرهم فأمر بهدمه فهدم، وتفرقوا»[٣]. اهـ.

---

(١) البيتان في «تاريخ الإسلام» (١٤/ ٥٢٥، ط. دار الغرب) من غير نسبة هكذا:
دفٌّ ومزمار ونغْمةُ شادنٍ   فمتى رأيتَ عبادةً بملاهي
يا فرقة ما ضرَّ دين محمدٍ   وسطا عليه وملَّه إلا هي

(٢) (٢/ ٣٢٤ ـ بتحقيقي).

(٣) أخرجه ابن وضاح في «البدع» رقم (١٧) من طريق عبيد الله بن عمر عن سيَّار أبي الحكم عن ابن مسعود أنه حُدِّث أن أناساً... (فذكره).
قلت: وسنده ضعيف؛ منقطع بين سيار وابن مسعود. وله طرق أخرى عن ابن مسعود:
الأولى: الربيع بن صُبَيح عن عبد الواحد بن صبرة عنه.
أخرجها ابن وضاح في «البدع» رقم (٩).
وسندها ضعيف من أجل الربيع وشيخه؛ فالأول صدوق سيئ الحفظ كما في «التقريب» (١٨٩٥)، أما الثاني فأورده البخاري في «تاريخه» وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٦/ ٢٢)، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً.
الثانية: عطاء بن السائب عن أبي البختري عنه به.
أخرجها عبد الرزاق في «المصنف» (٥٤٠٩)، وعبد الله بن أحمد في «زوائده على الزهد» =

فهؤلاء ذكروا الله بذكر مفهومِ المعنى مشروعٍ، ولكن زادوا عليه هيئةَ الاجتماع في وقت معلوم والمقدَّم الذي يرشدهم، فصار ذلك **بدعة إضافية**، وأصحابها داخلون في الوعيد، وهي شر من المعاصي؛ لأن المعاصي يعرف فاعلها أنها معاص، ولا يعتقد أنها قربة إلى الله، فيرجى أن يتوب منها، بخلاف

= (ص٣٥٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» رقم (٨٦٣٠ ـ ٨٦٣٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨٠ ـ ٣٨١).

وعطاء صدوق اختلط، ولكن الراوي عنه عند الطبراني حماد بن سلمة، وسماعه منه قبل اختلاطه، كما في «الكواكب النيرات» (ص٦٣)، وشيخه لم يسمع من ابن مسعود. وانظر: «تهذيب الكمال» (١١/ ٣٢)، و«مجمع الزوائد» (١/ ١٨١)، فالإسناد ضعيف، إلا أن أبا البختري توبع، تابعه أبو عبد الرحمٰن السلمي عند الطبراني رقم (٨٦٣٣)، فصح الإسناد.

الثالثة: عمرو بن يحيى بن عمرو بن سلمة قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه عنه به.

أخرجها الدارمي في «السنن» رقم (٢١٠)، وبحشل في «تاريخ واسط» (ص١٩٨ ـ ١٩٩) بمعناه.

وسندها ضعيف؛ يحيى بن عمرو بن سلمة ذكره البخاري في «التاريخ (٨/ ٢٩٢)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٩/ ١٧٦)، ولم يذكرا فيه شيئاً، وروى عنه جماعة من الثقات، وظن شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ أن عمرو بن يحيى هو ابن عمارة بن أبي الحسن!! ولذا قال في «الرد على التعقب الحثيث» (ص٤٥، ٤٧) ما نصه: «وإسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال البخاري في «صحيحه» غير عمارة، وهو ثقة»!! والصواب ما ذكرناه، وقد وقع مصرحاً به عند بحشل، وكذا الراوي عنه عند الدارمي وهو شيخه الحكم بن المبارك، كما في «تهذيب الكمال» (٧/ ١٣٢).

الرابعة: حماد بن زيد عن مجالد بن سعيد عن عمرو بن سلمة به.

أخرجها الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٣٦) رقم (٨٦٣٦)، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٨١): «فيه مجالد بن سعيد، وثقه النسائي، وضعفه البخاري وأحمد بن حنبل ويحيى».

الخامسة: سفيان بن عيينة عن بيان عن قيس بن أبي حازم عنه.

أخرجها عبد الرزاق في «المصنف» (٥٤٠٨)، ومن طريقه الطبراني في «الكبير» رقم (٨٦٢٩)، برجالٍ ثقات، وصححها الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٨١).

السادسة: سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عبد الله بن هانئ به.

أخرجها الطبراني في «الكبير» رقم (٨٦٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨١)، وسندها حسن.

وله طرق أخرى، عند الطبراني رقم (٨٦٣٧ ـ ٨٦٣٩) **وبالجملة، فالأثر ثابت صحيح، بمجموع هذه الطرق.**

البدعة فإن صاحبها لاعتقاده أنها قربة لا يتوب منها، وكذلك النفر الذين جاؤوا إلى أزواج رسول الله ﷺ فسألوهن عن عبادته، فأخبرنهم بها فكأنهم تقالوها، فقال أحدهم: «لسنا مثل رسول الله ﷺ، فإن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أما أنا فأصوم أبداً ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم الليل أبداً ولا أنام، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء، فلما سمع بذلك النبي ﷺ قال لهم: **«أنتم الذين قلتم ما قلتم؟»** قالوا: نعم، فقال رسول الله ﷺ: **«أما أنا فأصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[(١)].

وكذلك المغاربة الذين يقرؤون القرآن جماعة بلسان واحد بعد صلاة الصبح، وبعد صلاة المغرب يقرؤون القرآن جماعة بصوت واحد نصف جزء من القرآن ويسمونه حزباً، يفتح القراءة لهم الإمام ثم بعد ذلك يختمون ذلك بأدعية ينطقون بها بلسان واحد[(٢)]، كما يفعل اليهود والنصارى في كنائسهم، ومنهم أخذ المغاربة هذه العادة السيئة لم يسبق إليها سابق، ولا لحقهم فيها لاحق، ومن العجب أنهم كلهم يتركون سنة المغرب البعدية والقبلية، أما البعدية فيفعلون بدلها تلك البدعة[(٣)] وأما القبلية فيزعمون أنها مكروهة.

وحقيقة المكروه هو ما نهى الله أو نهى رسوله ﷺ عنه نهياً مخففاً، بحيث إذا ترك يكون في تركه أجر وإذا فعل لا يكون في فعله عقاب، فنقول لهم: يا لله العجب! متى نهى الله أو رسوله ﷺ عن صلاة ركعتين قبل المغرب[(٤)] أي بعد أذان المغرب وقبل صلاتها؟ هل تستطيعون أن تجدوا في ذلك آية أو حديثاً ولو ضعيفاً؟ لن تجدوا ذلك أبداً، بل الموجود الصحيح ما رواه البخاري في «صحيحه»[(٥)] عن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس.

(٢) وهكذا يفعل أتباع الشيخ حسن البنا لما يقرأون كتابه «المأثورات»، ولا سيما في المسجد في رمضان قبيل الإفطار.

(٣) يريد صلاة ست ركعات التي يسميها العوام (صلاة الأوابين)! وصلاة الأوابين على التحقيق هي صلاة الضحى، وانظر للتفصيل كتابي: «القول المبين في أخطاء المصلين» (ص٤٥٤ ـ ٥٥٥، ط. الأولى).

(٤) نشر المصنف في مجلته «لسان الدين» السنة الرابعة، الجزء الثالث، جمادى الأولى عام ١٣٦٩هـ ـ مارس سنة ١٩٥٠ (ص٩ ـ ١٠) مقالة لتلميذه العلامة محمد بو خبزة ـ وهو شيخنا بالإجازة ـ بعنوان «صلوا قبل المغرب ركعتين».

(٥) برقم (١١٨٣).

عبد الله المزني أن رسول الله ﷺ قال: «**صلوا قبل المغرب صلوا قبل المغرب صلوا قبل المغرب**» وقال في الثالثة: «**لمن شاء**» وجميع أهل الحديث منهم الشافعي وأحمد يقولون إن هذه الصلاة سنة وهذه السنة معمول بها في الحرمين الشريفين، وفي جميع المساجد التي يعمل فيها بالسنة، ويضرب بالرأي عرض الحائط.

والذين يسمون فقهاء عند المغاربة ـ أعني: غلاتهم ـ إذا ذكرت لهم حديث رسول الله ﷺ يغضبون ويصرون على باطلهم، ويقولون: هذا العمل فعله فلان وفلان، وهما أفضل منك وأعلم بالسنة، وأمثال هذا من أقوالهم الباطلة، وإذا شئت أن تلزمهم وتلقمهم حجراً في مسألة القراءة جماعة بصوت واحد، فاقرأ عليهم ما كتبه المواق في «شرحه لمختصر خليل»، عند قوله: «وجهر بها في مسجد [وقراءة بتلحين][1] كجماعة، [وجلوس لها لا لتعليم][1]، وأقيم القارئُ في المسجد يوم خميس أو غيره»[2] فمثل هذا النقل يخرسهم، أما الكتاب والسنة فلا يرفعون بهما رأساً، وكذلك قول مالك رحمه الله[3] إذا خالف عادتهم لا يقبلونه بل يروغون روغان الثعلب، فنسأل الله العافية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ يعني: إن الذين هم أولياء الله ويحق لهم أن يعمروا مساجد الله هم الذين يوحِّدون الله في عبادته ولا يخافون إلا الله، واعلم أن الخوف قسمان، بل نوعان: نوع طبيعي فطر عليه الإنسان، كالخوف من العدو والخوف من الأسد، والخوف من الهزيمة في الحرب، والخوف من السراق واللصوص، فهذا الخوف ليس شركاً، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٨] الآية، والخوف الذي هو شرك يتنافى مع التوحيد، هو الخوف بالغيب، كالذي يريد أن يدخل بلداً، فيخاف ما يسمى بالأولياء الأموات أو الأحياء إذا لم يخضع لهم أن يصيبوه بمصيبة، فيستأذنهم ويخضع لهم، ويسألهم الضيافة وهم أموات أو غائبون.

---

(١) سقط من الأصل، وأثبته من «مختصر خليل» (ص٣٦).

(٢) انظر: «مختصر خليل» (ص٣٦)، وكلام المواق ـ وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري (ت٨٩٧هـ) ـ في كتابه «التاج والإكليل» (٢/ ٦٣)، وسيورده المصنف بطوله في (٣/ ١٦٣ ـ ١٦٤)، فراجعه هناك، تولى الله هداك.

(٣) بدل «رحمه الله» في الأصل: رمز (ج) ولعل صوابه (ح).

ويحسن أن أحكي هنا حكاية لتوضيح المقام: كان العالم السلفي المشهور عبد الله السنوسي نزيل مدينة طنجة له خادم يرافقه، فسافر من طنجة إلى العرائش، وهي مدينة في المغرب على شاطئ البحر المحيط، فلما أراد دخول هذه المدينة، قال خادمه: أسأل الضيافة من الله ومن سيدتنا منانة ـ ومنانة هذه: امرأة ميتة بنيت على قبرها قبة يعبدها الجهال ـ فسكت الشيخ ولم ينكر عليه قوله، وكانت عادة الشيخ أن ينزل عند بعض المحبين، فيجتمع عليه الناس للاستفادة من علمه، وينطلق خادمه إلى مشرب من مشارب القهوة والشاي، وهو ما يسمى «بالقهوة» فيمكث هناك إلى أن يمضي أول الليل، ثم يرجع إلى البيت الذي نزل فيه الشيخ فيجد عشاءه محفوظاً له فيأكله وينام، ولما رجع تلك الليلة جلس ينتظر أن يقدم له عشاؤه كالعادة فلم يقدم له شيء، وكان الشيخ قد أخبر أهل ذلك البيت أن خادمه استضاف شخصاً آخر، وأمرهم أن لا يتركوا له طعاماً، فلما طال انتظاره، قال له الشيخ: كيف كان عشاؤك عند منانة؟ فقال له: يا سيدي ما تعشيت، فقال الشيخ: سبحان الله! كيف تركتْكَ منانة بلا عشاء وأنت ضيفها؟! فاذهب إلى فراشك فليس لك هنا عشاء، وكان ذلك عقاباً له وعبرة لغيره، وعادة عامة المغاربة أن يطلبوا الضيافة كما تقدم من رجال البلد، ويقصدون بذلك الأموات الذين بنيت على قبورهم قباب.

ولما بدأتُ الدعوة إلى الله في المغرب سنة ١٣٨٠هـ علَّمتُ مَنِ استجاب لدعوتي طلب الضيافة من الله بالدعاء الذي كان يدعو به النبي ﷺ إذا أقبل على بلد، وهو: «**اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن، ورب البحار وما جرين، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، اللهم حببنا إلى أهلها، وحبب صالحي أهلها إلينا**»(١).

---

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٤٣، ٥٤٤)، وابن خزيمة (٢٥٦٥)، وابن حبان (٢٧٠٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٢٥)، والطبراني (٧٢٩٩)، والحاكم (١/ ٤٤٦ و٢/ ١٠٠)، والبيهقي (٥/ ٢٥٢) من حديث صهيب، **وإسناده حسن**.
وقال شيخنا الألباني في «الكلم الطيب» (ص١٤٨) بعدما ذكر أن ابن حبان والحاكم أخرجاه وصححاه، قال: «ووافقهما الذهبي، وفيه نظر لأن مداره عندهم جميعاً على أبي مروان والد عطاء، أورده الذهبي في «الميزان» وقال: «قال النسائي: ليس بالمعروف» ومن ادعى أن له صحبة فليس له حجة إلّا أخبار كلها من رواية الواقدي وهو متروك... =



وهذا مفترق الطرق بين الموحدين والمشركين، فالموحدون يطلبون حاجاتهم كلها من الله تعالى ولا يطلبون من مخلوق شيئاً، والمشركون لا يكفيهم الله تعالى فيتوجهون إلى المخلوقين العاجزين فيسألون حاجاتهم، فبئس ما يفعلون، قال الله تعالى في سورة سبأ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤] وقال الله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١] أخبر الله تعالى في هذه الآية أن المشركين الأولين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون ويعتقدون أن الله هو الذي يرزق، وهو الذي يملك كل شيء، وهو وحده الذي يتصرف في العالم بالإعطاء والإحياء والإماتة وغير ذلك من أنواع التصرف، والمشركون في هذا الزمان يعتقدون أن أولياءهم يتصرفون في العالم، فلذلك يستغيثون بهم في الشدائد ويطلبون منهم حاجاتهم بدون حياء من الله تعالى ولا خوف، قال بعض المغاربة لما حاصر الفرنسيون مدينة فاس سنة ١٩١٢ بتاريخ النصارى، قال بعض من يسمون بالعلماء عندهم ـ وهم أجهل بالله من الدواب ـ يستغيث بإدريس بن عبد الله الأكبر المدفون بزرهون رحمه الله، شعراً:

أمولاي يا إدريس يا ابن نبينا ... وملجأ هذا القطر في العُسر واليُسرِ
تكنّفنا الأُسدُ الضّراةُ وإنّنا ... على خَطَرٍ إنْ لم تُغِثْنا على الفورِ

أراد هذا المشرك المجنون، أن يقوم إدريس من قبره، أو تأتي روحه فتقاتل الجيش الفرنسي، وتصده عن مدينة فاس، أما هو فيجلس رابضاً كالثور المريض في يده سبحة يعدُّ حباتها ويأكل ويشرب، فلم يغثه إدريس بل دخل الفرنسيون مدينة فاس، ثم فتحوا بلاد المغرب بلداً بلداً إلى أن استولوا عليها كلّها، ومكثوا يحكمونها بالحديد والنار ثلاثاً وأربعين سنة، إلى أن تصدى لهم الملك محمد بن يوسف بن الحسن وابنه الملك الحسن بن محمد، رحم الله الوالد وأطال عمر الحسن ابنه ووفقه للخير وأعانه عليه ونصره على أعداء الإسلام، هذان رجلان

= ثم قال: ثم وجدت للحديث طريقاً أخرى عن صهيب بسند صحيح، وشاهداً من حديث أبي لبابة بن عبد المنذر، وآخر من أمره ﷺ بهذا الدعاء وقد خرجت ذلك في «الصحيحة» (٢٧٥٩)». وانظر: «التعليقات الحسان» (٤/ ٣٣٨) رقم (٢٦٩٨)، «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣٥).

قاما في وجه الفرنسيين مع كثرة جيوشهم وجيوش مستعمراتهم قالا لهم: نحن لا نرضى بالاستعباد، فإما حياة عزٍّ وإما موت شريف، كما قال المتنبي(١):

عِشْ عَزيزاً أو مُتْ وأنتَ شريف(٢) بين طَعْنِ القَنا وخَفْقِ البُنودِ(٣)
لَا كما قد حييتَ غيرَ حميدٍ وإذا مُتَّ مُتَّ غير فقيدِ(٤)

فبارك الله في ثورتهما وكانت سبباً في استيقاظ أهل المغرب من سباتهم، وشرعوا في الجهاد والنضال حتى طهروا بلادهم من استعباد الأجانب بعدما حكم الفرنسيون بلادهم ثلاثاً وأربعين سنة، والفضل لله، ثم لثورة الملكين المذكورين، لا لاستعانة المشركين بأهل القبور، والعجب من ذلك الشاعر البارع الذي يقول إن إدريس رَحِمَهُ اللهُ ملجأ القطر المغربي في العسر واليسر، والمسلمون لا ملجأ لهم إلا الله، قال تعالى في سورة التوبة في وصف الثلاثة الذين خلفوا، أي: أخِّر قبول توبتهم: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] وقال النبي ﷺ في الدعاء الذي يقال قبل النوم وهو في «الصحيح»(٥): «**اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت**».

فقد اتخذ ذلك الجهول إدريس شريكاً مع الله وحاشا لأهل المغرب أن يوافقوه على شركه وجهله، فإن منهم من يوحِّد الله تعالى ولا يشرك به شيئاً وإن كانوا اليوم قليلاً، فنرجو الله أن يكثرهم، وكيف يلجؤون إلى غير الله وهم

(١) في «ديوانه» (١/ ١٣٣، ١٣٤ ـ شرح الواحدي)، وهما ضمن قصيدة قالها في صباه وبينهما فيه بيت آخر.
(٢) في «الديوان»: «كريم».
(٣) جمع (بند)، وهو العَلَم الكبير، يقول: إما أن تعيش عزيزاً ممتنعاً من الأعداء، أو تموت في الحرب موت الكرام؛ لأن القتل في إكرام يدل على شجاعة الرجل، وكرم خلقه، وهو خير من العيش في الذل، قاله الواحدي.
(٤) يخاطب نفسه، فيقول: عش عزيزاً، أو مت في الحرب حميداً، ولا تكن كما عشت إلى هذا الوقت غير محمود فيما بين الناس، وإذا مت على فراشك في هذا الوقت مت غير مفقود؛ لأن الناس يجدون مثلك، فيستغنون عنك، ولا يبالون بموتك، فلا يذكرونك بعد موتك، قاله الواحدي.
(٥) أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب.

يقرؤون قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]؟ وما أحسن قول مَن قال[1]:

يا مَنْ يرى ما في الضَّمِير ويسمعُ ... أنتَ المُعَدُّ لكلِّ ما يتوقَّعُ
يا مَنْ يُرجى للشّدائد كلِّها ... يا مَنْ إليه المُشْتَكى والمَفزَعُ
يا مَنْ خزائنُ رزقِه في قولِ كُنْ ... أُمْنُنْ فإنَّ الخيرَ عندكَ أجمعُ

هكذا ينبغي للمؤمن الموحِّد أن يقول وبالله يصول ويجول، ومن دواعي الأسف أن معنى الآية قد انعكس في هذا الزمان فصار الجهال والمشركون والمبتدعون يقولون بلسان حالهم وقالهم: إنما يعمر مساجد الله من أشرك بالله وخالف سنة رسول الله وابتدع في دين الله، فالدعوة إلى توحيد الله واتباع سنة رسول الله ﷺ ممنوعة في المساجد في المغرب والجزائر، إلا بإذن من حاكم البلد، وكم من شاب وكهل من الصالحين الدعاة إلى الله منع منها!!

وفي هذه الأيام كتب إلي أحد تلامذتي وهو عبد الواحد بادو، يقول: إنه فضل أن يكون معلماً في قرية ليبعد عما في المدن من الفجور، فصار معلماً في قرية بقرب مدينة الحاجب، وأخذ يلقي دروساً في مسجد القرية يعلم الناس فيها توحيد الله، فمنعه أمير القرية الذي يسمونه القائد، فجاءه العزل عقاباً من الله له لمنعه مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعيه في خرابها يترك الناس في البدع والشرك، قال: فلما عزل عدت إلى الوعظ في المسجد فمنعني نائب الأمير الذي يسمى عندهم الخليفة، فكتب إليه: اختر دكان واحد من الذين استجابوا لك واجعله مكاناً للدعوة، واقصد الأسواق مع بعض إخوانك ودور القهوة واتخذها مكاناً للدعوة، ولو أن أولئك الحكام يراقبون الداعي فإذا رأوه يدعو إلى فتنة أو ثورة منعوه، وإذا رأوه يدعو إلى توحيد الله واتباع سنة رسول الله ﷺ أعانوه ونصروه أو على الأقل كفوه شرهم فلا يناله منهم خير ولا شر، لعذرناهم **ولكنهم يتركون الدجاجلة يسرحون ويمرحون وينشرون الشرك والبدع، ولا يتعرضون لهم**

---

(١) هما لأبي القاسم السُّهيلي (ت٥٨١هـ)، أوردهما ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢/ ٤٢٠، ط. دار أبي حيان) وأربعة أبيات أُخرى، وقال: «وله قصيدة كان يدعو الله بها، ويرتجي الإجابة فيها». ونعتها صلاح الدين الصفدي في «الوافي بالوفيات» (١٨/ ١٠٢) بـ«الأبيات المشهورة».

بسوء، وإنما يمنعون دعاة التوحيد والسنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾ [التوبة: ٢٨]

قال (ك): «أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام أن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنه عامئذ وأمره أن ينادي في المشركين: «**أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان**»[(١)]. فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً، وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي، كتب عمر بن عبد العزيز: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[(٢)] الآية»[(٣)].

قال محمد تقي الدين: هذا قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله وهو من رأيه واجتهاده وكذلك يقول المالكية: لا يجوز أن يدخل الكافر المسجد ولو أذن له المسلمون، وفي ذلك نظر، قال البخاري[(٤)] بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَل نَجْدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له: ثُمَامَة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «**أطْلِقوا ثمامة**». فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٥١٢)، والبيهقي (١٠/ ١٠٣) من طريقين عن عمر بن عبد العزيز بمعناه، وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١/ ٣٩٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٧٣ ـ ١٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٢، ٤٦٩، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣، ٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤) بوب عليه البخاري برقم (٤٦٢): (باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضاً في المسجد) ـ واللفظ المذكور لفظه ـ وأعاده مختصراً شديداً برقم (٤٦٩)، وبوب عليه: (باب دخول المشرك المسجد)، وأعاده مختصراً برقم (٢٤٢٢) في كتاب الخصومات، وبوب عليه. (باب التوثق ممن تخشى معرَّته وبرقم (٢٤٢٣)، وبوب عليه، (باب الربط والحبس في الحرم).

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، هكذا ذكره البخاري في أحكام المساجد مختصراً[(١)]، وأخرجه في كتاب المغازي مطولاً، تحت ترجمة (باب وفد بني حنيفة وحديث ثُمامَة بن أثال)، قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة، يُقال له: ثُمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ما[(٢)] **عندك يا ثمامة؟**»، فقال: عندي خير يا محمد، إنْ تَقْتُلْني تقْتُلْ ذا دم، وإنْ تُنْعِم تُنْعِم على شاكر، وإنْ كُنتَ تريد المال فَسَلْ منه ما شئت، فترك حتى كان الغَد ثم قال له: «**ما عندك يا ثمامة؟**»، فقال: ما قلتُ لك: إنْ تُنْعِم تُنْعِمْ على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغَد، فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي ما قلتُ لك. فقال: «**أَطْلِقُوا ثمامة**» فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إليَّ، والله ما كان من دينٍ أبغضَ إليَّ من دينك، فأصبح دينُك أحبَّ الدِّين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدِك، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ، وإنَّ خَيلكَ أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ﷺ وأمرَه أن يعتمر، فلما قدم مكة، قال له قائل: صبأت، قال: لا والله ولكنْ أسلمتُ مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبةُ حنطةٍ حتى يأذن فيها النبيُّ ﷺ».

قال الصنعاني في «سبل السلام على بلوغ المرام» ما نصه: «وفيه دليل على جواز ربط الأسير بالمسجد وإن كان كافراً، وإن هذا [تخصيص][(٣)] لقوله ﷺ: «**إن المسجد لذكر الله والطاعة**»[(٤)]، وقد أنزل وفد ثقيف في المسجد[(٥)]، قال

---

(١) برقم (٤٣٧٢) وهو عند مسلم (١٧٦٤).

(٢) كذا في «صحيح البخاري»، وفي الأصل: «ماذا»!

(٣) في مطبوع «السبل»: «مخصص».

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٥) من حديث أنس بنحوه.

(٥) أخرجه أحمد (٤/٢١٨)، وأبو داود (٣٠٢٦)، والطيالسي (٩٣٩)، وابن أبي شيبة (٣/١٩٧)، وابن خزيمة (١٣٢٨) من حديث عثمان بن أبي العاص، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو من رواية الحسن عن عثمان، وفي سماعه منه نظر، وانظر: «طبقات ابن سعد» (١/٣١٢ ـ ٣١٣)، «الضعيفة» رقم (٤٣١٩)، «زاد المعاد» (٣/٦٠٠ ـ ٦٠٢).

الخطابي[(١)]: فيه جواز دخول المشرك إذا كان له فيه حاجة مثل أن يكون له غريم في المسجد لا يخرج إليه، ومثل أن يحاكم إلى قاض هو في المسجد، وقد كان الكفار يدخلون مسجده ﷺ ويطيلون فيه الجلوس، وقد أخرج أبو داود[(٢)] من حديث أبي هريرة أن اليهود أتوا النبي ﷺ وهو في المسجد.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فالمراد به لا يمكّنون من حج ولا عمرة كما ورد في القصة التي بعث لأجلها ﷺ بآيات براءة إلى مكة، وقوله: «**فلا يحجن بعد هذا العام مشرك**»[(٣)]. وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ [البقرة: ١١٤] لا يتم بها دليل على [تحريم المساجد على][(٤)] المشركين؛ لأنها نزلت في حق من استولى عليها وكانت له [القوة][(٥)] والمنعة كما وقع في سبب نزول الآية الكريمة، فإنها نزلت في شأن النصارى واستيلائهم على بيت المقدس، وإلقاء الأذى فيه والأزبال[(٦)]، أو أنها نزلت في شأن قريش ومنعهم له ﷺ عام الحديبية عن العمرة[(٧)] وأما دخوله من غير استيلاء ومنع وتخريب فلم تفده الآية الكريمة، وكأن المصنف ساقه لبيان جواز دخول المشرك المسجد، وهو مذهب إمامه فيما عدا المسجد الحرام»[(٨)].

فصل

قال محمد تقي الدين: نجاسة المشركين معنوية، فقد روى الشيخان[(٩)] عن

---

(١) في «معالم السنن» (١/ ٢٤٤ ـ مع «المختصر»).
(٢) أخرجه في «سننه» (٤٨٨) ومن طريقه البيهقي (٢/ ٤٤٤) **وإسناده ضعيف**، فيه رجل من مزينة، وهو مجهول، وضعفه شيخنا الألباني، وانظر: «ضعيف سنن أبي داود» (١/ ١٦٩ ـ ١٧٠).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) من «السبل» وسقط من الأصل.
(٥) في مطبوع «السبل»: «الحكمة».
(٦) ورد نحوه من مرسل ابن شهاب عند ابن المنذر، أفاده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٦٧).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ رقم ١٠٠٢٢) **بسند صحيح من مرسل قتادة**، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ١٦٤) لابن المنذر.
(٨) انظر: «سبل السلام» (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦، ط. ابن الجوزي).
(٩) أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢) من حديث عمران بن حصين.

عمران بن حصين، أن النبي ﷺ وأصحابه توضؤوا من مزادة امرأة مشركة، وكذلك الخمر نجسة، اختلف العلماء في نجاستها، أهي حسية إذا أصابت ثوب رجل أو بدنه وجب عليه أن يغسلها أم نجاستها معنوية، وهي ما فيها من السكر الذي يذهب بالعقل وتنشأ عنه جرائم كثيرة؟ وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١].

فقد سمى الله تعالى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجساً، الثلاثة المذكورة مع الخمر نجاستها معنوية بالاتفاق، فكذلك الخمر لأنه سبحانه علل تحريم هذه الأشياء الأربعة بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ﴾ [المائدة: ٩١] فالخمر والميسر تعاطيهما تنشأ عنه العداوة والبغضاء والتشاجر والتقاتل، والأنصاب شرك، والأزلام طلب لمعرفة الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، فسبب نجاسة المشركين هو الشرك، فلا يجوز لهم دخول مكة ولا ينبغي أن يعمروا المساجد مع شركهم كما تقدم في الباب الذي قبل هذا.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣٣]

قال (ك): «هذه مقالة شنيعة وفرية عظيمة على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العزير: إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما ضلال النصارى في

المسيح، فظاهر، ولهذا كذّب الله الطائفتين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: لا مستند لهم فيما ادعوه، سوى افترائهم واختلاقهم[١] ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي: يشابهون ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل.

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير[٢] من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: «أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ، وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم! فقال: «**بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»، وقال رسول الله ﷺ: «**يا عدي ما تقول؟ أيفرُّكَ[٣] أن يقال، الله أكبر، فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يُفِرُّكَ[٤] [أيفرُّك][١] أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟**»، ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «**وإن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون**»[٥].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «واختلافهم» بالفاء!

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وابن جرير في «تفسيره» (١١/ ٤١٧) **والحديث حسن بطرقه المتعددة**، وقد سبق تخريجه مفصلاً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «أيضرك»!

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «يضرك».

(٥) أخرجه الترمذي (١٩٥٣)، وأحمد (٤/ ٣٧٨)، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (١/ ١٠٤، ط. الخلفاء)، وابن أبي حاتم (٤٠، ٤١)، وابن جرير (١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩)، وابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦، ٧٣٦٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ رقم ٢٣٦، ٢٣٧)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٤/ ١١١) **والحديث حسن بمجموع طرقه وشواهده**، وحسنه شيخنا الألباني - رحمه الله تعالى -، وتقدم تخريجه =

وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ «إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا»(١)، وقال السدي: «استنصحوا الرجال [ونبذوا](٢) كتاب الله وراء ظهورهم»، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ، ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد، والأولاد، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآية، يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما بعث به

= والكلام على طرقه، والحمد لله وحده.

(١) بهذا اللفظ ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (رقم ١٨٦١)، وبنحوه رواه سفيان الثوري في «تفسيره» (١٢٤ رقم ٣٣٣)، وعن عبد الرزاق (٢/ ٢٧٢)، والطبري (٨١٥١٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٤ رقم ١٠٠٥٨) في «تفاسيرهم»، وابن عبد البر (رقم ١٨٦٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٦٧)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦)، وفي «المدخل» (٢٥٨ و٢٥٩)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٨٦٤) من طريق الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري عن حذيفة.

وتابع الأعمش: العَوَّامُ بن حوشب، أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٥/ ٢٤٥ رقم ١٠١٢)، وابن جرير (١٤/ ٢١١ رقم ١٦٦٣٦، ط. شاكر) وعطاءُ بن السائب، أخرجه ابن جرير (١٤/ ٢١٣ رقم ١٦٦٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٤٥ رقم ٩٣٩٤، ط. دار الكتب العلمية) من طريق سفيان عن عطاء به.

ورجاله ثقات لكنه منقطع، أبو البَخْتَري سعيد بن فيروز الطائي لم يسمع من حذيفة؛ قال ابن سعد في «طبقاته» (٦/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣): «وكان أبو البختري، كثير الحديث، يرسل حديثه، ويروي عن أصحاب رسول الله ﷺ ولم يسمع من كبير أحد، فما كان من حديثه سماعاً فهو حسن، وما كان عن فهو ضعيف». قلت: وأرسل عن حذيفة كما في «تهذيب الكمال» (١١/ ٣٢ ـ ٣٥)، وعزاه في «الدر» (٣/ ٢٣١) أيضاً للفريابي، وابن المنذر وأبي الشيخ.

ورواه جماعة عن عطاء عن أبي البختري قوله، أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١٨٦٣)، وابن جرير (١٤/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم (١٦٦٣٧)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ١٧٩ ـ ١٨٠) **وإسناده حسن**. وهو في «تفسير مجاهد» (ص٢٧٦) عن آدم بن أبي إياس عن ورقاء قوله.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتركوا».

رسول الله ﷺ، من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك، كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخة، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى: مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمّي الليل كافراً؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع كافراً؛ لأنه يغطي الحب في الأرض، كما قال: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ فالهدى[١]: ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصالح[٢] والعلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على سائر الأديان كما ثبت في «الصحيح»[٣] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها**»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: انظر إلى كرم النبي ﷺ ورحمته، وإنزال الناس منازلهم، لم يكتف عليه الصلاة والسلام بإطلاق سراح هذه الأميرة، بل أكرمها وأعطاها؛ لأنها ابنة رجل مشهور بالكرم، وهو: «حاتم الطائي»، يضرب به المثل في الجود، وكذلك أطلق رسول الله ﷺ من معها من الأسارى بدون فدية، فانطلقت إلى أخيها عدي، وأخبرته بما رأت من الأخلاق الكريمة، والشمائل العظيمة، فكان ذلك سبباً في إتيانه إلى النبي ﷺ وإسلامه، وفوزه بصحبة النبي ﷺ.

تلك السعادة إن تُلِمَّ بساحها ... فحط رحلك قد عوفيت من تعس

وفي رواية: إن النبي ﷺ لما رأى الصليب في عنق عدي قال له: «**ألق**

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيح».

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٧٨ ـ ١٨٠).

عنك هذا الوثن»[(١)]، فعلم بذلك أن كل شيء عبد من دون الله أو حمل للتبرك به فهو وثن، فالقباب التي يعبدها المشركون، والقبور التي تعبد والأشجار والمياه والأحجار كلها أوثان، وقد قال النبي ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(٢)]. رواه مالك في «الموطأ»، وإنما نهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ المساجد عند القبور، لعلمه أنّ تحرِّي العبادة عندها يفضي إلى اتخاذها أوثاناً تعبد من دون الله، كما هو مشاهد في هذا الزمان، ثم انظر إلى قول النبي ﷺ: «**فذلك عبادتهم**»، يعني: إن من جعل الحكم لشخص يحلل ويحرم برأيه، ولا يطالب بدليل من الكتاب والسنة، فقد عبده، قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ـ وهو شرحه لخمسين حديثاً من جوامع الكلم ـ: «قال ابن هبيرة: «من مكايد الشيطان أن يقيم أوثاناً في المعنى تعبد من دون الله مثل أن يتبين لأحدهم الحق، فيقول ليس عليه مذهبنا، تعظيماً لمقلَّد ـ بفتح اللام عنده ـ قد قدمه على الحق»[(٣)]. انتهى.

فالتحليل والتحريم والإيجاب والاستحباب والكراهة إذا قيَّدها المتعصِّب بالمذهب، ولم يبال بمخالفة الدليل عن النبي ﷺ، فقد اتخذ ذلك المذهب وثناً معنوياً يعبده من دون الله؛ لأن المذهب مجموع آراء رجال المذهب، وليس بقبة ولا شجر ولا حجر، ولكن لما جعل معياراً للحكم صار وثناً معنوياً، يدرك بالعقل، وهكذا يقال فيمن أطاع حزبه في معصية الله تعالى، أو ترك الفرائض التي شرعها الله تعالى، فذلك الحزب وثن يعبده، والحاصل: أن الحكم لا يكون إلا لله، ومن جعله لغير الله فقد أشرك.

ومن أمثال ذلك أن أهل المغرب الذين ينتسبون إلى المذهب المالكي يذبحون الذئاب ويأكلونها؛ لأنهم يزعمون أن أكل كل ذي ناب من السباع ـ كالكلب والذئب والثعلب والنمر والأسد ـ وكل ذي مخلب من الطير ـ كالغراب

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٢) رقم (٢١٨، ٢١٩)، وابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ٨١) وقد ذكرت طرقه وخرجته فيما مضى، والحمد لله وحده.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) لم أظفر به في مطبوع «جامع العلوم والحكم»، ومررت به جميعاً، ونظرتُ في أكثر من طبعة! وظفرت بمقولة ابن هبيرة في كثير من كتب الأصول. انظر ـ على سبيل المثال ـ: «شرح الكوكب المنير» (٤/ ٥٧٦)، وانظر ـ لزاماً ـ حول هذه المقولة ما سيأتي (٣/ ١٦٧).

والصقر والنسر والحدأة من سباع الطير ـ فيه ثلاثة أقوال في المذهب، ينسبونها إلى مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: الإباحة، والكراهة التنزيهية، والحرمة، ويرجِّحون القولَ الثاني، وهو: «الكراهة» التنزيهية، ويزعمون أنه المشهور في المذهب المالكي[(١)]، فمن ترك أكل السباع المذكورة أثيب على تركه، ومن أكل لحومها فلا شيء عليه ولا يأثم، وقد روى مالك في «الموطأ» عن النبي ﷺ أنه قال: **«كل ذي ناب من السباع حرام»**[(٢)]، وكيف يروي مالك هذا عن النبي ﷺ ثم يقول بالإباحة أو الكراهة التنزيهية؟ وهذا طعن في تمسك مالك بالسنة، والصحيح كما قاله ابن عبد البر: «إن مالكاً وسائر الأئمة يقولون بتحريم أكل لحوم السباع»[(٣)]، قال ابن تيمية الجد في «منتقى الأخبار»[(٤)] ما نصه:

١ ـ عن أبي ثعلبة الخشني: إن رسول الله ﷺ قال: **«كل ذي ناب من السباع فأكله حرام»**[(٥)]، رواه الجماعة إلا البخاري وأبا داود.

٢ ـ وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مِخْلَب من الطير»[(٦)]، رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي.

٣ ـ وعن جابر قال: «حرم رسول الله ﷺ ـ يعني: يوم خيبر ـ لحوم حمر الأنسية، ولحوم البغال، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مِخْلَب من الطير»[(٧)]، رواه أحمد والترمذي.

---

(١) انظر تفصيل المسألة في: «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (٤/ ٣٧٨) وتعليقي عليه.

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٩٦) باب، تحريم أكل كل ذي ناب من السباع، والبخاري (٥٥٣٠)، ومسلم (١٩٣٢) كلهم من حديث أبي ثعلبة الخُشني.

(٣) انظر: «الاستذكار» (٥/ ٥١٢ ـ ٥١٣، ٥١٥، ط. النداء).

(٤) (٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢، ط. ابن الجوزي، ٨/ ١١٦ ـ مع شرحه «النيل»).

(٥) أخرجه مالك (٢/ ٤٩٦)، ومسلم (١٩٣٣)، والنسائي (٧/ ٢٠٠) وابن ماجه (٣٢٣٣)، وأحمد (٢/ ٢٣٦) من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ، وتقدم قريباً لفظ أبي ثعلبة.

(٦) أخرجه مسلم (١٩٣٤)، وأبو داود (٣٨٠٥)، والنسائي (٧/ ٢٠٦)، وابن ماجه (٣٢٣٤)، وأحمد (١/ ٢٤٤، ٢٨٩، ٣٠٢).

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٣)، والترمذي (١٤٧٨)، والطحاوي في «المشكل» (٣٠٦٤)، والطبراني في «الأوسط» (٣٧٠٤) من طريق عكرمة عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن عن جابر.

وظاهر إسناده أنه حسن، إلا أن عكرمة يخطئ في أحاديث كثيرة عن يحيى، ولعل هذا منها. =

٤ ـ وعن العِرباض بن سارية: «إن رسول الله ﷺ، حرَّم يوم خيبر كل ذي مِخْلب من الطير، ولحومَ الحُمُرِ الأهليَّة، والخَلِيسَة والمجَثَّمة»[١]، رواه أحمد والترمذي وزاد في رواية: قال أبو عاصم: المجثمة: أن ينصب الطير فيُرمى، والخَلِيْسَة: الذئب أو السبع يدركه الرجل فيأخذ منه، يعني: الفريسة، فتموت في يده قبل أن يذكيها.

قال الشوكاني في «نيل الأوطار»[٢] بعد ذكر الأحاديث المتقدمة: «وذو الناب من السباع، كالأسد، والذئب، والنمر، والفيل، والقرد، وكل ما له ناب يتقوى به ويصطاد، قال في «النهاية»[٣]، وهو: «ما يفترس الحيوان [ويأكل][٤] قسراً كالأسد والنمر والذئب ونحوها»، وقال في «القاموس»[٥]: «والسبع بضم الباء وفتحها، المفترس من الحيوان»». انتهى.

وقول (ك): «والكافر الذي يستر الشيء ويغطيه»، ولذلك سمى الكافر بالله تعالى الجاحد بما جاءت به رسل الله: كافراً؛ لأنه ستر الحق وغطاه بجحوده، قال لبيد في «معلقته»[٦]:

حتى إذا ألقتْ يَداً في كافرٍ وأَجَنَّ عوراتِ البيوت ظَلامُها

يريد بقوله: «ألقت يداً في كافر»: غروب الشمس فشبهها بإنسان وأثبت لها يداً، على طريق الاستعارة وجعل غروبها إلقاء يدها في الكافر وهو الليل، وقال لبيد[٧] أيضاً:

= ثم وجدتُ الترمذي يقول في «العلل الكبير» (ص٢٤١) بعد ذكره لهذا الحديث: «قال محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. فسألتُ محمداً ـ يعني إمام الدنيا البخاري ـ عن هذا الحديث؟ فقال: حديث أبي سلمة عن أبي هريرة أشبه، وعكرمة بن عمار يغلط الكثير في أحاديث يحيى بن أبي كثير».

(١) أخرجه أحمد (٤/١٢٧)، والترمذي (١٤٧٤، ١٥٦٤) مقطّعاً والطبراني في «الكبير» (١٨/ رقم ٦٤٨، ٦٥٠، ٦٥١)، وفي «الأوسط» (٢٤٤٣) بسندٍ رجاله ثقات، وفيه أم حبيبة بنت العرباض، لم يرو عنها غير وهب بن خالد الحمصي، ولذا قال الترمذي عنه: «حديث عرباض حديث غريب».

(٢) (٨/١١٧، ط. إحياء التراث). (٣) (٢/٣٣٧ ـ سبع).

(٤) في مطبوع النهاية «ويأكله قهراً و». (٥) (ص٩٣٨ ـ سبع).

(٦) (ص٥٨١ ـ «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات») لأبي بكر بن الأنباري، وفيه: «الثغور» بدل «البيوت».

(٧) (ص٥٦٠ ـ «شرح القصائد السبع الطوال») وصدره: (يعلُو طريقةَ مَتْنها مُتواترٌ) =

فـي لـيـلـةٍ كَـفَـر الـنُّـجـومَ ظـلامُـهـا

وقال الشاعر[١]:

لـــي فـــيـــك أجـــرُ مـــجـــاهـــدٍ   إنْ صـــحَّ أنَّ الـــلـــيـــلَ كـــافِـــرْ»

الباب السادس

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة: ٥١]

قال (ك): «يعلم الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من حسنة ـ أي: فتح ونصر ـ وظفر على الأعداء مما يسرّه ويسرّ أصحابه ساءهم ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قد احترزنا[٢] من قبل هذا ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُل﴾ أي: لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئته[٣] وقدره، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ﴾ أي: سيدنا وملجأنا، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، [وهو][٤] حسبنا ونعم الوكيل»[٥].

فصل

قال محمد تقي الدين: جاء في الحديث: «**إن العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر**»[٦]. انتهى، فالعلماء يرثون الأنبياء في علمهم وعملهم وصبرهم، وتوكلهم

= وفيه «غمامُها» بدل «ظلامها».

(١) هو البهاء الزهير بن محمد المهلبي، والبيت في «ديوانه» (٦٤) وضمنه إبراهيم الجعبري في قصيدة بديعة طويلة له تراها في «نفحة الريحانة» (٤/ ٣٦٩).

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من متابعته».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مشيئة الله».

(٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير».   (٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢١٤).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، والدارمي (١/ ٩٨)، والطحاوي في «المشكل» (١/ ٤٢٩)، وابن حبان (٨٨)، والبزار (١٣٦ ـ زوائده)، والبغوي (١٢٩)، والبيهقي في «الآداب» (١١٨٨)، =

واستعانتهم بالله على الأعداء، فكما أن المشركين والمنافقين كانوا يفرحون إذا أصابت النبي ﷺ وأصحابه ضراء، ويحزنون إذا أصابت النبي ﷺ وأصحابه سراء، فكذلك المشركون والمنافقون بعد زمانه عليه الصلاة والسلام، يعاملون ورثته المتبعين له، وينصبون لهم الحبائل، ويكيدون لهم المكايد، فإن أصاب الدعاة إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ شر فرحوا، وإن أصابهم فلاح ونجاح ساءهم ذلك وحزنوا، وهؤلاء الدعاة الحنفاء، نضر الله وجوههم، يقتدون بنبيهم، فيقولون لأعداء السنة وأعداء التوحيد: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ وناصرنا عليكم، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فنحن لا نتوكل إلا عليه ولا نستغيث إلا به وهو لا يضيع أحداً توكل عليه، وهذا واقع في كل زمان، نسأل الله أن يجعلنا من المخلصين في اتباع نبينا في العلم والعمل، ويرزقنا الصبر على ما يصيبنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الباب السابع

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٦]

قال (ك): «أخرج (أ) و(ه)[1] عن ابن المسيب عن أبيه قال: «لما

= والخطيب في «الرحلة» (٧٧ ـ ٧٨)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢) من حديث أبي الدرداء، وفي بعض أسانيده **ضعف**، وبعضها **حسن** في الشواهد، وللحديث شواهد **يتقوى بها**، قال الحافظ عنه في «الفتح» (١/ ٢١١): «**له شواهد يتقوى بها**»، وانظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ١١ ـ بتحقيقي)، و«إتحاف الخيرة» (١/ ٦٥).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٣)، والبخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «**أي عمي، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله ﷻ**»، فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقال (أ) بسنده[١] عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أَوَلَمْ يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية».

قال (ك): «وقال (أ) وذكر سنده[٢] إلى ابن بريدة عن أبيه قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب، وفداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله ما لك؟ قال: «**إني سألت ربي ﷻ في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فدمعت عيناي رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث، نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث فكلوا وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أي وعاء شئتم، ولا تشربوا مسكراً**».

وروى (ج) وذكر سنده[٣] إلى سليمان بن بريدة عن أبيه: «إن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه، فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً، فقلنا: يا رسول الله، إنا رأينا ما صنعت، قال: «**إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩٩، ١٣١)، والطيالسي (١٣١)، والترمذي (٣١٠١)، والنسائي (٤/ ٩١)، وأبو يعلى (٣٣٥، ٦١٩)، والبزار (٨٩٣، ٨٩٤)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٧٧، ٩٣٧٨) **وإسناده حسن**.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٥)، ومسلم (٩٧٧) وخرجته بتفصيل في تعليقي على «أدلة معتقد أبي حنيفة» الطبعة الثانية، وهي مزيّدة ومنقحة، و«الحنائيات» رقم (٢٥٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٢٣)، وأحمد (٥/ ٣٥٩)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٣)، والترمذي (١٠٥٤)، والحاكم (١/ ٣٧٥، ٢/ ٣٢٥، ٦٠٥)، والنسفي في «القند» (١٢٤ ـ ١٢٥)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٨٩) من طريق سليمان بن بريدة، **وهو صحيح**.

فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي»، فما رئي باكياً أكثر من يومئذ». وروى ابن أبي حاتم[1] وذكر سنده إلى عبد الله بن مسعود ﵁ قال: «خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام، فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه، ثم دعانا، فقال: «**ما أبكاكم؟**» فقلنا: بكينا لبكائك، فقال: «**إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة، إني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي**»، ثم أورده من وجه آخر ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه: «**وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل علي ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الآية، فأخذني ما كان يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة**» ثم قال (ك) ما معناه: «ومن أغرب الأحاديث وأشدها نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب «السابق واللاحق» بسند مجهول، عن عائشة في حديث فيه قصة «**إن الله أحيا أمه فآمنت ثم عادت**»[2]،

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٦) وعنه البيهقي في «الدلائل» (١/ ١٨٩)، والواحدي في «أسباب النزول» **وهو صحيح بمجموع طرقه**، وفصّلتُ ذلك في تعليقي على: «أدلة معتقد أبي حنيفة» (ص٧١ ـ ٧٢، ٨٠ ـ ٨١) لعلي القاري.

(٢) أخرج ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» رقم (٦٥٦)، ومن طريقه الخطيب في «السابق واللاحق» (٣٧٧ ـ ٣٧٨)، وعنه الجورقاني في «الأباطيل والمناكير» (١/ ٢٢٢)، والدارقطني وابن عساكر؛ كلاهما في «غرائب مالك» ـ كما في «لسان الميزان» (٤/ ٣٠٥) ـ، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤)، عن عائشة ﵂ قالت: «حجَّ بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلَّم حجة الوداع، فمرَّ بي على عقبة الحجون وهو باكٍ حزينٌ مغتمٌّ، فنزل، فمكث عنِّي طويلاً، ثم عاد إليَّ وهو فرحٌ، فتبسَّم، فقلتُ له؟ فقال: «**ذهبتُ لقبر أمي، فسألتُ الله أن يُحيِيَها، فآمنتْ بي، وردَّها اللهُ ﷿**».

قال ابن الجوزي: «**موضوع بلا شك**: النقاش ليس بثقة، وأحمد بن يحيى ومحمد بن يحيى مجهولان، وقد كان أقوام يضعون أحاديث، ويدسُّونها في كتب المغفلين، فيرويها أولئك. وقال شيخنا أبو الفضل بن ناصر: هذا حديث موضوع، وأم رسول الله ﷺ ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة، ودُفنت هناك، وليست بالحَجُون».

وقال الجورقاني: «**هذا حديث باطل**».

ثم ذكر أقوال أهل العلم في تضعيف عبد الرحمن بن أبي الزناد، ثم قال:

«عبد الوهاب بن موسى هذا متروك، وأحمد بن يحيى ومحمد بن يحيى مجهولان، ومحمد بن الحسن بن زياد هذا هو أبو بكر النقاش المقرئ؛ في حديثه مناكير بأسانيد مشهورة». =

وكذلك ما رواه السهيلي في «الروض»(١) بسند فيه جماعة مجهولون: «**إن الله**

= وقال الذهبي في «المغني في الضعفاء» (٢/ ٤١٣) في ترجمة عبد الوهاب بن موسى:
«عن عبد الرحمٰن بن أبي الزناد، نكرة، والخبر: «أحيا الله لي أمي، فآمنت بي»، والسند ظلمة».
وقال في ترجمته في «الميزان» (٢/ ٦٨٤) ـ وأورد الحديث ـ:
«لا يُدرى مَن ذا الحيوان الكذاب؛ فإن هذا الحديث كذب مخالف لما صحَّ أنه عليه السلام استأذن ربه في الاستغفار فلم يأذن له».
وتعقَّبه الحافظ في «اللسان» (٤/ ٩١) فقال:
«تكلَّم الذهبي في هذا الموضوع بالظَّنِّ، فسكت عن المتَّهم بهذا الحديث، وجزم بجرح القوي».
وقال: «عبد الوهاب بن موسى ليس به بأس».
وذكر أن محمد بن يحيى معروف، له ترجمة جيِّدة في «تاريخ مصر» لابن يونس، والذي رماه الدارقطني هو أبو غزيَّة محمد بن يحيى الزهري، وأما أحمد بن يحيى؛ فلم يظهر من سند النقاش ما يتميَّز به.
ونقل في «اللسان» (٤/ ٣٠٥) عن ابن عساكر أنه قال فيه:
«هذا **حديث منكر** من حديث عبد الوهاب بن موسى الزهري المدني عن مالك، والكعبي مجهول، والحلبي صاحب غرائب، ولا يعرف لأبي الزناد رواية عن هشام، وهشام لم يدرك عائشة، فلعله سقط من كتابي: عن أبيه».
وتعقبه الحافظ ابن حجر فقال: «ولم ينبِّه على عمر بن الربيع ولا على محمد بن يحيى ـ وهو أبو غزية ـ وهما أولى أن يُلْصَق بهما هذا الحديث من الكعبي وغيره».
وقال الذهبي في «أحاديث مختارة من موضوعات الجورقاني وابن الجوزي» رقم (٦٨):
«وبسندٍ وضع على هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. . . (وساقه)».
وانظر: «اللالئ المصنوعة» (١/ ٢٦٦)، و«تنزيه الشريعة» (١/ ٣٣٢)، و«المقاصد الحسنة» (٢٥)، و«مختصر المقاصد» (٥١)، و«التمييز» (١١)، و«كشف الخفاء» (١/ ٦١)، و«تذكرة الموضوعات» (٨٧)، و«الغماز على اللماز» (٢٨).
وضعفه علي القاري في «أدلة معتقد أبي حنيفة» (ص٨٥ ـ بتحقيقي) وقال (ص٨٧):
«وهذا الحديث ضعيف باتِّفاق المحدِّثين؛ كما اعترف به السيوطي» وقال: فقول الشيخ ابن حجر المكي في «شرح الهمزية» [ص١٠١]: «هو حديث صحيح، صحَّحه غير واحد من الحفَّاظ»؛ مردود عليه، بل كذبٌ صريحٌ، وعيبٌ قبيحٌ، مسقطٌ للعدالة، وموهنٌ للرواية؛ لأن السيوطي ـ مع جلالته، وكمال إحاطته ومبالغته ـ في رسائل متعددة من تصنيفاته ذكر الاتفاق على ضعف هذا الحديث، فلو كان له طريق واحد صحيح؛ لذكره في معرض الترجيح»!!

(١) «الروض الأنف» (١/ ١١٣)، وانظر الهامش السابق، وتعليقي على كتاب «معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ» (ص٨٨ ـ ٩١) وتقديمي له (ص١٤ ـ =

أحيا له أباه وأمه فآمنا به»»[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: بعث الله نبيه ورسوله ـ سيد ولد آدم محمداً ﷺ ـ رحمةً للعالمين، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، فضله على خلقه نعمة منه ورحمة وكرامة لمن آمن به واتبعه، ولم يجعله ملكاً يرث الملك من أبيه أو يورثه ذريته أو أقاربه، وقد أخطأ كثير من الناس خطأً فاحشاً في فهم هذا المعنى فقاسوا النبي ﷺ على الملوك والأمراء، فتعجبوا واستغربوا أن لا تشمل هذه الرحمة أقرب الناس إليه أباه وأمه وعمه أبا طالب، مع أنه كان للنبي ﷺ كالوالد الرحيم عندما مات جده عبد المطلب، وكان عمر النبي إذ ذاك عشر سنين، لم يزل يكرمه ويرعاه ويتحمل الشدائد من أجله، لما قاطعه أهل مكة لم يخذله أبو طالب ومن معه من بني هاشم، فإن قريشاً تعاهدوا وتقاسموا على مقاطعة بني هاشم وحصارهم، ومنعوا الطعام أن يصل إليهم، فبقي أبو طالب محاصراً في الشعب مدة طويلة هو ومن معه يقاسون الجوع والضيق وعداوة أهل بلدهم إلى أن فرّج الله عنهم، فسعى بعض أشراف مكة في تمزيق الصحيفة التي كتبتها قريش حين تعاهدوا على ذلك الجرم الفظيع[(٢)]، ومع ذلك لم تشمله هذه الرحمة التي شملت

= ١٧) فتكلمت على جميع الأحاديث الواردة في هذا الباب، والله ـ وحده ـ الموفّق للصَّواب.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٩٤ ـ ٢٩٧) بتصرف.

(٢) انظر الخبر مفصلاً في: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٥١ ـ ٣٧٧)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٢٣٥ ـ ٢٣٨)، وفي صحته عندي نظر، وثبت منه ما أخرجه مسلم (١٣١٤) (٣٤٤) من طريق الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى: «**نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر**»، وذلك إن قريشاً وبني كنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطَّلب، أن لا يُناكحوهم، ولا يبايعوهم، حتى يُسلموا إليهم رسول الله ﷺ، يعني بذلك المحَصَّب.
ورجح ابن حجر في «الفتح» (٣/ ٤٥٣) أن آخره مدرج من كلام الزهري، وهذا الذي حققه الخطيب البغدادي في كتابه النافع الماتع «الفصل للوصل» (٢/ ٦٥٧ ـ ٦٦٣).
وفي الباب من مرسل عكرمة، عند ابن سعد (١/ ٢٠٩) بإسناد رجاله ثقات، ومن مرسل عروة عند أبي نعيم في «الدلائل» (٢٢٦، ٢٤٩)، وفيه ابن لهيعة.
وفي الباب عند الطبراني (١٠/ ٢٧٥، ٢٨٩) وغيره بأسانيد لا تسلم من مقال، انظر: «المجمع» (٩/ ٢٧٥، ٢٧٦)، «اللسان» (١/ ١٧٢).

أهل الأرض ممن آمن بالنبي ﷺ؛ لأنه أبى أن يؤمن برسالة محمد ﷺ، ولم يكن شاكاً في صدقه فإنه قال في شعر له[١]:

والله لَنْ يَصِلُوا إليكَ بزَعْمِهم حتى أُوَسَّدَ في التُّرابِ دَفِينَا
فاصدع بأمركَ ما عليك غَضاضةٌ فلقد صدقْتَ وكنتَ ثم أمينا
لولا الملامةُ أو حِذَارُ مسبَّةٍ لوجدتَني سَمحاً بذاكَ مُبينا

وقد جاءت قصة وفاة أبي طالب في «صحيح البخاري»[٢] وحرص النبي ﷺ على إيمانه وحزنه لما مات كافراً، وروى البخاري عن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليّي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها ببلالها**»[٣]، انتهى، فولاية النبي ﷺ لأقاربه إنما جاءت من حيث إنهم من صالحي المؤمنين، لا للقرابة المجردة، فإنها وحدها لا تجعلهم أولياء النبي ﷺ، وإن وصل رحمهم بالإحسان إليهم؛ لأن صلة الرحم واجبة مع الأقارب، وإن لم يكونوا مسلمين، وأما ما روي من الحديث في إحياء الأبوين وإيمانهما بالنبي ﷺ، فهو باطل، إذ لا يصح في ذلك شيء[٤]، ولو فرضنا أنه ثبت في ذلك حديث وتجاوز درجة الوضع والنكارة إلى الضعف، ما ثبت به حكم ولا استطاع أن يقاوم حديث مسلم ولا أن يعارضه، وحديث النبي ﷺ لا ينقض بعضه بعضاً، بل ينصر بعضه بعضاً، وقد نظم بعضهم في هذا المعنى شعراً فقال:

حَبَا اللهُ النَّبيَّ مزيدَ فضلٍ على فَضلٍ وكان به رؤوفا
فأحيا أمَّه وكذا أباه لإيمانٍ به فَضلاً مُنيفا
فَسَلِّمْ فالقديرُ بذا جديرٌ وإنْ كان الحديثُ بهِ ضَعيفا

---

(١) انظر هذه الأبيات مع غيرها في «سيرة ابن إسحاق» (ص١٣٠ ـ ١٣١)، «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٦٩)، «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٨٨)، «البداية والنهاية» (٤/ ١٠٨ ـ ١٠٩، ط. هجر).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧٥) وتكلمتُ في تقديمي لكتاب علي القاري «أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ» (ص١٧ ـ ٣٤) بإسهاب على الأحاديث الواردة في إسلام أبي طالب ونجاته، وبيان وهائها والرد على القائلين بأنه أسلم!

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥).

(٤) سبق بيان ذلك قريباً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وقال آخر وهو أشد جهلاً من الأول:

أيْـقَـنْـتُ أنَّ أبـا الـنَّـبـي وأمَّـه أحـيـاهـمـا الـربُّ الـكـريـمُ الـبـاري
حـتَّـى لـه شـهـدا بـصـدقِ رسـالـةٍ سَـلِّـمْ فـتـلـكَ كـرامـةُ الـمُـخْـتَـارِ
هـذا الـحـديـثُ ومَنْ يـقـولُ بـضـعـفِـه فـهـو الـضَّـعـيـفُ عـن الـحـقـيـقـةِ عـاري

وقائل هذا الشعر من أجهل الجاهلين، فإنه أراد أن يعظم النبي ﷺ بتكذيبه وتكذيب جميع المحدِّثين، وكفى بذلك جهلاً وضلالاً.

ثم قال (ك): «وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية: إن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله ﷻ عن ذلك، فقال: إن إبراهيم خليل الله ﷺ قد استغفر لأبيه فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ الآية، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية[1] فأمسكوا[2] عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينهوا عن أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية[3]، وقال قتادة في الآية: ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟، قال: فقال النبي ﷺ: **«بلى والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»** فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[4] حتى بلغ قوله: ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ ثم عذر الله تعالى إبراهيم ﷺ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: **«قد أوحى الله إليّ[5] كلمات فدخلن في أذني ووقرن في قلبي: أمرت أن لا**

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فلما نزلت».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمسكوا».
(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٣٣)، والطحاوي في «المشكل» (٢٤٨٣) وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٨٩٣) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، **وإسناده حسن**، وعزاه في «الدر المنثور» لابن المنذر وابن مردويه أيضاً، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٦٠١).
(٤) أخرجه ابن جرير (١١/ ٤٣، ط. القديمة)، وهو مرسل لا يعرف لقتادة سماع من النبي ﷺ، بل قال الإمام أحمد: ما أعلم قتادة سمع من أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا من أنس بن مالك، كذا في «جامع التحصيل» (٣١٢).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أوحي إليّ».

أستغفر لمن مات مشركاً، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شر له، ولا يلوم الله على كفاف».

وروى ابن جرير[(١)] عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن زامل[(٢)] عن أبيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه، قلت: ولأبيه، قال: لا، قال: إن أبي مات مشركاً.

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقال ابن عباس وكثير من السلف ـ مثل قتادة والضحاك ـ: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه»، وفي رواية: «لما مات تبين له أنه عدو لله»[(٣)]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قال سفيان الثوري عن ابن مسعود[(٤)] «الأواه: الدَّعّاء». وقال آخرون: الأواه هو الرحيم»[(٥)].

قال محمد تقي الدين: وصف الله إبراهيم بالحلم بأنه حلم عن أبيه لما آذاه بقوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٦ ـ ٤٧] واستمر يستغفر له إلى أن مات على الشرك، فترك الاستغفار له، ﴿وَمَا كَانَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٢٨). **وإسناده ضعيف**، وفيه عصمة بن زامل مجهول الحال، انظر: «التاريخ الكبير» (٧/ ٦٤)، و«الجرح والتعديل» (٧/ ٢٠).

(٢) كذا في مصادر التخريج، وفي الأصل: «أوائل»!

(٣) أخرجه سفيان الثوري في «تفسيره» (ص١٢٧) وابن جرير (١٢/ ٣٠، ٣٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٤، ١٨٩٥)، والفريابي وابن المنذر وأبي الشيخ والضياء في «المختارة»، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٥) من طرق عن ابن عباس، وبألفاظ متقاربة، وهو **صحيح** عنه.

وهو عند ابن جرير (١٢/ ٣١) عن قتادة والضَّحاك. وعلقه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٥) عن مجاهد، ووصله بسنده عنه ابن جرير (١٢/ ٣٠). وأسنده ابن جرير (١٢/ ٣١) عن الحاكم بن عتيبة وعمرو بن دينار.

(٤) كذا في الأصل! والذي عند ابن كثير: «قال سفيان الثوري وغير واحد: عن عاصم بن بهدلة: عن زر بن حبيش: عن ابن مسعود به».

قال أبو عبيدة: أخرجه من هذا الطريق: ابن وهب في «الجامع» (تفسير القرآن) (٢/ ٨٢، ١٠٠) (رقم١٥٥، ١٩٤)، وابن جرير (١٢/ ٣٤)، والطبراني (٩٠٠٤)، وابن المنذر وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٥). **وهذا إسناد حسن**.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٩٨ ـ ٣٠١) بتصرف.

﴿اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ الآية، قال (ج): «يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا[1]، فأما قبل أن يبين لكم كراهة[2] ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا[3] نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال؛ لأن[4] الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، فأما من لم يؤمر ولم ينه، فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه»[5].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ قال (ج): «هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا[6] بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا[7] يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه»[8].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ من آيات توحيد الربوبية، فهو سبحانه مالك متصرف في عباده وليس لهم ولي يتولونه فتنفعهم ولايته، ولا نصير يستنصرونه فينصرهم، فمن استنصر غير الله ضل وأصابه الخزي في الدنيا والآخرة، ومن استنصر الله وحده وأطاعه واتبع رسوله ﷺ وحكّم شرعه انتصر وعز، ولذلك نرى المسلمين في هذا الزمان ضعفاء أذلاء؛ لأنهم لم يستنصروا الله وحده، بل طلبوا النصر من غيره، فأذلهم قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «الانتهاء عنه».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «كراهية».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن جرير»، وفي الأصل: «فلم تضيعوا»!.
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن جرير»، وفي الأصل: «فإن»!.
(٥) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٢/ ٤٦ ـ ٤٧).
(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وأنهم يثقون»!.
(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ولم»!.
(٨) انظر: «تفسير ابن جرير» (٧/ ٣٠٤).

﴿ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [آل عمران: ١٦٠].

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]

قال (ك): «قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء[١]. قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد، فأصابهم[٢] فيها جهد شديد حتى ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم[٣]. وقال (ج) بسنده عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عطش فظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن كان الرجل يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله ﷻ قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فقال: **«تحب ذلك؟»** قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت، ثم سكنت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[٤]. وقال

(١) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٥١).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أصابهم».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٩)، وابن جرير (١٢/ ٥١)، وابن المنذر وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٦).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢)، وابن خزيمة (١٠١)، والفريابي في «الدلائل» =

ابن جرير[١] في قوله: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: «من النفقة والظهر والزاد والماء».

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: عن الحق ويشك في دين الرسول[٢] ﷺ ويرتاب للذي[٣] نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم[٤] ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقوا الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»[٥].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية، قال (ك): «قال الإمام أحمد بسنده[٦] إلى عبيد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عمي ـ قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزوة[٧] تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم[٨] على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا[٩] على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذْكَرَ في الناس منها وأشهر.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت

= (٤٧)، وابن حبان (١٣٨٣)، والحاكم (١/ ١٥٩)، والبزار في «مسنده» (٢١٤ أو ١٨٤١ ـ زوائده)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٩٢)، والبيهقي (٩/ ٣٥٧) وفي «الدلائل» (٥/ ٢٣١)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٥٢) وقال ابن كثير في «السيرة» (٤/ ١٦): «**إسناده جيد ولم يُخرجوه من هذا الوجه**»، وانظر: «العلل» للدارقطني (٢/ ٨٣ ـ ٨٤).

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٩).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسول الله».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالذي».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سفره وغزوه».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).
(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٦ ـ ٤٥٩)، والبخاري (٢٧٥٧)، ومسلم (٢٧٦٩).
(٧) كذا في «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «غزاة».
(٨) كذا في «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عدوه».
(٩) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «توافقنا».

قبلها راحلتين قط حين[١] جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفاوز وعدداً[٢] كثيراً، جلى[٣] للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه[٤] ما لم ينزل فيه وحي من الله ﷻ.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال[٥]، وأنا إليها أصعر، فتجهز رسول الله ﷺ والمؤمنون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر[٦] بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: أتجهز[٧] بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعدما فصلوا[٨] لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممتْ أن أرتحل فألحقهم ـ وليتني[٩] فعلت ـ، ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد [خروج][١٠] رسول الله ﷺ.

[فطفت فيهم][١٠] يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله جل وعلا، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال: وهو جالس في القوم بتبوك: **(ما فعل كعب بن مالك)**؟ فقال رجل من بني

---

(١) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «حتى».
(٢) كذا في الأصل! وفي مطبوع «التفسير»: «واستقبل مفاوز وعدواً...».
(٣) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «فجلى».
(٤) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «له».
(٥) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «الظل».
(٦) كذا في الأصل! وفي مطبوع «التفسير»: «شمر» وهو أصوب.
(٧) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «الجهاز».
(٨) كذا في مطبوع «التفسير» وهو الصواب، وفي الأصل: «وصلوا»!
(٩) كذا في الأصل! وفي مطبوع «التفسير»: «أرتحل فأدركهم وليت أني...».
(١٠) سقطت من الأصل، وأثبتها من المصادر.

سلمة: حبسه يا رسول الله برده والنظر إلى عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حصرني بني[١]، وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه.

فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «**تعالَ**» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهراً**[٢]؟» فقلت: يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت [جدلاً][٣]، ولكني والله لقد علمت، لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه: إني لأرجو عقبى ذلك من الله ﷻ، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**».

فقمت وقام[٤] إلي رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فو الله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذّب نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة.

---

(١) كذا في «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «حضر بني»!! وعند البخاري: «حضرني همِّي».
(٢) كذا في الأصل، وفي مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ظهرك»!
(٣) سقطت من الأصل، وأثبتها من المصادر.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وبادرني».

قال: فمضيت حين ذكروهما لي، فقال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي: أَحَرَّكَ شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني.

حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسوَّرت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي، وأحبُّ الناس إلي، فسلَّمتُ عليه، فو الله ما ردّ علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال: الله ورسوله أعلم، قال:

ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوَّرت الجدار، فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة، فالْحَقْ بنا نواسك، قال: قلت حين قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، قال: فتيمّمتُ به التنور فسجرته به.

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول: يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلّقها أم ماذا أفعل؟ فقال: [بل][1] اعتزلها ولا تقربها، قال: وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربك[2]، قالت: وإنه والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله ما زال يبكي منذ

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يقربنك»!

كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته، وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشرك[1] يا كعب بن مالك، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله ﷻ بالتوبة علينا.

فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلي رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم، وأولى[2] على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته لي، والله ما أملك يومئذٍ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم[3] رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤونني بتوبة الله، يقولون: ليهنئك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ، قال وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**». قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**لا، بل من عند الله**». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**». قال: فقلت: فإني

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أبشر». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأوفى».
(٣) كذا في «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أروم»!

أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت.

قال: والله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله ﷻ فيما بقي.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩] إلى آخر الآيات.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذٍ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦] قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين خلفوا، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه، فلذلك قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخلّفنا(١) عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه».

وهذا حديث صحيح ثابت، متفق على صحته رواه صاحبا «الصحيح»، البخاري ومسلم(٢) من حديث الزهري بنحوه.

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب، وفي الأصل: «ذكره لما خلفنا تخليفنا»! ولا معنى له!

(٢) سبق تخريجه.

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وقوله في الحديث: «**فسموا رجلين شهدا بدراً**» [قيل: خطأ من الزهري، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدراً][(١)]. والله أعلم، ولمّا ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي: مع سعتها فسدت[(٢)] عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون إلى[(٣)] ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا، حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم، وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً.

وقد أخرج (أ) (ق) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»[(٤)]. وقال شعبة: عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه أنه قال: «الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾»[(٥)] قال: مع محمد ﷺ وأصحابه، وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل، ولا يستقيم السياق إلا به.
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسددت».
(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٤)، والبخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).
(٥) أخرجه ابن ماجه (٤٦)، وعبد الرزاق (٢٠٠٧٦)، وأحمد (١/ ٤١٠)، وأبو يعلى (٥٣٦٣). ووكيع في «الزهد» (٣٩٥، ٣٩٦، ٤٠١)، وابن المبارك في «الزهد» (١٤٠٠)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٩١)، وهناد (١٣٦٩)، وسعيد بن منصور (١٠٤٨)، وابن جرير (١٢/ ٦٩، ٦٩ ـ ٧٠) وفي «تهذيب الآثار» (٢٥٠ ـ ٢٥٥ ـ مسند علي)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٠٦)، وابن عدي (١/ ٤١)، والطبراني (٨٥١٨، ٨٥٢٥)، والبغوي (٣٥٧٥)، =

وأصحابهما، وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله: «**أقفلهم من غزوتهم**» أي: ردهم سالمين، يقال: قفلت من سفري، أي: رجعت، وقوله: «**الظهر**»، المراد به ما يركب، وكانت مراكبهم الإبل التي يركبونها، وهذا من تسمية الشيء بجزئه، ويسمى مجازاً مرسلاً، وقوله: «**ما أحب أن لي بها مشهد بدر**» معناه: لو خيرت بين أن أشهد العقبة وأحرم من بدر أو أن أشهد بدراً وأحرم العقبة، لفضلت بيعة العقبة على غزوة بدر، وقوله: «**ورّى بغيرها**»، معناه كان النبي ﷺ إذا أراد أن يغزو ناحية، كمكة مثلاً، يسأل أصحابه عن طريق نجد، حتى يظن الناس أنه يريد التوجه إلى المشرق، وهو يريد التوجه إلى المغرب خوفاً من أن يطلع المنافقون وضعاف الإيمان على الجهة التي يريد غزو أهلها فيبعثوا إليهم من يخبرهم، فهذا معنى التورية. وهي في علم البلاغة: ذكر لفظ يحتمل معنيين فيذكره الشاعر أو الناثر ويريد أحد المعنيين، مثال ذلك قول الشاعر:

خَاط لي عَمرو قباءً ... لَيتَ عَيْنَيه سواءا

وكان عمرو المذكور في هذا الشعر أعور فقوله: «ليت عينيه سواء» يحتمل أنه أن يكون مبصراً بالعينين كلتيهما، ويحتمل أن يتمنى له أن تكون العينان عمياوين كلتيهما(٢).

= والبيهقي في «الشعب» (٤٧٨٩، ٤٧٩٠)، **وإسناده صحيح.**

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/٣٠٦ ـ ٣١٤).

(٢) ذكره ابن أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ) في كتابه «تحرير التحبير» (٥٩٦ ـ ٥٩٧) ضمن (الإبهام) وعرفه بقوله: «أن يقول المتكلم كلاماً يحتمل معنيين متضادين، لا يتميّز أحدهما على الآخر، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ذلك، بل يقصد إبهام الأمر فيهما قصداً». بينما ذكر (٢٦٨) (التورية) وعرفه بقوله: «أن تكون الكلمة تحتمل معنيين، فيستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله». وذكر البيت هكذا:

جاء من زيدٍ قَباءُ ... ليت عينيه سواءُ

وأورد قصة طريفة. هي:

ومثاله ما حُكِي أنَّ بَعض الشعراء هنّأ الحَسَن بن سهل بصهْر المأْمون مع من هنّأه، فأثاب الناس كلَّهم وحَرَمه، فكتب إليه: إن أنت تماديت على حرماني عملت فيك بيتاً لا يعلم =

وقوله[1]: «**فأنا إليها أصعر**»، معناه: أميل من الميل وهو الحب، أي: غلب علي حب الظلال والثمار وكرهت نفسي أن تتركهما وتخرج إلى القتال والعطش والحر والجوع. وقوله: «**بأحسن الوجوه وأبسطها**»؛ أبسطها: أوسعها كما قال تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] والجهال من أهل هذا الزمان يعبرون بالأبسط عن الأسهل، وبالبسيط عن السهل أو القليل، ويزيدون على ذلك جهلاً فيقولون: بسَّط الشيء بتشديد السين، بمعنى سهله، ويقولون: قواعد النحو المبسطة، وكل ذلك ضلال[2]، فإن بسّط بالتشديد، معناه: كثرة التوسيع، كقتل وقتّل بالتشديد.

= أحدٌ مدحتك فيه أم هجوتك؟ فاستحضره وسأله عن قوله، فاعترف، فقال: لا أعطيك أو تفعل، فقال (مجزوء الخفيف):

بَارَكَ اللّهُ لِلْحَسَنْ ... ولِبُورَانَ في الخَتَنْ
يَا إمَامَ الهُدى ظَفِرْ ... تَ ولكنْ بِبِنْتِ مَنْ؟

فلم يعلم أراد بقوله: «ببنْتِ من» في الرّفعة أو في الضَّعة، فاستحسن الحسن منه ذلك، وناشده، أسمعت هذا المعنى أم ابتكرته؟ فقال: لا والله، إلا نقلته منْ شعر شاعر مطبوع كان بعث به، ففصّل قباء عند خيّاط أعوَر اسمه زيد، فقال له الخياط على طريق العبث به: سآتيك به لا يدرى أقباء هو أم دُوّاج. فقال الشاعر: لئن فعلت لأعملنّ فيك بيتاً لا يعلم أحد ممن سمعه أدعوت لك فيه أم دعوت عليك؟ ففعل الخيّاط، فقال الشاعر (مجزوءُ الرمل):

جَاءَ مِنْ زَيدٍ قَبَاءُ ... لَيتَ عَينَيهِ سَوَاءُ

فما علم أحد هل أراد أن الصّحيحة تساوي السّقيمة أو العكس، قال: فاستحسن الحسن صدقه، أضعاف استحسانه حذْقه، وأضعف جائزته.

قال أبو عبيدة: الشاعر هو محمد بن حازم الباهلي، كما تراه مع قصتنا في «خزانة الأدب» (٧٩) لابن حجة، و«نهاية الأرب» (٧/ ١٧٤)، «معاهد التنصيص» (٢/ ١٢٩)، «أنوار الربيع» (١٣١).

(١) في الأصل: «ويقول»!

(٢) استخدام (البساطة) و(التبسيط) بمعنى (التسهيل) من الأخطاء الشنيعة، وقولهم: مسألة بسيطة، هذا شيء بسيط، تكلم ببساطة، وهذا لا يعتقده إلا البسطاء، خطأ، قال صاحب «اللسان»: «ورجل بسيط: منبسط بلسانه، وقد بسطه بساطة. الليث: البسيط: المنبسط اللسان، والمرأة بسيط، ورجل بسيط اليدين: منبسط بالمعروف، وبسيط الوجه: متهلل، وجمعها: بسط».

قلت: فقد رأيت أن (البساطة) لا تدل على ما يريد المؤلفان بها، وذلك بعيد عن استعمال العرب، بل هو ضده؛ لأنّ البسيط في اللغة، هو الواسع، ومن أجل ذلك =

قال محمد تقي الدين: يجب علينا أن نفكر كثيراً في هذا النوع من العقاب الذي عاقب به رسول الله ﷺ هؤلاء الثلاثة فإنه عقاب صارم شديد(١)، ولكن

= سميت الأرض (البسيطة)؛ لسعتها.
وأصل هذا الخطأ آتٍ من اصطلاح الأطباء في تسميتهم الدواء الذي هو من مادة واحدة (بسيطاً)، ويقابله (المركب) الذي يتألف من أجزاء، كل جزء من مادة، وقد استعمله الفلاسفة ـ أيضاً ـ، فقسموا الجهل إلى قسمين: (جهل بسيط)، و(جهل مركب)، والأول: أن يكون الشخص جاهلاً، ويعلم أنه جاهل. وقولهم: (بسيط)، و(بساطة) ترجمة للكلمة الأجنبية (Simple)؛ يراد به: شيء سهل غير مركب، غير معقد، وأخذ منه كثير من الناس (بسّطه) ـ بتشديد السين ـ: جعله بسيطاً؛ أي: سهلاً غير معقد، أو قليلاً، أو حقيراً، وكل ذلك خطأ شهير، وضلال مبين، أفاده المصنف في كتابه القيم. «تقويم اللسانين» (ص٣٢ ـ ٣٤، ١٢٥ ـ ١٢٦).

(١) هو هجر إيجابي زاجر، ويدخل فيه في نظري وتقديري (المقاطعة الاقتصادية) للبلاد التي تسيء للإسلام والمسلمين، فإن (الترك فعل) على الراجح عند الأصوليين، شريطة التأثير الذي يقدره أهل الخبرة، فالمقاطعة معقولة المعنى واستخدامها مشروع ـ بل مطلوب ـ فيما ينفع المسلمين، أو يرفع الأذى عنهم، أو إن ترتب عليها زوال المنكر أو تنقيصه، ولعله تصل للوجوب، لا سيما إن كان أولياء الأمور يأذنون بذلك، وصرح بمشروعيه هذه الصورة: فضيلة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز واللجنة الدائمة للإفتاء ترى ذلك في «فتاواها» (فتوى رقم ٢١٧٧٦).
ووجدت كلمة جيدة للعلامة السلفي محب الدين الخطيب، كتبها في افتتاحية العدد (١٧٥) من مجلته القيمة «الفتح» بتأريخ ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٤٨هـ ـ الموافق ٢٨ نوفمبر ١٩٢٩، وهي بعنوان (المقاطعة أمضى سلاح بأيدي عرب فلسطين) ومما قال فيها:
«المقاطعة عنوان الرجولة والحزم، والأمة التي تثبت على مقاطعة من يسيء إليها تشعر الأمم كلها بالحرمة لها، وفي مقدمة من يحترمها أعداؤها.
وبالمقاطعة تعرف الأمة مواطن ضعفها، وتنتبه إلى ما ينقصها في صناعاتها وتجاراتها. فالصنف من أصناف الحاجيات إذا كان لا يستحضره من مصادره غير اليهود؛ فإن العرب سيشعرون بحاجتهم إلى من يتقدّم منهم لاستحضاره من مصادره، فيعظم إقبال الوطنيين على بضاعة أخيهم الوطني؛ الذي يأتيهم بما لا يوجد منه إلا عند أعدائهم، وبذلك يسد حاجتهم ويستفيد من إقبالهم على سلعته.
والمقاطعة ستنبه الأمة إلى ما هو أعظم من ذلك، فبعد أن يكون المتجرون بالكبريت ـ مثلاً ـ من اليهود دون غيرهم؛ يبادر إلى الاتجار بهذا الصنف تجار من العرب، ثم تخطو الأمة خطوة أخرى فتؤسس مصنعاً وطنياً للكبريت. ومتى تقدمت الأمة خطوات متعددة في سبيل الاستقلال الاقتصادي؛ كان لها من ذلك شهود عدول على كفاءتها للاستقلال القومي والسياسي.
وقبل أن تكون المقاطعة طريقاً إلى الاستقلال الاقتصادي والسياسي، فهي طريق إلى =

....

= النضوج الأخلاقي؛ لأن الأمة التي تشعر بحاجتها في صناعاتها وتجاراتها إلى الاستعانة بأعدائها يتأصل في نفوس أبنائها اعتقاد بضعفها وفاقتها، وهذا الشعور مدرجة انحطاط في الأخلاق، ونقص في عزة النفس، ويأس من بلوغ الأمل.
وفضلاً عن هذا وذاك فإن الأمة التي قطعت على نفسها عهد المقاطعة؛ تتعفف بطبيعة الحال عن كثير من الكماليات التي لا تجدها إلا في أيدي أعدائها، وأسمي هذا النوع بالكماليات من باب التساهل، وإلا فإن الغرب إنما غزا الشرق ثم فتحه منذ تمكن من تعويد الشرقيين والشرقيات استعمال هذه الكماليات، فقام على أموال الشرق القليلة، بناءُ ثروة الغرب العظيمة».
ومن أجمع الكلمات وأقواها وأجلها التي وقفت عليها في (المقاطعة) كلمة للعلامة الشيخ عبد الرحمٰن السعدي، وهذا نصها:
«اعلموا أن الجهاد يتطور بتطور الأحوال، وكل سعي وكل عمل فيه صلاح المسلمين، وفيه نفعهم وفيه عزهم فهو من الجهاد، وكل سعي وعمل فيه دفع لضرر على المسلمين وإيقاع الضرر بالأعداء الكافرين فهو من الجهاد، وكل مساعدة للمجاهدين مالياً فإنها من الجهاد.. فمن جهز غازياً فقد غزى، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزى، وإن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحتسب فيه الأجر، والذي يساعد به المجاهدين، والذي يباشر به الجهاد.
ومن أعظم الجهاد وأنفعه السعي في تسهيل اقتصاديات المسلمين والتوسعة عليهم في غذائياتهم الضرورية والكمالية، وتوسيع مكاسبهم وتجاراتهم وأعمالهم وعمالهم، **كما أن من أنفع الجهاد وأعظمه مقاطعة الأعداء في الصادرات والواردات: فلا يسمح لوارداتهم وتجاراتهم، ولا تفتح لها أسواق المسلمين ولا يمكنون من جلبها على بلاد المسلمين.. بل يستغني المسلمون بما عندهم من منتوج بلادهم، ويوردون ما يحتاجونه من البلاد المسالمة**. وكذلك لا تصدر لهم منتوجات بلاد المسلمين ولا بضائعهم، وخصوصاً ما فيه تقوية للأعداء: كالبترول، فإنه يتعين منع تصديره إليهم.. وكيف يصدر لهم من بلاد المسلمين ما به يستعينون على قتالهم؟؟! فإن تصديره إلى المعتدين ضرر كبير، ومنعه من أكبر الجهاد ونفعه عظيم.
فجهاد الأعداء بالمقاطعة العامة لهم من أعظم الجهاد في هذه الأوقات، ولملوك المسلمين ورؤسائهم ـ ولله الحمد ـ من هذا الحظ الأوفر والنصيب الأكمل، وقد نفع الله بهذه المقاطعة لهم نفعاً كبيراً.. وأضرت الأعداء وأجحفت باقتصادياتهم، وصاروا من هذه الجهة محصورين مضطرين إلى إعطاء المسلمين كثيراً من الحقوق التي لولا هذه المقاطعة لمنعوها، وحفظ الله بذلك ما حفظ من عزّ المسلمين وكرامتهم.
ومن أعظم الخيانات وأبلغ المعاداة للمسلمين تقريب أولي الجشع والطمع الذين لا يهمهم الدين ولا عز المسلمين ولا تقوية الأعداء نقود البلاد أو بضائعها أو منتوجاتها إلى بلاد الأعداء..! وهذا من أكبر الجنايات وأفظع الخيانات، وصاحب هذا العمل ليس له =

إيمانهم كان قوياً، فصبروا حتى فرّج الله عنهم ومنّ عليهم بهذا الشرف العظيم، الذي يُذكَرون به إلى يوم القيامة، وهناك أمر آخر وهو أهم مما تقدم، وهو: إحجام كعب بن مالك عن الكذب على النبي ﷺ، لما ظهر له من الجلال والهيبة التي أعطيها النبي ﷺ تأييداً من الله تعالى له ومعجزة لا يطمع فيها ملك وإن أعطي سلطاناً عظيماً وهيبة، وكان مرهوب الجانب ولا غرابة في ذلك، فإن نور النبوة له شأن عظيم.

قال محمد تقي الدين: والشاهد هنا في قوله تعالى: **﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾** أي: توجهوا إلى الله تعالى بالدعاء فالتجؤوا إليه؛ لعلمهم أنه لا ينقذهم ولا يغيثهم ولا يكشف عنهم الكرب إلا الله، وفي «الصحيح»[1] أن النبي ﷺ رغّب في الدعاء التالي عند النوم وهو: «**اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت**».

فمن علم وتيقّن أنه ليس له ملجأ ولا مفر ولا مهرب من المصائب التي تصيبه والأعداء التي تحيط به إلا الله، والتجأ إليه بصدق وإخلاص آواه ونصره ونجّاه من كل ما يخاف، نسأل الله أن يجعلنا ممن اتصفوا بهذا الوصف.

= عند الله نصيب ولا خلاق.
فواجب الولاة الضرب على أيدي هؤلاء الخونة، والتنكيل بهم، فإنهم ساعدوا أعداء الإسلام مساعدة ظاهرة، وسعوا في إضرار المسلمين ونفع أعدائهم الكافرين.. فهؤلاء مفسدون في الأرض يستحقون أن ينزل بهم أعظم العقوبات.
والمقصود أن مقاطعة الأعداء بالاقتصاديات والتجارات والأعمال وغيرها ركن عظيم من أركان الجهاد، وله النفع الأكبر، وهو جهاد سلمي وجهاد حربي، وفق الله المسلمين لكل خير، وجمع كلمتهم وألف بين قلوبهم وجعلهم إخواناً متحابين ومتناصرين، وأيدهم بعونه وتوفيقه، وساعدهم بمدده وتشديده إنه جواد كريم رؤوف رحيم..» انتهى كلامه.
ولشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ كلمة قوية في (المقاطعة) في شريطه رقم (١٩٠) من (سلسلة الهدى والنور).

(١) سبق تخريجه.

الباب التاسع

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩]

قال (ك): «يقول تعالى: ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم من أنفسهم أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ـ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبِلُغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: «إن الله بعث فينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته» وذكر الحديث[1]. وقال: سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال ﷺ: **«خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح»**[2] وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي» بسنده عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي[3] وأمي، ولم يمسني[4] من سفاح الجاهلية شيء»**[5].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠١)، وابن إسحاق ـ كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٥٧ ـ ٣٦٢) ـ وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٥ ـ ١١٦)، و«الدلائل» (١٩٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٤)، **وإسناده حسن**، وانظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ١٤ ـ ٢٣).

(٢) ورد في الباب عن علي وابن عباس وعائشة وأبي هريرة، **وكلها فيها ضعف، أرجاها طريق عن علي، وأخرى عن ابن عباس، هو ـ إن شاء الله تعالى ـ بهما حسن**. انظر: «البدر المنير» لابن الملقن (٧/ ٦٣٤ ـ ٦٣٧)، «الإرواء» (٦/ ٣٢٩ ـ ٣٣٤) رقم (١٩١٤)، وسيأتي تخريج واحد منها بعد هامشين، والله الموفق.

(٣) في مطبوع «المحدث الفاصل»: «ولدني أبي ثم ولدني أبي».

(٤) في مطبوع «المحدث الفاصل»: «يُصبني».

(٥) أخرجه محمد بن أبي عمر العدني ـ كما في «المطالب العالية» (٤/ ٣٦٠) رقم (٤٢٠٦)، =

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(١) وفي «الصحيح»: «**إن الدين ليسر**»(٢). وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وقال الطبراني وذكر سنده إلى أبي ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً، قال: وقال رسول الله ﷺ: «**ما بقي شيء يقرِّب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بيّن لكم**»(٣).

= و«إتحاف الخيرة» (٧/ ٧) رقم (٦٣٠٨) ـ، ومن طريقه الطبراني في «الأوسط» (٥/ رقم ٤٧٢٨)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٤٧٠/ رقم ٥٦٢)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (١٤)، وابن عساكر (٣/ ٤٠٢)، وخولف ابن أبي عمر، فرواه من هو أوثق منه وأكثر عدداً من مرسل أبي جعفر الباقر، كما تراه عند عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢)، والبيهقي (٧/ ١٩٠).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٥٧) رقم (٧٨٦٨)، وسبق تخريجه مطولاً، **والحديث صحيح له شواهد كثيرة**، جمعتُها وخرجتها في تعليقي على «الجواب الذي انضبط» للسخاوي.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة.

(٣) أما القسم المرفوع: فقد أخرجه الشافعي في «المسند» (٧ ـ بدائع المنن)، وابن خزيمة في «حديث علي بن حجر» (٣/ رقم ١٠٠) ـ كما في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٨٠٣) ـ، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٢ ـ ٩٣)، وعلقه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٣٤٥) عن المطلب بن حنطب مرفوعاً بلفظ: «**ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به، وما تركت شيئاً مما نهاكم عنه إلا نهيتكم عنه**»، **وهو مرسل حسن**.
وله شاهد، أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٣، ١٦٢)، والطبراني في «الكبير» (١٦٤٧)، والبزار في «المسند» (رقم ١٤٧ ـ زوائده) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: «**ما بقي شيء يقرب من الجنة وباعد من النار إلا وقد بيَّن لكم**».
وإسناد أحمد صحيح.
وأخرجه البزار (١٤٧)، والطبراني في «الكبير» (١٦٤٧) من طريق سفيان بن عيينة عن فطر عن أبي الطفيل عن أبي ذر به وفيه قولة أبي ذر الموقوفة، وعند الطبراني الزيادة المرفوعة.
وتابع ابن عيينة كذلك سفيان الثوري، رواه الدارقطني في «علله» (٦/ ٢٩٠)، وقال: «ليس بصحيح عنه».
قال البزار: «رواه بعضهم عن فطر عن منذر قال أبو ذر. . .، ومنذر لم يدرك أبا ذر». =

وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥ ـ ٢١٧] وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة: ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله كافيَّ لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩] ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنه ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورين بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هاتين الآيتين أخبرنا الله تعالى بأن هذا الرسول الكريم محمداً ﷺ من صميم العرب، فهم أولى الناس باتباعه والسعادة بما جاء به، وقد كانوا كذلك، ثم ولوا عنه مدبرين، فأصابهم من العذاب في هذه الحياة الدنيا ما لم يصب أمة من الأمم، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

ولم نزل ندعوهم وندعو غيرهم من المسلمين إلى الرجوع وإلى التمسك بهذا الدين الحنيف الذي سعد به أسلافهم وصاروا هم به أشقياء، ولا يزالون إلى الآن مدبرين، والنكبات تحل بهم يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، وإلى الآن لا يزال أكثرهم مصرّاً على استبدال الشريعة الإسلامية بحكم الطاغوت، وقد أمرنا الله أن

= أقول: وقد رجح الدارقطني في «علله» هذه الرواية المرسلة، ومما يؤيد كلام الدارقطني أن شعبة والثوري وابن نمير رووه عن الأعمش عن منذر الثوري عن أشياخ لهم عن أبي ذر.

وأما رواية شعبة فهي في «مسند الطيالسي» (٤٧٩)، وأحمد (٥/ ١٦٢)، وأما رواية ابن نمير فهي في «مسند أحمد» (٥/ ١٥٣ ـ ١٥٤)، ورواية الثوري تقدّمت.

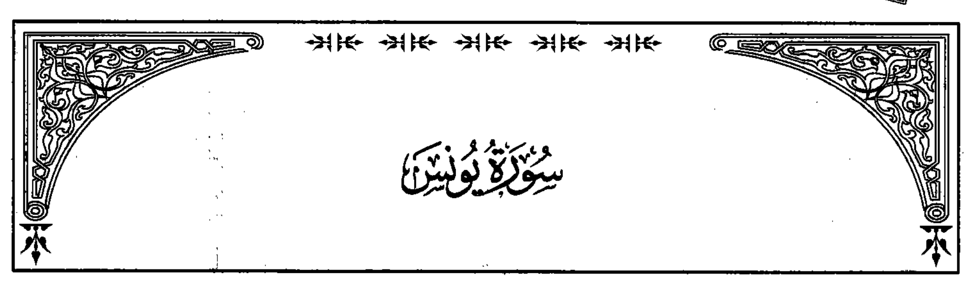
أما الهيثمي فقال (٨/ ٢٦٤): «ورواه الطبراني ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة». وللفظه شاهد من حديث أبي الدرداء، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، كما في «المجمع» (٨/ ٢٦٤).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٧).

نكفر بالطاغوت، ونؤمن بالله، قال تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠، ٦١] وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

اللهم أرنا الحق حقاً، وأعنَّا على اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وأعنّا على اجتنابه.

الشاهد هنا في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ أمر الله نبيه ﷺ أن يقول: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾، أي: الله يكفيني، فلا أحتاج إلى غيره، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، لا أصرف شيئاً من عبادتي لغيره كائناً من كان، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، لا أعتمد في جلب الخير ودفع الشر، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات إلا عليه، وهذا توحيد العبادة، نسأل الله تعالى أن يديم علينا نعمة التوحيد، وأن يوفقنا للتمسك به، والكون مع أهله والبراءة من الشرك وأهله، إنه سميع مجيب.



سورة يونس

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢]

قال (ك): «يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الشر ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ودفعها[١] عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان[٢] من ذلك [من][٣] شيء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه [يستثنى][٤] من ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] وكقول رسول الله ﷺ[٥]: «**عجباً لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن**

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وزوالها».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «به».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مستثنى».

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١١٧)، وهناد في «الزهد» (٣٩٩)، وأبو يعلى (٧/ ٤٢١٧، ٤٢١٨)، وابن حبان (٤/ ٤٤٧) (رقم ٢٨٨٥ ـ «التعليقات الحسان»)، والبيهقي في «الشعب» (٩٩٥١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٩٦)، والضياء في «المختارة» (١٨١٥ ـ ١٨١٨)، والذهبي في «السير» (١٥/ ٣٤٢) من حديث أنس، **وهو صحيح**.

أصابته سراء فشكر، كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: الذي يظهر لي أن المراد بالإنسان هنا الكافر كما قال تعالى في سورة الزمر: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨] ومثل هذا في القرآن كثير، وسيأتي إن شاء الله، إلا أن المشركين الأولين كانوا إذا مسهم الضر وحّدوا الله تعالى فلم يدعوا غيره، وإذا كانوا في وقت الرخاء أشركوا به، وعبدوا غيره، أما مشركو هذا الزمان، فإنهم أجهل وأضل؛ لأنهم مشركون بالله في الشدة وفي الرخاء، ولا يكادون يوحدون الله تعالى في أي حال، فالحمد لله الذي أنقذنا وأخرجنا من الظلمات إلى النور، نسأله سبحانه أن يديم علينا نعمه، حتى نلقاه غير مبدلين ولا مغيرين ولا فاتنين ولا مفتونين.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]

قال (ك): «ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال: (ج) «معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض»[٢] ثم نزه نفسه الكريمة[٣] عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»[٤].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠) ومنه كلمة «للمؤمن» وكذا في مصادر التخريج، وفي الأصل: «للمؤمنين»!

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٢/ ١٤٢).

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٤٦).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الزمان يعبد المشركون الأنبياء، فالنصارى يعبدون عيسى، وهو نبي ويغلون فيه فيجعلونه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، والجهال المنتسبون إلى الإسلام يعبدون بعض الأنبياء، فيستغيثون بالنبي ﷺ فيقولون: يا رسول الله، يا محمد، أعطنا وأغثنا، كما قال قائلهم:

يا رسول الله يا بحر الوفا يا غياث المعتدي والمهتدي
إنني عبد ضعيفٌ وَجِلٌ وذنوبي ما لها من عددِ

فانظر إلى هذا الجاهل المشرك الذي يعتقد أن النبي ﷺ لا يغيث المهتدين فقط، بل يغيث المعتدين أيضاً، ثم توجه إلى النبي ﷺ في البيت الثاني يريد منه مغفرة ذنوبه، وهذا جهل عظيم، فإنه لا يغفر الذنوب إلا الله، والنبي ﷺ لا يغيث أحداً لا معتدياً ولا مهتدياً، وإذا كان يغيث المعتدي فهو إعانة له على الاعتداء، حاشاه من ذلك! ويعبدون النبي شيثاً، وقد بنوا عليه قبة في الموصل، ويعبدون النبي يحيى وقد نصبوا له تابوتاً في وسط مسجد بني أمية في دمشق، ويعبدون ما لا يحصى من الأضرحة والقباب التي بنوها على قوم سموهم أولياء وكثير منها في وسط المساجد أو بقربها، وقد زين لهم الشيطان هذا العمل الذي هو معصية للرسول ﷺ فقد تواتر نهيه عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من فعل ذلك[1]، وقد تقدم الكلام في هذا، وقال قائلهم في عبادة الأولياء:

أولياء الإله إنِّي مريضٌ والدواءُ لديكم والشِّفاءُ
انظروا لي بفضلكم في علاجي وامنحوني بجُودكم ما أشاءُ

قال الله تعالى في سورة الشورى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩﴾ [الشورى: ٩].

---

(١) وردت أحاديث كثيرة في ذلك، سيأتي بعضها، وممن قال بتواتر أحاديث اتخاذ القبور مساجد: ابن حزم في «المحلى» (٤/ ٣٥)، وابن حجر في «الفتح» (١/ ٢٠٣)، والسخاوي في «فتح المغيث» (٣/ ٤٠٩، ط. المنهاج)، والكتاني في «نظم المتناثر» (١٦٤).

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: ٢١]

«يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمةً من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ الآية [يونس: ١٢]، وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل، أي مطر، ثم قال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. «**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(١).

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ﴾ أي: أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير»(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: إن مشركي هذا الزمان ضربوا بسهم وافر في هذا النوع من الكفر، فإنهم يطلبون إعطاء الأولاد من الأموات والأحياء ممن يسمونهم أولياء، فإذا رزقهم الله ولداً اعتقدوا أن ذلك الولي الذي طلبوه منه، هو الذي أعطاهم ذلك الولد، وازدادوا له خضوعاً وخوفاً ومحبة وإجلالاً وتعظيماً وشكراً، فإن كان ميتاً ذبحوا الذبائح على قبره، وحمدوه ولهجوا بذكره، والتزموا كل سنة أن يذبحوا ذبيحة على قبره ليحفظ لهم ذلك الولد، وإن كان حياً جعلوا ذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)، وأبو داود (٣٩٠٦) وغيرهم من حديث زيد بن خالد الجهني.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٤٩).

الولد عبداً له، سواء أكان ذكراً أم أنثى، يؤدون له مالاً في كل سنة ليحفظه لهم، وإذا بلغت الأنثى وأراد التزوج بها أخذها، وإن لم يرد أن يتزوج بها هو ولا أحد أبنائه، أخذ نصف صداقها، وإذا انقطع عنهم المطر، يذهبون إلى قبور أوليائهم ويذبحون الثيران على الأولياء الكبار، والأكباش على الأولياء الصغار، ويتضرعون لهم في طلب المطر، ويقولون وهم حفاة حاسرو الرؤوس، والثور يمشي أمامهم ليذبحوه على القبر:

جئناكم قاصدين لا تردونا خائبين
يا أولياء الله الصالحين

وحدثت مرة في مدينة البيض، في جنوب الجزائر أن شابين اقتتلا بالأيدي في مبنى القهوة، وكلاهما يدّعي أن أباه ولي، وكان ذلك بعد نزول المطر، فقال أحدهما: إن الذي أنزل هذا المطر هو والدي، فقال له الآخر: كذبت، بل الذي أنزله هو والدي أنا، وكان لفظهما «جاء والدي بالمطر» وأنا عبرت عنه بالإنزال، والمعنى واحد، والحكايات في هذا المعنى كثيرة، فالله يوفقنا وينجح سعينا في دعوة هؤلاء إلى صراط الله المستقيم، ونسأله أن لا يضيع عملنا، ويختم لنا بالحسنى.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم من جن وإنس[1] وبر وفاجر، كقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية، أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كقوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩] وقوله: ﴿وَيَوْمَ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنس وجن».

تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤] وفي الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣][(١)] يتفرقون، وهذا[(٢)] يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء[(٣)] يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا[(٤)].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم كقوله: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية [مريم: ٨٢]، وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦] وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ الآية [الأحقاف: ٥، ٦].

وقوله في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما[(٥)] كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنَّا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً ولم يأمرهم بذلك، ولا رضي به، ولا أراده، بل تبرأ منهم[(٦)] أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير القادر[(٧)] العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله، وأنزل كتبه آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: يصيرون صدعين».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وهنا»!.
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولهذا قيل ذلك».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وفي الحديث الآخر: (**نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس**)»[(١)].
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنتم».
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في وقت».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على كل شيء».

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١١٦)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبيَّن أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة، تختبر كل نفس وتعلم ما سلف(١) من عملها من خير وشر كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩] وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤] وقوله: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(٢) ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه»(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذه الآيات أوضح الأدلة على أن من عبد غير الله تعالى من الأنبياء والصالحين وغيرهم لا يشعر المعبودون بعبادة العابدين ولا يعلمونها، إذ لا يعلم الغيب إلا الله، وحين يعرف هؤلاء المعبودون يوم القيامة أن أولئك المشركين كانوا يعبدونهم حين يجمعهم الله تعالى ويحشرهم جميعاً ـ العابدين والمعبودين ـ يتبرأ المعبودون من عبادة العابدين ويقولون لهم تصريحاً: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩].

وبيان ذلك أن المعبود إما أن يكون من العقلاء، فهو مشغول بما هو فيه من نعيم الجنة وكرامة الله تعالى إن كان من الصالحين، أو بعذاب الله تعالى إن كان

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أسلفت».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٥٨/٧ ـ ٣٦٠) بتصرف.

من الطالحين، فلا يعلم شيئاً من عبادة العابدين له، ولو علم ذلك لأنكره وتبرأ إلى الله منه، فما أخسر صفقة المشركين! الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فنعوذ بالله من الخسران.

فيا أيها القوم الذين أضلتهم الشياطين، وزينت لهم عبادة غير الله! توبوا إلى بارئكم وارجعوا إلى ربكم، ووحّدوه توحيداً تاماً ما دامت الفرصة سانحة لكم، فإنها لن تدوم، فإنكم لا تعلمون في أي وقت يأتيكم الموت ويحول بينكم وبين التوبة، اللهم أدم علينا نعمة التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد اتباع كتابك، وهدي نبيك محمد ﷺ إلى أن نموت، وأنت عنا راضٍ، والحمد لله رب العالمين.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣١ ـ ٣٥]

قال (ك): «يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الألوهية[1] فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزِّل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض[2] بقدرته ومشيئته فيخرج منها ﴿حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣١]، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١] وقوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلا له». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شقاً».

بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ الآية [الملك: ٢٣] وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٤٦] وقوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة ومنته العميمة[1] وأن الآية عامة لذلك كله، وقوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩] فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له وخاضعون له[2] ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم، وقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الآية، أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي: فكل معبود سواه باطل. لا إله إلا هو واحد لا شريك له: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ الآية، أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار؛ كقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ﴾ الآية، وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، ومن[3] عبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض، ويبدلهما بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خاضعون لديه».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «و».

وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو، ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي: أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويُبَصِّر بعد العمى أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يُهدى لعماه وبكمه كما قال تعالى، إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات، وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: فما بالكم أين يذهب بعقولكم؟ كيف سويتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة، ثم يبين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أي: توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه: سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: ذكر الله ﷻ في توحيد ربوبيته أموراً:

الأول: إنه هو الذي يرزق الناس والبهائم والطير وكل حي.

والثاني: إنه هو الذي يملك السمع والبصر وسائر القوى التي وهبها خلقه.

الثالث: إنه هو الذي يخرج الحي من الميت والميت من الحي، قال (ك): «أي: [يخرج الزرع من الحب، والحب](٢) من الزرع، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء»(٣).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٠ ـ ٣٦٢).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تخرج الزرع من الحبة والحبة».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٣).

الرابع: إنه سبحانه هو الذي يُدَبِّرُ جميع الأمور.

الخامس: إن الله سبحانه وتعالى نفى أن يكون أحد من الشركاء: لا عيسى ولا الملائكة ولا غيرهم، يستطيع أن يبدأ الخلق ثم يعيده، وصدّقه في ذلك جميع المؤمنين وجميع المشركين الذين قاتلهم النبي ﷺ، اعترفوا بأن شركاءهم عاجزون عن الخلق في البدء والإعادة.

والأمر السادس: إن الله ﷻ أخبر أنه هو الهادي وحده إلى الحق، وغيره، لا يهدي إلى شيء، بل غيره محتاج إلى هداية الله تعالى وإن علا منصبه وارتفعت درجته، كالملائكة والأنبياء، فهم مهديون بهداية الله ولا يملكون لغيرهم من الهداية شيئاً، وصدّقه في ذلك المؤمنون والمشركون، إلا أن المشركين في هذا الزمان ينازعون في توحيد الربوبية أيضاً، فيزعمون أن شركاءهم من الشيوخ أحياءً وأمواتاً، يتصرفون في العالم بالرزق وهداية القلوب وقد كفروا بالله تعالى، وبهذه الآية وغيرها، وكذبوا جميع الرسل، والمؤمنون من جميع الأمم، بل كل عاقل وإن لم يكن مؤمناً يكذبهم ويعلم أن الذي أوجد الخلق من العدم، وحفظ عليهم وجودهم بالإمداد، وهو الذي يميتهم عند انقضاء آجالهم، وهو الذي يبعثهم للجزاء، هو وحده المتصرف في جميع خلقه، وليس لغيره تصرف، سبحانه وتعالى عما يشركون.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩]

قال محمد تقي الدين: في هذه الآية الكريمة أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يخبر جميع الناس أنه لا يملك لنفسه ـ فكيف لغيره؟ ـ ضراً ولا نفعاً، ولكن ما شاء الله كان من الضر والنفع وما لم يشأ لم يكن، فهو مالك الملك، المتصرف في عباده، وإذا كان أفضل خلق الله وأكرمهم على الله لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، بطل كل ما بناه المشركون على شفا جرف هار، من تصرف الأولياء في الدنيا والآخرة.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٦]

قال (ك): «يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقياً كان لله ولياً[(١)] ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار بسنده إلى ابن عباس قال: قال رجل: «يا رسول الله من أولياء الله؟» قال: «**الذين إذا رؤوا ذكر الله**»[(٢)].

ثم ذكر (ك) حديثاً عن النبي ﷺ ورواه أئمة الحديث عن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت وغيرهما: «أن النبي ﷺ فسر قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بأن البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن أو ترى له، وفي الآخرة هي الجنة[(٣)]، وبذلك فسرها جماعة من

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فـ».

(٢) أخرجه البزار في «البحر الزخار» (١١/رقم ٥٠٣٤)، والمروزي في «زوائد الزهد» (٢١٨)، والدولابي في «الكنى» (١/١٠٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣٢٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/٢٣١)، والضياء في «المختارة» وقد أعله شيخنا الألباني بالإرسال في «الصحيحة» (١٧٣٣/٤) وقد كان حسنه عند رقم (١٦٤٦) لكنه ظن رحمه الله أن طريق البزار ليس فيها جعفر ابن أبي المغيرة، وقد تبين أن إسناد البزار الموصول فيه جعفر وهو سبب إعلال الحديث **والصحيح في الحديث الإرسال** وهذا الذي رجحه البزار، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (١٥، ٢٧) من مرسل سعيد بن جبير، فالحديث مرفوعاً، **ضعيف، والله أعلم**، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/٧٨).

(٣) في الباب عن جمع، وأقتصر على حديثين، هما: **حديث أبي الدرداء**: أخرجه الترمذي: =

السلف، وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ الآية، يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم، ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض. وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئاً لا ضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم، وتخرصهم وكذبهم وإفكهم»(١).

= الرُّؤيا (٤/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥) رقم (٢٢٧٨، ٢٢٨٠)، والتفسير (٥/ ٢٨٦) رقم (٣١١٥) أو (٤/ ١١٩) رقم (٢٢٧٣)، و(٥/ ١٨٤) (رقم ٣١٠٦، ط. بشار)، وأحمد (٦/ ٤٥٢، ٤٤٧، ٤٤٥)، والطيالسي (١٣١) رقم (٩٧٦)، والحميدي (١/ ١٩٣)، وابن أبي شيبة (١/ ٤٢ ـ ٤٣) رقم (٢٦) في «مسانيدهم»، وابن أبي خيثمة في «أخبار المكيين» (٤٢١ ـ ٤٢٢) رقم (٤٤٧، ٤٤٨)، والطبريّ في «تفسيره» (١٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥) رقم (١٧٧٢٢، ١٧٧١٧ ـ ١٧٧٢٤، ١٧٧٣٤، ١٧٧٣٧، ١٧٧٣٨، ١٧٧٤١، ١٧٧٤٣)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥/ ٤٢٠) رقم (٢١٨٠)، والحاكم: تعبير الرُّؤيا (٤/ ٤٣٣) رقم (٨١٨٠)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٥٨ ـ ٥٩)، والبيهقيّ في «الشعب» (٤/ ١٨٥) رقم (٤٧٥٣)، وابن البخاري في «مشيخته» (٤٧٣)، وإسحاق في «مسنده» ـ كما في «تخريج الكشّاف» (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣) للزيلعي ـ قال الترمذي: «حديثٌ حسنٌ»، وقال ابن عبد البر: **«هذا حديثٌ حسنٌ في التفسير المرفوع صحيحٌ من نقل أهل المدينة»**.

وحديث عبادة بن الصامت: أخرجه الترمذي: الرُّؤيا (٤/ ٥٣٤) رقم (٢٢٨٠) أو (٤/ ١٢٠) (رقم ٢٢٧٥، ط. بشار)، وابن ماجه: «تعبير الرُّؤيا» (٤/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩) رقم (٣٨٩٨)، وأحمد (٥/ ٣١٥، ٣٢١، ٣٢٥)، والطيالسي (٧٩) رقم (٥٨٣)، والدارمي في «سننه» (٢/ ١٢٣، ط. دهمان) (١/ ٥٥٩) (رقم ٢٠٦٠، ط. البغا)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٥) رقم (١٧٧١٨ إلى ١٧٧٢١، ١٧٧٢٥، ١٧٧٣٠، ١٧٧٣١، ١٧٧٣٩، ١٧٧٤٠، ١٧٧٥٦)، والشاشي في «مسنده» (٣/ ١٤٢ ـ ١٤٤) رقم (١٢١٦، ١٢١٧)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ١٩١)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢١٦)، والحاكم في «المستدرك» التفسير (٢/ ٣٧٠) رقم (٣٣٠٢)، وتعبير الرُّؤيا (٤/ ٤٣٣) رقم (٨١٧٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٨٥) رقم (٤٧٥١، ٤٧٥٢)، ورواه إسحاق في «مسنده»، وابن مردويه في «تفسيره»، وأبو يعلى في «مسنده» ـ كما في «تخريج أحاديث الكشّاف» (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣) للزيلعي ـ وهو حديثٌ صحيحٌ كالذي قبله، صحّحه الحاكم، ووافقه الذهبيُّ، وكذا شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٣٩١) رقم (١٧٨٦).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: المشركون يعبدون أشياء كثيرة ولا تقتصر عبادتهم على الأصنام فقط، والأصنام إنما يعبدونها لاعتقادهم أن أرواحاً متعلقة بها، هي التي تقضي حاجاتهم، وتحفظهم وتدفع عنهم الشر، وفي بعض الأوثان مقادير من الذهب غالية الثمن، كما في الوثن الذي في كربلاء بالعراق، وفي الوثن الذي في النجف، وفي غيرهما في بلدان مختلفة، مع أن المشركين هم الذين بنوا بأيديهم تلك القباب المذهبة على قبور الصالحين وغير الصالحين، فلو أنهم يعتقدون أن تلك القباب ليس فيها إلا اللبن والجص وتابوت الخشب على القبر والتحف المعلقة، ما عبدوها، ولكنهم يعتقدون أن روح المقبور لها قوة عظيمة، وأنها فرحت بتلك القبة والتابوت، والزائرين لها والطائفين بالتابوت والمتمسحين والمقبلين والمستغيثين والذابحين والناذرين والواضعين الدراهم في التابوت ليأخذها السدنة، فهي لذلك متلبسة بالقبة، وقد يأتي سيل عظيم فيجرف القبة والقبر والتابوت، ويترك المكان قاعاً صفصفاً، فلا يعتبرون بذلك ولا يفكرون في أنفسهم أن ذلك الولي ـ كما يسمونه ـ لو كان يقدر على جلب خير أو دفع ضر لحمى قبته، ودفع عنها السيل الذي هدمها، وإذا كان عاجزاً عن حماية قبته فهو عن قضاء حاجة عباده أشد عجزاً، ولكن المشركين لا يعقلون.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٣]

قال (ك): «يقول تعالى لنبيه صلوات الله عليه وسلامه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أخبرهم واقصص ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك، ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق

أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ أي: عَظُم عليكم ﴿مَّقَامِى﴾ أي: فيكم بين أظهركم ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ إياكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أم[1] لا، ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي فإن كنتم تزعمون أنكم محقون ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ولا تتأخروا[2] ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ الآية [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله ﷿، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم[3] كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] قال ابن عباس: «سبيلاً وسنة»، فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى في إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢] وقال يوسف: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١] وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وقالت السحرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أو».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تأخروني».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «مناهلهم».

[المائدة: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أي: من هذه الأمة، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد**»[1] أي: هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد علات» وهم الأخوة من أمهات شتى، والرب واحد، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي: على دينه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: في الأرض ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذه الآيات فوائد:

الأولى: إن الرسل قاسوا الشدائد في دعوة أممهم إلى توحيد الله والتمسك بالشريعة، فقد قابل هذه الدعوة أقوامهم بالتكذيب والاستهزاء وضروب الأذى، فصبر الرسل على ذلك، ولم يزحزحهم ما لقوا من أممهم قيد شعرة عن الدعوة إلى الله، ولم يخافوا وعيد قومهم؛ لأنهم وهبوا أنفسهم لله وأعظمهم صبراً وجهاداً: سيد البشر محمد ﷺ ومن درس سيرته الطيبة الكريمة، رأى العجب العجاب من ذلك وقد امتثل أمر ربه سبحانه إذ قال له في سورة الأحقاف: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥] وكذلك فعل أصحابه والتابعون لهم بإحسان، وكذلك فعل أيضاً اتباع الرسل من قبل، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ﴾ وفي رواية نافع[3]

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/٣٨٣ ـ ٣٨٦).
(٣) وقرأها هكذا أيضاً: ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن واليزيدي وقتيبة والمفضل، وعزيت لابن عباس، ورجحها ابن جرير، واختارها أبو حاتم.
انظر: «النشر» (٢/٢٤٢)، «حجة القراءات» (١٧٥)، «التذكرة في القراءات الثمان» =

«قُتِلَ» بضم القاف وكسر التاء ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وقد فسر علماء السلف الربيين بالمجموع، وقد فسروه بالعلماء الأتقياء.

قلت: والرِّبيُّ في اللغة العبرانية: هو الفقيه العالم التقي، و(الوهن): الضعف والاستكانة التذلل، فهكذا ينبغي لمن يتبع الرسول ويدعو إلى اتباعه أن يكون كما قال نوح: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ أي: كرهتم إقامتي بينكم ودعوتي لكم إلى سبيل الله، فأنا لا أخضع لكم ولا أتذلل ولا أضعف ولا أتبع أهواءكم، بل أصبر وأستمر على إعلان الحق، أحببتم أم كرهتم، وأنا متوكل على الله الذي بيده حياتي وموتى ونفعي وضري فافعلوا ما بدا لكم من الأذى، ولا تبقوني ساعة واحدة إن قدرتم على ذلك.

الفائدة الثانية: إن الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم لا يسألون على الدعوة على تعليم الناس وإرشادهم، فإن ذلك يتنافى مع الإخلاص في الدعوة فإنهم إذا أخذوا أجراً من المدعوين لا بدّ أن يخضعوا لهم وأن يخافوهم، والمدعوون أنفسهم إذا كانوا يعطون الداعي أجراً يرون لأنفسهم فضلاً عليه وينقص قدره عندهم أو يزول، فإنْ قلتَ: نحن نرى شيوخ الطرائق كلّاً على أتباعهم، فأتباعهم يخدمونهم ويبذلون أنفسهم وأموالهم، ومع ذلك يعظمونه غاية التعظيم، وهذا يبطل ما ادعيته!! أقول: على رسلك، فرق كبير بين دعوة أتباع الرسل ودعوة شيوخ الطرائق، فشيوخ الطرائق يوهمون أتباعهم أنهم ينفعونهم ويضرونهم إن شاؤوا، وإن كل ما عند أتباعهم من الأرزاق والنِّعَم هم الذين منحوهم إياه، زد على ذلك أن شيوخ الطرائق يتبعون أهواء المدعوين فيقولون لهم: ما دمتم مخلصين في خدمتنا فافعلوا ما شئتم من المعاصي، تغفر لكم ذنوبكم، وتكونون من أولياء الله الصالحين، ولا تذوقون سكرات الموت، ولا تسألون في قبوركم وتحملكم الملائكة على كواهلها فتمر بكم على الصراط أسرع من لمح البصر، وتدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب في الزمرة الأولى، وتكونون في الفردوس مع النبي ﷺ وأصحابه، انظر كتابي «الهدية الهادية إلى

= (٢٩٦)، «البحر المحيط» (٣/ ٧٢)، «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٧٦): «فتح القدير» (١/ ٣٨٦)، و«تفسير الآلوسي» (٤/ ٨٣).

الطائفة التجانية»[1] فلا غرابة إذا عبدوهم وبذلوا أموالهم وأنفسهم.

الفائدة الثالثة: إن الله تعالى أخبر بأنه أنجى رسله والذين آمنوا معهم حين حقت كلمة العذاب على الكافرين من أتباعهم، قال تعالى في سورة يونس في أواخرها: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يونس: ١٠٣] وكذلك ينجي سبحانه وتعالى من دعا إلى كتابه القرآن، وسنة رسوله محمد ﷺ من مكر المشركين، ويجعل لهم فرجاً ومخرجاً من كل شدة وكربة، ويخذل أعداءهم، وهذا مجرب لا شك فيه.

الباب التاسع

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: فإن الله كافٍ من توكل عليه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل: ٩] وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥] وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما[2] سلطوا لأنهم على الحق، ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك، هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحى، وقال ابن أبي[2] نجيح وغيره عن مجاهد: «لا تعذبنا بأيدي

---

(١) رد المصنف فيه (ص٥٤، ٥٨، ...) وفي غير موطن هذا الكلام، ومما قال: «إن أمور الآخرة لا يجوز لأحد أن يخبر عنها إلا بدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، ومن أخبر بشيء منها بدون دليل، فخبره مردود بإجماع المسلمين، ولا يساوي عند أهل العلم قلامة ظفر، بل يعدُّونه من الكذب على الله».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

آل[(١)] فرعون، [ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون][(٢)]: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سُلِّطنا عليهم فيفتنوا بنا»[(٣)] ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٤)] قوله: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين كفروا الحقَّ وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك»[(٥)].

فصل

قال محمد تقي الدين: هذا الذي خافه قوم موسى وسأل الله أن يحفظهم منه وقع فيه المدعون للإسلام في هذا الزمان، فقد صاروا فتنة للقوم الظالمين، ولم ينجوا من شر القوم الكافرين؛ لأنهم انهمكوا في المعاصي، وتركوا طاعة الله تعالى، ولم يتبعوا كتابه ولا سنة رسوله، ولم يوالوا أولياءه ولا عادوا أعداءه، فنعوذ بالله من الخذلان، فقد صار أعداء الإسلام يقولون فيهم: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا الذل، ولا وقع بينهم الشقاق والنزاع، ولا صار بأسهم بينهم؛ فتراهم على كثرتهم غثاء كغثاء السيل، لا يسرون صديقاً ولا يغيظون عدواً.

الباب العاشر

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قوم».

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد»، انظر: «تفسير مجاهد» (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٦١، ط. المعرفة)، و«تفسير سعيد بن منصور» (١٠٧٠)، و«تفسير ابن جرير» (١٥/رقم ١٧٧٨٦ ـ ١٧٧٩١، ط. شاكر)، و«الفتن» لنعيم (١/ ١٤٤) رقم (٣٦٠).

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا تسلطهم علينا فيفتنونا».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩١).

يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٤ ـ ١٠٩]

قال (ك): «يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن [دِينِى]﴾[(١)] صحة ما جئتكم به من[(٢)] الدين الحنيف الذي أوحاه الله إلي فأنا ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ وحده لا شريك له، وهو ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً، فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده النفع والضر[(٣)] هو الله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ الآية أي: أخلص العبادة لله وحده ﴿حَنِيفًا﴾ أي: منحرفاً عن الشرك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية، فيه بيان؛ لأنَّ الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، روى الحافظ ابن عساكر بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»**[(٤)] ثم

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الضر والنفع».

(٤) أخرجه القضاعي (١/ ٤٠٨) رقم (٧٠١)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٧٢٠) وفي «الدعاء» (٢٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) رقم (٣٠٦) وفي «الشعب» (٢/ ٤٢) رقم (١١٢١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣٧٨)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٣٣٩)، وأبو الفضل الكوكبي في «مجلس من الأمالي» ـ كما في «الضعيفة» (٦/ ٣١٣) ـ وأبو نعيم (٣/ ١٦٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ١٢٣)، والرافعي في «تاريخ قزوين» (٣/ ١٩٢) من طرق عن يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى بن إياس بن =

رواه من طريق الليث[١] عن أبي هريرة مرفوعاً بمثله سواء، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الآية، يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه، ولا شك فيه، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به[٢]، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى، وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: يجب على كل داع أن يتأمل هذه الآيات ويفكر فيها طويلاً ويعمل بها، فإنه لا بدّ أن يلقي من المدعوين شيئاً مما لقيه الداعي الأول ﷺ، ويقول كما قال القدوة العظمى: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ يا أيها المدعوون من صحة توحيد الله تعالى في عبادته فلا تطمعوا أبداً أن أوافقكم على شرككم بالله، سواء أعبدتم الملائكة أم الشياطين، وسواء أعبدتم الأنبياء والصالحين، أو قبورهم أو تماثيلهم أو المواضع التي كانوا فيها، فإنني لا أوافقكم على شيء من ذلك، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له؛ لأنه وحده هو

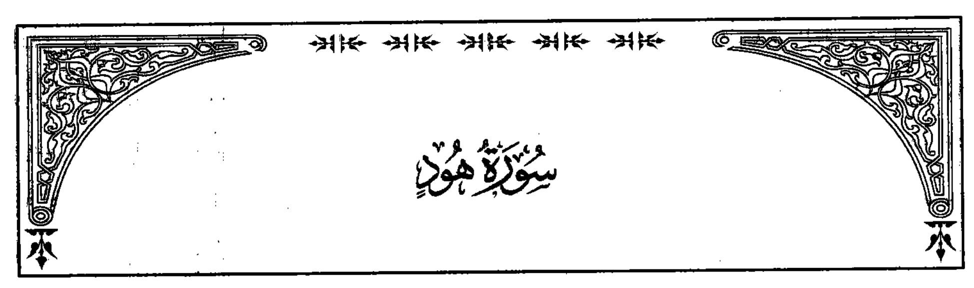
= بكير عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك مرفوعاً، وقال البغوي: «حديث **غريب**»، وقال الطبراني: «لا يروى إلّا بهذا الإسناد، تفرد به يحيى بن أيوب» قلت: وهو صدوق ربما أخطأ كما في «التقريب».
وانظر: «الصحيحة» (١٨٩٠) و«الضعيفة» (٢٧٩٨).

(١) رواه الليث بن سعد عن عيسى بن موسى عن صفوان بن سليم عن رجل من أشجع عن أبي هريرة، أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٢٧) والبيهقي في «الشعب» (١١٢٣) **وإسناده ضعيف**، لجهالة الرجل الأشجعي، وأعل البيهقي الطريق السابق بهذا، فقال: «هذا هو المحفوظ دون الأول»، **فالحديث لم يثبت**، والله أعلم، وانظر: «الضعيفة» (٢٧٩٨).

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٦ ـ ٤٠٨).

الذي يستحق العبادة، فهو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور، وأولئكم الذين تعبدونهم عاجزون عن كل شيء، مخلوقون محتاجون إلى الله، وقد أمرنا الله تعالى كما أمر رسوله محمداً ﷺ أن نكون من المؤمنين بكل ما جاء به هذا الرسول الكريم، وأوله توحيد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، واتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ وأمرنا أن نقيم وجوهنا لهذا الدين حنفاء لا نشرك بالله شيئاً، وأمرنا أن ندعو الله وحده لجلب الخير ودفع الشر، ولا ندعو من دونه أحداً، لأنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، ومن يدع غير الله لحاجة فهو من الظالمين المشركين إذا أصابنا ضر علمنا أنه لا يكشفه إلا الله، فدعوناه وتضرعنا له وإن أصابنا خير علمنا أنه من الله وحده، ولا يستطيع أحد أن يمنعنا منه فرجاؤنا كله من الله، وخوفنا كله من الله، لا نخاف غيره أن يصيبنا بضر، كالمرض والموت وتضييق الرزق وتعسر قضاء الحاجات وغير ذلك، ونعلم أن ما جاء به رسولنا خاتم النبيين هو الحق، لا نزيد عليه شيئاً ولا ننقص منه شيئاً، وإن حاربتمونا سألنا النصر عليكم من الله، وصبرنا حتى يحكم الله بيننا وبينكم، وهو خير الحاكمين.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [هود: ١، ٢]

قال (ك): «قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا(١) وبالله التوفيق، وأما قوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ أي: هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير(٢)، ومعنى قوله(٣): ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه الخبير(٤) بعواقب الأمور، ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ أي: نزّل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦] وقوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث «الصحيح»(٥) أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هاهنا».

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٢/ ٣٠٨) وكلام قتادة عند عبد الرزاق (١/ ٣٠١)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٩٥)، وابن جرير (١٢/ ٣١٠)، وعزاه السيوطي في «الدر» (٣/ ٣٢٠) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ أيضاً. وتفسير مجاهد: أسنده ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٩٥)، وابن جرير (١٢/ ٣١١) عنه.

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «خبير»!.

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس.

الأقرب، فاجتمعوا فقال: «**يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبّحكم ألستم مصدِّقي**»؟ فقالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: اختلف العلماء في الحروف التي بدئت بها بعض السور نحو: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓر﴾، فاختار بعضهم تفويض معناها إلى الله تعالى، إذ لم يرد في تفسيرها شيء عن النبي ﷺ ولا تتعلق بها أحكام وبعضهم اعتبرها تحدياً للمشركين المكذبين، فكأنه يقول لهم: إن زعمتم أن محمداً جاء بهذا القرآن من عنده فكلماته من حروف المعجم كالألف واللام والميم والراء والصاد والحاء والقاف، فركبوا أنتم كلمات وجملاً وسوراً تشبه القرآن في لفظه ومعناه، فأنتم عرب فصحاء، فكيف عجزتم أن تأتوا بأقصر سورة مثله؟، واستدلوا لهذا الرأي بأن القرآن يذكر بعد تلك الحروف في أكثر الفواتح، كالبقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد، إلى آخرها وهو رأي معقول والله أعلم، ودلالة الآية الثانية على إفراد الله تعالى بالعبادة وأن النبي ﷺ نذير لكل من أشرك به، بالعذاب المهين في الدنيا والآخرة، وبشير لكل من وحّده التوحيد الكامل بالسعادة في الدنيا والآخرة.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣١ ـ ٣٤]

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٠ ـ ٤١١).

قال (ك): «يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له[١] فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له[٢] على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن[٣] هؤلاء الذين تحقرونهم وتزدرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشر (هكذا)[٤] بعد ما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به، ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ الآية، «يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق، ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجِّلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[٥] أيُّ شيء يجدي عليكم إبلاغي[٦] وإنذاري إياكم ونصحي، ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إغواءكم ودماركم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق، وله الأمر وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة»[٧].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في سورة الأنعام أن الله أمر سيد الخلق

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يقدر».
(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «في»!
(٤) هذه من زيادة الهلالي.
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لكم».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣).

محمداً ﷺ أن يقول مثل هذا الكلام، وهو ثلاثة أمور:

﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ يعني: إنني فقير إلى الله كسائر الناس، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥] ولذلك لا يجوز لأحد أن يسأل النبي ﷺ شيئاً من خير الدنيا والآخرة، ولا دفع ضر أو عذاب، ولكنه يتوسل إلى الله تعالى بمحبة النبي واتباعه، فإنهما من أعظم الوسائل.

الأمر الثاني: إن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وإنما يعلم منه ما علمه الله تعالى.

الأمر الثالث: حاجته إلى ما يحتاج إليه البشر من أكل وشرب واستراحة ونوم، وليس كالملائكة الذين يستغنون عن ذلك، فالقدرة الكاملة، والعلم الكامل، والغنى المطلق كل هذه خاصة بالله تعالى، فأنت ترى أن الاثنين من أولي العزم وهما محمد ونوح أي: أولهم وآخرهم تبرأ بأمر من الله تعالى من الصفات الثلاث المذكورة، فما أجهل المشركين الذين يتعلقون بالمخلوق ويتركون الخالق.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧]

قال (ك): «هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، و﴿وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت [بإنجائهم][1] لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنجائهم».

أهلك، ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧] فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق؛ لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جريج واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ وبقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] فممن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين، وبعضهم يقول ابن امرأته وهذا يحتمل أن يكون أراد [ما أراد][(١)] الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازاً؛ لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم، وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: «ما زنت امرأة نبي قط»[(٢)] قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتك نجاتهم، وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله تعالى أغير من أن يمكن من امرأة نبي هذه الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١١، ١٥]»[(٣)].

قال الجمل في «حاشيته على الجلالين» عند قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ما نصه: «يعني قال تعالى ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ﴾ يعني: هذا الابن الذي سألتني نجاته ليس من أهلك، اختلف علماء التفسير هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه أم لا؟ فقال الحسن ومجاهد: كان ولد حنث من غير نوح،

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ١١٢) بلفظ: «ما بغت امرأة نبي قط».

وإسناده ضعيف، وعزاه في «الدر المنثور» (١٤/ ٥٩٦) لابن المنذر، وروي مرفوعاً عند ابن عساكر (٥/ ٣١٨) عن أشرس الخراساني رفعه إلى النبي ﷺ، **وإسناده مظلم، وهو معضل**.

وانظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٥/ ٣٦٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ٢٠٤٠ و١٠/ رقم ١٨٩٢٧)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٣ _ ٤٤٤).

ولدته زوجته على فراشه، ولم يعلم به[١]، فلذلك قال الله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وقال محمد بن جعفر الباقر: كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح، ولذلك قال: ﴿مِنْ أَهْلِي﴾، ولم يقل: مني، وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين: إنه ابن نوح من صلبه[٢]، وهذا القول هو الصحيح، والقولان الأولان: ضعيفان، بل باطلان، يدل على صحة قول الجمهور ما صح عن ابن عباس أنه قال[٣]: «ما بغت امرأة نبي قط»[٤]، ولأن الله تعالى نص عليه بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ [هود: ٤٢] ونوح أيضاً نص عليه بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] وهذا نص في الدلالة، وصرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة لا يجوز، وإنما خالف هذا الظاهر من خالفه لأنه استبعد أن يكون ولد نبي كافراً، وهذا خطأ ممن قاله؛ لأن الله تعالى خلق خلقه فريق في الجنة، وهم المؤمنون وفريق في السعير، وهم الكفار، والله تعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم، فإن الله أخرج قابيل[٥] من صلب آدم، وهو نبي، وكان قابيل كافراً، وأخرج إبراهيم عليه السلام وهو نبي من صلب آزر وكان كافراً، وكذلك أخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبي، فهو المتصرف في خلقه كيف شاء»[٦].

---

(١) أسنده ابن أبي حاتم (٦/رقم ١٠٩٢٦، ١٠٩٢٩) عن الحسن و(٦/ ١٠٩٣٠) عن مجاهد.

(٢) أخرجه عن ابن عباس بلفظ: «كان ابنه، ولكنه خالفه في النية والعمل»: سعيد بن منصور (١٠٩٤)، وابن جرير (١٥/ ١٨٢٢٥، ١٨٢٤٨)، وعبد الرزاق (١/ ٣٠٧)، وابن أبي حاتم (٦/رقم ١٠٩٢٢، ١٠٩٢٤، ١٠٩٢٧)، **وسنده لا بأس به.**
وقول عكرمة على إثر قول ابن عباس في بعض الطرق، وقول ابن جبير عند ابن أبي حاتم (٦/رقم ١٠٩٢٨)، وعنده قول الضحاك أيضاً (٦/رقم ١٠٩٢٥).

(٣) من مطبوع «حاشية الجمل»، وسقطت من الأصل.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) تسمية ولدي آدم بـ(قابيل) و(هابيل) إنما هو من نقل العلماء عن أهل الكتاب، لم يرد به القرآن، ولا جاء في سنة ثابتة فيما نعلم، فلا علينا أن لا نجزم به، ولا نرجحه، وإنما هو قول قيل. قاله العلامة أحمد شاكر في «عمدة التفسير» (١/ ٦٦٢، ط. الوفاء).

(٦) «الفتوحات الإلهية» (٣/ ٤٤٠).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد، أذكر بعضها:

الأولى: يظهر لي أن نوحاً سأل الله نجاة ابنه كنعان قبل أن يغرق، كما قاله الجمل، وكما قال الحافظ ابن كثير، أن السؤال سؤال استعلام، وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق، وأنت أحكم الحاكمين؟

الثانية: تأمل كلام الجمل، فإنه نفيس جداً، يبطل اعتماد الجاهلين على النسب، وقد ضل في هذا الباب خلق كثير، فاعتقدوا أن كل من كانت له علاقة بنبي أو صالح لا يعذب في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنه متعلق بحبيب من أحباء الله تعالى، والله لا يعذب بزعمهم من تعلق بأحد المحبوبين عنده، أو تعلق به أحد المحبوبين، كنوح وفي ذلك يقول مخاطباً النبي ﷺ:

أَلم يرضِكَ الرَّحمنُ في سُورة الضُّحى ... وحاشاكَ أَنْ تَرْضى وفينا معذَّبُ

وهذا من أجهل الجاهلين، فإن لازمه أن لا يدخل النار أحد من أمة الإجابة، وقد تواترت الأخبار بأن بعض هذه الأمة المحمدية من الذين ماتوا مصرين على الكبائر يدخلون النار، ثم يخرجون منها بشفاعة النبي ﷺ، ومن أجل ذلك اخترع بعضهم حديث إحياء الأبوين، وإيمانهما بالنبي ﷺ ثم إماتتهما[1]، وردوا بذلك الحديث «الصحيح» الذي رواه مسلم[2]، وهو قول النبي ﷺ للرجل الذي سأله: أين أبي؟: «**إن أبي وأباك في النار**» وردوا بذلك الحديث «الصحيح» الذي رواه (أ) و(ج) وابن أبي حاتم، أن النبي ﷺ مرّ بقبر أمه فاستأذن الله أن يزوره فأذن له ثم استأذن أن يستغفر لها، فلم يأذن له، فبكى وأبكى من حوله[3].

وإنما قاس هؤلاء النبوة والصديقية والصلاح على الملك القيصري أو الكسروي، فقالوا بجهلهم: كيف يعذب ابن الملك أو أبو الملك أو صديق الملك؟

---

(١) سبق بيان وهائه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣) من حديث أنس، وسبقت الإشارة إلى أحاديث الإحياء، وأنها لا أصل لها. انظر التعليق على (ص٤٨٦).

(٣) سبق تخريجه.

وما علموا أن بين النُّبوة والمُلك بُعد ما بين السماء والأرض، فالنبوة اختيار الله تعالى لبعض خلقه، وإنزال الوحي عليهم لتبليغ رسالته، فلا يلزم من ذلك أن يكون كل من تعلق بهم بنسب أو سبب مختاراً، والأدلة على هذا كثيرة منها: قول النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «**سليني من مالي ما شئتِ، وأنقذي نفسك من النار، لا أغني عنك من الله شيئاً**»[(١)] ومنها قوله عليه السلام في آخر حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم: «**ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»[(٢)] وليت شعري إذا عظم على هؤلاء الجهال أن يعذب الأبوان، فلماذا لم يخترعوا حديثاً لنجاة عبد المطلب وهو جد النبي ﷺ و«الجد أب»، كما قال أبو بكر الصديق[(٣)] رضي الله عنه، وهو في النار، بدليل قول أبي طالب عند موته: «هو على دين عبد المطلب»، فمات كافراً[(٤)]، ولكن كل من نبذ الكتاب والسنة واتبع هواه يقع في أودية الضلال، ومن أعجب العجب أن بعض شرار الدواب زعم أن بول أهل البيت طاهر؛ لقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم: ٥٩].

الثالثة: قد أحسن من[(٥)] نزه أنبياء الله أن تقع أي فاحشة من نسائهم مع كفر بعضهن.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٣٦٤٣)، والترمذي (٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) علقه البخاري في «صحيحه»: كتاب الفرائض، باب ميراث الجد مع الآب والإخوة (قبل رقم ٦٧٣٧) قال: «وقال أبو بكر وابن عباس وابن الزبير: الجد أب» قال: «ولم يذكر أن أحداً خالف أبا بكر في زمانه وأصحاب النبي ﷺ متوافرون».
ووصله عبد الرزاق (١٩٠٤٩)، وأحمد (٤/٤، ٥)، والبيهقي (٦/٢٤٦)، ثم وجدته موصولاً عند البخاري نفسه: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً**» رقم (٣٦٥٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) كأنه يريد صديقه شيخنا الداعي إلى الله على بصيرة العلامة الأديب المفسر محمد نسيب الرفاعي، وله في هذه المسألة مصنَّف مفرد بعنوان «نوال المنى في إثبات عصمة نساء النبي ﷺ من الزنى» ناولني إياه، وشرط عليّ أن لا ينشر، وأخذت مصورة ما زالت عندي بخطه، وذكر لي أن بعض مبتدعة بلادنا زاره راجياً له نشره، فأبى، وقال له: العلامة المحدث الألباني شيخي، وأنا معه ضدك، أو نحو هذا، فنشره بعد مماته مما لا يرضيه!!

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٠ ـ ٥٨]

قال (ﷺ) «يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ آمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه، ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ وفي الحديث: **«من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»**(١) ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ . . .﴾ الآية،

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٤٨)، وأبو داود (١٥١٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» من «الكبرى» (٦/ ١٠٢٩٠) وهو في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٦)، وابن ماجه (٣٨١٩)، والطبراني (١٧٧٤) وفي «الدعاء» (١٧٧٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٦٤)، والحاكم (٤/ ٢٦٢)، والبيهقي (٣/ ٣٥١)، وغيرهم من حديث ابن عباس، وصححه =

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجة وبرهان على ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بمجرد قولك اتركوهم نتركهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها، ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: طرفة عين وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه فإنه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ الآية، يقول لهم هود[١]: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له ﴿فَقَدْ﴾ قامت عليكم[٢] الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالي بكم، فإنكم لا تضرونه بكفركم، بل يعود وبال ذلك عليكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي شاهد[٣] وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم، ويجزيهم عليها: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وهو الريح العقيم، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه»[٤].

= الحاكم، وفي إسناده الحكم بن مصعب وهو مجهول كما في «التقريب»، وبه تعقبه الذهبي فقال: «الحكم بن مصعب فيه جهالة» **فإسناده ضعيف.**

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «هو»!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عليه»!

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مشاهد»!

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٩) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: أفكار المشركين وأقوالهم متشابهة في كل زمان ومكان، فهكذا يقول عبّاد الأوثان في هذا الزمان، كيف نترك الاحتفال بقبة الشيخ فلان التي وجدنا عليها آبائنا وأسلافنا، ولم يزل العلماء يوافقوننا على عبادتها، بالذبح والنذر والتمسح والطواف والتقبيل، وهم كانوا أعلم منك ولا تعرف أنت عشر معشار علمهم، فهذا علم جديد، ودين جديد جئتنا به، وسيضربك المدفونون في تلك القباب ضربة تردك إلى صوابك، ويحسن هنا أن أذكر حكاية عجيبة ذكرها الشعراني في «الطبقات الكبرى»(١) وهي أن الاحتفال

---

(١) يظهر أن المصنف قد دمج بين قصتين ذكرهما الشعراني في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٨٧) وهذا نص ما فيه:
«وأخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي ﷺ أن شخصاً أنكر حضور مولده، فسُلب الإيمان! فلم يكن فيه شعرة تحنُّ إلى دين الإسلام، فاستغاث!! بسيدي أحمد ﷺ فقال: بشرط أن لا تعود. فقال: نعم، فردَّ عليه ثوب إيمانه، ثم قال له: وماذا تنكر علينا؟ قال: اختلاط الرجال والنساء، فقال له سيدي أحمد ﷺ: ذلك واقع في الطواف ولم يمنع أحد منه، ثم قال: وعزة ربي ما عصى أحد في مولدي إلا وتاب وحسنت توبته وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك في البحار وأحميهم من بعضهم بعضاً، أفيعجزني الله ﷻ عن حماية من يحضر مولدي؟! وحكى لي شيخنا أيضاً: إن سيدي الشيخ أبا الغيث بن كتيلة ـ أحد العلماء بالمحلة الكبرى، وأحد الصالحين بها ـ كان بمصر فجاء إلى بولاق، فوجد الناس مهتمين بأمر المولد والنزول في المراكب، فأنكر ذلك. وقال: هيهات أن يكون اهتمام هؤلاء بزيارة نبيهم ﷺ مثل اهتمامهم بأحمد البدوي!! فقال له شخص: سيدي أحمد ولي عظيم، فقال: ثم في هذا المجلس من أهو أعلى منه مقاماً، فعزم عليه شخص، فأطعمه سمكاً، فدخلتْ حلقه شوكة تصلبت فلم يقدروا على نزولها بدهن عطاس ولا بحيلة من الحيل، وورمت رقبته حتى صارت كخلاية النحل تسعة شهور، وهو لا يلتذ بطعام ولا شراب ولا منام، وأنساه الله تعالى السبب فبعد التسعة شهور، ذكّره الله بالسبب فقال: احملوني إلى قبة سيدي أحمد ﷺ، فأدخلوه فشرع يقرأ سورة يس، فعطس عطسة شديدة، فخرجت الشوكة مغمسة دماً!! فقال: تبتُ إلى الله تعالى يا سيدي أحمد، وذهب الوجع والورم من ساعته».
قال أبو عبيدة: في كتاب **«الطبقات الكبرى» للشعراني طامات وأوابد**، وإليك نماذج من ذلك: فيه (١/ ٦٤) في (كرامات عبد الله بن عون): «كان يخلو في بيته صائماً متفكراً، وما دخل حماماً قط»، وفيه (٢/ ١٢٨) ضمن (كرامات نور الدين المرصفي) قال على لسانه: «ذكر لي سيدي أبو العباس قرأ بين المغرب والعشاء خمس ختمات، فقال الشيخ الفقير: وقع له أنه قرأ في يوم وليلة ثلاث مئة وستين ألف ختمة»!! وذكر (٢/ ١٤٠) من =

بموسم أحمد البدوي المدفون في طنطا يختلط فيه الرجال والنساء، ويقع الزنا بينهم، فتصدى أحد العلماء للإنكار عليهم، فلما رجع إلى بيته قدم له الطعام، وكان فيه سمك، فوقف له عظم صغير في حلقه لا يصعد ولا يهبط، وبقي كذلك سنتين، وكان القيح والصديد يخرج من فمه، ولا يتغذى إلا باللبن (الحليب)، وبعد مضي سنتين في ذلك العذاب تذكر أنه أنكر على المشتغلين في موسم أحمد البدوي، وخطر بباله أن أحمد البدوي انتقم منه لإنكاره على المحتفلين بموسمه ما يأتونه من الفاحشة، فندم وتاب في باطنه فرضي عنه البدوي وقبل توبته فسقط صبي له من مكان عالٍ إلى أسفل، ففزع وصاح صيحة شديدة فخرج العظم من فمه، وشفي في الحال.

يريد الشعراني بهذه الحكاية أن يخوف العلماء من سطوة أرواح المقبورين، حتى لا ينكروا على الفساق ما يفعلونه عند قبورهم، وهذا عين ما قاله قوم هود لهود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ ونحن نقول لهم اقتداء برسل الله عليهم الصلاة والسلام: إننا نشهد الله، واشهدوا أننا بريئون مما تشركون به يا عبّاد القبور، فكيدونا جميعاً أنتم وآلهتكم وأولياؤكم، وأهلكونا ولا تبقونا لحظة واحدة إن كنتم قادرين، ولا تظن أيها القارئ أن وقوع الزنا عند قبر البدوي خبر مبالغ فيه أو كذب، فقد أخبرني أخو الشيخ حسن عبد الرحمن من كبار العلماء المعاصرين للشيخ محمد عبده، ومن خيار السلفيين، أخبرني أن

= (كرامات إبراهيم بن عصيفير): «كان يتشوش من قول المؤذن: (الله أكبر) فيرجمه، ويقول: عليك يا كلب! نحن كفرنا يا مسلمين حتى تكبروا علينا»، وفيه عنه: «وكان يقول: أنا ما عندي من يصوم حقيقة إلا من يأكل اللحم الضاني أيام الصوم كالنصارى، وأما المسلمون الذين يأكلون اللحم الضاني والدجاج أيام الصوم، فصومهم عندي باطل»، وذكر فيه (٢/ ١٤١) عن شهاب الدين الطويل النشيلي أنه كان ينادي خادمه وهو في الصلاة، فإن لم يجئه مشى إليه وقال: «كم أقول لك: لا تعد تصلي هذه الصلاة المشؤومة فلا يستطيع أحد يخلصه منه»، وذكر فيه (٢/ ١٤٣) من (مكاشفات أبي الخير الكليباتي): «كان أغلب وقته واضعاً وجهه في حلق الخلاء في ميضاة جامع الحاكم، ويدخل الجامع بالكلاب»، وذكر فيه (٢/ ١٤٢) أن من (كرامات إبراهيم العريان): «كان يطلع المنبر ويخطب عُرياناً»، وأما إبراهيم المجذوب فكراماته: «كان كل فلوس حصلها يعطيها للمطبلين ويقول: طبلوا لي وزمروا لي» **في سلسلة من هذه الترهات والخرافات التي يصان العقلاء عنها، والإسلام منها بريء، والله حسبنا ونعم الوكيل.**

(. . . .) زنى بامرأة عند قبر البدوي، وكان الشيخ حسن قد أخبرني بذلك قبل أن نزور (. . .)، فلما زرناه قال له: اذكر ما فعلته عند قبر البدوي لمحمد تقي الدين ليزداد يقيناً، فذكر لي ذلك، ثم إن الشعراني حكى في ذلك حكاية. فانظر إلى أين يبلغ الجهل بالدين عند من يزعمون أنهم علماء[1]، بل أولياء وأقطاب، فماذا يقول العوام الجاهلون.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦١ ـ ٦٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم: الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم أخاهم صالحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ابتدأ

---

(١) انظر في هذا الباب ما عقده محمود عبد الرؤوف القاسم في كتابه: «الكشف عن حقيقة الصوفية» (ص٤٢٣ ـ ٥٩٣) فصلاً بعنوان (نماذج من حكايات الصوفية ومكاشفاتهم وكراماتهم وعلومهم اللدنية) أورد فيه عشرات القصص على وزان هذه القصة، فكن على حذر من الترهات والبواطيل والخرافات!

خلقكم منها، خلق منها أباكم آدم، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عماراً تعمرونها وتشغلونها ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [من سالف][1] ذنوبكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه، ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية، يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي شك كثير، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: خسارة، ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ الآية، تقدم الكلام عليها في (سورة الأعراف) بما أغنى عن إعادته، فللّه الحمد والمنة»[2].
انظر (الباب الخامس) من (سورة الأعراف).

فصل

قال محمد تقي الدين: وهذا بعينه موجود في مشركي هذا الزمان؛ فإنهم يعتبرون العالم الذي يدعوهم إلى توحيد الله واتباع سنة رسوله ناقص العقل أحمق، ويعتبرون العالم الذي يسالمهم ولا ينكر عليهم ما هم فيه من الشرك عاقلاً حسن الخلق، يقدر الناس حق قدرهم، ويعاشرهم بالإحسان، فهذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولكن من شرح صدره للإسلام، وكان على نور من ربه، لا يبالي بعداوة المشركين، بل يجدُّ في الدعوة إلى الله ويستنصر على أعداء التوحيد، فقد وعده بالنصر، والله لا يخلف الميعاد، قال تعالى في سورة المؤمن ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «السالف».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان بلاداً تعرف[(١)] بهم يقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ الآية، ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العثو[(٢)] في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق، وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال (ع): ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس، وقال: وقد روى هذا عن ابن عباس[(٣)]، قال (ك):

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بلاد معان في بلد يعرف».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «العيث».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قلت»: ونحو المذكور عند ابن جرير (١٢/٥٤١ ـ =

ويشبه قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ الآية [المائدة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله ﷻ لا تفعلوه ليراكم الناس بل لله ﷻ، ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الآية، يقولون له: على سبيل التهكم ـ قبحهم الله ـ: ﴿أَصَلَاتُكَ﴾ قال الأعمش: أي: قرآنك ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: الأوثان والأصنام ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فنترك التطفيف عن قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد، قال الحسن في قوله: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، إي: والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يعنون: الزكاة[١]، ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف يقولون[٢] ذلك ـ أعداء الله ـ على سبيل الاستهزاء»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: أول ما أمر نبي الله شعيب قومه به أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، ثم نهاهم عن نقص الكيل والوزن؛ لأن مَن وحّد الله حقاً في عبادته لا ينقص كيلاً ولا وزناً لمسلم، ولا لذمي، ولا لمعاهد، ولا لمصالح، فإن فعل ذلك دل على ضعف إيمانه بالله، وقوله: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ دليل على أن من نقص الكيل والوزن، فقد تعرض لعذاب الله الذي يحيط به ولا يدع له مخرجاً في الدنيا والآخرة، ثم أمرهم أن يوفوا الكيل والوزن إذا أعطوا غيرهم شيئاً مما يكال أو يوزن، وإيفاء الكيل والوزن، يلزم منه عدم نقصهما والعكس بالعكس، سواء أكان الشخص معطياً أو آخذاً وفي «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «**من غشنا فليس منا**»[٤]، وهذا دليل على أن العمل

= ٥٤٢)، وفيه: «وهذا قول روي عن ابن عباس **بإسنادٍ غير مرتضى عند أهل النقل**» ولم يسقه لوهائه وضعفه. وبنحوه عن سفيان الثوري عند سعيد بن منصور في «تفسيره» رقم (١٠٩٩).

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقولهم».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقول».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠ ـ ٤٦١) بتصرف.

(٤) سبق تخريجه.

داخل في الإيمان، كما هو مذهب جمهور أهل السنة، والقول الآخر ضعيف[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ دليل على أن الصلوات الصحيحة المقبولة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتأمر بالمعروف، وقال النبي ﷺ: «**من لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بُعداً**»، وقال النبي ﷺ: «**من لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له**» رواهما الطبراني[(٢)] من حديث ابن عباس. وقوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ يعني: أصلواتك تأمرك أن لا نتصرف في أموالنا كما نشاء، فنترك الصدقة إن شئنا، وإن كانت واجبة، ونوفي الكيل والوزن ولا ننقصهما إذا أخذنا وإذا أعطينا ننقصهما مع أنها أموالنا نتصرف فيها كيف نشاء؟ وهذا كلام الجاهلين الضالين، فإن المالك الحقيقي للأموال هو الله تعالى، والناس مستخلفون في تلك الأموال يجب عليهم أن يتصرفوا فيها كما أمرهم سيدهم وخالقهم ورازقهم ومالكهم ومالك أموالهم، ولا يجوز أن يتصرفوا فيها حسب أهوائهم، والحليم الرشيد، هو الذي يستحق أن يكون إماماً

---

(١) هو قول المرجئة المبتدعة، أعاذنا الله من شرهم، وفساد عقيدتهم.

(٢) أما الرواية الأولى: فقد أخرجها الطبراني في «الكبير» (١١/ ٥٤)، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ١٠٥) (رقم ٣٩٨، ط. طبرية): «رواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في «تفسيره» من حديث ابن عباس **بإسناد لين**».

وأما الثانية فلم أجدها عند الطبراني وإنما هي عند ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٦٥) رقم (١٧٣٣٩) من حديث عمران بن حصين مرفوعاً.

وأخرجه الطبراني (٩/ ١٠٧) رقم (٨٥٤٣)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص١٥٩)، وابن جرير في «تفسيره» (١٨/ ٤٠٩) عن ابن مسعود موقوفاً قال: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد من الله إلّا بعداً».

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٥١٤): «**والموقوف أصح**».

وقال أيضاً (١٠/ ١٥) «والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم، والله أعلم».

وقال عنه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ١٠٥): «**وإسناده صحيح**».

وقال شيخنا الألباني في «الضعيفة» (١/ ٥٦): «وجملة القول: إن الحديث لا يصح إسناده إلى النبي ﷺ، وإنما صح من قول ابن مسعود والحسن البصري وروي عن ابن عباس».

لقومه؛ لأنه يعفو عن مسيئهم وهو رشيد لا يأمر إلا بالخير فأنكروا عليه هذه الإمامة لجهلهم وسفاهتهم. ثم قال (ﷺ): «يقول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يا قوم ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرة فيما ادعو إليه ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين، وقال الثوري: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي: لا أنهاكم عن شيء[1] أخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ يقول: لم أكن أنهاكم[2] عن أمر وأرتكبه، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾أي: فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد[3] إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ أي: في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع، قاله مجاهد»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: أول شرط في الداعي إلى الله أن يكون على بصيرة، أي: على علم بما يدعو إليه بأدلته من الكتاب والسنة، ولا يجوز أن يكون مقلداً لغيره؛ لأن المقلد قد أجمع أهل العلم على أنه جاهل، أعمى لا بصيرة له، فإذا استفتى عالماً واجتهد في الاستفتاء كما يجب عليه باختيار المفتي الأعلم الأورع، الأتبع للسنة، وأفتاه بشيء جاز له العمل به في خاصة نفسه، ولا يجوز له أن يفتي بذلك لجهله بدليله. قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه». وهكذا قال الأئمة كلهم[5]، متبعين في ذلك لنصوص الكتاب والسنة. وقال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النّمري في كتابه: «جامع بين العلم وفضله»، من قصيدة له مفيدة:

لا فَرقَ بين مقلّدٍ وبهيمةٍ … تنقادُ بين جَنادِلَ ودعاثرِ[6]

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «الشيء».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لأنهاكم».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مرادي».
(٤) انظر: «تفسير ابن كيير» (٧/ ٤٦٢).
(٥) ذكره الإمام ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٨٨ ـ بتحقيقي) وأخرجه البيهقي في «المدخل» رقم (٢٦٢) عن أبي يوسف.
(٦) سبق ذكره.

الشرط الثاني: في الداعي إلى الله أن يكون مخلصاً في دعوته: فلا يترك ما أمر به، ولا يفعل ما نهى عنه، وهذا هو الإصلاح الحقيقي، ويسأل التوفيق دائماً من الله سبحانه، ويتوكل عليه وحده، ويرجع إليه في جميع أموره، فيكون جديراً بالنجاح.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود: ١٠٩]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون أنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء، [فيعذبهم](١) عذاباً لا يعذبه أحداً(٢)، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس(٣): ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ قال: ما وعدوا من خير أو شر»(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: أمرنا الله تعالى في هذه الآية اتباعاً لنبيّنا محمد ﷺ أن لا نشك في ضلال المشركين وعذاب الله لهم في الدنيا والآخرة، وهناك طائفة في هذا الزمان ممن يدعون العلم ـ أو يُدَّعى لهم ـ يداهنون المشركين، ويحاولون التستر عليهم، فإذا رأوهم يدعون غير الله لجلب الخير أو دفع الشر ويذبحون على القبور ويستغيثون بأهلها، وينذرون لهم ويهتفون بأسمائهم في

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيعذب كافرهم».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من العالمين».

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٣١٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١١٢٤٨)، وابن جرير (١٢/ ١٢٢) في «تفاسيرهم»، وابن المنذر وأبو الشيخ ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٣٧) ـ وجابر الجعفي ضعيف.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٥).

قيامهم وقعودهم عند فزعهم سكتوا عنهم، ولم ينبهوهم، حتى إذا جاء داعٍ من أهل الحق، ودعاهم وأخبرهم أن ما هم عليه من الشرك الأكبر الذي يخرجُ من الملة، أحب ذلك المتعالم أن يدافع عن المشركين ويظهر العطف عليهم ويقول للداعي: إن التكفير أمر عظيم، وهؤلاء جاهلون، ولا يقصدون بأعمالهم عبادة غير الله تعالى، فإذا قال له الداعي: أنا ما كفرتهم وإنما أخبرتهم أن هذا الذي يعملونه شرك وكفر، يجب عليهم أن يتوبوا منه فقال المتعالم: وهذا أيضاً لا ينبغي، قل لهم: هذا حرام، وتلطف معهم في القول، وهذا المتعالم إنما يقول ذلك لجهل أو نفاق، فإما أن يكون جاهلاً لا يعرف التوحيد بأدلته من الكتاب والسنة، أو يكون عالماً به ولكنه يتبع أهواء المشركين، وما أكثر هذا الصنف في هذا الزمان! لا كثرهم الله، والواجب على من أكرمه الله بالعلم أن يصدع به كما قال تعالى في آخر سورة الحجر: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٩]. فلما كفى الله رسوله الأمين المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، فسيكفي كل من اتبعه شر المستهزئين، ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر عباده الموحدين عليهم.

الباب الثامن

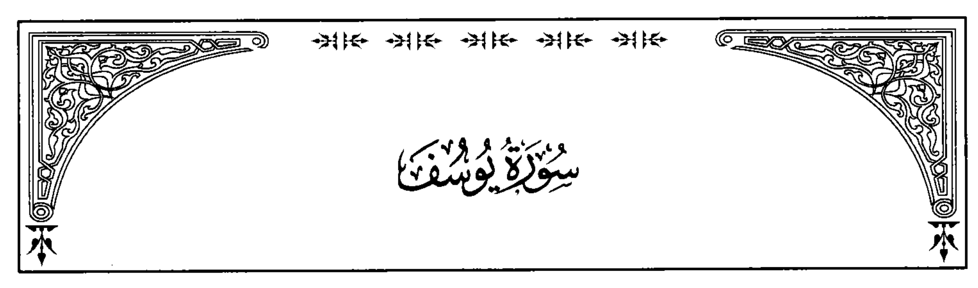
قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب[(١)]، فله الخلق[(٢)] والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه، فإنه كافٍ من توكل عليه وأناب إليه، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذِّبوك يا محمد؛ بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين»[(٣)].

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وسيوفي كل عامل عمله يوم الحساب».
(٢) كذا في «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الحق»!
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الآية جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وما أكثر الآيات التي تجمع بينهما، فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ دليل على توحيد الربوبية؛ لأن المعنى: إن كل غيب في السموات والأرض يعلمه الله وحده، ولا يحيط عباده بشيء من علمه إلا بما شاء، والأمور كلها راجعة إليه في مبدئها وفي مصيرها؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ دليل على توحيد العبادة لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون: ١ ـ ٣] مع أنهم كانوا يعبدون الله بالصدقة والحج وغير ذلك، ولكنهم كانوا يشركون بالله فأحبط الله أعمالهم، فإن من جعل عبادته تسعمائة وتسعة وتسعين جزءاً، لله سبحانه وجعل جزء واحد من الألف لغير الله لم يقبل الله منه شيئاً، قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦] وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أي: لا تصرف من عبادتك شيئاً لغير الله؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر.



سُورَةُ يُوسُفَ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٧ ـ ٤٠]

قال (ك): «هذا إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين[1] فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به، في الخير وداعياً إلى سبيل الرشاد، ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحاه إلينا وأمرنا به، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم[2] إلى ذلك

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الظالمين».
(٢) بعدها في الأصل: «دعاة» ولا معنى لها! ولا وجود لها في مطبوع «تفسير ابن كثير».

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم بل ﴿بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].
وقال ابن أبي حاتم[1] بسنده عن ابن عباس: أنه كان يجعل الجد أباً، ويقول: «والله من شاء لاعنتُه عند الحجر ما ذكر الله جداً ولا جدة، قال الله تعالى إخباراً عن يوسف: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾» ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾» الآية.

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء[2] لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: الذي ذل[3] كل شيء بعز[4] جلاله وعظمة سلطانه، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هي جهل[5] منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلفهم من سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجة ولا برهان، ثم أخبرهم إن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[6] فلهذا كان أكثرهم مشركين، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]»[7].

فصل

قال محمد تقي الدين: قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ

---

(١) في «تفسيره» (٧/ ١١٦١٢) وفيه حجاج بن أرطأة وهو صدوق كثير الخطأ والتدليس ولم يصرح بالتحديث، **والأثر صحيح** علقه البخاري بصيغة الجزم، وتقدم ذلك (ص٥٣٩).
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: وفي الأصل: «والدعوة».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولي».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لعز»!
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «جعل»!
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٨/ ٤٢، ٤٣).

بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ هو قول جميع الأنبياء، وقول كل من اتبعهم وأسلم وجهه لله، وأخلص دينه له، وحقق اتباع الرسل، وهذا هو الأصل العظيم، والأساس المتين الذي لا يختلف فيه الرسل وأتباعهم، ومن لم يحققه كان سالكاً غير سبيلهم لا يستحق نصر الله، ولا ينجو من عذاب الله، وقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ إلى آخره، حجة قائمة وحكمة بالغة، فإن من جعل في قلبه مكاناً لغير الله تعالى، يتشتت قلبه ويتفرق شمله، ويختل دينه وعقله؛ لأنه يخاف الله ويخاف غير الله، ويتمادى به الضلال إلى أن يخاف غير الله أكثر من خوفه لله، ويحب غير الله أكثر من حبه لله، ويعمل لغير الله أكثر من عمله لله.

ودونك مثالاً: لمّا كنت في الطريقة التجانية كنت ذات ليلة أطالع كتاباً شغفت به ومنعني النوم، فنظرت إلى الشمعة التي كنت أقرأ في ضوئها، وإذا بها تكاد تنتهي وليس لي غيرها، ولو فنيت لتوقفت عن القراءة وضاق صدري فلا أستطيع نوماً ولا أستطيع صبراً إلى الصباح، فخرجت من البيت في منتصف الليل أبحث عن دكان أشتري منه شمعة، فمضيت أطوف الشوارع فوجدت الدكاكين كلها مغلقة، ولم أزل أتنقل من شارع إلى شارع وكان ذلك في مدينة (وجدة) حوالي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة، وبعد طواف طويل، ظفرت بدكان، واشتريت منه شمعة، ولم تكن الكهرباء في ذلك الزمان موجودة في مدن المغرب، وفي ذهابي وإيابي كنت أمر بالسائلين، يسألون الناس، يقول أحدهم: «أعطوني شيئاً لوجه الشيخ عبد القادر الجيلاني» ويقول آخر: «أعطوني صدقة لأجل أهل وزان»، ويقول آخر: «أعطوني صدقة لوجه مولاي إدريس» ويقول غيره: «أعطوني صدقة لوجه الله» فلم أبال بأحد منهم، فلما وصلت البيت وأنا شديد الشوق لقراءة الكتاب سمعت سائلاً يقول: «أعطوني صدقة لوجه السيد أحمد التجاني» سمعته من بعيد فلم أستطع أن أحرمه، ورجعت إليه مسافة بعيدة، وأعطيته شيئاً من الدراهم فحينئذٍ طابت نفسي، فأنت ترى أنني في ذلك الزمان، كنت أحب مخلوقاً اتخذته إلهاً، وأخافه وأرجوه أكثر من حبي وخوفي ورجائي لله الخالق سبحانه، ولو أني سويت بين الخالق والمخلوق في الحب والخوف والرجاء لكنت من شرار الكفار.

كما قال تعالى في سورة الشعراء حكاية عن المشركين: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا

كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ٩٢ - ١٠١] فكيف وقد كنت أحب وأخاف وأرجو ذلك الشيخ العاجز الفقير، الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، أكثر من الله، ولم يكن يسمعني ولا يعرفني ولا يعلم بحالي، فأي كفر أعظم من هذا، فالحمد لله الذي هدانا صراطه المستقيم.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: ٦٧، ٦٨]

قال (ك): «يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، أن لا يدخلوا كلهم[1] من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه[2] كما قال ابن عباس وجماعة من السلف: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم[3]، فـ«**إن العين حق**»[4]، تستنزل

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «وإنه».

(٣) ثبت هذا في حديث صحيح أخرجه البخاري (٥٩٤٤)، ومسلم (٢١٨٧)، وأبو داود (٣٨٧٩) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٢٣٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٨) (رقم ١١٧٦٧) عن ابن عباس، **وإسناده ضعيف**.

وأخرجه بنحوه عن قتادة: ابن جرير (١٣/ ٢٣٧) وفي «التاريخ» (١/ ٣٥١)، وعبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢١٦٨ - ٢١٦٩) (رقم ١١٧٧٠، ١١٧٧١) **وإسناده صحيح**، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ٢٦) إلى ابن المنذر =

الفارس عن فرسه(١)، وقوله: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ أي: أن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه(٢) فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ قالوا: هي دفع إصابة العين لهم، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ قال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه(٣)، وقال (ع) لذو علم(٤) لتعليمنا إياه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: ثبت في الحديث أن بعض الناس إذا نظر إلى شيء واستحسنه ووقع في نفسه يصيب ذلك الشيء المستحسن ضرر، كأن ينظر إلى صبي جميل المنظر، أو إلى رجل، أو امرأة، فيصابون بمرض، أو غيره من المصائب، وثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ على الحسن والحسين المعوذتين ويقول: «**أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل عين لامة، ومن كل شيطان وهامة**»(٦) قال في النهاية(٧):

= وأبي الشيخ. وبنحوه عن الضحاك عند ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٨) رقم (١١٧٦٧)، وابن جرير (١٣/ ٢٣٧، ٢٣٨). وانظر: «الدر المنثور» (٤/ ٢٦).

(١) ورد هذا في **حديث حسن** ولفظه: «**العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر**»، أخرجه ابن عدي (٥/ ١٨٣١) وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٩٠) وأبو بكر الشيرازي في «سبعة مجالس من الأمالي» (٨/ ٢) ـ كما في «الصحيحة» (٣/ ٢٥٠) ـ والخطيب في «تاريخه» (٩/ ٢٤٤، ط. الكتب العلمية) من حديث جابر.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير» «قضاء الله وقدره».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهكذا أخرجه ابن جرير (١٣/ ٢٤٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٠)، (رقم ١١٧٧٧). وتؤكده الزيادة التي عند ابن جرير (١٣/ ٢٤١)، والثعالبي في «تفسيره» (٢/ ٢٤٨): «من لا يعمل لا يكون عالماً». وفي الأصل: «لذو علم بعلمه»!.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عمل»، والمثبت في «تفسير ابن جرير» (١٣/ ٢٤٠) والأصل.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٦ ـ ٥٧).

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس بلفظ: «كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله...**»».

(٧) «النهاية» (٥/ ٢٧٥).

«الهامة: كل ذات سم يقتل» فنحن نقتدي بالنبي ﷺ، فنعوذ أنفسنا وكل عزيز لدينا بما تقدم، ولكن لا ينبغي للإنسان أن يبالغ في الخوف من العين، حتى يصير موسوساً فينسب كل ما أصابه للعين، ويخاف على أولاده حتى يمنعهم من الخروج من البيت أو يلبسهم ثياباً بالية وسخة، ويمنعهم من غسل وجوههم، وما أشبه ذلك من الوسوسة. وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ يعني: جميع الأحكام الشرعية والقدرية كلها لله، لا يشاركه فيها أحد، لذلك لا ينبغي للعباد أن يتوكلوا على أحد سواه.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٦ ـ ١٠٨]

قال (ﷺ): «يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات وحيوان[١] ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات المتفرد بالدوام والبقاء، والصمدية ذي الأسماء[٢] والصفات، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به[٣]، وكذا قال غيره من

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وحيوانات».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «للأسماء».
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٣) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٧) رقم (١٢٠٣٤) وعزاه السيوطي في «الدر» (٤/ ٤٠) إلى أبي الشيخ.

السلف[١] وفي «الصحيحين»: إن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»[٢] وفي «صحيح مسلم» أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك، لبيك، لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: **«قد قد»**[٣] أي: حسب، حسب، لا تزيدوا على هذا.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهذا هو الشرك الأعظم، يعبد مع الله غيره كما في «الصحيحين» عن ابن مسعود: «قلت: يا رسول الله، أي: الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[٤]، وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[٥] وفي الحديث: **«من حلف بغير الله فقد أشرك»**[٦] رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر.

---

(١) مثل عطاء، أخرجه بسند صحيح عنه: سعيد بن منصور (١١٤٦)، وابن جرير (١٣/ ٣٧٣)، وابن المنذر وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٤/ ٥٩٣).

(٢) لم أجده في «صحيح البخاري» وإنما هو عند مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ١٢٠٤٠)، وابن أبي شيبة (٨/ ١٤) رقم (٢٣٨٠٩) نحوه.

(٦) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) وحسنه، وأحمد (٢/ ١٢٥)، وابن حبان (٤٣٥٨)، والحاكم (١/ ١٨ و٤/ ٢٩٧)، ـ وصححه على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي!! ويأتي ما فيه ـ، والبيهقي (١٠/ ٢٩) عن الحسن بن عبيد الله عن سعد بن عَبيدة عن ابن عمر.

والحسن ثقة، روى له الجماعة؛ خلا البخاري، **فإسناده صحيح** على شرط مسلم، كما قال الذهبي في «الكبائر» رقم (٧٤ ـ التحقيق الثاني).

وتابعه سعيد بن مسروق، عند الطحاوي في «المشكل» (٨٢٦).

وأخرجه عبد الرزاق (١٥٩٢٦) ـ ومن طريقه أحمد (٢/ ٣٤) ـ، والطيالسي (١٨٩٦)، والخطيب في «تالي التلخيص» (١/ ٢٧٠) رقم (١٥٤ ـ بتحقيقي) من طرق عن سعد به.

وأخرجه أحمد (٢/ ٨٦، ٨٧، ١٢٥)، والطحاوي في «المشكل» (٨٣٠)، والبيهقي (١٠/ ٢٩) من طريق شعبة، عن منصور، عن سعد بن عبيدة، قال: كنت عند ابن عمر، فقمت وتركت رجلاً عنده من كندة، فأتيت سعيد بن المسيب، قال: فجاء الكندي فزعاً، فقال: جاء ابن عمرَ رجلٌ، فقال: أحلفُ بالكعبة؟ قال: لا، ولكن أحلف برب الكعبة، فإن =

= عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تحلف بأبيك؛ فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك**».
وهذا يقتضي انقطاعه، قال البيهقي عقب روايته الأولى: «وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر»، ثم ساق الرواية الثانية التي تبين ذلك، ويأتي جوابه.
وأخرجه أحمد (٢/ ٦٩) من طريق شيبان، عن منصور نحوه، وسمّى الرجل الكندي محمداً.
ومحمد الكندي، قال عنه أبو حاتم: «مجهول»؛ كما في «الجرح والتعديل» (٨/ ١٣٢).
وأخرجه أحمد (٢/ ٥٨، ٦٠)، وابن أبي شيبة (٤/ ١٧٩) عن وكيع، والطحاوي في «المشكل» (٨٢٥) من طريق أبي عوانة؛ كلاهما عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، قال: كنت مع ابن عمر في حلقة، فسمع رجلاً في حلقة أخرى وهو يقول: لا وأبي؛ فرماه ابن عمر بالحصى، وقال: إنها كانت يمين عمر؛ فنهاه النبي ﷺ عنها، وقال: «**إنها شرك**»؛ لفظ وكيع.
ولفظ أبي عوانة: «كنت جالساً مع ابن عمر...» نحوه.
فهذا إسناد صحيح، صريح في أن سعد بن عبيدة سمع ذلك من ابن عمر وحضره.
ويدل على ذلك أيضاً رواية ابن حبان المتقدمة، وفيها قول سعد بن عبيدة: «كنت عند ابن عمر، فحلف رجل...».
وأخرجه أبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (٢/ ١٤١)، من طريق محمد بن فضيل، عن الأعمش، عن سعد، عن أبي عبد الرحمن، كذا سمع ابن عمر رجلاً يحلف... بنحوه.
والحاصل أن الحديث قد رواه عن سعد بن عبيدة أربعة من الثقات: منصور، والأعمش، والحسن بن عبيد الله، وسعيد بن مسروق والد سفيان، ورواياتهم متفقة، وظاهرها أن سعد بن عبيدة سمع ذلك من ابن عمر وحضره، خاصة وأنه لم يُذكر بتدليس.
ورواه منصور عن سعد بن عبيدة فاختلف عليه فيه: فرواه عنه سفيان الثوري وشعبة ويزيد بن عطاء مثل رواية من سبقه.
بينما رواه شعبة ـ أيضاً ـ وشيبان وجرير بن عبد الحميد فذكروا فيه الكندي، وفي رواية شيبان التصريح بأن اسمه محمد، وانظر: «مشكل الآثار» (٢/ ٣٠٠).
وهذه أسانيد صحيحة عن منصور، وعن سعد بن عبيدة، إلا أن رواية من رواه عن سعد، دون ذكر محمد الكندي أكثر، والجمع أحفظ من الواحد، سيما وقد اختلف عليه فيه، ولعل كلاهما صحيح، بأن يكون سعد بن عبيدة بلغه ذلك من الكندي بُعَيدَ أن قام من حلقة ابن عمر، فجاء من يسأله، ثم في مرَّة أخرى سمع ابنُ عمر رجلاً يقول ذلك فنهاه، وهاتان حادثتان منفصلتان، كما تقدم من الروايات، وتكون الرواية الثانية التي فيها ذكر الكندي لمنصور، لم يروها سواه، والله أعلم. والحديث صححه شيخنا الألباني في «إرواء الغليل» (٢٥٦١) وغيره.
(**تنبيه**): لم يذكر الحسيني في «الإكمال» ولا الحافظ في «تعجيل المنفعة» محمداً الكندي، مع أن روايته عند أحمد!! =

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»(١)، وفي لفظ لهما «**الطيرة شرك وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**»(٢) ورواه الإمام أحمد بسنده بأبسط من هذا عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وأنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة، فأدخلتها تحت السرير قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رقى لي فيه، فأخذه فقطّعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» قالت: قلت له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها؟ فكان إذا رقاها سكنت، فقال: إنما ذلك من الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ: «**أذهب البأس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**»(٣).

= **والمراد بالشرك هنا**: الشرك العملي الذي لا ينتقل المتلبس به عن الملة، وليس الشرك الاعتقادي. قال المناوي في «فيض القدير» (٦/ ١٢٠): «أي: فَعَلَ فِعْلَ أهل الشرك أو تشبه بهم، إذ كانت أيمانهم بآبائهم وما يعبدون من دون الله، أو فقد أشرك في تعظيم ما لم يكن له أن يعظمه؛ لأن الأيمان لا تصلح إلا بالله، فالحالف بغيره معظم غيره مما ليس فيه، فهو يشرك غير الله في تعظيمه، ورجحه ابن جرير». وانظر: «فتح الباري» (١١/ ٥٣١، ٥٣٨، ٥٣٩)، و«معطية الأمان من حنث الأيمان» (ص٨٣ ـ ٨٥) لابن العماد الحنبلي.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤، ١٥٦)، وأبو يعلى (٣/ ١٧٥٩)، وابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص٢٨٩)، والدولابي في «الكنى» (٢/ ١١٥)، وابن حبان (٦٠٨٦)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٤٦٠)، والروياني في «مسنده» رقم (٢١٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧) رقم (٨٢٠، ٨٨٥)، والحاكم (٤/ ٢١٦، ٢١٩، ٤٨٧)، من حديث عقبة بن عامر وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي، **والحديث حسن**، وأما حديث ابن مسعود، فسيأتي قريباً وفيه قصة.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩، ٤٣٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٩)، وأبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، والطيالسي (٣٥٦)، وابن حبان (٦١٢٢)، والشاشي (٦٥١، ٦٥٧)، والبيهقي (٨/ ١٣٩)، والبغوي (٣٢٥٧)، من حديث ابن مسعود، **وإسناده صحيح**، وانظر: «الصحيحة» (١/ ٤٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٨١)، وأبو داود (٣٨٨٣) ـ ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» =

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد بسنده عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلت على عبد الله بن عُكَيم وهو مريض نعوده، فقيل له: لو تعلّقتَ شيئاً، فقال: أتعلق شيئاً؟! وقد قال رسول الله ﷺ: **«من تعلق شيئاً وكِّل إليه»**(١)، رواه النسائي عن أبي هريرة(٢)، وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: **«من علق تميمة فقد أشرك»**(٣) وفي رواية: **«من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»**(٤).

وعن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

= (٩/ ٣٥٠) ـ وابن ماجه (٣٥٣٠) ـ وأبو يعلى (٥٢٠٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٢٤٠) والحاكم (٤/ ٤١٧، ٤١٨) وقال: «صحيح الإسناد على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي! وليس كذلك، ففيه يحيى بن الجزار لم يخرج له البخاري، وأحمد بن أبي شعيب لم يخرج له مسلم، وفيه محمد بن مسلمة أخشى أن يكون مقحماً في الإسناد ولم يتبيّن لي من هو، وصححه الحاكم أيضاً (٤/ ٢١٧) من طريق آخر عن ابن مسعود ووافقه الذهبي وهو به ـ إن شاء الله تعالى ـ حسن **والحديث صحيح بشواهده**، وصححه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١/ ٣٣١).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣) رقم (٢٣٨٠٤)، والترمذي (٢٠٧٢)، والحاكم (٢٠٧٢)، وابن قانع (٢/ ١١٧)، والطبراني، في «الكبير» (٢٢) رقم (٩٦٠). والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٣٥١)، **وإسناده ضعيف**، عبد الله بن عُكيم هو أبو معبد الجهني، صرح بذلك الترمذي، وظنه الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٣) غيره، وكذا أورد الحديث في كتابه، وهو ـ على التحقيق ـ ليس على شرطه.
وابنُ عكيم هذا في صحبته نظر، وفيه ابن أبي ليلى سيئ الحفظ، وذكر له ابن قانع علة ثالثة، إلا أن **الحديث حسن** لغيره بشواهده، سيأتي منها حديثا أبي هريرة وعقبة.
ومن شواهده أيضاً: حديث عمران بن حصين، أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجه (٣٥٣١)، وابن حبان (٦٠٨٥)، والطبراني (١٨) رقم (٣٩١) من طريق الحسن البصري عنه، وفي سماعه منه كلام، وانظر: «غاية المرام» رقم (٢٩٧).

(٢) أخرجه النسائي (٧/ ١١٢) (كتاب: تحريم الدم، باب: الحكم في السحرة) من طريق الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً، والحسن لم يسمع من أبي هريرة عند الجمهور، قاله المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٥٨٥ ـ بعنايتي)، فإسناده منقطع، وفيه عباد بن ميسرة، **والحديث حسن بشواهده**.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦)، والحارث بن أبي أسامة (٥٣٨ ـ زوائده)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٨٨٥)، والحاكم (٤/ ٢١٩)، **وإسناده قوي**، وانظر: «الصحيحة» (١/ ٤٩٢).

(٤) سبق تخريجه.

«يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»(١) رواه مسلم.

وعن أبي سعيد بن أبي فَضَالَة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»**(٢) رواه الإمام أحمد.

وقال أحمد بسنده عن محمود بن لَبيد أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»** قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **«الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»**(٣) وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»**، قالوا: يا رسول الله ما كفارة ذلك؟ قال: **«أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»**(٤). وقد روى الإمام أحمد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٦ و٤/ ٢١٥)، والترمذي (٣١٥٢)، وابن ماجه (٤٢٠٣)، والبخاري في (الكنى) من «التاريخ الكبير» (٨/ ٣٦)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٣٥)، وابن حبان (٤٠٤، ٧٣٤٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٢) رقم (٧٧٨)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٦٨١٧) وإسناده حسن، **والحديث صحيح لغيره.**

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٨١)، وابن خزيمة (٩٣٧)، والبغوي (٤١٣٥)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٠٧) وقال عن إسناد أحمد: «رجاله رجال الصحيح» قلت: نعم ولكنه عنده منقطع: عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب لم يسمعه من ابن لبيد، بينهما عاصم بن عمر بن قتادة، وهو ثقة، ولذا قال شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٩٥١): «**إسناده جيد**، رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير محمود بن لبيد، فإنه من رجال مسلم وحده، قال الحافظ: وهو صحابي صغير، وجل روايته عن الصحابة».

وهو عند الطبراني (٤٣٠١) من طريق محمود بن لبيد عن رافع بن خديج، وجوّده المنذري في «الترغيب» وقال: «قيل: إن حديث محمود بن لبيد هو الصواب، دون ذكر رافع بن خديج فيه، والله أعلم»، وفي رواية عند البيهقي (٢/ ٢٩٠، ٢٩١) عن محمود بن لبيد عن جابر بن عبد الله، ورجاله ثقات.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٨) وقال: «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات» =

وأبو داود والترمذي وصححه النسائي من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن عاصم سمعت[1] أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي قال: «**قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه**»[2].

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية، أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥ ـ ٤٧] ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ الآية، يقول تعالى لرسوله[3] ﷺ إلى الثقلين، الجن والإنس، آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة، ويقين وبرهان [عقلي، وشرعي][4] وقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وأنزّه الله وأجلّه وأعظمه وأقدّسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدّس وتنزّه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ

= ورواه ابن وهب في «الجامع» (ص١١٠)، ومن طريقه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٨٧) عن ابن لهيعة به، وحديث ابن لهيعة **يصحح** إذا كان من رواية أحد العبادلة عنه، وانظر: «الصحيحة» (٣/ ١٠٦٥).

(١) في الأصل: «وسمعت»! والصواب حذف الواو.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٧٦٩٩، ٦/ ١٠٤٠٢)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (١٣٨، ١٣٩، ٥٨٣)، و«الأدب المفرد» (١٢٠٣)، وأحمد (٢/ ٢٩٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٣٧، ٢٣٨)، والطيالسي (٩، ٢٥٨٢)، والدارمي (٢٦٨٩)، وابن حبان (٩٦٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٥)، والحاكم (١/ ٥١٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٢٠، ٢٦)، والخطيب (١١/ ١٦٧) **وإسناده صحيح**.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لعبده ورسوله».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شرعي وعقلي».

كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: (الرُّقى) ـ جمع رُقية، بضم الراء في المفرد والجمع ـ وهي ما يقرأ على الإنسان من الأدعية والقرآن وغير ذلك للحفظ من العين أو المرض أو شفاء المرض، فإذا كانت الرقية كلاماً مفهوماً ليس فيه شرك فهي جائزة.

و**(التمائم)** ـ جمع تميمة ـ وهي كل ما يفعله الإنسان في عنقه أو عضده للأغراض المتقدمة الذكر، ولا يجوز شيء منها، فكلها شركٌ، وإن كانت من القرآن. **(والتولة)** قال ابن الأثير[٢]: «(التِّولة) ـ بكسر التاء وفتح الواو ـ: ما يحبِّب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، جعله من الشرك؛ لاعتقادهم أن ذلك يؤثر ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى».

قوله: **«وما منا إلا»**... إلخ. هذا من كلام ابن مسعود أدرجه في الحديث، ومعناه: كل واحد منا يعرض له شيء من الطيرة فيدفعه الله عنه بالتوكل، فإذا خرج إنسان من بيته وسمع كلاماً قبيحاً، نحو خاسر أو ضائع أو لا يفلح يقع في نفسه شيء من الكراهية لما سمع، ولكنه يتوكل على الله، ويمضي إلى حاجته، ولا يرجع ويقول: **«اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»**[٣]، فهذا لا يضره، أما إذا رجع خوفاً مما سمع، فذلك هو الشرك.

و**(الحمرة)**: قال صاحب «اللسان»[٤]: «والحُمْرَة داء يعتري الناس فيحمر

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٣ ـ ٩٢) بتصرف.

(٢) في «النهاية» (١/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٥): «رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات».
وقد روى هذا الحديث عن ابن لهيعة: عبد الله بن وهب في «جامعه» رقم (٦٥٥) ومن طريقه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٢٩٢) **فصح الحديث بذلك والحمد لله.**
وله طرق عن عبد الله بن عمرو قوله، أخرجه ابن وهب في «الجامع» (٦٥٩، ٦٦٠)، وأحمد في «الزهد» (ص٢٣٨)، وأبو نعيم (٦/ ٢١) ولعله أشبه وفي الباب عن روفيع بن ثابت وفضالة بنت عبيد وبريدة بن الحصيب.
وانظر: «الإعلام» (٦/ ٥٦١ ـ ٥٦٢ بتحقيقي).

(٤) «اللسان» (٤/ ٢١١): (حمر).

موضعها وتغالب بالرقية، قال الأزهري: الحمرة من جنس الطواعين، نعوذ بالله منها».

وقوله عليه الصلاة والسلام : «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**» دعاء على من يتعلق التمائم أن لا يتم الله له مراده، وقوله: «**من تعلق ودعة فلا ودع الله له**». قال في «القاموس»(١): «الودعة، ويُحرَّك، جمع ودعات: خرز بيض تُخرَج من البحر بيضاء، شقُّها كشَقّ النَّواة تُعلّق لدفع العين» اهـ.

ومعنى: «**فلا ودع الله له**» أي: فلا ترك له شيئاً يحبه، ودعاء من النبي ﷺ على من يتعلَّق ودعة، وودع فعل ماضٍ بمعنى ترك، استعمال الفعل الماضي قليل، والأكثر استعمال الفعل المضارع والأمر.

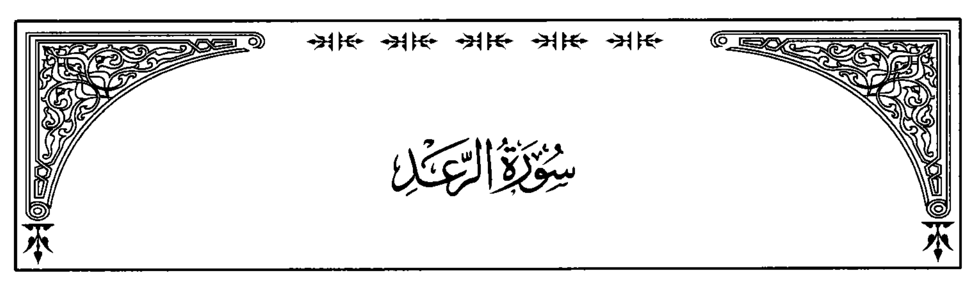
فصل

قال محمد تقي الدين: في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ الآية برهان قاطع على إبطال التقليد بالنسبة إلى المفتي والقاضي والداعي؛ لأن هؤلاء إذا كانوا مقلدين، فهم على غير بصيرة(٢) في قضائهم وإفتائهم ودعوتهم الناس إلى شيء ليس لهم عليه دليل، وهم غير متبعين للرسول ﷺ؛ لأن الله أمره أن يقول: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أمر من الله تعالى لرسوله ومن اتبعه أن ينزهوه عن القول عليه بلا علم؛ لأن ذلك يفضي إلى الشرك؛ لأن من جعل الحكم لغير الله ورسوله الذي لا ينطق عن الهوى فقد أشرك كما تقدم في آية التوبة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

---

(١) «القاموس المحيط» (ص٩٩٤): (ودع).

(٢) هذا صحيح، «سواء كان المعنى: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ يدعو إلى الله على بصيرة، أو كان الوقف عند قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ ثم يبتدئ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾، فالقولان متلازمان، فإنه أمره سبحانه أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله، فمن دعا إلى الله تعالى؛ فهو على سبيل رسوله ﷺ، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه، ومن دعا إلى غير ذلك؛ فليس على سبيله، ولا هو على بصيرة، ولا هو من أتباعه». قاله ابن القيم في «جلاء الأفهام» (٥٨١ ـ بتحقيقي). ونحوه في «المدارج» (٢/ ٤٨٢)، و«الصواعق» (١/ ١٥٥)، و«مفتاح دار السعادة» (٨٥، ١٦٧ ـ ١٦٨).



سورة الرعد

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]

قال (ك): «قال ابن أبي حاتم بسنده عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حول[١] الله عنهم ما[٢] يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن تصديق[٣] ذلك في كتاب الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾»[٤] وفي «تفسير الجلالين» ما نصه: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ لا يسلبهم نعمته ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الحالة الجميلة بالمعصية ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ عذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[٥]، ﴿وَمَا لَهُم﴾ لمن أراد الله بهم سوءاً ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: غير الله ﴿مِن﴾ زائدة[٦] ﴿وَالٍ﴾ يمنعه عنهم»[٧].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تحول». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لهم مما».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مصداق».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ١٢٢٠١) وابن أبي الدنيا في «العقوبات» رقم (٥٧)، وإبراهيم هذا هو ابن يزيد النخعي، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٨، ١١٩).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير الجلالين»: «من المعقبات ولا غيرها».

(٦) ليس كذلك، فلا يوجد شيء زائد في القرآن الكريم، فالنكرة في سياق النفي تفيد العموم، وإن سبقت بـ(من) كانت نصاً في العموم، فالنكرة تدلل على أي فرد من الأفراد، فإن سبقها نفي لزم عقلاً العموم، وذلك أن العقل يحكم أن انتفاء الفرد المبهم لا يتحقق إلا بانتفاء جميع الأفراد، انظر: «شرحي على الورقات» المسمى «التحقيقات والتنقيحات السلفيات» (ص١٨٧).
فـ﴿مِن وَالٍ﴾ مفيدة شيوع وعموم نفي جنس شيء من الولاية، وهو نفي مستغرق لأي جنس من أجناس الولاية وأنواعها، ولو لم تأت (من) لم يكن ليوجد هذا المعنى المستغرق.

(٧) انظر: «تفسير الجلالين» (ص٣٢٢، ط. المكتب الإسلامي).

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه آية عظيمة، والمسلمون في هذا الزمان في أشد الحاجة إلى تدبرها، فإن التتار هجموا على بلاد الإسلام(١) ولم يكن هجومهم في زمن دول الإسلام العظيمة الثلاث، وهي دولة الخلفاء الراشدين، ودولة بني أمية، وصدر دولة بني العباس، وكان هجومهم في زمان لا يخلو فيه المسلمون من ضعف وتفرق، ولكن كانت عندهم بقية من الإيمان وتحكيم شريعة الرحمن، فنصرهم الله على ذلك العدو القوي وبعد ذلك هجم عليهم عدو أقوى من الأول، وهم الصليبيون نصارى أوروبا كلهم بملوكهم وجيوشهم،

---

(١) لشيخ الإسلام ابن تيمية «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» أوردتها بتمامها في كتابي «العراق في أحاديث وآثار الفتن» (٢/ ٧٣٧ ـ ٧٤٦)؛ المتأمل فيها، يتبرهن له صدق شيخ الإسلام، وصفاء سريرته، وحسن ربطه لما يقع في المسلمين من البلايا والمحن (سنة الله الكونية) بما ينبغي أن يكون عليه المسلمون (سنته الشرعية). فاسمع إليه، وانظر حولك، وتفقَّد تجد، قال رحمه الله تعالى عن البلاء الذي وقع بالمسلمين آنذاك: «وقد أظهر الله في هذه الفتنة(١) من رحمته بهذه الأمة وجُنْدِها ما فيه عبرةٌ، حيث ابتلاهم بما يُكفِّر به من خطاياهم، ويُقبِل بقلوبهم على ربهم، ويجمع كلمتهم على وليّ أمرِهم، ويَنزِعُ الفُرقةَ والاختلافَ من بينهم، ويُحرِّكُ عَزَماتِهم للجهاد في سبيل الله وقتال الخارجين عن شريعة الله.

فإنّ هذه الفتنة التي جَرتْ ـ وإن كانت مُؤلمةً للقلوب ـ فما هي ـ إن شاء الله ـ إلّا كالدواء الذي يُسقَاه المريضُ ليحصل له الشِّفاءُ والقوة، وقد كان في النفوس من الكِبْر والجهل والظلم ما لو حَصَل معه ما تشتهيه من العِزّ لأعقَبها ذلك بلاءً عظيماً.

فرحم الله عبادَه برحمتِه التي هو أرحم بها من الوالدة بولدها، وانكشف لعامة المسلمين شَرْقاً وغَرْباً حقيقةُ حال هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام، وإن تكلّموا بالشهادتين، وعَلِمَ مَن لم يكن يعلم ما هم عليه من الجهل والظلم والنفاق والتلبيس والبُعد عن شرائع الإسلام ومناهجه، وحَنَّتْ إلى العساكر الإسلامية نفوسٌ كانت مُعرِضةً عنهم، ولَانَتْ لهم قلوبٌ كانت قاسيةً عليهم، وأنزل الله عليهم من ملائكته وسكينته ما لم يكن في تلك الفتنة معهم، وطابت نفوس أهل الإيمان ببذل النفوس والأموال للجهاد في سبيل الله، وأعدُّوا العدَّة لجهاد عدوِّ الله وعدوِّهم، وانتبهوا من سِنَتِهم، واستيقظوا من رقدتهم. . .» في كلام بديع، يستفيد منه أهل البصائر العاملون لتحقيق الولاية لله ورسوله والمؤمنين.

---

(١) يشير بها إلى وقعة قازان سنة (٦٩٩هـ)، التي انكسر فيها جيش السلطان الملك الناصر أمام التتار بوادي الخزندار، وقُتل فيها جماعة من الأمراء وخلقٌ كثير من العوام، وأبلوا بلاءً حسناً. انظر: «نهاية الأرب» (٣١/ ٣٨٤)، و«البداية والنهاية» (١٧/ ٧١٨).

واستمرت الحرب بين هذا العدو القوي وبين المسلمين مائة وتسعين سنة، وكانت العاقبة للمؤمنين، فهزم النصارى شر هزيمة على يد الملك الصالح صلاح الدين الأيوبي، وكان يعظم حرمات الله، ويحكم بشرع الله فنصره الله، وفي هذا الزمان هجمت عليهم شرذمة قليلة من اليهود وعددهم يزيد على سبعمائة مليون(١) فلم يستطيعوا الانتصار عليها؛ لأنهم لا يريدون أن يغيروا ما بأنفسهم، وهو الحكم بغير ما أنزل الله، ونبذ كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، ولا يزالون على هذه الحال، ومع ذلك يطمعون في النصر فكأنهم لا يؤمنون بهذه الآية، ونحن منذ عشرات السنين نؤكد لهم أعظم تأكيد أنهم لن ينتصروا إلا إذا رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله، وحكّموا شرع الله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٤ ـ ١٦]

قال (ك): «قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قال: التوحيد،

---

(١) أما الآن، فيزيد على المليار ومئتي مليون، اللهم احفظهم، وبارك في عددهم، وخلّصهم مما هم فيه من الهوان، وحسّن حالهم وجمّله، بأن تتوب عليهم، وترضى عنهم، وتحبهم، ليحبوك ويرضوا عنك، ويتوبوا إليك، قال أبو زيد: «غَلِطتُ في أربعة أشياء: في الابتداء مع الله تعالى: ظننت أني أحبّه فإذا هو أحبّني؛ قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. وظننت أني أرضى عنه فإذا هو قد رضِي عني؛ قال الله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾. وظننت أني أذكره فإذا هو يذكرني؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. وظننت أني أتوب فإذا هو قد تاب عليّ؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾». نقله القرطبي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٨).

رواه (ج)[١] وقال ابن عباس وبعض من السلف: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ لا إله إلا الله[٢] ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الآية، ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ قال علي بن أبي طالب: «كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبداً، فكيف يبلغ فاه؟!»[٣] وقيل: المراد كقابض يده على الماء فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر[٤]:

فــإنِّـي وإيّــاكُــم وشَــوقــاً إلــيــكُــمُ ... كـقـابـضِ مـاءٍ لـم تَـسِـقْـه أنـامِـلُـهْ

وقال الآخر[٥]:

فأصبحتُ مما كان بيني وبينَها ... من الودِّ مثلَ القابضِ الماءَ باليدِ

ومعنى الكلام: إن[٦] الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً، وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون به أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ الآية.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من الكافرين ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي: البكرات[٧] ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار كقوله تعالى:

---

(١) في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٦)، وعزاه السيوطي في «الدر» (٤/ ٥٣)، لأبي الشيخ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٣٣٤)، وابن جرير (١٣/ ٤٨٥، ٤٨٦)، والطبراني في «الدعاء» (٣) رقم (١٥٨٠، ١٥٨١، ١٥٨٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٤) من طرق عن ابن عباس، **وهو صحيح بمجموعها إن شاء الله تعالى.**
وزاد في «الدر المنثور» (٤/ ٥٣) عزوه للفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وأسنده ابن جرير عن قتادة وابن زيد.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٨) وفي إسناده عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف، قال عنه الحافظ في «التقريب»: «متروك احترقت كتبه فحدث من حفظه فاشتد غلطه».

(٤) هو ضابئ بن الحارث البُرجمي، عزاه له في «خزانة الأدب» (٩/ ٣٢٣) - وفيه: «تُطِعْه» بدل «تسقه» -، و«مجاز القرآن» (١/ ٣٢٧).

(٥) هو أبو دَهبل الجُمحي، والبيت في «ديوانه» (١١٥).

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذا».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «البكر».

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ الآية [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم﴾ الآية.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربُّها ومدبِّرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة(١) لا تملك لأنفسها(٢) ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا [تحمل لهم](٣) منفعة، ولا تدفع(٤) عنهم مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له، فهو(٥) على نور من ربه، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الربَّ وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون مخلوقه(٦) من مخلوق غيره، أي: ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»(٧)، وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فأنكر تعالى عليهم ذلك، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده(٨) إلا بإذنه ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ الآية [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣، ٩٥] فإذا كان الجميع عبيداً له فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل لمجرد(٩) الرأي والاختراع والابتداع، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هم الآلهة».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لنفسها». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تحصل».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ترفع» بالراء!

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنها مخلوقة».

(٧) سبق تخريجه.

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنده أحد».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بمجرد».

تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: ما أبلغ هذه الآية في إبطال الشرك والترغيب عنه، وبيان خسران المشركين لو كانوا يعقلون، وهذا المثل العظيم الذي ضربه الله لهم في غاية الوضوح قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣] ومن دعا غير الله عابداً أو سائلاً لا يستجيب له أبداً، كما أن من أراد أن يتناول الماء من البئر بيده لا يحصل على طائل، ويبقى ظمآن إلى الأبد، وقلت في قصيدة في هجو سفيه يسمي نفسه فقيهاً:

حُرِمْتَ وُصولاً للحقيقةِ عند ما ... أَضَعْتَ أُصولاً مَنْ يُضِعْها يلْددِ
فكلمةُ توحيدٍ فَقُلْهَا محققاً ... فإنْ تدر معناها إلى الحقِّ تهتدِ
فوحِّد إلهَ الحقِّ لا تدعُ غيرَه ... لنفعك أو رفع المصائب ترشدِ
فمَنْ يدع غيرَ الله يوماً لحاجةٍ ... يدنس بإشراك ويرْدَى مع الرَّدِي
وذلك توحيد العبادة فادْرِهْ ... فمن يجهلنّه في الجحيم يخلدِ
سواء أصلَّى قابضاً في صلاته ... أم اختار سدلاً نقْلُه لم يؤيَّدِ
ومن ردَّ قولَ المصطفى بعد صحَّة ... فذلك كفَّارٌ أثيمٌ ومعتدِ
سيُحرمُ في يوم القيام شفاعةً ... وإن يأت للحوض المبارك يطردِ
ويسوّد في يوم القيامة وجهه ... ويثوى ثواءً في الجحيم ويخلدِ
ويبرأ منه ذلك اليوم مالكٌ ... وكلُّ تقيٍّ للإله موحِّدِ
وذلك في أصلِ الشَّهادةِ واضحٌ ... لكلِّ صحيحِ الفهمِ لم يتبلَّدِ(٢)

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/١٢٨ ـ ١٣٠).

(٢) ذكرها مع (٢٦) بيتاً قبلها و(١٠) أبيات بعدها في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٦٣ ـ ٦٦) وفي «ديوانه» (ص٤٧، ٤٨ على الآلة الكاتبة) وأرخها فيه ب١٦/ شوال/ ١٣٦٥هـ وقال في آخرها: «انتهت بمدينة مجريط، وقد نظمتها بتطوان إلا الأبيات الستة الأخيرة» وقال في كتابه «الدعوة إلى الله» على إثرها: «انتشرت هذه القصيدة عند أهل تطوان وأعجبوا بها أيما إعجاب؛ لأنهم كانوا حاقدين على ذلك الرجل، وكانت هذه القصيدة مقرونة بسوط عذاب من الله تعالى، صب على ذلك المشرك، فحدثت له حوادث من الخزي...» وذكر بعضها، وقال فيه قبلها: «حدث يوماً أني كنت جالساً في دكان عند أحد إخواننا =

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ الآية من الآيات الجامعة بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، وهي كثيرة، وتوحيد الربوبية دليل توحيد العبادة، فمن اعترف بأن الله وحده هو الخالق الرازق المحيي المميت والضار النافع، كيف يعبد غيره؟ أو يسأل حاجته من غيره؟

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد: ٣٠]

قال (ك): «يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم

= الذين تابوا من البدع، وأخوه الأكبر كان حافظاً للقرآن وحافظاً لـ«مختصر خليل»، وكان تجانياً فتاب من التجانية وعمره سبعون سنة، واغتبط بالعقيدة السلفية فجاء سائل عربي وقال لصاحب الدكان: أعطني صدقة لوجه غياث البر والبحر سلطان الأولياء مولاي عبد القادر الجيلاني، فقلت له: إنا نحن عبيد الله ولسنا عبيداً لعبد القادر الجيلاني، فاذهب إلى عبيده فنحن ليس لنا غياث إلا الله في البر والبحر ولا نتخذ من دون الله أولياء. فقال لي: أنت لا تساوي تراب نعل سيدي عبد القادر الجيلاني، فقلت له: أنا لا أساويه ولكني لا أعبده. فقال صاحب الدكان للسائل: اذهب من هنا وأرنا قفاك فإن هذا الرجل عندنا أفضل من عبد القادر الجيلاني، فقلت: إنك أخطأت، فقال: أمهلني حتى أشرح لك مرادي ثم احكم عن ـ كذا! ـ. فقلت: قل. فقال: أنت مقيم بين ظهرانينا تعلمنا مما علمك الله ونسألك فتجيبنا وعبد القادر ليس كذلك فقلت له أنا: إن كان هذا مرادك فهو حق، ولما رجعت إلى تطوان علمت أن ذلك الفقيه البياع ذكرني بسوء في درس وعظه. فقال لمستمعيه وهو يحثهم على الصلاة بسدل اليدين وترك سنة وضع اليمنى على اليسرى: ماذا تقولون في سيدي محمد السلاوي أكان عالماً بالحديث والفقه أم جاهلاً بهما؟ فقالوا: كان من كبار العلماء، فقال: وماذا تقولون في سيدي أحمد الرهوني وسيدي فلان وفلان. فقالوا: علماء فقهاء، قال: فهل كان أحد منهم يضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة؟ قالوا: لا. قال: فكيف تخالفونهم لقول شخص مجهول لا نعرف من أين خرج؟ فأنشأتُ فيه قصيدة دالية أنقل نخبة منها هنا» ومن الأبيات المحذوفة هنا يظهر أن المهجو كان حداداً». وانظر (٤/ ٨٢).

الماضية الكافرة بالله، وقد كُذِّب الرسل من قبلك فلك بهم[1] أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية [النحل: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤] أي: كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة والحديث في «صحيح البخاري»[2] وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وفي «صحيح مسلم»[3] عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله، وعبد الرحمن**»، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به معترف مقر له بالربوبية والألوهية[4]، هو ربي لا إله إلَّا هو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه»[5].

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيهم».
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وأحمد (٤/ ٣٢٣، ٣٢٨)، وأبو داود (٢٧٦٥، ٤٦٥٥)، والنسائي (٥/ ١٦٩، ١٧٠) من حديث المسور بن مخرمة.
(٣) أخرجه مسلم (٢١٣٢)، وأحمد (٢/ ٢٤)، وأبو داود (٤٩٤٩)، والترمذي (٢٨٣٥).
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والإلهية».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

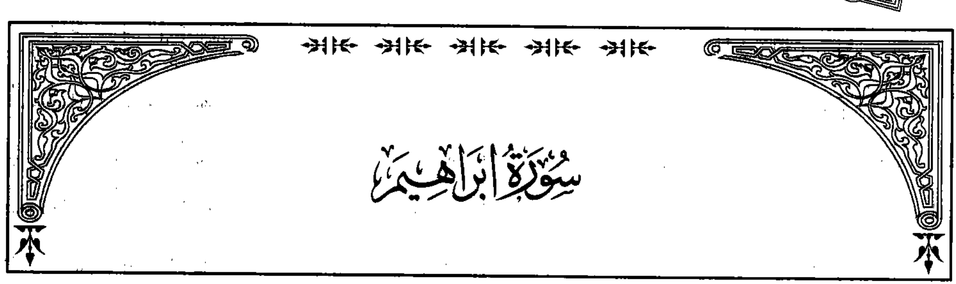
﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ الآية [البقرة: ١٢١] وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ إلى قوله: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة كائناً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾ [الإسراء: ١٠٩] وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي(١): اليهود والنصارى من ينكر [بعضه أي](٢): بعض ما جاءك من الحق(٣)، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم(٤) وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ أي: إلى سبيله أدعو الناس ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: مرجعي ومصيري»(٥).اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول لجميع الناس: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ لم يأمرني الله تعالى إلا بعبادته وحده لا شريك له ونهاني عن الشرك به، فمن لم يحقق التوحيد ويتجنب الشرك فالنبي ﷺ بريء منه، لا يمكن أن يكون من المتبعين له، وقوله: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: لا أدعو إلا إلى سبيله وهي اتباع كتابه ورسوله ﷺ، فمن دعا إلى اتباع غير ذلك، فقد خاب وخسر.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) انظر: «تفسير مجاهد» (١/ ٣٢٩)، وأسنده عنه ابن جرير (١٣/ ٥٥٦).
(٤) أسنده عنهما: ابن جرير (١٣/ ٥٥٦، ٥٥٧)، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ٦٥) عن قتادة إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وهو عن عبد الرحمٰن بن زيد عند أبي الشيخ، كما في «الدر» أيضاً.
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٠ ـ ١٦١).



سورة ابراهيم

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٣٠]

قال (ك): «قال البخاري[١]: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ ألم تعلم، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [الفيل: ١] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤٣] ﴿ٱلْبَوَارِ﴾ الهلاك، بار يبور بوراً، و﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨] هالكين».

وقال بسنده عن عطاء: سمع ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة[٢] وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: هو جَبَلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم[٣]، والمشهور الصحيح عن ابن عباس[٤] الأول، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى: [مهدداً][٥] لهم ومتوعِّداً على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي:

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب التفسير، باب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قبل رقم (٤٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٧٧، ٤٧٠٠)، وعبد الرزاق (١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣)، وابن جرير (١٣/ ٦٧٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٦٧٧)، وابن أبي حاتم (٧/ رقم ١٢٢٧٩) انظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٦٢)، و«تفسير مبهمات القرآن» (٢/ ٧٩)، و«الدر المنثور» (٤/ ٨٥).

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو القول».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «متهدداً».

مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤] وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٧٠]»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: جبلة بن الأيهم كان أميراً لنصارى بني غسان في الشام، فلما جاء الإسلام أسلم وذهب يطوف بالبيت، فوطئ أعرابي على طرف إزاره فلطمه جبلة، فتخاصما إلى عمر بن الخطاب فحكم للأعرابي بالقصاص، فقال جبلة: يا أمير المؤمنين أنا ملك وهو من سوقة، فقال: الإسلام سوَّى بينكما، فقال: أمهلني يوماً واحداً، فقال: ليس الأمر لي، وإنما هو من خصمك، فاسأله ذلك، فسأل جبلة خصمه الإمهال، فقبل وهرب جبلة إلى قسطنطينية، وقصد ملك الروم وأعطاه قصراً وخدماً وأكرمه غاية الإكرام، فتوجه أحد شعراء المدينة نسيت اسمه إلى قسطنطينية، وزار جبلة فرأى ما هو فيه من الأبهة والنعمة والترف، فلما رآه جبلة سأله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعن حال المسلمين، فأخبر أنهم بخير وأخذ يتحدث معه فذكر ما كان فيه من الهدى والنور، وما رجع إليه من الضلال وظلمة الكفر، فندم وبكى وأنشد:

تنصَّرت الأشرافُ من أجل[2] لطمةٍ ... وما كان فيها لو صَبرتُ لها ضَررْ
تكنَّفني منها[3] لجاجٌ ونخوةٌ ... فبعت[4] بها العينَ الصحيحةَ بالعوَرْ
فيا ليتَ أُمِّي لم تَلِدْني ولَيتني ... رجعتُ إلى الأمر[5] الذي قاله[6] عُمرْ
ويا ليتني أرْعى المخاضَ بقَفرةٍ ... وكنت أسيراً في ربيعةَ أو مُضَرْ
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشةٍ ... أجالس قومي فاقد[7] السَّمعِ والبَصَرْ[8]

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢) بتصرف.
(٢) في مطبوع «الأغاني»: «عار».
(٣) في مطبوع «الأغاني»: «فيها».
(٤) في مطبوع «الأغاني»: «وبعتُ».
(٥) في مطبوع «الأغاني»: «القول».
(٦) في مطبوع «الأغاني»: «قال لي».
(٧) في مطبوع «الأغاني»: «ذاهب».
(٨) انظر: كتاب «الأغاني» (١٥/ ١٦٥ ـ ١٦٧)، و«الوافي بالوفيات» (١١/ ٤٣، ط. إحياء التراث).

فصل

قال محمد تقي الدين: وكذلك رؤساء المشركين في هذا الزمان، جعلوا لله أنداداً ونصبوا قباباً على القبور التي يعتقدون أن المدفونين فيها صالحون، وأمروا أتباعهم إذا ماتوا أن يبنوا على قبورهم قباباً ويعبدونها، فهم داخلون في معنى هذه الآية، فكم منكرات ترتكب عند هذه الأوثان من اختلاط الرجال والنساء كما تقدم؟! وكتابة كتب الاستجداء وإلقائها في توابيت الأضرحة، يسألون المقبورين حاجاتهم فيجيبهم السدنة إن كانوا أغنياء، وإن كانوا فقراء أهملوا جوابهم، وكم بقر وغنم يُهَلّ بها لغير الله عند تلك الأوثان؟! وقلت في (القصيدة التائية) من قصيدة أدرجتها برمتها في كتاب «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»[1]:

سفرتُ إلى مصرَ لأخبرَ خبرَها ... وأنظرُ هل فيها شِفاءٌ لغلَّتي
ومن قبلُ قد أُخبِرتُ أنَّ في ربوعِها ... رجالاً لنصر الدِّينِ أصحاب شدَّةِ
وصلتُ فلم ألفَ سوى أهلِ بدعةٍ ... وشركٍ وإلحادٍ وشكٍّ وردةِ
سمعتُ بها الإلحادَ يُدرَس جهرةً ... بجامعةٍ للشَّرِّ مع كلِّ فتنةِ
رأيتُ بها الأوثانَ تُعبدُ جَهْرةً ... قُبوراً عظاماً ناخراتٍ أجنَّتِ
ويدْعُون دونَ اللهِ مَنْ لا يُجيبهم ... وهم عن دعاءِ القومِ في عظم غفلةِ
حشا ثلَّةٍ مستضعفين رأيتُهم ... تسومُهم الأعداءُ سوءَ الأذيَّةِ
لها جَعَلوا قسماً بمالٍ وإلّةٍ ... فلا عاشَ مَنْ قد ظنَّهم أهلَ ملَّةِ
وهُم صُبرٌ مُستمسكونَ بدينِهم ... ويدْعُون مَا اسْطاعوا لِبَيْضاْ نقيةِ
وما صدَّهم إيذاؤهم عن جهادِهم ... لأنَّهم أهلُ النّفوسِ الأبيَّةِ

ولو آمنوا بالله حقَّ الإيمان وأيقنوا أنه المعطي المانع القابض الباسط ما قصدوا تلك الأوثان، ولا عبدوها بل يكفيهم الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧)﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧] بلى يا

---

(١) (ص٩٠ ـ ٩٣) والأبيات المذكورة هنا مع بيتين عقبهما في كتابه «الدعوة إلى الله تعالى» (ص٢٨) وقال فيه: «نظمتها بالهند، وذكرت فيها توبتي من الشرك والبدعة، ورحلتي في طلب العلم...» وذكرها برمتها في «ديوانه» (ق٢٦ ـ ٢٧) وقال قبلها: «وقلت بمسجد عليجان بدهلي سنة ١٣٤٢هـ، ضمنتها رجوعي من الابتداع إلى السنة، ورحلتي من بلادي إلى الهند وغير ذلك».

رب إنك عزيز ذو انتقام، تنتقم من الظالمين بأيدي الموحدين المقسطين، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

الباب الثاني

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]

قال (ك): «يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة، إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه[1] تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ الآية [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ فعرفه لأنه دعا[2] بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] كما[3] ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولاً وقوله[4]: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ[5] ممن عبدها وردَّ أمرهم إلى الله: إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] وليس فيه[6] أكثر من

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بسببه آهلة عامرة».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كأنه دعا به».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «لما».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «برئ».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في هذا».

الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز[1] وقوع ذلك»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «إن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة» قرأت هذا في «التوراة» باللغة العبرانية، فللّه در هذا الإمام ما أعظم تحقيقه، وأوسع إطلاعه، وقوله: «ينبغي لكل داعٍ أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته»؛ يعني: بما دعا إبراهيم لنفسه ولبنيه، ولو قلت لرجل اليوم من عامة المسلمين، وأكثر خاصتهم من الذين يزعمون أنهم علماء: أسأل الله أن يحفظك ووالديك وذريتك من عبادة الأصنام، لغضب غضباً شديداً وظن أنك تسبه فإذا حلم ولم يشتمك ولم يضربك يقول: هل أنت شاك في إسلامي وإسلام والدي وذريتي؟ ونحن نقرأ القرآن ونصلي ونحج ونؤدي الزكاة ونصوم رمضان ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؟ فاتق الله ولا تكفّر المسلمين، واترك عقيدة الوهابية، فيقال له: هل كان إبراهيم وهابياً حين دعا بهذا الدعاء؟ وهل كان إبراهيم ويعقوب وهابيين إذ حكى الله عنهما وصيتهما لأبنائهما؟ قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢] وهل كان يعقوب وهابياً حين سأل بنيه عند موته، وقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]؟ وهل أنت أيها المتعالم وأولادك أفضل من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنيه؟ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم: ٥٩] فيا أيها الموحّد المتّبع المهتدي المقتدي اصبر إن وعد الله حق، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] اللهم احفظنا وذريتنا وإخواننا من عبادة الأصنام والأوثان وكل ما سواك، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وكذلك قول عيسى: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ليس فيهما دليل على أن الله يغفر للمشركين الذين ماتوا على الشرك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] ولغير ذلك من أدلة السنة والإجماع.

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «ولا يجوز»!!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

الباب الثالث

قـولـه تـعـالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ٥٢]

قال (ك): «يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: هو بلاغ لجميع الخلق من أنس وجن[١] كما قال في أول السورة ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الآية [إبراهيم: ١] ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: ليتعظوا[٢] له ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ذوو[٣] العقول»[٤].

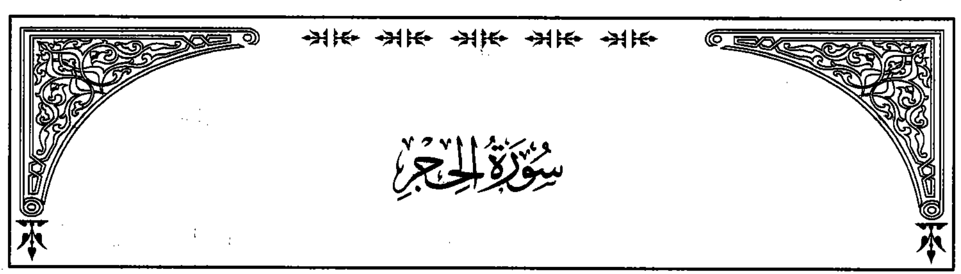
فصل

قال محمد تقي الدين: والذين يفتون أو يقضون بالتقليد والتمذهب لا يعملون بمقتضى هذه الآية، فهم يقولون بلسان حالهم ومقالهم أيضاً هذا القرآن ليس بلاغاً لنا، وإنما هو بلاغ للإمام، وكذلك حديث النبي ﷺ، وإنما هو موجه للإمام، أما نحن فلا نتعدى قول الإمام أبداً، ولا نستدل على حكم بالقرآن ولا بالحديث إلا إذا وافق رأي إمامنا، هذه حال القضاة والمفتين بالتقليد، هذه الآية حجة عليهم، وما ذكره (ك) معها، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣ ـ ٤٥] وستأتي هذه الآيات في سورة الزخرف، في (قسم آيات العبادة)، وفي (قسم آيات الاتباع)، إن يسر الله إتمام هذا الكتاب، وفي هذه الآية دليل واضح على أن من أشرك بالله ليس من أولي الألباب، وكذلك المفتي والقاضي بالتقليد ليسا من أولي الألباب، وقد تقدم الكلام على ذلك في آيات التوبة وغيرها.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وجان».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتعظوا».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ذوي».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٠).





الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٩]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وإنفاذه[١] والصدع به، وهو مواجهة المشركين[٢]، كما قال ابن عباس [في قوله][٣]: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أمضه[٤]، وفي رواية: افعل ما تؤمر[٥]، وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة[٦]. وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: (ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه)[٧] وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: بلغ ما أنزل إليك من ربِّك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله، ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وبإنفاذه».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «به».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) أخرجه ابن جرير (١٤/ ١٤٢)، وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٠٦).

(٥) أخرجه ابن جرير (١٤/ ١٤٢)، وابن المنذر، كما في «الدر».

(٦) أخرجه الثوري في «تفسيره» (ص١٦٢)، وعبد الرزاق (١/ ٣٥١)، وابن جرير (١٤/ ١٤٣)، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٠٦) ـ، وهو في «تفسير مجاهد» (١/ ٣٤٤).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٦١) رقم (٩٧٣٤)، **وإسناده منقطع** وورد نحوه مطولاً عن ابن عباس، أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (ص٢٢٤ ـ ٢٢٦)، **بسندٍ واهٍ** بمرة.

﴿٩﴾ [القلم: ٩] ولا تخفهم فإن[١] الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال الحافظ البزار بسنده عن يزيد بن درهم قال: سمعت أنساً رضي الله عنه يقول في هذه الآية: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ﴾ قال: «مر رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل قال: أحسبه. قال: فغمزهم فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا»[٢].

وقال ابن إسحاق: كان عظماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر[٣] وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم: **الأول**[٤]: الأسود بن [المطلب أبو][٥] زمعة الأسدي، كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه، واستهزائه فقال: «اللهم اعمِ بصره وأثكله ولده» **[والثاني]**:[٦]

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.

(٢) في «مسنده» (١٣/ ٥١٩ ـ ٥٢٠) (رقم ٧٣٦٨) أو (٢/ ١٤٧٥ ـ مختصر الزوائد)، وقال البزار: «ولا نعلم أسند يزيد بن درهم عن أنس إلا هذا الحديث، ولا نعلم رواه عن أنس غيره».

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٧١٢٧) من طريق محمد بن عثمان القرشي: ثنا يزيد بن درهم به نحوه وقال: «لم يرو هذا الحديث عن أنس إلّا يزيد بن درهم، تفرد به محمد بن عثمان القرشي».

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٩) عن ابن عباس! وليس عن أنس وقال: «رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار بنحوه وفيه يزيد بن درهم ضعفه ابن معين ووثقه الفلاس» وذكره ابن حبان في «الثقات» (٥/ ٥٣٨) وقال: «يخطئ كثيراً».

قال أبو عبيدة: أما حديث ابن عباس، فهو بمعناه، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥) رقم (٤٩٨٦)، وابن أبي حاتم ـ كما في «الجواب الصحيح»، (٤/ ٢١٥) ـ والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣١٦ ـ ٣١٧) والضياء في «المختارة» (١٠) رقم (٩٤) **وإسناده جيد**.

وأما قول الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٧): «فيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» **فهو صحيح**، إلا أن النيسابوري توبع في رواية البيهقي والضياء، ولذا حسنه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٠١)، وزاد في عزوه إلى ابن مردويه وأبي نعيم في «الدلائل»، **وصححه** الضياء المقدسي.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من قومه» وكذا في مصادر.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من بني أسد بن عبد العزى بن قصي».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»: وسقطت من الأصل!

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومن بني زهرة».

الأسود بن عبد يغوث الزهري[١] **الثالث**[٢]: أبو الوليد بن المغيرة [المخزومي][٣] **ورابعهم**[٤]: العاص بن وائل السهمي[٥] **وخامسهم**[٦]: الحارث بن الطلاطلة الخزاعي[٧] فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾، إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٨].

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم ضيق صدر وانقباض[٩]، فلا يهيدنك ذلك، ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل عليه، فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه، وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد بسنده عن نعيم بن هَمَّار[١٠] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره**»[١١] ورواه أبو داود والنسائي من طريق

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بن وهب بن عبد مناف بن زهرة».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومن بني مخزوم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بن عبد الله بن عمر بن مخزوم».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومن بني سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بن هشام بن سعيد بن سعد بن سهم».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومن خزاعة».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن ملكان».
(٨) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٤٨)، وأبو نعيم في «الدلائل» (ص٢٢٢ ـ ٢٢٣). وهو **مرسل**، وفيه عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلس. ووردت تسميتهم في **مرسل** عكرمة، عند عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٢/ ٣٥٢) ومن طريقه ابن جرير (١٤/ ٤٩)، **وإسناده صحيح**.
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لك انقباض صدر وضيق».
(١٠) تحرف في الأصل إلى «عمار»!
(١١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ٩٣، ٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (١/ ٤٦٦ ـ ٤٦٨)، وابن قانع في «معجم الصحابة (٣/ ١٥١ ـ ١٥٢) والطبراني في «مسند الشاميين» (١١٦٩)، وابن حبان (٢٥٣٤)، ووقع خلاف في تعيين اسم صاحبيه، وهذا لا يقدح في أصل صحة الحديث، **فهو صحيح**، وانظر: «تهذيب =

آخر بنحوه[(١)]، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى[(٢)]، وقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾. قال البخاري[(٣)]: «قال سالم: الموت». وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر ويستدل بهذه[(٤)] الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله كما ثبت في «صحيح البخاري»[(٥)] عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب**» ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد[(٦)] وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات، إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين هٰهنا الموت كما قدمناه»[(٧)].

فصل

قال محمد تقي الدين: ينبغي للداعي إلى التوحيد إذا جاء قوماً مشركين في هذا الزمان، أن يتلطف في الدعوة فيقيم لهم الدليل تلو الدليل، على أن ما هم

= الكمال» (٢٩/ ٤٩٧ ـ ترجمة نعيم).

(١) أخرجه أبو داود (١٢٨٩)، والنسائي في «الكبرى» (١/ ٤٦٧)، والدارمي (١٤٥٩) وابن حبان (٦/ ٢٥٣٣)، وأبو يعلى (٣/ ١٧٥٧)، **والحديث صحيح**.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، والطبري (١/ ٢٦٠)، وأبو عوانة (٦٨٤٢)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ١٨٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٥١ ـ ٤٥٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٧٤)، وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٢١٢) من حديث حذيفة وفي إسناده محمد بن عبد الله الدؤلي لم يرو عنه غير عكرمة وله شاهد من حديث صهيب، ولذا **حسنه** شيخنا الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (كتاب التفسير، باب: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من هذه».

(٥) أخرجه البخاري (١١١٧)، وأبو داود (٩٥١) والترمذي (٣٧١)، وأحمد (٤/ ٤٢٦) وغيرهم.

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الناس».

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٨/ ٢٨٣ ـ ٢٨٧) بتصرف.

عليه شرك، فإن قالوا له: قد جعلتنا كفاراً يقول لهم: أنا أدعوكم إلى ترك هذا العمل الذي عرفتكم حقيقته، ولا أريد أنْ أسبّكم، ولا أن أتنقّصكم، فإن تركتم هذه الأعمال أطعتم الله ورسوله وحققتم التوحيد، وغفر الله لكم ما تقدم منها، فمن أصرَّ على الشرك بعد بيان الدليل فلا حرج عليه أن يسميه مشركاً إذا رأى المصلحة تقتضي ذلك، وقد جربت هذه الطريقة في بلدان مختلفة فنجحت، انظر كتابي: «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة»(١).

كما كفى الله رسوله ﷺ المستهزئين(٢) فإن الله يكفي كل من اتبعه بصدق،

---

(١) طبع أكثر من مرة، وهو مليء بالقصص والحكايات التي تدل على كلام المصنف هذا، بل تكاد تقول: إن هذا الكتاب خاص بمذكرات الهلالي الدعوية، وأخبرني تلميذ المصنف الشيخ العلامة محمد بو خبرة ـ حفظه الله ـ في شعبان سنة ١٤٢٦هـ أن له على ما ذكر العلامة الهلالي في هذا الكتاب ملحوظات تخص أسماء الأشخاص وتاريخ بعض المعلومات، قال عن سبب وقوع هذا: «لطول العهد، وتقدمه في السن، فكان الهلالي ينسى بعض الأسماء أو يذكرها محرفة»، ثم طلبتُها، وأُرسِلَتْ لي.

(٢) كفاية الله نبيّه المستهزئين، تشمل في حياته وبعد وفاته، وهذه سنة شرعية وكونية لله ﷻ، فإن الله ﷻ عاقب جمعاً ممن استهزأ بسنته بعد وفاته، وقد وقفت على قصص كثيرة من بطون الكتب، وأفردتها في مقالة منشورة في مجلتنا «الأصالة» عدد (١٥ ـ ١٦) بتأريخ ١٥ ذي القعدة ١٤١٥هـ (ص٧ ـ ١٠)، ومما يعجبني غايةً ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٣٣) على إثر ما أخرجه البخاري (٣٦١٧)، ومسلم (٢٧٨١) من حديث أنس أن رجلاً كان يكتب للنبي ﷺ، فانطلق هارباً حتى لحق بأهل الكتاب، قال: فعرفوه، قالوا: هذا قد كان يكتب لمحمد! فأُعجبوا به، فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم، فحفروا له فوارَوْه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له، فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذاً. قال شيخ الإسلام على إثره:

«فهذا الملعون الذي افترى على النبي ﷺ أنه ما كان يدري إلا ما كتب له، قصمه الله وفضحه بأن أخرجه من القبر بعد أن دُفِنَ مراراً، وهذا أمر خارج عن العادة، يدل كل أحد على أن هذا عقوبة لما قاله، وأنه كان كاذباً؛ إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم هذا، وأن هذا الجرم أعظم من مجرد الارتداد؛ إذ كان عامة المرتدين يموتون ولا يصيبهم مثل هذا، وأن الله منتقم لرسوله ممن طعن عليه وسبه، ومظهر لدينه ولكذب الكاذب؛ إذا لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد.

ونظير هذا ما حدثناه أعداد من المسلمين العدول أهل الفقه والخبرة عما جربوه مرات متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية، لما حصر المسلمون فيها =

المستهزئين بالتوحيد في زمانه، وقد رأينا من ذلك العجب العجاب، نسأل الله أن يزيدنا من فضله، ويحفظنا من شرور أنفسنا.

وقوله: (**فغمزه بعضهم**) يعني ﷺ، قال ابن الأثير في النهاية: «الغمز: العصر والكَبْس باليد... وبعضهم فسر الغمز في بعض الأحاديث بالإشارة كالرمز بالعين أو الحاجب أو اليد»(١). اهـ.

وفي «تفسير الجلالين» عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾ «أي: المؤمنون ﴿بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠] أي: يشير المجرمون إلى المؤمنين بالجفن والحاجب استهزاء»(٢).

قال محمد تقي الدين: ذكرني الخبر أن بعضهم غمز النبي ﷺ وهذا الغمز يحتمل أن يكون باليد بمعنى الكبس والدفع ويحتمل أن يكون بالحاجب والعين استهزاء والأول أظهر؛ لأن غمز جبريل لأولئك النفر كان فيما يظهر باليد، ولذلك أصابهم الوجع ثم الموت، والجزاء من جنس العمل، والله أعلم.

وقوله: (**وكانوا ذوي أسنان وشرف**) أي: كانوا شيوخاً متقدِّمين في السِّنِّ، وذوي منازل عالية في قومهم، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: معبوداً آخر، فكل من استغاث بمخلوق لجلب خير أو دفع شر بطريق الهمة والحال لا بطريق الأسباب، أو طلب منه قضاء حاجة، كذلك فقد جعله إلٰهاً، انظر: ما تقدم في (سورة الأعراف) عند قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فقد بسطت القول هناك في هذا المعنى وبالله التوفيق.

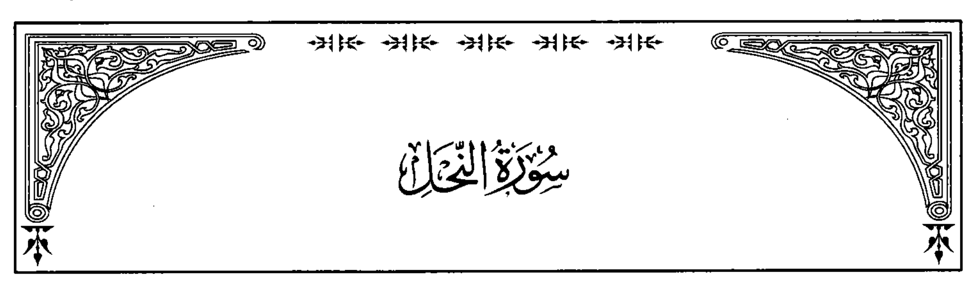
= بني الأصفر في زماننا، قالوا: **كنا نحن نحصر الحصن أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنع علينا حتى نكاد نيأس منه حتى إذا تعرض أهله لسب رسول الله ﷺ والوقيعة في عِرْضِه، تعجلنا فتحه وتيسر ولم يكد يتأخر إلا يوماً أو يومين أو نحو ذلك، ثم يُفتح المكان عَنْوَة، ويكون فيهم ملحمة عظيمة، قالوا: حتى إن كنا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه مع امتلاء القلوب غيظاً عليهم بما قالوه فيه.**

وهكذا حدثني بعض أصحابنا الثقات أن المسلمين من أهل المغرب حالهم مع النصارى كذلك، ومن سنة الله أن يعذب أعداءه تارة بعذاب من عنده، وتارة بأيدي عباده المؤمنين».

قال أبو عبيدة: اللهم عذّب من وقع في نبيّك محمد ﷺ، واشف صدورنا منه، فإنه لا يعجزك، واجعله عبرة لكل أحد.

(١) «النهاية» (٨٣/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦). (٢) «تفسير الجلالين» (ص٧٩٨).

قال محمد تقي الدين: كل عالم بمعاني آيات التوحيد يرى المشركين في هذا الزمان يعبدون القبور، وشيوخ التصوف والمجانين الذين يسمونهم مجاذيب، ولم يضق صدره بما يفعلون ويقولون، فهو مداهن خائن للأمانة، كاتم للعلم، يلعنه الله ويلعنه اللاعنون، نعوذ بالله من ذلك، كيف وقد أمرنا الله تعالى بالتبرئ من المشركين في سورة الممتحنة، بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟! [الممتحنة: ٤].



سُورَةُ النَّحلِ

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾ [النحل: ١ ـ ٣]

قال (ك) في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوِّها معبِّراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة كقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ أي: قرب ما تباعد: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب وكلاهما متلازم كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤] ثم أنه تعالى نزَّه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: الوحي كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥] وقال: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ

﴿ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٥ ـ ١٦] وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ أي لينذروا: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري(١). ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وإن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث(٢) بل ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ثم نزَّه نفسه عن شرك من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له»(٣). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: جميع الملائكة الذين أنزلهم الله على الرسل نزلوا قبل كل شيء بالتوحيد، والرسل كلهم بدؤوا الدعوة إلى الله بالتوحيد وأخبروا قومهم أنه لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق سواه، وكل مَنْ عبد غيره من المخلوقين فعبادته باطلة وسيعذبه الله عليها في الدنيا والآخرة عذاباً سرمداً، فالغرض الأعظم من بعثة الرسل هو توحيد الله تعالى، وهو الأساس لكل عمل يحبه الله ويثيب عليه، والآيات التي بعد هذه دالة على توحيد الربوبية.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل: ١٩ ـ ٢٢]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ثم أخبر

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعبد غيري».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب، وفي الأصل: «مخلوق بالبعث لا للبعث».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٩ ـ ٢٩١) بتصرف.

أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها ولا[(١)] تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء. إنما يرجى[(٢)] ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء، ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبرنا عنهم متعجبين من ذلك، ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر: ٤٥] وقوله: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أخبر الله ﷻ أنه يعلم كل شيء سراً كان أو جهراً، وهذه صفة خاصة به، فمن لمن تكن فيه هذه الصفة لا يستحق العبادة، وأخبر أن المشركين يعبدون من لا يستحق العبادة من المخلوقين، فيعبدون تماثيل الأنبياء والصالحين وقبابهم وقبورهم والأماكن التي جلسوا فيها، وهذه من الجماد الذي لا يحس، فكيف يسمع أو يبصر؟! فكيف يعلم السر والجهر؟! ويعبدون أرواح الصالحين، وهي لا تسمعهم ولا تبصرهم، ولو سمعتهم ما قدرت أن تنفعهم بشيء، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٤] وقوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ معناه: معبودكم الذي يستحق العبادة وينفع ويضر ويحيي ويميت، هو الله وحده.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فلا». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يرتجى».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/٣٠٢ ـ ٣٠٣).

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: ٢٦ ـ ٢٩]

قال (ك): «قالت جماعة هو من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢] أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة، وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ [سبأ: ٣٣] الآية وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتثه من أصله وأبطل عملهم[1]. كقوله تعالى: «﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤] وقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وقال الله هٰهنا: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يظهر فضائحهم، وما كانت [تجنيه][2] ضمائرهم فيجعله علانية، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر وتشتهر كما في «الصحيحين» عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان**»[3] وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرّونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأصلها».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تجنه».

(٣) أخرجه البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٧).

مقرِّعاً لهم وموبِّخاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم هٰهنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ١٠] فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة وأُسكتوا[1] عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق [في الدنيا][2] والآخرة فيقولون حينئذٍ ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد، قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۢ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [المجادلة: ٦] فيحلفون له كما يحلفون لكم، قال الله مكذِّباً لهم في قيلهم ذلك: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتّباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال[3] أجسادهم في قبورها من حرِّها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦] كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فيه فوائد:

الأولى: إن المشركين يمكرون ليوقعوا الموحدين في المهالك فيعود عليهم مكرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾؟ وقال تعالى في

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «وسكتوا».
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل! والسياق يقتضيه.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: و«يأتي».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦).

سورة النمل: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٣].

قال محمد تقي الدين: ولما علم الله ضعف الموحدين وغربتهم وتألب المشركين عليهم نصرهم وأبطل كيد المشركين ومكرهم، فكل داع إلى توحيد الله واتباع سنة رسوله الكريم مخلص في دعوته يرى العجب العجاب من نصر الله، وإبطال كيد المشركين له، هذا في الدنيا، فكيف بالآخرة؟!

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ جاء مثله في مواضع من القرآن كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢] وقد تكررت وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ [فصلت: ٤٧ ـ ٤٨].

الثالثة: إن الذين أوتوا العلم في لغة القرآن والسنة وهم علماء الكتاب والسنة، المؤمنون بالله الموحدون له المتبعون لسنة نبيه، ومن لم يكن كذلك لا يعدّ من الذين أوتوا العلم، إلا مقيلاً كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧]، وكقوله تعالى في سورة غافر: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٣ ـ ٨٥] فعلمهم ذلك ليس فيه إيمان بالله فلذلك لم ينفعهم بل ضرهم، ولذلك قال النبي ﷺ: «**وأعوذ بك من علم لا ينفع**»(١).

ومثال العلم الذي لا ينفع: علم الكلام إذا كان صاحبه يعتقد أنه حق، وقول بعض المتكلمين شعراً:

أيها المغتدي ليطْلُبَ عِلْماً　　كلُّ علمٍ عبدٌ لعِلْمِ الكلامِ

---

(١) سيأتي تخريجه.

تطلب العلمَ كي تصححَ حُكماً ثم أغفلتَ منزِّلَ الأحكامِ

وجوابه: أن يقال كذبتَ: علم الكلام ليس سيداً للعلوم، وإنما هو عبد لهو من المتفلسفين، وسخافاتهم وهو بدعة ملعونة، إلا في حق من اضطر إليه ليدافع به عن الحق، ويلجم أهله، ويرميهم بأحجارهم، ويأخذهم بإقرارهم، ثم يقال له: نحن ما أغفلنا منزل الأحكام ولكنا وصفناه بما وصف به نفسه سبحانه وبما وصفه به رسوله الكريم متبعين في ذلك لنبيه ﷺ وللصحابة والتابعين.

وأقول في ذلك شعراً معارضاً له[(١)]:

أيها المغتدي لتطلبَ عِلماً اجْتَنِبْ جَاهداً ظلام الكلامِ
إنَّ علمَ الكلامِ ليس بعلمٍ إنَّما العِلمُ شرعةُ العلَّامِ

وكذلك علم الفروع إذا لم يكن معه علم الكتاب والسنة، كعلم الغزالي والبيضاوي والزمخشري، فهؤلاء كلهم جاهلون بالحديث، ومن جهل الحديث لم يستطع أن يفهم القرآن، فيكون محروماً من علم الكتاب والسنة، كهؤلاء الثلاثة الذين حشوا كتبهم بالموضوعات والمتروكات والغرائب التي لا تخفى على المبتدئين في علم السلف، مع أن الغزالي كان عالماً بالفلسفة وبدع المتصوفة، وعلم الفروع وأصول الفقه المبنية على شفا جرف.

الرابعة: إن المشركين جاهلون جهلاً مركباً من جهلين:

الأول: إنهم يجهلون توحيد الله واتباع رسوله الكريم.

الثاني: إنهم يجهلون جهلهم كحمار الطبيب توما النصراني، الذي قال فيه بعضُ الشُّعراء:

قال حمارُ الحكيمِ توما لو أنصفوني ما كنتُ أُرْكَبُ
لأنَّ جهلي غدا بَسِيطاً وراكبي جَهْلُهُ مركَّبُ

ومن جهل هذا الطبيب أنه قرأ في كتاب «الحبة السوداء شفاء من كل داء»[(٢)] فرأى تحت الباء نقطتين خطأً فقرأها «الحية السوداء» فاصطاد حية سوداء وأحرقها وأخذ يعالج بها الناس، فكل عين عولجت بها عميت، وكل بطن عولج

---

(١) لم أجد البيتين في أي كتاب من كتب المصنف المطبوعة، وفاته ﵀ أن يذكرهما في «ديوانه» الذي عنَّ له جمعه بعد ضياع قسم من شعره، كما صرح به في أوله.

(٢) هذا **حديث صحيح**، أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥) من حديث أبي هريرة.

بها ازداد صاحبه مرضاً، فضرب به المثل في الجهل، ولجهل المشركين المركب يظنون أن ما هم عليه من الشرك هو الحق، ولذلك إذا جاءتهم الملائكة لتتوفاهم ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ فالاستمداد من أرواح الشيوخ والاستغاثة بهم والهتاف بأسمائهم عند القيام والقعود وعند حدوث حادث مروع: يا سيدي فلان، يا سيدي فلان، يا أولياء الله، والذبح لهم والنذر لهم والخوف منهم بالغيب ورجاؤهم والتوكل عليهم سواء عندهم حتى في وقت الغرغرة، فيكذبهم الله تعالى وتقول لهم الملائكة: ﴿بَلَىٰٓ﴾، كنتم تعملون السوء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾. اهـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]

قال (ك): «أخبر الله تعالى أنه بعث ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[(١)] أي: في كل[(٢)] طائفة من الناس رسلاً[(٣)] وكلهم [يدعون][(٤)] إلى عبادة الله [وينهون][(٥)] عن عبادة ما سواه، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوحاً، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد رسول الله ﷺ، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قرن و». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسولاً».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يدعو». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وينهى».

كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] [فمشيئة الله](١) تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه(٢) نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً؛ فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، له في ذلك حجة قاطعة، وحكمة بالغة(٣) ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر(٤) عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق، كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: ١٨]»(٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: فيه فوائد:

الأولى: إن كل أمة من أمم الأرض بعث الله إليها رسولاً يدعوها إلى توحيد الله واتباع شرعه، فبعض هذه الأمم استجابت لداعي الله بالسمع والطاعة، ولم تمنعهم أغراض الدنيا الفانية كالجاه والمال أن يستجيبوا لرسل الله، فأدركوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة. وبعضهم منعتهم أهواؤهم وأغراضهم الفاسدة، فأبوا أن يستجيبوا لداعيهم، فأضلهم الله، والله حكم عدل، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فإن قلت: فلماذا عذب الله عمرو بن لحي الذي أخبر النبي ﷺ أنه رآه يجر قصبه في النار(٦) كما في «الصحيح»؟ ولماذا عذب الله عبد المطلب جد النبي ﷺ؟ بدليل أن أبا طالب لما كان آخر كلامه: «هو على

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فمشيئته».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: وفي الأصل: «لأنهم»!
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حجة بالغة وحكمة قاطعة».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عيّر».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).
(٦) سبق تخريجه.

دين عبد المطلب»، مات كافراً[1] كما في «الصحيح» أيضاً، فالجواب: إن هذين الرجلين اللذين كانا في زمانين مختلفين يعلمان يقيناً أن ملة إبراهيم تتنافى مع عبادة الأصنام، بدليل قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧] وقد تكرر هذا في القرآن في مواضع كثيرة أن المشركين من العرب كانوا يوحّدون الله تعالى في الشدة ويشركون في الرخاء، ولا سبيل لهم إلى معرفة التوحيد إلا ما بلغهم من شريعة إبراهيم وإسماعيل وهو حجة عليهم.

الثانية: قول (ك): «فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منتفية» المشيئة الشرعية، معناها: كل ما شرعه الله تعالى لعباده بواسطة رسله فقد أراده وأحبه ورضيه، وأما الإرادة الكونية القدرية: فإنها تشمل الكفر والإيمان والمعصية والطاعة[2]، فإن الله شاء للكفار والعصاة ما اختاروه لأنفسهم، ولم يشأ أن يجبرهم على الإيمان والطاعة، بل استدرجهم بإبقاء نعمه من الجاه والمال والصحة والعافية وسائر ما أعطاهم الله من النعم، فلم يشكروها، بل زادتهم طغياناً ولم يرض الكفر والمعصية، قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقد اقتضت حكمته البالغة أن يجزي المؤمنين المطيعين جزاء حسناً في الدنيا والآخرة، وأن يجزي الكافرين والعصاة عذاباً في الدنيا والآخرة.

الثالثة: قول (ك): «نكر[3] عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل»، معناه أن الله تعالى أنكر عليهم الكفر والمعاصي، بطريقين:

الطريق الأول: بواسطة رسله وما جاؤوا به من الشرائع.

والثاني: إنه جعل عاقبتهم الهلاك في الدنيا بعد الإمهال، كما فعل بعاد، وثمود، وقوم موسى، وقوم نوح، وأصحاب مدين، وأهل مكة في غزوة بدر، ، وذلك معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: ١٨]. فكيف كان إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ستأتيك في (٦/ ١٨) فروق مهمة ودقيقة بين الإرادتين، فانظره هناك، تولى الله هداك.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عيّر».

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النحل: ٥١ ـ ٥٦]

قال (ك): «يخبر[(١)] تعالى أنه لا إله إلا هو وأنه لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ قال ابن عباس وغيره أي: دائماً[(٢)]، وعن ابن عباس أيضاً أي: واجباً[(٣)]، وقال مجاهد أي: خالصاً[(٤)]، أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض كقوله: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣] هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر[(٥)]. وأما على قول مجاهد: فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة[(٦)] كقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣] ثم أخبر أنه مالك النفع والضر وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم وإحسانه إليهم: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقرر».

(٢) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩) عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد، وهو هكذا في «تفسير مجاهد» (١/ ٤٢٢)، وهو عند ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٨٥) عن ابن عباس ومجاهد، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٠) لابن المنذر عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد، وزاد ابن أبي شيبة عن مجاهد.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٢٤٩) وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٠) للفريابي أيضاً.

(٤) أخرجه ابن جرير (٣/ ٢٩٩) وعبد بن حميد ـ كما في «الدر» (١/ ٢٠٥) ـ وهو في «تفسير مجاهد» (١/ ٢٢٣).

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: وهو الصواب، وفي الأصل: «الخير».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «له الطلب».

وتسألونه وتلحّون في الرغبة مستغيثين به، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال هٰهنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قيل: اللام هٰهنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل، بمعنى[1] قضينا لهم ذلك ليكفروا، أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وإنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم ثم توعدهم قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أي: اعملوا ما شئتم، وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة ذلك ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد [بغير علم][2]، وجعلوا لأوثان[3] نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أي: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها[4] على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة، ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: أنا أختار تفسير مجاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي: خالصاً فلا يجوز أن يعبد غيره بأي نوع من أنواع العبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ علّة لما تقدمه، أي: وحدوا الله لأنه هو الذي يمنُّ عليكم بالنِّعَم، وغيره لا ينفع ولا يضر فلم تعبدونه؟ وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ هذه عادة المشركين يجعلون أموالهم لآلهتهم التي يسمونها بالأولياء، وقد زين لهم الشيطان أن يتخذوا أولياء

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «معنى».
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لها».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: وفضلوهم أيضاً».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٨ ـ ٣١٩).

من دون الله، ولو اتخذوا الله ولياً لكفاهم، ولكنهم قوم لا يعقلون.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٣ ـ ٧٦]

قال (ك): «يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾، أي: لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرع، ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إلٰه إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ إلخ قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: وهو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا، ولما كان الفرق[1] بينهما ظاهراً واضحاً بيّناً لا يجهله إلا كلُّ غبيٍّ، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ الآية، قال: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني: إن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشر[2] ولا يقدر على شيء بالكلية فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عيال وكلفة على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بشيء».

ينجح[(١)] مسعاه ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ من هذه صفاته ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين:

فائدة: من عادة الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أن يفسر القرآن بالقرآن، ويجمع النظائر ولم يفعل ذلك في هذه الآية والكمال لله، فإن تفسيرها ظاهر في آية الروم، يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨].

ففي الآيتين كلتيهما بيان من الله تعالى أنَّ مَنْ عبد مخلوقاً، وجعله لله نداً بأن استغاث به بغير طريق الأسباب، واستعان به كذلك، أو خافه بالغيب، أو توكل عليه في قضاء حاجة إلى غير ذلك من أنواع العبادة، فإنه لم ينتفع بعقله فلا عقل ولا علم؛ لأنه لا يرضى أبداً أن يكون عبده شريكاً له في ما له يتصرف كتصرفه، فإذا قال المشرك لوثنه أو لروح شيخه: إن ولد لي ولد ذبحت لك شاة، فقد جعل شيخه شريكاً مع الله، يعطي ويمنع ويقبل النذر ويعبد من دون الله؛ لأن شيخه عبد مملوك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فكيف يشارك الله تعالى ويتصرف في ملكه.

فائدة ثانية: في معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ قال مجاهد: أي عيال عليه؛ ومعنى: العيال المحتاجون إلى نفقة من يعولهم، فشيخ الطريقة وكل الصالحين محتاجون إلى الله تعالى، في إيجادهم وإمدادهم وفقراء إليه تعالى، فمن نسب لهم التصرف يكون في الجهل والحماقة كالذي ينسب الملك والتصرف إلى العبد المملوك الذي لو تركه سيده بلا عشاء لبات يتضور ويتألم من الجوع، فأحمق الناس وأجهلهم هو الذي يأتي إلى مثل هذا العبد ويلتمس منه عشاء، والآن حضرتني نادرة مضحكة، وهي مناسبة للمقام، يحكى أن راعي غنم من أهل البادية في الجزائر، جاءه رجل وهو راجع بغنمه إلى الخيمة قبل غروب

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «نجيح».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤) بتصرف.

الشمس فقال له: باللغة الجزائرية «أضياف ربي» ومعنى ذلك، أنا ضيف الله عندك، فلم يجد بداً من قبوله وكانت أمه من أبخل الناس، فلما أقبل بالغنم على الخيمة رأت أمه معه رجلاً آخر، فقالت له: من هذا الرجل الذي معك؟ فقال: ضيف، فغضبت غضباً شديداً، وقالت له: «يا خاليها يا طويها» ومعنى ذلك يا أيها المبذر المتلاف الذي سيخلي هذه الخيمة حتى تطوى ولا تنصب، أخوك جاءني بضيف في السنة الماضية، ورأيت ما صنعت به من التنكيل، وإذا بك تأتيني أنت في هذه السنة بضيف آخر، والله لا تأكله لا أنت ولا هو، فتحير الراعي في أمره كيف يطرد هذا الضيف بعدما وصل إلى الخيمة، فقال الراعي للضيف: كيف تطأ على برنسي بنعليك فقال: ما وطئت عليه، قال: أتكذبني؟ والله لا أكلت طعامي، فهذا الضيف عاجز لا يملك شيئاً، والراعي مثله، ضعف الطالب والمطلوب، فهذا مثل يضرب لمن ينزل حاجته بالمخلوق العاجز الفقير.

قال شيخنا محمد بن العربي العلوي[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: يا عجباً لهؤلاء الجهال يطعمون شيخهم من جوع، ويسقونه من ظمأ، ويكسونه من عري، ويركبونه على دوابهم أو سياراتهم، ويقونه الحر والقر، ويؤوونه في بيوتهم فهو عيال عليهم ومع ذلك يسألونه أن يرزقهم، ويقضي حاجاتهم فهم يرزقونه رزقاً حقيقياً، ويسألونه رزقاً خيالياً لا وجود له، ولا يكفهم ذلك حتى يسألوه تنوير قلوبهم وهدايتها، وهذا كفر بالله إذ لا يهدي القلوب إلا الله.

والمثل الأوربي يقول: (فاقد الشيء لا يعطيه).

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [النحل: ٨٦، ٨٧]

قال (ك): «أخبر تعالى عن تبرؤ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا

(١) هو شيخه الذي ناظره في الطريقة التجانية، وخرج منها الهلالي بسببه، وانظر ما زبرناه في مقدمة هذا الكتاب (ص٣٣)، والله الموفق للصواب.

هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ الآية [القصص: ٦٤]، والآيات في هذا كثيرة، وقوله: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذٍ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وقوله: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٨٧﴾ أي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير»[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: قد أجاد الحافظ (ﷺ) في تفسير هذه الآيات، وصدق رحمه الله، ففي القرآن آيات كثيرة تدل على أن المعبودين من الملائكة والأنبياء والصالحين يتبرؤون من عابديهم، كما قال تعالى: وقد تقدم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣]

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤٠ ـ ٣٤١) بتصرف.

قال (ك): «يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال سفيان الثوري بسنده: عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن الأمة القانت، فقال: «الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله»[1] ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧] أي: قام بجميع ما أمره[2] الله تعالى به، وقوله: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه كقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١] ثم قال: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضيٍّ، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: جمعنا له خيراً من جميع ما يحتاج المرسل[3] إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقال مجاهد في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لسان صدق وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده[4]، أنّا ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله في الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]»[5].

قال محمد تقي الدين: إبراهيم الخليل، صلاة الله عليه إمام الموحدين

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٣٦٠، ٣٦١)، وابن جرير (١٤/ ٣٩٤) كلاهما في «التفسير»، والطبراني (٩٩٤٣، ٩٩٤٤، ٩٩٤٧)، والحاكم (٢/ ٣٥٨ و٣/ ٢٧١، ٢٧٢) من طرق عن ابن مسعود.

وزاد في «الدر المنثور» (٩/ ١٣٠) عزوه للفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وقال البيهقي في «المجمع» (٧/ ٤٩): «رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح».

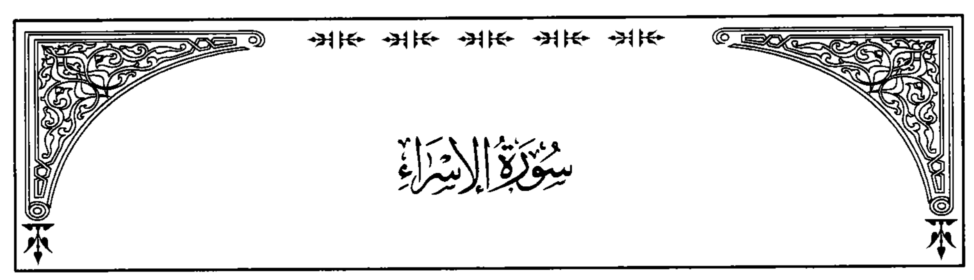
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «أمر».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المؤمن».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وطريقه».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦).

الحنفاء وحسبه شرفاً أن الله أمر خير خلقه محمداً، أن يتبعه وأن يكون على ملته ولذلك يجب على كل مسلم أن يكون حنيفاً موحداً لله، وسيأتي قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤] إن شاء الله.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٢، ٢٣]

وهنا ذكر الله تعالى ثماني عشرة وصية جمعت الخير كله، وسماها الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قدم قبلها النهي عن جعل إله مع الله، وأخبر أن من فعل ذلك يكون ﴿مَذْمُومًا﴾ عند الله والناس والمؤمنين، و﴿مَّخْذُولًا﴾ ليس له ولي ولا نصير، وقال آخرها: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] والملوم، الذي يلومه الله تعالى، ويلومه عباده الصالحون، والمدحور: المطرود من رحمة الله، وهذا يدلنا على عظمة التوحيد عند الله، وأن من لم يأت به فهو شقي خاسر لا يقبل الله منه عملاً ولا يرحمه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] والوصايا التي سماها الله الحكمة:

أولها: توحيد الله تعالى.

وثانيها: بر الوالدين.

وثالثها: الإحسان إلى الأقارب.

ورابعها: الإحسان إلى المساكين.

وخامسها: الإحسان إلى ابن السبيل، وهو المسافر المنقطع عن أهله.

وسادسها: ترك التبذير.

وسابعها: القول الميسور للسائلين إذا لم يجد الإنسان ما يعطيهم.

وثامنها: التوسط في الإنفاق.

وتاسعها: ترك قتل الأولاد خوف الفقر، ويقرب من ذلك ما سماه النبي ﷺ

بالوأد الخفي[(١)]، وهو عزل المني عن رحم المرأة حتى لا تحمل، ومثله كل ما يمنع الحمل إلا إذا كان لمصلحة كحفظ الحياة وحفظ الصحة.

وعاشرها: ترك الزنى.

والحادي عشر: ترك قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والقتل بالحق يكون مشروعاً، كالقصاص ورجم الزاني، وقتل من ارتد عن الإسلام، وقتل قطاع الطريق وما أشبه ذلك.

والثاني عشر: أن لا يقرب مال اليتيم إلا بقصد الإصلاح.

الثالث عشر: الإيفاء بالعهد.

الرابع عشر: إيفاء الكيل.

الخامس عشر: إيفاء الوزن.

السادس عشر: أن لا يتكلم الإنسان في الدين إلا بعلم، ومن ذلك يظهر تحريم الإفتاء بالتقليد والتمذهب.

السابع عشر: ترك الخيلاء والكبر.

والثامن عشر: ترك الشرك بالله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]

قال محمد تقي الدين: اختلف السلف في المراد بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]:

فقال ابن مسعود وجماعة: كان المشركون يعبدون جماعة من الجن، فأسلمت الجن ووحدوا الله، وصاروا يبتغون إليه الوسيلة بالعمل الصالح، ولم يشعر بإسلامهم الذين كانوا يعبدونهم من الإنس، واستمروا على عبادتهم،

---

(١) سبق الحديث وتخريجه.

فعاب الله عليهم ذلك[١]، وقال ابن عباس[٢] وجماعة: المراد الملائكة وعيسى، فإن الملائكة وعيسى يعبدون الله ويوحّدونه ويتقربون إليه، والجهال من بني آدم يعبدونهم، حاصله أن المعبودين من دون الله إما أن يكونوا أبراراً أو فجاراً، فالأبرار كالملائكة والأنبياء والصالحين، والفجار: كل من عبد ورضي بذلك من الجن والإنس، ومن عبد غير الله فهو خاسر سواء كان المعبود من الأبرار أم من الفجار.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

[الإسراء: ٦٦، ٦٧]

قال (ﷺ): «يخبر تعالى عن [لطفه بخلقه في][٣] تسخيره لعباده الفُلك في البحر، وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم[٤] ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي:

---

(١) أخرجه بنحوه: البخاري (٤٧١٤، ٤٧١٥)، ومسلم (٣٠٣٠)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٣١ ـ ٣٢)، و«تفسير ابن جرير» (١٤/ ٦٢٧ ـ ٦٣٠).

(٢) لم أجد عن ابن عباس أنه قال المراد بذلك: الملائكة وعيسى معاً وإنما وجدت عن ابن عباس أنه قال: «المراد بذلك: «عيسى وأمه وعزير» أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ٦٣١) وابن وهب في «تفسيره» (٢/ ٢٣، ٢٤) رقم (٣٥، ٣٦) والجمع بينهما معاً ورد عن مجاهد أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ٦٣١) والطحاوي في «المشكل» (٦/ ١١٧) وغيرهما، وهو في «تفسير مجاهد» (١/ ٣٦٤).

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنه إذا مس الناس».

ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حيث فتح مكة، فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد[1] فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فحسن[2] إسلامه رضي الله عنه[3] وأرضاه، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي: سجيته هذا ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: ومن ذلك تعلم أن جاهلية زماننا أعظم بكثير من الجاهلية الأولى، الذين دعاهم رسول الله ﷺ وقاتلهم، والدليل على ذلك أن المشركين في ذلك الزمان يوحّدون الله في الشدة، ويشركون في الرخاء، أما مشركو هذا الزمان، فإنهم يشركون في الشدة أكثر مما يشركون في الرخاء.اهـ.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يديه».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فأسلم وحسن».
(٣) أخرجه الدارقطني (٣/ ٥٩ و٤/ ١٦٧ ـ ١٦٨)، والحاكم (٢/ ٥٤ و٣/ ٤٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٥٩ ـ ٦٠)، من طريق أحمد بن المفضل عن أسباط بن نصر الهمداني قال: زعم السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه وذكره، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وانظر: «إتحاف المهرة» (٥/ رقم ٥٠٨٢) وعزاه ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩) لابن مردويه أيضاً.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٤٢ ـ ٤٣).

الموضوعات والمحتويات

الموضوع	الصفحة
قالوا عن الكتاب	٥
قالوا عن المؤلف	٦
مقدمة المحقق	٧
صحة نسبة كتاب «سبيل الرشاد» لمؤلفه ومدحه وثناء العلماء عليه	٩
«سبيل الرشاد» أحب كتب الهلالي إليه	١٠
تأريخ تأليف الكتاب ومدة تأليفه	١١
أقسام الكتاب الثلاثة	١٢
هل تم تأليف الكتاب؟	١٣
طريقة تأليف الكتاب ومصادره فيه	١٥
اعتناء العلامة الهلالي بـ«تفسير ابن كثير» (ت)	١٥
مصادره في التفسير	١٧
مصادره في الحديث والتراجم والتاريخ	١٨
مصادره في الفقه وأصوله	١٩
أمر الملك الحسن الثاني بطبع كتاب «الصوارم والأسنة في الذب عن السنة» للمرة الثانية	٢٠
كتب اللغة	٢٢
كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم	٢٢
كتب التوحيد	٢٢
الغرض من تأليف الكتاب ومنهجه فيه	٢٤
حرص الهلالي على التوحيد	٢٦
قصة واقعية حكاها الهلالي عن نفسه، ووصيته بالرفق والحكمة في الدعوة	٢٨
نشأة الطريقة التيجانية ومؤسسها (ت)	٣١
مناظرة العلامة الهلالي مع الشيخ محمد بن العربي العلوي ورجوع الهلالي عن طريقته الصوفية إلى السلفية	٣٣
قصيدة للهلالي فيها تصريح بعداوته للطرقيين	٤٠
شكواه من مظاهر الكفر والشرك	٤٤
مظهر شركي يعرف بـ«قرعة الأنبياء» وآخر بـ«الخط بالرمل» وفضح الهلالي لأصحابهما	٤٨

الموضوع	الصفحة

قصة الشجرة التي كانت تعبد في زمن أبي شامة ٤٩
قصص واقعية حصلت مع العلامة الهلالي في مظاهر شركية مختلفة ٤٩
حرص الهلالي على الاتباع ونبذه الفرقة والتحزُّب والتعصب والتمذهب ٥٣
أسلوب المؤلف في الكتاب، ومادته وموضوعه وردّه على الأخطاء والبواطيل والخرافات والشرك ٥٦
تنبيهات العلامة الهلالي على أخطاء لغوية اشتهرت بين الناس ٥٧
تقويمه للشعر ٥٨
تقويمه لقصيدة «البردة» ٥٩
نقل العلامة الهلالي الشعر الذي ينصر عقيدة أهل السنة، وعنون عليه بـ«جيوش الشعر» ٦١
محاربة العلامة الهلالي للخرافات ٦٤
دفاعه عن دعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ٦٥
قصيدة للهلالي في دفاعه عن الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ٦٦
محاربته للتعصب المذهبي ٦٦
محاربته للقوميات الشعوبية ٦٨
طرف من سيرة بوذا ٦٩
تحذيره من أخطاء التبليغيين (الإلياسيين) ٧٠
ذكر ما حصل للنبي ﷺ في غزوة أُحد ٧١
حديث: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول» ٧٢
جماعة التبليغ وآثارهم السيئة ٧٣
ادعاء التبليغيين بأن الهلالي مسيحي!! ٧٤
أصناف الذين يريدون إطفاء نور الله ٧٤
قوة الدولة ـ اقتصادياً ـ التي لا تتعامل مع الربا ٧٤
موقف الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ من جماعة التبليغ (ت) ٧٤
العدل سبب ترقي الأمم وغلبتها ٧٦
مواد مستغربة ومستملحة ٧٧
قصة الطفلة التي تحفظ كتاب الله ٧٧
الأصل المعتمد في التحقيق وعملي فيه ٧٩
عملي في الكتاب ٨٠
تنويه وتقريظ ٨٣
نبذة من ترجمة المؤلف ٨٩
مصادر ترجمة العلامة الهلالي رَحِمَهُ اللهُ (ت) ٨٩
ترجمة ذاتية للهلالي بخطه (ت) ٩١

الموضوع | الصفحة

نسبه ٩٢
نشأته ٩٢
دراسته ٩٣
مؤلفاته ٩٧
وفاة الهلالي ورثاء العلماء له ١٠٤
عالم مجتهد، ومحدث حافظ ١٠٧
جهاده في سبيل الدعوة ١٠٨
زياراته ورحلاته العلمية ١١٠
عوده إلى بلده (المغرب) بعد غيبة طويلة ١١٣
رثاه جمع من تلاميذه ١١٦
تعريف عام بكتاب «سبيل الرشاد» بقلم تلميذه وشيخنا في الإجازة العلامة محمد بو خبزة حفظه الله ١٢٣
نموذج من هذا التفسير ١٢٤
مقدمة المؤلف ١٣١
مقدمة (القسم الأول) من «سبيل الرشاد» ١٣٢
نقل العلامة الهلالي من «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» لشيخنا محمد نسيب الرفاعي رحمهما الله تعالى (ت) ١٣٢
نقدات العلامة الهلالي على مطبوع «تفسير ابن كثير» (ت) ١٣٢

سورة الفاتحة

• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ١٣٥
حديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» ١٣٧
حديث: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي...» إلى آخره ١٣٧
فوائد من كلام المؤلف ١٣٨
• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ ١٣٩
حديث: «المغضوب عليهم: اليهود» ١٤٠
حديث: «الضالون: النصارى» ١٤١
زيادة بيان من كلام المؤلف ١٤١

سورة البقرة

• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ١٤٣
حديث: «أجعلتني لله نداً» ١٤٥
حديث: «من حلف فليحلف برب الكعبة» ١٤٥

الموضوع | الصفحة

حديث: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان» ١٤٥
حديث رؤيا طفيل بن سخبرة ١٤٥
حديث: «أي الذنب أعظم» ١٤٦
زيادة بيان من كلام المؤلف ١٤٧
• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ... ١٤٨
فائدة: تجلي البرهان بعموم رسالة النبي ﷺ (ت) ١٤٨
البشارة بنبينا محمد ﷺ في الكتب السابقة ١٤٩
زيادة بيان من كلام المؤلف ١٥١
ترجمة ابن رَبَّن النصراني الذي أسلم، والعناية بضبطه ووقوعه محرفاً (ت) ١٥٣
• **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ ١٥٤
تعليق جميل ومتين لابن ربَّنٍ على (نبؤة حبقوق)، وكلام بنحوه لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت) ١٥٤
• **الباب الرابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ ١٥٥
• **الباب الخامس**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ . ١٥٦
حديث: «أي الأعمال أفضل» ١٥٧
حديث: «يا رسول الله من أبر؟» ١٥٧
حديث: «لا تحتقرنّ من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» ١٥٨
قصة عبد الله بن سلام مع رأس الجالوت ١٦١
زيادة بيان من كلام المؤلف ١٦٢
• **الباب السادس**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ ١٦٣
زيادة بيان من كلام المؤلف ١٦٣
تحير المؤلف في تفسير هذه الآية ١٦٤
حكاية هاروت وماروت، والدليل على بطلانها ١٦٥
خاتمة هذا البحث: في حكم السحر من «تيسير العزيز الحميد» ١٧١
بيان شيء من أنواع السحر ١٧٣
لا يشترط في أولياء الله أن تقع لهم خوارق ١٧٤
أولياء الله هم المتّبعون لرسوله ١٧٤
تذييل مهم في أنواع السحر (ت) ١٧٥
فصل في أنواع أخرى من هذا القبيل ١٧٦
حديث: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت» ١٧٦
بيان ما يسمى بعلم الرمل وكيف يخدع الرمال الناس ١٧٧

الموضوع | الصفحة

حديث: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر» ١٨١
حديث: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر» ١٨٢
شرح قول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً» ١٨٣
جمع المؤلف بين: «إن من البيان لسحراً» وبين النهي عن السحر ١٨٤
• **الباب السابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ ١٨٤
حديث: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» ١٨٦
زيادة بيان من كلام المؤلف ١٨٧
حديث: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» ١٨٧
ظهور اتباع طوائف الضلال في هذا الزمان لسنن اليهود والنصارى ١٨٧
• **الباب الثامن**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ ١٨٨
حديث: «كذبني ابن آدم» ١٨٩
حديث: «لا أحد أصبر على أذى» ١٨٩
زيادة بيان من كلام المؤلف ١٩١
• **الباب التاسع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ١٩١
زيادة بيان من كلام المؤلف ١٩٢
• **الباب العاشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ .. ١٩٣
زيادة بيان من كلام المؤلف ١٩٣
• **الباب الحادي عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ١٩٤
حديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات» ١٩٧
إفاضة وإضافة (ت) ١٩٨
زيادة بيان من كلام المؤلف ١٩٩
• **الباب الثاني عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ ... ٢٠٠
(ومضة): هذه الدعوى التي ادعاها أولئك لم تزل دعواهم إلى يومنا هذا (ت) . ٢٠١
زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٠٢
حديث: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» ٢٠٢
زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٠٣
إشارات لطيفة في هذه الآية والتي قبلها (ت) ٢٠٣
• **الباب الثالث عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾ ٢٠٦
حديث: «من ذكرني في ملأ» ٢٠٧
حديث: «يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك...» ٢٠٧
زيادة بيان من المؤلف ٢٠٧

الموضوع	الصفحة
• الباب الرابع عشر: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾	٢٠٨
زيادة بيان من كلام المؤلف	٢١٠
حديث: «أي الذنب أعظم»	٢١٠
فوائد من كلام المؤلف	٢١٢
• الباب الخامس عشر: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾	٢١٣
حديث: «اربعوا على أنفسكم»	٢١٣
حديث: «أنا عند ظن عبدي بي»	٢١٤
حديث: «أنا مع عبدي»	٢١٤
حديث: «ما من مسلم يدعو الله ﷻ بدعوة ليس فيها إثم»	٢١٤
حديث: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجِّل»	٢١٥
حديث: «القلوب أوعية»	٢١٥
حديث: «يا ابن آدم واحدة لك وواحدة لي»	٢١٥
حديث: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة»	٢١٥
حديث: «ثلاثة لا ترد دعوتهم»	٢١٦
زيادة بيان من كلام المؤلف	٢١٦
• الباب السادس عشر: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾	٢١٧
حديث: «نتزوج نساء أهل الكتاب»	٢١٨
حديث: «لا تنكحوا النساء لحسنهن»	٢١٩
حديث: «تنكح المرأة لأربع»	٢١٩
حديث: «الدنيا متاع»	٢١٩
زيادة بيان من كلام المؤلف	٢١٩
• الباب السابع عشر: تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾	٢٢٠
حديث: «أي آية في كتاب الله أعظم؟»	٢٢١
حديث أبي هريرة مع الشيطان	٢٢٢
صيغة الجزم وصيغة التمريض	٢٢٣
آية الكرسي تشتمل على اسم الله الأعظم	٢٢٣
حديث: «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة»	٢٢٣
حديث: «قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات»	٢٢٤
حديث: «آتي تحت العرش»	٢٢٤
زيادة بيان من كلام المؤلف	٢٢٥
حديث: «أسلم وإن كنت كارهاً»	٢٢٨
زيادة بيان من كلام المؤلف	٢٢٨

الموضوع | الصفحة

رؤيا عبد الله بن سلام في العروة الوثقى ٢٢٩
فوائد هذا الباب ٢٣٢
الظلم نوعان ٢٣٢
الكلام في قطب الجهال ٢٣٣
تفصيل بديع لابن القيم في الشفاعة (ت) ٢٣٣
مقارنة ابن القيم بين مشركي القبور وعابدي الأصنام (ت) ٢٣٤
فائدة حول: «عجب ربك من قوم يقادون...» ٢٣٦
المسلمون في هذا الزمان أكبر مانع لغيرهم من الدخول في الإسلام ٢٣٦
ترجمة للعلامة المصلح السلفي عبد الكريم الصاعقة (ت) ٢٣٦
معنى الولي والشريعة والحقيقة عند الجهال ٢٣٧
تعلق بعض الجهلة بقصة موسى مع الخضر وبيان ضلالهم مفصلاً (ت) ٢٣٧
كلام الجنيد في التصوف ٢٤٢
تقسيم الأولياء عندهم إلى مجذوب وسالك ٢٤٣
حكاية مجذوب مع مجذوبة ٢٤٣
- **الباب الثامن عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ ٢٤٤
زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٤٥
حديث من تصدق على زانية وغني وسارق ٢٤٥
زعمهم أن الشيخ يتصرف في قلب مريده ٢٤٦

سورة آل عمران

- **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ٢٤٧
زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٤٩
- **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ٢٤٩
فوائد من كلام المؤلف ٢٥٢
- **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ ٢٥٣
سبب نزول المباهلة ٢٥٤
ذكر وفد نصارى نجران على النبي ﷺ ٢٥٤
ذكر محاجة وفد نجران للنبي ﷺ ٢٥٥
حديث: «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» ٢٥٧
زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٥٨
فوائد من كلام المؤلف ٢٦٠
فائدة في المباهلة ٢٦٠

الموضوع | الصفحة

فائدة في دخول الكافر المسجد ٢٦٠
احتجاج وفد نجران على التثليث ٢٦١
فائدة في معنى الرب ٢٦١
• **الباب الرابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ٢٦٣
حديث: «لكل نبي ولاية» ٢٦٥
• **الباب الخامس**: تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ﴾ ٢٦٥
حديث جواب النبي ﷺ لليهود والنصارى ٢٦٥
بيان معنى الرباني ٢٦٨
فوائد من كلام المؤلف ٢٦٩
مدح العلامة الهلالي للعلامة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت) ٢٦٩
قصيدة للهلالي في مدح العلامة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت) ٢٦٩
• **الباب السادس**: تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ ٢٧٢
حديث: «تجيء الأعمال يوم القيامة» ٢٧٣
فائدة من كلام المؤلف ٢٧٣
• **الباب السابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ٢٧٤
زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٧٤
• **الباب الثامن**: تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ٢٧٥
حديث: «من أحب أن يزحزح عن النار» ٢٧٥
فائدتان من كلام المؤلف ٢٧٦

سورة النساء

• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ ٢٧٧
حديث: «أتدري ما حق الله على العباد» ٢٧٧
حديث: «ما زال جبريل يوصيني بالجار» ٢٧٨
حديث: «خير الأصحاب عند الله» ٢٧٨
حديث: «لأن يزني الزاني بعشر نسوة» ٢٧٩
حديث: «الجيران ثلاثة» ٢٧٩
حديث عائشة: «إن لي جارين» ٢٨٠
• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ ٢٨١
ملاحظة من المؤلف حول طبعة «تفسير ابن كثير» ٢٨١
حديث: «الدواوين ثلاثة» ٢٨٢
حديث: «الظلم ثلاثة» ٢٨٢

الموضوع | الصفحة

(ملاحظة) حول طبعة مكتبة أولاد الشيخ لـ «تفسير ابن كثير» (ت) ٢٨٢
حديث: «يا عبدي ما دعوتني ورجوتني» ٢٨٣
حديث: «ما من عبد قال لا إله إلا الله» ٢٨٣
زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٨٣
• **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ ٢٨٤
زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٨٥
• **الباب الرابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا﴾ ٢٨٦
حديث: «كيف الفلاح بعد هذه الآية» ٢٨٧
زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٨٧
• **الباب الخامس**: تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ﴾ ٢٨٨
حديث: «لا تطروني» ٢٨٨
حديث: «يا سيدنا وابن سيدنا» ٢٨٩
حديث: «من شهد أن لا إله إلا الله» ٢٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ ٢٩٠
ذكر اجتماع مجمع النصارى بأمر الملك قسطنطين ٢٩١
نبذة عن تاريخ مذاهب النصارى (ت) ٢٩١
خطورة ما يسمى بـ(التقريب بين الأديان) (ت) ٢٩٢
فتوى اللجنة الدائمة في هذه المسألة (ت) ٢٩٢
فوائد من كلام المؤلف ٢٩٣
لماذا سمي عيسى كلمة الله أو روح الله؟ ٢٩٤

سورة المائدة

• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ ٢٩٥
معنى نسبة الأبناء إلى الله عند اليهود والنصارى ٢٩٦
زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٩٦
• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ . ٢٩٧
قصة عمر مع أبي موسى الأشعري ٢٩٨
حديث أبي ذر: «أمرني رسول الله ﷺ بسبع» ٣٠١
حديث: «لا يمنعن أحدكم رهبة الناس» ٣٠١
حديث: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة» ٣٠١
حديث: «ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» ٣٠١

الموضوع | الصفحة

زيادة بيان من كلام المؤلف ٣٠٢
نظرة وبحث فيما تقدم نقله ٣٠٤
• الباب الثالث: درجات تغيير المنكر وإن أيس الآمر من كف فاعل المنكر
والحكمة في الأمر والنهي (ت) ٣٠٤
تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ .. ٣٠٦
مفهوم: الأقانيم الثلاثة ٣٠٨
نقل المؤلف البراهين من الأناجيل ٣١٠
تعلم العلامة الهلالي الإنجليزية من إرسالية تبشيرية وحواره مع قسيس (ت) ٣١١
• الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ ٣١٢
حديث: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار» ٣١٣
زيادة بيان من كلام المؤلف ٣١٤
ترجمة للشيخ محمد سيدي حبيب الله الشنقيطي (شيخ الهلالي) (ت) ٣١٤
عبادة الحيوان الأعجم ٣١٥
بقر فيها البركة وعجل السيد!! ٣١٥
قصة ذكرها الشعراني في «الطبقات الكبرى» ٣١٦
الاحتفال بضريح البدوي ٣١٥
اهتداء أهل الريرمون إلى التوحيد بدعوة المؤلف ٣١٦
قصة عبادة حمار وحكاية عبادة قبر ٣١٧
قصة عبادة أتان ٣١٧
قصة عبادة صخرة اسمها سيدي ميمون ٣١٨
عبادة بئر ٣١٨
• الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾ ٣١٨
زيادة بيان من كلام المؤلف، واختلاف نسخ «تفسير ابن كثير» ٣١٩
التوفِّي لا يدل دائماً على الموت ٣٢٠

سورة الأنعام

• الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ٣٢٢
دعاء النبي ﷺ بعد الأكل ٣٢٣
حديث: «بلغوا عن الله»، ووجوب الدعوة على الجميع ٣٢٤
فوائد من كلام المؤلف ٣٢٥
• الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ٣٢٦
• الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ ٣٢٧

الموضوع | الصفحة

فائدة من كلام المؤلف ٣٢٨
ثلاث قصص وقعت للمؤلف ٣٢٨
• **الباب الرابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ ٣٢٩
فائدتان من كلام المؤلف ٣٣٠
• **الباب الخامس**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ٣٣١
فائدة من كلام المؤلف ٣٣١
تحذير من كتب النبهاني، منها «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق» (ت) .. ٣٣٢
فائدة أخرى من كلام المؤلف في الفرق بين الشفاعة الشرعية والشفاعة الشركية . ٣٣٣
• **الباب السادس**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ﴾ ٣٣٤
تأسف المؤلف على خيانة ناشري الكتب الدينية والعلمية ٣٣٥
كلمة عن طبعات «تفسير ابن كثير» (ت) ٣٣٥
ما لقيه النبي ﷺ من المشقة يوم العقبة ٣٣٧
فائدة من كلام المؤلف ٣٣٨
حكم ادعاء علم الغيب (ت) ٣٣٨
• **الباب السابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ ٣٣٩
زيادة بيان من كلام المؤلف ٣٤٠
• **الباب الثامن**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ ٣٤١
زيادة بيان من كلام المؤلف ٣٤٢
إبراهيم كان مناظراً لقومه مبيناً لهم ضلالهم ٣٤٤
زيادة بيان من المؤلف ٣٤٥
• **الباب التاسع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ ٣٤٦
فوائد من كلام المؤلف ٣٤٩
قصة للمؤلف مناسبة للمقام في شأن الشيخ السعيدي ٣٥٠
• **الباب العاشر**: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ٣٥٠
الدليل على أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ ٣٥٢
الفرق بين الوقف على الذرية والوقف على أبناء الصلب ٣٥٣
فوائد من كلام المؤلف ٣٥٤
• **الباب الحادي عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ ٣٥٤
حديث: «يقول ابن آدم: مالي مالي» ٣٥٥
فائدة من كلام المؤلف ٣٥٦
• **الباب الثاني عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ ٣٥٧
حديث: «إذا حدثتكم عن الله فخذوا به» ٣٦١

الموضوع | الصفحة

فائدة من كلام المؤلف ٣٥٩
• **الباب الثالث عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ٣٦٠
فصل من كلام المؤلف ٣٦١
وجوب اتباع الوحي على النبي ﷺ على جميع أمته ٣٦١
التمسك بأنواع التوحيد الأربعة فرض على كل مسلم ٣٦١
• **الباب الرابع عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ٣٦١
اختلاف العلماء في أكل لحم متروك التسمية ٣٦٢
حديث: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله» ٣٦٢
المراد بالوحي الذي ينزل على المختار بن أبي عبيد ٣٦٥
زيادة بيان من المؤلف ٣٦٥
اعتراض اليهود على النبي ﷺ وجوابه لهم ٣٦٦
فصل من كلام المؤلف ٣٦٧
• **الباب الخامس عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ٣٦٧
كلام حسن للمؤلف في الرد على المشركين ٣٦٨
• **الباب السادس عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ٣٦٩
حديث ابن مسعود من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ٣٦٩
أثر ابن عباس: «في الأنعام عشر آيات» ٣٦٩
حديث أبي ذر: «من مات لا يشرك بالله شيئاً» ٣٧٠
الحديث القدسي: «لو أتيتني بقراب الأرض خطايا» ٣٧١
حديث ابن مسعود: «أي الأعمال أفضل» ٣٧٢
حديث أبي الدرداء: «أطع والديك» ٣٧٢
حديث عبد الله بن مسعود: «أي الذنب أعظم» ٣٧٣
حديث ابن مسعود: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش» ٣٧٣
حديث سعد بن عبادة: «لو رأيت مع امرأتي رجلاً» ٣٧٣
حديث: «لا يحل دم امرئ مسلم» ٣٧٤
زيادة بيان من كلام المؤلف قتل النطف يؤول بصاحبه إلى شر ٣٧٤
اشتملت هذه الآية على خمس وصايا ٣٧٤
حديث: «العزل هو الموؤودة الصغرى» ٣٧٥
تشجيع حكومة هتلر للتناسل ٣٧٥
إجبار حكومة هتلر الغرباء الذين ليسوا جرمانيين ولا أوربيين في جرمانية على الاختصاء ٣٧٥
• **الباب السابع عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ٣٧٦

الموضوع ... الصفحة

ما يقال في الصباح ... ٣٧٧
حديث أحب الأديان إلى الله ... ٣٧٧
حديث نظر عائشة إلى زفن الحبشة ... ٣٧٧
حديث: «لتعلم اليهود أن في ديننا فسحة» ... ٣٧٧
ما قاله النبي ﷺ عند ذبح الأضحية ... ٣٧٨
حديث: «نحن معاشر الأنبياء أبناء علات» ... ٣٧٩
دعاء النبي في استفتاح الصلاة ... ٣٧٩
فائدة من كلام المؤلف ... ٣٨١

سورة الأعراف

• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ ... ٣٨٢
شروط قبول العمل ... ٣٨٢
حديث: «أيها الناس إنكم تحشرون» ... ٣٨٢
زيادة بيان من كلام المؤلف ... ٣٨٢
حديث: «يا عبادي كلكم ضال» ... ٣٨٣
• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ... ٣٨٣
زيادة بيان من كلام المؤلف ... ٣٨٤
أبيات ابن عبد البر في ذم التقليد ... ٣٨٥
• **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ... ٣٨٥
أهمية كتاب «إعلام الموقعين» وتحريره مبحث القياس (ت) ... ٣٨٥
فصل من كلام المؤلف، فيه فائدتان في هذا الباب ... ٣٨٦
• **الباب الرابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ... ٣٨٧
(**إيضاح**): كل أمة استولى عليها الجهل بالله... تبغض دعاة الحق ... ٣٨٩
حجة المشركين والمبتدعين الباطلة ... ٣٩٠
قصيدة عمران اللنجي ... ٣٩٠
ترجمة للشيخ عمران اللَّنجي (ت) ... ٣٩٠
مناقشة المتمذهبين ... ٣٩١
• **الباب الخامس**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ... ٣٩١
قصة ناقة قوم صالح ... ٣٩٢
زيادة بيان من كلام المؤلف ... ٣٩٤
بيان المقصود من العرب العاربة ... ٣٩٤
التوحيد أصل الدين وأساسه ... ٣٩٤

الموضوع	الصفحة

حديث: «لعن الله اليهود والنصارى» ٣٩٥
حديث: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد» ٣٩٥
• **الباب السادس**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ٣٩٥
فصل من كلام المؤلف: من حقق توحيد الله بأن أفرده بالعبادة ٣٩٩
حديث: «من غشنا فليس منا» ٣٩٩
حديث الغامدية ٤٠٠
فصل: قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ٤٠٠
فصل: قوله: في توعدهم إياه بالنفي ومن معه ٤٠١
تسمية المشركين والمبتدعين الموحدين «وهابية» وجوابهم ٤٠٠
لقاء المؤلف لحبيب الله بن مايابا ٤٠١
ترجمة للعلامة السلفي المصلح أحمد السركتي (ت) ٤٠١
المناظرة التي حصلت بين الهلالي والشيخ حبيب الله بن مايابا الجكني (ت) ... ٤٠٢
• **الباب السابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ ٤٠٥
• **الباب الثامن**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ ٤٠٦
نقل كلام من كتاب «تيسير العزيز الحميد» حول التبرك بالشجر والحجر ٤٠٧
حديث أبي واقد الليثي: «يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط» ٤٠٧
كلام الطرطوشي في النهي عن التبرك بالأشجار ٤١٠
حكايات في عبادة الأشجار والمياه ٤١٠
الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثاناً تعبد من دون الله ٤١١
حديث: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد» ٤١٢
أثر ابن مسعود: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة» ٤١٣
المنع من الصلاة والدعاء عند قبور الصالحين ٤١٤
قطع عمر شجرة بيعة الرضوان ٤١٤
تعمية قبر دانيال عليه السلام ٤١٥
لا يجوز تحري نوع من العبادة في المواضع التي كان فيها الأنبياء والصالحون ... ٤١٦
كراهية قولهم: زرت قبر النبي ﷺ ٤١٦
معنى اللات ٤١٧
سبب اختلاف العلماء في تأريخ مولد ابن جرير (ت) ٤١٧
تناقض عباد القبور في ادعائهم حب الصالحين ومخالفتهم لطرقهم ٤١٨
حكم زيارة القبور للنساء ٤١٩
دخول النساء في خطاب الرجال والأدلة عليه (ت) ٤٢٠
• **الباب التاسع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ﴾ ٤٢١

الموضوع | الصفحة

قول السلف: كل صاحب بدعة ذليل ٤٢٤
فصل: كل من عبد غير الله فهو من الذين لا يعقلون ٤٢٤
فصل: استدل بهذا السلف على ضلال من ينكر كلام الله ٤٢٥
فصل: في قول ابن كثير: «وهذا دلالة على ما جاء في الحديث: «ليس الخبر...» ٤٢٥
حديث: «ليس الخبر كالمعاينة» .... ٤٢٥، ٤٢٦
قال محمد تقي الدين: تضمن هذا الحديث أمرين ٤٢٦
- **الباب العاشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ٤٢٧
حديث: «كل مولود يولد على الفطرة» ٤٢٧
- **الباب الحادي عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ ٤٢٩
زيادة بيان من كلام المؤلف ٤٣٠
بسط الكلام في أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ٤٣٠
التزوج أعظم ألفة بين الزوجين ٤٣٣
بيان نكرة قصة حواء مع إبليس بتسمية ابنها عبد الحارث، والكلام المفصل عليها (ت) ٤٣٤
بين ابن تيمية وصلاح الدين الصفدي فيما يخص هذه القصة (ت) ٤٣٧
الخلاصة في هذه القصة (ت) ٤٤٠
فصل من كلام المؤلف: قول ابن كثير: «وهي جماد لا تسمع ولا تبصر» ٤٤٢
- **الباب الثاني عشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ٤٤٣
فصل من كلام المؤلف في عجز الأوثان عن الدفاع عن نفسها ٤٤٤
قصة مشاورة النبي ﷺ أصحابه في أسرى بدر ٤٤٥

سورة الأنفال

- **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ ٤٤٥
زيادة بيان من كلام المؤلف ٤٤٦
بماذا ينتصر المسلمون؟ ٤٤٧
- **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ٤٤٧
فصلان من كلام المؤلف ٤٤٩

سورة التوبة

- **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ ٤٥١
تعيين الأشهر الحرم ٤٥٤
فصل من كلام المؤلف ٤٥٧

الموضوع | الصفحة

• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ ٤٥٨
إشارة إلى معاهدة الحديبية ٤٥٨
قصة رسول مسيلمة الكذاب إلى النبي ﷺ ٤٥٩
حديث: «من فارق الدنيا وهو لا يشرك بالله شيئاً» ٤٦١
فصل: من زعم من المعتزلة والخوارج أن القرآن ليس كلام الله ٤٦٢
• **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ ٤٦٢
حديث: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد» ٤٦٣
فصل: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ دليل على أن كل مسجد ٤٦٤
حديث عبد الله بن مسعود مع المبتدعين في مسجد الكوفة ٤٦٥
حديث النفر الذين سألوا أزواج النبي ﷺ ٤٦٧
قراءة المغاربة الحزب ٤٦٧
حكاية للعالم السلفي عبد الله السنوسي ٤٦٩
ما يقال عند دخول بلد من البلدان ٤٦٩
استغاثة بعض المشركين بإدريس الأكبر ٤٧٠
ذكر الملك محمد بن يوسف بن الحسن وولي عهده وما جرى بينهما وبين المستعمرين ٤٧٠
• **الباب الرابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ٤٧٣
زيادة بيان من كلام المؤلف ٤٧٣
فصل: نجاسة المشركين معنوية ٤٧٥
• **الباب الخامس**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ٤٧٦
إسلام عدي بن حاتم وبيان شرك المقلدين ٤٧٧
حديث: «إن الله زوى لي الأرض» ٤٧٩
فصل من كلام المؤلف: انظر إلى كرم النبي ﷺ ورحمته ٤٧٩
بيان معنى الأوثان والوثن المعنوي ٤٨٠
البحث في أكل لحوم السباع وبراءة مالك من تحليلها والأدلة على تحريمها ٤٨٠
• **الباب السادس**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ ٤٨٣
فصل من كلام المؤلف: جاء في الحديث: «العلماء ورثة الأنبياء» ٤٨٣
ما يقع بين ورثة الأنبياء وأعدائهم ٤٨٤
• **الباب السابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ٤٨٤
قصة وفاة أبي طالب ٤٨٥
حديث: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» ٤٨٥
فصل من كلام المؤلف: بعث الله نبيه ورسوله رحمة للعالمين ٤٨٨

الموضوع	الصفحة

الآثار التي وردت في أبي طالب وأبوي النبي ﷺ ٤٨٩
أحاديث في النهي عن الاستغفار لمن مات مشركاً ٤٩٠
زيادة بيان من كلام المؤلف ٤٩١
فصل: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ من آيات توحيد الربوبية ٤٩٢
سبب ذل المسلمين في هذا الزمان ٤٩٢
• **الباب الثامن**: تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ ٤٩٣
صفة العسرة في غزوة تبوك ٤٩٣
قصة كعب بن مالك ٤٩٤
حديث: «عليكم بالصدق» ٥٠٠
أثر ابن مسعود: «الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل» ٥٠٠
فصل من كلام المؤلف: قوله: «أقفلهم من غزوتهم» ٥٠١
معنى التورية، واستخدامها ٥٠١
خطأ شائع باستخدام كلمة «بسيط» (ت) ٥٠٢
بيان وإيضاح من المؤلف: يجب علينا أن نفكر كثيراً في هذا النوع من العقاب . ٥٠٣
حول الهجر والمقاطعة الاقتصادية للأعداء (ت) ٥٠٣
المقاطعة الاقتصادية وفوائدها ومشروعيتها (ت) ٥٠٣
المقاطعة العامة للأعداء من أعظم الجهاد في سبيل الله (ت) ٥٠٤
زيادة بيان من المؤلف ٥٠٥
• **الباب التاسع**: تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ ٥٠٦
حديث: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» ٥٠٦
حديث: «بعثت بالحنيفية السمحة» ٥٠٧
وحديث: «إن الدين يسر» وشريعته كلها سهلة ٥٠٧
حديث: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر» ٥٠٧
حديث: «ما بقي شيء» ٥٠٧
فصل: في هاتين الآيتين أخبرنا الله بأن هذا الرسول من صميم العرب ٥٠٨
سبب شقاء العرب في هذا الزمان واستبدالهم الشريعة المحمدية بغيرها ٥٠٨

سورة يونس

• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ ٥١٠
حديث: «عجباً لأمر المؤمن» ٥١٠
فصل: الذي يظهر لي أن المراد بالإنسان هنا الكافر ٥١١
مشركو هذا الزمان أجهل وأضل من السابقين ٥١١

الموضوع | الصفحة

• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ٥١١
فصل: في هذا الزمان يعبد المشركون الأنبياء ٥١٢
بناؤهم المساجد على القبور ٥١٢
• **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ ٥١٣
حديث: «هل تدرون ماذا قال ربكم» ٥١٣
فصل: إن مشركي هذا الزمان ضربوا بحظ وافر في هذا النوع من الكفر ٥١٣
غلو مشركي هذا الزمان في أوليائهم ٥١٣
• **الباب الرابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ ٥١٤
تبرؤ المعبودين من العابدين ٥١٥
فصل: في هذه الآيات أوضح الأدلة على أن من عبد غير الله... لا يشعر المعبودون بعبادة العابدين ٥١٦
نصيحة للمشركين ٥١٧
• **الباب الخامس**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ٥١٧
حجج الله على المشركين في العبادة المعترفين بتوحيد الربوبية ٥١٧
فصل: ذكر الله في توحيد ربوبيته أموراً ٥١٩
• **الباب السادس**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ٥٢٠
• **الباب السابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ٥٢١
معنى الأولياء في الكتاب والسنة ٥٢١
فصل: المشركون يعبدون أشياء كثيرة ٥٢٣
• **الباب الثامن**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ ٥٢٣
الأدلة على أن دين جميع الأنبياء هو الإسلام ٥٢٤
حديث: «نحن معاشر الأنبياء بنو علات» ٥٢٥
فصل من كلام المؤلف ٥٢٥
فصل: في هذه الآيات فوائد ٥٢٥
تغرير شيوخ الطرائق لأتباعهم ٥٢٦
• **الباب التاسع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ ٥٢٧
فصل: هذا الذي خافه قوم موسىٰ وسأل الله أن يحفظهم منه وقع فيه المدعون للإسلام في هذا الزمان ٥٢٨
• **الباب العاشر**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ ٥٢٨
حديث: «تعرضوا لنفحات الله» ٥٢٩
فصل: يجب على كل داعٍ أن يتأمل هذه الآيات ٥٣٠

الموضوع **الصفحة**

سورة هود

• **الباب الأول:** تفسير قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ٥٣٢
حديث إنذار النبي ﷺ عشيرته الأقربين ٥٣٢
فصل: اختلف العلماء في الحروف التي بدئت بها السور ٥٣٣
• **الباب الثاني:** تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ٥٣٣
فصل: أمر الله سيد الخلق أن يقول مثل هذا الكلام ٥٣٥
• **الباب الثالث:** تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ ٥٣٥
عدم ورود تسمية قابيل وهابيل في الكتاب وصحيح السنة (ت) ٥٣٧
فصل: في هذا الكلام فوائد ٥٣٨
كلام نفيس يبطل اعتماد الجاهلين على النسب ٥٣٩
عصمة نساء الأنبياء من الفاحشة ٥٣٩
• **الباب الرابع:** تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ ٥٤٠
حديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً» ٥٤٠
فصل: أفكار المشركين وأقوالهم متشابهة في كل زمان ٥٤٢
حكاية خرافية شعرانية ٥٤٢
بيان دمج لقصتين ذكرهما الشعراني في «الطبقات الكبرى» (ت) ٥٤٢
في كتاب «الطبقات الكبرى» للشعراني طامات وأوابد (ت) ٥٤٢
• **الباب الخامس:** تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ ٥٤٤
فصل: وهذا بعينه موجود في مشركي هذا الزمان ٥٤٥
• **الباب السادس:** تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ ٥٤٦
فصول أربعة من كلام المؤلف ٥٤٧
حديث: «من غشنا فليس منا» ٥٤٧
شروط الداعي ٥٤٩
• **الباب السابع:** تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ ٥٥٠
فصل من كلام المؤلف يذكر فيه المتعالمون المداهنون ٥٥٠
• **الباب الثامن:** تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ٥٥١
فصل: هذه الآية جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ٥٥٢

سورة يوسف

• **الباب الأول:** تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ ٥٥٣
فصل: قول يوسف: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ٥٥٤
حكاية للمؤلف وقعت له في زمان الطريقة التجانية ٥٥٥

الموضوع | الصفحة

• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ ٥٥٦
فصل من كلام المؤلف: في الإصابة بالعين والوقاية منها ٥٥٧
• **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ ٥٥٨
تلبية المشركين وما يقوله النبي ﷺ ٥٥٩
حديث ابن مسعود: «أي الذنب أعظم» ٥٥٩
قطع حذيفة السير وقوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ ٥٥٩
حديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك» ٥٥٩
حديث: «الرقى والتمائم شرك» ٥٦١
حديث: «الطيرة شرك» ٥٦١
قصة امرأة ابن مسعود مع العجوز التي ترقي من الحمرة ٥٦١
المراد بالشرك في (الحلف بغير الله) (ت) ٥٦١
حديث: «من تعلق شيئاً وكل إليه» ٥٦٢
حديث: «من علق تميمة فقد أشرك» ٥٦٢
حديث: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له» ٥٦٢
حديث: «من كان أشرك في عمل» ٥٦٣
حديث: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» ٥٦٣
حديث: «من ردته الطيرة عن حاجته» ٥٦٣
حديث: «اللهم فاطر السمٰوات والأرض» ٥٦٤
فصل من كلام المؤلف في توضيح غريب الأحاديث ٥٦٥
فصل: في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ٥٦٦
كلمة لابن القيم في هذه الآية (ت) ٥٦٦

سورة الرعد

• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ ٥٦٧
لا يوجد شيء زائد في القرآن (ت) ٥٦٧
فصل من كلام المؤلف: حروب التتار والحروب الصليبية ٥٦٨
كلمة قيمة لابن تيمية في شأن التتار (ت) ٥٦٨
• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ ٥٦٩
مقولة مهمة لبعض السلف: غلطت في أربعة أشياء في الابتداء مع الله ٥٦٩
فصل: ما أبلغ هذه الآية في إبطال الشرك والترغيب عنه ٥٧٢
قصيدة دالية للهلالي، وسبب إنشائها وإعجاب أهل تطوان بها وانتشارها (ت) .. ٥٧٢
• **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ﴾ ٥٧٣

الموضوع **الصفحة**

حديث: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمٰن» ٥٧٤
• **الباب الرابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ٥٧٤
فصل: أمر الله نبيه أن يقول لجميع الناس: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ ٥٧٥

سورة إبراهيم

• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ٥٧٦
فصل: جبلة بن الأيهم كان أميراً لنصارى بني غسان ٥٧٧
فصل: وكذلك رؤساء المشركين في هذا الزمان جعلوا لله أنداداً ٥٧٨
أنداد المشركين في هذا الزمان ٥٧٨
• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ .. ٥٧٩
فصل: إن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ٥٨٠
• **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾ ٥٨١
فصل: والذين يفتون أو يقضون بالتقليد والتمذهب لا يعلمون بمقتضى هذه الآية .. ٥٨١

سورة الحجر

• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ٥٨٢
حديث: «لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار» ٥٨٤
حديث: «صل قائماً» ٥٨٥
فصل: ينبغي للداعي... أن يتلطف بالدعوة ٥٨٥
كفاية الله نبيه المستهزئين وأمثلة على ذلك (ت) ٥٨٦
توضيح المؤلف معاني بعض الأحاديث ٥٨٧
نقل ابن تيمية عن بعضهم قوله: كنا نتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون بالنبي ﷺ (ت) ٥٨٧
كل عالم بمعاني آيات التوحيد يرى المشركين في هذا الزمان يعبدون القبور ... ٥٨٨

سورة النحل

• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ٥٨٩
فصل: جميع الملائكة... نزلوا قبل كل شيء بالتوحيد ٥٩٠
• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ ٥٩٠
فصل: أخبر تعالى أنه يعلم كل شيء سرّاً كان أو جهراً ٥٩١
• **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ٥٩٢
حديث: «ينصب لكل غادر لواء» ٥٩٢
فصل من كلام المؤلف فيه فوائد ٥٩٣

الموضوع	الصفحة
المشركون جاهلون جهلاً مركباً	٥٩٥
الطبيب توما وحماره	٥٩٥
• **الباب الرابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾	٥٩٦
بيان المشيئة الشرعية والكونية	٥٩٧
فصل فيه فوائد	٥٩٧
لماذا عذب الله عمرو بن لحي؟	٥٩٧
• **الباب الخامس**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾	٥٩٩
زيادة بيان من كلام المؤلف	٦٠٠
• **الباب السادس**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾	٦٠١
فصل فيه الفوائد	٦٠٢
زيادة بيان من كلام المؤلف قصة الراعي الجزائري	٦٠٢
• **الباب السابع**: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾	٦٠٣
زيادة بيان من كلام المؤلف	٦٠٤
• **الباب الثامن**: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾	٦٠٤
زيادة بيان من كلام المؤلف	٦٠٥
سورة الإسراء	
• **الباب الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾	٦٠٧
الوصايا التي سماها الله الحكمة	٦٠٧
• **الباب الثاني**: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾	٦٠٨
• **الباب الثالث**: تفسير قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾	٦٠٩
زيادة بيان من كلام المؤلف	٦١٠
* **الموضوعات والمحتويات**	٦١١